

المركز القومي للترجمة

ترحال في صحراء الجزيرة العربية

الجزء الأول - المجلد الثاني

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتي

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/ 879



مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتي " الذي اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم ، حيث عاش في صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة في إقليم القصيم ، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التي قضاها في صحراء الجزيرة العربية أن يأتي بمعلومات وفيرة ومتنوعة في محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها . وليس من شك في أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض في تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكي يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسي . ومع أن رحلة " دوتي " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوروبيين الذين سبقوا " تشارلز دوتي " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع عيشته لهم خلال رحلاته.

ترحال في صحراء الجزيرة العربية
(الجزء الأول - المجلد الثاني)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٧٩ / ٢

- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ٢)

- تشارلز م. دوتى

- صبرى محمد حسن

- جمال زكريا قاسم

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال في صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول – المجلد الثانى)

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج ١ - مج ٢)، تأليف:
تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة
وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط ٢ - القاهرة، المركز القومى
للترجمة، ٢٠٠٩

٤٨١ ص؛ ٢٤ سم

١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات

٢- الرحلات العلمية

٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات

أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)

ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)

ج- العنوان

٩١٥،٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٤

التقييم الدولى: 2 - 189 - 479 - 977 - 978

طبع بمطابع صحوة

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

- الفصل الحادى عشر : الفكرة يتجولون هاربين فى أديرة أخرى 7
- الفصل الثانى عشر : السلام فى الصحراء 53
- الفصل الثالث عشر : زيارة المدائن مرة ثانية 93
- الفصل الرابع عشر : التجوال فوق الحرة مع المواهيب 133
- الفصل الخامس عشر : حياة البدو الرحل فى الحرة 173
- الفصل السادس عشر : الأعراب يتركون الحرة وينزلون إلى محطة الصيف
فى وادى تحرية 211
- الفصل السابع عشر : مخيم المواهيب الصيفى فى وادى تحرية 249
- الفصل الثامن عشر : الفكرار يمضون الصيف فى الحجر 283
- الفصل التاسع عشر : تيماء 327
- الفصل العشرون : حصاد التمر 361
- الفصل الحادى والعشرون : الجبل 401
- الفصل الثانى والعشرون : حائل 441

الجزء الأول (المجلد الثانى)

الفصل الحادى عشر

الفكارة يتجولون هارين فى أديرة أخرى

البدو يخيمون فى الليل بلا خيام . أطفال عمراة فى البرد . مسيرة إجبارية . لا يسأمون ركوب الجمال . جبل بيرد . عظمة غروب الشمس وجلاله فى الصحراء . جفاف ضروع ماشية الألبان بعد الرحلات الطويلة . التخيم داخل حدود البشر . ضياع صبى من الرعاة . نبات كف مرحاب . التثقل والتخيم . بعض بقايا الاحتلال القديم . الركائز الحجرية فى الصحراء الخالية . دروب الماشية العامة . زياره تمثال أبى زيد . مخلوقات الصحراء . البومة كانت زوجة بدوية مترحلة تبحث عن طفلها الضائع . فطور من الطرخشقون . رعاة كرماء . أبو زيد وزوجته عليّة . اكتشاف 'ماء الصخرة' . نبات الثثان أو عنب الثعلب . صبيان الرعى . أقراس الشيوخ . قُبَيْل المطر . خيم البدو فى النفود . رمال سبر الغور . 'قهوة النصارى' . لو يصبح الشاى نبيذاً . دعوه حرفة لشرب الشاى . الفرس التى تُرضع غير مُهرها . الخيول العربية لطيفة مثل العائلة البدوية المترحلة . حدوات الخيول . قتل الفرس رميا بالرصاص . زيد يقوم بدور الصلوى . ينظرون إلى الكتابة بإعجاب فريد . التجار البدو يأتون من الجوف . البدو يسأمون حياة الحاجة والعوز فى الصحراء . حزن البدو وغمهم . الرجال والنساء مغرمون بالتبغ . بائع دُخَان (تبغ) . ابتزازة الدفين يثير غضب زيد . 'الرجل يجب ألا يدخن التبغ لثلاثة أشياء' (كلمات أحد البدو الذى يؤدى خدمات عامة) . القبيلة مقسمة إلى معسكرين . نبات السمع . الخبز البرى فى البرية . النصرائى يتعرض لخطر حية . 'قرأء' العزائم (السحرية) . رباط الأوعية الدموية غير معروف . يبحث عن الطب ذلك الذى يشفى الجرح السام الناتج عن عض الحية . أحجار الدم ، أحجار الثعابين ،

الأحجار الكريمة . عيال عم . "أنا الرب ربك" . النزاعات فيما بينهم . حكومة شيوخ البدو الرجل الحكيم (الرشيدة) . إصابة قبلى بجرح فى نزاع . هل الفهجات هم يهود خيبر ؟ امرأة شقراء . منفيو شيوخ العلايدة . قلقليون غير الأشقاء أو المولدين . مرح المساء حول نار الخيمة . البعض يتعلمون كلمات انجليزيه . زيد على استعداد أن يعطى واحدة من زيجاته لأخيه النصرانى عن طريق الزواج . الزواج فى الصحراء . البنات الراعيات فى الصحراء . يوم الصحراء حتى المساء . أرض الصحراء ذات السهول العالية والممرات الجبلية . متعة الربيع القصيرة فى العام الصحراوى . موسم الحملان . ولادة الإبل . نياق الحليب . حمية الحليب . أنواع الحليب . حامد شيخ الوحوش البرية والسحالى . الجربوع . الويار . الذئب الذى أكله الأعراب ، والضبع . الماعز البرية . الغزال . الوغل . هل الوضيحى هو وحيد القرن ؟ العقارب . الفهد . القط البرى . الصقور الحوامة ، وصقور الشاهين ، والنسور .

* * *

قام الناس هنا بتقويض خيامهم وحزم أمتعتهم قبل أن يناموا نظرا لأنهم فى هذا المنزل يتحتم عليهم أن يبدؤا مسيرتهم قبل طلوع فجر الغد . هذه هى الأسر البدوية تفتش الأرض العراء تحت السماء والنجوم . نائمين إلى جوار أشيائهم المنزلية هى وقرب الماء المليئة التى تُصنعُ من جلود الماعز . كان الليل باردا عند هذا الارتفاع الذى يصل إلى ما يقرب من ٣٦٠٠ قدم . شاهدت البدو الرُحُل وهم متمددين على الرمل ، ملفوفين على عبااءتهم (بشوتهم) : وقلة قليلة منهم هى التى لديها سجاد ينامون عليه ؛ هذا السجاد يطلقون عليه اسم إكيم(*) Ekim ، وهم يصنعونه من قماش صوفى خشن أسود اللون يشبه القماش الذى تصنع منه خيامهم ، وله إطار مرسوم عليه مربعات من الصوف الأبيض الملون ؛ والإكيم Ekim له شراريب وحواف مصبوغة بألوان بهيجة .

فى ذلك الموسم كان الطقس شديد البرودة ، وبخاصة عندما يبدأ الترحال ، أو إن شئت فقل : المسير قبل طلوع الشمس فى الصحراء . أبناء الفقراء ، ليس لديهم عبااءات

(*) إكيم Ekim : من المرجح أن يكون المقصود به ما يعرف عادة باسم الكيم . (المراجع)

يرتدونها ، وهم يسترون أجسامهم الضعيفة النحيلة بمعطف مصنوع من قماش القطن ؛ بل إن هناك بعض الأطفال شبه عارين تماما . كانت درجة الحرارة عند ذلك الوقت حوالى ٤٨ فهرنهايت . ثم أصبحت ٨٦ فهرنهايت عندما طلعت الشمس . كان ترحال البدو أمراً حتمياً ؛ هذه هي قطعان الماشية ، وقطعان الأغنام ، التى يطلقون عليها اسم الطورش et-Tursh تسير على جنب إلى جوارنا من الأمام . وفى وقت الحاجة ، يضحي البدو بالماشية التى تمثل كل ما لديهم من ثروة ، ولكنهم يعتقدون عندما يفعلون ذلك ، أنهم ينقذون أنفسهم وثرواتهم ، حتى وإن اضطروا إلى الإضرار بتلك القطعان ، هذه هي أبقارهم الضخمة التى تشبه الجمال تكد عجولاً كل يوم ومعها صغارها . وتلك هي الطليان (الخراف) الصغيرة وكذلك صغار الحيوانات الأخرى التى جرى فطامها مؤخراً ، وتلك هي الجمال الصغيرة التى لم يمض على ولادتها خمسة أيام ، وتلك أيضاً هي صغار الحيوانات من كلاب الصيد فى المخيم التى سيربونها ، والتى قامت ربات البيوت بوضعها مع أطفالهن فوق إبل الحمل . ونحن نرى كل أم من الأمهات راكبة فوق جمل من الجمال وسط لفافة من قماش الخيام أو السجاد ، ومن حولها أيضاً صغار الحيوانات ؛ هاهى الأمهات تمسك كل واحدة منهن بأطفالها الصغار الجالسين أمامها . والأطفال الصغار ، هم وكبار السن وكذلك المرضى هم ومن يتعين عليهم ملازمة الفراش ، لا تبدو عليهم علامات التعب والإرهاق بالرغم من ركوبهم الإبل ساعات طوال . وأصحاب الأمراض الشديدة بين البدو يركبون الإبل وهم جلوس فى هودج يصنعه البدو من قماش الخيام ؛ أما الآخرون ، من أمثال الرعاة ، فهم يركعون أو يركبون مرتاحين على ظهر الجمل العارى نون أن يخشوا السقوط أو الوقوع على الأرض . ومن أعراف الصحراء أن يترحل البدو وهم صائمون ؛ وأيا كان طول الرحلة ، أو إن شئت فقل ، المسيرة ، فإن العرب لا يأكلون إلا عندما ينزلون من فوق دوابهم فى المنزل المحدد لهم ؛ ومع ذلك فإن الأمهات يسقين أطفالهن ، أو قد يضعن فى أفواههن كسرة من الطعام ، أثناء سيرهن على الطريق الطويل .

وبينما كنا نسير فى تلك الحرارة الخانقة ، شاهدنا أول ما شاهدنا ، فى أفق ما بعد الظهر ، أو إن شئت فقل : العصر، جبل بيرد Birrd العالى الوحيد ، المكون من

الحجر الرملى . وهنا صاح المجاورون لى بلغة تفاهمهم وهم يضحكون قائلين : "شيخ ديرتنا هناك خلف هذه الثلة " . Thulla جبل بيرد هذا يصل ارتفاعه إلى حوالى ٥٠٠٠ قدم . وعن يميننا نرى هنا صفاً من أشجار السنط فى السهل الصحراوى ، الذى يعد علامة من علامات مجرى جاف من مجارى السيول . هذا المجرى يسمونه جو Go ، وهم يقولون : إنه ينحدر مسافة مسير يوم واحد فى اتجاه غربى خيبر Kheybar ، وينتهى هنا فى هذه المنطقة من الصحراء . فى هذا الجزء المرتفع من البلاد ، فيما بين بلدة تيماء وتبوك ومدائن صالح لا يوجد أى وادٍ من الوديان . وهذه هى آثار ذلك المطر القليل الذى قد يسقط خلال العام ، تظهر على شكل رذاذ جرى رشه فوق سطح الرمل ، ويستمر مسيرنا ، خلال شمس شهر مارس التى طلعت على رحلتنا وسطعت فوقنا ، إلى أن غربت خلفنا فى غرفة هائلة من المباحج الشرقية الجميلة ، التى لا تعد أمراً فريداً فى المسيرات القاحلة عبر الجزيرة العربية التى لا تسترها السحب مطلقاً . شاهدنا أمامنا ، من جديد ، ضوء النجوم البارد . قبل أن تنزل الأسر المرهقة عن دوابها ، عند سفح جبل بيرد مع انبلاج الصبح ، الذى سيتعين عليهم الرحيل عنده من جديد ! أثناء هذه الوقفة نصبت الحريم دروة ، يتقين بها ربح الليل ، من قماش الخيام بأن فردنه على حاملين . كان من العبث محاولة الحصول على حليب من ضرورع الحيوانات المرهقة بسبب السير الطويل . فى ذلك اليوم انتقلت القرية البدوية المترحلة مسافة تزيد على أربعين ميلاً ، هؤلاء الرعاة الجائلون ، يلزمون منازلهم ، فى أغلب الأحيان ، ثم يتركون ماشيتهم ترعى ، قبل دخول وقت الظهيرة . - وعلى وجه السرعة ، ومع طلوع نهار اليوم الجديد ، نزلنا من فوق دوابنا ، ونصبنا خيامنا على بعد أميال قليلة خلف ديرة قبيلة بشر Bishr ؛ وهذه المنطقة تبعد مسير ثلاث رحلات عن بلدة حائل(*) ، وتبعد مسير ثلاثه أيام أيضاً عن الدار الحمراء ، ومسير يوم ونصف اليوم عن بلدة تيماء .

(*) بلدة حائل : إحدى المدن المهمة فى جبل شمر وقد اتخذها آل الرشيد عاصمة لإمارتهم . (المراجع)

جاءتني ، في خيمتي امرأة مسكينة تبكي ، وتتوسل إلي أن أبحث لها في كتبى وأتنبأ لها بما حدث لطفلها ؛ كان ذلك الطفل حافى القدمين بصحبة الأغنام ، وضاع من أمه بعد مسيرة الأمس الطويلة . وكان من الصعوبة بمكان إقناع هذه الأم ، وهى فى نوبة الحزن والغضب هذه ، بأن الكتب التى معى ليست من كتب القبالة (*) ، التى يشيع استعمالها عند اليهود . ولم أستطع إقناع هؤلاء العرب غير المبالين ، الذين يقيمون فى المنزل ، التى تقيم فيه هذه المرأة ، بإرسال البعض منهم ، ومعهم والد الطفل للبحث عن ذلك الطفل الضائع ؛ ومن تحركات هؤلاء الناس ، يبدو أنهم لا يعرفون شيئا عن الإحسان ، وإذا ما ضل جمل من أرملة مسكينة لا تجد أحداً لديه أية ذرة من الحنان الإنسانى ، اللهم إلا بعد أن تدفع له مثل هذه الأرملة ريالاً . وأخيراً عثروا على ذلك الصبى الراعى الصغير عند نهاية المخيم ، فى المنطقة الذى نزل فيها أول مرة عند خيمة واحد من أفراد القبيلة .

انتقلنا من تلك المنطقة مسافة صغيرة داخل حدود النفود البيضاء ، وسرنا خلال ذلك الانتقال عبر منطقة رملية وجدناها عامرة بنباتات العام الماضى التى من قبيل 'ورد أريحا' . Jericho ، والبدو يطلقون على هذا النوع من الورد اسم 'كف' (k) ef ch مرحاب . 'Marhab' ومعروف أن كلمة 'كف' Kef عند البدو تعنى 'راحة اليد بعد إغلاق الأصابع فوقها' . ومعروف أن كلمه 'مرحاب' Marhab تعنى عند البدو 'شيخ من شيوخ خيبر اليهود القدامى' (*) . كما عثرنا أيضا على العشب الصغير ، ذى الورقتين الخضراوين اللتين تشبهان القطيفة ، وله مذاق صحى مثل طعم الجرجير ، ويصلح غذاء لماشية البدو . نزل الأعراب بعد ذلك فى أرض غررمل Ghormul المسببة el-Mosubba التى ينصبون فيها خيامهم ؛ هذه الأرض تعرف من مسافة بعيدة ، بواسطة علامة أرضية على شكل مسلة فريدة من الحجر الرملى تشبه برج المراقبة ، يصل ارتفاعها إلى ستين قدما ، ويطلقون عليها اسم 'الطويلان' Towilan . وفى اليوم الثالث

(*) كتب القبالة : وهى الكتب الخاصة بالتصوف عند اليهود وتشتمل على علوم الفلك والتنجيم والأمور الغيبية إلى جانب الشعوذة وغيرها . (المراجع)

غادرنا غرمل Ghormul المُسَبَّة el-Mosubba، أثناء هبوب ريح باردة عاصفة لنصل بعد ذلك الى جبل شيباد : Chebad ومن جبل شيباد انتقلنا إلى تلك المنطقة الوعرة التي يسمونها الجبال . el-Jebal وبعد رحلة أخرى ، نصبنا خيامنا أمام الجزء الرئيسى من جبل إرنان Irnan، فى نجد ، ذلك الجبل الضخم الذى يتكون من الحجر الرملى . ومن خلف هذا الجبل ، تحركنا فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى أن وصلنا إلى ساحل يوبا Ybba مغرير Moghrair؛ واستمر البدو فى التنقل كل يومين أو ثلاثة ، إلى أن قطعوا مسافة سبعة أو ثمانية أميال نزلوا بعدها عن ماشيتهم ونصبوا خيامهم . شاهدت فى أنحاء منطقة الجبال el-Jebal دوائر أخرى من ساريات الأعلام موضوعة عند الحافة كما هو الحال فى ساريات الأعلام التى سبق أن رأيتها فى الجريدة . Jerèyda كما شاهدت أيضا مسورتين ركنيتين ، مداميكهما سائبة ؛ كانت هاتان المسورتان مقامتان فوق أرض قليلة الارتفاع ، وخطر ببالي أنهما ربما كانتا نوعا من أنواع المتاريس ؛ لم يستطع البدو أن يقولوا لى أى شىء عن هاتين المسورتين ، غير أنهما شيئين من زمن غير زمانهم وتراث غير تراثهم . وفى شرقى يوبا Ybba مغرير Moghrair، مررنا بسفح برج بدائى قديم فى أرض الصحراء . أطلعت بعض من كانوا يركبون دوابهم بجوارى على هاتين المسورتين . (ردا على قائلين) : تلك أعمال متخلفة عن خلق العالم ؛ ما جدوى سؤالك عنهما ؟ " (قال زيد) : ولكن كل ذلك يعد لا شىء إذا ما قورن بذلك الذى سيرينى إياه فى الغد ، والذى كان معجزة : تمثال أبى Abu زيد Zeyd، تلك الشخصية الخرافية الأسطورية البطة ، والسيدة عليّة Afia زوجته ، مرسومين على صخرة موجودة فى الجزء الخلفى من جبل يوبا Ybba مغرير " . Moghrair

الجائل فى كل أنحاء الجزيرة العربية القاحلة . يرى فى معظم الأحيان أحجاراً لكل منها ثلاثة قوائم موضوعة على شكل مجموعات ثلاثية : هذه الأحجار ثلاثية القوائم

(*) مرحاب : آخر شيخ من يهود خيبر قتله على بن أبى طالب (ر) يوم فتح خيبر . (المراجع)

هى من قبيل أوعية النيران التى كانت تستخدم فى الزمن القديم ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الأوعية تعد إشارة ، أو علامة إنسانية مريحة ، إلى أن بعض الناس تعلموا كيف يتمتعون أنفسهم ، فى أزمان قبلنا ، فى أرض تبدو حياة الإنسان فيها مهددة ، ولكن أحداً لا يعرف لذلك تاريخاً محدداً ؛ والسبب فى ذلك ، أن الأحجار عندما تبنى فى ذلك الجفاف الشديد ، قد تستمر عصوراً طويلة . يضاف إلى ذلك أن الصحراء صلبة التربة وكذلك الصحراء التى تتكون من الزلط ، يرى الناظر إليها آثار الطرق والمسارات التى كانت الإبل تسلكها فى قديم الزمن ؛ هذه المسارات ، هى أيضاً من عمل أجيال قديمة ، يُزاد على ذلك أن تلك الصحراء الشاسعة ليس فيها مكان واحد لم يذهب إليه أو يتجول فيه الأعراب ، وطوال تجوالنا ، لا يوجد من حولنا أى نوع من الحياة فى دائرة محيطها حوالى مائة ميل . كما يتوفر حطب الوقود فى كل جزء من أجزاء هذه التربة ، والذى يتمثل فى روث الإبل القديم ، الذى يقولون له "جِلَّة" jella ؛ هذه الجِلَّة التى جفت بفعل حرارة الشمس يمكن أن تعيش طوال ثلاث سنوات . وإذا ما غطتها قشرة من الرمال المتطايرة فقد تعيش مدة أطول من ذلك . هناك أيضاً علامة أخرى من علامات وجود الإنسان فى تلك الصحراء الجرداء ، وهذه العلامة هى التى تتطلع إليها الأمهات ؛ فنحن نرى هنا فى كل رَحْلة من الرَحَلات الجديدة ، أحجاراً صغيرة بيضاوية الشكل ، هى إشارة إلى لحدود الأطفال الذين يموتون موتاً مفاجئاً من بين البدو الرُحُل ؛ ولكن الكبار الذين يموتون فى ديارهم ، يحملون (إذا لم يكن ذلك أمر صعباً) إلى أقرب المدافن المخصصة لذلك .

وفى ساعة مبكرة من الصباح ، أخذ زيد فرسه وحريته ، وسرنا فى الطريق إلى حيث توجد صورة أبى زيد ، الذى يعد عجيباً من عجائب الصحراء ، عبرنا السهل الرملى ، إلى أن حل علينا وقت الظهر ؛ وعندما وصلنا إلى الجبل ، درنا حوله فترة من الوقت ولكن دون جدوى ؛ إذ لم يستطع زيد العثور على المكان . شاهدت بقعا بيضاء ، تشبه العلامات البحرية ، على بعض من تلك الصخور المهجورة الجرداء ، إنها مواقع تكاثر الطيور الجارحة التى من قبيل الصقور ، والصقور الحوامة ، وكذلك البوم ؛ أعشاش هذه الطيور الجارحة يمكن مشاهدتها فى أحيان كثيرة فى الصخور الشامخة

الوعرة التى توجد فى هذه الأماكن المكونة من الحجر الرملى . فى هذه التربة الخالية من الماء تعيش كثير من الحيوانات الصغيرة التى لا تشرب الماء ، مثل الفئران ، والسحالي والأرانب البرية . كنا نسمع أيضا أصوات البوم أحيانا فى جوف الليل ! وهنا كانت الزوجات البدويات هن وأطفالهن يردون على صوت البوم قائلين وهم يسخرون : 'يمجباس ! Ymgebas' هذه الكلمة التى ترددها الزوجات والأطفال معناها : "أن هذا صوت امرأة تولول وتنتحب ، تبحث عن طفلها الضائع فى الصحراء ، وأن هذه المرأة مسخت وتحولت إلى ذلك الطائر البائس المهجور . وبدو الفهجي Fehjies ياكلون لحم البوم ؛ وهو الأمر الذى يجعل البدو يسخرون منهم ، علما بأن هؤلاء البدو أنفسهم ياكلون نوعاً من الهوام ، أو إن شئت ققل : الحيوانات الطفيلية .

دربنا حول أجناب ذلك الجبل إلى أن بدأنا نحس بالتعب والإرهاق . ولما كان زيد ولد واحد من الشيوخ ، ولما كان أيضا رفيقاً من رفقاء شرب القهوة منذ صباه ، ونظرا أيضا لوجوده هنا فى ديرة جديدة غير ديرته ، لم يستطع تذكر العلامات الأرضية . كان الوقت فى عز الظُّهر ؛ ورحنا نتجول بشكل عشوائى ، وبسبب الجوع والعطش . رحنا نقطف نبات الهندباء البرى ، الذى يقولون له هنا : سن الأسد ، والذى نبت فى تلك الصخور على أثر زخات المطر الذى سقط على هذه الصخور ، حتى نجرح به صيامنا . أخيرا ، وعندما كنا ننظر إلى الأسفل فى مكان عميق ، شاهدنا إيلا كانت ترعى عند سفح الجبل : ومع تلك الإبل شاهدنا بعض رعاة الفهجات . قال لنا هؤلاء الرعاة : إن الصور لا تبعد عنا كثيرا ، وأنهم سوف يدلونا على الطريق المؤدى إليها ، ولكنهم طلبوا منا قبل كل شيء ، الجلوس لاستعادة نشاطنا . وهنا جرى هؤلاء الرعاة المساكين تحت ضروع نياقهم وعابوا إلينا بقربة الحليب وقد امتلأت بذلك الطعام الدافئ - السماء تذكر بالخير هؤلاء البدو المترجلين المحسنين ! ويعد أن انتهينا من شرب الحليب ، رافقونا وهم يقودون ماشيتهم ! دخلنا مضيقا صغيرا ومشينا فيه ، كان ذلك المضيق عبارة عن مدخل صغير فى صدر الجبل . يعج بالخضرة التى ليس لها مثيل من نوعها ، من وجهة نظرنا . وعند مقدمة هذه الحديقة العشبية توجد بركة مياه ! ومن فوق هذه

البركة شاهدت الصخور وقد امتلأت بالنقوش المحفورة ، كما شاهدت أيضا صورة أبى زيد التى يصل ارتفاعها حوالى ياردة واحدة ، وهو يمسك فى يده المشعاب المعقوف ، الذى يطلقون عليه اسم الباخورة ، أو على حد قول الأعراب ، من لا يستطيع أن يجعل من رسم الصورة سيفاً : وإلى جوار صورة أبى زيد كانت هناك صورة أخرى ، ربما كانت صورة امرأة ، أقصر قليلاً من أبى زيد ، ويطلقون عليها اسم 'عليّة' Alia زوجته . ومن المحتمل أن يكون هذين الشكّلين ؛ قد نحتا باستعمال الحجر ، على الحجر الرملى نفسه ؛ هاتان الصورتان ليستا مثل صور البدو القذرة أو البقيرة ، ولكنهما كانتا ملونتين فى المنطقة المحيطة بهما بألوان طبيعية قديمة وبمهارة فائقة . النقوش التى هنا ، هى فى معظمها نقوش أساطير حميرية مدونة (مثلما هو شائع فى هذه الصحراء) من الأعلى إلى الأسفل ؛ الأسماء ، الأقوال المأثورة ، التحيات والسلامات ، لكثير من المسافرين والجمالة من العصور القديمة . كلمة 'يابا' Ybba تقال للتعبير عن "الأب" Aby فى هذا الجزء من الجزيرة العربية وفى المدينة (المنورة) أيضا ؛ وكلمة 'مغريز' Moghrair ربما تعنى كلمه 'كهف' أو 'مغارة' . رجوت زيدا أن يسمح لى بناقاة تحلب ثم يتركنى هنا مع أبى زيد . وهنا رد على زيد (بخرافة) ، مفادها أنه دفع بالفعل لبدو البشر Bishr جملا ، نظير تصرّيحهم لنا بمشاهدة أبى زيد . ورد على ذلك الرجل الفهجى قائلا : "أى رجل لا يستطيع البقاء هنا وحده ، وبخاصة أثناء الليل ، لأن الشياطين سوف تتشاجر معه ."

أثناء عودتنا ، نزل زيد فوق حوض رملى طبيعى بين الصخور ، أسفل الجبل ، ثم مد بعد ذلك يديه إلى الكوع ، لتصلا إلى رطوبة لها رائحة نفاذه بعض الشيء ، وهنا ابتسم زيد بصلف وزهو وهو يقول : 'ها ! لقد اكتشفنا ماء جديدا . أقسم بالله ، أن فى هذا المكان ماء على عمق قليل أسفل هذا الوحل ، ستأتى المؤخرة إلى هنا غدا لتتملا قراب الماء من هنا . ' وبالقرب من ذلك المكان ، كان ينمو عشب يعرف باسم نبات الثلثان ، أو إن شئت فقل : عنب الثعلب ، الذى كان محملا بالثمر ؛ لم يكن زيد قد رأى ذلك النبات من قبل ، وطلب منى أن أخذ ذلك معنا إلى المنزل ، حتى نتعرف عليه الحريم : - اللاتى لم تعرف أية واحدة منهن ذلك العشب بالرغم من حكمتهن المزعومة . (قلن) :

نبات غريب فى هذه الديرة . والمكر فيما يتعلق بالعقاقير والأشياء البسيطة المتعلقة بالطبابة سمة من سمات ربات البيوت هنا . وعلى مستوى أكثر انخفاضاً وصلنا إلى بركة ماء صغيرة وسط الصخر ! تبدى الماء لنا بنى اللون ومشوباً بالحمرة وتفوح منه رائحة النشادر ، وكان المنزل المؤدى إلى تلك البركة ملطخاً بروت إبل قديم . (قال :) سنأخذ من هذا الماء شيئاً لتصلح القهوة ، إذا لم يتوفر لنا ماءً آخرأ غيره . شاهدت على الحجر أساطير حميرية أخرى . كانت تجلس فى تلك المنطقة صبيتان من الصبايا الرعاة ، وعندما شاهدانى أقترب منهما ، ابتعدتا عنا مقتربتين من قطيعيهما الصغير اللذان كانا يتجولان بالقرب منهما . وهنا ، قام زيد ، باعتباره شيخاً كبيراً ، بتحية هاتين الصبيتين بتحية الصحراء المعهودة ، وريت عليه الصبيتان التحية بمرح وسرور : هذه الصبايا لا يخشين أحداً من أفراد قبيلتهما ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الصبايا الرعاة يمكن أن يذهبن بقطعانهن إلى مسافة بعيدة جداً عن أعين المنزل الذى فيه الأسرة نظرننا هنا وهناك ولكننا لم نعثر على فرس زيد ، التى كان زيد قد نزل عنها ، عندما دخل الجبل ، وتركها وراءه مقيدة ، بأن ربط لجامها برجل من رجليها الخلفيتين على طريقه البدو ، وبهذه الطريقة تستطيع تلك المهرة (الفرس) البدوية أن ترعى على راحتها ؛ ولكنها لا تبتعد كثيراً عن المكان الذى يتركها فيه صاحبها . أخيراً ، استطعنا رؤية تلك الفرس من مكان عالٍ ، وهى تعود إلى المخيم البعيد . (قال زيد :) إنها عطشانة ، إتركها وشأنها وسوف تصل إلى المنزل وحدها : - وبالرغم من أن الخيام السوداء كانت خلف الأفق . وهكذا تستطيع الخيول البدوية العودة وحدها ، وتهتدى إلى الأسر إلى تتبعها . عندما تشعر تلك الخيول بالعطش ، ويجرى يومياً ، بعد طلوع الشمس ربط الفرس البدوية بقيد من الحديد . لا يفتح إلا باستعمال مفتاح خاص ، على أن تترك الفرس بعد ذلك لتتغذى من خيمة صاحبها . والخيول من طبيعتها أن تسعى باحثة عن بعضها البعض ، هذا إذا لم تكن المنازل متباعدة عن بعضها ومبعثرة على نطاق واسع ، لتقوم بعد ذلك بالرعى والعبث سوياً ، والشيوخ أصحاب تلك الأفراس لا يلقون لها بالاً كثيراً شأنها شأن كلاب الصيد فى المخيم ، إلى أن يحين وقت الظهر ، وهنا تبدأ تلك الأفراس فى العودة وحدها إلى المنزل ، وعندها يجرى اقتيادها إلى الماء

وبعد أن تشرب الأفراس تعود ثانيه إلى المرعى ، أو قد تقف لتستظل بخيمه صاحبها فى ذلك الوقت من أوقات الظهيرة (هذا إن كانت خيمه صاحب الفرس تسمح بذلك) . وتستمر تلك الأفراس فى الرعى على مسافة ليست بالبعيدة تماما ، إلى أن يحين غروب الشمس ، وعندها تعود تلك الأفراس وحدها ثانيه إلى منازلها أو قد يقوم أحد بإحضارها وربطها طوال الليل .

كان يقفز أمامنا ، وتحت أقدامنا ، سلالة صغيرة من الجراد ، الذى يشبه لونه لون الرصاص ، وله أجنحة تشبه أوراق الربيع ؛ هذا الجراد نتج عن تكاثر أسراب الجراد التى سبق أن اجتاحت الصحراء ، قبل ذلك بعدة أسابيع . هذا الجراد الصغير سوف يطير بعد أربعين يوما على شكل جحفل ، أكثر جوعا من الجحفل السابق ، وسيمتلئ به الجو . شاهدنا أيضا سماءً سوداء فوق خيام البدو الزحل ، وأوضحت لزيد أن زخة من زخات المطر كانت تتساقط أثناء غروب الشمس . - رد على ، لعل الله يجعلها تصلنا ! حياة مواشى هؤلاء البدو فى تلك التربة الجذباء التى تعاني من قلة الماء ، تعد حياة جد صعبة . وسماء الجزيرة العربية ، التى ينذر أن تصفو ، تبكى بكاء المنافقين .

انتقلنا من ذلك المكان ، ونصبنا الخيام السوداء على ذلك الرمل الأبيض ، الذى يشكل النفود Nefûd ، فى هذه المنطقة ، النفود التى تمتد حوافها بطول ، أو على امتداد الصحراء المكونة من الحجر الرملى بنى اللون : يفصل النفود عن تلك الصحراء مجرى من مجارى السيول . سوف ينتقل الأعراب فى المرة القادمة إلى واحد من الآبار الجيدة ، يطلقون عليه اسم 'الحيزة' el-H?za ، وهو فى أرض النفود ، والأعراب يعثرون ، فى سنوات الوفرة ، على مرعى جيد ، فى فصل الربيع فى ذلك المكان : ونظرا لعدم وجود أشياء كثيرة فى ذلك الاتجاه ، فقد اتجهنا فى يوم آخر صوب جبل حلوان Helwân ؛ وفى تلك المسيرة (الرحلة) شاهدت (حوالى ثمانى أو تسع) دوائر من دوائر ساريات الأعلام المصنوعة من الحجر الرملى . كانت تلك الرحلة من رحلات الجزيرة العربية جرداء وموحشة وقاحلة أيضا ؛ فقد تساقطت من سماء شهر مارس

عاصفة من المطر البارد ، ويعد أن نزلت النساء عن ماشيتهن على وجه السرعة ، عجزن عن نصب الخيام أثناء سقوط الواابل :- هذا يعنى إقامة هجرة صغيرة خلال ثلاث دقائق . جلسنا داخل الخيام ، طوال العاصفة التى استمرت ساعات عدة : جلسنا فوق الرمل المبتل ونحن ملفوفين فى عباءتنا المبتلة ؛ وكانت قطرات مياه العاصف تنساقط علينا من خلال النسيج الغليظ المهترئ من فوقنا . توجد فى النقود ، فى اتجاه الحيزه El-Hyza بعض التلال الرملية مثل : الروسة Rowsa ، والضفائيات Deffafiat ، والسبّيع Subbia و- إرزوم Irzum ، وهذه التلال الرملية المنجرفة شبيهة بتلال جبل ناقوس Nagûs القريب من قرية طور Tor البحرية فى شبه جزيرة سيناء : والطبقة العليا من الرمل تسقط تحت أقدام المترحل ، وينطلق بعد ذلك من ذرات الرمل صوت متعالى يسبب الدوار ، وهذا الصوت يشبه ذلك الصوت الذى ينتج عن إدارة إصبع مبتل حول فوهة كأس من الماء ، كما يشبه أيضا الطنين الذى يتخلف عن قرع جرس كبير ، أو كأس من المعدن . - وكلمة 'ناقوس' Nagus هى الاسم الذى يطلق على اللوح المدوى فى برج ناقوس الدير اليونانى ، ويترتب على ذلك أن تصدر عن الخشب نفمة موسيقية تسر خاطر ، تدعو رجال الدين الرسميين Colieros إلى أداء الصلاة : وهناك رمل مغن آخر ، يطلقون عليه اسم رمل الحويرية el-Howayria ، وهو موجود فى الصخور (الواقعة شرقى مزحام Mezham ،) فى منطقة مدائن صالح .

كانت السماء صافية عصر ذلك اليوم : إذ جففت الشمس ملابسنا المبتلة ، كما اجتمعت صحبة كبيرة لشرب القهوة فى خيمة زيد . كان زيد قد وعد خليل بأنه سوف يُصلح له شايًا ، "الذى هو قهوة النصارى ، حسبما قال لهم . - وأنت يا طيب ، طالما أن الشيوخ سوف يتنوقون الشاي معك ، فانتبه وأحرص على وضع مقدار كبير من السكر . " فى ذلك اليوم ، كان لدى ماء نقيا حصلنا عليه من ماء المطر الذى سقط على الصحراء ، فضلا عن أن الشاي كان من نوع ممتاز . هنا صاح زيد مناديا : "هل أعجبكم مذاق قهوة النصارى ؟" أجابوه قائلين : "السكر جيد ، أما فيما يتعلق بذلك الذى يسميه خليل شايًا ، قطعمه أفضل قليلا من الماء الحار . " واستطردوا قائلين : "إنه مشروب خفيف وليس طعمه كما يرام" مثل طعم الماء المتخلف عن القهوة المُصلحة

من ماء غير نقى . شرب رحيل el ١٨ كئسه الأولى من الشاي ، وأعادها إلى مقلوبه الفم نحو الأسفل (إشارة عندهم إلى أنه لا يود المزيد) قائلا : " يا خليل ، أليس هذا هو الخمر ؟ بمعنى المتخمر أو نبيذ النصارى . " ولولا الضمير لما شرب منه ؛ ولكن بقية الجماعة شربت ذلك المشروب السكرى إلى أن وصلت للحثالة ، وطلبوا من الغريب أن يصب لهم المزيد . وأعدت على مسامع رحيل Rahyel أن الفرس يشربون الشاي فى قافلة الحج . هؤلاء البدو الذين استطعموا مذاق الشاي للمرة الثانية ، والذين أدركوا وفهموا مدى إعزازى وتقديرى لذلك المشروب ، وبعد أن أحسوا بالانتعاش بعد أن شربوه ، بدؤوا يحبونه حبا جما ويتخيلون أن ذلك المشروب الذى يضاف إليه السكر يمكن أن يزيل المتاعب الإنسانية كلها . ولكن لم أستطع مطلقا ، بناء على طلبى ، الحصول على كئس من الحليب الطازج ؛ وهم لا يضعون أى شىء من الحليب على القهوة ، كما أن مسألة وضع مقدار كبير من الحليب على قهوة النصارى ، بدا لهم أمراً غريباً تماماً وفيه تذيير لنعمة الله . عندما كنت أصلح الشاي ، فى المنزل كنت أدعو حرفة لتناول الكأس الأولى ، قائلا للبدو : إن ذلك هو تقليد فى بلادنا ، التى تنظر إلى الجنس الضعيف نظرة احترام وتقدير . ردت على حرفة قائلة : " آه ، ليتنا هناك بينكم ! يا خليل ، هؤلاء البدو الموجودين هنا ليس فيهم أى نفع ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، إنهم مثل الحيوانات البرية ؛ فهم اليوم يضربون الحريم ، وغداً يهجرونهن ويتخلون عنهن : المرأة مولودة هنا للعمل والمعاناة . ومما يحزن قلبها ، أنها عندما تتكلم فإن كلامها لا قيمة له أو وزن . " ضحك الجالسون حول الوجار عندما انطلقت حرفة فى الحديث . ولكنها صاحت غاضبة من جديد : " نعم ، اضحكوا ملئاً أشداً لكم أيتها الحيوانات البرية !- يا خليل ، البدو كفار ! " ثم ابتسمت تلك الزوجة الغاضبة للحاضرين ، وعادت إلى أحزانها الداخلية من جديد .

تراكمت سحب المساء ؛ كما كانت عباءات الشيوخ مبتلة أثناء عودتهم إلى منازلهم . كانت الفرس قد عادت لوحدها فى ذلك الطقس السيئ . واتخذت لنفسها موقفاً إلى جوار وجار القهوة ؛ ومثلما يفعل البشر ، وقفت الفرس تجفف جسدها المبتل بالماء وتدفى نفسها ، مثل واحد من الجالسين تماماً . قد يُقال عن خيول البدو الرُّحل

الضعيفة إنها لا تعرف الحقد أو الغل . وقد لاحظت بنفسى فرسا ، وقد وقفت من تلقاء نفسها عند الظهر موقفا فى ظل خيمة صاحبها ، إلى حد كانت تقترب معه تماما من الجالسين حول وجار القهوة ، وراحت تقرب أنفها الناعم من الشخص القريب منها ، وهنا أدار القريبون من الفرس رؤسهم استعداداً لتقبيلها ، إلى أن نهض الشيخ من مكانه لينهر الفرس ويبعدها عن الحاضرين . هذه الخيول ، يعترىها الضعف ، نتيجة ضعف علف الصحراء وخشونته ، كما تعبر تلك الخيول عن امتنانها لتلك اليد الإنسانية ، التى تمتد إليها فى تلك الصحراء ، مثلما تمتد يد الأم إلى ولدها . الناس هنا تشاهد الإبل البرية الشقية كل يوم ، ولكنهم يندر أن يشاهدوا الخيول المتهورة ، ويستحيل أن يشاهدوا الخيل الحرون : واللون الغالب على الخيول هنا هو لون الكُميت . وأمل الشيخ الذى يعلقه على فرسه يتمثل فى تمكنه من الانتصار على خصمه أو عدوه من ناحية . وانقاذه على وجه السرعة فى الميدان ، من الناحية الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الشيخ قد يحمل الغنيمة على ظهر فرسه ، ويعدو بها فى مقدمة أولئك الذين يركبون الإبل . الفرس (شأنها شأن أى إنسان أو حيوان ، بما فى ذلك كلاب الصيد) شئ لا يمكن أن يسيئ البدو استعماله . صحيح أن الفرس لا تحظى بتقدير أسرة صاحبها ، إلا أن المسكن الطبيعى لتلك الفرس يكون فى الخيمة البدوية . هذا يعنى أن تلك الفرس مرتبطة برفقة الإنسان الخيرة ؛ يضاف إلى ذلك أن شكل الإنسان يسر خاطر الفرس فى تلك الصحراء القاحلة والبخيلة .. اعتدال البيت العربى يتمثل فيما نشره نبيهم عن الأسرة المقدسة : الله Ullah القرآن ، رب أسرة سامى Semitic طيب القلب نوسيادة ، بالغفرانه مع شعبه (خلقه) ! هذا الإله نفسه ، على النقيض قاسى وصعب على الشعب الغريب .

الحصان البدوى مُشَقَّفُ هنا ، كما هو الحال فى الحصان السورى بشقفة مفتوحة من منتصفها ، وهذه فى الأصل هى طريقة تشقيف الخيول فى تركيا ؛ وشيوخ البدو هنا ، يشترتون احتياجاتهم السنوية من تلك الشقف من سوق الحج . ولقد رأيت الناس وهم يشقفون الخيول حتى فى الأجزاء الرملية من الجزيرة العربية : ومع ذلك ، هناك بعض الخيول التى يتركها أصحابها بلا تشقيف على بعض أجزاء الحدود السورية .

كما أن هناك بعض الخيول التى يجرى تشقيفها فقط فى القدمين الخلفيين . كان البيطار الذى يتابع قبيلتنا - الذى ذاع صيته بأنه أفضل الحدادين ، فيما يتعلق بكل أعمال الحدادة ، فى هذا الجزء من البلاد ولم يكن له مثيل حتى فى بلدة تيماء - هو الرجل المسئول عن كل ما يتعلق بأعمال البيطرة بين هؤلاء البدو . وفى أحد الأيام صحبت زيدا كى أرى ما يفعله ذلك البيطار . وجدنا ذلك الحداد يكوى مهرة رُحيل Rahyel التى كانت واحدة من قدميها الخلفيتين مصابة ، ونظرا لقلة العدة المتيسرة لذلك البيطار فقد كان يقوم بعملية الكى هذه باستعمال ساق من سيقان شحن المدافع ، مصنوعة من الحديد ؛ كان ذلك البيطار قد سخن طرف تلك الساق ، فى النار ، إلى درجة الاحمرار ، وراح يكوى ويوسم بها عضلات رجل الحصان الضعيفة . وجدت الحصان المسكين ، وهو يعانى تلك الآلام ، واقفا على ثلاث أرجل ، دون أن يحدث أى صوت ، فى حين كانت القدم الرابعة مقيدة بحبل تمسك به أيادى غليظة . والبدو الذين تعودوا على كى الإبل بالنار من الأعلى ومن الأسفل ، لا يعولون كثيرا على مسألة سلامة أو صحة جلد الحصان ، وكل ما يهم هؤلاء البدو هو أن تكون الفرس من أصل جيد ، ومن سلالة جيدة أيضا ، وقادرة على خدمة صاحبها فى المعارك الحربية . غادر رُحيل محل البيطار ؛ كان زيد الذى حضر لأمر يتعلق بالبيطرة ، قد جاء ويده مملوئتان بشقف الخيول ، أو إن شئت فقل ؛ حدوات الخيول ، وطلب من البيطار تحويل تلك الشقف إلى مسامير ، مقابل أن يقوم البيطار بتشقيف فرسه . ذهب زيد لاقتلاع بعض عيدان الحطب ، التى أشعل منها نارا ، وبعد أن اشتعلت تلك النار برهة من الوقت ، أخمدها بإلقاء شئ من الرمل عليها ؛ ثم حمل زيد ذلك الفحم النباتى الضعيف فى عباة ليلقيه على نار الحداد (التى هى عبارة عن حفرة فى الرمل) . ثم جلس ذلك الشيخ الكبير إلى منفاخ مصنوع من جلد الماعز ، وراح ينفخ هواءً على النار ليزيدها استعارا . كان الموقف يدعو إلى الضحك ، ونحن نتأمل حرص زيد على توفير مليماته عن طريق القيام بدور الصلّوبى(*) ، وهكذا راح زيد يتصبب عرقا بين نارين : نار

(*) هناك فى الجزيرة العربية قبيلة تحمل هذا اللقب ، وما زالت آثار هذا اللقب فى بعض الأسماء التى يحملها الأفراد ، إذ يقال على سبيل المثال " فلان الصليبي " (المترجم)

الفحم النباتي المشتعل ، من ناحية وحرارة الشمس الحارقة من الناحية الأخرى فى عز الظهر ، إلى أن تلوث الرجلان اللذان عضهما الجوع بسناج الحدّاد ، وبدا الإرهاق على وجهيهما . أخيرا ، نهض زيد وهو يتنهد قائلا : "يا خليل ، ألم تتعب بعد من الجلوس فى العراء فى حرارة الشمس ؟ هاهى خيمة رحيل بالقرب منا ، هيا نحتّمى بها من حرارة الشمس ؛ ورحيل رجل طيب وسوف يصلح لنا شيئا من القهوة . " وهامم البدو أيضا لا يصبرون على حرارة الشمس التى تلسع أعالي رءوسهم ، اللهم إلا عندما يكونون قائمين بالترحال ، فى فترة من الفترات التى تتحرك الريح خلالها . - "السلام عليك يا رحيل ، هذا هو خليل أحضرته معى ، هيا اجلس إلى جوارى يا خليل " ودعنا نشاهدك وأنت تكتب اسم رُحَيْل ؛ اكتب رُحَيْلَ الفجيري ، الشيخ ، الذى تزوج من بنت فى تيماء ؛ " ركع الرجلان من حولى وهما يتيهان عجا بأميتهما ، عندما يريان كلامهما قد تحول إلى كتابة .

وصل بعض التجار البدو بعد ذلك ، إلى مخيمنا ، قادمين من الجوف عبر صحراء النفود ؛ كان أولئك التجار من قبيلة بشر . ومن بين هذه القبائل ، هناك بعض الأشخاص الحصيفين المتدبرين ، الذين يستطيعون تحسين معاشهم عن طريق المكاسب الشرعية السلمية الناتجة عن البيع والشراء . وذلك بدلا من المشاركة فى عمليات الغزو غير الشرعية وغير المؤكدة أيضا . أحضر أولئك التجار معهم سمنا وتبغا ، وعرضاهما للبيع بثلثي الثمن المحدد لبيعهما فى هذه المناطق القاحلة الجذباء ، ومع ذلك ، فإن الأعراب ، غير العادلين فيما يتعلق بصفقات البيع والشراء ، لا يشترون من هؤلاء التجار بذلك السعر الصادق والمقبول ؛ ويروحون يكاسرون بغيه تخفيض السعر ، وفى النهاية لا يشترون شيئا على الإطلاق ؛ - وما أن يكسب أولئك الغرباء شيئا ، فإنهم يتعين عليهم دفع ضعف هذا المبلغ بعد ذلك فى قرية العلا ويمكن أن يبقوا ، مثل الموتى ، على ذلك الوضع ، والوقت يمر عليهم . المزيد من تلك الهيئة الحاكمة ، والرجال الذين من قبيل هؤلاء التجار ، قد يتخلون عن حياة التجوال غير الآمنة (التى يكن الأعراب لها البغض والكراهية بسبب إرهابهم المستمر من ناحية وخواء قلوبهم من

الناحية الأخرى ،) ويتحولون إلى بدو مستقرين . والبدو يشتكون على امتداد ساعات طويلة من بؤسهم وشقاء حياتهم ؛ وهنا يبدو عليهم التأمل بشكل غريب ، باعتبارهم أناسا مطرودين من هذه الدنيا ، الحقد البشرى الناتج عن الفاقة والعوز هو الذى يضيف كل ذلك إلى متاعب الطبيعة وألامها التى تصيب هؤلاء البدو ، الأمر الذى يجعل المرور أو التجوال فى الجزيرة العربية أمرا صعبا وغير مضمون العواقب : وعندما يحدث قحط فى أية ديرة من الديار ، نظرا لعدم سقوط أمطار الخريف عليها ، أو نظرا لهجوم أسراب الجراد ، فإن التجارة البرية ، قد لا تصل إلى مثل هذه الديار .

هؤلاء البدو الذين يعتصرهم الفقر والعوز ، تراهم داخل خيامهم وهم غارقين فى أحزانهم ؛ وإذا ما لامهم إنسان ردوا عليه قائلين : آها ! صحيح أن الأعراب بهائم ba-haim ؛ صحيح أيضا أن الأعراب مساكين ، وصحيح أيضا أنهم 'قطاط' Kutaat ' غرائم' ghranem بمعنى 'زراعة غنم' وصحيح أيضا أن البدو 'دبوش' dubbush بمعنى 'قطع مختلط من الماشية الصغيرة' ؛ وصحيح أيضا أن البدو 'جهال' juhal ؛ وهم أيضا مجانين mejanin وهم أيضا عفتين affinin ؛ وهم أيضا حرامية haramiyyeh ؛ وهم أيضا كفار kuffar ؛ والأعراب أيضا 'مثل' mithil السيد 'es-seyd' بمعنى 'إنهم مثل الحيوانات الغشيمة ، الهائمة فى الصحراء ، وليس لديهم أى نوع من الفهم البشرى . وبعد أن ينتهى الأعراب من ذكر كل ذلك ، يزيدون عليه من باب المزيد من الاحتقار لأنفسهم قائلين : "والله ، الأعراب كلاب . " ولكن البعض من هؤلاء الأعراب يحاولون التفاخر بأنفسهم عندما يقولون : "الأعراب جنيون jinnies وشيطانيون sheyatin والبدو عندما يقولون 'الأعراب جنيون' يعنون بذلك أنهم أذكىاء يقومون بعمل الأشياء وتحمل الصعاب وأسوأ العواقب ، دون أن يخافوا الله . والبدو فيما بين ذلك الفراغ الذى يعيشونه فى منازلهم والتعب الذى يصيبهم نتيجة تجوالهم ، يركزون سواء أكانوا رجالا أم نساء على شرب الدخان الذى يطلقون عليه اسم التتون . tittun (*) تلك الورقة

(*) التتون : كلمة تركية ومعناها الدخان ، وتطلق على ورق التبغ وينطقها العرب بـ التتن وتعاطى التبغ من الأمور التى تحرمها تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

الجافة (التي يجلبونها من قرية العلا ومن تيماء) تكون خضراء ، سواء أكان ، ذلك مثلما يقولون ، بسبب عدم تكون الندى في هذه البلاد ، أم لأن قرى الجزيرة العربية لم تتعلم طريقة تجهيز ذلك التتون ، أو إن شئت فقل : التبغ أو الدخان . وهم يدخنون الورقة الخضراء الجافة ، بعد أن يفركونها في راحة يدهم من سيقانها الجافة ، ويضعون فوقها قطعة من الفحم النباتي المشتعل . شاهدت ذلك النوع من التدخين على امتداد جزء كبير من الحدود السورية ، حيث يمكن الحصول على أفضل أنواع التبغ من كل من الشوبك Shobek وجبل كيراك Kerak؛ وتبغ هذين المكانين من النوع الذي له مذاق لاذع ؛ وأحلى أنواع التبغ الذي يزرع في هذه المنطقة ، هو ذلك النوع الذي يزرعه بدو المواعهيب في وادي Wady عُرُوش Aurush على ساحل البحر في عويرض Aueyrid الحرّة Harra في المنطقة العالية المواجهة للحجر .

كانت قريتنا الجائلة تضم بين أهلها واحداً من أولئك الذين يبيعون التبغ ، أحد القرويين من قرية العلا ، الذي كان يعيش عيش البدو في تلك الصحراء ، كما كان متزوجاً أيضاً من امرأة قبلية من بينهم . استطاع ذلك البائع أن يجمع لنفسه مجموعة صغيرة من الحيوانات ، وكان حاله ينتعش ويزدهر بهذه الصفة من ناحيه ويصفته مبتزاً من الناحية الأخرى . حُرِّضَتْ تلك الأرواح البدوية الضعيفة على التمتع في ذلك الطفيلي الذي ينمو على الشحم الذي كان يلحسه بشرافة من أذقانهم ولحاهم . كان البدو يحسون بالحزن كلما رأوا ذلك المبتز مرحاً وفرحاً ومتشرح الصدر ؛ كان ذلك الرجل يمرح ويفرح لذلك الشيء الذي كان ثقيلاً على ضمائر أولئك البدو . خلب ذلك الخطأ لب هؤلاء البدو ؛ يضاف إلى ذلك أنهم ليس من حقهم أن يمنعوا أحد جيرانهم من حرية التجوال في الصحراء . وبذلك يكون خبز الفقراء ، الذين لم يكن لديهم ما يكفيهم من قبل قد تحول إلى رماد . هذا البائع يبيع لهؤلاء البدو هنا ذلك الذي يساوى بنسب في قرية العلا ، باثني عشر بنسا ؛ هذا هو ذلك البدوي المسكين الذي أحضر تيساً اليوم ليدفع ثمن التبغ ؛ هذا التيس الذي له قيمته بيع اليوم بما قيمته عشرة شلنات من التبغ ؛ هذا البدوي سرى عن نفسه باستعمال الغليون مدة سبعة أيام فقط نظير ضياع ذلك التيس ؛ هذا البدوي حصل على مقدار صغير "يشربه" drink من

تبغ ذلك البائع ، أو بالأحرى حصل على ما قيمته نصف الكمية المستحقة ، نظرا لأن ذلك العالوى(*) Alowwy الجشع كان يبلل أوراق التبغ ، الأمر الذي كان يزيد من حجمها ووزنها أيضا . بعد الرجال الذين كانوا يترددون على خيمة ذلك الرجل ، شاهدت أيضا الحريم مدمنات التبغ ، وهن يأتين بضجيجهن إلى خيمة ذلك الرجل ، ويمسكن فى أيديهن الضعيفة قطعا من الصوف المنسوج محليا ، أو أواني السمن الذى ربما كن قد ادخرنه لشراء قطعة بسيطة من الملابس ، ولكنهن فى الوقت الراهن لا يطقن الصبر على عدم "شرب" الدخان : وإذا لم يكن لديهن ما يشتري به فإنهن كن يقترضن من ذلك البائع بفائدة ربوية كبيرة . وإذا لم يكن ذلك المبتز لا يثق بواحدة منهن ، فقد كانت ترجوه وتتوسل إليه ، بأن يملأ لها غليونها البارد ، هذه المرة فقط ، وألا يرفض طلبها وفاء للحنان والعطف القديم . زيد هذا ، بالرغم من كونه واحداً من الشيوخ الكبار ، إلا أنه لا يشتري التبغ لنفسه وإنما يشحذه ويستجديه من الناس طول اليوم ، حتى وإن وصل الأمر إلى أفقر الناس من بين من يجيئون لشرب القهوة : وهنا كان زيد ينظر حوله مبتهجا وهو يقول : "مين min يُعمر لى y'amir-ly" بمعنى "من هو ذلك الصديق الذى سوف يملأ لى هذا الغليون بالتبغ ؟" وبحكم ضعف الفكر والذهن فى هذه الترية المميته ، فالناس هنا كلهم متطفلين ويعيش الواحد منهم على حساب الآخر : زد على ذلك أن البدو لا يجدون غضاضة فى استجداء التبغ من البدويات المسكينات . دخل زيد ، ذات يوم إلى المجلس وهو يشتكى من سعر التتوز ، أو إن شئت فقل : التبغ أو الدخان ، هذا بالرغم من أن ذلك التبغ لم يكن يكلفه سوى القليل جداً ، أو لا شيء على الإطلاق ؛ وبعد أن جلس راح يلعن ويسب ، بصوته الأجهش العالى ، كل من هم من سلالة العلوانة " Alowna (**). لعن الله ! سليمان بائع الدخان ! أعتقد أنه من الصواب أن يرحل ذلك الرجل عن أهل هذا المكان خلال فترة وجيزة ، ولا يسمح له حتى بالبقاء مع الإبل ! الدخان هو مصدر سعادة الكثيرين فى هذه الصحراء الواسعة ، كما أن

(*) العالوى : من قرية العلا . (المراجع)

(**) العلوانة : أمالى قرية العلا . (المراجع)

الدخان هو المادة التي ينظم الشعراء أشعارهم ضدها في القبائل على اختلاف أنسابها :
هناك ثلاثة أسباب تمنع الإنسان من شرب الدخان : أليس الإنسان سكيراً وبالتالي
يحرق أصابعه (عندما يتناول قطعة من الفحم النباتي المشتعل ليضعها على رأس
الغليون) ؛ السبب الثاني : أن الإنسان ينبغي أن ، لا ينفق ثمن الخبز على أشياء غير
الخبز ؛ السبب الثالث : أن التدخين أمر غير شرعي .

تجول بدو الفجير خلال ديار بشز القرية عليهم وهم تراودهم بعض المخاوف
والمخاطر ، - وراح الشيوخ بعد ذلك يستحثون الماشية وهم ركوب على أفراسهم ، وفي
معظم الأيام كان الشيوخ يقطعون حوالى ساعتين من الزمن كل صباح في تجميع
الماشية التي ترعى ، أو إن شئت فقل : الإبل . el-bil كانت موجة الجراد الأولى قد أتت
قبلنا ؛ ترتب على ذلك حدوث شيء من القحط حتم على البدو أن يقسموا أنفسهم إلى
مخيمين . انتقل الشيخ مطلق بعد ذلك بالمخيم الأول ، الذي كان يضم القسم الأكبر من
الشيوخ ، وابتعد عنا مسافة نصف رحلة في اتجاه الغرب . وبقي الشيخ زيد ، مع
رفيقه رحيل Rahyel الذي كان يتولى منصب الشيخ الكبير في المخيم الثاني . واصلنا
السير بعد ذلك ، وكنا نخيم منفصلين ؛ واستمر ذلك أياماً عدة ، بطريقة غير محددة
وغير متساوية أيضاً .

كنت أرى نبات السمح Samhh في كثير من الأحيان ، ولكنه لم يكن وفيراً ؛ هذا
النبات هو في الوقت الراهن عبارة عن بادرة خضراء بلا أوراق ، يصل ارتفاعها إلى
قبضة يد ، وتحمل سيقاناً سمكية وافرعاً مليئة بالماء المالح . وفي نهاية كل غصن من
أغصان نبات السمح توجد عين تنضج فيها حبة واحدة عندما يبدأ النبات في الجفاف
في مطلع فصل الصيف . وفي بلاد بدو الشرارات ، التي ينمو نبات السمح فيها بكثرة ،
تقوم ربات البيوت هن والأطفال بجمع ذلك المحصول البري . وتقوم ربات البيوت
بغمس سيقان السمح في الماء ويرحن يضربن تلك السيقان بالعصى ليفصلن الحب عن
القش ؛ ومن تلك الحبوب الصغيرة ، تقوم ربات البيوت ، بعد طحن هذه الحبوب ،
باستعمال الدقيق الناتج عن ذلك في صناعة نوع معين من الخبز . لقد تذوقت طعم ذلك

الخبز البرى فى قرية معان ! كان ذلك الخبز أسوداً ومُرّ الطعم ، ولكنى بعد ذلك كنت أحسبه قطعة من المُسْكُرات فى المناطق البعيدة من الجزيرة العربية الصحراوية . ثريد السمح لذيق الطعم وطيب أيضاً ، ومذاقه يشبه مذاق "حليب الإبل" : ولكن أشهى أكلات ذلك السمح هى التى تصنع بعد عجن السمح مع قليل من التمر وشيء من السمن لكى يؤكل نيئاً : - مكوناً بذلك واحداً من الأطعمة الطيبة والصحية للمترحلين ، الذين لا يجرؤون على شب النار فى كثير من الممرات المفتوحة غير المستورة .

فى هذه المرحلة بدأت أتححر من مخيم البدو ، وكان الجميع يرحبون بى حول وجارات القهوة ؛ لم يكن يعادينى ، عند هذه المرحلة ، سوى قلة قليلة من البدو ، الذين هم من بين الرجال الأكثر تشدداً . وفى معظم الأحيان ، كان أرياب الأسر ، ينادونى من خيامهم . أثناء مرورى ، ليستقبلونى بعد أن أدخل خيامهم بابتسامات تتم عن كياسة المُضيف ، وكانوا يحضرون لى التمر والحليب : وهذا هو 'العيش والملح' ، الذى يمكن أن يقدمه الرجل الطيب مرة واحدة ، ليدلل به على صداقته ورفقته لذلك الغريب . هؤلاء الأعراب ، بالرغم من أنهم كانوا متسامحين معى لشخصى ، إلا أنهم كانوا يلومونى على دينى . حدث فى يوم آخر ، شيء بدا لهم ، بحكم أنهم يربطون كل شيء بيد الله وإرادته ، على أنه إشارة من قبل العناية الإلهية ، برعايتها لى ومحافظتها على . حدث أن نزلت عن راحلتى متعباً بعد أن توقفنا عن السير ، خلال جو صاخب ، وقمت بطرح عباى على دغلة قريبة ، ثم جلست فوقها . ثم نصبت خيمتى فى المكان نفسه وبقيت فيه إلى حلول المساء ، وعندها جاعنى طفل معوق من أطفال منزّلنا ، وهو يسير على أربع ، لكى يحصل على صدقه تافهة ، فى شكل حفنة من التمر ، ولكن ذلك الطفل صرخ عندما وصل إلى باب خيمتى ، وتراجع على وجه السرعة . فقد شاهد حية سامة ملفوفة تحت الدغلة التى فردت عليها عباى . - وهذه هى الطريقة التى تحمى الحيات بها أنفسها أثناء العواصف . وعقب صرخة ذلك الطفل ، حمل راعى زيد عصاً من أقرب بيت إليه ، وجرى مسرعاً إلى الطفل ، وبضربه قوية قطع تلك الحية السامة إرباً إرباً . كانت تلك الحية من النوع المقرن ، ويصل طولها إلى أكثر من قدمين ، كما كان

جسمها منتفخا عند المقدمة ، وعليها قشور تشبه النحاس الأصفر ، أما بطنها فكان عريضا وأبيض اللون ، وينتهى بذيل يشبه السوط أو الكبراج . سبق فى العام الماضى أن عشت حية من هذا النوع ، رجلا أثناء الرحلة ؛ وأركبوه جملا ولكنه توفى ، بفعل التورم ، قبل أن يصل به الرجال إلى المنزل . والجمل إذا ما عضته حية من هذا القبيل "يموت خلال ساعة واحدة " ، ومع مثل هذا الحادث قد يتعكر المزاج تماما فى أرض من هذا القبيل ، إلا أن هذه الحوادث تعد أمرا نادرا فى الحياة البدوية . سبق أن دسبت مرات كثيرة على ثعبان ، كان البدوى يحمله بعد ذلك على عصا ليصنع منه "دهانا مفيدا جدا للإبل " . وقد سبق لنا قتل ثعبان من هذا القبيل فى مدائن صالح . كان الحاج نجم بصحبتنا فى تلك المرة ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الحية اسم أم Umm جنيب joneyb ، بمعنى 'التي تتحرك على جانبها' . قام الصبى محمد بفصل الرأس عن الجسم بضربة واحدة من سيفه القصير ، عندما كانت تلك الحية نائمة فى الرمل لتحشى نفسها من الشمس ، على شكل لفات تشبه حرف الـ S الإنجليزى : كان المغربى العجوز يود الحصول على قرنى تلك الحية . "انتبه يا أنت ، القرن الأيسر هو الذى يحتوى على السم ، أما الترياق فهو موجود فى القرن الأيمن ، إذا ما جرى شربه مع الحليب :-" وقلت أنا كلاما فى غير موضعه ، دعنى أكتشف ذلك بنفسى - ؛ أيها الصبية دعوها وشأنها فأنا لست على يقين مما قلت . " هناك حيات مقرنات فى صحراء باربارى (*) Barbary . وعلى الفور رويت تلك الحكاية فى مخيم البدو : 'النصرانى هرب من ثعبان سام' ، وسألنى البعض ونحن فى المجلس عن "رؤيتى" لتلك المغامرة ؟ ورد عليهم زيد قائلا : "لقد كانت تلك رحمة من الله فعلا . " كان يجلس بالقرب من وجار قهوتنا راع وقح ، غريب من بدو الرولة Ruwāla ، صبى من صبية القبائل صفار السن ، كان يبحث عن عمل خارج قبيلته ، أى مع بدو آخرين غير بدو قبيلته : والسبب فى ذلك أن أمثال هذا الصبى ، يظنون أن الحياة قد تكون أفضل فى كل ديرة من الديار الأخرى ، وبالتالي يتمكنون من مشاهدة الدنيا ، وأحوالها . "أوه ! قال الصبى متعجبا ، لو كانت

(*) صحراء باربارى : المقصود بها صحراء البربر فى شمال إفريقيا . (المراجع)

تلك الحية المقرنة قد لدغتك يا خليل ، لما رأيت أمك مرة ثانية . " المذنب تأخذه السماء
فى يوم من الأيام ، هذه هى الخرافة التى تسيطر على الذهن البشرى وتستحوذ عليه ؛
وبالتالى يمكن للبدا أن يقولوا فى مثل هذا الحال : " الحقيقة أنه عدو الله ، وقد أثبتت
الأحداث ذلك . "

المؤكد أن هؤلاء الناس الرعاة هم أقل أفراد الجنس البشرى عبقرية وفهما ؛ هؤلاء
الناس ، إذا ما لدغ إنسان أو حيوان ، فهم لا يعرفون أى شىء أفضل من "قراءة" (ما
يسمونه القرينة El-kirreya) عليه . والقرينة هذه عبارة عن مجموعة من العزائم والرقى
تعلموا استظهارها وحفظها عن ظهر قلب ، وتتمثل فى بعض الكلمات المنتقاة من
القرآن (الكريم) ، قوة "كلام الله" ، فى ظنهم هى التى يجب أن تتغلب على قوة السم .
وفى كل قرية من تلك القرى الجائلة يوجد شخص أو إن شئت فقل : "قارئ" يُضجرُ
السامعين بقشور علمه ؛ أمثال هذا الرجل يكونون ضعيفى الفهم ، وليس فيهم أى
شرط من الشروط الحسنى ، وهم يخدعون أنفسهم بالخرافات وبالتالى فهم مستعدين
لخداع الآخرين . يقوم أصدقاء الملدوغ بإحضار ذلك الشخص ، وهم سيكون طالبين منه
مساعدتهم ؛ وفيما بين التقاط أنفاسه يقوم ذلك "القارئ" بالتفل على الجرح ، ويرش عليه
قليلاً من الملح . والبدو أناس طيبون فى حق بعضهم البعض ، بل هناك من بينهم ، فى
بعض الأحيان ، من يكون على استعداد لمص جرح صديقه أو قريبه . ولكنهم يعتقدون
أن كل ذلك لا طائل من ورائه إلى جانب "كلام الله" ، إذا ما أحسنت "قراعتة" ؛ قرأء
الصحراء هؤلاء - من جانبهم - وهم من الأميين ، يقرون بأنهم غير متعلمين . هناك
أيضا كثير من الأفراد الجريئين بين الأعراب ، وهم من الرجال والنساء ، وهم على
استعداد إذا ما لحق بهم أذى من هذا القبيل ، أن يتناول الواحد منهم أو منهن ، جمرة
من الوجار ، ويروح يحرق بها لحمه المجروح ، إلى أن تتطفى الجمرة فى العضو
المجروح : وهذا النوع من الرجال والنساء على استعداد لتحمل الألم بجلد بالغ (بحكم
أن ذلك من الضرورة ، وأن حياتهم ستصبح عذابا دائما) .

هؤلاء البدو لا يعرفون شيئا عن أربطة الأوردة الدموية ، ولكنى شاهدت صلوبى
يستعمل ذلك النوع من الأربطة فى يوم من الأيام : عندما لدغت حية زوجته فى ساق

أحد رجليها ، سارع الصلوبي إلى ربط الساق من فوق الركبة ربطا محكما ، وراح يمص السم . وبقيت زوجته طوال ليلة ويوم وهى شبه ميتة - كما اسويت بشرتها أيضا ، وبعد ذلك بدأت تتحسن شيئا فشيئا ، إلى أن عادت إليها صحتها وعافيتها مرة أخرى : شفيت تلك المرأة ولكن بشرتها بقيت على لونها المتغير فترة طويلة .. ومن باب البر والخير ، أن يعرف من يقدم على مص لدغة الحية أنه لن يصيبه أذى فى شفثيه أو فمه ، لأن الأمر لو كان غير ذلك ، فإنه سيؤدى إلى إصابة نفسه بالسم . حدث أن جاعنى رجل يطلب دواء ، وكانت شفثه السفلى حتى ذقنه عبارة عن قرحة مفتوحة : وقال بصعوبة بالغة (نظرا لأن الفيروس المريع كان قد أفسد صوته ،) إن هذا المرض الذى أصابه إنما كان من جراء مص لدغة حية من الحيات ، منذ عام مضى . أخبرته أنني أمل أن أتمكن من مساعدته فى الدواء ، وبالمجان ، جزاء له على شجاعته . ولكن ذلك البائس الملول احتقر ذلك الحكيم الذى لم يستطع شفاؤه على وجه السرعة . قابلت ذلك البائس بعد ستة أشهر فى قرية تيماء ، حيث قال لى : " انتبه يا أنت ! لقد شفثت مما كنت فيه ؛ " وكان اللحم قد كسى منطقة الجرح من جديد ، وأصبح شكله الخارجى يوحى بالشفاء .

والبدو ، مثلنا ، أو بالأحرى مثل ممرضاتنا عندهم ما يسمى أحجار الدماء التى تجعل الجرح يواصل النزف ، وهناك خرافة أخرى بين هؤلاء البدو يعرفونها باسم أحجار الثعابين ، التى يعتقدون فيها اعتقاداً شديداً (والسبب فى ذلك أن هذه الأحجار نادرة جداً فى العالم وثمانية جداً أيضا ،) بأنها لا بد أن يكون لها فضيلة خاصة فى مقاومة السموم . والفكرة الشرقية وراء عملية الأحجار الثمانية هذه ، تتمركز حول أن هذه الأحجار تحرك الذهن والعقل فى اتجاه العجائب الغريبة المدهشة ، وهذا المفهوم ما يزال إلى يومنا هذا يشكل قسما من التقييم العجيب للمجوهرات الخاملة فيما بيننا . هذه الأجسام المنتقاة التى تستعصى على الكسر والتحطيم ، شأنها شأن النجوم التى تسطع علينا من بين كتلة معتمة من المادة . تبعث الراحة فى نفوسنا وأجسادنا المتقلبة : من هذا المنطلق تصبح كل المجوهرات قريبة من القلوب مما يجعل له تأثيرا دينيا .

يزاد على ذلك أن الأحجار القديمة ، التي خصصت بواقع حجر واحد لكل قبيل ، أيام كهنوت القس الأكبر لبنى إسرائيل Israel، يمكن القول من باب الافتراض أنها كان لها المغزى نفسه إلى حد ما . بعض أحجار الثعابين التي شاهدها كانت ذات لون أحمر مشوب بالبياض ، أو من العقيق اليماني ؛ كانت الفقايع الموجودة فى تلك الأحجار قد جرى حكاها إلى أن أصبح السطح ناعما . ونظرا لأن كل هذه الأحجار لم تكن من نوع واحد ، فقد كان تقييمها يختلف من حجر إلى آخر ، ولكن ذلك التقييم كان يعتمد على فضيلة الشفاء التي يعزوها هؤلاء البدو لمثل هذه الأحجار ؛ وبناء عليه ، ذاع فى تلك البلاد صيت أحجار بعينها من أحجار الثعابين وبخاصة تلك الأحجار التى أحدثت الكثير من حالات الشفاء . " فى تلك البلاد ، حضر إلى النصرانى بعض هؤلاء الرجال الذين لديهم ذلك الذى يطلقون عليه أحجار الثعابين ، وأرونى تلك التذكارات بعيدا عن أعين العامة . كانوا يلفون تلك الأحجار لفا عجيبا فى خرقة من خرق مسح المواعين ، كانوا يخرجونها من كيس يعلقونه على صدورهم . ووجهت تلك الأحجار ، وأنا أمسك بها فى يدى ، ناحية الضوء وسألتهم : "ما الذى فى هذه الأحجار أزيد مما فى الأحجار الصحراوية الأخرى ؟ وأنتم إذا كان نكاؤكم أكبر من ذكاء الأطفال الصغار ، فيجب عليكم التخلص عن مثل هذه اللعب ، واللجوء إلى أربطة الأوعية الدموية التى تستخدم عند إجراء العمليات الجراحية" . ولكن أصحاب هذه الأحجار ، سرعان ما أخفوا أشياءهم على وجه السرعة ، نادمين لأنهم كشفوا عن روائع تلك الأحجار أمام دنيوى غير حاذق . البدو بينهم أيضا الكثيرين من أصحاب العقول المتفتحة ، الذين لا يؤمنون بأى شئ ، غير الظرف المتصل بدينهم ، ولذلك جاء ردهم علىّ على النحو التالى : "إذا كان الكثيرون قد عالجوا الكثيرين باستعمال هذه الأحجار ، فنحن أنفسنا لم نراهم يفعلون شيئا من هذا القبيل ! " ولكنى عندما سألت أصحاب هذه الأحجار : "هل أنتم إذن أدعياء أو دجالين ؟" أجابونى قائلين : "أبدا ، وبصدق ؛ بوسعنا تقديم كثير من الشهود أن الأشخاص الذين لدغتهم الحيات جرى انقاذهم باستعمال هذه الأحجار ، التى تعترض عليها أنت ؛ ولكنك لم تولد فى هذا البلد ، وبالتالى فأتت تكون مخطئا

فى الأمور التى من هذا القبيل . قالوا لى أيضا ، إن بعضاً من ملاك هذه الأحجار لديهم أحجارا استطاعوا بها "مراراً شفاء لدغات الثعابين من 'الديدان' الخطيرة ؛ كما أخبرونى أيضا أنهم حصلوا على جمل على سبيل الأتعاب نظير شفاؤه من لدغه الثعبان .

معروف أن كل أبناء القبيلة هنا يُدْعَوْنَ 'عيال' 'eyyal' عم 'amm بمعنى 'أبناء عمومة' ، ويشيع عنهم أنهم أبناء لسلف أو إن شئت فقل : جد واحد . كما تجمع بينهم القرابة أيضا عن طريق سلالة نسبية أخرى ، سمح لأفرادها بالانضمام إلى القبيلة ليصبحوا 'عيال' 'عم' أيضا مع بقية أفراد القبيلة ؛ وأقرب مثال على ذلك هم الموءاهيب ، الذين هم من سلالة العنوز(*) Annezy ، وجرى تطعيم قبيلة البلّى بهم ، وأصبحوا يحتملون نسب البلّى . وبذلك يكونون قد أصبحوا 'أبناء عمومة' من الجانبين . وإنه لمن باب التملق والمداهنة فى القبائل ، أن ينادى النظراء فى السنّ الواحدة بعضهم البعض باسم 'ولد' 'weled' عمى 'ammy . والعلم عند البدو هو شقيق الأب ؛ يضاف إلى ذلك أن كلمة 'عم' تطلق أيضا على رب الأسرة مثل الرجل الذى أحل عليه أنا ضيفا الآن ؛ وكلمه 'عم' تطلق هنا أيضا على 'زوج الأم' عندما يناديه طفلها من زوجها السابق . يضاف إلى ذلك ، إن كلمة 'عم' على لسان الخدم أو العبيد ، تدل على رب نعمة ذلك الخادم أو العبد ، (من هنا فإن الإسبان يستعملون كلمة 'عمو' Ammo ، من بعد وجود المغاربة فى أوروبا) . والشخص الذى يكون أكبر من شخص آخر ، ويحل ضيفا على قبيلته ، يقول عن المضيف 'ابن' 'ibn أخى' . akhy . وكلمه 'أبوى' 'abûy (بمعنى والدى) هى لقب يدل على الوفاء والاحترام من شخص أقل فى المرتبة إلى آخر أعلى منه مرتبة وتقديرا واحتراما ، كما هو الحال فى رب الأسرة ، (وعليه كان داود David ، عندئذ رئيسا للمطاريد . والرئيس الشرعى لشعبه ، الملك شاول Saul) تعبيرات وعبارات الإقناع الهين اللين ، التى تجرى على ألسنة هؤلاء البدو تفيض إنسانية وهى تصدر من قلوبهم عندما يقولون : لصالحك ، 'أنا' 'ana أبوك' 'abûk بمعنى 'كلامى صادق ، وأنا

(*) العنوز : من قبيلة عنزة . (المراجع)

والدك ، أو 'أنا' ana ' أخوك' akhūk بمعنى "أنا شقيقك" أو عندما يقولون : 'أنا' ana 'أختك' akhtak ، أو أنا ' أمك' . ummak وهناك تعبير شبيه بهذه التعبيرات الهيئة اللينة يتمثل في فيما ورد عند (سيدنا) موسى عليه السلام ، والذي يجيء وفقا للوصايا السماوية ويقول : "أنا خليفة Lord ربك . thy God"

بالرغم من أن البدو يعيشون في وئام وانسجام مع بعضهم البعض ، إلا أنهم فثويون أو إن شئت فقل : طائفين ! وأصحاب العقول غير الحصيفة من بين هذا النوع السائد من البدو سرعى الاستثارة والدخول في الصراعات ، إضافة إلى أنهم يشيع عنهم أيضا سلاطة ألسنة نسائهم . هذه القرية الجائلة تنشب فيها يوميا بعض الخلافات ، وعندما يجيء الصباح تحال هذه الخلافات كلها إلى المجلس . سكان الواحات ، الذين يشبهون الطيور المحبوسة داخل أقفاصها ، أكثر فهما وأكثر تفهما أيضا . وفي أحيان كثيرة تنشب نزاعات مزعجة ، حول تأكيد ملكية شيء من الأشياء التافهة : ففي الصراعات أو النزاعات التي تكون من هذا القبيل يظن كل طرف فيها أنه هو الوحيد الذي في كفة الميزان ؛ والبدو عندما يتنازعون على سبيل المثال حول شيء من قبيل : تيس من هذا ؟ (وقيمته لا تساوى أكثر من اثني عشر بنسا) - أقسم بالله ، إنه تيسى أنا . - مستحيل ، انظروا ، يا كل الواقفين ، واشهدوا ؛ بالله عليكم ، أليست هذه هي العلامة التي أحدثتها أنا في أذن هذا التيس ؟ الغضب مسألة سريعة ، بين هذه القلوب التي تحيا حياة جوع وخوف ، وتسهل استثارتها : صدور هؤلاء البدو الضيقة تنطوى على قدر كبير من الشهامة ، هذا يعنى أن الضعيف ، وصاحب الحظ غير الوفير بين هؤلاء البدو ، قد يثور ويفور ويشتط غضبا إذا ما أساء إليه أحد من الناس . يضاف إلى ذلك ، أن في داخل هؤلاء البدو ، منذ الطفولة ، نوع من الخلاف القديم الذي يتعين تفريقه والخلاص منه . - هذه التركيبة النفسية تتجلى بصورة أوضح في الرعاة وأمثالهم عنها بين سلالة الشيوخ ومن في حكمهم ؛ والسبب في ذلك أن هؤلاء الشيوخ هم ومن في حكمهم تزول خلافاتهم في المجلس الذي ينعقد يوميا وفي صحبة القهوة التي تتسم بالآلفة والمودة . وإذا ما أفلتت كلمة حارقة من بين شفاه سائبة لرجل مشاكس نكد ، يمكن أن تشعل نارا حامية في قلوب هؤلاء البدو ، وقد

يصل الأمر إلى حد أن يسحب البعض منهم السلاح على البعض الآخر في ميدان القتال . وهنا يندفع كل الحاضرين بمحض إرادتهم لفض ذلك النزاع : (يصيح أولئك المحجّزون) بالله عليكم ! لا داعى لكل هذا ؛ واطرحوا الأمر أمام الشيوخ ليبتوا فيه ؛ والمطلوب منكما الآن أن يذهب كل واحد منكما إلى بيته ، وسوف نصحبكما إلى بيتكما ؛ ولذلك يمكن تأجيل نزاع من هذا القبيل إلى طلوع النهار ، حيث سيجرى الفصل بالعدل بينكما . " وشيوخ البدو يحكمون فى هذه الأمور حكما عادلا ومنصفا ومستمدا من الشرع ؛ والشيوخ هم صنّاع السلام فى المنزل ، وهم أيضا المحكّمون بين رجال القبائل .

ذات مساء ، أحضروا لى رجلا ينزف من ذراعه ، وكان الرجل قد أصيب منذ فترة وجيزة بضربة سيف من واحد من بدو الفهجى ، وأحدثت تلك الضربة قطعا فى ذراعه : كان ذلك الرجل قد تنازع مع الفهجى فى ملكية عنزة صغيرة ، وعندما ظن ذلك الفهجى المسكين ، إنه غلب على أمره دون وجه حق ، بادر إلى نزع سيفه القصير من غمده ، وضرب به ذلك المعتدى ، - وسارع الجيران إلى مكان النزاع وأمسكوا بالاثنتين ، غمغم زيد ونحن جلوس حول وجار القهوة قائلا ، - " عجيب أن يكون فهجى هو المعتدى ! (والسبب فى ذلك أن بدو الفهجات من نجم وضعيع ، وبالتالي فهم يشكلون سبيكة من نوع خسيس ، وبالتالي فهم سلالة وضيعة ومحتقرة بين الأعراب .) ولم يحدث مطلقا من قبل أن رفع بدوى من بدو الفهجات سلاحه على واحد من بدو الفجبرى . " هذه السلالة الصغيرة من بدو الحطيم هم بمثابة الزبائن التقليديين ، أو إن شئت فقل : (العملاء التقليديين الذين يسكنون ديار الفجبرى . من هنا فإن شيوخ الفكارا ، وزيد واحد من كبارهم ، يتعين عليهم أن يحكموا فى الصباح بين هذين الرجلين بلا تمييز أو محاباة : وقد بلغنى أن الشيوخ أدانوا الفجبرى ، وحكموا عليه بأن يدفع عددا صغيرا من رعوس الماشية ؛ ولهذا السبب ، وجدت ذلك الفجبرى ، فى فترة لاحقة ومعه أقرب أقاربه يعيشون عيش المنفيين ضمن قبيلة أخرى . دفع هذه الغرامة يمكن الوفاء به (وقبول نفس العدد المحكوم به من الماشية) فى أى عام من الأعوام المقبلة ، ومن خلال الزيادة الطبيعية التى تطرأ على مواشيهم ، وبذلك يستطيع أولئك المنفيون رد اعتبارهم :

والسبب فى ذلك أن مسألة الربا ممقوتة وغريبة على التعامل الأخوى الذى يحكم العلاقات بين القبليين الرُّحُل .

يقول الرحالة الذين وصلوا إلى هذه البلاد عن بدو الفهجات ، وذلك من قبيل ضرب الأمثال : "الفهجات مرحون دوما . " وما هى الهموم التى يمكن أن تشغل بال أولئك الذين يحيون حياة ملوثات الهواء ، الذين لا يتطلعون إلى الحصول على أى شىء أو خسارة أى شىء فى هذه الدنيا : والفهجات بشكل عام يحضرهم دوما المرح الخفيف الطريف ، ولديهم شىء من اللطافة التى يتحلى بها الشحاذون . وهم يقولون إن والدم هو مرحاب Marhab ، ذلك الشيخ الذى تولى أمرهم بعد أن فتح المسلمون خير القديمه . - ترى ، هل هؤلاء الفهجات هم يهود خيبر ؟ لقد رأيت دولان Doolan ، أشجع وأفقر هؤلاء العناترة (جمع عنتر) ، وقد طرح أرضا طيلة ليلة ويوم بعد أن تبيست شفتاه لنا بذلك الاعتراف الشهم ! وهو فى ذلك يشبه سيده الأكبر عنتره ، الذى اعترف متفاخرا بسلالته غير الحره من ناحية أمه ، الأمر الذى أحرزته بعد ذلك . اعتقاد الفهجات فى ذلك ، أو تصديقهم لذلك ، هو الذى كان يجعلهم ينظرون إلى النصرانى (دوتى) باعتباره واحداً من أقربائهم القدامى ! ونظرا لأنى كانت توجه إلى الاتهامات بسبب دينى ، فقد كان ذلك يكسبنى حسن ظن هؤلاء الفهجات ، الذين كانوا هم أنفسهم عبيدا لحظ عاثر عنيد . فى بعض الأحيان ، كان هؤلاء الفهجات يقترحون على أن أتخذ لنفسى زوجة من أجمل بناتهم ! ومبلغ علمى أن نساء الفهجات (الحطيم) هما الشكلىن المفضلين من أشكال النساء فى هذا المخيم الكبير . وبينما كنت راكبا دابتي أثناء واحدة من الرُّحلات ، رحب بى زوج إحداهن ترحيبا شديدا - أنا لم أر هؤلاء الناس من قبل - "أنت ، يا من تسير هناك ، خليل ! " - ويش weysh ودك widdak يازلامى Yazillamy ؟ بمعنى "أيها الرجل ، ماذا انتويت ؟ " - أقول ، ألا تود الزواج ؟ أليست هذه (زوجته) امرأه جميلة ؟ وفيما بين مرحهما الاستجدائى ، والتطلع إلى تحقيق الفائدة ، يصيح ذلك الفهجى مبتهجا قائلا : "والله ، لو أحببتك هذه المرأة ، فسوف أسرحها (ناطقا بكلمة الطلاق) ؛ كل مافى الأمر يا خليل ، هو أنك سوف تسوق إلى (بمعنى تدفع لى) خمسة من الإبل . " - التى أقسم أنه دفعها مهرأ لها .

كانت تلك المرأة فارعة الطول وترتدى ملابس جميلة كما لو كانت عشيقة أو محبوبة ؛ وكانت تلف حول خصرها النحيل حزام صغير مزين بالدانتيل جميلة الألوان ؛ كانت تمشى حافية فوق الرمال الجرداء ، وهى واثقة تماما من تمرد عجيزتها ، فى تلك الصحراء التى يعيشون فيها . " (تساءلت) وما رأيك أنت ، يا أختاه ؟" ردت على قائلة : "إذا كنت ستقبلنى ، على هذا الوضع ، يا خليل ، فأنا مستعدة لذلك " - هكذا نرى أن الزواج عندهم خفيف وسهل على هذا النحو ، وكلهم تقريبا تعساء ولا يستشعرون السعادة ؛ وتجاوزتهما فى صمت بحكم سرعة خطوات الناقة التى كنت أركبها . وفى يوم آخر ، شاهدت تلك المرأة وقد جاءت لحضور احتفال ختان ، وحبيتها مناديا باسمها ، ولكن بسبب كلمه ساخرة خرجت متى ، أفهمتني بنظرة جريئة ، أنى أصبحت محطا لاستيائها وعدم رضاها .

أثناء تجوالى مع الفجير رأينا شيخا ساخطا ومتذمرا من العلايدة Allayda شيوخ ولاد على . كانت هناك بعض أسر من الفقاره يعيشون منفيين مع ولاد على . نزاع هذا الفرع من العلايدة كان مع فرع آخر منهم يتزعمه الشيخ مطلق العلايدة . وكان ذلك النزاع يتعلق بمسألة توزيع صرة الحج . كان مطلق يرى أن نصيبه أقل من المطلوب ، وأن الطرف الآخر من النزاع حصل على مبلغ أكثر مما يستحق . وبناء على ذلك ، ويحكم سلطته التى يستمدّها من الرأى العام ، قرر الاستيلاء على إبل الطرف الآخر . علايدة الشيخ مطلق لم يكونوا رجالا طيبين وذلك من منطلق الرأى العام فيهم ؛ فقد حدث أن قلت ذات مرة ، وأنا فى خيام أولئك الشيوخ بمناسبة الكارثة التى حلت بهم (ولاد على) نتيجة الغزو الذى قام به أعداؤهم ، أننى أشعر بالأسف لما سمعته عن الكارثة التى حلت بهم ؛ رد على أولئك الشيوخ رداً يتسم بالبرود "لم تكن المتسببين فى تلك الكارثة ، وإنما إله البشر Bishr هو الذى أنزل بهم ذلك المكروه الكبير . " كان منزل الفكاره يحتوى أيضا على أسرتين أو ثلاث أسر من الأسر التى ليست قبلية تماما ، كانت هاتان الأسرتان أو الثلاث تتمثل فى أبناء بعض رعاة القلعة من الدمشقيين السابقين ؛ وبعد أقول نجم آبائهم تحولوا إلى بنو تجار بسطاء مع أقارب أمهاتهم . وبعض آخر من أشقاء أرباب هذه الأسر تحولوا إلى الحياة المدنية (الحضر) وعاشوا

حياتهم فى المدينة الأم ؛ وقد سبق لنا أن قلنا إن هؤلاء الأشقاء كانوا يحضرون كل عام من سوريا للإتجار مع هذه المنطقة فى موسم الحج . أما ذلك القسم الذى بقى منهم فى الصحراء فقد تحولوا إلى بدو رُحُل ؛ ولكنهم كانوا أصحاب بشرة بيضاء وملامح أجنبية غير ملامح البدو ، ولم يكن لهم تأثير مثل تأثير البدو . أشباه البدو هؤلاء كانوا يعودون كل عام ، فى شهور الصيف ، (بعد أن يدب الملل فى نفوسهم من كثرة ترحالهم ،) لينصبوا خيامهم أمام القلعة القديمة (التى سبق أن ولدوا فيها) فى قرية الحجر . ومع ذلك كان من بين هؤلاء البدو شخص واحد ، هو أجراء نخَّاس فى القبيلة كلها . كان ذلك الرجل يداوم على الإغارة والغزو بصورة مستمرة طالما وجد لنفسه مثيلا يشاركه العمل نفسه ، ولما كان هو شيخ المنصر ، فلا بد أن يأخذ نصيب الزعيم من كل غنيمة من الغنائم . ثم يقوم بعد ذلك بالتجوال فى الصحراء الجرداء الجافة التى تحرقها أشعة الشمس . هؤلاء البؤساء الذين كانوا يقومون بعمليات الغزو تلك ، كانوا يسطون على بيوت الأعراب المعادين لهم ، ويواصلون الركوب والنزول لحين حلول الليل ، ثم يتسللون بعد ذلك إلى البيوت التى يتوون السطو عليها - بعد أن يقيدوا إبلهم ويتركونها فى منطقة آمنة بعيدا عن تلك البيوت - أملا فى سرقة بعض الإبل ؛ ولكن هؤلاء الغزاة (اللصوص) كانوا يعودون إلى ديارهم من تلك الأعمال الخطيرة ، وهم يلهثون من شدة التعب ، ودون أن يجنوا أو يحصلوا على أى شىء من الغنائم . كان شيخ المنصر هذا شجاع شجاعة الفرس الكديش الهزيل الضعيف . ففى كل تجوالهم وجوئهم فى الصحراء ، كان يتحتم عليه أن يجعل من رفيقه عينين له ؛ فقد اكتشفت أن عينيه كانتا شبه مغلقتين بفعل رمد قديم .

بعد انقسام القبيلة طالت أيامنا الخائقة الخالية من الريح من ناحية ومن المجلس من الناحية الأخرى ؛ ومع ذلك ازدادت روابط الصداقة بين هؤلاء الجيران القلائل . كان زيد فى بيته بصورة مستمرة ؛ كما كان رفاقه الشيوخ يفدون إلى ذلك البيت ، وكان هو بدوره يصلح لهم القهوة ويقدمها لهم . كانوا كلهم أبناء عمومة ، ولم يكن فى قلب المضيف غلا أو حسدا لأحد منهم ؛ إضافة إلى أن البدو يميلون إلى المرح ؛ كان ذلك المرح ينصب على آخر ما وقع بين حرفة وزيد ؛ كانوا يسخرون دوما من سلوك تلك

الزوجة الشابة الشاذ غير المقبول . "يا حرفة ! يا حرفة ، أجلسى صامطة خلف الستار ، وحاولى أن لا يكون لك لسانا حريما ؟ قفى فى مكانك ، واسمحي لوجهك الصغير أن يرى من فوق القماش ، ويرئى نفسك أمام جميع الحاضرين . يا حرفة ! ما هذا الذى نسمعه منك ، أما زلت تعاندين زيدا ؟ ألم تنس زيدا بعد ؟ أما زلت تتركين زيدا بلا عائله (ربة بيت) ؟ وهل يتعين أن يقوم خليل بإحضارك إلى البيت مرة أخرى ؟ ماذا عندك لتقولينه دفاعا عن نفسك ؟" وهنا يتكلم الشيخ خلف علادة فيقول : "قل لى رأيك يا خليل فى فرسى . إنها تساوى خمسة وثلاثين جملا ، كما أن أمها تساوى خمسة وعشرين جملا ؛ ولكن فرس زيد لا تساوى خمسة جمال - ثم . ألم تر جارا (jara) ربه بيتى (؟ قل لنا يا خليل من منهما صاحبة الوجه الأجل أم حرفة أم جارا . " وهنا ظهر وجه حرفة وعليه مسحة من الغضب ، وقالت إنها لا تطيق ولا تقبل هذه المقارنة : "يا خليل ! لا ترد على ذلك . " كان ذلك هو لهو الأعراب فى حياتهم داخل الخيام ، كانت أفواههم تطفح بالسخرية والاستهزاء . ويطلبون من الغريب ، أن يلعب دور القاضى فى تلك السخرية وهذا الاستهزاء . كانوا يسألون الغريب : "أليس هذا جومانى (عدو) ؟ يا خليل ، إنه حبلوص (لص) ! ما الذى ينبغى أن نفعله فيه ؟ هل أقطع رأسه ؟ - ويقولون ، هذا الرفيق العجوز ، لا يفعل شيئا مع زوجته ؛ من باب الشفقة ، ألا يمكن لك أن تساعد ؟ أليس له من نواء ؟" - ويقول الرجل العجوز ، : "لا تستمع إلى كلام هؤلاء المخبولين . " وهنا كانوا يقولون : "هذا الزيد لا طائل منه ، فلماذا تعيشين معه ؟ وهل حرفة طيبة معك ؟ إنها تصب لك اللبن ؛ وهى جميلة ، إنها مزعونة mez'una لولم يكن هنا غرباء . لدخلت علينا حرفة فى مثل هذه الأوقات ، وجلست معنا لتمرح هى الأخرى معنا ؛ لقد كانت حرفة شيخة ، وكان زيد رجلا كديشا ، وكان يرى بين البدو فى معظم الأحيان . وفى بعض الأحيان ، ومن باب تزجية الوقت ، كانوا يسألون عن بعض كلمات من لغة النصرانى ، ويعد أن كانوا يحفظونها عن ظهر قلب كانوا يتأبون حرفة بصوت عالٍ ، وبلغة إنجليزية واضحة قائلين ومنادين عليها : Girl, bring milk ! بمعنى "أحضرى الحليب ، يا امرأة" - وحياتك يا حرفة ، لقد تعلمنا إنغريز Enghreys هذا المساء . " وتتكلم حرفة فتقول : "كلمة 'خان' ما معناها فى لغة خليل ؟" - إنها

Tobacco بمعنى "التبغ" . - إذن ، أعطيني شيئا من هذه الكلمة الطيبة فى غليونى ،
إملا لى رأس غليونى ، يا خليل ! - فى يوم آخر ، وصل رجل قبلى وجلس بالقرب من
حرفة فى القسم الخاص بها من البيت ! وعندما رأى الغريب سألنى : "خبرنى ، أليست
حرفة مزعونة (جميلة) ؟ أه ، ليتها كانت زوجتى ! " وراح هذا الوغد يكشف عما يدور
فى ذهنه بإشارات فيها كثير من الخسة . وعندما وجدت حرفة نفسها فى موقع الغزل
والتودد ، بالرغم من أن ذلك الرجل لم يكن من الشيوخ (جلست بلا حراك وابتسمت ؛
بينما راح زيد ، الذى يستطيع أن يلعب دور الإنسان الوقح سليلط اللسان فى زواج
الآخرين ، يتمالك نفسه ويبتسم ابتسامة الرجال .

ربما يكون زيد قد أخذ بعين اعتباره مسألة تخلصه من حرفة فى يوم من الأيام ،
نظرا لأن ما يزعج قلب الرجل هو المرأة المزعجة التى تثير القلق ! - بينما كنا نجلس
ذات مساء ، على شكل صحبة قليلة العدد ، حول وجار قهوة زيد قال الرجل : "والله ،
يا خليل ، أنا وأنت أخوان . وكدليل على ما أقول ، قأنا أسألك ، ألا تفكر فى الزواج
وأنت بيتنا ؟ انتبه ، أنا لدى زوجتان ، وأنا أقسم بالله ، أنى أعطيك الحرية فى أن
تختار واحدة منهما ؛ خبرنى من منهما تريد . وسوف أتركها لك وتصبح زوجة لك . ها
هى مضيفتك حرفة ؛ والأخرى اسمها بشرية Bishria ، وأنا أعتقد أنك رأيتها هناك . " -
ربما كان يفكر فى إعطائى حرفة ، على أن يستعيدها مرة ثانية (معدلة) بعد رحيلى
وبالتالى لا تضيع منه إبلاها ؛ إذ يعولى أنه تزوج من إبلا تلك اليتيمة . ورددت على ذلك
العرض اللطيف قائلا : "إذا كانوا يودون زواجى ، فينبغى ألا يكون ذلك من زوجة من
زوجات الرجال الآخرين ، لأن ذلك يتعارض مع عقيدتنا ، ويجب أن يعطونى رخيّه
Rakh?eh رحية ، تلك كانت طفله من أطفال أخت زيد . كانت قد تعودت المجيء يوميا
إلى خيمتنا كى تلعب مع أخوانها من الأطفال . رد زيد قائلا : "أسمعين ما يقول يا
حرفة ؟ سوف أعطيك حالا إلى خليل ، ولكنه فضل عليك طفلة . " قالت حرفة وهى
مستاءة إلى حد ما : "حسن ، نفذ ما يقول ، وأنا لا تهمنى أراء خليل . " - حدث أن
التقتنى زوجة زيد البشرية وسبعة العينين ، بعد ذلك ، فى يوم من الأيام ، فى المخيم ،
وعرضت على ، فيما بين الجد والهزل ، ودون أن أطلب منها ذلك ، أن تأخذنى إلى

زوجها ، وعلى أن يقوم زوجها بتطليقها : ولكنى يتعين على شراء بعض من الماشية الصغيرة ، وبيت من بيوت الشعر ، وبعض من الإبل ؛ عندهما (فى ظنها هى) يمكن أن نحيا صحبة سعيدة ، نظرا لأن النصارى لا يتخلون عن زوجاتهم . فى بعض الأحيان كان بعض الآباء يعرضون بناتهم الأطفال ، ويثنون على جمالهن ، ويشهدون كل الحاضرين على ذلك ؛ كان الشباب يعرضون على شقيقاتهم : وكان سبب ذلك أن زيدا أشاع أن خليلا ، الذى جاء للعيش معه ، سوف يشارك فى عمليات الغزو ويصبح واحداً من المتأهلين . وبالرغم من الحسد والغيرة اللذان يدوران فيما بينهم ، لم يكن من بينهم أى أحد غير راض عن أبوة النصارى . نظرا لأن سلالة النصارى مفضلة فى عقيدتهم ؛ كما أن البشرة البيضاء ، هى من وجهة نظرهم ، إشارة إلى سلالة نسبية متجانية ، أكثر من سلالتهم . ولما كان هؤلاء البدو عبارة عن بشر على قدر عال من الخيال الجامع ، فهم يتصورون أنفسهم ملونين وملينين بالعيوب والأوجاع ؛ وهذا هو سر حزنهم . عرفت بعض البدويات اللاتى كن يحتقرن الزواج من بدوى ؛ كما عرفت أيضا نساء من الواحات كن يحتقرن الزواج من بين القرويين فى القرية نفسها . وكانت تلك البدويات يعتبرن مسألة زواجهن مصادفة من واحد من سكان المضارب المستقرة . نوعا من التقدم والرقى . يضاف إلى ذلك ، أن بنات البدو يسهل تزويجهن من رعاة القلاع والعاملين فيها .

لا يبقى فى خيمة رب الأسرة سوى الأيلات الصغيرة ، هى والصبية الصغار الذين يكونون دون الحلم ، وهم أيضا الذين يسمح ببقائهم بغير زواج . والرجل الأعزب ، بين قبائل الصحراء يعد بائسا فى واقع الأمر ، وبلا خيمة ، نظرا لأن الخدمات المنزلية كلها من اختصاص الحريم : وفى وجود عدد كبير من النساء المهجورات ، والأرامل . لا يعجز أى رجل من الرجال البائسين عن إيجاد صنعة make تشاركه 'البناء' ، والتحميل ، والطحن ، وجلب الماء والحطب : ومثل هذا الرجل لا يكلفه الأمر شيئا سوى ذبح شاه (أو عنزة إن كانت موارده محدودة لوليمة العشاء . والحريم لا يصدقن ، أن رجلا يمكن أن يسكن وحده ، فى ضوء مزايا الزواج التى تُرجَّح صفه أو تقف إلى جانبه . والبدويات اللطيفات يسألن الغريب ، على استحياء ، عن الزوجية : "أليس لديكم حريم

يبيكن عليكم فى بلادكم؟" - والحريم عندما تغيب عنهن مساعدة الرجل وعونه فى بيت الزوجية ، يصبحن أرامل فى واقع الأمر . ومن باب كلام المداعبة مع الضيوف المترجلين ، وكذلك الغرباء الذين يحلون على خيامهم ، "تجوزك" nejawwozek بنت " bint ، بمعنى "سنعطيك فتاة عذراء لتكون لك زوجة . " كنت أرد على ذلك قائلا : "ما الذى يتعين عليها فعله فى بلادى ؟ هل يمكن لها أن تنسى لغتها وأهلها وشعبها الذى يعيش هذا النوع من الحياة فى الصحراء القاحلة ؟" وكانوا يردون على : "ليس هنا سوى الجوع والعطش والعري ، وبلادكم بلاد طيبة ؛ وهذا يعنى أن الزوجة سوف تطيعك وتخدمك ، وهذا أفضل لك : والرجل الأعزب يحس كثيرا من الأسف ، كما أنها سوف تتعلم لغتك ، كما تعلمت أيضا اللغة العربية . " ولكن البعض منهم كانوا يغمغمون بكلام غير مفهوم : هذا من قبيل الحقد من النصارى ، ولن يتزوج خليل ، مخافة أن ينمو الدين الإسلامى وينتشر فى بلادهم . " بعض ثالث كان يقول : 'من العدل اعطائى زوجة ، لتحقيق ذلك الهدف ، أى على أمل قيام العابدين المخلصين بين النصارى ، أو بالأحرى بين أولئك الذين لا يعرفون الله . ' وسمعت أيضا يتردد بين هؤلاء البدو : "تزوج يا رجل ، وخلف لنا بنتا بيضاء ، التى يمكن أن تكون فى يوم من الأيام زوجة لواحد من كبار الشيوخ . " ربات البيوت البدويات يتمتعن بحرية كبيرة . القلة القليلة من النساء الجيدات ، المتزوجات من رجال لهم وزنهم ، والذين أنجب منهم أطفالا يندر وجودهن ويتندر الناس بجمالهن وحسنهن . والحريم نوات القيمة الأصغر ، اللاتى يتنقلن من زيجته إلى أخرى ، ومن سرية إلى أخرى ، واللاتى يشعرن يوما بالتدنى ، يكن يوما محطا لكلام البدو ، الذى يكون مصحوبا بالكلمات المخزية الخالية من الحياء والتلميحات والإشارات إلى النساء المهجورات . والضال من الجنسين يطلق البدو عليه اسم 'عقون' بمعنى 'الشخص المتعفن' . و 'الخدارى' فى خيام البدو من العذراوات ، اللاتى هن تحت وصاية آبائهن وأخوانهن ، ويحظين بتقدير كبير من الرأى العام . وعندما تقوم بنات من بعض الخيام المنعزلة ، برعى الماشية ، شأنهن شأن بنات يثرو Jethro المدينيات (*) Miadianite ،

(*) بنات يثرو المدينيات : بنات شعيب (عليه السلام) من أهالى مدين اللاتى تزوج سيدنا موسى عليه السلام واحدة منهن . (المراجع)

نراهن ترعين قطعانهن فى الصحراء ولا تخفن من أى شر أو مكروه ؛ إذ ليس هناك شاب من شباب القبائل على استعداد لممارسة أى ضغط أو قمع على مثيل هؤلاء العذراوات (بالرغم من خسة الكثيرين من هؤلاء الشباب) من منطلق إنهم شباب متدين . والجميع هنا ينظرون إلى خرق عقيدة الصحراء والخروج عليها ، وكذلك على تعاليم الدين الإسلامى ، على أن كل ذلك حرام فى حرام ؛ من هنا يصبح من يذنب غير جدير بالعيش بين هؤلاء البدو ، أو إن شئت فقل : فى خيام الأعراب .

مضت إلى الآن ، فترة طويلة على خيامنا السوداء التى نصبوها فوق تلك الأرض الرملية ، الواقعة أمام ذلك البروز الأبيض من صحراء النفود : أو إن شئت فقل : ساحل إرنان Irnan الموجود أمامنا ، الذى تعد تشققاته الوعرة ، التى ينمو فى كل شق منها نوع من الأعشاب الصغيرة التى تتغذى من ذلك الجو القاحل ، وتعد مأوى للماعز البرية التى لا تشرب الماء مطلقا . هاهى ليلة الصيف قد أوشكت على الانتهاء ، وهامى الشمس تشرق مثل تاج من اللهب المعادى منبعث من قمم جبال الحجر الرملى الطاردة ؛ ونهار الصحراء لا يجىء متدرجا ، ولكن النهار يتحول إلى ظهيرة خلال ساعة واحدة . وهنا تدخل الشمس مثل طاغية على سطح الأرض الجرداء ، وتتدفع نحونا مثل لهيب من الأشعة النيرانية ، لا يمكن أن تتبدل إلا بعد فترة طويلة من حلول المساء . - الطيور هنا لا تعرف الصياح . حبارى الصقور هنا ، التى لها أصوات مفعمة بالسعادة عندما تكون فى تلك الأرض الشاسعة والقاحلة ، لا وجود لها هنا فى هذا المكان ؛ هذه الحرارة الشديدة لها خطورتها على الرأس ؛ الأذان هنا تطن بفعل نبذبات ذلك الصوت الحاد ، وهذا الطنين يبدو كما لو كان نوعا من الزحف أو التسلل الغامض ، فى إطار هذه الطبيعة التى تضربها الشمس : لمعان الرمل الساخن يرتد إلى العينين ، والمرطبات جد قليلة فى خيمة المأوى ؛ هذه الخيام الصوفية يتسرب من خلالها المطر النارى الناتج عن ضوء الشمس ، وهذه هى الجبال ، تبدو كما لو كانت عظاما جافة من خلال الهواء الراكد ، ونراها على بعد من حولنا : هذا هو الجنب المتوحش من مغارة Moghrair الأب ybba ، وهذا هو الطرف العلوى المدبب ومصاطب الجبال el-Jebal المدمرة ، التى يطلقون عليها اسم شيباد Chebàd ، أو إن شئت فقل : ساحل حلوان Helwàn !

قطعان الإبل البدوية الضعيفة تتلوى منتشرة هنا ، بحثا عن المرعى وسط هذا البلد الخائق ، الذى أتت فيه أسراب الجراد مؤخرا على الأخضر واليابس . هذا الهواء الساكن الحارق من حولنا ، يتعين علينا تحمله ونحن نكاد نختنق إلى فترة العصر : عندما يفيق الأعراب الغافون بعد ساعات الكسل والوخم . هاهو النهار الطويل ينسحب فى اتجاه غروب الشمس ؛ وما هم الرعاة ، بعد أن أعيتهم الشمس ، يعودون الآن ومعهم ماشيتهم ، ليتذوقوا فى منازلهم بشائر حلوة المرح والراحة . - يأفل النهار ، وهنا يبرز انتعاش الليل من بين ثنايا هذا الهواء الصحراوى النقى : وهنا ينصرف الجميع إلى الأغنية الجميلة المبهجة وفنجال القهوة من حول ذلك الوجار العام . ويطلع القمر مشويا بالاحمرار من خلف الجبل كما لو كان مصباحا قويا من مصابيح الإشارة :- ويوم باكر سيكون مثل يوم الأمس ، كلها أيام غارقة فى شمس صيف هذه الأرض القاحلة الجرداء .

كان ذاك الجزء الشرقى الوعر من البلاد ، الذى وصلنا إليه فى رحلة من الرحلات ، غير معروف للبدو الذين كنت أرافقهم ؛ لابد أن جيلا أكبر من الجيل الحالى هو الذى وصل فى تجواله إلى ذلك المكان ؛ ومع ذلك ربما لم يعثر ذلك الجيل على الماء المطلوب . تجولنا خلال هذا الجزء الشرقى فى السهول المرتفعة ، (كان الارتفاع فى هذه المنطقة يصل إلى ما يقرب من ٤٠٠٠ قدم) وفى الممرات الممتدة بين قمم صخور الحجر الرملى ، المزخمة بعدد لا يحصى من الصخور المتساقطة ، التى نصبنا فيها خيامنا أثناء النهار كي نستفيد بالظلال الناتجة عنها . ومن بين هذه المناطق الصخرية ، كانت هناك منطقة ، ربما لم تتساقط صخورها خلال جيل واحد ؛ ولكن هذه الصخور تشير إلى سنوات طويلة من الشمس شأنها فى ذلك شأن الرمل ، الذى يشكل جانبا صغيرا فى أى كوكب من الكواكب .

فصل الربيع القصير هو المتنفس الوحيد فى العام الصحراوى . فالحيوانات والبشر يسبحون خلال ذلك المد الزاهر ؛ كما تحصل الماشية على ما يشبعها من المرعى الطو ، كما يتوافر لبن الخَض butter-milk فى بيوت الأعراب المصنوعة من الشعر !

ولكن خيمة زيد كانت خلوا من ذلك النوع من اللبن . هذه هي التيوس والحملان تقف كلها مربوطة أو إن شئت فقل : مقيدة ، كل رأس صغير مربوط إلى عقدة في حبل أرضى مفروود على أرض الخيمة البدوية . وعند طلوع النهار يجرى إطلاق هؤلاء الصغار تحت النعاج ، لتستقبل كل ذات حَمَلٍ حَمَلَهَا (وهي تميز ولدها عن طريق الرائحة) - وهي ترفض أي حَمَلٍ غير ولدها . وعندما يطلق القطيع إلى المرعى تبقى تلك الحملان هي والتيوس الصغيرة في البيت ؛ والسبب في ذلك أن ترك الحملان والتيوس تتبع الأمهات يجعل هذه الحملان والتيوس تأتي على كل الحليب الذي في ضروع الأمهات الأمر الذي يترتب عليه جفاف تلك الضروع وحرمان العرب من غذائهم . بيت الشَّعْر يظل طول النهار مليئا بتلك الصغار التي تنفخ بسبب الجوع ، إلى أن تعود الغنم إلى المنزل في المساء ، حيث يجرى إطلاق الصغار على الأمهات من جديد ، ليشربوا اللبن من الأمهات ، حيث يتدافعون تحت ضروع الأمهات ، وهم يهزون أنثاهم ؛ وطوال فصل الربيع الذي لا يستمر إلا بضعة أسابيع فقط ، نجد أن تلك الصغار لا ينقطع لها ثغاء أو صياحاً ، ويكون ذلك طوال الليل داخل بيوت الشعر البدوية : وهنا يقمن ربات البيوت بأخذ ما يتبقى من الحليب الحلو هذا ، في ضروع الأمهات ، بعد أن ينتهي الصغار من الشرب . وقبائل بني Beni وهَاب Wahab التي تسكن هذه الأراضي المرتفعة الواسعة هم أصلاً من بدو الإبل ؛ ولذلك يندر وجود الحيوانات أو الماشية الصغيرة بين هؤلاء القوم : وهم يحصلون على نوع جديد من الحليب في فصل الربيع بعد أن تلد النياق . والناقة التي يجيئها المخاض ، ترقد على جانبها ويجرى توليدها دون أن تحدث صوتاً ، والوليد الصغير يكون في حجم الرجل الكبير : ويقوم الراعي بتمديد أرجل ذلك الوليد ، مستخدماً في ذلك كل قوته ؛ ثم يسحب الوليد بعد ذلك كما لو كان ميتاً ، أمام الناقة الأم ، التي تتشم وليدها وتنهض ثم تهب واقفة على قدميها كي تبدأ في لحس ذلك الوليد . وهنا يقوم البدوي المولّد بالربت براحة يده ربتة قوية على ما يسميه البدو الزُّورَة Zorā ، (التي تشبه العمود ، والتي خلقها الله أسفل صدر الجمل ، كي تحمل ذلك العنق الضخم ،) ليفيق بعدها الوليد الصغير : وبعد مرور ثلاث ساعات ، وبالرغم من ضعف ذلك الوليد وترنحه ، وبعد أن يسقط عدة مرات على

الأرض ، يتمكن فى النهاية من الوقوف رافعا عنقه الطويل إلى أعلى ويروح يبحث عن
ضرع الأم . وفى صباح اليوم التالى يرافق ذلك الوليد الصغير أمه الناقة إلى المرعى .
وهنا يمكن حلب الناقة على الفور ، ولكن ذلك الحليب الذى يجرى الحصول عليه منها
فى اليومين الأولين ، يطلق عليه البدو اسم حليب المسمار ، أى الحليب المعقم والمُطَهَّر
ويسبب الإسهال لمن يشربه . وأول صوت يصدره البعير الصغير يشبه ثغاء الغنم ، وهو
عبارة عن شكوى بصوت عال لها نغمة طيبة يقول فيها : باه Bāh باه . Bāh وفرة
البعير الصغير تكون ناعمة مثل الحرير ، ورأسه يكون مستديرا أو عالياً ؛ وجسمه
قصير ، إذ يولد على شكل قوس ، كما أن خطاه طويلة بحكم أرجله الطويلة ، كل ذلك
يجعل ذلك البعير الصغير ، عندما يفلق عينيه بعض الشيء ، يبدو للرائى كما لو كانت
هاتان العينان هما عينا طائر من الطيور كبيرة الحجم . والأباعر الصغيرة تعيش على
لبن الناقهة الأم طوال اثنى عشر شهرا ؛ ومع ذلك ، فإن تلك الأباعر عندما يصبح عمر
الواحد منها بضعة أسابيع ، يصبح قادرا على أن يلتقط هو بنفسه أعراف الأدغال
الصحراوية ؛ ونظرا لقصر أعناق الأباعر خلال تلك الفترة ، فهى تضع أعناقها بين
أقدامها الأمامية حتى تتمكن من التقاط غذائها من الأرض . وذات مساء ، عندما
تحسست شعر الأباعر الوليدة الناعم سمعت صوتا ينادى : "يا خليل ! (وجاضى
المنادى وعلى وجهه مسحة من الغضب) ، إياك وأن تفعل ذلك مرة ثانية ، - لأن ذلك
سوف يحد من جلودها ويجعلها تتوقف عن النمو ؛ ألا تعرف ذلك ! " ظن المنادى أن
الغريب حقود أو سيئ القصد ؛ ولكن زيدا الذى كان بعيدا كل البعد عن الخرافات
لاطفنى بابتسامة حلوة ، كما أن تلك الأباعر كانت ملكا له .

البعير الصغير يساوى عند مولده ريالا واحداً ، وكل شهر يمر عليه يزيد من ثمنه
وقيمته . فى بعض الأسر "الضعيفة" يجرى ذبح ذلك البعير الوليد ، حيث يتحتم عليهم
هم أنفسهم شرب حليب نياقهم . والناقة التى تتكل ولدا بهذه الطريقة ، تروح تتجول ،
وتجأر جأرا لطيفا ، وهى تتشمم بحثا عن وليدها ؛ وطوال حزن هذه الناقة ، وكما يقول
العرب ، تكون عينا تلك الأم التكلى ، 'مليئتان بالدموع' . وبعد مرور عشرة أيام ،
ينقضى حزن تلك الناقة ويذهب إلى عالم النسيان ؛ وتبدأ الناقة من جديد تتغذى من

المرعى ، وتعطى حليبها للأعراب . يستطيع البدو فى تلك الفترة الحصول على ما مقداره حوالى ثلاث بنتات (*) فى الصباح وأكثر من ذلك فى المساء حيث يستعملونه فى العشاء . وضروع هذه الحيوانات الضخمة ليست أكبر من ضروع الماعز التى شاهدها فى مالطة . ولكن الناقة التى يتركون لها وليدها (بغيرها) لا يحلبونها إلا فى المساء فقط . وضرع الناقة به أربع حلمات ، يقسمها بدو الجنوب الرحل على النحو التالى : حلمتين يربطانهما برباط من القماش الصوفى وقطعة من الخشب ، ويحجزانها لاستعمالهم الشخصى . ويتركون الحلمتين الآخرين لرضاعة الصغير ، أما أعراب الشمال ، فهم يؤمنون بضروع النياق باستعمال كيس من الصوف . وأثناء الرحلات ، أو عندما تحس الناقة بالعطش ، يقل مقدار حليبها إلى النصف . ولبن النياق ليس واحداً . وعندما يجىء موعد حليب الربيع ، فإن البدو الرحل لا يتغنون على أى شىء سواه . والبدو لا يشربون حليباً كامل الدسم غير حليب نياقهم ؛ ومن ألبان حيوانات البدو الصغيرة لا يشربون سوى لبن الخض فقط ، أو إن شئت فقل : اللبن الحامض . والحريم يصنعن الزبد من اللبن عن طريق وضعه فى قرية الخض التى تهدهدها البدوية على ركبتها . وفى صحراء الشمال التى تنعم بالوفرة والرخاء يستعمل البدو قرية خض (التى يقولون لها السميلى Smiley) أكبر من تلك التى يستعملها بدو الجنوب ؛ والبدو فى الشمال يعلقون خضاضة اللبن على حامل ثلاثى الأرجل داخل الخيمة . أما فيما يتعلق باستعمال الحليب غذاء ، فقد اكتشفت من واقع الدليل المتمثل فى حياة البدو ، أنه هو الأفضل من بين الأغذية التى يتناولها الإنسان . ولكن فى كل منزل من منازل البدو ، هناك بعض المعد التى لا تتحمل ذلك الحليب ؛ والرجال الأقوياء الذين يستعملون ذلك الحليب يحسون دائماً بمرض الجوع فى أجسامهم ؛ بالرغم من أنهم لا يحسون مطلقاً بأى نوع من الضرر أو المتاعب . والبدو يتكلمون عن أنواع الحليب المختلفة فيقولون : "لبن الماعز حلو المذاق ، وهو يؤدى إلى السمينة أكثر من تقوية الجسم ؛ ولبن النعاج شديد بكامل دسمه " وعلى حد قولهم : "حليب النعاج يقتل البشر ،" بمعنى أنه

(*) البنت Pint : مكبال السوائل يعادل حوالى ٥٦٨ . - من التر (المترجم)

يسبب لهم مخصا شديدا . وبالرغم من أقوال البدو الماثورة تلك ، فقد شربت حليب النعاج مرارا وهو دافئ ، وكنت أشعر بارتياح شديد كما كان يخلصني من الإرهاق . وحليب النعاج غني بأفضل أنواع السمن ، ولبن الخض الجديد "يجب تركه كي يحمض في السميلى أو إن شئت فقل : خضاضة اللبن ، بعد إضافته إلى الألبان الأخرى ، حتى تتمازج مع بعضها ، ويعدّها يصبح صالحا للشرب . " وفى رأى البدو أن لبن النياق هو أفضل الألبان ، وأن أفضل الألبان هو لبن الناقة البُخْرة bukhra ، أى الناقة صغيرة السن التى لم تلد سوى مرة واحدة ، ويضيف البعض من البدو على ذلك قائلين فى سذاجة بدوية تامة "من يشرب فعنده جارا لن يمكث ولو ساعة واحدة . " معنى ذلك أن لبن الماعز ولبن النياق هو خلاصة النباتات التى ترعاها الماشية ، وفى بعض المناطق وجدت أن لذلك الحليب طعم بعض الأعشاب . نادانى شيخ من شيوخ العللادة أثناء الرحلة وسألنى : "أليس لديك شيئا من الكعك الدمشقى (البسكوت) كى تعطينى إياه لأكله ؟ " والله ، لقد مضى على ستة أسابيع الآن على آخر شيء مضغته بأسناني ؛ فكل طعامنا هنا عبارة عن ذلك الفيضان من الحليب . أظنك وقفت الآن على الحياة التى يحياها البدو ؛ إنهم يشبهون طرائد الصيد مبعثرين فى كل أنحاء هذه الصحراء القاحلة الجرداء . " شيخ آخر طلب منى إعطاءه حفنة من التمر ؛ "لأن هذا الحليب وحده يجعله يحس بالجوع فى داخله . " والبدو يحتفظون بذكرى طيبة لكل من يتقاسم معهم الطعام ، أو إن شئت فقل : يشاركهم الطعام ؛ وإذا ما توفر الطعام لديهم تراهم يدعونك إليه عن طيب خاطر .

هؤلاء الأعراب الذين يقتاتون بحمية من الحليب يسعدون عندما يتألوا أية قسمة من لحم طريدة صغيرة . هذا بالإضافة إلى لحوم الأرانب البرية الصحراوية ، التى تصاب ، فى أغلب الأحيان ، بالذعر أثناء الرحلات التى يقوم بها البدو ، ومع ذلك يجيء الضبُّ قبل الأرنب البرى الصحراوى ؛ والناس هنا يطلقون على الضب اسما لطيفا هو ، 'السيد حامد' أو إن شئت فقل : شيخ الحيوانات البرية ، ويقولون أيضا أن ذلك الضب آدمى أو زلامى Zillamy (*) على حد تعبيرهم ، - هذا الضب هو عند البدو بمثابة الجنى

(*) زلامى : نسبة إلى زلة التى معناها رجل عند بدو الشمال (المترجم)

أو الشيطان الصغير الذى يبتسم ويلعب - وكدليل على آدمية هذا الضب ، فهم
يمسكون يديه الصغيرة التى يوجد فى كل واحدة منها خمسة أصابع . والبدو لا يأكلون
راحت أيدى الضب ، كما لا يأكلون أيضا الفقرات السبع الشوكية الأخيرة من ذيل
الشيخ حامد الطويل ، والتى يقولون عنها إنها 'من لحم البشر' . والمرعى المفضل عند
الضب هو شجيرة العرفج التى تفوح منها رائحة طيبة . وجسم الضب عريض ومبطط ،
ينتهى بذيل طويل مكون من ثلاث وعشرين حلقة . ولون الضب يميل إلى الاسوداد ،
والبطن الشاحب كثيب ويميل لونه إلى الإصفرار وتتخلله بقع خضراء : والبدو يصنعون
من جلد الضب قوارير صغيرة للحليب يستعملها الرعاة . هذا الحيوان الشبيه بالآدميين ،
على حد تعبير البدو ، يستعمل يديه القوية فى حفر جحر له فى التربة الزلطية الصلبة ،
يقضى فيه فصل الشتاء بكامله وهو غارق فى الأحلام . وصائد الضب ، عندما يعثر
على جحره ، ويعد أن يدخل فيه بوصته الطويلة التى تنتهى بخطاف معدنى ، يسحب به
الشيخ حامد إلى خارج الجحر . ويقوم بذبحه . ويلقون بجسمه كله على النار ؛ ويعد أن
يشووه بهذه الطريقة يعتبرونه من المحمرات الشهية . والعدو الرئيسى للضب من بين
الحيوانات كلها - على حد قول البدو ، "والذى يذل ذلك الضب ويلتهمه ، وهو الظُرَّيان
"thurbân ، وأنا لا أعرف إن كان ذلك الظُرَّيان حيوانا حيا أم حيوانا خرافيا .
والجربوع ، أو إن شئت فقل : فأر الربيع ، عبارة عن مخلوق صغير أبيض اللون فى
تلك الصحراء الواسعة الجرداء الخالية من الماء ؛ وهذا المخلوق يستثير الشفقة والعطف
بجماله . هذه المخلوقات الصحراوية الصغيرة تختفى تحت الأرض أثناء النهار ، وهى
لا تشرب الماء مطلقا . والقنفذ ، أو أبو ابو شوك Shauk ، كما يسميه البدو ، يأكل
لحمه أفراد قبيلة الفجير . أما جيران الفجير فلا يأكلون لحم القنفذ ويحتقرون من يقبل
على أكله . بالرغم من أن هؤلاء الجيران يدخلون مع الفجيري فى سلالة واحدة ، عن
طريق العنوز . أحضر سليم مع قنفذا كان قد ضربه على رأسه ، وشوى شوكه فى
النار ثم قطعه إلى قطع أعطى كل واحد منها قطعة . وقد أخذت نصيبى ورحت أخفيه
تدريجيا بإعطائه لكلاّب الصيد الجوعان ؛ ولكن الكلب عندما شم رائحة اللحم عافته
نفسه ورفض أن يأكله . وعندما رويت هذه الحكاية فى يوم من الأيام للقبائل المجاورة ،
ضحكوا غيظا ، لأن الفكرة يأكلون ذلك الذى ترفض الكلاب أكله . والبدو الرحل كلهم

يأكلون لحم الدُّلدل Porcupine، كما يأكلون أيضا لحم حيوان يطلقون عليه اسم "الوبَّار" Wabbar. ولقد شاهدت ذلك الحيوان سميك الجسم ، وهو يشبه أرنباً برياً ثقيلاً ، كما أنه شبيه أيضا بفأر جبال الألب الكبير ؛ وهذا الحيوان ينتقل أزواجا ، أو رباعا ، أو سداسا ، أو على شكل ثمانية أفراد ، أو عشرة أفراد . والوبَّار يمكن العثور عليه تحت حواف الجبال المكونة من الحجر الرملي ، حيث توجد الأعشاب الطرية التي يتغذى عليها ، كما يتغذى أيضا على أوراق أشجار السنط ، وهو يتسلق هذا النوع من الأشجار بخفة ومهارة ، وهو يستخدم قدميه في تسلق تلك الأشجار ولا يستخدم مخالبه ؛ وأطراف هذا الحيوان الأربعة في كل منها أربعة أصابع ، وفي القدمين الخلفيتين ثلاثة أصابع في كل قدم منهما ؛ ولحم هذا الحيوان سمين وحلو المذاق ؛ ولم أر تلك الحيوانات وهي جالسة على أقدامها الخلفية ؛ وجلد هذا الحيوان لونه رمادي ، ويشبه جلد الدب .

يندر أن يقتل حملة البنادق من البدو الرُّحل ذنبا ، ولكن إذا ما جاء الذئب من نصيبهم بأي شكل من الأشكال فإنهم يأكلونه ، (كان الناس في أوروبا يأكلون لحم الذئب في العصور الوسيطة) . والأعراب يعتقدون أن لحم الذئب فيه فائدة طيبة أو دوائية ، فهم يقولون إن : "لحم الذئب مفيد جداً في آلام الساقين" ، التي تشيع بين أولئك الذين يعرون أرجلهم ويمشون حفاة في كل فصول السنة . وقد أكل زيد لحم الذئب ، ولكنه يعترف بأنه من فصيلة الكلاب ، "نعم ، بالله (أجبني زيد) ، إن أم الذئب ، هي عمة كلبة الصيد . " والثعلب ، الذي يطلقون عليه اسم الحصيني hossey ، يلقون لحمه لكلاب الصيد في أغلب الأحيان ، ولكن بدو الفجيري يأكلون لحم الثعالب ؛ ولحم الثعلب "حلو ، ويجيء بعد لحم الأرنب البري من حيث الترتيب . " والبدو يأكلون أيضا لحم الضبع ، إذا ما أمسكوا به ويقولون : "إن لحم الضبع لحم طيب . " والبدنة من بين حيوانات الصيد في الصحراء ، ولكن ينذر أن يصطادها أولئك الرعاة ، هم وسكان الخيام ، باستعمال طلقات بنادقهم . وهذه البدنة bedan الجبلية هي (الماعز البرية*) كما ورد في الكتاب المقدس (الإنجيل) ، وجمع 'بدنة' هو 'بدون' bedún؛

(*) البدنة : تطلق عادة على الناقة أو البقرة وسميت بذلك الاسم لأن أصحابها كانوا يسمونها قبل ذبحها . (المراجع)

والقحطان يطلقون عليها اسم 'وعول' waul، كما هو الحال في سوريا) . وقرون البدون الضخمة تنمو ويصل سمكها إلى سمك ساق النخلة ، وقد رأيت تلك القرون التي يصل طول الواحد منها إلى قدمين ونصف القدم ؛ وهذه القرون تنمو متجهه نحو الخلف في اتجاه الكفل . هذا الحيوان ، كما يروى عنه كل الصيادين ، يطرح نفسه ، إذا ما اضطر إلى ذلك ، فوق هذين القرنين ، مغيراً اتجاهه نحو الخلف : وهو في هذا الصدد يكون قريب الشبه بالظبي الحجري الذي يعيش في جبال الألب الأوربية .

الغزال ، الذي يقول له البدو 'غرازل' ghrazel للمفرد و 'غرازلان' ghrazlân للجمع ، يعيش في السهول ؛ وأهل الجزيرة العربية يسمونه في معظم الأحيان باسم 'الظبي' thobby (واسمه العلمي N.T.Tabitha) . والغزال هنا لونه أبيض في السهول الرملية الكبيرة ، في حين يميل لونه إلى اللون الرمادي الفاتح قليلا في أراضي الحرة السوداء ؛ وهذا الغزال الموجود في الحرة هو اليعمور(*) الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس . هناك أيضا حيوان نبيل آخر من حيوانات صحراء الجزيرة العربية ، الذي لم يكن معروفا آنئذ بيننا ، هو الوضيحي Wothyhi ، أو إن شئت فقل : "البقرة البرية" التي سبقت الإشارة إليه . وقد رأيت في فترة لاحقة ذكرا وأنثى من إناث الوضيحي يعيشان في بلدة حائل : والوضيحي نوع من أنواع الوعول ، واسمه العلمي Beatrix ، وهو شبيه بالحيوانات الإفريقية الجميلة المثيلة . ويبدو أن الوضيحي ليس هو "الثور البري" الذي ورد ذكره على لسان (سيدنا) موسى : ولكن أليس ذلك الوضيحي هو الذي يطلق عليه (باللغة العبرية) اسم 'الريم' reem ، أو 'وحيد القرن' unicorn الذي ورد ذكره عند مترجمي النص الإغريقي(**) من العهد القديم ؟ - وقرون 'الوضيحي' ، أو إن شئت فقل : 'الريم' أو 'وحيد القرن' تشبه العصي مستدقة الأطراف ، مثل ذلك الذي شاهدناه في الصور عندما كنا أطفالا متمثلا فيما يسمى 'قرون وحدا القرن' .

(*) اليعمور : حيوان لبون من فصيلة الأيليات ، وقد يقال له أيضا : أنثى الظبي الأحمر . (المترجم)
 (**) النص الإغريقي من العهد القديم بما في ذلك كتب العهد القديم التي لم تكتب أصلاً باللغة العبرية والتي لا يعول عليها اليهود . (المترجم)

ونحن نقرأ فى أمثال ، أو أقوال بلعام^(٥) Balaam إن "إل El أحضرهما من مصر ؛ وله قوة كما لو كان ريماء " reem وعندما بارك (سيدنا) موسى القبائل ، قال "قرون يوسف هما اثنان من قرون الريم". وعند أيوب بصفة خاصة ، نرى الظروف القاسية لحيوان الفيلوكس Velox البرى . "هل سترغب الريم فى خدمتك - ألا تستطيع ربط أو تعليق الريم فى محراثك ؟" الوضيحى الجريح خطر عليك إذا ما اقتربت منه ؛ هذه الوعلة ، تستطيع بمجرد انحراف بسيط لقرونها الحادة ، أن تخترق جسم الإنسان ؛ من هنا فإن الصيادين ينتظرون حتى اللحظة الأخيرة ثم يسارعون إلى الدخول لذبح الطريدة . كان الظلام الدامس قد خيم على المعرفة الطبيعية عندما عزا الناس قرنا واحداً لجبهه مزدوجه ! - ونحن نخطئ أكثر . عندما نتزيد ، ونضع أجنحة للصور الوثنية للأرباب والملائكة ؛ وبذلك يتعين أن يكون لهم زوجين من الأطراف الأمامية ؛ والوضيحي لا يقع إلا فى أيدي الصيادين المهرة ؛ وحيوانات الوضيحي تسير فى الصحراء القاحلة الخالية من الماء على شكل قطعان مكونة من ثلاثة أفراد أو خمسة أفراد .

فيما يتعلق بالهوام ، توجد أنواع كثيرة من الثعابين والحيات ؛ وهذه القبائل لا تأكل أى من هذه الهوام . والبؤ عندهم ما يسمونه الجلامى Jelamy وهو عبارة عن سحلية صغيرة بنية اللون ، وهى من السحالى الصحراوية ، وهى تجفل من كل شئ . والعقارب تكمن تحت الأحجار والصخور الباردة ؛ وقد عثرت على تلك العقارب فى خيمتى فوق ملابسى ، ولكن لم يصبني أى أذى منها . ولقد شاهدت كثيراً من الكبار والصغار الذين لدغتهم العقارب ، ولكن لدغة العقرب ليست خطيرة ؛ وهم يستدعون فى مثل هذه الحال ، واحداً من الحكماء "ليقرأ" على لدغة العقرب . والعضو المصاب يسرى فيه الخدر ويستمر يؤلم صاحبه إلى اليوم الثالث ، حيث يبدأ الورم فى الانحسار . كثيرة هى تلك المدن المدفونة تحت هذه الرمال الصحراوية ؛ هذه المدن خاصة بالنمل

(٥) بلعام : واحد من حكماء اليهود الذين استهزوا بالحكمة والأمثال فى القرن العاشر قبل الميلاد . (المراجع)

الذى يقوم بجمع الحبوب ؛ ولقد قمت بقياس شارع واحد من شوارع تلك المدن ، ووصل طوله إلى حوالى خمس وثمانين خطوة : ورحلة الصيف لهذه الأجسام الصغيرة الفارقة فى العمل تتمثل فى قطع هذه المسافة مره واحدة ، ثم العودة إلى المدينة مرة أخرى وهى مُحَمَلَةٌ مثل الإبل .

وإلى جانب الحيوانات البرية ، توجد الضباع ، التى يطلق البدو الرُّحْل عليها اسم الذُّبُه thubba ، بأعداد كبيرة ؛ ومن بعد الضباع يجىء النمر nimmr ، وهو ما نسميه نحن الفهد leopard ، وجسمه مرقط ببقع سوداء ويقع بنية اللون : والفهد ليس شائعا فى هذه البلاد ، وهو عبارة عن قط برى لا يزيد حجمه عن حجم الثعلب ؛ والفهد يجمع بين اللونين الأحمر والبني ، وجلده مرقش . وذاكرة هؤلاء البدو تقول إن فهدا صغيرا أمكن تربيته بين البشر Bishr (أى أهل قبيلة بشر) (من منطلق أن أفراد قبيلة بشر مشهورين بسرعة المشى) وأن صاحب ذلك الفهد كان يستعمله فى صيد الغزلان . والبلاد العربية كلها ، فى كل واحدة منها خرافة من نوع معين عن الآباء ، (وهذا أمر شائع أيضا وتاما بين النحل المسيحية الموجودة فى سوريا ،) ومفاد هذه الشائعة هو أنه عندما يمرض أحد الأطفال ، ببلادة الذهن ، أو عندما يكون اخوانه قد ماتوا قبله ، فإن أهل مثل هذا الطفل يطلقون عليه اسم حيوان برى متوحش (وبخاصة الذئب ، والفهد ، . الخ) - ظنا منهم أن هشاشتهم البشريه يمكن أن تكتسب طابع تلك الحيوانات . الصقور على اختلاف أنواعها يمكن رؤيتها فى كثير من الأحيان وهى تحوم فى سماء الصحراء ، وكذلك العقاب ، الذى هو عبارة عن نسر أسود صغير ، وكذلك الرُّخَام er-rakham وهو نسر أبيض صغير ، يأكل الجيف ، من يرى هذين النوعين من النسور وهما يطيران فى الهواء يحسبهما نوعين من أنواع طائر النسور البحرى : لم أر النسور الكاسرة فى الجزيرة العربية ، ولم أر أيضا أى نوع آخر من النسور الكبيرة فى صحراء هذه البلاد (فيما عدا شبه جزيرة سيناء) . كانت تلك هى معظم الكائنات الحية ، وهناك أيضا قلة قليلة أخرى من هذه الحيوانات فى صحراء الجزيرة العربية فى الجرداء القاحلة .

الفصل الثانى عشر

السلام فى الصحراء

وصول مطلق - بشر العزهمى - الرولة والجلأس . شيخ تيماء . سقوط الحداج .
الغزو إلى " العين " . أعظم غرازي البشر . الهجوم المضاد العظيم الذى قام به أولاد
على . اجتماعهم فى الخلا . القادة الشباب يميلون إلى بعضهم البعض . انكسار ولاد
على المؤلم . ودع الصحراء الذهبى . النفس بالنفس . ركائز " الجراد " . أكل الجراد .
قد يرون جميعا كتاب الصور . كلاب البدو الرُحل . الكلب السلوقي . إطلاق اسم
" الكلاب " على اللصوص من البشر . صخب الاطفال المسائى . البدو العرب الرُحل
لا يستعملون الألعاب الرجالية . مناسبة الختان . الإغماء فى بركة قفر جافة تتسلط
عليها أشعة الشمس . قطع الطريق . سرقوا جمالنا . كيف يمكن تعرّف قطاع الطرق ؟
مصير إحدى القبائل البدوية . المطاردة . التعويض عن الماشية المسروقة من المساهمات
والمشاركات العامة . قانون الصحراء ، فيما يتعلق بالماشية التى يقتصبها عدو . الغزو
هو دمار الأعراب . الموتان (وباء المواشى) . مصير زيد . عودة الملاحقة . افتقار
القبليين إلى الروح العامة . عودة مطلق من حائل . عطايا بن الرشيد . ضرائب
(زكاواته) . عودة الفكارة مرة ثانية إلى ديرتهم . الإردة . الإبل الهاربة تعود من مسافة
٢٥٠ ميل إلى وطنها مرة ثانية . غارة من المواهيب تششت بعض إبلنا وتنفذها من
اللصوص (الذين كانوا من بنى بشر) . رد بنى صخر . النزاع مع زيد . أم بدوية .
مصالحة زيد . طريقة مهاجمة البدو للحج . " ساعة " البدو . زيد لا يوافق على تعلّم ولده
أحرف الغريباء . كثير من أسماء الكتب العربية والكلمات الدالة على البلاد والمدن غير
معروفة للبدو الرُحل . شراء جمل آخر . عمر الجمل .

ذات صباح ، عندما كان هناك جمع كبير يشرب القهوة فى خيمة زيد ، صاح أحد الحاضرين وهو يرفع فنجاله قائلا : "باهير ، ! بمعنى "انظروا هناك - من هو ذلك القادم علينا راكبا ؟" وهنا راح الجميع يشيرون بأيديهم ، ويركزون أنظارهم وعيونهم على ذلك القادم ، وسرعان ما جاء الرد : "أليسوا تجارا من تيماء ، أولئك الذين يجيئون إلى هنا لبيع القماش ؛ أم إنهم بعض من أولئك الذين يأتون إلى هنا لشراء الإبل ، أم إنه الشيخ الذى يركب دابته قاصدا حائل ؟" لم يكن لدى هؤلاء البدو دليل يؤكد لهم أننى أستطيع تمييز الأشياء عن بعد . صحيح أن العرب ، عندما يجلسون اليوم بطوله فى تلك الخيام المفتوحة إنما يسترعى انتباههم المشتت تحريك أى شىء فى سطح الصحراء المعروف لهم والمألوف لديهم أو حدوث أى أمر يكون غريبا عليهم . ولكن المعروف أن العرب "يعانون من أمراض العيون أكثر من أى شعب أو أمة أخرى . وإن هى إلا لحظات ، حتى تمكنت عيون الأعراب بعدها من اكتشاف أن القادمين كانوا بدوًا ، وذلك من واقع طريقتهم فى ركوب الدواب ؛ ولكن قبل أن يشرف القادمون على النزول من فوق دوابهم ، تعرف الحاضرون عليهم ، وأنهم كانوا عبارة عن فردين اثنين هما : الشيخ مطلق ، شيخهم ومعه ولده ، وكان معهما قبلى واحدا آخر . من الواضح أن الشيخ مطلق كان قد بدأ تحركه من المخيم الآخر فى ساعة مبكرة من الصباح ؛ وكانت صحبتنا المكونة مما يقرب من خمسين شخصا قد هبت واقفة للترحيب بشيخ الشيوخ ؛ وبعدها انضم إلينا الشيخ مطلق بكل ود وترحاب وتواضع جم ؛ وتقدم كل واحد من الحاضرين إلى المكان الذى جلس فيه شيخ الشيوخ ليحييه تحية القريب لقريبه القادم بعد غياب طويل قائلا : "جواك gowwak يا Ya مطلق Motlog" ، بمعنى "جواك الله يا مطلق" ، وهنا جاء الرد : "الله Ullah جويك gowwik" بمعنى الله يقويك أنت أيضا : "وبعد أن يصل كل منهما إلى عنق الآخر ، يتباوسان من هذا الخد ومن ذاك . ويجرى بعد ذلك إفساح مكان لهما فى أعلى مواضع المجلس ، ليجلسا وهما بيتسمان ابتسامة سهلة ويسيرة ؛ وهنا يتضح أن شيخ الفكرة ، نبيل الأصل والمولد ، الذى تظهر على محياه بعض السمات الأنثوية يتفوق ، على حد تعبيرهم ، من حيث سلوكيات المجلس المقنعة ظاهريا وتدخل إلى قلوب الناس : ومع ذلك فإن قلوب هؤلاء الناس الآسيويين هى فى داخلها مليئة بالفساد ، والظلم . وهنا يبدأ تحميص البن من

جديد ، ولحنه وغليه لتصلح القهوة من جديد للحاضرين ، وهنا يقوم زيد ، بصفته المضيف ، بإحضار سلطانية مليئة بالتمر كى يتناولوا الفطور (الإفطار) ، (وهو هنا يقدم أفضل تمر تيماء ،) ، كما يحضر سلطانية أخرى فيها لبن خض (حامض) ، ولكن على شكل مقدار صغير ؛- ولعل سوء كرم حرفة هى وزيد ، كان هو السبب الرئيسى وراء عدم نزول أى أحد ضيفا على بيت زيد على مدار العام . ومن بين العادات الطيبة فى تلك الصحراء الجرداء ، تقديم شئ على وجه السرعة ، (مهما كان الوقت مبكرا أو متأخرا) للضيف الذى يصل إلى نهاية رحلته ، وينزل من فوق دابته . وافق الشيوخ على الانضمام إلى مخيماتنا إعتبارا من الرحلة التالية ، كما وافقوا أيضا على أننا يتعين علينا الدخول إلى مسافة أبعد فى أراضى قبيلة بشر Bishr .

معروف أن البشر يكونون قسما رئيسا من الأمة العنزىة ، إضافة إلى أن بعض أفرعهم الكبيرة ، مثل ولاد Welad سليمان Sleyman فى نجد ، يمكن أن تطاول القبائل الكبيرة . وشيوخ شيوخ البشر فى نجد ، هو ذلك الرجل المولع بالقتال الذى تعرفت عليه مؤخرا ، واسمه مسهل Misshel (تيمنا بحمايته لنفسه) العواجى el- Auáyy ؛ وهو يحمل أيضا لقب شيخ القبائل السبع . وقد أوضح زيد لى نسب تلك القبائل على النحو التالى :

Khumsha	الخُمشة	W-Slaymán	ولاد سليمان
Sillimat	السليّمات	Sweylmat	السويلمات
Hósenny	الحصينى	Jíáfera	الجيافرة
Sbá	السباع	el-Aly	آل على
Feddán	الفدان	Gathowra	الجبورة
Ammarát	العمارات	S'goor	لصقور
		Shemlan	الشملان

ظهر أن زيدا كان يربط رولة العنوز بالبشر Bishr . والرولة يسكنون بالقرب من النفود ، أسفل الجوف ، وفي اتجاه الغرب ناحية سوريا ، وهم من البدو الخالص وسلوكياتهم غاية في البساطة . وتسببهم يمتد إلى أعراب ابن مزيد Muzzeyed وأعراب الحصيني el-Hosenny ، وأعراب المُسلِّخ el- Musellikh . وأعراب العنوز القدامى الذين يعرفون باسم الجلَّاس el-Jellas مندمجون منذ القدم مع الرولة ، وهناك واد من وديان خيبر يحمل اسم الجلَّاس ، من منطلق أن خيبر كانت من قبل ملكا لأعراب الجلَّاس ، ولكنهم هجروها وتخلوا عنها منذ زمن بعيد . وسلالة الجلَّاس النسبية هي على النحو التالي :

النُّصير : النواصره	el-Nussir;Noásera	درعان	Daraan
شعلان.	Shalân	أنصير	Unseir
ربشان	Ribshan	البليس	Belais
السَّوَالمة	Sualma	بعُدور	B'dûr
الفروجة	Ferrulja	أعراب بن محجل ، شيخ الشاجير(*)	
القواتشبية	Koatcheba	أعراب بن جندال ، شيخ السَّوَالمة(**)	
جعجع	Gaaja	أعراب بن أمجيد ، شيخ عبد الله Abdillah(***)	
الدغمان	Dogmân	الكليفات	Kleyfât

عندما توحد القسمان من جديد ونصبا خيامهما في مكان واحد ، وصل إلى ذلك المكان شيخ من كبار شيوخ قرية تيماء هو عبد العزيز الرومان er-Român ، الذي كان يتجول راكبا دابته للبحث عند الأعراب عن إبل لاستعمالها في آبار الماء . وكان الثمن

(*) Aarab Ibn Mahjil Sheykh el-Esshàjir

(**) Aarab Ibn Jindal Sheykh es- Suálma

(***) Aarab Ibn Umjeyd Sheykh Abdillah

المحدد لذلك هو ثلاثة أحمال إبلية من التمر أو حمل واحد من القمح ، أو إن شئت فقل : العيش Aysh ، للناقة الجيدة . ونزل الشيخ عبد العزيز الرومان عند خيمة الشيخ مطلق ، وذهبت لحضور اجتماع القهوة ، كى أستمع إلى أخبار البلاد . رحب بى الشيخ مطلق ترحيبا طيبا ، ونادى الرجل : "أحضروا شِدَاد لخليل" . كان شيخ تيماء رجلا مهندما ، حلو المعشر ، ومقداما ، وكان من أنصار ابن الرشيد ، كما كان يقوم بجباية متحصلات الأمير من واحته ؛ وكان ذلك الشيخ أيضا قليل الحياء ، وحاقدا إلى أبعد الحدود ، فضلا عن كونه أيضا ، "مثل سائر التيامنة" ، وذلك من منظور البدو الرُّحْل . جاهلا ، ويتمتع بنوع من الغباوة الشديدة والسذاجة الفطرية . فى تلك القرية التى تشبه القرية البدوية المترحلة لم يتعلم الشيخ عبد العزيز الرومان القراءة والكتابة : كان الشيخ مطلق ، من بين كل البدو ، صديقا للشيخ عبد العزيز منذ أيام الصبا . وأثناء جلوسنا تحول الشيخ عبد العزيز ناحيتى فجأة وطلب منى أن أخبره "عما أفعله فى هذه الصحراء القاحلة ، ولماذا نفيت نفسى من كل مباحج الدنيا" (أو بالأحرى من الظل فى النهار ، ومن الخبز والتمر المضمونين ، ومن الماء الكافى ، ومن المسكن المستقر) . أجبت : "أنا أتمتع بالهواء" . - "إذ كان ذلك هو كل ما فى الأمر ، فبوسعك أيضا شم ذلك الهواء أيضا فوق قمة جبل إرنان الموجود فى الخلف" . وهنا همس أحد رفاق الشيخ عبد العزيز الرومان فى أذنه ، على نحو سمعت معه ذلك الذى كان يقوله : "أليس هذا الرجل يهوديا ؟" - "يهودى ، هذا لاشك فيه (أجابه عبد العزيز) ، أو قد يكون ذلك النصرانى الذى حدثونى عنه ، والفارق بين الاثنين يتمثل فى الاسم فقط" . وهنا بدا على ذلك الرفيق كما لو كان قد شاهد أو رأى شيطانا ، وبدت على وجهه الدهشة وهو يقول : "رُحماك يا الله ! وهذا - إخس ! (بمعنى "قُبْحه الله") - يهودى ؟ الله يلعن الكفار كلهم" . كان عبد العزيز عندما عدت إلى تيماء مرة ثانية ، قد اكتسب تادبا جديدا ، لأنه كان قد بلغه أن ذلك الغريب قال عنه ، على الملأ ، إنه "حمار جاهل" ، وأنه شيخ لكل يهود تيماء ؛ والسبب فى ذلك هو أن العرب الذين يطمعون فى المديح والثناء ، يكونون رقيقين رقة النساء المغرورات بآراء الرجال . جاؤا إلينا بأخبار كارثة حدثت لهم فى تيماء ، مفادها هو انهيار الحدّاج (بئر الماء) ! إلا أن عبد العزيز

الرومان كان فرحا بما حدث نظرا لأن سوانيه^(*) الاثنان أو الثلاثة ، وكذلك الجانب المخصص للسوق Sûk الخاص به لم ينهار ، بل ظل على ما كان عليه ؛ هذا يعنى أن الخسارة لم تكن من نصيب حزبه .

استمع البدو الأوغاد إلى ذلك الحادث الذى وقع للتيامنة ولم يتحرك فيهم ساكن ، هؤلاء التجار الذين يتجرون فى التمور والقمح، والذين يخادعون ويضللون ، ينظر أولئك البدو إليهم ، على إنهم أصحاب مكر ودهاء. فقد علمنا ، من بعض الناس الذين وصلوا مؤخرا قادمين من تيماء ، أن أهل هذه القرية ومتشددية وضبعوا مسئولية كل ذلك الذى حدث ، على النصرانى . وذلك أن "الحداج (بئر الماء) لم ينهار بعد أيام قلائل فقط من وجودى فى تيماء ، وبالتالي أكون أنا الذى أطحت بذلك البئر بفعل عيني الحاسدة" ولكن المغالين فى تشددهم من بين أهل القرية قالوا : "إن البئر لم ينهار إلا بإذن الله (سبحانه وتعالى)" وهنا طرحت السؤال التالى على واحد من أهل هذا البلد الطيبين : "كيف لى أن أطيح ببئركم ؟" ورد على الرجل : "يا خليل ، انا أظن أن هذا ليس من صنعك ؛ (ثم أردف قائلا ،) أظن أن الذى فعل ذلك هو ابن الرشيد ؛" كان الأمير ، هو وأتباعه (الذين يقدرون بحوالى ثلاثمائة رجل تقريبا) ، عند عودتهم من الغزو الذى قاموا به على ولاد على ، قد نصبوا خيامهم خارج أسوار تيماء ، مدة يوم أو يومين ، ثم أردف الرجل قائلا : "كان جميع هؤلاء الأتباع مثل الرمل ، أف ؟" - ترى ، هل كانت تحركات السقائين حول البئر هى التى أدت إلى انهياره ؟" - "ليس ذلك ، وإنما هى العين ؛" ومعروف أن عين الحسود إنما هى تشكل قسما من الخرافات عند الساميين . معروف أن العين هى حبيبة الجسم وعزیزته ، والعين هى نافذة الروح ، والساميون يتخيلون أن تأثيرها السيئ ينبعث بناء على ذلك . واعتبارا من ذلك اليوم ، راح البدو المتشددون ينظرون إلى باعتبارى مصدراً للخطر ، أو إن شئت فقل : "عدو الله" .

فى إحدى الأمسيات ، دخل إلى مخيمنا غزو رئيسى قوامه ثمانين رجلا من قبيلة البشر ، كانوا قد ركبوا إبلهم وجاءوا ليشنوا ، أو يطبقوا على ولاد على أعدائهم ؛ أمضت قوة ذلك الغزو الليل ضيوفا على الفكارة داخل ديرتهم . رحب الفكارة بالغزاة

(*) السوانى : آلات سحب المياه من البئر . (المراجع)

ترحبيا حارا ، واستمعوا من الفكرة ، بعد تناول العشاء ، آخر النصائح المتعلقة بأولاد على الذين كانوا يخيمون حول آبار المجيرة Mogeyra ، أى على بعد حوالى ثمانين ميلا من المخيم الذى نحن فيه ، وعلى طريق الحج ، وعلى بعد مسافة رحلة واحدة أسفل قرية الحجر ، سألت زيدا : "ألن يرسلوا فى تلك الليلة إنذارا إلى أبناء عمومته فى القبيلة الشقيقة ؟ أجابنى : "ها ، لا بالطبع ! ولكن لعلهم كلهم يموتون ، فهذا سيكون لصالحنا . " وبعد ذلك ببضعة أشهر ، وعندما كنت مع بعض الرجال من ولاد على ، سمعتهم وهم ينتقدون ذلك الحقد الشديد من جانب الفكرة ، ومع ذلك كانوا هم أنفسهم مليئين بذلك الحقد أيضا ، هذا الحقد الخائن هو فى حقيقة الأمر ، شىء طبيعى بين البدو ، هذه الأمة العنزية ، التى تنتمى إليها كل هذه القبائل ، والتى تعد أهم عشيرة بين عشائر شبه الجزيرة العربية ، تتحدث عنها الأمثال : " زاد الله أعداد العنوز ، ولكن كتب عليهم الانقسام والتفكك فيما بينهم ؛ " ولم يحدث فى أى وقت من الأوقات أن بعض العنوز لم يتحولوا إلى "جوم" Gôm(*) ، أو إن شئت فقل "لصوص أعداء" ، أو أى شكل آخر من أشكال الانقسام والتفتت . والعنوز يقارنهم بعض الناس ببنى إسرائيل ، وهم فى ذلك بينهم وبين بنى إسرائيل شبه كبير . كان المقر الرئيسى لهذه الأمة ، أو إن شئت فقل : الشعب (العنوز) ، خلال العصور الإسلامية الأولى ، وهذا نقلا عن موروثهم ، فى الديرة التى تقع فى نطاق شمالى المدينة (المنورة) ، التى هى حاليا ديرة ولاد على . ثم قام العنوز بعد ذلك بغزو خيبر وهزيمتها ، وبذلك أصبحت وديان النخيل الياق ، فى ذلك المكان ، ملكا لهم منذ ذلك التاريخ .

ومن باب المصادفة الغربية أن البشر Bishr عندما جهزوا للقيام بغزو رئيسى على ولاد على ، كان ولاد على أنفسهم قد أرسلوا بالفعل غزوا رئيسيا ليطبق على البشر Bishr . هاتان القوتان العدوتان تقابلتا ، فى مغامرة جديدة ، فى تلك الصحراء القاحلة ، وهنا أصبح على أرض المعركة حوالى مائة جمال . كان منظرا مشهودا ، وهم يرددون أغنية ، وهم ينحنون فوق (سروج) إبلهم فى اتجاه أعناق نوابهم التى كانت تسرع الخطى ، ويحملون معهم أسلحة لامعة . وعندما تبدى لهم العدو وأصبح فى مرمى

(*) "جوم" بمعنى قوم أى "أعداء" (المترجم)

البصر ، ينزل الشيوخ ومعهم الحراب الطويلة ليركبوا خيولهم ! وهنا يقوم الرديف (*) بركوب الجمل بدلا من الشيخ ؛ ومعروف أن هذا الرديف هو حامل بندقية الشيخ . هؤلاء الجمّالة ، وهم ركوب على تلك الإبل التي تماثل الأغنام في بطئها ، إذا ما قارناهم بالعدد القليل من الخيالة ، يمكن تشبيههم بجماعة ثقيلة من المشاة الذين يتسلحون بالبنادق الفتيلية . الخيال البدوي الذي يركب حصانه فوق عرّاقة وبلا ركاب ، لا يستطيع حمل أسلحة نارية ثقيلة وطويلة في ذات الوقت ، نظرا لأنه سيعجز عن إعادة تعمير (ملئ) مثل هذا السلاح . وقلة قليلة من بين هؤلاء الشيوخ الجنوبيين هم الذين لديهم مسدسات خيالة ، التي تخطى الناس عنها منذ زمن بعيد ، وتمكنوا من شرائها من أوروبا . وكل آمال هؤلاء تتعلق بالرمح الذي يطلقونه عليه اسم " الشلقة " Shelfa ، التي تعني " حربة البدوي " ؛ ونصل الرمح يصنعه هؤلاء البدو من البوص الذي يجلبونه من أنهار بلاد الرافدين ، ويصل طول ساق أو نصل ذلك الرمح إلى ضعف طول الحصان الذي يركبه الخيال البدوي ؛ وهم يقطعون بتلك الحراب وهم يضعونها فوق رؤوسهم . والعقيد Agid أو إن شئت فقل : شيخ منصر أو قائد ولاد على ، كان بلا لحية ، وشابا غرا صغيرا اسمه فهد ، وهو ولد شيخهم الكبير ، وكان عسكرا قائداً للقسم الآخر ، وهو ولد مشهل Misshel ، ذلك الشيخ الكبير سالف الذكر : هذان القائدان العنزيان المتخصصان ، كانا ابنين لأختين . هجم فهد هجوما سافرا على ولد خالته عسكرا وأصابه بحريته ، ولكن عندما حملة رجاله فوق أيديهم القوية ، كان ما يزال حيا . وعلى أثر ذلك ، أصيب ولاد على الظافرين الواتقين داخل خيامهم ، برعب شديد في ميدان القتال ، وذلك في وجود العواجي ، المحب للحروب والقتال ، ومعروف أن العواجي هو أكبر عظمة وأشد الناس عنادا بين بدو هذه البلاد ؛ من هنا كان ولاد على يتطلعون إلى أن يكون كل من هذين الرجلين منتقما لذلك الدم الذي أهدر أو إن شئت فقل: أريق أمام خيبر . صاح الجميع بعد ذلك أنهم إخوان! وعلى ذلك فإن ولاد على الذين بلغ عددهم مائة وعشرين مقاتلا راكبا يحملون أسلحة في أيديهم استسلموا لثمانين مقاتل من أسود قبيلة بشر ؛ وراح كل واحد من المهزومين ينادي غارزیه متوسلا له وهو يقول :

(*) الرديف : من يركب خلف الراكب الأساسي للدابة (المترجم)

آخى ، يا أخى - ، خذ جملى ، وهذا هو سلاحى أيضا ، بل وهذه عباتى (بشتى) ؛
خذ كل شىء وأحفظ على حياتى . ولم يهرب من ولاد على فى ذلك اليوم سوى قلة قليلة
من شيوخهم ، الذين كانوا من بين الخيالة واستطاعوا الهرب على ظهور أفراسهم .
ولم يهرب من الجمالة سوى ثلاثة رجال أشداء ، وهم من متسلقى الجبال أيضا ؛ هؤلاء
الثلاثة كانوا : من الموءاهيب Moahib ، الذين انضموا إليهم على أمل إقتسام الغنائم
معهم . - وقبل انتهاء العام ، جرى على أيدى هؤلاء البشر أنفسهم ، تجريد الموءاهيب
تماما ، وخلال يوم واحد ، من كل ماشيتهم . كان كل الشيوخ الذين كانوا أطرافا فى
هذه المعركة من بين معارفى فى يوم من الأيام ؛ وبالتالي تيسر الوقوف على هذه
الحكاية وأنا بينهم .

أوى البشرُ دخلاهم Dakhils فى ديارهم ، ومع ذلك ، فإن تذكر البشر للثأر
والانتقام ، لم يدفعهم إلى نصب مجزرة لأهلهم وأقاربهم ؛ إضافة إلى أن أعراب
الجنوب لم يكن من عادتهم أخذ حيات البشر على سبيل الفدية ، ولهذا تركوا أعداءهم
يعودون إلى ديارهم وزوجاتهم عراة ، سائرين على أقدامهم . يضاف إلى ذلك ، أن
الضمير العربى لا يسمح أو يرضى بمحو قبيلة من القبائل . بعض القبائل المجاورة ،
مثل الفجير وبنى عطية هم من قديم الأزل ، غلاظ قساة ، ولم يحدث مطلقا فى يوم من
الأيام أن نشبت أية معركة عامة بين هذه القبائل ، وراحوا يفرغون فيها تلك العداوات
القديمة بأن قامت بتدمير واحدة من تلك القبائل أو القضاء عليها . زد على ذلك أن
ضغائن البدو وأحقادهم القديمة ، تكون أقل ، فى الأغلب الأعم ، من ذلك التدين
الذهبي الذى تتميز به هذه الصحراء الجرداء . والخطر عندما يزول ، يجعل هؤلاء البدو
يشفقون على أعدائهم المهزومين ؛ وتعتمل فى داخلهم فى مثل هذه الظروف شفقة
السلالة النسبية العامة التى تجمع بينهم . والرجال عندما يسقطون جرحى فى معركة
من المعارك ، فإن الأعداء الذين تكون لهم اليد العليا فى معظم الأحيان ، ينقلون أولئك
الجرحى إلى منطقة المؤخرة ، ويحملونهم إلى منزلهم ؛ بل إنهم يتولون تغذية هؤلاء
الجرحى إلى أن يتعافوا من جديد؛ وعندها يعطون ذلك الجريح الذى تعافى ، قربة ماء ،
ويقولون له "روح" بمعنى "إذهب لحال سبيك" ، دون أن يطلبوا منه أن يقطع على نفسه
وعداً من الوعود ، واثقين أن الله سيهئ لهم المعاملة نفسها إذا ما ألئت بهم شدة

أو ملمة . ولكن البشر اقتادوا فهداً Fahd معهم ، نظرا لأنهم لابد أن يحققوا معه في وفاة عسكر Askar : وإذا ما ثبت أنه مات بفعل يدى فهد ، فسوف يموت فهد مقابل ذلك ، اللهم إلا إذا أعرب أقرب أقارب عسكر عن رغبته في قبول الدية ! ومع ذلك سوف يجرى الترحيب به والتسرية عنه في خيام أعدائه . ويبدأ عسكر في التعافى ببطئ ، خلال الشهور التى تلت ذلك . تساءلت متعجبا : "يا لهؤلاء الجزارين من ولاد على ، عندما عادوا إلى ديارهم ، وقد نزع عنهم صوفهم ، مثل الأغنام ! ويا لتلك الرقصات والزغاريد التى استقبلهم بها الحريم ! " وردوا على قائلين : " صدقت والله ، لقد استحقوا احتقار النساء ! " وتساءلت : " ولكن كيف يستسلم مائة وعشرين رجلا لعدد أقل منهم؟ " أجابونى : " أليسوا من ولاد على ؟ وتلك هى طريقته . " إنهم ليسوا محاربين بمعنى الكلمة ، ولكن الفجير ، القبيلة الشقيقة ، لم يحدث قط أن ازدرأهم أو احتقرهم أعداءهم ، الذين يتمثلون فى تلك القبائل القوية التى تعيش فى المنطقة الواقعة خلفهم ، أو إن شئت فقل : بنى عطية ، والحويطات ، والبلى (البلوى) والجهانية .

هبت علينا سحب الجيل الثانى من جحافل الجراد التى يطلق الأعراب عليها اسم "عمدان" Am'dàn بمعنى "عمد" Pillars [وتلك هى الكلمة التى نقرأها فى سفر الخروج - "عمود" Ammud من السحاب والنار] وهى تطن وتهفّف فى أشعة الشمس ، طوال أيام عدة ؛ وكانت تلك الجحافل كثيفة مثل المطر ، ويطير البعض منها بالقرب من الأرض أو على ارتفاعات كبيرة فى الجو . والجراد يهبّط على الأرض مثل الطيور ، بأن يجعل سيقانه الطويلة تلامس الأرض ، غزت أسراب الجراد الخيام ، ويسبب جوعها الشديد كانت تعض أذقاننا ونحن نشرب القهوة ، هذا الجراد يولد وهو قادر على الحركة البطيئة مثلما ورد فى المزامير : "أنا أترنح نحو الأعلى ونحو الأسفل مثل الجراد" . كان البعض من ذلك الجراد يتساقط ، فى كل لحظة ، فوق الأرض ، ويصطدم بالأحجار . وبعد ذلك شاهدنا تلك الجحافل وهى تتجّ صوب الجنوب : ونظرا لأن الأعراب كانوا يعرفون أن تلك الجحافل لابد أن تلتهم خير ، الأمر الذى سيؤدى إلى ضياع محصول التمر ، فقد تقدموا وراحوا يلاحقون أسراب الجراد غير مباليين بها ؛ وجلسوا وهم يتأوهون ! تاركين أمرهم لله (سبحانه وتعالى) ، الذى يقولون عنه إنه "منعم" . والأعراب فى معظم الأحيان ، يضحكون من الأحداث التى كوّن من هذا

القبيل ، وهم هنا يضحكون من آمالهم التى حطمت ، ولكن نوعا من الحزن الربانى يسيطر على قلوبهم فى مثل هذه الظروف ، والأطفال يقومون بإحضار الجراد الذى يجمعونه معلق على غصن من الأغصان ، ويشويه البدو على نار الفحم ؛ ثم يفصلون عن الجراد أطرافه بعد الشوى ، ثم يقطعون الرأس ، وتصيب الحشرة بعد ذلك طعاما جيدا لهم ؛ ولكن أكل الجراد لا يكون من بين أسراب الجراد التى تولد فى ظل أو فى زمن جفاف العشب . قام شاب من الحاضرين حول النار ، بفتح بطن أول جرادة مشوية لتسقط منها دودة ، قذفها بعيدا عنه ونفسه تعافها ؛ وصاح الشاب قائلا : "أخص ! Akhs . وأنا أقسم ، أن تلك الدودة حرمت عليه أكل الجراد بعد ذلك . " ومع ذلك خرجت النساء لجمع الجراد ، تلك النسوة كن من أسر فقيرة . وهنا طلب منى المشاركون فى شرب القهوة : "تاكلون الجراد فى بلادكم ، يا خليل ، خبرنا ، هل الجراد سليم صحيا ؟" (نحن نقرأ عن لفيتوكس Leviticus (*)) إن أطفال يعقوب قد يأكلون أنواع الجراد .) وسكان الجزيرة العربية ، يرون أن جحافل الجراد تهب عليهم مرة كل سبع سنوات .- وقد راح الأعراب يذكرّون ذلك العام بأسراب الجراد وحرارة الصيف الشديدة . هذه الحشرة الذكر صفراء اللون ، فيها بقع بنية اللون أيضا ، وأنثى الجراد تكون أكبر من الذكر ويميل لونها إلى اللون الرصاصى ، وأجنحة الجراد منقطة ، أو إن شئت فقل : مُرَقَّشة ، وزوج الأجنحة الداخلى عريض ومطوى إلى الأسفل ، ويصل طول الجرادة إلى نهاية الجناح المغلق إلى ما يقرب من ثلاث بوصات . والبدو يقولون : "إن العين ليست هى التى تظهر فى الرأس ، ولكن العين هى تلك البقعة الصافية الموجودة تحت الرجلين القصيرتين الأوليين . " تناولت القلم ورسمت كروكيا للجرادة ، ثم رسمت على الصفحة التالية صورة تخطيطية لأبى زيد : وجاء العرب كلهم ليروا هاتين الصورتين . قال البسطاء الذين كانوا يحملقون فى الصورتين : "هذا حسن جداً ، يا خليل ، انظروا ، عجباً ! هذه صورته بالضبط ، لا فرق بين الأصل والصورة !" بل وراح واحد منهم يتحسس بأصبعه خطوط الجرادة ، ليرى إن كانت تقف بالفعل على تلك الورقة الناعمة ، وأردف الرجل قائلا : "وطير أيضا" بمعنى "أن هذه الجرادة

(*) لفيتوكس : هو المعروف فى العهد القديم بسفر اللاويين . (المراجع)

سوف تنط وتطير !^١ وابتداء من تلك اللحظة كان شاربو القهوة يأتون إلى منزل زيد ، ويسألون عن خليل . ويجعلونه يطلعهم على صورة أبى زيد وعلى كراسة صورته ؛ كانت تلك مجرد إشارات قليلة فى كتابى الطبى . كما تعجبوا أيضا عندما نظروا من خلال : تلسكوبى ، الذى رأوا من خلاله الجمل الذى يرى على بعد مسافة ميل ، وكأنه أمام أعينهم . وبالرغم من ذلك ، ونظرا لأن ذلك التلسكوب كان فوق مستوى عقولهم ، فلم يثر لديهم شيئا من الفضول ، يضاف إلى ذلك أن أقوىاء البصر بين هؤلاء الأعراب^٢ الذين كانت حدة بصرهم تصل إلى حدة بصر الصقور ، لم يعيروا كل صنوف غسول الوجه أى شىء من اهتمامهم ؛ والسبب فى ذلك أن هذه الصحراء الواسعة الشاسعة هى التى تفيدهم فى زيادة حدة بصرهم .

فى تلك الأيام ، كانت كلاب الصيد المهزولة وحدها هى التى تلتهم الجراد فى سائر أرجاء المنازل المختلفة ، هذه الكلاب كانت مفعمة بالسعادة والمرح ، وراحت تتجول فى سائر أنحاء المخيم ، ولم تعد تلقى بالآل للأعراب ، إذ راحت فى نوم عميق بعد أن امتلأت بطونها . والبدو الرحل يقولون : إن كلابهم "تعض الذئب" ؛ وأن هذه الكلاب تظل صاحبة طول الليل بينما يكون البدو نائمين . والكلاب "أكلة لحوم الذئب" بين بدو الفجير ليست بالكثيرة ، وهؤلاء الفجير أهل "ديرة تربية الإبل" ؛ وهذه الكلاب التى تأكل الذئب ، تشبه إلى حد كبير ، الكلاب الضالة فى سوريا . وأفضل الكلاب التى شاهدتها ، كانت تلك الكلاب الضخمة التى شاهدتها مع بدو البلى ، فى منطقة تهامة . والكلاب الشائعة بين البدو ، يميل لونها إلى الاصفرار ، وتشبه الثعلب من حيث الشكل ؛ وهذه الكلاب شبيهة بالغالبية العظمى من نوعية الكلاب الموجودة فى معظم مناطق البرارى الموجودة فى كل أنحاء العالم . بعض البدو ، وهم قلة قليلة ، هم الذين لديهم كلاب سلوكية(*) ، تستعر جوعا ، وشديدة السرعة أثناء مطاردتها للأرانب البرية ؛ بل إنهم يطاردون حيوان الغزال باستعمال هذه الكلاب . والكلاب العادية ، التى فى كل

(*) الكلاب السلوقية : تنسب هذه الكلاب إلى قرية سلوق فى اليمن ، وهى من سلالة أصلية وتتميز بسرعة المطاردة ، ولا يجد البدو غضاضا فى الاحتفاظ بها فى خيامهم وذلك على عكس الكلاب العادية التى يعاملونها معاملة سيئة . (المراجع)

قرية من قرى البدو (إذ إن هذه الكلاب لا تصاحب قطعان الماشية أثناء الرعى) ، تميل إلى أكل الجيف والرمم ، فى القبائل التى لا يكون لدى ربات البيوت ما يقدمنه لتلك الكلاب ، التى لا تحصل فى أوقات الجوع الشديد سوى على شئ قليل من الماء ؛ وبذلك يصعب القول أو الحديث من مدى القذارة التى تعيش فيها تلك الكلاب ، هذه الكلاب لا تستحم سوى مرة واحدة على امتداد العام بكامله ؛ وأيام استحمام تلك الكلاب تكون أثناء موسم حصاد محصول التمر فى بلدة خيبر ، حيث تزيد كميات التمر عن احتياجات هؤلاء البدو ، وبالتالي فهم يقدمون تلك الزيادة للإبل والحمير ، كما يلقون كمية كبيرة من التمر أيضا للكلاب .

هذه الكلاب لا تلقى مطلقا من الأعراب كلمة طيبة أو معاملة طيبة . بل إن حياة هذه الكلاب هى الحياة الوحيدة التعيسة فى ديار الأعراب ، الذين يركلون تلك الكلاب ويضربونها ليطردونها من بيوتهم باعتبارها حيوانات أو مخلوقات نجسة ، والأعراب لا يلمسون تلك الكلاب بأيديهم (فيما عدا الجروان (صغار الكلاب) الصغيرة التى لم يجرى قطامها بعد) . ولو قدر لكلب من تلك الكلاب أن يكون لصا منزليا ، بمعنى أنه يسطو على طعام البشر ، فإن البدو يطاردونه بالعصى والصياح ، ويضربونه ضربا مبرحا ؛ والرجال فى مثل هذه الظروف يقسمون قسما مغلظا بأنهم سوف "يقتلون ذلك الحيوان ، لأنه يستحق القتل" . هذا التصرف يجعل ذلك المخلوق المتطفل غير واثق بنفسه فى تلك الديار ، كما لا يثق كثيرا بصادته ؛ والبدو لا يسمحون إلا للكلب السلوقي فقط بالبقاء داخل الخيمة ، باعتبار أنه من سلالة أصيلة . والكلاب عند البدو تحرس اليوم بطوله كل أفراد المنازل التى تعيش فيها تلك الكلاب ، هذا يعنى أن تلك الكلاب إنما تحرس أهلها Ahlahu على حد تعبير البدو أنفسهم . والكلاب تسير فى ركاب الرُّحْلة ، وتكون بصحبة الماشية التى تحمل المتاع ومن فوقها السيدات ؛ هذه الكلاب تسير بخطوات شبه معقولة فى الظل الناتج عن الجمال المتحركة ؛ وهى تسير وهى تتألم من الحرارة ومن الرمل شديد الحرارة من تحت مخالبها ، وهى تحاول العثور على ملجأ لها تحت دغل من الأدغال أو صخرة من الصخور ، كى تلجأ إليها تلك الكلاب حيث تلهث فى ظلها فترة قصيرة ، ثم تستأنف مسيرها . وعندما ينزل البدو عن مواشيهم فى المكان المخصص لذلك ، ترى تلك الكلاب (عندما يصيبها

النصب فى القبائل التى تربى الأغنام) تبادر عقب رفع قماش الخيام إلى الدلوف إلى الظل ، وتروح تكسح الرمل الحار ، وتحفر بعد ذلك بمخالبها أسفل الرمل الساخن بغية الوصول إلى التربة الباردة الموجودة أسفل ذلك الرمل الساخن . والبدو ينادون على الكلب الذى يتوه أو يضل طريقه داخل المنزل ، ويروح يجرى وسط الخيام القريبة ، ينادية أصحابه بقولهم "أهلك Ahi-lak ، أهلك Aha-lak" بمعنى "سر" ، إلى المكان الذى يوجد فيه أصحابك ! " يضاف إلى ذلك ، أن كلاب البدو عالية النباح ، التى تتعقب القادمين الجدد (الغرباء) هى بمثابة الشرطة داخل مخيم البدو الرحل . وقلة قليلة من هذه الكلاب هى التى تخاطر باختطاف الأشياء مستعملة فى ذلك أسنانها ، والرجل من البدو ، قد يأتى وهو يحمل مشعبه خلف ظهره ، ويقوم أهل الدار بإبعاد الكلاب عنه . أما إذا كان الحريم هن وحدهن فى البيت ، وبخاصة عند الزيارة بدون موعد سابق . فإن الغريب يتعين عليه إبعاد تلك الكلاب باستعمال الأحجار التى يلقها عليها . وهنا قد تصيح واحدة من الحريم قائلة : "أوه ! أوه ! لماذا ترمى كلبنا بالحجارة ؟" ويرد عليها القادم الغريب قائلا : "لولا ذلك ، لأكنى ذلك اللعين . " - "ولكن ، يا أنت ، لا ترمه بالحجارة مرة ثانية . " - "إذن إستدعى الكلب إلى داخل الخيمة أيتها المرأة الحمقاء ، وأفعلى ذلك بسرعة ، وإلا سوف أقتله بهذه الكتلة من الحجر . " - "آخ منى ! لا تفعل ذلك ، هذا الكلب يأكل الذئب ، إنه يراقب الأعداء ، وهو حامى بيتنا وحامى غنمنا ! أرجوك لا تلقى عليه أو ترميه بحجر ثان . " - "أيتها المرأة المجنونة ، قبل أن يعضنى ، سوف أكسر كل عظامه داخل لحمه ، ولعن الله لسانك ! فأنت بوسعك أن تبعديه عني !" فى مثل هذا الحال كنت أوفر الحجارة ولا أحتاج إليها ، ولكن الزوجة السخيفة كانت تحس أنها أصابها شئ من الأذى ، ولكن الرجال كانوا يردون على ذلك الغريب قائلين : "هذا طيب تماما . " والحريم ، اللاتى لا يعول عليهن كثيرا ، تكون أسبابهن واهية ، كما إنهن يشبهن الأطفال فى إحساسهن بالشرف ؛ لذا هناك بعض الخيام ، التى يتعين على الضيف الذى يمر عليها أن لا يثق كثيرا بالنساء الموجودات فى تلك الخيام ، أو حتى أطفال هذه الخيام .

كلاب البدو الشرسة تسطو على كل ما يمكن أن تعثر عليه خارج الخيمة ، حتى وإن كان ذلك من قبيل الأمتعة (وبخاصة عندما تترك هذه الأشياء خارج الخيمة)

الخاصة بالضيوف الغرباء : إذ تقوم تلك الكلاب بتقطيع كل شىء مستخدمة فى ذلك أسنانها وأنيابها الحادة وكذلك مخالبتها الحادة أيضا ؛ من هنا تصبح مسألة جمل متاع الضيوف إلى داخل الخيمة عملا محموداً من أعمال الخير . والرجال الذين يسرقون مؤن الآخرين وطعامهم ، ينعتهم البدو بأنهم "كلاب" . نادتنى حرفة فى صباح يوم من الأيام ، وهى تقف أمام خيمتى قائلة : "أين أنت ، يا خليل ؟ أنا سوف أغادر منزلى ، فهل لك أن تحرسه لحين عودتى ؟" - "إلى أين ستذهب مضيفتى اليوم ؟" - "أنا ذاهبة لشراء بعض الخيوط : يا خليل ، افتح عينيك وكن يقظا ، وأحرص على أن لا يدخل كلب بيتى . وعندما عادت حرفة بعد ذلك بساعات عدة ، حضرت إلى لتعنفنى وتؤنبنى ، قائلة : "ها ! يا خليل يا مهمل ، لقد دخلت الكلاب بيتى ! فلماذا لم تحافظ على البيت ؟ ألم أطلب منك ذلك ؟" - "لقد حرصت البيت من أجل عيونك ، يا حرفة ، طوال الوقت ، وأنا أحلف بحياتك على ذلك ! لقد كنت أجلس أمام الخيمة فى الشمس ، ولم تدخل حتى ولو شعرة من شعر الكلب إلى داخل الخيمة ." - "وا ، أسفاه ! خليل لا يفهم أن "الكلاب" رجال ؛ خبرنى يا خليل ، من الذى جاء إلى هنا أثناء غيابى ؟" - "جاء إلى هنا رجلان ، وعندما رأيتهما يأتيان إلى خيمتك ، ظننت أنهما من أقاربك أو من معارفك ؛ هل يعقل أن يقوم قبلى بسرقة بيت قبلى آخر ؟" - "ولكن هذان الرجلان ، سرقا زمبيلا من التمر ، وهذا هو خطؤك أنت . بعض العامة من البدو ينعدم ضميرهم ويسرقون الطعام (فقط) ؛ من منظور أن الطعام مشاع للجميع ، أو هو من خير الله .

ليالى الصيف البهيجة تبدأ اعتبارا من غروب الشمس وتمتاز بأنها تكون برادا فى تلك الأراضى الجافة المرتفعة . والرجال بعد تناول العشاء ، يتجولون طلباً للحديث مع جيرانهم ، إذ يبحث شاربو القهوة عن فنان المساء : وتستمر دردشة الأعراب ، فى مجلس تناول القهوة ، إلى منتصف الليل . وفى أغلب الأحيان ، يكون الراعى هو الشخص الوحيد الذى يبقى فى منزلنا ، الذى يظل مستيقظا مع أغنية الجافة التى يغنيها على وتر الرباب النشار .

فى بعض الليالى المقمرة كان الأطفال يسارعون إلينا : إذ يتجمع البنون والبنات قادمين من بيوت الأمهات ، ويروحون يقفزون فوق الرمل ليمارسوا ألعابهم بالقرب من

الخيول، إلى ان يهتدوا إلى الطريق الذي يمكنهم من تسلق تلة من التلال أو صخرة من الصخور . وهذه جوقة من البنات الكبيرات يتجمعن هنا ، ويرحن يغنين وهن يصفقن بأيديهن مرددات القرار نفسه الذي يرددنه يوما في كل وقت وحين ، والذي يتمثل في مقطوعة شعرية واحدة . والصبية الصغار يتجربون من ملابسهم ، ويلقون غترهم (أغطية الرأس) أرضا ، أو ربما يكونون قد تركوها في منازل أمهاتهم ، ويروحون يجرون وهم عراة في الخلاء ، ولا يتبقى على هؤلاء الصبية من الملابس سوى "الهجو" Haggu (السروال) الذي يلفة كل واحد منهم حول خصره النحيل ، وهذا الهجو عبارة عن شريط مُضَقَّر من الجلد ، الذي يرتدية ، ولا يتركه مطلقا أهل الجزيرة العربية الحقيقيين سواء أكانوا رجالا أو نساء . كل ولد حصان يختار لنفسه فرساً Faras ، أو إن شئت فقل : مُهْرَةً ؛ ثم يروحون يتجولون وهم متشابكي الأيدي ، ويصلون إلى مسافات بعيدة وهم يقفزون زوجا بعد الآخر ، كما لو كانوا يلاحقون بعضهم بعضا في الخلاء في ضوء القمر ، هذا الصبي الحصان يرفس تلك الخيول ، التي تلاحقه بسرعة ، ويهرب منها وهو يصهل . هذه اللعبة التي يزجى بها أبناء الأعراب وقت فراغهم ، التي تخضعهم هم أنفسهم دون غيرهم ، لا يتولد عنها أى شكل من أشكال الصراع ، كما أنها لا تنطوى على أى شيء من الحقد أو الغل ، ولا يسمع أحد فيها أصوات التذمر أو الغضب ، كما أنها لا تسمح بأى شكل من أشكال الضرب أو اللكم . والبدو الرحل ليست الوحشية من طباعهم . زد على ذلك أن تلك اللعبة يمكن أن تستمر ساعة أو ساعتين : هذا يعنى أيضا أن الصبية الصغار - قد يقتربون من اللعبة التي تمارسها البنات الصغيرات : إذ يرحن يلهين مثل الإبل الكبيرة بين الأغنام الصغيرة ؛ ولكنهن لا يكن عاريات ؛ وإذا ما بدر من أى صبي من الصبيان الصغار أية بادرة من بوادر إساءة الأدب، فإنه لا يحظى بتقدير أو احترام هؤلاء البنات الصغيرات. وبعد انقضاء مرحلة الطفولة، لا يكون لدى هؤلاء الأعراب أية لعبة من لعب تزجية الوقت. وأهل قبلى Gibly ، أو إن شئت فقل : بدو الجنوب الرُّحْل ، لم أرى منهم خيالة يقومون بتدريب أنفسهم على أفراسهم بصورة مستمرة . والأطفال يمارسون هذه اللعبة لإرهاق أنفسهم وليس طلبا للمزيد من الإتقان والإجادة . وليس لدى الشباب أية رياضة أخرى غير إطلاق نيران بنادقهم الفتيلية فى المناسبات الأسرية . والرعاة ، يحيون حياة تأمل

بصورة مستمرة ، كما أنهم لا يتغذون كما يرام ؛ كما أنهم لا تجرى فى عروقهم روح التفاؤل ، التى يمكن أن تدفعهم إلى ممارسة ألعاب الرجولة ؛ ويندر أن تجد بدويا مفتول العضلات ، وفى المنطقة الواقعة جنوبى حائل ، لم أر شابة متوردة الخدين ، بل إنهن يبدين كما لو كن من مخلفات جفاف الصيف ، وذابلات وهن فى ريعان شبابهن .

فصل الصيف المعتدل هو موسم المزيينين Muzaynins ، أو إن شئت فقل : موسم احتفالات ختان أطفال البدو ، وفى تلك المناسبة يجرى تجهيز خيمة الأم وتزيينها بشراريب من الخيط الأحمر القانى ، وبعض خصل يجرى صنعها من ريش النعام ، كما يجرى تزيين الخيمة ببعض الأشياء الملونة ، أو أية أشياء أخرى يمكنهم العثور عليها . فى تلك الخيمة تجتمع جوقة (مجموعة) من بنات الجيران النحيفات ، ويرحن يغنين فى تلك المناسبة وهن يرتدين أبهى ثيابهن . وتضع كل واحدة من البنات ، على جبهتها منديلا جديدا مثبت به ريشة من ريش النعام ؛ كما تلبس كل واحدة منهن حلقا كبيرا فى أذنها ؛ ويصل حجم ذلك الحلق إلى حجم السوار . كما تلبس الفتاة فى ذلك اليوم حلقة أنفها التى يطلقون عليها اسم "الزميم" Zmèyem ؛ والحلق ، هو و "الزميم" أو إن شئت فقل : "حلقة الأنف" عبارة عن مجوهرات مصنوعة من الفضة ، وقلة قليلة من تلك المجوهرات ، على حد قولهم ، هى التى تصنع من الذهب الخالص ، منذ زمن بعيد . والأقراط ، وحلقات الأنف هى من أشياء الزينة عند النساء البدويات ، ومن الصعب أن نجدها فى أزمان أخرى (والبدوية تضع كل يوم فى الثقب الذى يحدثونه لها فى أنفها فصاً من القرنفل) ، كما تلبس البدوية فى يديها أساور من الخرز . كما تلبس فى أصابعها أيضا خواتم مصنوعة من المعدن . فى ذلك اليوم تفك البنات جدائل شعرهن الأسود غير الطويل ، ويتركه ينسدل على اكتافهن ، ويتلألأ فى ضوء الشمس ، بعد أن يكن قد غسلنه ببول الإبل ومشطنه تمشيطة جيداً . والصبايا يقترضن عباءات جديدة فى ذلك اليوم ، ولا فرق بين عباءات الرجال والنساء . وتجلس الصبايا على شكل حلقة ويبدأن فى التصفيق بأيديهن الصغيرة ، وهن يتغنين ويرددن قراراً غنائيا لا يعدو أن يكون بضع كلمات قليلة ، على شكل مقطوعة شعرية واحدة فقط . هذه الوجوه الصغيرة التى يرتسم عليها الجوع ، يحسبها الناظر إليها ، وجوه بنات الغجر ؛ هؤلاء البنات الأطفال اللاتى يضعن فى كثير من الأحيان بين أمتعة أمهاتهن ، هن

اليوم يلعبن أمام أعين الرجال ، بملامحهن التى تدل على انكسار خاطر ، وأدب العذرية التى يبدو عليهن . ولكن هزار الأعراب واستهزائهم لا يمكن أن ينقطع ويتحول إلى صمت طويل ، نظرا لأن الشبان الصغار ، يتجمعون ، من حول البنات ، فى ضوء النهار ، ويروحون ينكتون ويهزرون ، بل ويصل الأمر إلى حد أن البعض منهم يروحون يشدون الريش الذى تعلقه الصبايا على جباههن ، وهن أبناء عمومتهن الأقربين ، ولا تجرؤ واحدة من الصبايا على الاعتراض على ما يفعله الشبان ، ولكنهن يكتفين بتوجيه نظرات اللوم والتأنيب إلى هؤلاء الشباب : أو قد يضحك الصبيان بصوت عالٍ بعد أن يكونوا قد قسموا هؤلاء الصبايا فيما بينهم لكن زوجات لهم ؛ وإذا ما وجد غريب بينهم ، فهم يطلبون منه أن يختار لنفسه واحدة من بين هؤلاء البنات . يا أنت ، ما رأيك فى بناتنا ، وفى هذه البنت ، وفى تلك ، أليست وجوههن جميلة ؟ ولكن العذراوات لا تبتسمن ، وإذا ما نظرت إحداهن إلى الأعلى ، فإن أعينهن الجريئة يبدو فيها النفور والشجن والحزن . البنات فى هذا الموقف يشبهن الأطفال الذين يجرى تخويفهم بالعصا ، هذا يعنى أن هؤلاء البنات يتعين عليهن الحفاظ على شكل معين من السلوك والتصرفات ؛ وبالرغم من كل ذلك ، فهن لسن فتيات جميلات . استبداد الذكور ، فى الدين الإسلامى فيما يتعلق بهذا الموضوع ، يمكن رده إلى سلوك معين للبنات تلتزمه منذ زمن بعيد ، وهنا ترقص الصبايا الصغيرات كما لو كن مرشحات لزواج سعيد ، الأمر الذى يدخل السرور على قلوب الأمهات فرحا ببناتهن . ليتهن يأتين الغد الذى يتمنينه ! الغد الذى يمكن أن يكون مثل هذا اليوم الذى هن فيه حاليا ، والذى يتغنين بسعاده وسروره ، ذلك اليوم الذى ينضم فيه الطفل الذكر إلى دين الإسلام . هذا اليوم أفضل من يوم مولده . والطفل عندما يختن فذلك يعنى إنه قد أصبح عمره ثلاث سنوات بالتمام والكمال ؛ وهذا يعتمد أيضا على الموسم من ناحية ، وعلى مدى قدرة الأم على توفير القمح أو الأرز الذى يكفى وجبة العشاء التى ستقدم للضيوف ، وفى بعض الأحيان قد تؤجل عملية الختان إلى الغد ، إذا ما تبدل حال الطقس ؛ أو إذا ما تعين على الأسرة الانتقال من مكان إلى آخر ضمن رحلة القبيلة .

يصل أصدقاء الوالد ليحلوا ضيوفا عليه : البعض من هؤلاء الأصدقاء يتزينون بحزام الطلقات وحزام السيف أيضا الذى يسمع له حفيف ينبعث من السلاسل المعدنية

الكثيرة ومن عبوات البارود المصنوعة من النحاس الأصفر ؛ كما يحمل كل واحد منهم على كتفه بندقيته الفتيلية الطويلة . هؤلاء الضيوف يثبتون قدرتهم على الرماية باستعمال تلك البنادق التى يصوبون طلقاتها إلى رأس الذبيحة التى ذبحها والد الطفل ، الذى يقولون له "بابو" Babbu ، إكراما وتكريما لضيوفه . وكل واحد هنا ينحر ذبيحته بنفسه . مثلما كان الحال فى العالم القديم ، كما يقوم بسلخها وتقطيع اللحم بسرعة العرب المعهودة . والبدو الرحل كلهم ويلا استثناء خبراء فى الذبح والسلخ وتقطيع اللحم ؛ وهامى أرباع الذبيحة معلقة على دغل من الأدغال أو فى غصن من الأغصان ، التى ربما يعثرون عليها أثناء تجوالهم فى الصحراء ، عند أطراف الجبال أو حوافها . وعندما تميل الشمس إلى الغروب يجرى وضع اللحم فى قدر كبير ، يقولون له "الجدّة" Jidda . ويترك البدو كرش الذبيحة وأمعاءها معلقة على الغصن أو الدغل . وبعد ذلك يجرى طبخ اللحم مع الثريد المتوافر لديهم ، وبعد أن يكتمل غروب الشمس ، يرحن الصبايا يرقصن منفردات على شكل حلقة أو دائرة ؛ وهنا يتفرق الرجال وينتشرون لأداء الصلاة ، وخلال تلك الفترة يجرى إدخال ماشية كل أسرة من الأسر إلى المراح المخصص لها ، وبعد أن ينتهى الرجال من أداء الصلاة ، يقدم العشاء فى الخيمة ؛ والطبق الخشبي الذى يوضع أمام الرجال يكون فيه من اللحم مقدار يكفى لعشاء ثلاثين رجلا . وبعد ذلك بفترة وجيزة يحضر بعض الرعاة محدثين شيئا من الجلبة وهم عائدین من الحقل ؛ ويقترب أولئك الرعاة من تلك الضوضاء المرحية التى تصدر عن احتفال المزيّن ، وهنا يستشعر أولئك الرعاة رغبة الرقص فى داخلهم . ويكون هؤلاء الأولاد صفا ، بأن يضع الواحد منهم ذراعه على كتف من يقف إلى جواره ، ويروحون يضحكون ويسمرون ؛ ويروحون يصيحون وهم يتقدمون إلى الأمام ، ثم يرجعون إلى الخلف ، ويتمايلون ويتقدمون . ويتلوون ، كل ذلك وهم ممسكين ببعضهم البعض ؛ ويتغنون كلهم بأغنية هى عبارة عن مقطع واحد فقط من الشعر . أثناء ذلك ، تصفق ربات البيوت داخل الخيام ، ثم تنهض واحدة منهن تحمل فى يدها عصا ، وعندما يقبل عليها الرجال الذين يرقصون تقوم بالرقص استقبالا لهم ؛ هذا فى الوقت الذى يواصل الرجال فيه رقصهم على شكل صف واحد ، وهم يرددون المقطع الشعرى نفسه ، وعندما يتقدم الرجال نحو هذه المرأة تبدأ هى فى الرقص فى اتجاه داخل الخيمة ،

وتتظاهر بالدفاع عن نفسها باستعمال العصا ؛ وتوجه المرأة وجهها نحو الرجال ، الذين يواصلون أغنياتهم بصوت الرجال الجهورى ، كما لو كانوا يلاحقون تلك المرأة . - والبدو الرجل يتخيلون ضرورة الختان : ولما كان البدو رعاة فهم يزعمون أن ذلك يحدث فى كل أنواع الماشية ، وأن ولد آدم هو الوحيد الذى يحدث مثل هذا الشكل من أشكال الإعاقة . وعندما سألونى فى هذا الأمر قلت لهم : "يوسعكم تعديل عمل الله (سبحانه وتعالى) هذا ! " - "وردوا على قائلين : نحن لا نتكلم عن ذلك ، وإنما نتحدث عن السرعة فقط . " سألتهم : وما هى واجبات المسلم ؟ وأجابونى : "أن يصوم الرجل الشهر ، وأن يؤدى الصلاة ؛ " - ولم يتطرقوا إلى ذكر الختان ، الذى يسمونه "تطهراً" .

فى اليوم الخامس عشر من شهر أبريل ، بعد ربح هبت علينا فى الصباح ، وموجة من البرد جاعتنا من اتجاه الشمال الشرقى ، اكتشفت فى فترة مبكرة من مساء ذلك اليوم أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم ، كما وجدت أيضا أن درجة الحرارة كانت ٩٥ فهرنهايتية داخل الخيمة ، وأن الهواء كان ما يزال ساكنا والشمس ساطعة . هاهى الأعشاب الخضراء قد نوت ، وبدأ جفاف الصيف يطالعا ، كما بدأت الصحراء تغير لونها ! هذا يعنى انتهاء فصل الربيع . تحرك البدو ليقيموا فى مخيماتهم المنعزلة الجرداء : وذات صباح ، وبعد أن سيقنت الإبل إلى المرعى بحوالى ساعة من الزمن ، جاعنا إنذار من المقدمة يقول بوجود ، جوم Gom (غزو) . كان أحد الرعاة قد أفلح وعاد إلينا هاربا ، راكبا ذلوله (ناقته) ليبلغ المجلس أن "الإبل" el-bil ، أى "قطعان الجمال" قد جرى الاستيلاء عليها . "وهنا وقف الشيوخ من حول وجار القهوة وتركوا فناجيلهم وبدت على وجوههم نظرات الدهشة والعجب : وانصرفوا جميعا كل يبحث عن فرسه ، على وجه السرعة . لقد سبق لهؤلاء الشيوخ أن شاهدوا بالأمس بعضا من الحرامية Haramiyeh ، يحومون حول المكان ، وبالتالي سارع كل واحد من هؤلاء الشيوخ إلى إحضار سلاحه . كان الناس يجرون من الخيام كما لو كانوا زنايير هائجة ؛ بعض هؤلاء الرجال كانوا من حملة البنادق الفتيلية ، وبعض آخر كان مسلحا بالرماح ، وكان الجميع مشاة ، اللهم باستثناء الشيوخ الذين كانوا يركبون الخيول ، وسارع الجميع قدما بحثا عن أعدائهم ، الذين لم يتمكنوا من رؤيتهم عند ذلك الأفق الصحراوى القصير : ولم يبق فى المخيم سوى ربات البيوت ، والأطفال وقليل من

المرضى وكبار السن . وطلب البعض منى أن أركب وأذهب لمهاجمة الأعداء اللصوص : كان زيد قد سبق له القول : إن خليلا سوف يقاتل معهم . " (صاحت ربات البيوت قائلة) يا خليل ، قل لنا طالعنا فى كتبك الحكيمة : ألا تستطيع التنبؤ بإستعمال هذه الكتب (شوف Shūf فى الغُرَيْبُ*) (F'il ghraib) إقرأ فى تلك الكتب وخبرنا عما تراه فيها عن هؤلاء الجومانيين (اللصوص) . - لقد حق عليهم العقاب ! والمؤكد هو أن هؤلاء اللصوص شاهدوا نيران الحراسة فى الليلة الماضية ، وبالتالي استتروا وتواروا خلف الجبل إلى أن يحين موعد إطلاق الإبل إلى المرعى . - مضى علينا صباح طويل ، ونحن غير واثقين مما يمكن أن يسفر عنه ذلك الحادث السيئ .

كان مطلق قد ركب دابته قبل أيام عدة ، قاصدا مدينة حائل للقاء الأمير ، وخلف وراءه رحيل Rahyél فى حكم القبيلة ؛ ورحيل هذا رجل مضطرب الذهن ، إذا ما تآزمت الأمور ووصلت إلى مثلما هى عليه الآن . بعد أن عاد أفراد القبيلة المسلحين بعد الظهر ، ذهب الجميع إلى الجلوس داخل المجلس ومناقشة الحادث المفزع ، ولم أسمع من واحد من الحاضرين أية كلمة عن مطاردة اللصوص أو تعقبهم ؛ وعندما سألت الجالس إلى جوارى : قال ، سوف يركبون إبلهم ، على الفور ، لأن الإبل المسروقة لأبد أن تعود إلى ديارنا فى المساء ؛" والسبب فى أن القسم الأكبر من الماشية جرى الاستيلاء عليه ، فيما عدا ذلك القسم من الماشية الذى كان يرعى فى الجانب الشمالى من المُنْزَل . معروف أن السرعة والتعجيل فى العمليات الحربية أمر جد مهم ، ولكن هؤلاء البدو ظلوا بلا خراك طوال اليوم وتركوا اللصوص يفلتون ، وهم يتعجبون من أمر هؤلاء اللصوص ومن يكونون ؛ قال جميع الحاضرين : "هم بعض أعراب الشمال ،" نظرا لأنهم كانوا مسلحين بمسدسات . وراح الحاضرون يقلبون الأمر ويعملون عقولهم كى يحددوا إن كان هؤلاء اللصوص من بدو الشرارات أو من حويطات بن حاسى (أى بدو من المنطقة المحيطة بقرية معان) ؛ أو أنهم من بدو الرولة . قال زيد : اسمعونى وسوف أوضح لكم الأمر ، وأحدد لكم من هم هؤلاء اللصوص

(*) المقصود "بالغُرَيْبُ" بضم الغين وتسكين الباء ، هو "الغيب" وهذا أمر مألوف عند البدو فهم عندما يقولون : "الغرْمُ" بفتح الغين وتشديد النون وفتحها يعنون (الغنم) (المترجم)

(كان زيد هو الذى يتمتع بذلك الغرور والخيلاء بينهم) . أقول لكم إن هؤلاء اللصوص من الصخور es-Sokhûr ، وسوف تتأكدون من صدق كلامى . " وجرى بعد ذلك تدبير تلك الكلمات القليلة التى خرجت من شفاة العدو . لقد تحدى اللصوص رعاة الإبل متسائلين : "من أى أعراب يا أنت ! هل أنت من الفجير ؟" ولكن ذلك لا يعد كافيا فى مسألة تحديد لغة Loghrat قبيلة من القبائل . كان الجوم (اللصوص) أو إن شئت فقل : الغزاة ، ثلاثة عشر خيالاً ، كما كان معهم أيضا عشرين لصا آخرين يركبون جمالا . وأثناء اقتياد اللصوص للغنيمة ، شردت منهم فرس من الأفراس ، جرى اقتيادها إلى المخيم . ولكن أحداً لا يعرف شيئا عن تلك الفرس ، والسبب فى ذلك أن الشيوخ البدو ليس من عادتهم وشتم خيولهم بالعلامات التى يميزون بها ماشية القبيلة . وقد نفقت تلك الفرس فى اليوم الثالث، بسبب الظمأ الشديد ! وكان السبب فى ذلك، أن أحداً لم يجرؤ على سقى تلك الفرس من الماء القليل جداً الذى فى حوزته . ومعروف إنه إذا ما ضلبت عنزة من الماعز وراحت تتجول بين البدو ، ولم يتمكنوا من معرفة صاحبها ، فإن أحداً لا يقدم الماء مطلقا لمثل هذه العنزة . ويوم أن كنت مع هؤلاء البدو ، أنقذت حياة حيوان أو اثنين من الحيوانات الضالة ، بأن أقنعت بعض المرضى الذين كانوا يترددون على ، تقديم الماء لهذين الحيوانين الضالين .

حصر الجالسون فى المجلس عدد الإبل التى استولى اللصوص عليها ، بأن راحوا ينادون على أسماء أولئك الذين سرقت ماشيتهم : كان زيد هو الذى يقوم على أمر ذلك الحصر ، إذ كان يرسم خطا على الرمل يشير به إلى كل عشرة من الجمال ؛ وعليه أبلغ زيد الحاضرين أن عدد الماشية الصغيرة المسروقة بلغ مائة وعشرين رأسا ، إضافة إلى سبعة من الإبل - وقدّر قيمة ذلك بحوالى ٦٠٠ جنيه إنجليزى أو ما يزيد على ذلك . يضاف إلى ذلك أن إجمالى عدد إبل القبيلة لم يكن يصل إلى ٢٠٠٠ رأس ، ولا أعتقد أيضا إنه كان يمكن أن يكمل ١٥٠٠ رأس ؛ زد على ذلك ، أن كل ثروة الفكرة ، التى هى عبارة عن مقتنيات حوالى عشرين أسرة ، هى وماشيتهم الكبيرة والصغيرة ، إضافة إلى خيامهم وأوانيهم ، كل ذلك لا يزيد ثمنه ، من وجهة نظرى ، على ١٧٠٠٠ جنيه إسترليني . يضاف إلى هذا المبلغ حوالى ٧٠٠٠ جنيه إسترليني أخرى ، هى قيمة الميراث الذى خلفه لهم أبائهم فى خيبر . وأنا أرى أن متاع أو مقتنيات أية أسرة من

أسر هؤلاء البدو الجنوبيين لا تزيد قيمته بأى حال من الأحوال على ما قيمته ١٢٠ جنيه إسترليني ؛ وهذا ينطبق أيضا ، ودرجة كبيرة ، على البدو الذين يحيطون بالفكارة ويجاورونهم . هذه القبيلة الصغيرة ، فيها النبلاء ، وفيها من هم أيضا من عامة الناس ، وفيها أيضا وفرة العيش ، وفيها أيضا الفقر والعوز ، والبؤس . هذا الشيخ مطلق الكبير ، الذى تفوق ملكيته ملكية الآخرين فى قبيلته ، لا يزيد ما يملكه من الإبل على خمسة وعشرين جملا . هناك أيضا فارق بين قبيلة وأخرى : هذا يعنى أن قبائل الشمال الكبيرة ، كما هو الحال فى قبيلة العنزى السورية ، وقبيلة الشمر الشمالية التى تعيش فى أراضى بلاد الرافدين ؛ هاتان القبيلتان تتجولان فى بلاد غنية وثرية ، ومن هنا فهما غنيتان أيضا بالماشية والخيول : وهذا الكلام ينسحب أيضا على قبيلتي قحطان والعتيبي وهما من قبائل الجنوب ، (سوف نرى أن ديار هاتين القبيلتين إنما تروى كل عام بفعل الرياح الموسمية ؛) ولكن قبائل الوسط البدوية ، التى تعيش فى أراضى لا تسقط عليها الأمطار ، "أضعف" من قبائل الشمال والجنوب . أما القبائل التى توجد على طول طريق الحج ، والتى تحصل على صرة Surra (إعانة) كل عام ، فهى أكثر القبائل استرخاء وشربا للقهوة ، كما أنها كثيرة الكلام دونا عن سائر بقية القبائل . وشيوخ الفجير يتقاسمون فيما بينهم كل عام ما يقرب من حوالى ٦٠٠ جنيه إنجليزى من تلك المدفوعات ! . وهذا المبلغ يذهب منه حوالى ١٠٠ جنيه إنجليزى إلى الشيخ زيد ، الذى يتسلمها باعتبارها إرثا آل إليه من والده . فى حين يحصل الشيخ مطلق على مبلغ ١٦٠ جنيه إنجليزى : كما يحصل مطلق أيضا على بعض الملابس والحبوب ، علاوة على بعض المخصصات التى يحصل عليها أيضا لخيامه ولشراء الأوانى ؛ وبالرغم من ذلك فهم جميعا من الفقراء . ولن ينصلح حالهم أكثر ذلك . وحلال مطلق ، أو إن شئت فقل : "ثروته من الماشية" . هى وفرسه وكذلك خيمته ومعها كل مقتنيات بيته ، كل ذلك لا يساوى ، من وجهة نظرى ، ما يزيد على مبلغ ٢٠٠ جنيه إنجليزى . وإذا ما أضفنا إلى هذا المبلغ ميراثه فى قرية خيبر ، نجد أنفسنا أمام حقيقة مفادها أن كل ما لدى زيد لا تزيد قيمته بحال من الأحوال على ٥٠٠ جنيه إنجليزى .

أضاع الأعراب من الوقت الكثير جداً الذى لا يمكن استرجاعه بأى حال من الأحوال ؛ فى حين قامت ربات البيوت بتجهيز بعض المؤن السريعة لأولئك الذين

سيركبون إبلهم هذا المساء ويذهبون لاسترداد الماشية المسروقة . مسألة الركوب هذه ، تترك لاختيار البدوى نفسه ، بمعنى أنها ليس فيها أى شىء من الإجبار ، ومع ذلك فإن كل من يكون لديه جمل يركبه ، لا يمكن أن يتحاشى القيام بعمل فيه خدمة للجماعة كلها من ناحية ، والمحافظة على اسمه وسمعته بين أهله وعشيرته من الناحية الأخرى . تولى رحيل Rahyèl قيادة تلك المطاردة . كان البعض من هؤلاء البدو يتفاجئون وهم جلوس ويقولون : "هذه الليلة ، أو مع طلوع الصبح ، وعندما يظن الحرامية أنهم وصلوا إلى ديرتهم فى سلام ، ومع نيلهم أول قسط من الراحة ، ستهجم عليهم فجأة ، ونسترد ماشيتنا ، بمشيئة الله ، كما سنأخذ ماشيتهم من بين أيديهم . " والإبل عندما يقتادها الغزاة اللصوص ، يطاربونها طوال ذلك اليوم ويجعلونها تجرى أمامهم طول الوقت ، أملا فى الإفلات من المطاردة والملاحقة ؛ وبذلك يكون هؤلاء اللصوص قد قطعوا بتلك الماشية حوالى ٥٠ ميلا عندما تبدأ الشمس فى الغروب . كانت آخر الكلمات التى سمعتها قبل أن ينهض البدو واقفين للقيام بتلك المطاردة : "إن شاء الله ، سوف يعود كل جمل جرى خطفه بواسطة هؤلاء اللصوص ، ستعود كل هذه الماشية غداً إلى هذا المكان ، فى مثل هذا الوقت ، وستقف كل دابة أمام خيمة صاحبها : " وتفرق البدو على إثر ذلك الفأل الحسن ، وذهب كل واحد منهم لتناول العشاء ، على أمل أن يستقل الركاب إبلهم بعد ذلك ، والمعروف أن الشيوخ (فى المطاردات الطويلة) لا يصحبون معهم أفراسهم . أما زيد فقد جلس ساكنا بلا حراك فى منزله ؛ قال : إنه لدية جملان "ولكنهما مريضان" . وهذا هو خلف Khalaf يجلس هو الآخر فى خيمته ؛ وخلف هذا ، رجل يتباهى بأن ثمن فرسه يساوى عددا كبيرا من الجمال ، وبأنه واحد من أكابر شيوخ ولاد على ، ومع ذلك ليس لديه ما يركبه . وهذا سبب واهٍ من منظور ميزان الرأى العام ؛ وبقي زيد جالسا طوال نهار اليوم التالى ، حزينا يحتسى الكثير من القهوة ، ويحتج بشدة معرباً عن أسفه ، ويقسم بالله ، إنه جد أسف لأنه لم يذهب مع الرجال .

كانت إبل زيد قد أنقذت ونجت من السرقة فى تلك المرة نظرا لأنها كانت ترعى فى الجانب الآخر من الصحراء ؛ ومع ذلك فإن المصيبة التى تكون من هذا القبيل تعم الجميع ، ويتعين على القبيلة كلها تحملها . هذا يعنى أن أحداً ممن سرقت ماشيتهم

سوف يترك معوزا أو محتاجا ؛ ولكن الشيخ الذى يحكم القبيلة سوف يفرض ضريبة على كل أفراد القبيلة ، على أن يجرى تسليم قيمة تلك الغرامة ، من باب المساهمة العامة ، لهؤلاء الناس ، خلال يوم أو يومين . وفى مثل هذه الظروف يوفد شيخ القبيلة الحاكم بعض الأفراد كمُقَيِّمين إلى منازل المنكوبين ، لإحصاء الماشية المفقودة من كل أسرة من الأسر . وجرى فى اليوم التالى تحصيل ضريبة من زيد ، على عدد من الماشية أقل من العشرين رأسا التى يملكها ، وعلى جمل وعدد صغير من الماشية الصغيرة . والبدو الرحل الذين شاهدناهم ، هم من النوع الذى يتشارك أفراداه فى الثروة العامة ، ويحكمهم شيوخهم حكما عادلا ومنصفا . هذا يعنى أن هؤلاء البدو يتقاسمون خسائرهم ، وقد يمتد ذلك الأمر إلى القبائل الكبيرة . معنى ذلك أن المصائب قد تحل بتلك القبائل ، إذ قد تصادف قبيلة من تلك القبائل يوما أغبرا ، لم يسبق لها أن صادفت على امتداد سنوات طويلة ، ويجرى فى ذلك اليوم ، بضربة واحدة ، تجريد قبيلة من كل ماشيتها ، مثلما حدث بعد ذلك ، على حد علمى ، للموءاهيب . - ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ؟ قام أفراد قبيلة البلى المجاورين لهم بإعطائهم الكثير من ماشيتهم .

وإذا ما سرقت ماشية غريب من الذين يسكنون مع قبيلة من القبائل ، فذلك لا يرتب أى التزام على أفراد القبيلة ، نظرا لأن هؤلاء الغرباء لا يتقاسمون الخسائر مع أفراد القبيلة الذين يستضيفونهم : ومع ذلك هناك بعض القبائل الضخمة (وقد سمعت ذلك ما يقال عن قبيلة الشمر) التى قد تقدم ، من باب التطوع ، لهؤلاء الغرباء ، شيئا من المعونة ، طالما أنهم كانوا يعيشون بينهم منذ فترة طويلة ، وذلك من باب مشاطرة أولئك الغرباء أحزانهم ومصائبهم . والقروى عندما يعهد بماشيته إلى واحد من البدو ، كى ترعى مع ماشيته ، ويحدث أن تسرق تلك الماشية مع ماشية القبيلة ، يطالب البدوى برد ماشيته إليه ، ويتصرف معه تصرفات دنيئة ، من منطلق إنه دائن له ، كلما التقاه فى قرية : ولكن البدوى الذى لا تقيده قوانينه وأعرافه بالتعويضات التى من هذا القبيل يأخذ حذره ولا يخاطر بالاقتراب من تلك القرية . هذه المشاحنات موجودة منذ زمن بعيد ، بل إن البدو يتوارثون الأحقاد القديمة إلى الجيل الثالث . - وقانون إسرائيل يساند القروى فى مثل هذا الحال ، ويلزم الراعى (البدوى) بتعويض أو إعادة الماشية إلى صاحبها . توجد بين البدو أيضا خسارة أخرى لا يجرى

التعويض عنها ، وذلك عندما تسرق ماشية واحد من البدو ، ويكتشف شيوخ المجلس ، أن تلك الخسارة كانت بسبب البدوى نفسه ، وأن تلك الخسارة لم تكن من أجل صالح القبيلة بشكل عام . وهنا يقوم ذلك القبلى المنكوب بوصف الشيوخ بأنهم ليسوا عادلين أو منصفين ، وبالتالي يظل مثل هذا البدوى عاريا ولا يعوضونه عن خسائره من مواشى القبيلة : ولقد صادفت الكثيرين من أمثال هؤلاء البشر . كما شاهدت أيضا بعض البدو الأثرياء الذين حل عليهم الفقر فجأة ، عندما نفقت إبلهم كلها دفعة واحدة بفعل مرض أو وباء من الأوبئة . أمثال هؤلاء الناس يتصادقون فى أيام النكبة ، شأنهم شأن أمثالهم فى بقية أنحاء الدنيا كلها . وفى مثل هذه الظروف ، وحسب احتياجات ذلك المنكوب ، يقوم كل واحد من أفراد القبيلة باقتياد رأس من الماشية وتسليمها لذلك المنكوب ؛ وبذلك يتمكن مثل هذا الشخص من استعادة شئ من قوة السابقة .

مقابلة الغزو بالغزو فيه دمار للأعراب . فالسطو والسطو المضاد لا يؤديا مطلقا إلى الرواج ؛ الأمر لا يعدو أن يكون فى نهاية المطاف مجرد تبادل للماشية على نحو سيئ للغاية . من هنا ومن منظور البدو ، فإن قوات إبل الفكرة عبارة عن "خليط" ، بمعنى أنها ليست كلها من نوع واحد ، مما يدل على إنهم سرقوها من ديار عدة . أبلغنى ولد مطلق ، أنه سوف يتولى المشيخة بعد والده ، "نعم ، والله ، كل إبلنا حرام (بمعنى أنها جرى الحصول عليها عن طريق الغزو) . وليست ملكا شرعيا لنا . " يضاف إلى ذلك ، أن بدو الفجير ، أصابهم الفقر فى السنوات الأخيرة ، جراء غزو جيرانهم لهم : فقد غزتهم قبيلة بشر ، ومن بعدها ولاد على ؛ وأخذوا منهم قطعان الماشية ؛ ولكنهم فقنوا القسم الأكبر من تلك القطعان بسبب وباء من أوبئة الماشية ، التى تصيب القطعان فى تلك المضارب الرملية ؛ وهذا الوباء يجىء للحيوان على شكل مغص ، أدى إلى نفوق البقية الباقية من حيوانات الفجير الصغيرة . وقبل ذلك بعام واحد ، كان لدى زيد قطيع مشترك ، أو إن شئت فقل : مختلط ، من الماعز والغنم ، الأمر الذى مكن حرفة زوجة زيد . فى فصل الربيع المنصرم ، من صناعة حمولة جمل ونصف جمل من السمن (أى ما قيمته حوالى ١٨ جنيه إنجليزى). وهى أنا اليوم لا أرى أمامى سوى نعجة واحدة وعنزتين من ماعز اللبن ، هى كل ما تبقى لهما من الماشية الصغيرة ، وهاتان العنزتان لا تعطيان من الحليب سوى سلطانية صغيرة كل يوم ،

وبالتالى فإن زيد لا يود شراء المزيد من الحيوانات الصغيرة نظرا لخيبة الأمل الذى منى بها . كان زيد قد ورث عن والده الذى كان شقيقا لشيخ القبيلة الكبير السابق ، عددا كبيرا من أشجار النخيل فى قرية خيبر : ونظرا لأن نصف الثمار يأخذها المزارعون الزوج ، فإن ما يحصل عليه على شكل إيجار يصل إلى حوالى ٢٠٠ ريال . من هنا يتضح أن زيدا بحكم حصوله على صرة كل عام ، يكون لديه نقوداً يصرف منها كل يوم ، طوال سنوات الزواج ، أى بواقع ريالين فى اليوم الواحد ، وهذان الريالان هما ثمن ثلثي ثمن واحدة ، وهذا يعد مبلغا كبيرا فى تلك الصحراء الجرداء : ومع كل ذلك كان الرجل بانسا ، ويتفنن فى تأخير سداد المستحقات إضافة إلى أنه كان وراء عملية الربا . كان شيوخ بنى وهاب يدخرون "تقودهم" thàhab ، (من الصرة التى كانوا يحصلون عليها من الدولة كل عام ،) فى قرية العلا ؛ ومن هذه النقود يستطيع الشخص الوضيع أن يزيد "حلاله" (ماله) فى صمت ، وقد يتجرأ ويشتري لنفسه فرسا جديدة .

تغيبت جماعة الملاحقة والمطاردة التى كان رحيل يتزعمها ثلاث ليال عن المخيم . هذا يعنى أن ما تبقى من الرجال فى المخيم كان عدداً قليلا جداً ، وكان ذلك العدد القليل من الرجال يتجمعون سويا لشرب القهوة ، أما ربات البيوت المحبات فكن يجلسن خارج الخيام طوال اليوم ينتظرن عودة الرجال : وقبيل ظهيرة اليوم الرابع ، سمعنا صوت زغاريد النساء !- ولكن نغمة الفرح هذه لم تدم طويلا ، بل وماتت فى حلوقةن ، عندما أطلن النظر ، ورأين أن القادمين عليهن عند الأفق لم يكونوا يقودون معهم أى شىء وهم عائدون إلى مخيمهم . ونهض الرجال بدورهم وراحوا يطيلون النظر فى الاتجاه نفسه . قال الرجال : ما معنى صياح الحريم إذن ؟ انظروا ، هاهم الرجال يعبدون خاوين الوفاض ، كما أن كل واحد منهم يركب منفرداً عن بقية الجماعة حتى ينزل من فوق راحلته أمام خيمته !- وبناء على ذلك ، عاد أولئك الرجال إلى كسلهم المميت ، ودخلوا الخيمة من جديد دخول الخاسرين ، ليستأنفوا جلوسهم من جديد . "قال الرجال : البعض منهم سوف يأتوننا بالأخبار" . نزل رحيل ، بعد ذلك بفترة قصيرة ، من على جملة أمام خيمته ، التى تقع خلف خيمتنا وعلى مسافة قريبة .- وهنا تخرج ربة البيت فى اتجاه زوجها وهو يقوم بتبريك جملة ؛ وتستقبله فى صمت ،

وتنزل سرج (عدة) الجمل من فوق ظهره ، وتنقل مهمات ومعدات زوجها إلى داخل الخيمة . ليس من عادة الرجل (رحيل) أن يحيى زوجته بصورة علنية ، كما إنه ليس من عادته أيضا تحية المجلس بشكل علنى أو صريح أيضا ، كما إنه لن يتحدث إلى زوجته أيضا؛ وبناء على كل ذلك ، تقدم رحيل نحونا على الفور، قبل أن يدخل خيمته . - "السلام عليكم !" قالها رحيل من حلق جاف ، وجلس وهو يتهدد تهيدة رجل متعب مكلوم ، يغلب عليه الحزن ، وأردف قائلا لنا : "فى اليوم الثانى ، وهم يتبعون العدو عبر النفود" وصلوا إلى منطقة هبت عليهم فيها ريح طمست آثار أقدام اللصوص ، ثم أضاف يقول : "هذه هى إرادة الله !" وعند هذا الحد أداروا رؤوس نوابهم عائدين إلى المخيم ، - لم يكن لديهم ما يهتنون به فى أنحاء الأرض المحيطة بهم ، حتى يتمكنوا من اقتفاء أثر اللصوص من جديد . قال الأعراب الكسالى ، "حسن ، هذا هو ما قدره الله لنا !" شاعت لهم الأقدار أن يتركوا عدوا ضعيفا يفلت من بين أصابعهم ، بسبب ريح بسيطة ، بالرغم من أن أولئك اللصوص كانوا يقتادون معهم معشار ما معهم من إبل . ولكن رحيل ، من باب إعطاء حكايته نهاية طيبة تعجب قائلا : "والله ، لقد عثروا على ماء فى آبار الحيزة فى النفود ؛ وأنهم عندما مروا بتيماء مرة ثانية ، سمع رحيل الناس يقولون إن بعض اللصوص عرجوا على ذلك المكان ، وأن هؤلاء اللصوص كانوا من الشرارات . " - كان رحيل هو وجماعته قد قطعوا حوالى مائتى ميل . (قال البدر) سوف نعرف بالتدريج من هم أولئك القبليين الذين سرقوا إبلنا ؛ ويعدها سوف نغزوهم نحن بدورنا ، وسوف نأخذ منهم بمشيئة الله ، عددا مساويا لعدد تلك الإبل التى سرقوها منا . " ولكن المعروف أن الغزو يعود صفر اليدين فى معظم الأحيان ؛ وهذه على سبيل المثال جماعة من جماعات غزو الفقارة قوامها "عشرون رجلا راكبين" أو إن شئت فقل : عشرون رجلا يركب كل واحد منهم جملا ، أغاروا مؤخرا على بنى عطية ، ولكنهم عادوا من تلك الغارة بخفى حنين .

كل إمريئ يعتمد على نفسه فى تلك الصحراء الواسعة ، وليس هناك من هو على استعداد لتحمل الخدمة العامة بلا مقابل . وشيخ القبيلة ، أو أى شيخ من شيوخها ، قد يستطيع إقناع ، ولا أقول إرغام ، أى فرد من أفرادها على القيام بذلك ؛ يضاف إلى ذلك ، أن المُنْصَار إذا ما ذهب بمفرده ، فلن يستطيع الشيخ منعه من ذلك .

والمعروف أن الهيئة العامة ضعيفة ، ومكونة من أعضاء لا تربط بينهم رابطة قوية ، من هنا فإنهم تحدث لهم كثير من الأحداث السيئة ، التي يمكن تجنب وقوعها إذا ما كانت هناك سياسة عامة يلتزم بها الجميع . - (قلت موجهها كلامي لزيد) لماذا لا ترسلون رجالا يستطلعون ، ومن ثم يستكشفون الصحراء أمام مواشى الرعى ؟ أو ألا تستطيعون إرسال البعض منكم للقيام بعملية المراقبة من فوق قمم الصخور ، وبذلك تستطيعون مراقبة ظهور العدو ! ولماذا ، يا من تعيشون وسط الصحراء الواسعة ووسط الخطر ، تلتزمون أنفسكم بمخاطر غير محسوبة ؟ وعندما كرر زيد كلامي على مسامع أفراد المجلس ، رد ولد الشيخ على الفور قائلا : " نعم ، وهذا شيء طيب فعلا ، إذا ما وضعناه موضع التنفيذ ؛ ولكن ، لعلكم يا خليل ، ليس هناك من بين البدو من هم على استعداد للمغامرة على شكل أزواج ، أو ثلاثيات ، وذلك تخوفا من الحباليص (اللصوص) ؛ إذ إننا ليس فى وسعنا معرفة المكان الذى يكمنون أو يختبئون فيه ، إلى أن تقاجأ بمن يأتينا من خلف صخرة أو من خلف دغل من الأدغال وهو يفاجئنا قائلا : " ده ، deh ! وبعدها تضيقك طلقة بندقيته " .

عاد مطلق فى أواخر الأسبوع قادما من بلدة حائل : لم يسبق لمطلق أو لأحد من رفاقه السفر إلى حائل قبل هذه المرة ؛ ولكنهم قطعوا مسافة مائة ميل عبر الصحراء الجرداء ، وكان مرشدهم الوحيد فى كل هذه الرحلة ، هى العلامات الجبلية ، التى تعرفوها وتساءلوا عنها قبل بداية الرحلة . كنا قد غيرنا مكاننا عدة مرات أثناء تغيب الشيخ مطلق؛ وكنت استغرب بحق كيف استطاعوا الوصول إلى المنزل الذى نحن فيه ، دون أدنى خطأ. ونظرا لأن أفراد القبائل يحددون رحلاتهم قبل بدايتها ، فذلك يمكنهم ، فى غضون مسير يوم واحد ، من تعرف آثار أقدامنا ، وهم ركوب على دوابهم ، وبذلك يتمكنون من اقتفاء أثرنا فى الرحلة الجديدة ؛ يضاف إلى ذلك ، أنهم عندما يتسلقون القمم أثناء عودتهم ، فإنهم يبحثون عن الخيام السوداء التى يسكنها الأعراب من أهليهم . وبذلك يستطيع أولئك الملاحون البريون الوصول ، بصورة متدرجة ، إلى الميناء القروى المضطرب الذى يقع عند نهاية رحلتهم . جاء أفراد القبيلة ، الذين لم يكونوا مصاحبين لرعى الماشية ، لحضور البرلمان ، أو إن شئت فقل : المجلس ، الذى أبلغهم بعودة الشيخ مطلق ، ووجوده فى خيمة شقيقه رحيل ، ليستمعوا إلى الشيخ وهو يروى

لهم عن مهمته التي قام بها إلى الأمير ، تلك الرحلة ، أو المهمة ، التي عادت بالكثير على السياسة التي تنتهجها هذه الأمة الصحراوية الصغيرة . - كان كل واحد من الحاضرين قد سلّح يده بغليون التبغ ، وراح كل من يحضر يقول : "قَوَّك ، يا مطلق !" وكان يسلم غليونه بعد ذلك للشيخ الكبير . جلس مطلق أمامهم مشرب الرأس ، مرتديا ملابسه الجديدة ، وهي الهدية المعتادة التي يقدمها الأمير لزائريه ، وراح يملأ رعوس الغلايين لكل الحاضرين ، من التبغ طيب الرائحة الذي يطلقون عليه اسم "الحميدى" ويزرع في بلاد الرافدين ؛ والذي جلب منه استهلاك أسبوع كامل ، اشتراه من عاصمة القرية . قدمت القهوة ببطى إلى جميع الحاضرين ، الذين كانوا يشكلون جمعا كبيرا من الناس . كان ذلك اليوم شديد الحرارة ، وهاهى شمس الظهيرة فى سمت السماء ، ومع ذلك لم يكن من بين الحاضرين من تراودة نفسه عن الذهاب لنيل قسط من النوم ، أو حتى لتناول طعام الغداء ؛ هكذا كان الناس يتشوقون لسماع ذلك الذى يدور فى عقل ذلك الأمير المرعب . جلسوا جميعا فى ذلك اليوم بلا حراك ، ولم يتزحزح أحد منهم من مكانه ، بل إنهم كانوا صائمين عن كل أنواع الزاد فيما عدا القهوة والدخان ، واستمر ذلك الحال إلى حلول المساء . - وقد صرح الأمير لهم بالعودة دون خوف ، إلى ديرتهم .

يحصل زوار بن الرشيد ، بعد الاجتماع ، على غيار من الملابس ؛ إضافه ، إلى هبة مقدارها ستين ريالاً فضياً أعطاها الأمير للشيخ مطلق ، كما أعطى كل واحد من مصاحبيه ورفاقه عشرة ريالات فضية أيضاً . تلك هى فنون حكام الجزيرة العربية ، التى تقوم على احتواء إرادات البدو الأجلاف المتذبذبة ، عن طريق التظاهر بالكرم والسخاء ؛ هذا يعنى أن الأمير يحسن بذر بنساته أملاً فى أن يحصل عشرة أمثال ما بذره فى العام التالى . كان مطلق شيخاً من شيوخ قبيلة من القبائل الفرعية غير الرئيسة ، وبعيدة عن متناول وصول يد بن الرشيد إليها . ومعروف أن الضريبة التى تفرض على البدو تكون خفيفة ، وإلا عجز الزبانية عن تحصيلها ؛ ومعروف أن الكراون(*) الواحد يدفع عن خمسة من الإبل ، أى بواقع شلن واحد عن كل جمل ؛ أو كراون واحد

(*) قطعة نقدية تساوى خمس شلنات . (المترجم)

عن كل ثلاثين رأس من الحيوانات الصغيرة . وإجمالي ما تم تحصيله من الفكاكة من هذه الضريبة لم يتجاوز أربعمائة ريال ، وهو ما يعادل حوالى ثمانية أو تسع شلنات ، جرى تحصيلها من كل أسرة من الأسر : ومع ذلك فإن هؤلاء البدو الطلقاء ، المنسيون تنوء كواهلهم ويفضبون من تلك الأحمال الصغيرة ؛ وحال الأمير غير ثابت ، والبدو يعتقدون ، أن الأمير صورة طبق الأصل من الشخص القوي المتجبر : ولكنهم عندما يدفعون تلك الضريبة ، يصبحون من ضمن فيدرالية الأمير(*) ، كما أنه عندئذ هو الذى يحميهم من عداء الأعراب المجاورين لهم . كان الشيخ مطلق رجلا حصيفا وودوداً وذا بصيرة ؛ ولكن الريالات الستين كانت تحجب بصره وبصيرته . كانت تلك سياسة سلسلة من الأمير ، استطاع أن يمس بها أوتار قلوب الحكماء ؛ يضاف إلى ذلك أن الشيخ البدوى ، عاد وهو يحمل ضمن طيب ملابسه الجديدة ، رأيا محموداً ولو لفترة قصيرة ، عن كل من الأمير المتلمق وحكومة حائل ؛ يضاف إلى ذلك أن مطلق كان يظن نفسه مؤلى من موالى الأمير ، فى الوقت الراهن ، وإنه لقى من الأمير ترحابا عظيما . ولكن محمد بن الرشيد المتعالى المتعجرف ، الذى دفع المعونة ، كان له رأى آخر فى مطلق ؛ وقد أبلغنى الأمير فيما بعد ، وبلسانه هو شخصيا ، إنه كان يكره الشيخ مطلق .

كان الفكاكة سعادة بعودتهم إلى ديارهم ، التى كانت عندهم أفضل بكثير من هذه البلاد الجرداء العالية السطح ، التى هى (فى رأيهم) "غور" ghor ، بمعنى أنها أرض لا خير فيها للإنسان أو الحيوان . وهم يعتقدون أيضا أن ديرتهم أفضل لأن درب الحج يمر بها ؛ والبدو يقولون : "لدينا قلعة kella ، بمعنى المكان الذى يتردد عليه الناس ، وبه غرف تستعمل مخازنا ، كما يعقد فيها سوق القافلة ، فضلا عن أن شيوخ البدو يتسلمون صرة كل عام . رحنا مع طلوع الصبح ؛ واعتبارا من ذلك اليوم واصل البدو رحيلهم اليومي على شكل رحلات قصيرة ؛ كان البدو فى تلك الرحلات يواجهون وجوههم شطر وطنهم . وخلفنا ورائنا جبل مسممة Misma ، ومن بعده بعض الجبال

(*) فيدرالية الأمير : المقصود بفيدرالية الأمير ابن الرشيد هى تلك المقاطعات التى استولى عليها وأصبحت تابعة له مع تمتعها فى الوقت نفسه بالحكم الذاتى بشرط اعترافها بالرشيد ودفع الضرائب لهم . (المراجع)

الأخرى التى سمعتهم يقولون لها "الروف" Roaf : وفى اليوم الثالث وصلنا إلى مياه الشرب فى الأرض المرتفعة ، كان ذلك الماء راكدا ، داخل حوض من الزلط والحصى ، يتحول فى فصل الشتاء إلى بحيرة يسمع القريب منها صوت مياه الأمطار وهى تتساقط عليها ، قادمة إليها من "الذراى" therrai التى معناها "مياه المطر المحبوسة على شكل بحيرات" .

واصلنا مسيرنا فى بلاد أرضها من الحجر الرملى ، حيث الصخور السمكية ، التى تشبه أرغفة الخبز فى فرن الفران ، الأمر الذى لم نتمكن معه من أولئك الذين كانوا يركبون دوابهم من حولنا . وبعد الرحلة الخامسة ، نزلنا مرة ثانية تحت جبل برد Birrd ، كى نشرب ونسقى دوابنا من منخفضات جبل الحجر الرملى المنحدر العميقة : وهنا راح الرعاة يحفرون حفرا. ضحلة مستخدمين أيديهم فى ذلك ، حيث كانوا يرفعون الرمل المبلل والمشبّع بالماء فى دلاء ، بينما كانوا يتغنون بالأغنية التى يتغنون بها فى مثل هذه المناسبة؛ وجاء الماء مشبعا بالرمل وغير جيد . واصلنا المسير بعد ذلك يوميا ، وكنا نحمل أمتعتنا قبل الفجر ، وننزل عن ماشيتنا عند الظهر . وبعد مسيرة أخرى ، وصلنا أثناء حرارة الشمس الحارقة ، وبعد السير عبر السهل الواسع المرتفع ، إلى أرض جرداء من الزلط ، حيث يوجد مسقى كبير ومنتجعا صيفيا للقبيلة يطلقون عليه اسم "الأردة" (*) el-Erudda . هذه هى الأراضى المرتفعة ، هى فى معظمها خالية من أشجار السنط الصحراوية : والويل عندئذ لربة البيت ، التى يضيع منها وتد من أوتاد الخيمة أثناء الترحال . ومع ذلك ، طالعنا فجأة صف طويل من أشجار السنط ، كما تبدت لنا أيضا ديرة بيضاء منتفخة ، وهذه هى العلامات الأرضية التى تميز الأردة el-Erudda . هنا فى هذه المنطقة ، وفى منتصف ديرة هؤلاء البدو ، توجد مقبرة mákbara القبيلة ، وبها بعض النباتات الجرداء ، التى من قبيل النخيل البرى . والمسافة من هنا إلى قرية الحجر تقل عن المسافة التى تقطعها القبيلة فى الرحلة الواحدة : سيكون البدو مقيمين هنا أياماً عدة .

(*) المرجح هنا أن دوتى يقصد : "الروضة" ، والروضة عند البدو هى "الأرض التى يوجد بها بعض أشجار السنط ومصدر من مصادر المياه" (المترجم)

ضلت الإبل طريقها ، فى الليلة التالية ، إلى منزل زيد ! وراح أصحاب الإبل يستطلعون كل الأنحاء ، على أمل أن يكون الناس قد شاهدوا تلك الإبل فى تلك الأنحاء ، ونظروا لأن التربة كانت تحمل آثار أقدام لا تحصى ولا تعد ، ناتجة عن أقدام ماشية القبيلة ، فقد أدى ذلك إلى انعدام قدرة الباحثين والمستطلعين على قص آثار الإبل التى ضلت طريقها . لم يخش أولئك البدو ، على حيواناتهم التى ضلت طريقها ، أن تموت خلال أيام قلائل من شدة العطش : إذ من المعروف أن الحيوانات الضخمة الشبيهة بالأغنام لديها معرفة تامة بكل أماكن السقيا داخل الديرة التى تعيش فيها ؛ ومع ذلك ، وبالرغم من طول أعناق هذه الحيوانات ، إلا أن قلة قليلة منها هى التى يمكنها الوصول إلى مياه الشرب . وقبل ذلك بثلاثة أعوام وعندما كان الفكار فى سوريا ، ضلت منهم بعض الإبل ، وضاعت منهم بالقرب من الحوران ، ولكن أفراد القبيلة استطاعوا استعادة تلك الإبل ، أثناء عودتهم فى أواخر العام قادمين من المدينة (المنورة) ، عندما شاهدوا ، وهم يعبرون ديرتهم ، تلك الحيوانات وهى ترعى حول مسقى من المساقى ، داخل حدود الحجاز . تعرف الرجال على تلك الحيوانات ، عن طريق الوسم الموجود عليها وتأكدوا أنها من ماشية القبيلة ، وبذلك استطاعوا إحضار تلك الإبل الهاربة مرة ثانية ، بعد أن هربت إلى مواطن ولادتها ، عبر سبع درجات جغرافية .

صرفنا انتباهنا عن الحرامية *haramiyeh* . - ثم وصلتنا عن طريق أسرة صليوية جاءت من الحرّة *harra* أخبارا غير مؤكدة مفادها أن ماشيتهم قد أخذها الموءاهيب مرة ثانية : هذا يعنى أن غزوة موءاهيبية صغيرة ، جاءت راكبة من ناحية الشمال ، قد عبرت أرض اللصوص ؛ (من عادة الغزاة الأعداء ، عندما يلتقون بعضهم البعض فى الصحراء القاحلة أن يحيى بعضهم بعضا قائلين : " يا قوم ! " بمعنى " هيه ! " أيها الأعداء ،) ولكنها لم تستطع أخذ الجزء الرئيسى من الماشية ، أى إنهم لم يستطيعوا سوى عزل خمسة عشر جملا فقط . وهناك تقليد فيما بين القبائل الصديقة مفاده أن يدفع صاحب الماشية المسروقة رايالا واحدا عن كل رأس حتى تعاد إليه المسروقات .

عرفنا فى النهاية أن اللصوص كانوا طائفة من بنى صخر مثلما سبق أن أخبرنا زيد بذلك ؛ وقد قطعت هذه الطائفة ما لا يقل عن أربعمئة ميل اعتبارا من المكان الذى تقيم فيه خيامها فى سوريا إلى المكان الذى التقيناهم فيه ؛ وكانت بصحبة تلك الطائفة

أيضا قلة قليلة من بدو الشرارات ، الذين تربطهم بالفجير صداقة شكلية فقط . أما فيما يتعلق بالصخور Sokhur ، فهم عند بدونا لا بالأصدقاء أو الأعداء ؛ بل إن بعض أسر قبيلة الفكارة ، وبخاصة أولئك الذين جاؤا من الشمال ، كانت تتجول مع قبيلة الصخور إلى يومنا هذا . وهناك أيضا جماعة من بني صخر ، يعملون حمالين في موسم الحج ، يتحتم عليهم المرور بصحبة قافلة الحج كل عام ، عبر ديرة الفكارة . - وعقب ذلك مباشرة ، جرى إرسال شيخ شاب ، هو الشيخ مجول Mijwel ، نيابة عن الفجير ، إلى الشمال ، سعيا إلى استعادة إبل القبيلة . وجاء رد بني صخر أثناء انعقاد المجلس على النحو التالي : "إن أولئك الذين سرقوا ماشية الفكارة كانوا جماعة من الشباب الجهال ؛ ولكنهم لا يلامون على جهلهم هذا نظرا لأنهم وجدوا الفجير يتجولون خارج نطاق ديرتهم . " ووعد الشيوخ بعودة القسم الأكبر من تلك المواشي مرة ثانية مع قافلة الحج ؛ أما البقية فمفروض أن يعطونها لأولئك الجهال ، "الذين ينبغي مهادنتهم ، بإعطائهم شيئا نظير متاعبهم ، على أن يكون ذلك نهاية لذلك الصراع أو الخلاف . " ولم يحصل مجول Mijwel على أكثر من ذلك ؛ وهذا نوع من العدل الذي قد يشيع في سائر أنحاء الدنيا .

بعد أن وصلت إلى الأردن el-Erudda ، خطر ببالي التخلي عن حياة البدو ، وأن أمر من خلال قرية العلا ، قاصداً ساحل البحر عند مدينة أو بلدة الوجه el-Wejh . وطلب منى أصدقائي أن أفتح الشيخ مطلق في موضوع جملى . ترى ، لماذا لم يطع زيد الأمر الذي أصدره الباشا ؟ - وبالتالي كان يمكن تحاشي حدوث مثل هذا الحادث . ولم يكن معنى نقوداً تمكنني من شراء جمل آخر ، - سوف يصبح تجوالى فى أرض الجزيرة العربية أمرا صعبا من الآن فصاعداً . والعادة أو العرف السائد فى الصحراء هو عرف (سيدنا) موسى : "إذا ما أذى حيوان شخص حيوان شخص آخر ، فإن الخسارة الناتجة عن ذلك يتقاسمها الاثنان . " هذه الحيوانات ، التى تفرح بخضرة الربيع وأعشابها ، تنهض واقفة فى جوف الليل وهى تجتر طعامها ، لتلعب مع بعضها البعض لعبة الصيتان ؛ زعم البدو ، أن جملا من الجمال سقط على عنق جملى الصغير ؛ وسواء حدث ذلك أثناء الليل ، أو أثناء اقتياد الإبل إلى المرعى فى الصباح ، فإن جملى كان بصحبة قطع إبلى زيد . تحتم على هنا ، إحضار بعض الشهود ؛ ولكن من ذا

الذى يمكن أن يشهد على شيخ قبيلته ، لصالح نصرانى ؟ عند المسلمين ، وبالرغم من أنهم يكونون من بدو الصحراء ، فإن المساواة تكون فيما بينهم هم أنفسهم فقط . ذهبت إلى مطلق فى خيمته ، ووجدته يستعمل خيطا من الصوف ، كان يخط به سرج فرسه . "يا للأسف" قال الشيخ ، هناك مشادة بين خليل وزيد ، اللذان كانا أخين ، وكان لابد من إطاعة أمر الباشا . "خابت آمال زيد فى فيما يتعلق بأطماعه ؛ لقد سبب الحظ لنا شيئا من القهر عندما تبخر الأمل الذى كنت أعقده على التطعيم ، ولم يتبق لى سوى "الخُرج" وكانت عينا زيد تكاد تلتهم ذلك الخرج كل يوم . كان الخرج كبيرا ومنتفخا ، وهذا بحد ذاته ، نوع من الخطأ ، فى أرض يتعين على الرحالة التجوال خلالها بلا أمتعة أو معدات. تأكد زيد من ثقل الخرج، وراح يفتش ذلك الخرج كل يوم ، وهذا أمر يتعارض مع المعاملة الأمينة التى يجب أن يتحلى بها المضيف ؛ - هذا بالإضافة إلى مخاوفى من احتمال أن يسطو زيد على مسدسى وعلى أدواتى ، التى كنت أخبئها فى قاع الخرج ، داخل منزلنا .

أدت تلك المنغصات التى لاقيتها فى الرحلة الأخيرة، إلى التغافل عن زيد وإهماله ، مما جعلنى أقطع المسافة كلها سيرا على الأقدام عبر الأرض الزلطية الجرداء ، وتحت الشمس الحارقة إلى أن توقفت الأعراب ونصبوا خيامهم فى النهاية . واستشعر زيد فى داخله أنه أساء إلى بالفعل ، يضاف إلى ذلك أنى لم أخدعه أو أغشه ، فضلا عن أنه كان يحترم شخصى تماما : جدير بالذكر أيضا أننى تحاشيت استثارة الأعماق المجهولة لاستيائهم الإسلامى . دخلت خيمة الشيخ مطلق ، ووجدت ذلك الشيخ الموقر يلعب أطفاله ، فقد كان أبا حنونا بحق . وسرعان ما دخل زيد خيمة الشيخ مطلق وجلس لشرب القهوة ؛ ثم رفع صوته الأجش وقال : "أقسم بالله ، إذا لم أكن قد انتويت ابتلاع هذا النصرانى ، لما كنت قد استقبلته ؛ ولما كنت جعلته يعانى من صحبة الأعراب ، ولم يكن ذلك فى رحلة واحدة فقط . لقد أعطى النصرانى ستين ريالاً (وهو خرافة) لمحمد على ، وأنا أطلب منه أن يدفع لى مبلغا مماثلا فى هذه الساعة . " لا (قالها مطلق من خلف ستارة الحريم، حيث كان ورامها لإحضار غرض من الأغراض،) هذا ليس بيدك ، يا زيد . " وهنا اشتكى زيد من أن وجودى فى منزله كانت له تكاليفه ، وهنا أثبت أن زيدا كان قد تسلم منى مبلغا من الريالات ، كما أثبت أيضا أنى لم أخذ

منه أى شىء سوى القليل من الحليب : ولكن مغزى شكوى زيد كان يتمثل فى أنى جلبت عليه الكثير من الضيوف الذين جاءوا لشرب القهوة ورؤية الغريب . وقال زيد إنه اشترى من القهوة ما قيمته ريالين من سوق الحج . " (قلت له) هاهما الريالين ، ولعل ثقة زيد تزداد فى صداقتى . إن زيدا يشتكى منى لسبب تافه وبسيط ؛ وأنا إذا ما اشتكيت لابد أن تكون شكواى مبنية وقائمة على المنطق والإقناع ؛ وهل يتعين على المرء ، أن يتعامل مع أمتعة ضيفه كما لو كانت غنيمة حصل عليها ؛ من طريق الغزو ؟ إنه يفتش أيضا كيس نقودى بحثا عن النقود ، كما فتش حزامى أيضا ، كما قلبُ خُرْجى بحثا عن أشياء بعينها . " - صاح أحد الشيوخ قائلا : " ها ! كيف حدث ذلك يا زيد ؟ " وهنا أجبت فى عجلة : " لقد فعل ذلك ، مثل حبلوص من الحباليص . " وأقشعر مطلق عندما سمع هذا الكلام ، الذى يبدو أنى لم أحسن قوله ؛ وهنا بدا على البدو وكأنهم لا يستمعون إلى خليل بحق : أبشع ما فى هذا الأمر ، أن زيدا على امتداد حياته كلها ، لم يستمع إلى هذه الكلمة المهينة ، التى قلتها أنا فى المجلس . وأن هذه الكلمة سوف تخلد وتتصق بذاكرة أعدائه . وبعد أن شرب زيد فنجال القهوة نهض وترك المجلس . وطوال فترة مرح المساء كان الجالسون يردد كل منهم على الآخر كلمة حبلوص ! حبلوص ! وكنت كلما سمعتهم يرددون هذه الكلمة ، أتيقن أكثر وأكثر من أنها كانت فى غير محلها : ومع ذلك كان زيد يتفاخر بنفسه بأنه شريف من الأشراف . وبعد أن غادر زيد المكان قال بعض الحاضرين : إذا كان زيد قد فعل هذا وذاك ، فهو رجل سيئ ؛ (ومن السهل جداً أن يلوم البدو بعضهم بعضاً) . قال مطلق : " إننى يتعين على إحضار شهود فى مسألة الجمل ، ولكنه وعد بالدفاع عنى فى وجه مطالب زيد غير الصحيحة . "

وبينما كنا جالسين دخل علينا رجل كان غائبا عنا منذ مدة ، وقد جرت العادة أن يقوم ذلك القادم الجديد بإبلاغنا بالأخبار التى لديه ونحن فى المجلس ، ثم يعود بعد ذلك إلى أسرته . جلس ذلك القادم على ركبتيه ، ولكنه كان فقير الحال ، إلى حد أن أحداً من صحبة الشيوخ لم يهب واقفا لتقبيله : ويمظهر وقور ، اتكأ ذلك الرجل على مشعابه برهة قصيرة ثم راح يشير بذلك المشعاب لكل واحد من الحاضرين ، الواحد بعد الآخر ، وراح يحيى كل واحد من الحاضرين بصوت رخيم ذاكرة اسمه وهو يقول :

"قَوَاك الله !" كانت زوجة بدوية مسنة مسكينة ، قد راحت تلاحق ذلك العائد الجديد ، عندما بلغها أن ولدها قد عاد من جديد ، وبالتالي لاحقته إلى أن دخل الخيمة التي يجلس فيها الشيخ مطلق ؛ وقفت تلك الزوجة البدوية العجوز خارج الخيمة تنتظر ولدها نظرا لأن النساء غير مسموح لهن بدخول المجلس الذي يجلس فيه الرجال . وبعد أن انتهى ذلك الرجل من سرد الأخبار التي لديه ، دلف إلى خارج الخيمة ليحيى والدته ، التي جرت إليه وطوقت عنقه بذراعيها الضعيفين ، وهي ترتعد بحكم شيخوختها وضعفها ، عندما رأت أنه ما زال حيا وبصحة جيدة ؛ وراحت تقبله وهي عاجزة عن الكلام . ولكنها كانت تنطلق منها صرخات صغيرة ، ضحك بعض شاربى القهوة ضحكا فى غير محله ، بل إنهم سخروا منها لضعفها ووهنها ، ولكن الشيخ مطلق قال لهم : " ما الذى يجعلكم تضحكون ؟ أليس هذا هو حب الأم ؟ "

وعلى الفور جاعنى سليم Selim بدعوة من والده ؛ " قال مطلق : حسن ، اذهب مع سليم ، وتصلح مع زيد ، وتأكد من أن أيكما لا يريد من الآخر أى شيء كان . " دعانى زيد إلى الشقة الخاصة بزوجه ، حيث جلسنا فيها ، أنا وهو سويا ، وكانت معنا أيضا زوجته حرفة ، لناكل كلنا مع بعضنا عيشا وملحاً . وسرعان ما تراجع زيد عن تلك المضايقات ، إلى الروح البدوية المرحية ، وذلك عندما لم يجد أن أخيه كان مخطئا ، بل إنه جنى على كوعيه ومدهما ، باعتبار ذلك عهداً على صداقتنا ، وسبيلا إلى السلام ، وأننى يتعين على أن أشرب " مع الدخان :- وهذا هو حال البدو . لم يتطرق حديثنا إلى المشادة الأخيرة التي دارت بيننا ، ولكن رسخ فى ذهن زيد فيما بعد أن خليلا وسمه بأنه حبلووس (لص) . وفى خريف ذلك العام ، وعندما كان الفكاره يخيمون فى قرية الحجر ، وعندما كنت بصحبتهم من جديد ، وبينما كنت أمر على منزل زيد ، نادانى من داخل بيته (خيمته) قائلا : " يا خليل تعال Taall " بمعنى " احضر إلى هنا يا خليل ! " ذهبت إليه وحييته ، كما حييت زوجته التي كانت تجلس خلف الستار قائلا : " جويك gowwich حرفة Hirfa " بمعنى " قَوَاك الله يا حرفة " . - رد زيد قائلا : " هذا صوت خليل ، والكلام كلام بدوى ؛ " ثم نهض زيد ليحضر لى طبقا من الأرز أكله معه ، وكان الطبق جاهزا بالفعل . بعد أن أكلنا ، " قال : إنه سعيد لرؤيتى مرة ثانية فى بيته . والبيت كان ما يزال على حاله القديم ؛ " ثم نظر الرجل إلى الأرض بعض الشيء وأردف

قائلا : "لكنى بعد صداقتنا يا خليل ، أصابنى جرح ، عندما نعتنى-حبلاصا ، وكان ذلك أمام الشيوخ . - سبب ذلك أنك هددتني وأغضبتني ، ولكن ، ما عليك من كل هذا يا زيد . كيف لى بمعرفة كل كلامكم أيها البدو ؟ ألا ترى هذه الخيام الصوفية السوداء ؟ أليست كلها خيام حباليص ؟" مشينا سويا إلى المجلس ، حيث راح زيد يحكى وهو يبتسم أننى كنت أعنى بعبارتى "ذلك البدوى" .

عندما تساءلت مع زيد : "لماذا لم تفعل ما أمر به الباشا ؟" صاح زيد قائلا : "من الذى يصدر لى أوامر ! حنّا Hanna بمعنى "نحن هنا" البدو" : ما هو الباشا ، ومن هى الدولة Dowla (الإمبراطورية العثمانية) رحنا ؟ كل هذا هنا لا شىء اللهم باستثناء أنهم يدفعون لنا صرتنا ، وإلا أخذناها منهم عنوة وبالقوة . " - وما هى قوتكم ؟ هل تظن أن مائة منكم ، مسلحين بالعصى والعكاكيز ، والحراب ، والبنادق الفتيلية العتيقة ، يساوون عشرة أفراد فقط من جنود الحج ؟" - "سوف نفتح النار عليهم فى البوغازات boghrazat (الممرات الضيقة بين الجبال .) " - "وما هو المدى الذى يمكن أن تصل إليه طلاقات حدائدكم الصدئة؟" وهنا أجابنى زيد وهو حائر بين الهزل والجد . "أربعة Arbaa ساعات Saa " بمعنى "إلى مسافة أربع ساعات . " معروف أن "الساعات" Saat عند الأعراب تعنى "الفترة الزمنية الثانية أو الثالثة فيما بين أوقات الصلاة . كان البدو يسألونى فى معظم الأحيان : "كم ساعة فى اليوم ؟ ونحن لا نعرف جيدا ما هى الساعة Saa . " والبدو يقسمون النهار على النحو التالى : الفجر ، أى ما قبل طلوع الشمس ؛ ثم القايلة أو إن شئت فقل : القايلة ، وهى فترة سطوع الشمس قبيل الظهيرة ؛ والظهر eth-Thóhr ، أى عندما تكون الشمس فى سمت السماء عند منتصف النهار ؛ العصر el-Assar ، أى هبوط الشمس إلى ما بعد منتصف النهار ؛ ثم غيبة Ghraibat الشمس Es-Shems ، بمعنى "غروب الشمس" - كلمة "مغرب" Maghrib كلمة حضرية غربية على أذان البدو .

أصبحت محطة البدو الصيفية فى الأردن^(*) el-Erudda قرية منفرة غير مرغوب فيها والسبب فى ذلك أن البدو قد أتوا خلال تجوالهم اعتبارا من بداية موسم الحج ،

(*) المرجح منا موكلمة "الروضة" بدلا من "الأردن" والروضة عند البدو هى المكان العامر بالخضرة والمياه . (المترجم)

على ما لديهم من مخزون البن ، و "حيث لا توجد القهوة ، ينعدم المرح والصحة" ، على حد قول الأعراب . هاهى وجارات قهوة البدو باردة ، وكل واحد منهم جالس مطأطأ الرأس وحزين ، فى Fi أهله Ahlahu "بمعنى "بين أفراد أسرته" . قال زيد : "كان ذلك هو حال البدو الرُّحل القدامى فى أيام ما قبل القهوة . " سوف يرسل الشيوخ على وجه السرعة من يحضر المزيد من البن من مخزونهم الموجود فى مدائن صالح Medáin ؛ وسوف يتعين على زيد الذهاب إلى مدائن صالح أيضا لإحضار جوال من الأرز ، كان قد سبق له أن وضعه فى القلعة على سبيل الأمانة . إذن سوف أرافقه إلى هناك ، على أمل المرور على قرية العلا ، وصولا إلى ساحل البحر الأحمر . هذه هى الصحراء الجرداء القاحلة وقد أصابها الإغماء بسبب الجفاف الناتج عن حرارة الشمس ، انقضى موسم الحصاد ، وكنت أرغب فى الرحيل . هاهم الأعراب يرقدون متكاسلين فى الخيام ؛ كنا نبسو كما لو كنا نتنفس لهبا . كنت ألهث طوال النهار ، وأكاد أعجز عن الإبقاء على رفق الحياة فى داخلى ، نظراً لاضطراد أنفاسى وعدم رغبتى أو قدرتى على تناول الطعام . كانت تراودنى فى بعض الأحيان ، فكرة استغلال الأيام الطويلة فى تعليم سليم Selim القراءة والكتابة ؛ ولكن ولد زيد عندما تعلم الحروف الأبجدية ، أوقفه والده من تعلم المزيد ، مخافة أن يلتقط ذلك الولد منى بعض الألفاظ والتعبيرات الخاطئة . قال زيد أن لسانى لم يكن "طلقا" . ويعد أن أصبح لدى قدرا من المفردات ، كنت أقرأ على الجماعة صفحة أو صفحتين بين الحين والآخر . المؤكد أنى لم أخطئ كثيرا ، فى نطق الكثير من الكلمات التى سبق لى التعرف عليها تماما ؛ ولكن قدرا كبيرا من تلك المصطلحات الحضرية والكتبية كانت معروفة تماما لكل من كانوا يستمعون إلى من البدو الرُّحل ؛ يبدو أن البدو لم يكونوا يعرفون جنود بعض هذه الكلمات ، كما كانوا يستعملون أشكالا ، أو تصريفات أخرى لبعض الكلمات الأخرى . هؤلاء البدو كانوا هم أنفسهم يتعجبون (بالرغم من أن لديهم احساسا كبيرا بلغتهم ولديهم أيضا متسعا من الوقت لاكتساب طلاقة اللسان) وهم يتدبرون معانى الكلمات ، واحدة بعد الأخرى ، باهتمام كبير من هنا فإن أفراد القبائل السذج البسطاء عندما يتعين عليهم فى فترة من حياتهم الدخول إلى واحدة من المدائن الحضرية الجيدة عند مناطق الحدود ، يبدو الكلام الحضرى غريبا عليهم تماما وعلى أسماعهم ، إنهم

يتعرفون الأمور بصعوبة ، وهم يشتكون ، مما يعنيه أولئك الحضر بكلامهم . " ومعروف أن الكلام الفصيح مبنى على لغة القرآن القديمة ، التى كانت لغة الأراضى المنخفضة ، ولم تكن فى أى وقت من الأوقات لغة أعراب الأراضى المرتفعة . [وإذا كان هناك شك فى هذه المقولة ، فقد أكدها أولئك المترجمون العليمون الذين ترجموا النقوش الصحراوية القديمة] .

نبح محسن خروفا فى الليلة السابقة لرحيلنا . وذلك من باب تمام سنة على وفاة والده ، وأحضر لنا شيئا من ذلك اللحم بعد طهيه ، كان محسن هذا نسيبا لزيد . وكنا نشكل مع بعضنا مجموعة طيبة . صلحت لهم شايأ حلوا ؛ وزعت عليهم هدايا من الأشياء التى كانت بحوزتى . وبينما كنا جالسين سألت هذين البديوين عما إذا كان قَعودى (جملى الصغير) قادرا على حملى ، وفمه مكسور مسافة مائة وخمسين ميلا إلى بلدة الوجه el-Wejh ؟ وعرض على واحد من الحاضرين ، أن أعطيه عشرة ريالات ، وبالتالى يعطينى ناقته بدلا من جملى الصغير . وعندما وافق زيد ومحسن على ذلك دفعت الريالات العشرة ؛ ولكن معروف أن وساطات العرب تتطوى دائما على الخيانة . يضاف إلى ذلك أن زوجة هذا الرجل المسكين هى وأطفالها لعبوا دور البكائين ، وأعطيتهم علاوة على النقود كل ما استطعت توفيره من الملابس ، التى هم بحاجة ماسة إليها فى الصحراء ؛ ولكنى بعد أيام قلائل ، وجدت أشياءى هذه معروضة للبيع فى تيماء . وبناء على ثقتى بهذين البديوين ، اشتريت جملا عجوزا ، لا يقوى على العمل . بل وفقد أسنانه الأمامية ، ولم تكن له قيمة تذكر ، عند البدو ، قياسا على جملى المصاب . كنت جديدا على خبراتهم فى ذلك المجال . والنسب فى ذلك أن الإبل تُقَوَّمُ على أساس أسنانها ، وأسنانها أيضاً . والإبل تسمى حسب أسنانها ، إلى أن تظهر أنيابها : والجمل الذى عمره عاما يقولون له : حوَّار Howwar ؛ والجمل الذى عمره عامين يقولون له "لبنى" Libny ، أما الجمل الذى عمره ثلاث سنوات فيقولون له "حج" Hej ؛ والجمل الذى عمره خمس سنوات يطلقون عليه اسم "جيزة" Jitha ، والجمل ذى السنوات الخمس يقولون له : "ذنى" Thénny ؛ والجمل الذى عمره ست سنوات يطلقون عليه اسم "روية" Rôbba . والجمل الذى عمره سبع سنوات يسمونه "سيدس" Siddes ، وذى السنوات الثماني يطلقون عليه اسم "شاج" Shágg النَّابَة en-naba ، أو وفيات Wafiat ، أو "مفطر" Müfter .

الفصل الثالث عشر

زيارة المدائن مرة ثانية

ممر الحرة منظر الحرّة . فطر الصُبغ . رياح السموم . الوصول بصحبة زيد إلى القلعة . مدائن صالح . شكوى زيد . رحيل زيد هو والبدر . الحرارة الخانقة . محمد الدبّيس . الأخ . نقوش مزهّام . الصقور . نزاع البدر الرحل في القلعة . " ملح البنادق " Gunsalt . زيارة موقع الهجرة مرة ثانية . الشجرة الملوكة . دولان بوصفه عنترًا . القمر الجديد . نجم هاجر . غزو الجراد . صحبة قهوة شيوخ ولاد على في القلعة . مطلق العلايدي . ولده فهد . إنذار الليل في القلعة ! نجم يهدد بقتل الصبى محمد . إنذار جديد . زواج الصبى محمد . الرحيل عن القلعة . تعال ثانية إلى البدر في الإردة . الحمّو . أخيراً تغرب الشمس . ممر الحرّة . أشجار سنط الصمغ العربى . خشب دباغة الجلود . ارتفاع الحرّة البركانية . المواهب . عربات اليد . صبر جمال الحَمَل . ديار البدر الرُّحَل . لقاء مع الأعراب . تعال إلى السّهامة المخيمين في تهامة . الشيخ مهنا . هواء السُّموم في تهامة .

رحلنا عند طلوع الفجر : وسرعان ما تبدّت أمامنا ومن تحت أقدامنا تلك الحلبة الضخمة التي يطلقون عليها اسم الحرّة ؛ بدت لنا وكأنّها تجويف كبير من تحت أقدامنا ؛ ويخترق طريق الحجّ ذلك التجويف الكبير . ويعد أنّ قطعنا بضعة أميال شاهدنا رجلين أو ثلاثة رجال كانوا يجوثون بين الصخور البعيدة ، التي وجدناها ، عندما وصلناها ، تشكل جزءاً وعراً من هذه البلاد ؛ قالت جماعتنا المكونة من خمسة أو ستة أعضاء إن هؤلاء الذين شاهدناهم كانوا من الحباليص (اللصوص) . وشاهدنا من أمامنا أيضاً عشبا جديداً ، ومرعى أفضل بكثير من المراعى التي

شاهدناها مؤخرًا ، ولكن هذه المنطقة لا يزورها البدو إلا نادراً ، "اللهم ، على حد تعبير زيد ، إلا إذا كنا نتنقل ، في بعض الأحيان ، ونخيم سويًا مع أولاد علي" . هنا ، وبالقرب من ممر رئيسي من الممرات القريبة من الشمال ، كان ولاد علي ، رغم وجودهم في ديرتهم ، يعانون الكثير من مخاطر اللصوص . في تجويف تلك الأرض المرتفعة ، كانت تنمو بعض النباتات السامة الطويلة بيضاء اللون ؛ قام بعض رفاقنا بجمع هذه النباتات ؛ وهذه النباتات بعد غليها مع الشبّة في بول الجمال التي تتغذى على أدغال نبات الحمض ، تعطى ، على حد قول البدو ، ذلك الصبغ الأحمر القاني المرح الذي تستعمله البدويات في صبغ الخيوط الصوفية التي يغزلنها .

وفي مستهل فترة العصر مررنا من أمام حائط صخري ، لاحظت فيه نقشًا قديمًا واضح المعالم ، ويكاد يكون شبيهاً بالنقوش النبطية التي شاهدها في مدائن صالح في المرة الأولى ؛ هذا النقش ، دونا عن سائر الشروخ الصحراوية كلها ، موضوع داخل إطار . (الصورة رقم ٥٠) وعندما قفزت فجأة نازلاً عن الجمل ، هرب الجمل مني ، ولكنه سرعان ما سبقه زيد وعاد به إلى وهو راكب فوق ناقته ، ويسحبه خلفه . ومن باب التحذير كنت أرى أن ذلك النقش إنما هو واحد من نقوش الطريق . وبعد مسافة قصيرة ، دخلنا إلى طريق قديم ؛ كان ذلك الطريق مُعلّمًا خلال هذه المنطقة الجبلية بأكوام من الحجارة ، إلى أن يصل إلى سهل قرية الحجر . وقد أبلغني رفاقي أن الهدف من تلك الأكوام هو تحديد اتجاه الطريق . هذا يعني أن ذلك كان هو الطريق القديم بين الحجر وقرية تيماء . وعلى حد قول البدو ، فإن طريق الحج القديم كان يمر بقرية تيماء ، ونحن بدورنا نعرف أن فرعا من طريق التجارة القديم كان ينزل من ذلك الطريق متجهاً إلى سوريا . [راجع كتاب سبرنجر Sprenger المعنون : "جغرافية الجزيرة العربية"] . هبت علينا طوال نهار ذلك اليوم ريح جنوبية جافة ، تسبب جفاف الحلق ، إذا لم يشرب الإنسان شيئاً من السوائل ، وراح الأعراب أثناء مسيرهم يستخدمون أطراف غتر روعسهم في تغطية وجوههم فيما عدا عيونهم . هذه الريح عبارة عن لفحة حارة من الهواء قليل الكثافة ، يسمونه "الطاعون أو الوياء" أو إن شئت فقل : "السموم" Simum حسبما يقول البدو . كانت الشمس قد غربت عندما بدأنا ننزل منحدرًا رمليًا ، بالقرب من تلك العلامة الأرضية الغريبة (انظر الشكل المبين على

صفحة ٢٨٥ من النص الإنجليزى) التى هى عبارة عن صخرة من الحجر الرملى تشبه العسكرى فى لعبة الشطرنج، إلى أن وصلنا إلى قاع سهل مدائن صالح؛ هذا السهل ، فى هذه المنطقة ، محاط بأذغال صحراوية وافرة النمو . بين هذه التلال الرملية ، وبين هذه الأعشاب ، التقينا ، أثناء الظلام ، جماعة أخرى من البدو ، واعترضناهم ؛ وعندما تعرفوا أصواتنا ، رحبوا بنا مرة ثانية ، واتضح أنهم من المتسوقين فى قبيلتنا ، وكانوا عاندين من قرية العلى el-Ally .

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما بدأنا طرق باب القلعة الذى كان عبارة عن لوح من الحديد . وعقب سماع طرق الباب ، جرى الحاج حسن ، عقب سماع الضوضاء ، ويصحبته الصبى محمد ، جريا إلى أعلى البرج ، ونظرا من خلال المزاول . وراحا يناديان بصوت غليظ ليعرفا من نكون نحن ، الذين كنا أمام الباب ، والذين أقلقنا راحتهم فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وبعد أن سمعا أصواتنا ، نزلا يجريان على سلم القلعة وهما يضحكان بصورة غير معتادة ، ثم وصلا ليفتحا مزلاج الباب ، كيما ينفتح على مصراعيه ؛ دخلنا القلعة ، ورحبوا بنا بحكم أننا كنا أصدقاء قدامى . ثم صعدنا بعد ذلك إلى غرفة القهوة . وجاء الحاج نجم وهو يطرقع بحذائه ، وتعلو وجهه ابتسامة المضيف . وشبوا النار من جديد فى الوجار ، وجلس الحاج نجم ليصلح القهوة لضيفه ؛ وبينما كنا نشرب القهوة ، وطوال الحديث الطويل الذى دار بيننا ، أحضر لنا الحاج نجم طبقا كبيرا من الخبز غير المخمور ، الذى قامت زوجته بإعداده فى هذه اللحظة ، وخبزته ودهنته بشيء من الزيت ليكون عشاءً للضيوف . (قال العجوز المضيف) هذا طعام على قدر الحال نضعه أمامكم ، ولكتم وصلتم متأخرين ، وليس هناك غير ذلك فى القلعة ! - (قال زيد) وهل تود معاملتنا معاملة الغرباء ؟ ألسنا هنا فى القلعة ، يا حاج نجم ، نشعر وكأننا فى بيوتنا ؟ رد الحاج نجم على ذلك السؤال رداً وديا ، بالرغم من همز ولمز راعى هذه القلعة العجوز ، فى أعقاب ذلك ، بما يفيد أو يعيد إلى ذاكرته تلك الفترة التى استولى خلالها شيوخ الفجير Fejir على القلعة . - وأنت يا خليل ، ها أنت تعود إلينا مرة ثانية ، مرحبا بك ، لقد سمعت على مراعى الربيع ؟ (صاح الصبى محمد الشبيه بالبدو) . آها ، تقول الربيع ! الربيع الجميل ! إنه موسم الطيب فى الصحراء الجرداء ، وصحبة الأعراب تكون جميلة فى

ذلك الموسم . وهنا قام زيد ، بعد تقديم كلماته المقعمة بالمديح والثناء والدعابة ، وذلك من باب الاستعداد للطعن ، كما هو حال الأعراب في مثل هذه الظروف ؛ قام زيد بتقديم شكوى مطولة عن الفائدة البسيطة التي حصل عليها من خليل ، الذي جازى زيدا عن حنانه وشفقته ، بأن نعته بأنه حبلوص (لص) ! انفجر المغاربة في الضحك بصوت عالٍ ؛ ولم يستطع زيد البدوي ، وسليط اللسان أن يحظى بشيء من الخطوة أو المحاباة ، فقد كان يتحدث إلى أذان أصابها الصمم فيما يتعلق به هو شخصيا منذ زمن بعيد . يضاف إلى ذلك أن الصبي محمد ، عندما خرج من باب القلعة ، شاهد أيضا ناقتي الطرماء التي فقدت أسنانها ؛ وبهذا المرح الجديد ، الذي قطع على زيد حديثه الممل ، انصرف كل من الحاج حسن والصبي محمد وهما يضحكان ، ليذهب كل منهما إلى غرفته لنيل قسط من الراحة . بعد ذلك ، تحول زيد إلى الحاج نجم ، وكشف له بوقاحة المتأهة السوداء التي تدور في ذهن هذا الزيد ، وهنا قال المغربي الأمين ما يلي : " يا خليل ، البدو كلهم شياطين ! " ؛ ثم توقف الحاج نجم عن مواصلة الجلسة مع زيد ؛ وعقب ذلك فرد الحاج نجم عباة أمامه ، ثم جلس على ركبتيه ، ودخل في صلاة العشاء حسب الدين الإسلامي : - وراح زيد ، يتكلم دون أن ينصت إليه أحد . ثم وقف الحاج نجم من صلاته ، وأحضر قطعة من قماش الخيام ، كى أفرشها على الحجر الصلد من تحتى ، وتركنى وتمنى لى راحة طيبة .

فى ساعة مبكرة من طلوع النهار ، كانت أيلة زيد قد حملت بضاعته من المخزن الموجود فى القلعة ، كما كان البدو الواقفون إلى جوار ماشيتهم خارج القلعة على استعداد للرحيل ؛ وعليه عزم عليهم الحاج نجم ورجاهم الدخول إلى القلعة لتناول طعام الإفطار ، وتركونى وحدى : فى حين بقى زيد صامتا وسط اندهاشه ، هذا يعنى أنه لن يغفر لى ما حدث ، - لا ، لو كان المغاربة قد كشفوا لى أو عبروا لى عن غضبهم ، لكن زيد ، وبلا أدنى شك ، قد أعابنى مرة ثانية إلى الحرية الودية فى خيمته البدوية فى الصحراء . ولكن عقل وذهن ذلك الجار الطيب القديم كان يختلف اختلافا كبيرا عن ذلك ؛ وبعد ذلك بلحظة ، عاد إلى الحاج نجم ليدعونى لتناول طعام الإفطار على انفراد فى المكان الذى اختاره هو لذلك ، وتلك إشارة أخرى إلى نواياه الطيبة تجاهى . وكان الإفطار ، مزودا بمقدار كبير من السمن . وبعد ذلك ببرهة قصيرة نهض البدو واقفين

لكى يرحلوا إلى ديارهم ، وهم يقولون لمضيفهم : "السلام عليكم ،" ثم ركبوا دوابهم عائدين إلى الأرْدَة (الروضة) el-Erudda . استقبلنى الحاج نجم استقبالا طيبا ، فهو رجل غربى ؛ ولكن مسألة الانقلاب على أى واحد من المسلمين كانت فى أغلب الأحيان ، تحول تسامحهم إلى برهان ودليل خطير : هذا يعنى أن الشخص الذى ينتمى إلى دين غير دينهم ، قد يكتشف فى شىء من الحيرة والارتباك ، أن أولئك الذين كانوا أصدقاء له فى وقت من الأوقات ، أصبحوا لا يربطهم به أى شكل من أشكال الإحسان ، بسبب انعدام الإنسانية المجنون الذى يتولد عن التشدد والتعصب الدينى ! سوف أذهب مباشرة إلى قرية العلا ؛ ولكن الحاج نجم أقنعنى بالبقاء فترة قصيرة فى القلعة ، على أن يقوم هو خلال هذه الفترة بتحري وترتيب مسألة سفرى مع القافلة المتجهة إلى بلدة الوجه . أو إلى أن يوفر هو لى رفيقا أمينا فى هذه الرحلة عبر الحرّة إلى ديار الموءاهيب ، التى سنوف ألتقى فيها أبا سنون ، الذى من عادته السفر بين الحين والآخر إلى بلد الوجه .

كان الوقت يصادف الأسبوع الأول من شهر مايو ، وكانت حمى الواحة قد بدأت فعلا فى قرية العلا ، وفيما يتعلق بالذباب ، لم يكن بوسع أو باستطاعة أى جمل من الجمال البقاء فى تلك القرية أكثر من يومين فقط ؛ يضاف إلى ذلك أن سهل الحجر لم يكن فيه سوى نبات الرمض سبى الطعم فضلا عن خلّوه أيضا من الفوائد الصحية أيضا ، وهنا أرسلت ناقتى ترعى مرة ثانية مع نياق البدو . ويبدو أن درجة الحرارة الخائفة التى خبرناها فى الأرض العالية ، فى خيام البدو الرحل ، قد أخذت فى الانخفاض إلى حد ما ، فيما بين الجدران المبنية من الحجر ، وقد سجلت درجة الحرارة ٨٨ فهرنهايتية فى فترة العصر . وبانتهاء النهار فى الجزيرة العربية ، دخل المساء ومعه الحيوية والنشاط وأخذ جهاز قياس درجة الحرارة (الترمومتر) يسجل درجات أقل إلى ما قبل طلوع النهار بوقت قصير جداً ؛ وقد سجل الترمومتر ٦٨ فهرنهايتية . وبدأت تهب علينا من ناحية الجنوب طلائع الريح الساخنة ، مع انخفاض درجات الحرارة فى فترات العصر الخائفة ، وكانت طلائع تلك الريح تحمل سحب الغبار إلى القلعة . هذه الريح عبارة عن لفحات تاتى من الوديان ، خلال موسم ، لا تسود فيه صحراء الجزيرة العربية المرتفعة سوى حبات الهواء الطافى الخفيف قليل الكثافة .

كانت شمس حرارة الظهيرة شبه عمودية ، إلى حد أنها لم تكن تشرق على مدخل خيمتى الذى كان متجها صوب الجنوب . وجدت بركة المياه جافة ، كما وجدت أيضا أن الأرض الرملية تحولت إلى بستان ، أو إن شئت فقل : حديقة ، مقسمة إلى أحواض للرى ، ومزروع فيها تشكيلة كبيرة من نبات البطيخ ، الذى قام الحاج نجم بزراعته عقب انتهاء موسم الحج . كما وجدت أيضا أن غتر رعوس من كانوا فى القلعة قد رفعت إلى الأعلى وتحولت إلى عمام ، كما كانوا ، أو بدعوا يشبون نار القهوة فى الظل خارج جدران القلعة : - كان ذلك هو عالم الصيف الجديد عند هؤلاء البشر .

سوف أقوم فى الوقت الراهن بزيارة مبرك الناقة ، الذى عثرت فيه على كثير من النقوش القديمة . كان الحاج نجم يخاف على ، أما حسن فقد كان يلومنى بمعارضته المعهودة قائلا : "إنها لحماقة تامة وغباء تام من خليل أن يسلم أمره لبدوى " وهنا ذكّرت حسنا ، أن محمد الديبى Ed-Deybis الذى كان على استعداد لمرافقتى هو حماه (والد زوجته) . "نعم ، يا خليل ، وهو بدوى أيضا ! - ولو لم ينو شرا ، فهل كنت تظن أنه سوف يتركك أو يتخلى عنك ؟" وأخيرا قال الحاج نجم : "يجب أن لا يموت خليل فى القلعة ، واشكر ربك على أنه لم يصيبك مكروه " . وعندما شرعنا فى القيام بزيارة مبرك الناقة فى فترة العصر ، أوصانى الحاج نجم بتمضية تلك الليلة فى مكان بعيد عن الطريق ، على أن أذهب إلى المكان المقصود مع بدء نهار الغد ، وأن لا أبقى هناك ساعة من الزمن ، وأعجل بالرحيل عن المكان قدر المستطاع . ومعروف أن عرب الديار المستقرة لهم رأى غير صحيح يوما فى عقيدة البدو الرُّحْل . وقد أصيب رفيقى بالدهشة عندما أبلغوه أنهم سوف يحتفظون بولده فى القلعة إلى حين عودتنا من الزيارة سالمين . وتحول هذا الرفيق إلى أخ Akhu لى ، أو إن شئت فقل : أخ لى عن طريق الأجر ، عن طريق عطية مقدارها كراون واحد ، لشراء قماش قميص جديد ، الأمر الذى جعل منه بدويا رزينا يمتاز بالرجولة ؛ وهذا هو ما بدا على ذلك الرجل أكثر مما كان عليه فى حقيقة الأمر . ولقد سبق لى مئات المرات ، أن عهدت بحياتى ، فى الأوقات التى لم أستطع خلالها المضى قدما ، إلى رفيقى البدوى ، الذى لا أعرفه ، وعلى امتداد مسافات طويلة . ألم يكن بوسع سيف ذلك الرجل الخائن ، أن يضع حداً لأيامى فى هذه الدنيا ، أثناء نومى ؟ ولكن ذلك كان يعد قتلا للأخ حسب قانون

الصحراء العربية : هذا يعنى أن أحداً من هؤلاء الناس لم يمارس ضدى أى شكل من أشكال العنف ، ولكنهم عندما كان يشق الطريق عليهم كانوا يتخلون عنى . هذا يعنى أيضا أن من يقتل أخيه الإنسان سيعيش ذليلاً ومطموراً طوال حياته ، هذا يعنى أيضا أن أحداً من البدو لن يطيق بقاء رجل من هذا القبيل فى أى بيت من بيوت منازل البدو . ومع ذلك ، هناك بعض الناس المتغطرسين ، فى كل شعوب الدنيا ، الذين لا يراعون الأعراف أو التقاليد : هذا يعنى أيضا أن معظم المسلمين ، عندما يفشلون فى إيجاد أو التماس الأعداء لأنفسهم ، يؤكدون بطريقة دينية إن شريعتهم ليست ملزمة ، إلا فى حدود الدين الإسلامى .

كان القسم الأكبر من معيشة محمد يجىء من أخوته : فقد كان الصبى محمد يرتبط بعلاقة الأخوة مع قبلى آخر من قرية تيماء ؛ هذا يعنى أن محمداً هو وأخيه التيمانى ، كان يقومان بالدفاع عن أى تيمانى يصيبه أى مكروه من بدو الفجيرة ، كما كانا يدافعان عنه أيضا بالكلام ، ويعملان على أخذ حقه وتغطيته أثناء انعقاد المجلس . كان الصبى محمد يحصل من التيامنة على ست ساعات من التمر عن كل خير يتسبب هو لهم فيه طوال العام ؛ وهذه الساعات الست كانت تساوى أربعة عشر بنساً . ولما كان هؤلاء الشمر القرويون ، ليسوا على مقربة من التيامنة مثل العلوانة Alwona ، فقد كان ذلك يحتم عليهم أن يكون لهم تحالف من هذا القبيل مع كل القبائل البدوية المحيطة بهم . يضاف إلى ذلك ، أن الصبى محمد كان أخا لبدو الفجيرات المساكين : معنى ذلك ، أن الفهجى الذى يصيبه أذى ، يقوم محمد بالدفاع عنه فى المجلس . استغرق الطريق مسير ثلاث ساعات ، وصلنا بعدها إلى منطقة قريبة من الممر مع حلول المساء ، وهناك انتحينا جانبا واتخذنا لأنفسنا ملجأ فى فلق عميق ملتجئ من فلول جبال الحجر . هذا يعنى أن بوسعنا شب النار لتجهيز العشاء دون أن يرانا أحد ، وهنا أيضا قام محمد بتقييد رجلى الناقة الأماميتين ، وتركها ترعى فى المرعى . ثم تسلق محمد الجبل قبل غروب الشمس ، بحثاً عن قطع من الماعز البرى ، الذى شاهدنا آثار أقدامها عند سفح الجبل ؛ ولكن البدون (البقر البرى) ، التى عثر عليها محمد نائمة على بعد مسافة قصيرة فى الأعلى ، كانت أسرع من ذلك الصياد الذى لم يكن مستعداً لها . ومع طلوع النهار ، راح محمد يتعقب الطرائد من جديد ،

ولكنه عاد بخفى حنين . دهاء ومثابرة هؤلاء الرعاة الذين يحملون البنادق الفتيلية ، قليل وضئيل للغاية : فهم عندما يرون رأس الطريدة، تراهم يبادرون إلى إشعال الفتل ، ثم تنطلق البندقية ، وهنا تختفى الأيلة عن أعين الصياد : ومع ذلك فإن الصلوبة ، باستعمال هذه الأدوات نفسها ، يصطادون الكثير من طرائد الصحراء .

ركبت ناقتى ، ووصلت بعد فترة قصيرة إلى المزحام (مبرك الناقه) . مبرك الناقه هذا ، هو بالتأكيد ، ممر من ممرات طريق الذهب والبخور القديم الممتد من بلاد العرب السعيدة (اليمن حاليا) : وليس هناك أى طريق آخر غير ذلك يمتد من سهل الحجر ، إلى الأراضى المرتفعة ، يمكن أن تسير فيه الإبل المحملة . يقع الطريق العام أسفل الجزء الشرقى من الصخور ، التى وجدت أنها مليئة بالنقوش القديمة . كان كل شرح من تلك الشروح الموجودة أسفل هذه النقوش الموجودة على الصخر الرملى الناعم مضطرب أو إن شئت فقل : مدقوق ، ومن المحتمل جداً أن تكون تلك الضعضة أو التهدم ناتج عن استعمال حجر سائب آخر : هذا يعنى أن بعض هذه المدونات كانت ما تزال بيضاء اللون وواضحة ، مثل أية مدونات أخرى جرى إحداثها فى السنوات الأخيرة ، بعض آخر من تلك المدونات ربما يكون قد بلى وتهدم مع الحجر نفسه [انظر وثيقة النقش الموجود على اللوحين أرقام ١٨ و ١٩] . القسم الأكبر من هذين النقشين عبارة عن صفوف منفردة من الحروف الحميرية ؛ وقلة قليلة من هذه النقوش هى عبارة عن نقوش نبطية : ومن بين بقية النقوش كان هناك سطران أو ثلاثة سطور ركزت ذهنى عليها وأصابنى شيء من الارتباك فيما يتعلق بتلك السطور ، - مبعث هذا الارتباك يرجع إلى أنى استطعت قراءة هذه الأسطر (على أنها من اللغة العبرية ! أم أنها كانت مجرد أسماء مسيحية ؟) على أنها من اللغة الإغريقية القديمة ، وبكل تعب ومشقة استطعت تبوين قسم كبير من هذه الأسطر الثلاثة . تدوينا أمينا ، نظرا لوضوح حروفها دوننا عن سائر تلك المجموعة الكبيرة من النقوش . فى هذه المنطقة ربما ينظر الرحالة ، الذين يصعدون إلى هذا المكان ، نظرة أخيرة إلى هذا السهل النبطى Naba- tean ؛ كما أن الرحالة الذين يصلون إلى هذا المكان قادمين من الشمال يلقون ، من هذا المكان ، النظرة الأولى على مدينة الحجرة Hejra : ومن المحتمل أن يكون الصاعدين والهابطين ، قد نزلوا فى هذا المكان ، ولربما أيضا قام شخص أو آخر

بتناول أو أخذ حجر من هذه الأحجار (حيث وجد أن الكثيرين من قبله ربما يكونوا قد دونوا شروحهم) ، ليترك به على الحجر ذكره الخاصة به . - فى تلك الأيام، كان النظر إلى مدينة الحجر ، على طول ذلك الخط الأخضر من أشجار السنط الجميلة، التى نمت على شكل غابة بالقرب من مجرى السيل ، يجعل العينين تتركزان ، عجباً ، على هذه المستوطنة التجارية العتيقة -! وأثناء عودتنا ، وعندما كنت أحدث عن صُرَّة الحج ، رد على الصبى محمد رداً قاطعاً وهو يقول : "بالرغم من أن عسكرهم هم الأفضل تسليحاً ، إلا أن البدو هم الأكثر شجاعة" : ومع ذلك اعترف محمد أن البدو المساكين عجزوا عن التصدى لأولئك العسكر أو الوقوف أمامهم فى ميدان القتال . وعندما اقتربنا من القلعة ، جرى أولاده نحوه قادمين من خيمته ، كى يتلقونه ؛ ويحب البدو ، رفع ولده الصغير ووضع أمامه على السرج ، كى يركب معنا إلى الخيمة أو إن شئت فقل : بيت الشَّعْر .

كان عرب البوابة قد سرقوا ، فى الفترة الأخيرة ، أكثر من عشرة من الصقور الصغيرة من أعشاش الطيور الكاسرة فى منطقة صخور إثلِب Ethlib . شاهدت ، فى ذلك الوقت ، اثنين أو ثلاثة من هذه الصقور فى كل خيمة من الخيام ، شاهدتها وكل واحد منها مربوط من قدم واحدة إلى مجثمه ، الذى أقامه الأعراب له فى مكان رملى مرتفع ، وسمعت تلك الصقور وهى تنن وتشتكى طوال النهار . كان طعام تلك الصقور عبارة عن حيوانات طفيلية ، وسحالي ، وفئران وحشرات ، حسبما يتيسر لها العثور عليه ؛ وإذا لم يجد الأعراب ما يطعمونه لتلك الصقور ، فقد كانوا يكتفون بإعطائها قليلاً من العجين : وفى الحياة البدوية يقوم البدو بنزع حشرة القراد كبيرة الحجم التى تتعلق بصدر الإبل ، ثم يقدمون تلك الحشرة طعاماً لتلك الصقور . هذه الصقور تحظى بتقدير كبير من البدو فى اصطيادها للأرانب البرية ؛ وصيد الأرانب البرية ، نوع من تزجية الوقت ، عند أولئك العاطلين الذين ليس لديهم ما يفعلونه ؛ والصقَّار الجيد يستطيع ، كل يوم تقريباً ، تعديل أو تحسين ذلك الطعام البدوى الذى تتناوله أسرته . وأقل هذه الصقور يصل ثمنه إلى ريال واحد، ويندر أن يبيع الأعراب النوع الممتاز من الصقور نظير ثمن ناقة من النياق. كل هذه الصقور كانت من النوع اللطيف ؛ فى نفس هذه القمم الصخرية كانت هناك أنواع أخرى من الصقور مثل الصقر

الجُراح أو إن شئت فقل: الصقر الحوأم Buzzard، وكذلك نوع آخر من الصقور اسمه السماوة gledes ، إضافة إلى أنواع أخرى من الصقور المهجنة ، أى غير الأصلية . والعرب ، مثلما رأيتهم فى كل مكان ، لديهم القدرة على المخاطرة بالوصول إلى ارتفاعات كبيرة : من ذلك مثلا أن المتسلقين الحفاة الذين كانوا يرافقونا، استطاعوا تسلق بعض الجروف الهاوية ، التى كنت أشعر بالدوار عندما انظر إليها . ولكنى بعد أن عدت إليهم اقترضوا منى حبلا ، استعملوه فى تقليل تعرضهم للخطر . وكل واحد من هؤلاء الصقارين كان يغار على طيوره ويتحمس لها ، نظرا لأنه خاثر بحياته من أجل الحصول عليها ! يضاف إلى ذلك أن الضجيج الذى كان يحدثه أولئك الصقارة ، خوفا على طيورهم ، كان يتسبب فى كثير من المتاعب والاضطراب داخل القلعة . وفى أحد الأيام ، رفع وادى Wady صوته ، أثناء جلوسنا حول وجار القهوة « وراح يوبخ دولان Doolan ويؤنبه ، راح الاثنان يتصايحان حول رأس أرنب من الأرانب البرية ، إذ راح كل منهما يؤكد أن تلك الرأس إنما هى غذاء أو طعام لصقره هو . والعرب فى أحزانهم ، يتصايحون مثل الأجسام المحمومة ، كما لو كان الإقناع يتمثل فى كثرة صياحهم وبصوت مرتفع . أدنى صياح البدو وضجيجهم داخل جدران برج القلعة إلى أن يسترق المغاربة السمع على ما يدور بين هؤلاء البدو . وهنا سحب الحاج نجم مقعده إلى الداخل ؛ وبعد ذلك وقف الرجل على قدميه المرتعشتين ؛ ثم رفع الرجل يديه الهزيلتين إلى السماء ، وأقسم ذلك المعجوز على أن لا يدخل الأعراب القلعة مطلقا بعد ذلك . وهنا صاح وادى على وجه السرعة ، وراح دولان يترجى ويتوسل ، وكان كل منهما يلتمس لنفسه أعذارا ، وهنا ازداد الصراع حدة؛ إلى أن صاح حسن بصوته الجهورى قائلا: "عجبا ، أوصل الأمر إلى هذا الحد ، وأخللتما بهدوء المكان وأمنه على هذا النحو ! وخرجتما عن شعوركما !" وهنا للثم الببويان وهما يشعران بالعار والخزى ، عبايتيهما المهلهلتين حول جسديهما ، ونزلا فى صمت ، من الدرج ، ومن بعده إلى خارج أبواب القلعة ، وهما يشعران بالسعادة نظرا لنجاتهما دون أن يسيل أحد دماهما ؛ ولم يعودا إلى القلعة ، إلا بعد أن تصالحا مع الحاج نجم ، الذى لم تدم خصومته معهما سوى بضع ساعات . وكان حسن بعد أن اقتادهما وطردهما وأغلق الباب الحديد دونهما، عاد لتناول القهوة بضحكه الذى يصدر من بطنه ، ومعه غليونه

الكبير ، ثم قال : " هيه - هيه - هيه ! أحسنت ، يا حاج نجم ، خبرنى ، يا عمى ، ألا تشعر بشيء من الغضب الآن ؟ " تسأل الحاج نجم : " هل من الواجب عند هذين الرجلين أن يجلبا شجارهما ، يا حسن ، إلى وجار قهوتنا ؟ " كان الغضب الشديد يملأ صدر الحاج نجم ؛ وفى إحدى المرات ، وأثناء نوبة غضب من هذا القبيل ، سحب الحاج نجم مسدسه ، وقتل به اثنين من شيوخ ولاد على ، فى المكان الذى كانا يقفان فيه ، لأنه عندما صاح قائلاً : " من هناك ! تجرأ الاثنان ومدا أيديهما ليأخذا قليلا من القمح من الجوالات الحكومية التى كانت موضوعة فى الفناء السفلى . قام حسن فى ذلك الاغتيال المتطرف ، ومن باب إنقاذ القلعة ، باستعمال سكينه فى طعن شخص آخر بين ضلوعه ، فأرداه قتيلا ورماه أمام الباب وأوصده بونه .

من بين مهام أعراب البوابة الذهاب إلى الصحراء بحثاً عن ملح البارود .Gunsalt وهم عندما يتصدون لمثل هذا العمل يقومون بجمع التربة الرطبة ، بعد أن يتذوقوا طعمها بالسنتهم ، وهذا النوع من التربة يكون فى الظل الناتج عن بعض الصخور ، التى كانت منذ أزل بعيد أماكن يأوى الناس إليها عند الظهيرة ، هم وقطعانهم البدوية . والبدو يقومون بغلى ذلك الملح فى غلايات فى منازلهم ، ثم يتركون ذلك المحلول يبرد طوال الليل وهو ساكن بلا أى تحريك ، بعد أن يضعوا فيه قليلا من القش أو التبن :- وفى الصباح يجد البدو فوق سطح هذا المحلول قشرة من التترات صفراء اللون ، يقومون بخلطها مع نسبة من الكبريت ، الذى يشترونه من سوق الحج ، أو من المدينة (المنورة) . والبدو ، يجهزون ، هم بأنفسهم ، الفحم النباتى من نوع من الأخشاب الخفيفة ، ثم يعجنون الفحم النباتى مع مخلوط التترات والكبريت مع إضافة شيء من الماء ، ليصنعوا من ذلك قرصا من البارود ، وعندما يجف ذلك القرص ، يقوم البدو بتقطيعه إلى حبيبات بواسطة سكين ؛ والبارود الذى يصنع بهذه الطريقة يكون سيئا وضعيفا ، وبالتالي فهم يستخدمون منه شحنات كبيرة عند الاستعمال . ومعروف أن العرب لا يشترون شيئا طالما هم قادرين على صنعه بأنفسهم ، ومن هذا المنطلق يعد البدو جميعهم ممن يصنعون ذلك النوع من البارود .

زرت آثار الحجر كلها مرة ثانية، وتأكدت من أنى لم أترك شيئا دون التعرف عليه؛ ولكنى عندما كنت أفتش فى الفلوق ، أو إن شئت فقل : الشقوق التى فى صخور إتل

، عثرت على مجموعة أخرى من النقوش : كانت كل تلك النقوش على جانب من جوانب البلدة العتيقة : ولم أعثر على أحد فى الجزء الخلفى من الجبل : كان دولان رفيقا لى فى تلك الجولة . واستطعنا أن نجمع ، من بعض المواقع التى فيها كثير من الخزف المكسّر ، العديد من قطع العملة المسوحة ، والمصنوعة من النحاس الأحمر : وراح دولان يحفر بيديه فى كومة من اللّهم (الغرين) ، التى ربما تخلقت عن انهيار منزل من المنازل الطينية : كانت تلك الكومة بجوار صخرة يطلقون عليها اسم مربوط Marbût الحصان el-Hosân ، كما أرانى دولان أيضا فحما نباتيا متخلفا عن نيران قديمة ، والذي عرفت من الرماد المتخلف عنه ، إنه من خشب النخيل المحروق .

ذهبت أثناء عودتى ، فى يوم من الأيام ، لقطع بعض أوتاد لخيمنى من شجرة السنط الوحيدة الضخمة التى تقع بالقرب من القلعة : تحت هذه الشجرة كانت ماعز وأغنام حامية القلعة ترقد فى الظهيرة بعد أن تشرب شيئا من الماء . كانت تسيل فوق أغصان تلك الشجرة قطرات من الصمغ العربى الصافى : ولكن الصمغ الذى يسيل من الأفرع القديمة كان أسود اللون مثل الزيت ، وكان مذاقه مرّاً ، والبدا يقولون إن لهذا الصمغ أثر طبى ويستعملونه دواء : والعرب يستعملون ذلك الصمغ فى حشوما بين ألواح القوارب التى يصنعونها فى بلدة الوجه . عند هذه الشجرة وجدت دولان حيث كان يقود قطيعه إلى ذلك المكان ، وانتظرت حتى أسأله عن فاتورة أتعابه ، أم أنه سيقوم بقطع الأوتاد المطلوبة بلا مقابل . رد على دولان قائلا : "والله ، يا ولد عمى ، أطلب منى أى شىء آخر ، لأن فى قطع هذه الأوتاد ضرر لى ولك أيضا . لا ! أرجوك يا خليل . لا تقطع أو تكسر سوى غصن واحد من بين كل هذه الأغصان ، لأنك لست من أهل هذه الديرة ، أنت لا تعرف معنى ذلك : انظر إلى الأعلى ! ألا ترى الملابس القطنية ، وقرون الماعز المعلقة فى هذه الأغصان ، إنها خاصة بالبدو ، ولكن الكثير منها سقط بفعل الريح التى هبت على هذه المنطقة مؤخرا . وألا ترى هذه المسامير ! بعض الحجاج يدقون هذه المسامير فى ساق الشجرة أثناء أداء الصلاة ؟! وعندما أمسكت بواحد من الأغصان الجيدة وتناولت سكينى كى أقطعه ، أحتضنتى وهو يقول : "لا ! يا خليل ، إن من يقطع هذه الشجرة لابد أن يموت" - "ما هذا الغباء ! هل تخاف من الأشجار ؟" - "آه لى ، هذه الشجرة يسكنها جن ، فلا تكن غبيا إلى هذا الحد .

أقسم بالله ، أنى أقول الحق ، فقد قام بدوى بقطع غصن من أغصان هذه الشجرة ومات بعد ذلك بفترة وجيزة ، كما ماتت أيضا مواشيه كلها . يا خليل ، فى الليلة الماضية ، جاءت فتاة صغيرة من خيمة نصبها أصحابها حديثا فى هذه المنطقة ، وقامت بجمع بعض من هذه العصى المتساقطة من الشجرة ، لكى تشب بها أمها نارا ، وبينما كانت الأم تشب النار ، تصلب ذراع الفتاة وعجز عن الحركة : وعلى الفور حملها أهلها إلى داخل القلعة ، حيث قام الحاج نجم بوضع بعض الرقى والتعاويذ حولها ، وبرحمة من الله عادت الحركة إلى ذراع تلك الفتاة . .

خسر دولان حظوته فى القلعة ، وذلك اعتباراً من اليوم الذى سرقت فيه الماعز والأغنام من بين يديه ، وبذلك هين له أن الدنيا كلها أصبحت ضده ، وذات يوم وهو يعتصره ذلك الحزن ، نظرا لإدراكه أن الكثير من الأخطاء البشرية لا يمكن علاجها أو إصلاحها ، وبينما كان يجلس مكلوم القلب على أعتاب خيمتى ، قلت له : "يا دولان ، لا تبكى ، فأنت عنترى !(*)" وعندما سمع ذلك الرجل ، أو إن شئت فقل : ذلك الفهجى المحتقر ، كنيته بأنه ولد من أولاد عنترة ، امتلأ قلبه بطولة وحماسة : وأقبح فى ستر دمة كبيرة كانت على وشك السقوط من عينيه ، ولكنها سقطت فى النهاية على صدره ، وهنا لم يتمالك نفسه من الضحك ، وابتعد عنى حتى لا أراه وهو يبكى . ولئن يدخل بعد اليوم لشرب قهوة المغربى ، ولكن بحلول المساء كان دولان قد تغلب على حزنه داخل خيمته ، عن طريق أغنية قوية كان ينشدتها ويتغنى بها على طنين وتر ربابته : وبذلك استطاع أن ينسى كل الهموم وكل الجوع ، - والمؤكد أن هذا الراعى الفهجى المسكين مازال يعيش وفى داخله نفس قوى من النخوة والشهامة القديمة التى كانت سمة مميزه لأهل الجزيرة العربية . كان دولان جوعانا طوال أيام حياته ؛ ومن الصعوبة بمكان على أى إنسان فهم الطريقة التى يمكن الحفاظ بها على هذا الطابع ، فى تلك الأجساد البشرية الهزيلة . ومن عادة هذا الدولان أن يوضح فى كثير من الأحيان بأنه ليس لديه ما يأكله أو يقات به ، مستخدما فى ذلك إشارة البدو ، بأن يعض ظفر إصبعه الإبهام ، بأسنانه العليا الأمامية . وهم يعنون بذلك مع النبى الراعى الذى كان

(*) نسبة إلى عنترة بن شداد العبسى . (المترجم)

يرعى الغنم أن "الله أعطاهم نظافة الأسنان". وعندما علم دولان أن جنود السلطان كانوا يحصلون على تعيينات يومية ، عبارة عن كمية كافية من الأرز واللحم المسلوق ، ظن أنهم يحيون حياة طيبة في هذا العالم ؛ ثم قال : "أوه ! إنه لعجب عجاب أن ياكل الرجل هنا كل يوم حتى الشبع ، مثل هؤلاء العسكر ! " ومن عادة سكان المناطق الحدودية أن يقولوا عن حياة الجوع التي يحياها البدو الرحل : "إن حياتهم تشبه الموت" Mithil el-Mawt .

ذات ليلة ، وعندما كان العرب واقفين ينظرون إلى القمر الجديد ، قبيل غروب الشمس بوقت قصير ، سمعنا صوتا مندقعا عن بعد في السماء . (قال العرب ،) إنه كان نجما ، أو إن شئت فقل : حجرا نجما ، سقط حسب ظنهم على جبال ركب Rikb الحجر el-Héjr . أبلغني هؤلاء العرب أن بعض النجوم هوت ، في زمانهم ، وعلى مرأى منهم ، في ديرتهم ، وقالوا أيضا : إنهم عندما وصلوا إلى ذلك المكان وجدوا الصخور مفتتة ، أما "النجم" Star فلم يتفتت وزعموا أيضا أنه غاص في الأرض إلى مسافة كبيرة . رحب الناس بطلوع القمر الجديد بأدعية دينية ، كما رحبت به البدويات بأغاريد كن ينشدنها في الساعات الأولى من الليل . هذا القمر هو كوكب الطريق عند الجنس السامي العابر للسبيل . والذي لا شك فيه ، إن القمر في الصحراء البدوية هو شكل من أشكال أضواء الحراسة الليلية ؛ والعرب يفرحون بضوء القمر عندما ينساب فوق الأراضي المرتفعة ، لأن ذلك يعنى أنهم يمكن أن يناموا ويكونوا في مأمن من أعدائهم . رددت الحريم قافيتهن الوحيدة التي هي عبارة عن مقطوعة واحدة ، ورقصن مدة ساعة أو ساعتين . وقد عين (سيدنا) موسى أحبارَه لكي ييقنوا بمبشرين الناس بطلوع القمر :- والبوق الذي يستعمله العرب لهذا الغرض يصنعونه من قرون الأغنام؛ وقد رأيت بنفسى هذه الأبواق ، التي يستعملها العرب في تلك المناسبات ، وبخاصة في احتفالات اليهود الدينية في سوريا .

لم يكن موسم الجراد قد انتهى بعد ، فقد حدث ذات مرة أن هبط الجراد على هذه المنطقة في إثر ريح مسائية ، سقط الجراد على الأدغال الخضراء كلها وعلى ذلك العدد القليل من النخيل التابع للقلعة . وهنا سارع الحاج نجم مهرولا إلى شرفته .

وهو يمد ذراعيه الضعيفتين ، وهو يمسك بجريدة من جريد النخل فى كل ذراع منهما ، ليبعد الجراد عن نخيله ، وكان الرجل يصيح بصوت عالٍ : " يحرق الله آبائهم ! " كما أمر الرجل بعض الفهجين الذين يعيشون عند بوابة القلعة ، والذين كانوا شركاء معه فى تمر النخيل ، أمرهم بتسليق النخيل والوصول إلى قممه ، واستمرت تلك المعركة مع الجراد إلى حلول الليل . فى الواحات ، حيث لا يوجد من البشر عددا يكفى للدفاع عن النخيل ويتكبد الناس خسائر جسيمة . فقد خسر الناس فى تيماء فى ذلك العام أكثر من نصف محصول التمر . وقد وصل الأمر إلى حد تدمير كل المزارع الشاسعة فى خيبر فى صيف ذلك العام ، ولم يكن أمام القرويين فى تلك الواحة ، من شئ سوى إشعال النار فى الأغصان الخضراء تحت القسم الأكبر من سيقان النخيل .

وفى صباح الغد ركب بعض خيالة البدو خيولهم متجهين نحو اليوابة ، لينزلوا عندها عن خيولهم ، ويقيدون أفراسهم ، ويركنون حراهم على الجدران ، ويروحون يطرقون لوح الباب الحديدى بشدة ، ذلك الباب الذى أوصده أهل القلعة عندما أبصروا هؤلاء الخيالة قادمين . كان هؤلاء الخيالة ، هم شيوخ ولاد على ، الذين كانوا يسبقون الرحلة على ظهور خيولهم . هؤلاء القبليون قطعوا تجوالهم (خوفا من ابن الرشيد) فى الحرّة مع بدو الموءاهيب ؛ وهم الآن يعجلون ، حرصا منهم على سلامتهم ، بالنزول إلى خيبر قبل شهرين من الموعد المحدد لذلك . كان ركّاب ولاد على قد خسروا بالفعل ، فى الغزو الذى شنه البشر عليهم ، حوالى ثمانين جملا ، تصل قيمتها إلى حوالى ١٥٠٠ إسترليني ، جرى تسليمها بهدوء هى وأسلحتها ، الأمر الذى أسفر عن بقاء القبيلة بلا دفاع ، وهم سوف يعرجون فى الصباح الباكر على قرية العلا ، ليشتروا نقدا أو بالأجل كل البنادق القتيلية والسيوف التى يمكن أن يعثروا عليها فى تلك القرية؛ وقد نصبوا خيامهم ظهر هذا اليوم فى منتصف الطريق حول أبار الحجر . ولم يسمح بدخول القلعة ، إلا لجزء يسير من هؤلاء الشيوخ . ولاد على هؤلاء كانوا منذ سنوات قليلة مجرد جوم Gom (لصوص) ليس إلا . يضاف إلى ذلك أنهم كان بينهم وبين الحاج نجم دم ، أو إن شئت فقل : نوع من الثأر ، الذى لم يغب مطلقا عن ذهن ذلك المضيف العجوز الحريص ، الذى وصل إليهم وهو يرتدى أبهى ملابسه وبيتسم ابتسامة كئيبة أثناء استقباله لهم : وهذا هو جراب المسدسين اللذين استعملهما فى قتل البعض

من ولاد على ، معلق على صدره ، وتلك هى غدّارة(*) يعلقها فى ذراعه ، وعلى ذلك ، فإن من يكون فى حوزته ما يمكن أن يفقده أو يخسره ، يتعين عليه الحديث مع اللصوص الذين هم بدو من الديرة نفسها ؛ كما يتعين عليه الحرص أيضا والاحتياط لعقيدة هؤلاء اللصوص المتذبذبة ، مخافة أن ينقلبوا أعداء لك هؤلاء الذين بدوا لك أصدقاءً ومعسولى الكلام فى يوم من الأيام ، وأكلت معهم عيشا وملحا فى يوم من الأيام أيضا ، هؤلاء اللصوص هم أنفسهم يحرصون فى تعاملهم معنا ، كما أنهم يحترمون ذلك الذى يحتاط لغدرهم وخيانتهم . وأعين هؤلاء اللصوص ، تقول الكثير ، عندما يستقبل الواحد منهم رجلا يحل عليه ضيفا ، بالرغم من أن مثل هذا الاستقبال قد يكون فيه شيء من النفاق : كان الحاج نجم يقف ومن خلفه سجادتين تركيتين مطويتين ، وهاتان السجادتان كانتا تعدان أشياء فاخرة فى دنيا هذه الصحراء الجرداء ؛ وقام الحاج نجم بفرش هاتين السجادتين على أرض الممر داخل القلعة .

انضم وادى إلى هذه الطائفة من ولاد على ، وهنا أصبح كل بدو البوابة الرجل فى أبهى عطة يقضونها فى القلعة وإلى جوراها . وهنا راح وادى يطبع قبلة يهوذا(**) على خدى كل واحد من هؤلاء الشيوخ أقاربه ، وكان وادى أثناء تقبيله لهؤلاء الشيوخ يحنى رأسه إلى الأسفل على أكتاف أولئك الشيوخ المتعفنة . بعض آخر نهض واقفا وقفة الرجولة وهو يحيى شيوخ ولاد على ، الذين كانوا يهبون واقفين لهم من مسافة بعيدة ؛ - كل شيء ليس "على ما يرام تماما" والسبب فى ذلك هو خير من ناحية وابن الرشيد من الناحية الأخرى، وهذا هو ما يعكر الصفو بين هاتين القبيلتين الضعيفتين الخائنتين. وهذا هو أيضا السبب وراء جلوس هؤلاء الناس وهم واجمين، فى انتظار شرب القهوة. كان حسن يقوم بدور مصلح القهوة بالقرب من الوجار ؛ هذا الحسن كان قد قتل واحداً من هؤلاء، وحمله وألقاه خارج الباب الحديدى مستخدما فى ذلك قوته هو وحده. هذا الحسن هو أيضا متسلح الآن ولكن بطريقة سرّية ؛ وقد أرانى حسن بعد انصراف هؤلاء الشيوخ اللصوص ، وهو يضحك ضحكته المميزة ، أرانى كلا من الشفرة

(*) الغدّارة : بتشديد الدال وفتحها ، هى البندقية القصيرة القديمة (المترجم)

(**) قبلة يهوذا : تعنى تظاهراً بالود وإضمماراً للغدر . (المترجم)

والمسدس اللذان كانا يخفيهما في ملابسهما الفضفاضة ، تحسبا لإقدام أولئك الشيوخ على مغامرة غير محسوبة ويائسة . وهنا يتعين على هؤلاء أن يأكلوا خبز ذلك الرجل من رجال القلعة وهم خائفين ومضطربين في ديار المسلمين . كان نجم يحس بتأنيب ضميره له على ذلك الدم الذي تسرع هو في سفكه ، ولذلك كان الحاج نجم يردد دوما العبارة التي تقول : "الدم ثقيل" قاصدا بذلك أن "ذنب وعبيء سفك الدم مسألة ثقيلة جدا على النفس " : هذا يعنى أنه لو حدث أى شكل من أشكال التمرد الفظ حول وجار القهوة ، فإن الحاج نجم سيكون له بالمرصاد ، ومحباذا للجوء إلى أساليب أفضل من ذلك ، وهو يقول : "جميل أن يتسامح المرء مع أخطاء الآخرين ويصفح عنهم ، وبذلك ينزع الحقد من قلوبهم ." كنت أسمع الحاج نجم وهو يتمتم مع نفسه وهو يقول : "إنه كان مضيافا وصاحب قلب أبيض ." ويوم أن كان ، ضمن رجال القلعة فى قرية سورة Sawra ، دبرته وموطنه ، فقد حصن نفسه ، قبل المجية إلى هنا ، بالزواج من ولاد على ! ومع ذلك كانت زوجة الحاج نجم من ناحية والدها ، ترتبط بقراة ، مع بنات كبار رعاة القلعة . كانت زوجة الحاج نجم أنثى بمعنى الكلمة ، ومضيافة أيضا ، ولكنها فى بعض الأحيان كانت تضيق ذرعا بنظام الحاج نجم المدنى الصارم ، الذى كان يفرضه على أية جارة من الجارات المخلصات فى الصحراء .

كان مطلق العلايدة ، ذلك الشيخ الكبير ، رجلا أشيب الشعر ، استطاع عن طريق سلوكه وتصرفاته التى تمتاز بالود والألفة ، أن يضيفى على نفسه شخصية الوالد ! وعندما أوشك الشيخ مطلق العلايدة على الرحيل جاعنى ، يبحث عنى ليسلم إلىى غرفتى . تربية الشيخ مطلق فى مجتمع متحضر ، هى على الأرجح التى أكسبته ، دونا عن سائر عالمه ، شخصية الرجل الطيب ! ومع ذلك فإن مظاهر حياة العوز والفاقه فى الصحراء لابد وأن تكون قد أدخلته فى كثير من المنغصات ، التى يخرجون أنفسهم منها بالجوء إلى التغيير والتحول ، بدلا من الاحتكام إلى القتال فى الميدان . بالرغم من أن بعض ذرائعهم الماكرة لا تنطوى إلا على الخيانة الحقيرة . ومع ذلك ، فالصحراء لا تعرف ذلك الذى يتعارف الناس عليه بأنه إهانته عامة ! وكل ما يفعل فى نطاق الصالح العام لأفراد القبيلة يقره أفرادها على أنه من قبيل السياسة البشرية ، كما يعتبرون ذلك مناقضا ومنافيا للعالم الخارج عن نطاق قبيلتهم . من هنا ،

فإن كل واحد من البدو له وجهان ، وجه الحنان الإنساني اللطيف فى منزله ، ووجه البغض الشديد والتكشير عن أسنانه فى مواجهة العالم الخارجى ، والبدو يقدرّون الأشياء كلها مثل تقديرنا نحن لها ؛ وهم ينظرون إلى أنفسهم ، أثناء تقييمهم لأنفسهم فيما بينهم ، على أنهم يتسمون بالصدق والأمانة ، فى حين ننظر نحن إليهم على أنهم أشقياء خطيرين ولصوصا كذابين . هذا وقد انحسرت الخيانات المزدوجة لهذه القبيلة غير المحاربة مرتين ، على امتداد الاثنى عشر شهرا الماضية ، الأمر الذى أدخل الرعب والفرع فى قلوبهم الغادرة .

رحل الكبار بصورة متدرجة عاندين إلى منزلهم ، ولكن الصغار بقوا فى القلعة ، وذلك من باب تغيير العطالة التى يعانون منها ؛بقى هؤلاء الصغار فى القلعة ، والنوم يداعب جفونهم فى الساعات الوسيطة ، كما لو كانوا مرهقين ومكدودين من خواء عقولهم ؛ وبعد استيقاظهم من نومهم فى آخر النهار ، اكتشفوا من الظل ، موعد دخول الصلاة ، فنهضوا لأداء الصلاة ؛ وبعد الصلاة أشعلوا غلايينهم مرة ثانية ، وهنا بدأت دقات يد الهاون أثناء طحن البن ، تبعث الحيوية والنشاط فيهم من جديد . وبقوا على هذا الحال ، الذى لا يمكن أن يطيقه سوى البدو ، صائمين ويلا طعام ، وصابرين فى تكاسل على ما هم فيه ، إلى أن حل عليهم المساء . كان ديك هذه الجماعة من الشبان الصغار ، هو فهد ولد شيخ القبيلة ؛ وفهد هذا رجل سليط الرأى ، كان يترأس ذلك الغزو الذى تهور فيه وأصاب خلاله ولد شيخ قبيلة البشر ببعض الجراح . أوفد فهد من جاء يطلب منى الذهاب إليه . ثم أعاد ذلك المرسال إلى مرة ثانية . (قال المرسال :) انهض ، فقد أوفدنى الشيخ إليك كى تذهب إليه وتعرض عليه صورك . وقلت للمرسال أن يبلغه بأننى استسمحه فى الحضور إلى غرفتى إذا كان يريد منى شيئا . دخل على فهد متشامخا ، مما جعلنى أحتقر هذا التشامخ بعد أن تيقنت منه ، وهو ما جعل فهد يرجونى ويتوسل إلى أن أريه صورى (التى ذاع صيتها فى كل أنحاء الديرة) . بعد أن سمع فهد اسم أمتى (شعبى) يتردد على مسامعه ، كان هو الوحيد الذى على استعداد لفهم معنى سوق قريتنا ؛ وهنا قلت له : "أيها الشاب الصغير ، قرأنا حوالى ألف قرية . بل ربما تكون آلاف القرى ؛" كان الحاج نجم ، قد تفاخر قبل ذلك بوقت قصير أمام الجميع ، بأن النصرانى لم يقل فى حياته سوى الصدق ، وبالتالي لم يكن

هناك مبرر أمام ذلك البليد لتكذيبى بأى شكل من الأشكال . مر المغربى العجوز علينا فى الطريقة (المر) وعند استمع إلى حوارنا : " (قال نجم لهم) إن كل ما يقوله خليل ليس أمراً غريباً ، ففى بلاد المغاربة ، بلدان كبيرة ، وعدد كبير أيضاً من القرى الكبيرة ، إنه بلد كبير فيه جمع كبير من البشر ، وهم لا يسكنون مثلاً تفعلون أنتم أيها الأعراب . هم لا يعرفون هذا الجذب الصحراوى ، ولا يعرفون هذه الشمس الحارقة . ولا هذه الأرض القاحلة ، التى ليس فيها سوى بعض القرى الصغيرة المخلخة السكان ! - تلك الأرض التى لا يمكن أن يسكنها سوى البدو ، والعفاريت ، أما نحن ، فأهل الغرب : - ليس هذا صحيحاً يا حسن ؟ نعم ! لقد شاهدنا الدنيا . " رحل ضيوف القهوة ، بعد غروب الشمس - ملتزمين فى ذلك سلوكيات الصحراء - عائدين إلى منازلهم المصنوعة من الشعر لتناول طعام الإفطار .

كان الحاج نجم ، ذلك المغربى العجوز ، قد بدأ يضرر الكثير من البغض والكراهية لذلك الصبى العسكرى الذى لم يكن بدوياً خالصاً ، والذى كان أخاً لزوجته ، ولما كان الجميع يخشون التقلب المزاجى المفاجئ لذلك الرجل ، فقد راح الجميع يحيون حياة كلها حرص وانتباه داخل القلعة . وقد تعهد الحاج نجم تربية ذلك الصبى منذ طفولته إلى أن أصبح واحداً من حامية القلعة . وقد سبق لنا استعادة ذلك المعقل عندما استولى الأعداء عليه بطريقة مفاجئة ، أو إن شئت فقل : عندما احتله البدو : ونظرا لقلّة العاملين تحت رئاسة الحاج نجم ، فقد تحتم عليه أن يحتاط لكل الأخطار المحدقة به فى الصحراء . كان الرجل يحرس البوابة بعناية فائقة ليلاً ونهاراً . كان محمد ، ذلك الصبى الجبان شديد الإهمال ، قد تخفف كثيراً من طلب " عمه " الملح ؛ كان محمد ، بحكم استبداده ووجهه . يرى أن عمله ضائع فى مسألة فتح البوابة وغلقها ، كما كان يرى أيضاً أن القلعة أوكلت إليه من قبل الإمبراطورية العثمانية ، وأن عنقه ومعاشه كانا معلقين بالقلعة . كما كان يرى أيضاً أن القلعة نفسها تتهددها الأخطار ؛ ويوما بعد يوم كانت كراهيته تزداد لذلك الصبى العجل ، وذات ليلة غادرنا منطقة وجار القهوة وقصد كل واحد منا المكان الذى ينام فيه ، وفجأة تحول الأمن والسكينة إلى قلق واضطراب نتيجة حدوث أمر ما . فقد تسلل ذلك الشاب الصغير الذى يدعى محمداً ، خارجاً من القلعة مخلفاً وراءه الباب مفتوحاً فى تلك الساعة من الليل ، وقاصداً خيام

بدو الفهجي ، لا شيء سوى الشجار مع الصبي دولان ؛ إضافة إلى أنه كان يوبخ النساء الفهجيات عن خلاف تافه بينهما حول شيء من حبوب القمح . والمرجح أن وقاحته وبذاعته على هذا النحو يمكن أن تكلفه الكثير جداً - وربما كلفته هذه البذاءة والوقاحة حياته التي لا فائدة منها . والسبب في ذلك أن الحاج نجم عندما سمع هذه الشائعة ، وعندما سمع الجدل الذي كان يدور في الخارج ، هب واقفاً على قدميه ، وعندما يتقن تماماً من الصوت، تقدم صوب الشرفة وهو غاضب تماماً ، وصاح صيحة عالية يطلب فيها قفل الباب ، كما لو كانت القلعة قد جرى الهجوم عليها . دخل الصبي محمد إلى القلعة مرة ثانية ، ثم قفل المزلج بهدوء ، وراح يتسلل خلسة إلى غرفته صاعداً السلم ، ولكن الرجل العجوز (الحاج نجم) الذي كان يفرد ذراعيه في ضوء القمر ، أقسم بدينه ، كما أقسم بالغرب Ghrarb ، أي بالجزء الغربي من البلاد ، أن ذلك الصبي محمد كان يهودياً (إذ لم تسعفه الذاكرة باسم آخر أبشع من هذا الاسم). عاد الحاج نجم مرة ثانية إلى المكان المخصص له في القلعة ، ثم عاد ثانية وهو يحمل بندقية الفرسان القصيرة التي كانت تتلألأ في ضوء القمر . ثم صاح الحاج نجم قائلاً: "اصح ، يا حسن ، أقول لك : اصح يا حسن !" قال الحاج نجم هذه العبارة بصوت شبه مخنوق وخال من المسحة الإنسانية :- استدع حسناً ليكون شاهداً على موت ذلك اليهودي ، أو ربما كان يريد من حسن ، أثناء هذه الموجة من الغضب ، أن يقوم بدور حماية السلام بينهما ، ويتدخل بينهما ، ويحول بين الحاج نجم وبين الوصول إلى الصبي محمد . سوف يبت الحاج نجم الرعب والخوف مرة أخرى في قلوب الجميع ، بأن يقوم بقتل ذلك الرجل أثناء الليل : ومن الجانب المقابل راح الصبي المسكين يتوسل إلى الحاج نجم وهو يبكي ويقول : "يا عماء !" - إنك أنت الذي ربيتني . ولكن الرجل العجوز كان يرفض ذلك التوسل ، وهو يصيح صياحاً مرعباً للمرة الثانية وهو يقول : "أنا لست عمّاً من أعمامك ، لا بد أن تموت ! يا يهودي ! لا بد من الموت !" وبينما كان يصوب الحاج نجم بندقيته إلى الصبي محمد ، جرى الأخير شاربداً في ضوء القمر (والعرب لا يفتحون النار على شخص يهرب) ، متجهاً إلى الجانب الآخر من القلعة : وهنا قام نجم العجوز بتعمير غدارته مرة ثانية ، ونزل بسرعة هابطاً بصعوبة من درجات السلم ، ومخلفاً وراءه سقف الشرفة ، وقاصداً مطاردة ذلك الصبي .

كان الحاج حسن بدوره قد هب واقفا على قدميه عند سماع تلك الضوضاء وبدأ ينظر من غرفته التي تشبه الزنزانة ؛ وبصوت يشبه صوت النفير ، صاح الحاج حسن صياحا فاق صياح الجميع : "بس Bess ، كفى ، يا عمى ، ما هذا ! وما هي كل هذه الجلبة ، وهل ستسفك دما بهذه السرعة ! وأنت يا محمد ، ادخل أيها الولد الغبي إلى غرفتك ، يالك من ولد غبي ! ألم أحذرك مئات المرات ، بصفتي والدًا ، وهل أنت دوما السبب وراء الاضطراب والقلق في القلعة ؟ وأنت يا حاج نجم ادخل غرفتك واستكمل نومك ؛ وغدا سيكون لدينا متسع من الوقت لمناقشة أخطاء هذا الصبي . كفى يا محمد ! لا ترد على عمك ، وأحمد ربك على أنك رأيت ما آلت إليه هذه الليلة ، ولم يحدث لك فيها مكروه . " وبذلك أمكن تهدئة غضب ذلك الرجل العجوز ؛ ثم خيم الهدوء من جديد على القلعة كلها ، حيث عاد الجميع إلى الراحة انتظارا لطلوع النهار ، ولم يكن هناك من أحد يتمتم أو يغمغم سوى ذلك الصبي العسكري ، عندما كان يقترب من "بيته" الخالي من الحركة . "سيقوم بإبلاغ ما حدث للباشا ، وسوف يبلغه أيضا لمحمد على ، عندما يعود الحج في العام القادم" : هذا يعنى أنه كان من حسن الطالع أن المغربى العجوز الغاضب لم يسمع ذلك الذى قاله محمد .

عند طلوع الشمس ذهبت إلى الوجار لتصلح شئ من الشاى الذى وضعت فيه مقداراً كبيراً من السكر ؛ وذلك سعياً منى إلى إعادة الود والصداقة بينهما ؛ وتأجل الصراع والنزاع إلى وقت الظهيرة . وذلك عندما اقتاد دولان أغنامهما القليلة لتشرب من غدران الماء . ناداه الحاج حسن من عل وهو يحذره ؛ - نصف كلمة يمكن أن يكون كافيا عند العقلاء ، ولكن المخبول لا يكفيه عشرون كلمة - وهنا أفلتت من صدر ذلك الفهجى المسكين ، نظرا لعدم قدرته على التحمل ، شكوى مريرة وبصوت عال تشبه صياح الرعاة الوقحين عندما يكونون فى الصحراء . وجاء الصبي محمد الأحق يقرب على تلك الصيحة ، وصاح هو بدوره رداً على تلك الصيحة : أسفر كل ذلك عن نزول كل من كانوا فى القلعة إلى الدور الأرضى ، هذا يعنى أن كل أفراد القلعة تركوا أماكنهم . وعندما نظرنا نحو الأعلى شاهدنا الحاج نجم وهو يحمل غدارته ؛ ونزل وهو يصرخ ويقول : "يهودى ! يهودى ! ونزل مهرولاً بسرعة من فوق الدُرَج متجها نحو الواقفين فى الممر ، ثم بدأ يخفف من جريه . وراح أعراب البوابة الذين كانوا قد دخلوا القلعة

لشرب القهوة ، راحوا يتبعون الحاج نجم ، وهم لا يعرفون سبب غضب ذلك المغربى ، وراحوا يرجونه ويتوسلون إليه . ثم جاء وادى Wady من الخلف وأمسك بالحاج نجم من وسطه ، واحتجز "عمنا" ، كما لو كان ساحراً ، ومحاولا الإمساك بذراعيه ومقاوما له ، وهنا راح الحاج نجم يلهث ، واضطردت أنفاسه ، وواصل تهديده لذلك الصبى . - واستطاع تخليص نفسه من الحاضرين وانطلق يجرى مبتعدا عنهم ، وراح يصوب بندقيته من جديد ، ولكنهم استطاعوا الإطباق عليه مرة ثانية ؛ وراح هو يجرهم ، وهم يمسكون بذراعيه ، محاولين إثناؤه عن عزمه ؛ وهكذا راح الجميع يطاردون بعضهم بعضا هنا وهناك . وبعد أن خارت قوة نجم كلها ، راح ينظر حوله وهو مضطرد الأنفاس ، وكاد يغمى عليه وهو بين أذرع الحاضرين . كانت زوجة الحاج نجم واقفة فى الأعلى تبكى . وبالتالي لم يكن بوسعها أن تساهم فيما يجرى ضد أخيها الوقح ، الذى كانت تخاف عليه من القتل ، على يدى زوجها العجوز . وأمام عينيها فى هذا المكان ، ولكن الحاج حسن عند هذه المرحلة راح يحتج على الحاج نجم قائلا : " بالله عليك ! كفى ما صنعته يا حاج نجم ! يالك من عجوز أحمق ، ألا يشبه ما تفعله ذلك الذى يصدر عن جسم أو شخص محموم بالغضب؟ هو! هو ! عسكرى يقتل عسكرى ! " (رجل يعلن الحرب على عائلته) . يضاف إلى ذلك أن البدو الذين كانوا يحجزونه ويمنعونه مما يود القيام به ، كانوا يتوسلون إليه ويرجونه مستخدمين فى ذلك لطف الصحراء : " ما عليك ، يا حاج نجم ! ما عليك ! خلى عنك كل هذا ، يا حاج نجم ! لا ، الولد ولدك ! لا ! أطال الله عمرك . " - وهنا صاح الحاج حسن قائلا : " ضعوا حداً لكل هذه الجلبة ! " وهنا قام الرجال بإجبار "عمنا" على الدخول إلى غرفته .

كان ذهنى مشغولا بالكيفية التى أوقعتنى أسيرا لذلك التعصب والتشدد التركى ؛ وكنت أتطلع رافعا رأسى إلى السماء راجيا ، أن تهين لى اليوم الذى أستطيع فيه الخروج من هذا القفص إلى حيث أكون بين الأعراب الأحرار ، كى أباعد بين أذننى وبين هذا الضجيج وذلك الصراخ الذى أسمع من أولئك المغاربة حادى الطباع ؛ وقد وعدت نفسى ، أننى عندما أطير مبتعداً عن جدران تلك القلعة فلن أعود مطلقاً للإقامة فيها مرة أخرى . فى وسط ظلام الخرافات هذا الذى يسيطر على حياتنا ، أعطانى الله القبول عند من يرانى ، كما جعل الآخرين يأخذونى بعين اعتبارهم . هذا الحاج نجم

نفسه كان مفرطاً في اعتداله معي ، ومديراً للأمور ، وعاملاً لصالحى ، كما كان يحذرنى عن طريق النصائح المخلصة فى الأمور التى كان يرى أنى لست حصيفاً فيها ، والتى تعد من قبيل الأمور النادرة فى دينهم ، والتى يمكن أن تثير الغضب: معنى ذلك ، أن هذا الرجل كان ينظر إلى نظرة حب ودى مثل حب الجار لجاره . ولكن لو حدث فى مرة من المرات ، ووقع بيننا ما يعكر الصفو ، ونسى الرجل واجبه تجاه الإمبراطورية العثمانية (الدولة) (وإذا ما تذكر فى ذلك اليوم عجزى الدينى) ، فذلك سوف يعنى ، بكل تأكيد ، عدم بقائى على قيد الحياة .

أساء كل من الخوف والجدل والنزاع البربرى فى بلد لا يعرف القانون (يتعين على المرء فيه أن يصيح بصوت عال بغية السيادة والتسود ، نظراً لعدم وجود بصيص أمل فى تحريك عقول البشر عن طريق المنطق) وكذلك المرض ، أساء كل ذلك إلى طبيعة الحاج نجم الخيرة التى تقوم على الفضيلة : والمؤكد أن هذا الرجل فى ظل الظروف العادلة والمنصفة ، وفى ظل النظام الدينى السليم ، ربما يكون صاحب فضيلة ممتازة ، يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل كان فيه قدر كبير من الاستقامة المشوبة بشيء من البساطة المتواضعة ؛ ونحن إذا كنا نرى فى ابتسامة العربى ، التى تمتاز بالحلاوة بشكل عام ، شيئاً من المزاج البدائى فى روح ذلك العربى ، فإن الحاج نجم يعد قديساً من هذه الناحية أيضاً . والمرء عندما يفقد ضيق الصدر الصارخ فى هؤلاء المغاربة المغامرين ، فإنهم يردون على ذلك قائلين : " يتعين عليك أن تعرف أننا أناس غربيون ، إننا فى الشرق مغاربة . " ومعروف أن دماء رجال الجزيرة العربية قد أصابها الاعتدال وبردت نسبياً فى العالم الغربى . وفيما يتعلق بطول القامة ، وحدة الذهن ، ترى أن المغاربة يتفوقون فى هذين الأمرين على سكان شبه الجزيرة القديمة ، الذين كانوا قصار القامة . ونحن حتى عندما نقارن هؤلاء المغاربة مع أهل القصيم الذى يتسمون بالجد والمثابرة ، نجد أنهم أفضل ، من منطلق أنهم غربيون ، من سكان الشرق الذين هم أقل جداً ومثابرة . هؤلاء المغاربة أصحاب القرارات المدروسة ، والذين لديهم شيء من العبقرية المدنية ، والاجتهاد الصادق ، والذين يتجمعون مع بعضهم البعض بطريقة متحضرة ، قادرين على تمرير وتحقيق المشروعات الجديدة . ولما كان هؤلاء المغاربة من أهل الغرب فإن لهم عقولاً نافذة ولاذعة فى نفس الوقت وعيبيهم الوحيد أنهم ليسوا

كرماء . والمغاربة شأنهم شأن العرب جميعهم ، مولودين تحت نجوم جؤالة : هذا يعنى أنه هؤلاء المغاربة أوفر جهداً ونشاطاً من أهل الجزيرة العربية نفسها . وفلاح الجزيرة العربية ، أقل صبراً على العمل من المغاربة ، كما يسهل إحباطه والتقليل من عزيمته ؛ أما فيما يتعلق بالبدوى خاوى الجسم ، فنفسه قصير جداً ، إضافة إلى أن هذا البدوى يعود إلى حالة من التأمل الذهني بعد ما يبذل شيئاً من الجهد ؛ بل إن مثل هذا الجهد يجعل مثل هذا الرجل يبتعد عن كل هموم الدنيا من حوله . ويبدو أن تغييراً مماثلاً ، يحدث فى سلالات خيول الجزيرة العربية ، التى يمكن تربيتها فى الغرب على نحو يجعلها أشجع وأثمن مما هى عليه .

مرت الأيام التى تلت ذلك بأمن وسلام ؛ فقد ذهب محمد إلى أمه البدوية ، لاستنشاق الهواء المنعش مع ولاد على فترة من الوقت . كان محمد ، فى الأيام الأخيرة قد دفع الصداق ، واتخذ فتاة من جهيينة زوجة له ، ولكن حتى هذه الزوجة لم تستطع البقاء أو العيش مع عريسها المنحوس ، نظراً لأن ذلك الجبان قام بضربها ؛ كانت تلك الزوجة قد هربت وشردت فى الصحراء ذات صباح وقطعت مسافة عشرة أميال عائدة إلى قرية ولاد على ، أو إن شئت فقل قرية العلا . هذه البنت البدوية ، التى كانت محبوسة داخل القلعة بين الغرباء القساة ، والتى كانت تشعر بالحنين إلى موطنها جاعتى ذات مرة لتسألنى ببساطة البنات وسذاجتهن ، "ما إذا كنت يمكن أن أتزوجها إذا ما طلقها زوجها وأخلى سبيلها . " كان قد مضى علىّ فى ذلك الوقت ثلاثة أسابيع كنت أقيم خلالها ، فى هذه المرة الثانية ، فى برج من الأبراج الواقعة على طريق الحج ، ولم يبلغنا أن أحداً من العاملين فى قافلة جلب الأرز قد عاد إلى قرية العلا ؛ كنت فى ذلك الوقت قد عقدت العزم على الصعود إلى بلاد (ديرة) الموهيب ، الذين يعيشون فى قسم مستوٍ يقع على مرمى البصر ، فى جبل الحرّة Harra ؛ ولكن نظراً لخطورة الدروب الصحراوية كلها على من يسافرون أو ينتقلون فرادى ، فلم أجد أحداً على استعداد لمرافقتى فى تلك السفرة ، أو إن شئت فقل ؛ إلى ديرة الموهيب . ثم وصلتنا أخبار عن (كُفل) (*) Kūfl أى قافلة محمية من بدو الفجير كانت على وشك الذهاب إلى

(*) كُفل Kūfl : المقصود بها القافلة الصغيرة . (المراجع)

قرية الوجه Wejh لجلب الأرز ، وكان قد تقرر لتلك القافلة الفجيرية أن تبدأ رحلتها من الروضة El-Erudda في صباح اليوم التالي ؛ وكان واحد من أصدقائي قد أرسل إلى ناقتي ، عن طريق بعض القبليين الذين يذهبون إلى قرية العلا للتسوق ، على أمل أن أعود بصحبة أولئك الذين أحضروا لى الناقة . وزعت بعض الهدايا الصغيرة ، وعثرت بين أشيائي على ثوب دمشقى جديد أعطيته للحاج نجم : هذا الرجل العجوز كان قد طلب منى أن أضع على ناقتي تلك الحَكَمَة Headstall هى واللجام المرح ، اللذان تناولتهما يداه من يدي رجل من قبيلة الشَّمْر ؛ وعندما جاء الرجال فى المساء ، قمت ورحلت معهم .

كانت حرارة الشمس الحارقة قد تغاضت عن الدنيا ، وواصلنا نزولنا خلال ظلال الليل الهادئ ، خلال أطراف الجبال المكونة من الحجر الرملى . فى المنطقة الواقعة خلف سهل الوادى فى قرية الحجر . وواصلنا مسيرنا على امتداد ساعات الليل الطويلة بينما كان الآخرون نياما فى بيوتهم وخيامهم ؛ كان الهواء أكثر برودة وهو يهب علينا قادما من الأراضى المرتفعة ، كلما توغلنا فى جوف الليل . وعندما بدأ شروق الشمس نزلنا عن دوابنا وشببنا نارا لتدفئة أنفسنا . وبعد مسير ساعتين آخرين ، بدأت تطالعنا بشائر ماشية البدو الرحل التى كانت فى المراعى ؛ هذا هو راع جلف ، يصيح عندما يرانى قائلا : "كيف حالكم الآن ، أيها الرقاق ! ومن أين جئتم بهذا الدولانى؟" (*) ردوا على ذلك الراعى قائلين : "إنه منكم ، وهذا هو خليل . " كان بدو الفجير يقيمون حول الروضة El-Erudda . فى تلك الروضة ، حفر الناس كثيرا من حفر الماء ، التى يصل عمق الواحدة منها إلى قاماة الرجل ، فى الأرض الرملية . وقاموا بتبطين تلك الحفر ببعض من الأحجار البرية القديمة . والماء فى تلك الحفر ، الذى يناسب الذوق ، لا ينقص مطلقا فى تلك الحفر .

واصلنا مسيرنا إلى مَنْزَل زيد ، الذى لم نجد فيه سوى محسن وحده . الذى جاء ليساعدنى على النزول من فوق ناقتي . تفرق عنى أولئك الذين كانوا يرافقونى فى الطريق ، أما أنا فيتعين على مواصلة المسير إلى خيمة الشيخ مطلق ، التى كانت تبعد

(*) المقصود "الدولانى" Dowlāny هنا "واحد من أتباع أو رعايا الإمبراطورية العثمانية" (المترجم)

عنى مسير ساعة أخرى . وقد أرشدتنى على الطريق المؤدى إلى خيمة الشيخ مطلق امرأة زنجية محررة ، كانت ترافقنا فى رحلة العودة ، كما كانت أيضا من منزل رحيل Rahyel ؛ هذه المرأة تقدمتنى وهى تسير على الرمل الذى سرعان ما بدأ يسخن ، وكانت تمسك لجام الناقة بيدها ، وهى تعبر عن ضيقها بالتأخير الذى أتسبب لها أنا فيه ، - أنا لا أستطيع القيادة لأنى مرهق - وفى كل خطوة كانت تلك المرأة تجذب حكمة ناقتى مستحثة إياها على إسراع الخطى . بعض العباءات التى تلبسها هؤلاء النساء تكون مفتوحة من الجانبين كما لو كانت قميصا صنع من القماش ، يدخل من يلبسه رأسه فى وسط فتحة موجودة فى المنتصف ؛ هذا الرداء الذى لا يتعلق إلا من عند العنق فقط ، تلم البدوية أطرافه تحت ذراعيها ، وبالتالي لا يظهر أى شئ من أجسادهن بالرغم من تحركهن بسرعة . ولكن أثناء ارتباك تلك الزنجية فى حديثها وانشغالها به ، وأثناء أنين الناقة التى كانت تقاوم استحثاث تلك الزنجية لها ، فى غضون ذلك كله ، ضاع تركيزها ، وهبت نسمة ريح شديدة وكشفت ذلك الرداء الصيفى من فوق عنق تلك المرأة الزنجية ؛ هؤلاء النساء الزنجيات لا يضعن أى شئ آخر على أجسادهن غير وشاح يشبه الدانتيل مصنوع من الجلد المضفر . هذه الأطراف الزنجية كانت رشيقة ، وتلمع فى ضوء حرارة الشمس ، وبالرغم أيضا من سبيكة دم هذه المرأة الإفريقية ، إلا أنها كانت متناسقة القوام ، الأمر الذى جعلها تبدو كما لو كانت تمثالا من البرونز . وعلى الفور ، أعادت الثوب إلى مكانه فوق جسمها ، واستدارت إلى بنظرات كانت تنم عن فهم ما إذا كنت قد سخرت منها أم لا ؛ ولكنها عندما عرفت وتأكدت أن الكافر لم يبالى أثناء ركوبه على دابته ، بأى أمر من تلك الأمور ، خفت حدة وسلطة لسانها : بل إنها أصبحت تعول كثيرا على نيتى الحسنة ، إلى حد أن الأمر كان يبعث على المرح والضحك فى خيام الأعراب ؛ واعتبارا من ذلك الوقت كانت تلك الزنجية تتحرك دوما بين أسواق القرى ، الأمر الذى تصادف أن يجمعنا ببعضنا مرات عدة أخرى .

عندما اقتربنا من خيمة الشيخ مطلق ، كانت القافلة كلها قد بدأت تتحرك بالفعل ، تلك القافلة التى سبق أن علمنا أنها سوف تتحرك فى صبيحة الغد : كنت أنا بدورى أتطلع إلى قضاء نهار اليوم كله فى نيل قسط من الراحة فى هذا المكان ، وكنت على

قناعة بأنى كان لا يمكن لى التحرك راكبا ناقتى حتى ولو لساعة واحدة بعد ذلك ، - ومع ذلك كانت رحلتى ما تزال فى بدايتها . وهنا لم أعد أرى من الكفل Kūf (القافلة) سوى القسم الأخير من دوابها . قال العرب : عَجَلٌ وسرْعٌ خطواك ، إن كنت تريد اللحاق بهم . - قال مطلق : لقد تأخرت ، ولكن يمكن لك أن تلحق بهم . - وهنا خرج الرجال يجرون من الخيام المجاورة ، وهم يمدون أيديهم للقادِم الجديد عليهم يحصلون منه على شىء من التبغ ؛ ولكن بالرغم من احتياجى الشديد ، لم أتمكن من إقناع أى واحد منهم بإعطائى قليلا من اللبن كى أشربه . والعرب فى مثل هذا الظرف يتسمون بالبخل ، بل إنهم يميلون إلى أن يزيد ذلك عبئا على أعبائك . وهنا وجهت كلامى للشيخ مطلق ، الذى لاحظ معنوياتى المتدنية ، سائلا إياه : كم من الوقت ستستغرق هذه الرحلة منا اليوم ؟ - سوف ينزلون عن دوابهم عند الظهيرة ، أو قبيل دخول العصر ؛ هيا ، امض قدما ! - ولكن هذه هى وعود البدو الخادعة التى يَجْمُلُونها . قفز مطلق فوق ظهر فرسه العارى ، وراح يستحثها وهو يمسك بالحكمة Headstall واللجام ، ولكن الشكيمة غير معروفة فى هذه الصحراء . (قالت لى الأصوات الصديقة التى كانت تتحلق حولى) انتبه فالشيخ يسير أمامك، استحث ناقتك ، وإلا سوف يخلفونك وراءهم ؛ لقد سبقك الشيخ كى يوصيهم بك خيرا ، وسوف يلزم ولد شيخ البلى Billy (الذى يتولى قيادة القافلة) بأمنك وسلامتك . - وعندما نهضت ولحقت بالقافلة أعطانى الشيخ مطلق تسليما Teslīm ، بمعنى سلّمْنى على سبيل الأمانة ، لقائد القافلة البلى الشاب . عند هذا الحد ، أصبح يتعين على قطع مسافة مائة وخمسين ميلا . بلا توقف لنيل قسط من الراحة ، فى جوحار وخائق ؛ إضافة إلى أن حياتى الضعيفة كانت على شفتى . كنت أحاول ، ، من حين لآخر ، المحافظة على اتزانى فوق السرج : ومن باب العلم بالشىء ، فأنا عندما غادرت مدائن صالح لم يكن معى أى شىء من الماء ، فضلا عن أنى لم يكن معى حتى ولو أوقية واحدة من الطعام . هذا هو يوم خانق الحرارة ساكن الريح يهل علينا من جديد . وبعد مسير ساعتين ، وقفت القافلة عند سقيا هى عبارة عن بعض حفر ضحلة يحصل الناس منها على الماء ، كانت تلك الحفر الضحلة مبطنة بأحجار برية كما هو الحال فى آبار . أو إن شئت فقل : حفر الروضة El-Erudda . لم أتعرف سوى على وجهين أو ثلاثة وجوه من بين كل هؤلاء الذين كانوا يسافرون مع

تلك القافلة ، وقد وجدت أصحاب هذه الوجوه مصطفين إلى جوار بعضهم البعض ؛ هؤلاء الثلاثة ، هم فى الأغلب الأعم من الخمالة Khamāla ، الذين بالرغم من كونهم جماعة مطرودة من بدو الفجير ، يشكلون نوعا وقحا من عامة الناس ، الذين يعيشون منعزلين عن الشيوخ ، ولا يحضرون مجالس الشيوخ فى معظم الأحيان . - كم كان هذا الهواء خانقا! وهنا نزلت عن دابتي عندما كانوا مستعدين لاستئناف المسير من جديد ، ورحت أضع رأسى وأغمره بالماء المتبقى فى الوعاء الذى تشرب منه الدواب ؛ ولكن السقاء النذل كان يمننى من ذلك وهو يقول : " لا ! إنه يخاف الله ويخشاه " ؛ ورفع ذلك النذل الوعاء ، وسكب الماء على الأرض ، وهو يصيح ، وقد ظهرت فى عينيه بؤادر تعصبه وتشده ، " آتيعنّ عليه أن يجلب الماء لنصرانى ، واحد من أولئك الذين لعنهم الله ؟ وهل كانت الشمس حارة فى ذلك اليوم ، وبالتالى أغمى على ؟ إنه يتمنى ويدعو الله أن أموت أيضا . "

كنا قد قطعنا مسافه قصيرة فى تلك الأرض الجرداء ، وعلى أثرها سمعنا لسانين شرسين لامرأتين بدويتين شابتين سليطتين كانتا معنا فى القافلة ؛ كانت هاتان البديتان تصرخان فزعا فى الرجال وهما تقولان : " أنظروا ، أيها الصبية ، أليس هذا هو الكافر يركب معنا ؟ ألن تقطعوا عنقه أثناء الطريق ؟ " وعلى الفور ، لعنتهما لعنة بدوية ، غير أن الأمر لم يكن يستدعى ذلك ؛ وهنا رد على أولئك الذين كانوا يسيرون بجوارى قائلين : " إنه ولد أخينا ، " والسبب فى ذلك أنى كنت قد نزلت ضيفا على بعض رجال القبيلة . ثم بدأ يطالعنا مرة أخرى جدار جبلى أسود اللون ليس من صنع البشر ، وإنما هو جزء من أرض الحرة ، يقف ويتحمل السماء الحارقة منذ أزمان كثيرة قبلنا ؛ - وقررت القافلة (الكُفْل) ألا تتوقف ، إلا بعد الوصول إلى ذلك الجدار ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا . وهنا هبطت القافلة التى كانت تسير فى طابور واحد لتعبر السهل الأجوف ، الموجود عند سطح تلك الصخور الحديدية الوعرة ، التى يطلق عليها أفراد القافلة اسم شوك Shuk العجوز el-Ajûz ، فى حين يطلق البدو عليها اسم الأجرّة el-Agorra . كنا نسير خلال هواء خانق جاف يقولون له " الحمو " el-Hummu ، التى هى عاصفة من أشعة الشمس التى تحرق الجلد ، وتجفف مقلة العين ، بفعل الوميض الذى يجىء منعكسا من الرمال . يا لبطى الشمس الصيفية المستعرة وهى تصنع قوسا

كبيراً عند الغروب ، وعندما تبدأ ظلال صخور الحرة فى سترنا من فوق رؤوسنا ! بعد أن تقشر جلد رؤوسنا ، ورقابنا ، ووجوهنا ، وأذقاننا وأقدامنا ؛ ركبت دابتي وأنا فى شبه غيبوبة ، وشبه محروق . كنت فى بعض الأحيان أسمع الأصوات الغريبة التى كانت تحدثها القراب التى كانوا يحملون فيها ماءهم ، وطلبت من بعضهم أن يصبوا لى قليلاً من الماء ، ولكنهم أنكروا عليّ ذلك ، ولم يعطونى شيئاً منه . كان هناك شخص آخر ، سمعنى وأنا أطلب الماء ، ففرق لحالى وأعطانى الماء وهو كاره ؛ ورفعت كوز الماء الذى أعطانى إياه إلى شفتى ، ولكنى لم أستطع أن أبتلع منه ولو جرعة واحدة بفعل جفاف حلقى نتيجة للحرارة الشديدة . وعندما رأى ذلك الشخص أننى رشفت رشفه واحدة ، وهو يتناول منى الكوز ، قام بإلقاء الماء المتبقى على الرمل ، لأنه قال : "من ذا الذى يمكن أن يشرب بعد نصرانى!" كانت قراب الماء الكبيرة مملوءة عن آخرها بالماء . إضافة إلى أنهم سيصلون إلى سقيا جديدة على الطريق ، فى مثل هذه الساعة من يوم الغد . صحيح أن كرمهم فى بيوتهم يستثير الود ؛ ولكن عندما يكون الإنسان سائراً معهم فى طريق واحد ، قد يجدهم يتصرفون تصرف الأعداء ؛ ومع ذلك ، هناك من بينهم بعض الرجال الأشراف الطيبين ، الذين تبدو عليهم طيبتهم فى كل وقت وحين . وتحت مختلف الظروف والأحوال . وصلنا الحرة فى ساعة متأخرة ؛ وفى الحرة دخلنا فى قلق من الحجر الرملى فى الجبل ، هو الذى راح يحميننا من عين الشمس الحارقة . كان قاع ذلك الفلق تتناثر فوقه مجموعات كبيرة من الحجر الخفاف ، المختلط بأعداد كبيرة من الأحجار البركانية المكسرة ، وبعض الكتل البازلتية . صعدنا بعد ذلك مكاناً منحدرًا من الانجرافات الرملية ، التى كانت فى الصخور التحتية للجبل (المكون دائماً من الحجر الرملى) ؛ وهنا نزل البدو عن دوابهم حتى يتمكن من صعود ذلك المنحدر . ونزلت عن ناقتي ، وركبت فوق جمل مستأجر . وهنا طلب إلى أصحاب الجمل النزول عنه ؛ ولكنهم عندما وقفوا على ضعف حالى وعدم قدرتى على الصعود لم يصروا على ذلك ؛ والعرب نراهم لطفاء وإنسانيين ، عندما تستعمل أى شىء من أشياءهم . (سألت واحداً منهم) لماذا تمشى هكذا أثناء حرارة النهار ولا تفعل الشىء نفسه فى ظلال الليل ، موافرا على نفسك قوتك ، من ناحية ، وإبلك من الناحية الأخرى ؟ - "صديق ، صديق ، ولكن ما فعلته كان هو الأفضل ؛ ولكن اسمع يا خليل ، أه ، من

البدو ! إنهم جميعا عفنين (بمعنى فاسدين إلى حد العفن) ، وأن كل ما يفعلونه ، لن يكون له أى نفع أو فائدة .

عندما اتسعت الظلال أفقت قليلا من ذلك الإرهاق الموجع الذى لقيته على الطريق ، الذى يمثل موات طويل بلا وفاة ، فقد خرجت لى مصيبة أو بلوى جديدة من شىء صغير . وصلت إلينا ونحن راكبين بنت ، أمها هى التى كنت استأجرت منها جملا ! وبالرغم من أن وجه هذه الفتاة كان أجمل الوجوه فى الجماعة التى تنتمى إليها ، لم يكن أى شىء فيها يدل على عذريتها سوى القناع التى كانت ترتديه : هذه البنت الشقية راخت تطاردنى ، طوال الرحلة ، كما لو كانت شخصا من الأشخاص الذين يخالفون إشارات المزور بعبارات من قبيل " هو ! يا كافر ، أها ! يا نصرانى ! هذا رجل يهودى " . كان البدو الذين يسرون بدوابهم إلى جوارى أكثر حقا وخبثا ، ولم يتعاطف معى أحد منهم ، بل إن أحداً منهم لم يكلف نفسه زجر تلك البنت أو إيقافها عند حدودها . بدأ ضوء النهار يخبو ، وأخيرا غربت الشمس علينا فى تلك الأرض القاحلة الجرداء . وهنا أوقف العرب دوابهم فى مكان مستور ؛ وهنا بركت الجمال من تحتهم ، بل ونزلنا نحن جميعا من دوابنا لتمضية الليل . كنت قد ركبت ناقتى فى مساء أمس فى هذا الموعد تقريبا ، واستمر ذلك الركوب طوال ليلة من ليالى الصيف ونهار طويل من نهاراته . ولم يدخل ، خلال هذه الفترة ، طعام فى جوفى ولم أنل أى قسط من الراحة إلى الآن . ومعروف أن الليل هو أحلى الراحة من ضوء الشمس ومن حرارتها : كان هواء الجبل يهب علينا ، ونزلت من فوق ناقتى ، وأنا غير متمالك لأنفسى فى واقع الأمر ، ولكنى كنت أبدو كما لو كنت مستيقظا من نوم غير عميق . ومعروف أن ظهر الناقة أو الجمل لا يكون مريحا : ولكن ماذا يفعل الإنسان لنشوز الطبيعة ، وفى حقد البشر ، وعدم عدالة الأديان ، لقد كنت أتمنى ألا تمر بى تلك الأيام مرة أخرى فى أى جزء من أجزاء العالم ، - إذ لوحدث ذلك سيكون معاناة جهنمية .

استدعيت ، فى ضوء النجوم ، تلك البنت الشرسة ، التى كانت قد نزلت عن دابتها هى وأخيها فى مكان قريب من المكان الذى نزلت أنا فيه ، ثم وضعت فى يدها هدية من التَّوْن (الدخان) لتعطيتها لأمها (الشلق الشقية) . قلت لهذه البنت : " أنت ذئبة صغيرة جميلة ؛ ولكن قربى منى يا حبيبتى ، لقد سامحتك فيما قلته ؛ ستكونين فى الغد

عروباً لى ؟ - " هذا كلام حسن (قالت هذه الصبية البدوية المسكينة) وكانت مستعدة لتأخذنى : وهى على استعداد لخدمتى طوال الرحلة ، وتتبعنى إلى بلادى البعيدة ، وأن لا تسبب لى أى شىء من الضيق أو القلق بكلامها الموجه ، وكان طلبها الوحيد ، أن أقطع على نفسى وعداً بعدم التخلّى عنها . وعن طريق هذه الطرفة البدوية الخفيفة استطعت تجنب نفسى لسان هذه الفتاة السليط طوال اليوم التالى . وهنا حل الليل علينا ، وتجمع العرب المسافرون حول نيران الخفارة ، فى حين جلست أنا إلى جوار خُرْجى كى أنال قسطاً من الراحة . مر بنا بعد ذلك ، رجلان كانا عاندين إلى مكانيهما ، وسمعتهما جيداً عندما كان أحدهما يقول للآخر : " ها هو الكافر جالس ! " وردّ عليه زميله قائلاً : " انتبه ، إنه لن يحتاج سوى ضربة واحدة بالسيف ، ثم يحصل من يفعل ذلك ، على كل هذا الخير (أمتعتى بطبيعة الحال) . " - تعرفت صوت المتكلم الأخير ؛ إنه ولد شيخ البلّى المحترم ، الذى كان يصاحبنا فى القافلة رفيقاً لى ، إلى والده . ومع طلوع نهار اليوم الجديد ، قُبِضَ العرب خيامهم على وجه السرعة . وكنت خلال الليل قد اتفقت على إيجار الجمل ؛ ولكن هاهم أصحاب ذلك الجمل ينكرون على ذلك الإيجار ، متمثلين فى ذلك بمثل (ربما كان واحداً من أمثال أهل الجزيرة العربية ، يبيع لهم التماس العذر فى مثل هذه المناسبة ، طالما أنهم لا يشربون النبيذ ،) . يقول المثل : " الوعود التى تقطع أثناء الليل ، ليست ملزمة عند طلوع النهار . " (*)

يتعين على حزم أمتعتى وتحميلها على ناقتى الكديش استعداداً لعبور الحرة . ذلك أن القسم الرئيسى من القافلة ، كان قد رحل بالفعل : يضاف إلى ذلك أن تلك البقية الباقية حولى من البشر راحت تهدد بالتخلّى عنى ؛ ولكن البعض منهم نزلوا من فوق نوابهم لمساعدة الغريب عندما وجدوا أننى لا أستطيع وحدى تحميل أمتعتى كلها . وبعد مسير ساعة تخلوا لى بمحض إرادتهم عن الجمل وأعطونى إياه مرة ثانية ! وهنا بدأنا نسير فى ممرات وعرة منحدرّة داخل الجبل . : وواصلنا المسير بين الطلوع والتزول كل نصف ساعة إلى أن دخل علينا وقت الظهيرة ، كل ذلك ونحن نسير بين صخور البازلت وثنيات مشققة من جبل الحرة ، ومع كل ذلك كنا نواصل الصعود بين

(*) هذا هو المثل العام المصرى الذى يقول : " كلام الليل مدهون بزبدة ، يطلع عليه النهار يسيع . " (المترجم)

هذه الصخور . كل ما يحيط بنا عبارة عن خلاء (صحراء) لونها يشبه لون الحديد ؛ الأرض هنا تشبه (بلاجا) لامعا من الأحجار البركانية الساخنة. هذه قلة قليلة من سيقان نبات الشيح الرومى خضراء اللون ، يراها الناظر إليها وقد نبتت على الرفوف البركانية الحارة، وتفوح منها رائحة طيبة فى ضوء الشمس: هذا الشيح تجمعته الحريم ويجففه، ليعطى نكهة حريفة ؛ وهم يخلطون قليلا من ذلك الشيح مع اللبن والمريسى . والقيعان البركانية العميقة عامرة بأشجار الطرفاء ، كما شاهدت على جوانب مجرى السيل الحجرية بعض البيارات الخضراء العامرة بأشجار السنط الصحراوية . ومن بين الأشجار الخشبية الأخرى ، هناك قلة قليلة من تلك الأشجار تنمو فى هذه الحرّة ؛ وقد شاهدت عكاكيز البدو الذين اقتطعوها من تلك الأشجار . كان البعض من بدو الفهجات الفقراء يفتشون عن أدغال أشواك السنط كلما مررنا بها ، بحثنا عن قطرات الصمغ العربى الصافية ، هى وزهور أشجار الصمغ التى يميل لونها إلى الابيضاض ؛ وهم يقولون ، إن الناس فى بلدة الوجه يدفعون ست بنسات عن كل زجاجة من الصمغ .

والجمال طويلة الأعناق ، تلقف ، ونحن فوق ظهورها ، تلك الأغصان الشوكية التى تشبه أوراقها أوراق نبات الست المستحية ، أو إن شئت فقل : ذلك النبات المزهر من فصيلة السنطيات . والفجيب فى الأمر أن تلك الأشواك الحادة لا تؤذى ذلك البلعوم الطويل الطرى! - هذه الأشواك قادرة على الانغراس فورا فى نعالمهم الجلدية السمكية، مسببة جرحا قاسيا فى أقدام البدو الحافية ؛ ولقد رأيت بعينى بعض البدو الذين لزموا فراش المرض فترة طويلة بفعل أحداث من هذا القبيل . وعندما سألت بعض البدو ، عن هذا الأمر : "أجابونى ، أن الدنيا مليئة بالمعجزات الإلهية ؛ وأن الله قد يسر المخلوقات كل لما خلق له . ومع ذلك ، إذا ما فحص إمرؤ أى جمل من الداخل بعد ذبحه ، سيجد مادة جلدية ، لينه ولكنها عميقة بقدر طول إصبع واحد ، علاوة على إنها سميكة على نحو يستحيل معه على أية شوكة أن تخترقها بسهولة . " ورعاة الماعز من البدو يحمل كل واحد منهم منقارا ، يستعمله فى الأماكن التى توجد فيها أشجار السنط ، ليسحب الأغصان التحتية ليقربها من القطيع الذى يرعاه ، ولصغار الماعز بصفة خاصة . ومن يسير فى الصحراء يشاهد أشجار الطلح ، التى تتدلى مشوهة ؛ يضاف إلى ذلك أن تراب الصحراء يكون مدهوسا حول أدغال شجيرات نبات الست المستحية الشوكى ،

بأقدام الحيوانات البرية الجميلة مثل الغزال . وشجرة نبات الست المستحية، التي يقول البدو عنها ، إنها سريعة النمو ، يندر أن تتحول إلى أخشاب . وعرف شجرة الطلع المنتشر لا يشكل غطاء جيداً أو واقياً ، لأنه عبارة عن شبكة من الأخشاب والأشواك الضعيفة يميل لونها إلى الاخضرار ، كما أن أوراق هذه الشبكة غير كثيفة وصغيرة الحجم؛ هذه الشجرة هي وأشواكها القديمة تلقى شكلاً من أشكال العتمة غير الكثيفة ، ل يبدو كما لو كان ظلاً، على الأرض الجرداء المتوهجة. أشجار السنط فى هذه الصحراء تنشر فى الهواء رائحة طيبة صحية يحسها الناس بشيء من الصعوبة ؛ وزهور هذه الأشجار التي يميل لونها إلى الاصفرار، يشاهدها الناس فى منتصف شهور الصيف، كما يشاهدون أيضاً الأغصان المعقوفة قبل حلول فصل الصيف . وفى وادى Wady Thirba اكتشفت أو عثرت على واحدة من هذه الأشجار وقد امتلأت بطنين النحل الصحراوى (الذى يقول له البدو "الذبة athubba")، كما لو كان ينبعث من الشجرة عطر ضعيف ، مثل ذلك العبق الجميل الذى ينبعث من البساتين المزهرة . مضغ أوراق السنط ، التى لها طعم مستساغ وجيلاتينى إلى حد ما ، ينعش الفم الجاف ؛ والعرب يقولون : إن الصمغ جيد جداً ومرطب إذا ما أكله الإنسان . هؤلاء هم بعض من بدو الفهجات ، الذين كانوا يرافقون الكُفَل (القافلة) سوف يبقون فى المنزل القادم من منازل البلى بحثاً عن جذور الإرْن er'n فى جانب الجبل المواجه لتهامة . والإرن er'n الذى هو عبارة عن كعب مغضن من كتل الخشب يشبه جذر شجرة الخلبغ . وأنا لم أعتز على هذا النبات ، ولم أر أى نوع شبيه به فى الجزيرة العربية . وشرائح هذا النبات ينقعها البدو فى الماء ليستعملوها فى دباغة الجلود ، ولونها يشبه لون شجرة الأرز . والبدو يضعون الجلد الخام فى ماء الإرْن مدة يومين أو ثلاثة ؛ ومع ذلك لا يدبغ الجلد تماماً ، ويترتب على ذلك ، إذا ما استعمل مثل هذا الجلد ليكون قربة من قراب الماء ، أن يتعفن بعد فترة من الوقت ؛ وعند تقطيع مثل هذا الجلد يجب دبغه من جديد ؛ ومعروف أن قراب الماء فاسدة إلى الحد الذى يجعلها تلتف الماء الموجود بداخلها . وكل عقدة من عقد خشب الإرْن ، الذى يدخل فى مهام كل بدوى وكل ربة بيت بدوية أيضاً ، تباع بما قيمته ريال واحد فى قرية تيماء .

طوال تجوال ذلك اليوم بطوله خلال الحرّة لم نر ذلك الصخر الرملى أبيضاً فى أى مكان ، ولكن كان يغطيه وعاء هائل من الصخور البركانية البازلتية . تجاوزنا فى البداية ويعد الظهر بقليل تلك المنصة البركانية المرتفعة من الجبل ، بعد أن لاقينا الكثير من المتاعب بسبب سرعة الإبل أثناء عملية التسلق أو الصعود . وهذا هو على مرمى البصر سهل من الزلط البركانى الأسود ، وترتفع خلال ذلك السهل مخروطات فردية سوداء اللون ، لكل واحد منها عرفان على شكل توأم ؛ [هذه الأعراف كانت عبارة عن فوهات براكين ، أو إن شئت فقل : تلالاً بركانية ؛ وفى تلك المخروطات تكسرت تلك الفوهات البركانية ونزلت إلى جانب الجبل ، وذلك بفعل الحمم البركانية المتدفقة من ناحية والحرارة الشديدة الناتجة عن الانفجار من الناحية الأخرى] . ومبلغ علمى أننى رأيت فى كل ذلك الأشكال القديمة للتلال البركانية . كانت حرارة نهار الصيف معتدلة فى سائر أنحاء الحرّة على اختلاف ارتفاعاتها ، إذ كان المكان الذى نحن فيه على ارتفاع حوالى ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر : كانت ندرة الهواء ملجأً لنا من حرارة الشمس الشديدة ، التى بدأت تسطع فوق رموسنا على نحو فيه شيء من الرحمة والود . وبدأننا نستشعر نسمة خفيفة فى الأجزاء المرتفعة ؛ وهذا الجزء المرتفع من الجبل يهب عليه تيار فاتر من الهواء . وفى بعض المواضع من التربة البركانية ، نشاهد تربة غرينية يميل لونها إلى الاصفرار ؛ هذه التربة موجودة تحت الأحجار السائبة ، التى ربما كانت أحجاراً طباشيرية محروقة ، التى تقع على شكل طبقات أو مستويات قليلة من فوق الحجر الرملى القديم فى هذه الحرّة ؛ وقد اكتشفت أن تلك الطبقات القليلة أو المستويات قد تحولت إلى مُغرة بفعل الحمم البركانية القديمة . الحرّة التى من هذا القبيل تكون فى معظم الأحيان ، عبارة عن حوض وضفاف شاسعة من الكتل البازلتية التى يميل لونها إلى الزرقة . كما يغلب الصدأ على تلك الكتل أيضاً . هذه الكتل المكونة من مادة عنيدة ، مثل الحديد ، تكون مثل المعادن ؛ وهى عندما تتعرض منذ أزل بعيد للرياح الصحراوية المحملة بالرمال ، يراها الناظر إليها مصقولة وتلمع فى ضوء الشمس . هذه الحرّة يصعب اجتيازها من خارج الممرات . على الإبل التى لا تكون مولودة أو مربّاه فى مكان غير الحرّة ؛ وصعوبة الاجتياز ترجع إلى تلك الأحجار التى تشكل عقبة كبيرة من ناحية ، وإلى الصخور البركانية الحادة من الناحية

الأخرى . هذه الأحجار الثقيلة التى تنزلق وتسقط إلى طريق السير ، تؤدى فى أغلب الأحيان إلى تورم أقدام الرعاة وإصابتها بالجروح والكسور ؛ ونظرا لأن هذه الأحجار تكون مثل الفحم المشتعل أثناء شمس الصيف ، فإن البدو يجلسون طوال النهار على أكفال إبلهم التى ترعى العشب .

هذه القحولة التيتانية ، التى تبدو لأعيننا غير قادرة على تحمل الحياة ، هى أرض وديرة جيدة ، بل إنها تعد تراثا وميراثا لأبى Abu شامة Shamah المواهبيى الجرى . هذا الهواء المعتدل الموجود فى هذه المنطقة العالية هو هواء صحى ، والمواهيب لديهم ما يكفيهم من الماشية . يضاف إلى ذلك أن متسلقى الجبال هؤلاء هم بدو نوى أجسام قوية ، كما أن فهمهم وتفهمهم فيه من الوقاحة أكثر مما فى فهم أولئك البدو الذين رأيتهم فى السهول المحيطة بأولئك المواهيب . وماشية هؤلاء المواهيب الصغيرة يندر أن يسرقها أحد من هذه الديرة البركانية الوعرة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن حليب القطعان أندر من الندرة بين هؤلاء القوم ، ومعروف أن الحليب هو بمثابة الصحة والثروة عند البدو الرخل الفقراء . وعندما جاء شيخ المواهيب المتين لزيارة بدو الفجير ، فى أواخر هذا الصيف فى قرية الحجر ، قام زيد ، على إثر الترحيب البدوى المعروف ، بطلب الكلمة من المجلس ووجه حديثه للزائر قائلا : " يا طُلُق Tollog ، أنت رايات الحرّة " بمعنى "مرحبا يا طُلُق ، يا سيد الحرّة " وفى المكان الذى عثرنا فيه على القطيع أثناء مسيرنا ، توقعنا لقائنا بعد فترة قصيرة مع أولئك الأعراب الطيبين ، وقضاء الليل معهم فى منزلهم .

واصلنا مسيرنا راكبين دوابنا فى الطريق الجبلى مارين بأنقاض بعض الجدران المبنية من الصخور ؛ هذه الجدران عبارة عن نباتات بسيطة ، ومسورات صغيرة ، مثل تلك المسورات الصغيرة التى يبنونها الرعاة حاليا ليضعوا فيها حملانهم الصغيرة ، (حماية لهم من ذئاب الليل) فى الجبال السورية ؛ ويجوار هذه المسورات الصغيرة توجد الزنازين الصغيرة التى يمكن اعتبارها نوع من القبور التى تنشأ فوق سطح الأرض . هناك أيضا زنازين ضيقة أخرى يجمعها أخود واحد ولها باب واحد أيضا ؛ - وقد شاهدت بعضا من هذه الزنازين التى أقامها الصيادون فى صحراء سيناء ؛ وقد قالوا لى إن تلك الزنازين ليست سوى فخاخا لاصطياد النمر leopard ،

كما يستخدمونها أيضا فى صيد الحيوانات البرية التى من أكلات اللحوم . - هناك نوع آخر من الزنازين الصغيرة ، التى هى عبارة عن أكوام مبنية دائرية الشكل ، وربما كانت جحورا ، على حد قول الناس عن تلك الزنازين : "هذه الزنازين عبارة عن إشارات ، وهى تحدد موقع الينابيع فى الأيام الخوالى ، ولكن يبدو أن المعرفة القديمة قد ضاعت . " وأنا عندما أسأل أى واحد من الببو المسافرين عن هذه الأشياء ، يجيبنى بكلام مطلق غير مؤكد ، بل إنه يؤثر ألا يفتح فمه ولو بكلمة واحدة ، فى ذلك الجو الحار الخانق . - أجببنى البعض قائلين : "هذه أشياء من العالم السابق ، ومن زمن قبل زمن المسلمين . قل لنا أنت يا خليل ! ألم بين أجدادك الكفار القدامى هذه الأشياء ؟" وقالت أصوات أخرى : "إنها من بقايا الهلالات Helalát (*) ."

وعندما عجزنا عن العثور على الموءاهيب ، بدأنا النزول من فوق الحرّة مستخدمين فى ذلك المسالك الجبلية البارلتية ؛ ثم وصلنا إلى بعض حُقَر الماء ، التى نزل الأعراب عن دوابهم عندها من أجل الارتواء والترزود بالماء ومن أجل جمالهم الصائمه أيضا ؛ ويبنون ذلك ، فإن تلك الإبل يمكن أن ترعى الكلأ والعشب ، بعد وقفة المساء ، بعد أن يطلق سراحها فى المرعى لمدة ساعة ، والمعروف أن إبل الكُفَل (القافلة) تصوم طوال الرحلة كلها ؛ ولكن تعرق تلك الإبل هو الذى يمنعها من الشرب . فى بعض الأحيان الأخرى نرى هذا الحيوان الضخم ، الذى يبدو وكأنه يحمل حملا آخرًا فوق حمله الكبير ، وهو يبكى ويتأوه ، إذا ما وقعت عليه بمحض الصدفة الخالصة نواة من نويات البلح ، على رأسه بطريق الخطأ من يد راكبه ؛ ولكن الجمل عندما يكون مقهورا أو مضطرا إلى تحمل مكروه كبير ، فهو يمشى إلى نهاية الرحلة فى جلد شديد . ومعروف أن الأعراب الذين يسافرون ضمن القوافل لا يحملون معهم غدرائا لسقيا الدواب أو الإبل ، ولذلك فهم يستعملون مشاعيبهم وكذلك أيديهم فى إحداث تجاويف فى تلك الأرض الساخنة ؛ ويفرشون تلك التجاويف بالجلود ويروحون يصبون الماء فوق هذه الجلود ، للدواب كى تشرب منه ، وهم يجلبون ذلك الماء (الراكد منذ فترة طويلة) باستخدام دلائهم ، من تلك الآبار الراكدة غير المتجددة . وهنا يقوم كل واحد باقتياد

(*) الهلالات : نسبة إلى بنى هلال . (المراجع)

دوايه وهو يقول : "ويهو ! ويهو ! ويهو ! تشجيعا لتلك الدواب على الذهاب للشرب من ذلك الماء ؛ وعندما تبدأ الإبل فى التدافع بأعناقها الطويلة ، يطلب منها الوقوف قائلا : وه - هو ! Wöh-hol وه - هو ! wöh-hol " .

فى بعض الأحيان كنا نمر على مكان يطلقون عليه اسم "دار الأعراب" ، أو إن شئت فقل: منطقة التخيم القديمة: منطقة التخيم هذه عادة ما تكون قاعا من القيعان، ويكون مستورا ومحما من الطقس ويعيدا عن أعين الأعداء ؛ والبدر الرحل يقيمون فى تلك المنطقة مدة يومين أو ثلاثة أيام كل عام ، أو بمعنى أصح فى الموسم المحدد لذلك . هذه الديار هى التى يجرى فيها نقل الأحجار البرية إلى الأجناب ، حيث يمكن إفساح مكان يستطيع البدوى أن ينصب فيه خيمته الصوفية ، كما يفسح مكانا آخر لترقد فيه الماشية : وهذه الأماكن باقية منذ أجيال طويلة مضت . وعندما بدأت الشمس فى الاتجاه نحو الغرب ، كنا قد وصلنا إلى جانب الحرة ، حيث توجد بعض خيام البدو الرُّحْل؛ هؤلاء الأعراب كانوا من الهروف H'roof ، الذين هم سلالة من البلى. وطلع علينا بعض الرجال عندما كنا نتجاوز هؤلاء الأعراب ، وراحوا ينادونا بصوت كرم مصطنع وهم يقولون : "أنزلوا يا قوم ! لدينا المريسى فى بيوتنا ، ولدينا أيضا اللبن والسمن " . وذهبت مع أحد المعارف إلى خيمة كانت منصوبة على ضفة صخرية عند جانب مجوف من جانبى مجرى السيل ، ونزلت عند أهل هذه الخيمة وقدمت لهم هدية من التتون (الدخان) . عثرت على ربة البيت الطيبة فى المنزل ، وكانت خصلة شعرها الأمامى تبدو كما لو كانت قرنا ، رصعته بحبات من الخرز - وهذه الطريقة الزينية مستعملة فى بعض مناطق الشمال الغربى . كانت ربة البيت جالسة ، وهى تخضض القرية المملوءة بالحليب فوق ركبتيه ، وطلبت منى أن أصبر عليها بعض الشيء ، إلى أن تنتهى من تخليص الزبد من اللبن ، ويعدها يمكن أن تصب لى شيئا أشربه من اللبن المتبقى بعد عملية الخض . كان كلبها البلى الضخم الذى يستعمل لحراسة الأغنام يتبعها دون نجاح (ومعروف أن هذه الكلاب تنبئ فى أغلب الأحيان إذا ما رأت شخصا غريبا) ؛ واقترب الكلب ليجلس بالقرب منا . عرفت بعد ذلك ، أن تلك المرأة الكريمة ، التى كانت أرملة وحيدة، وكان معها ولدها الذى لا يقل عنها أمانة وصدقا؛ هذه المرأة ، هى ولدها جاء لقضاء الصيف مع أعرابنا ونصبا خيمتهما بيننا فى وادى تربة Thirba .

ومن حافة الحرّة ، كنا نشاهد أمامنا حدود تهامة الوعرة بأرضها المنخفضة عن الحرّة تمتد أمامنا . ومع أول نزول لنا ، بدأت الصخور الرملية تطالعنا من جديد ؛ واسترعى انتباهي منطقة كانت تقف فيها وسادة من الصخر البركاني ، كانت تلك الوسادة متصلة كما لو كانت موجة مجوفة ، فوق جدار الوادي المكون من الحجر الرملي . وعلى القمة الصخرية التالية شاهدت شرحا حميريا منقوشاً بطريقة غير متقنة . ومع حلول الشفق ، وصلنا إلى مخيم من مخيمات البدو الرحل ، في السهل السفلى ؛ هؤلاء البدو كانوا فرعا من البليّ أو من فرع السحامة Sehamma على وجه الدقة ، وشيخا هؤلاء البدو هم الشيخ مهنا Mahanna هو وعمه فضيل Fodil : وكان قد تقرر أن يقوم مهنا في الغد بتولي قيادة قافلة الفجير إلى قرية الوجه . وتفرق أعرابنا وانتشروا ، بعضهم ينشد الراحة في بيوت معارفهم ، وبعض آخر ذهب لينام على الرمل ، نظرا لأن هؤلاء الفقراء المساكين كانوا يخلطون من اصطحاب الضيوف معهم إلى بيوتهم . أما أنا فقد نزلت مع شخص آخر في خيمة مهنا ، واضطجعت هناك وأنا أعانى الكثير . ولما شخصوا معاناتي على إنها نوع من الاضطراب أحضروا إلى شيئا من اللبن كي أشربه ، ونمت بعد ذلك كما لو كنت ميتا . كان الشيخ البلوي قد استدعاني في بداية الليل ، إلى خيمته لأجلس معه وأتناول الطعام ؛ رأيت جثة عنزة تتصاعد منها روائح الشواء أمامنا ، في حفرة واسعة ، وهذه إشارة إلى أن مهنا قد ذبح الذبيحة وجهزها إشارة إلى كرمه . وطلب مني في ود أن أقرب من الطعام وأمد يدي وأخذ من اللحم ، وهو يقول "إنه عمل مخلصا بوصية الشيخ مطلق ؛ كان مهنا سعيدا برؤيتي . " كان مهنا رجلا في منتصف العمر ، يتسم ببساطة تنم عن نبلة ؛ والدراسة العالمية المتعجلة وغير الدقيقة قد تفسر هذه البساطة على إنها نوع من أنواع انعدام اللياقة الذهنية ؛ كان مهنا في منزله يتجلى في تصرفاته المرح المشوب بالحزن . ولكنه كان قائدا شرسا في الميدان . تزايد ودنا وحبنا إلى أن دخلت علينا أشهر الخريف ، وهو الوقت الذي غادرت فيه ديار هؤلاء القوم . والسحامة the Sehamma هم جيران حلفاء الموءاهيب ؛ وهناك أفرع أخرى من البليّ ، غير الهروف H'roof هي الجوين el-Gúeyin والزبالة Zubbala ، العراضات Aradat ، والوبيسة Wábissa ،

والصرابطة Sarabata ، والجرايا Graya ، والحريرى Hareyry ، والجروطى Grauty ،
والسويملى Sweymly ، والفويحي Fueyhy ، والجمدان Jemdân . هؤلاء البدويون
حسب علم الأنساب أن البلى Billi هو اسم الجد الأكبر للقبيلة ، وأن أولاده من بعده
هم مخاليد M'khâlid وخازام Kh'zâm والأرض التى يتجول فيها البلى تمتد من هذه
المنطقة إلى البحر ، أى على امتداد مسير أربع رحلات . وفرع السحامة عبارة عن
أربعين أسرة : وقد أحصيت فى هذه المنطقة عشرين خيمة قاموا بنصبها .

مع طلوع نهار الغد شجعنى مهنا على ركوب الجمل ، نظرا لأن كفلنا كان على
وشك التحرك ؛ ولكنى رددت عليه بأنه يتحتم عليه أن يتركنى لحالى فأنا لا أقوى على
التحرك أكثر من ذلك . وأنا طوال هذه الأسابيع الأخيرة من الحرارة والجفاف لم أذق
شيئا سوى الماء ؛ كانت مسالة تنفسي رياح السموم فى تهامة تشكل لى عبئا ثقيلا ؛
وأنا يتعين على أن أتجاوز ، بشيء من القلق ، البقية الباقية من تلك الديرة ذات الأرض
الوعرة المنخفضة ، فى ضوء الشمس الحارق ، فوق ظهور جمل بطيء الخطى ، أكاد
أسقط من فوق سرجه ، أو ألفظ نفسى الأخير قبل أن يصل الكفل إلى نهاية الرحلة
ويدخل قرية الوجه. كنت أحسب أنى سوف ألتقى بأبى Abu سنون Sinûn فوق الحرة ،
نظرا لأن منزل المواهيب لم يكن بعيدا كثيرا عن هذا المكان ؛ ولربما قدر لى أن أنتفس
من جديد فوق الجبل ، وأجد عند أبى سنون قليلا من الطيب ، وهنا يمكننى أن أسترد
صحتى . (سألت الرجل الطيب وأنا حائر) كيف ! ينبغي عليه أن يتركنى طوال أيام
كثيرة وحدى مع النساء (الحريم) ؟ " وهنا رد عنى صوت ودى من أصوات الفجير
قائلا : " خليل . يعرف ، بالله ، كل الأعراف والتقاليد (الدين din) الخاصة بالأعراب ،
إنه واحد منا . " وبينما كان مهنا يجلب ذلوله كى يركب وينهض بالكفل المتحرك ،
وضعت فى راحة يده بضعة قروش ، وأنا أقول له إن هذا المبلغ لشراء قليل من التتون
(التبغ) ، يتعين عليه أن يحضره إلى عند قدميه ، وذلك من باب الخدمة التى يمكن أن
يقدمها بدوى لصديقه ، عند عودته من السوق . (قال الرجل البسيط) ولكن قل لى ما
مقدار هذه القطع الفضية ، أم يجب على استدعاء واحد من أولئك الذين يعرفون كيف

يعدون النقود ويحسبونها ؟ البدو لا يعرفون إلا الحساب بالريال ، أما العملات المعدنية الأقل من الريال فهي غير معروفة عندهم أو لهم . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو بعيدون عن الطريق وأيديهم غير ملوثة بصره الحج . ركب مهنا ذلوله وهو يحمل حريته ، ومضى رجال القافلة من الفكرة قدما غير مسلحين ؛ يضاف إلى ذلك أن المنطقة الواقعة خلف أرض السحامة ، كانت بكل من فيها من البلى معادية لأولئك العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) ؛ ولكن الجميع كانوا يثقون بسلوك مهنا . كان مهنا يحصل على أتعاب مقدارها ريال واحد عن كل جمل .

الفصل الرابع عشر

التجوال فوق الحرة مع المواهيب

منظر البراكين . بيوت الناصرة . قدامى تلك البلاد . الحكايا الخرافية . بنى هلال . سيل العرم . جبل الأبطال القدامى . قبورهم . والدة مهنا . الشيزم . يهود خيبر . عشائر البلى . الأمراض . المزينون . مجيء كُفُلنا من الوجه مرة ثانية . فرس الشيخ تموت عطشا . خطاب أهل منزل آخر مع النصراني . زوجة المهنا . البحث عن المواهيب فى الحرة . البلد البركانى العجيب . القبور الأثرية هناك ليست من قبور البدو الرحل المسلمين . تركب مغامرين بحثا عن الأعراب . مشوات . نزاع على الكرم . المواهيب وقبليو السباع من العنزة . تحالفات القبائل . فطور مُضَيَّف بدوى . الشكر بعد الطعام . طلّوج شيخ المواهيب . أسرة أبى سنون المغرى . بنجاحه فى حياة البدو . مخيم المواهيب فى الحرة . تلال الفوهات البركانية . مجئ شيخ من الحويطات طلبا للدية . كلامهم إعجابا بالنصارى . تل بركانى . وجه الحرة ؛ - البرد القارس فى الشتاء . ندرة الماء . أبو سنون يعود ثانية من رحلته . قادماً من بلاد الغرب . طلّوج يلتبس إلى النصراني الرحيل . ريات البيوت تتحدثن مع الغريب . فايز الراعى .

نصب السحامة خيامهم بالقرب من الجزء العلوى من جبل تهامة ؛ هذا الجزء العلوى من جبل تهامة يطلق عليه اسم جبل صليح Stéih ؛ وكانت تلك الخيام بالقرب أيضا من أم شاش Ummshash ، المصدر الرئيسى للماء فى منطقة السحامة هذه . - كان المنظر الذى نطل عليه من خيامنا ، يحتوى على ثلاثة جبال فوق الحرة ، ولكل جبل من هذه الجبال الثلاثة رأسان ؛ وبعد أن (تمعنت فى تلك الجبال تمعناً تاماً من خلال النظارة ، لم يراودنى أى شك فى أن تلك كانت تلالاً من صخور نارية من صخور

البراكين . أخبرني البدو أن تلك كانت أحجاراً محروقة ورمل أسود . وفي الجزء الرملى من ذلك المنّزل رأيت مسارات أرضية قديمة لها علاقة بالمبانى ، كما رأيت أيضا على التربة العالية المجاورة أكواما مبنية من الحجارة وبينها عقود ؛ والبدو يطلقون على هذه الأكوام اسم "رجوم" Rijjum ، ويصل ارتفاع كل واحد من تلك الرجوم إلى ما يتردد بين عشرة واثنى عشر قدما ؛ والغالبية العظمى من تلك الرجوم مكسرة من الداخل ، والناظر إليها يرى فى داخلها زنزاة صغيرة ضيقة ؛ وقد شاهدت ، بعد ذلك العديد من هذه الرجوم فى العويريض Aueyrid ؛ شاهدت تلك الرجوم فوق كل جزء مرتفع من الأرض . والبدو يقولون عن هذه الرجوم إنها "بيوت النصارى" ، أو الكفار القدامى الذين سكنوا هذه البلاد قبل أبائهم المسلمين . شاهدت أيضا فى سيناء رجوما شبيهة بتلك الرجوم أو تختلف عنها اختلافا طفيفا ؛ هذه الرجوم السيناوية يطلق على الرجم الواحد منها اسم "تاموس" Namūs وجمعه "تواميس" Nawamis ، وهو ما يفسره بدو الطور Tōwara تفسيراً خرافيا على أنّه "منازل النمل" ، قائلين إنه كانت توجد فى هذه المتاهة من الوديان الجافة المهجورة "قنوات جارية نحو الأسفل فى غابر الزمان ، كما كان فيها أيضا برك على شكل مستنقعات تحت مستوى سطح البحر ، كان يتوالد فيها البرغش أو إن شئت فقل ، الهاموش إلى حد أن القدماء (الذين يسميهم البدو أيضا النصارى) بنو أيضا تلك الأكواخ الحجرية التى كانوا يأتون إليها بعد حلول الليل ، ويشببون النيران التى كانت رائحتها النتنة تحميهم من الأمراض التى تنتج عن حشرة الهاموش" . الناس فى سوريا أيضا يتحدثون عن ذلك "الناموس" Namus ، وكذلك فى البلدان العربية بطريقة مفسدة إذ يقولون "تاجوس" Nagūs بدلا من "تاموس" Namūs ، وهم يخصصون كلمة "تاجوس" ويطلقونها على أى مكان من تلك الأماكن الأسرية الخاصة بغير المسلمين ، كما هو الحال بالنسبة للأماكن التى فى المدافن والجبانات المسيحية ، وكلمة "تاموس" أو "تاجوس" هذه ربما كانت كلمة إكليريكية تكونت فى اللغة الإغريقية Greek القديمة ، - أو إن شئت فقل : إنها كانت لسان حال الدين المسيحى . لقد عثرت على "تاموس" Namūs فى سيناء ، وذلك على الطريق القادم من السويس ، وذلك على بعد مسافة حوالى نصف رحلة من الدير اليونانى ، وقد اعتاد البدو ، وحتى يومنا هذا ، على دفن موتاهم فى ذلك الناموس . وأنا عندما وصلت إلى هناك فى

العام ١٨٧٤ ، وعندما رأيت مدخلا مقاما من الأحجار وحزم الحطب ، خطر ببالي تحريك بعض العصي لأتأمل العجوز أشار إلى بيده (إذ لم أكن قد تعلمت الكثير من اللغة العربية) بما يفيد أن الرجال يرقدون فى الداخل ، مستلقين على ظهورهم ومغمضين عيونهم ، مع الكلمة الأخيرة راح يتشمم الجو من حوله . لقد أحصيت فى واحد من وديان سيناء (هو وادى زليلى Zileily) حوالى ثلاثين ناموسا من النواميس الدائرية والبيضاوية ، وكلها كانت قريبة من بعضها البعض : وغالبية تلك النواميس كانت مدمرة ، وجافة البناء ، مثل مثيلاتها فى الجزيرة العربية. ورجوم العويرض Aueyrid بدائية ولكنها مبنية أيضا بواسطة البشر . - ألا تكون هذه الرجوم أكواما من التراب فوق القبور ، أو مقابر لشخصيات رئيسية من القرية القديمة، ومن البدو الرحل ؟

البدو هنا يسلمون أن النصارى جفيعهم كلهم من سلالة واحدة ، وأنهم استولوا على هذه البلدان الصحراوية ، إلى أن "طردهم منها أبائهم . " قالوا ، والله ، ألم تكن هذه هى قراكم المهذمة ، يا خليل ، التى تراها فى أماكن كثيرة ، بل وحتى فى هذا الجبل ؟ وأنت ، ألسنت واحدا مُرسَل من قبلهم للتجسس على هذه الأرض ؟ - وهل من المحتمل أن يكون الوثنيون يتطلعون إلى وراثة هذه الأرض . " قال آخرون : "إن بنى هلال هم الذين سيستولون على هذا البلد مرة ثانية ؛" وأضاف بعض آخر : "لقد وصلنا هذا الخير فعلا ، ولكن هل تحسب أو تظن أنهم سوف يفاجئوننا بالهجوم علينا ؟ أين تكون الينابيع القديمة ، التى لا نستطيع العثور عليها ؟ أليس بوسعك أن تفتينا فى ذلك ، من خلال كتبك ، عن الأماكن التى يمكن أن نعثر فيها على الينابيع والكنوز المخبأة ؟ وحياة ربنا ! سوف نكافؤك إذا ما أريتنا الماء . " - " (قال واحد منهم) انتبه ، سأقول لك شئ . - أليست هذه الأرض الخربة معروفة لنا جميعا ؟ وأنا أقول : عندما كنت فى سوريا ذات مرة ، جاعنى نصرانى ، بعد أن فهم أنى من هذا البلد ، - هذا النصرانى ، كان يمسك فى يده ، كتابا أيضا -! وقال : "خبرنى أيها البدوى ، ألا يوجد الموقع الفلانى - حدد اسم موقع بعينه -! فى ديرتكم ؟" أجبته ، نعم بالله ! هناك جدران لبعض القرى المدمرة - " لابد أن يكون هناك كنز كبير فى هذه المنطقة؛ حسن أجبنى ، [إنها تركيبة سمعت عنها حكايا مماثلة ، [أعرابكم يشربون فى أوانى من

النحاس الأحمر أو من الفضة؟ - "بالله ، بعض أوانينا مصنوعة من النحاس ، أو فى أطباق مزينة بالفضة ولكن القسم الأكبر منها مصنوع من الخشب . - "إذن فهذا الكنز موجود هناك ، وبناءً على ذلك ، قال النصرانى ، "هل تستطيع توصيلى إلى هناك ، وإذا ما وجدنا الثروات فسوف نتقاسمها سوياً؟ وَعَدْتُ الرجل بذلك من منظورى الدينى، وعندما جاء اليوم الذى ركب رجالنا فيه دوابهم عائدين إلى مَنْزلهم ، ذهبت أنا بنفسى لإحضار النصرانى . "قال : سوف أذهب معك ، وبالتالى سوف نغنى أنفسنا ، ولكن الخلاء (الصحراء) مخيف ، وكيف لى بالعودة ثانية إلى هنا ، عبر الصحراء الجرداء القاحلة ، حيث يوجد بيتى ؟" - "مثل هذا الكلام كان يتردد على مسامعى فى الجزيرة العربية ! ونظراً لبقائى فترة طويلة فى قرية الحجر ، فإن الأعراب من حولى كانوا ينظرون إلىَّ على أنى نصرانى ، من أولئك الذين يستطيعون "رؤية الغيب" . من ناحية ، وباحثاً عن الكنوز من الناحية الأخرى .

سألتنى بعضهم : "هل سبق لك زيارة تونس فى رحلاتك ، وهل بنى هلال فعلاً شعب عظيم فى تلك الديار ؟" وبنى هلال ، الذين يحكون عنهم ، هم جمع كبير من القبائل النجدية ، تجمع فى يوم من الأيام ، عندما عانت الأرض من سبع سنوات من الجفاف . وعندما ماتت مواشيهم ، هجر الأعراب الأماكن كلها وتجمعوا مع بعضهم البعض ، على شكل غفير كبير ، وراحوا يبحثون عن أرض باركها الله بالمطر والرياح . قام هؤلاء الأعراب فى البداية بالإتيان على ديار قرية بلقاء Belka : ثم نزلوا بعد ذلك إلى مصر ، حيث استقرت فيها بعض القبائل ، ولكن غالبية تلك القبائل تقدمت صوب الغرب ، ثم استولت على بعض المراعى فى بلاد البربر (*) Barbary : ويقول الموروث (التراث) إنهم استقروا بصفة أساسية فى مستنقعات تونس . وفى كل قبيلة ، فى كل واحة من الواحات التى ذهبت إليها فى الجزيرة العربية ، كان الناس البسطاء يسألونى ، باعتبارى عابر سبيل من أقصى الغرب ، "هل التقيت بنى هلال ؟" وإذا قلت : "لا بد أن يكونوا جيرانا لنا ، فقد كانوا يصدقون ذلك تماماً ؛ ولو كنت قد قلت لهم : أنا

(*) بلاد البربر : المقصود بها بلدان الشمال الإفريقى وهى فى حقيقة الأمر بلدان عربية إذ لا يشكل البربر سوى نسبة قليلة من سكانها . (المراجع)

واحد من بنى هلال" . لنظروا إلى نظرة تقدير وإكبار . بعض المغاربة ، الذين يغامرون بالسفر إلى الجزيرة العربية ، وبخاصة الرجال الطوال منهم ، قد يتباهون بأنفسهم بأنهم "آبناء بنى هلال" . وسيرة بنى هلال يجرى التغنى بها فى كل كفر من الكفور والخيام المصنوعة من الصوف الأسود ، فى تلك الصحراء الواسعة الشاسعة ، - هذه السيرة عبارة عن نص غير مكتوب (يحرك الشباب صغار السن) عن التفاخر بالكرم ، وبالشجاعة فى ميدان الوغى ، ولكن هذا النص أعجمى ، لأنه لا يخضع للمقاييس أو المعايير الدقيقة ، إضافة إلى أن هذا النص يخرج عن نطاق القدرة البشرية . هناك عدد كبير من بين كل عشرة من البدو ، لا يستطيعون ترديد هذه السيرة ، ولكن من بين كل مائة ينذر أن تجد طفلا لا تجرى على لسانه قافية من سيرة بنى هلال .

هذه السيرة التى تسرى مسرى الحياة فى كل أرجاء نجد التى فيها القبائل المترحلة ، ربما تكون قد انحدرت عن القبائل منذ زمن بعيد . - ولكن ماذا عن "سيل العرم" ؟ هو تل جبلى سجل من قبل المؤلفين المسلمين الأسطوريين . والبدو ليس لديهم موروث عن "انهيار سد" مأرب وعن - حادث صغير من هذا القبيل - ألا وهو الانتشار القديم للقبائل من مكان واحد فى الجزيرة العربية . ونجد من حيث المظهر ، ومن حيث الترجيح أيضا ، كانت أرضا للبدو منذ البداية . هذه كانت قصة غريبة على أذهان وأذان أولئك البدو ، شأنها شأن قصة برج بابل . وأنا عندما كنت فى حائل ، جرى جلب حكاية مماثلة من الرياض or-Riáth وفى إحدى المقاهى الكبيرة ، سمعنا خبرا عن فأر آخر كان قد أكل مؤخرا وفتح الماء على جانب من جانبى وادى حنيقة .

هذا الجيل البطل القديم ذاع صيته على أنه هو صاحب الآبار الصحراوية ، وكذلك الحفر الصحراوية المبطنة بمباني من الحجر ، كما أن هذا الجيل هو أيضا مبدع الأعمال الكبيرة الأخرى ، وكذلك البنايات الحجرية ، التى يمكن مشاهدتها هنا وهناك فى الديار الجرداء فى الشمال ، ونشاهدها أيضا فى الجنوب فى منطقة تهامة التى تقع بالقرب من مكة . هذه الأعمال كلها ، هى فى نظر الأعراب ، من أعمال العمالقة ، وأن هؤلاء العمالقة هم بنو هلال .

هناك مقابر ، أقيمت فى أماكن كثيرة ، من صحراء الجزيرة العربية الجرداء

القاحلة ، ويصل طول القبر إلى ما يزيد على عشرين قدم ؛ ويقال إن هذه المقابر هي من مقابر بنى هلال . وينفس الحال أو الشاكلة يستطيع الرائي أن يشاهد مقابر بعض الآباء المسيحيين ومقابر بعض أنبياء فلسطين ، التي هي الآن فى حوزة المسلمين وتحت سيطرتهم ؛ وهذه المقابر أيضا مبنية حسب طول معين ، حسب السن والمكانة ، إذ منها ما يصل طوله إلى ستين قدما ، والبعض الآخر يصل طوله إلى حوالى مائة قدم . وهذا هو قبر حواء (أليست هي التي تسمى بأُم البشر ؟) الذي يصل طوله إلى خطوات كثيرة فى مدينة جدة ؛ والضريح المبنى فوق سرّة بطن أُم البشر ، يصل ارتفاعه إلى أكثر من ارتفاع شجرة الأرز - هذا يعنى أن أطفالها عند المولد ، لابد وأن يكونوا أكبر من الفيلة . إذا كان ذلك هو حال المرأة الأولى ، فكيف كان حال أدم نفسه ؟ والبشر ينبغي أن لا يحملوا أكثر من قامة(*) واحدة من اللحم البشرى ، مخافة أن لا يستطيعوا حملها .

رددت على هؤلاء البدو ، "لن يغزوكم النصارى ، فهذه الأرض لم تكن فى وقت من الأوقات أرضا من أراضينا : وإلى جانب أراضيهم الخاصة بهم ، فهم لديهم أراضي أكبر فيما وراء البحار . لم تكتشف بعد ، ومليئة بنعم الله ؛ أرضى فيها الماء ، وخضراء مثل حديقة دمشق . الهواء فى تلك الأرضى براد (عليل) ، والحرارة فيها ليست شديدة . كما أنها ليست باردة أيضا ، وفى تلك الأرضى متسع لكم جميعا يا أصدقائى ، والنصارى سيستقبلوكم ويرحبون بكم فى تلك الأرضى . من الذى أرسلنى للتجسس على رملكم وأحجاركم ؟ وأنا طبقا لعقيديتى ، لن أوافق على زيارة هذا البلد بناء على طلب من أى إنسان . أنا سوأح Suwahh ، وأنا بصدق ، لو كنت متعلقا بأمور الدنيا ، لما تخلّيت عن حياة المدينة إلى حياة الجوع ، ولما جئت إلى حرارة الصحراء . " - "صدق ، الله ! (قالتها والدّة مهنا التي كانت واقفة تغزل إلى جوارنا) ، أرضهم أفضل من أرضنا ، وما هو ذلك الذى يبحثون عنه أو ينشدونه هنا حيث - يا إلهى - لا يوجد شيء سوى الظمأ eth- thümma والجوع Wa-ej-jüa " كانت أم ذلك الشيخ من شيوخ البدو جميلة فى سنّها وعمرها ، وشعرها الأشيب ، والذى لا شك فيه

(*) القامة : مقياس يعادل ستة أقدام . (المترجم)

أن هذه الأم كانت شديدة الشقرة مثل الكثيرات من نساء البلى. هؤلاء النساء كاشفات، مثل جيرانهن العنزيات Annezy : والكثيرات منهن يميل لون شعرهن إلى اللون البنى ؛ (يقال أيضا إن النساء نوات الشعر البنى ، موجودات أيضا بين بنى عطية) ولكن تحرقهن هنا شمس الجوع والعطش في هذه البلاد ، هذا يعنى أن تلك النساء هن دوما هزيلات وتعانين من شحوب اللون .

وفى ديرة السحامة ، التى فى الجزء الجبلى المرتفع من تهامة ، والذى يقع فى المنطقة المنخفضة المجاورة للعويرض مباشرة ، يوجد الكثير من مواقع الكفور (الهجر) والقرى المهذمة . والناس يحكون هنا أيضا عن واحدة من المعجزات الطبيعية ، أو إن شئت فقل : شئت فقل : عن كهف أو حمّام من ماء نهر الظلمات(*) Stygian ، أو إن شئت فقل : حمام Hammam المشزم es-Shizm الموجود عند رأس الجبل ، والذى يذهب إليه البدو الرحل ليغتسلوا فيه هم وإبلهم للفضائل الشفائية التى لماء هذا الحمام ، ولكن البدو الرحل يقولون : إن من يشرب من هذا الماء قد يموت . هذا الماء يميل لونه إلى الاخضرار وهو مر الطعم (وربما كان ذلك ناتج عن صدأ النحاس) ؛ - والناس هنا يقولون من باب الخرافات ، "إن الشزم Shizm لا ينساب فى هذا الماء فى شهر الحج ، إذ يتحول الماء إلى مكة فى تلك الفترة ."

كانت فى ذلك المنزل من منازل البلى Billi أسرتان أو ثلاث من أسر ولاد على ؛ هذه الأسر تخلفت، نظرا لأن قافلة نقل الأرز من بلدة الوجه، كانت تعج بالبشر سليطى الألسنة الذين يسيطر عليهم سوء القصد من ناحية، والمزاج الحاد من الناحية الأخرى، مما جعل البلى يتهايمسون ، من وراء ظهورهم ، ويقولون عنهم أنهم من يهود Yahūd خيبر Kheybar ! وهم يقولون الشيء نفسه (من باب إساءة القصد بالجيران) عن الفكاره ، باعتبارها من القبائل التى ورثت خيبر اليهودية ؛ معروف أن العنوز Annezy الجنوبيين ،- فيما عدا القحطان - هم أشد العرب البدو إتساما بالطابع اليهودى . كان هناك شاب طيب من العلايدة مع تلك الأسر ، وكان اسمه "ضيف الله" Thaifullah ؛

(*) حسبما ورد فى الأساطير . (المترجم)

هذا الشاب راح يسألنى ، من منطلق روح العرب غير المتحضرة ، التى تطمع فى الامتداح ، حتى مع قلة المنفعة ، راح يسألنى ببساطه وسذاجة : "كيف رأيت الأعراب ؟" وأجبت على سؤاله مشبهاً الأعراب بالطلح ، تلك الشجرة الجميلة الموجودة فى الخلاء (الصحراء) بأغصانها التى تحمل قلة قليلة من الأوراق دائمة الخضرة ، ولها أشواك حادة ولها زهور حلوة فى موسم التزهير ، وخشبها يأتى فى المرحلة الثانية بعد الأخشاب غير المفيدة . " (صاح الشاب) والله ، يا خليل ، لقد أصبت . ومعروف أن الكلمات التى من هذا القبيل تمسك عليهم أذانهم العاطلة .

بدو البلى هؤلاء ، هم أطف أنوع البدو فى الجزيرة العربية كلها . ونظر لأن هؤلاء البلى كانوا أحرارا وأصحاب قلوب مستطيرة ، فإن السواد الأعظم منهم كانوا رجالا لهم كلام واسع الحيلة ، ولكنهم سرعان ما تكون شفقتهم أكثر من كرمهم . كان هؤلاء الناس أيضا يربون إبلم بأعداد كبيرة ، وقد شاهدت عند غروب الشمس قطيعا صغيرا من تلك الإبل يقف أمام كل خيمة (بيت) من الخيام ، وتلك إشارة أو علامة مريحة أو مناسبة من العلامات التى توحى برغد العيش فى الصحراء . هؤلاء البدو ، كما قيل مؤخرا ، لا يعتمدون على الصرّة ، التى ليس فيها بركة ، ولكنهم من البدو البواسل ، الذين لا يعلقون آمالهم على أحد سوى أنفسهم . ومع ذلك فإن عشائر البلى القريبة من شاطئ البحر تتقاضى رسوما على طريق الحج المصرى ، إضافة إلى أن شيخ البلى الكبير ، حسبما قالوا لى ، له وضعه العام (باعتباره مستفيداً من الحكومة) فى القاهرة ، والجهينة ، جيران البلى ، هم مثلهم ، قبلون يتسمون بسلوكيات الشهامة . ومعروف أن جهينة قبيلة كبيرة مشهود لها بالنبل منذ زمن بعيد ، والجهينة يمتدحهم العربان بأنهم من أصحاب الكرم القديم ، والحويطات موجودون على مضارب البلى الشمالية ، - هؤلاء الحويطات هم أعداء ألداء ولصوص ماشية : والبلى ، بسبب الخوف من الحويطات ، يعيشون فى قلق واضطراب ، إضافة إلى أن الصحراء الشاسعة تصبح فى فوضى وارتباك فى حالة انعدام أو غياب سيطرة بن الرشيد وهيمنته . ففى كل يوم ، كان ولد مهنا يركب ذلوله (ناقتة) ويحمل رمحه فى يده ، ويتجه لاستطلاع الأرض أمام الماشية التى تذهب إليها للرعى : وبذلك كان يبقى فى ذلك المكان ، للقيام بالمراقبة المتقدمة إلى دخول المساء . - وإذا ما أعطاهم الشيخ

الصغير إشارة « يقوم الرعاية بتجميع ماشيتهم » ويقتادونها إلى المنزل وهى تجرى من أمامهم . سألته : "وماذا تفعل إذا ما التقيت لصا من لصوص الماشية ؟" وأجابنى بنظرة توحى بالغرسة والكبرياء : "سوف أخترقه بهذا الرمح ، ها !"

عرفت من خلال ممارستى الطبابة أن بدو تهامة لا يعانون فقط من أنواع كثيرة من رشح الأنف ورشح العين والرمد ولكنهم مصابون أيضا بأمراض أخرى معدية . وقد انتقل المرض إلى دماء هؤلاء البدو من شاطئ البحر فى السنوات الأخيرة . وأنا أرجو أن يصدقنى القارئ أن قلة قليلة من هؤلاء البدو هم الذين هربوا من الإصابة بتلك الأمراض المعدية *morbus gallicus* . ولهذا السبب فإن حلفاءهم ، من أعراب الداخل ، يخشون من الزواج من أفراد من قبائل تهامة من منطلق زعمهم أن لحم بدو تهامة هو لحم غير صحى فى واقع الأمر . "أنسباء العرب يقولون الشئ نفسه عن أمراض أخرى . وجهت إلى حداد بدوى السؤال التالى : "ألم يتزوج قريب له من صنّاع تيماء ؟" فأجابنى : "حسن ! لقد أخذنا فعلا من بناتهم ، وقد نتزوج منهم مرة ثانية ، ولكننا تحاشينا ذلك الزواج بسبب البرص الذى اكتشف فى دمهم . " هذا الوباء الفظيع أصاب الموءاهيب الذين بدعوا الآن تحاشى الدخول فى علاقات زواجية مع صنّاع تيماء . لم أعرف من بين الموءاهيب سوى واحد فقط منهم كان مبتليا بذلك المرض ، هذا الشخص كان امرأة عجوز مسكينة كانت مصابة بالسعال ، وكانت تقيم فى منزلنا ؛ كانت امرأة محبوسة الصوت ، كريهة الطلعة ، ومع ذلك كانوا يقولون عنها إنها أجمل الحريم قاطبة ! كانت الزوجة السحيمية التى زارت الخكيم سليمة شكلا ، ولكن طفلها الصغير كان يعانى . أو إن شئت فقل : مصابا بالبرص ، تزوج رجل من العلايدة منذ ست سنوات من امرأة قبلية من تلكم الحسناوات . ولكن المرض المعدى الكامن فى دمها داخل شرايينها ، انتقل إلى كل قواه الحيوية ؛ وقد أرانى ذلك المسكين على يديه قرح مريعة مفتوحة . هؤلاء البدو يطلقون على مرض البرص ، أو إن شئت فقل : الجذام ، اسم "حب hub الفرنجى" er-Fernjy كما يسمونه "البلوش el-bellush" أو "داء thá الملوك el-Melûk" ، أو قد يطلقون عليه من باب التهكم اسم "المبارك el-Mubâarak" . كل آمال هؤلاء البدو كانت تتمحور حول استعمال الرصاص الأحمر بشكل أو آخر من الأشكال العنيفة ؛ هذا الرصاص الأحمر كان البدو يجلبونه من الوجه . أعراض البرص

تظهر فى دم أهل الجزيرة العربية الذين لا يأكلون أو يتغذون بطريقة صحيحة . من هنا فإن العرب الذين يوصون بالزواج من عذراوات ، يشفعون كلامهم ، فى معظم الأحوال بالعبارة التالية: "ولحمها Wa - Lahm - ha زين Zain"، بمعنى أن "لحمها جيد وسليم".

رأيت بعينى كثيرا من المزينين فى معسكر السحامة ؛ كان ذلك ، فى ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم الذى سيجرى فيه تطهير (طهارة) الأطفال . عندما وصلت الخيمة الأولى كان الطفل قد جرى تحويله منذ لحظة إلى مسلم ؛ ولكن الجراحة كانت بدائية تماما إلى الحد الذى يجعلهم يستدعون هذا الجزار مرة ثانية . كان الطفل يولول حزينا على نفسه . وهو يقول : "ويلى ! Weyley" ، بمعنى "الويل لى" . وإلى جوار الطفل كانت ترقد نعجة ، هى ذبيحة الوليمة . بعد أن ذبحها صاحبها وراح الدم ينساب من حلقها ؛ ويقوم والد الطفل بعد ذلك بفصل رأس تلك النعجة عن جسدها . وصلت إلى خيمة مزين آخر ، فى هذه الخيمة كان الجراح واحداً من الصنائع . رأيت ذلك الجراح وهو يسن شفرتة ، فى حين كان هناك شخص يمسك بخروف استعدادا لذبحه . كان الأب يشجع ولده الصغير ، وحمله ليطوف به راكبا على ظهر الخروف الأضحية ؛ ثم أعاد الأب الطفل ثانية إلى المكان نفسه ، ثم يستل الوالد بعد ذلك سيفه القصير ، ويضربة خلفية يقطع الخروف . كما يقوم الأب أيضا بذبح عزة وتيس . ثم قاموا بعد ذلك ، بوضع الطفل جالسا على صينية معدنية كبيرة مقلوبة ، التى تستخدم فى أوقات أخرى للتعبير عن الكرم البدوى ، "إنها مائدة الرحمن فى الخلاء (الصحراء)" ، ويقوم البدو بفرش بعض من فשל الخيل من تحت تلك الصينية . هذا الحداد وقف بلا حراك وهو يسن موس ثليم ليضع له حداً قاطعا ، مستخدما فى ذلك عضلات ذراعه . ويسحب المزين القلعة خلال شقفة مثقوبة من الفخار ، ثم يربطها بخيط فى تلك الشقفة . قالت الأم : "انتبه يا أنت ، لا تجور فى عملية القطع" . كانت الأم تمسك طفلها بيد ، وتغمض عينيه باليد الأخرى ، وتشجعه بصوت الأم ووعودها له بالحليب الحلو والأشياء السميكة . وهنا يقوم الصانع بضربة خفيفة ، بقطع الجلد من منطقة العقدة ؛ ثم يقوم بعد ذلك بتعفير الجرح بشيء من الفحم النباتى ، ثم يناول الطفل الذى لم يشعر بشيء إلى والدته ؛ وتروح الأم تواسى طفلها وهو على صدرها ، وتطلب منه أن يكون سعيدا بذلك لأنه دخل بذلك دين الإسلام . كان يجرى توزيع الأرز المسلوق ولحم الضأن قبل

الظهر ، كما يجرى أيضا نقل جزء من ذلك الطعام إلى سائر أنحاء المخيم ، لتوزيعه على الأصدقاء الذين لم يكونوا حاضرين . شاهدت العذراوات والنساء المتزوجات حديثا ، وهن يغنين طوال الساعات السابقة لوصول المزيّنين .

فى الصباح مر أبو سنون على خيامنا ، عائدا من قرية الوجه مع الجمال المحملة بالأرز ، اتجه أبو سنون إلى ناسه وأهله فى الحرّة ؛ ولكنه وعدنى بأنه سوف يعود أو يرسل إلى رسولا خلال ثلاثة أيام . فى اليوم الثامن شاهدنا مهنا ، قادمة إلينا على ظهر ناقته ، قبل عودة القفّل (القافلة) ؛ وأفاد الببو أن الحرارة فى ذلك الوقت ، كانت لا تطاق فى قرية الوجه ، إذ كان الليل خاليا حتى من هواء التنفس ، كما أن أهل القرية لم يتمكنوا من النوم مطلقا . وصلت القافلة فى فترة العصر ، واستطاعوا إنهاء أمورهم كلها فى البلدة قبل دخول الليل ، ثم رحلوا بقلق الببو الرجل المعهود . قام رجال القافلة بإحضار الإبل التى اقتادوها معهم للبيع ، للسماسة والوسطاء العامين ، الذين راحوا ينادون على تلك الإبل فى كل أنحاء السوق ، مما أسفر عن بيع كل ما كان معهم خلال ساعة واحدة إلى أعلى الأسعار ، - المقدمة من باعة الأرز الهنذى ، ومن تجار الجمال الموجودين فى المكان . معروف أن تجار الجملة لا يدفعون الثمن نقدا للببو ، فيما عدا الكسور المالية الصغيرة . وهم يدفعون الثمن بجوالات من البضاعة التى يتجرون بها : هؤلاء التجار يشحنون الإبل على القوارب hoys العربية إلى مدينة السويس . وعلى سبيل المثال فإن جمل مطلق الممتاز ، لم يعد عليه إلا بما قيمته خمسة عشر ريالا من الأرز ، الذى يكفى احتياجاته طوال فصل الصيف ؛ والمؤكد أن مطلق لو كان فى منزله لما قرط فى ذلك الجمل بخمسة وعشرين ريالا من النقود البيضاء . وهذا جمل آخر من جمال الحمل عند زيد ؛ هذا الجمل تقدم فى العمر بعض الشيء ، ثمّنه فى الصحراء بعشرين ريالاً ، ولكنه هنا لا يقدر بأكثر مما قيمته عشرة ريالات من الأرز ، ويتعين على زيد أن يدفع حوالى النصف، من هذا المبلغ ، نظير عملية النقل. وغضب زيد غضبا شديدا لذلك الذى حدث له ، وأقسم يمينا مغلظا فى المجلس ، قال ، إنه لن يفعل ذلك مرة أخرى ، إلا إذا كان ذلك نابعا منه هو نفسه ؛ كما تشاور زيد أيضا مع الشيوخ لكى لا يرسلوا إبلا عن طريق أطراف ثالثة . والسبب فى ذلك ، أن الرجال الذين يعملون فى الكفّل ، هم قبليون يستأجرهم الناس للعمل فى النقل ،

وغالبا ما يكون ذلك النقل لحساب الشيوخ ولصلحتهم ؛ ولم يكن هناك شيخ يوافق على مرافقة هؤلاء المستأجرين فى أعمال مضيئة من هذا القبيل . هؤلاء الجمالاء كانوا يتقاضون رايالا ونصف الريال عن كل جوال يحمله أى جمل من الجمال : والجمل كان يحمل ثلاثة جوالات من الأرز الهندى ؛ أما الإبل العفية القوية فقد كان الواحد منها يحمل أربع جوالات . والرحلة فيما بين الروضة والبحر المالح ، تقدر بحوالى اثنى عشر رحلة صيفية ، فى الحرارة الخانقة ؛ ونصف هذه الرحلات يكون خلال جبال منحدره ، أو خلال أرض شديدة الوعورة ؛ والماشية تضطر إلى قطع هذه الرحلات دون أن تنوق طعم الأعشاب . وصاحب الجمل الذى يأتى وحده وليس معه جملة ، لا يحصل على أجر ، هذا فى البلاد العربية ، يضاف إلى ذلك ريال آخر عن السلوك السليم ؛ ومعروف أن الجمل الذى يعود من رحلة من هذا القبيل يفقد سمته الربيع ، كما ينخفض ثمن بيعه حوالى خمسة ريالات . والرجال يعودون بالجمال شبه محطمة ؛ وإذا ما ناقشت الأمر معهم ، تراهم يقولون أنهم هم الخاسرون ؛ هؤلاء الحمالون المساكين ، يستطيعون الحصول على شىء قليل من النقود بهذه الطريقة ، ودون أن تنقص أعداد قطيعهم .

نفقت فى هذا المنزل فرس مهنا العجوز ؛ كانت تلك الفرس قد ولدت مؤخرًا . ومعروف أن الفرس هى أعلى حيوان من بين مواشى الشيخ إلى نفسه . وعندما ولد مهر من هذا الصندوق العظمى ، ربط الناس ضرع الفرس (مثلما يفعلون مع إبل الحليب) ؛ ثم جرى بعد ذلك تقييد المهر فى خيمة الشيخ ، لكى يربونه على لبن الخض أو إن شئت فقل : اللبن الحامض ، ومعه الماء . وبينما كنت أستلقى مستقيظا ، كنت أرى الفرس وهى تجيء أثناء الليل وتتشمم قراب الماء فى الخيمة ، وكانت تقضم القش من سروج الجمال بسبب جوعها . سألت العرب ، لماذا لا ينهون آلامها المبرحة التى لا تنتهى بطلقة واحدة من سلاح نارى ؟ كنت أحسبهم قساة . ولكنهم كانوا يرون القسوة فى كلامى ، كما كانوا يعتبرونه كلاما شاذاً ؛ - والكلب وحده (هو بونا عن سائر الحيوانات الأخرى ، هو الذى يأكل الخبز الذى يأكله البشر) ليست له أية مواطنة فى الحياة البدوية . والإنسان يكره فى هذا الوحش المتطفل ، الذى له شبه إنسانى ، سخريه طابعه الشرير ؛ والبدوى يصب على هذا المخلوق الذى يقاسمه لقيماته ، كل جام غضبه ، وسوء سلوكه كما لو كان عدوا له ؛ ومع ذلك ، وفى بلدان الحدود ،

نجد المواطنين المتدينين ، يقسمون ، أنهم يلقون فى بعض الأحيان ، كسرا من الخبز
لكلاب الجيف فى أسواقهم (حاراتهم وشوارعهم) . - أما الكلاب التى كانت معنا ،
فقد كانت تقضى ساعات فى الصحراء ، وهى تنتظر الوقت الذى ترى فيه الفرس ترقد
لتفارق الحياة ، وعند ظهر اليوم الثالث سقطت الفرس على الأرض ولم تستطع الوقوف .
ومع طلوع النهار جاءت النسور والعقاب لتلتهم الجسد المتعفن ؛ هذه الطيور الجارحة
تحوم أيضا فوق المنازل البدوية فى الصحراء الواسعة ، التى تقع على بعد مسافات
قليلة من الداخل ؛ ولكن هذه الطيور الجارحة ترحل عن هذه المنازل قبل دخول فصل
الشتاء . وهذه الطيور عندما ترافق الأعراب ، تظل طائفة محبوبة طول الوقت ، فى
النهار ، وعلى ارتفاع منخفض فوق المنزل . والنسر Rakham له ريش خشن صلب ،
وأجنحته البيضاء أطرافها سوداء ، ومنقاره يميل لونه إلى الاصفرار ؛ ونظرا لأن هذه
الطيور من "نوات المناقير المعقوفة" ، فإن لحومها محرمة حسب الشريعة الإسلامية ،
ومع ذلك فالأعراب يطعمون أطفالهم هذه اللحوم "لطرد الديدان" ، كما يظن البدو أن
عظام تلك الطيور المجوفة تجعلهم يصنعون منها أفضل السيقان القصيرة التى
تستعمل فى غلايين التدخين . أما الطيور الداجنة القافزة ، بعد أن تنتهى من وليمتها ،
كانت تجلس على رفوف الصخور بالقرب من البدو ، دون أن تلقى بالا لأى تهديد
صوتى يأتيها من البشر . وإن هى إلا ساعات قلائل ، حتى نشم بأنوفنا رائحة المعركة ،
التي حجبها ظلام الليل عنا . معروف أن الروائح غير الطيبة مكروهة جداً من العرب ،
وعندما طلع النهار ، تمت مهننا بعبارات تفيد نفوق الفرس ؛ وطلب مهننا من زوجته فتح
الخيمة ، وسارع الناس إلى رفع الفرس النافقة .

تجولنا مسافة ثلاثة فراسخ فى اتجاه الشمال ، ثم نزلنا عن دوابنا ، لنرى عن
يميننا ومن فوقنا ، جبل الحرّة الضخم . هذه الصحراء رملية ومليئة بالصخور
والجروف العالية المكونة من الحجر الرملى ؛ وفى تلك الصحراء سمعت من جديد
الصوت الجميل الذى يصدر عن حبارى الصحراء ، كما رأيت أيضا صغار هذه
الحبارى تجرى مرحا أسفل قطع الأحجار . كما شاهدت وأنا راكبا دابتي بعض
صخور البازلت ، التى كانت تبرز من العروق النارية فى الأسفل ، والتى انفجرت ، فى
الماضى ، خلال هذه الأرضية الهشة المكونة من الحجر الرملى . كما شاهدت فى هذا

المسار نفسه ، وفوق قطعة من الأرض المرتفعة ، التي يقولون لها ذنبية Zenaiba ، بلغة القوم ، أكواما صغيرة من الحجر ، ويجانبها على الأرض غرفاً للدفن فى ذلك السهل .

وفى المساء وصلت جماعة أخرى من بدو البلى قادمة من منزل آخر ؛ وتعجبوا كثيرا من التقائهم نصرانيا بين خيام أهليهم . وتركزت على عيونهم بنظراتها المعادية التى تتم عن الحسد والغيرة. وتغنى أحدهم ببعض الأبيات (أو ربما تكون أغنية قديمة)، عن الروم Rum (الرومان ، البيزنطيين) أجداد أعدائهم الحدوديين . "هؤلاء الروم أو إن شئت فقل الرومان ، جنس ملئ بالسذاجة والعداوات ، ولا يثق به أحد . " هذه الجماعة حسبتنى واحداً من تلك الأمة الوثنية التى تضرع العدا للجميع ، والتى تأمرت بصورة مستمرة لهزيمة الإسلام ذلك الدين المنقذ . وبعد العشاء ، وبعد أن تقاسمنا اللحم مع بعضنا البعض ، وبعد أن سمعوا خبرا عنى ، أصبحوا لى مستشارين . كان البعض منهم يرغب فى أن أدخل فى معرفة الله . إضافة إلى أنى عندما أصبح مسلما ، يصبح من المحتمل أن أسكن وأعيش معهم إلى الأبد - "بعد ذلك ، سيقوم كل واحد منهم بإحضار عنزة أو نعجة ، ليجمعوا لى قطيعا صغيرا أستطيع العيش منه، وقالوا أيضا ، إن دخولى فى الإسلام يحتم عليهم أن يعطونى جملا على الفور ، كما سيعطونى أيضا عذراء لتكون لى زوجة . " كانوا ينظرون إلى الأمر وكأنه متناقض ، من منطلق وجود رجل منعزل عن الآخرين ، بينهم ، من ناحية ، وجرأتى على اتباع دين غير الدين الذى يتبعونه ؛ وهذا يعنى أن أعرب الخلا هؤلاء ، لا يخضعون إلا لإراداتهم الخاصة المتهورة . قالوا أيضا : "ولكن ألم نسمع نحن من أناس آخرين أن النصارى أناس مستقيمين ، وأن وثنياتهم تقوم على عقيدة جيدة . والمؤسف أن لا يكونوا مستنيرين ؟ كما قالوا أيضا : إن هذا الرجل إذا ما ارتد عن دينه سيكون واحداً من المسلمين الجيدين ؛ يضاف إلى ذلك أن الدم المسيحى أيضا كان أفضل من دمهم ، الأمر الذى سيجعل كل من يدخل منا فى الإسلام شريفا من الأشراف . "

كان مهنا رجلا طيبا ، كما أن زوجته التى من سلالة الشيوخ ، كانت امرأة طيبة هى الأخرى ، ولكن لقياهم لم تكن طيبة أو على ما يرام . هذه المرأة بدأ الشك يعصف بعقلها ويضايقها وهى حامل ، على إثر مشادة خفيفة جرت بينهما مؤخرا وتطرق لسان زوجها خلالها إلى النطق بيمين الطلاق ؛ ومع ذلك ، قالت هذه المرأة ، إن ذلك لا يعنى

أن تحمل هى على كتفها قرية ماء ، وتسير وحيدة حافية القدمين فوق الرمال الحارة ، قاصدة أهلها ، الذين هم شيوخ فى منزل آخر . كانت تلك المرأة "طيبة مع الضيوف" ؛ كانت تطحن لى حبوبى بكل سرور وعن طيب خاطر ، كما كانت تعطينى شيئاً من اللبن القليل الذى كانت تحصل عليه من جيرانها ؛ نظرا لأن المهر الوليد كان يأتى على كل اللبن الموجود فى بيتها . ذات يوم وبعد أن خبزت فطيرة من قمحى على نارها ، تناولت قليلا من اللبن ، وابتسمت ابتسامة ربة بيت تحس بالأسف والندم ، ثم طلبت منى النهوض لتناول الطعام ؛ ثم قالت بعد ذلك ، "أذهب وخذ قسطا من النوم ، وسوف يفيدك النوم كثيرا ، وأرح نفسك حتى لا تموت هنا فى أرض الجوع هذه" . كانت تلك المرأة تعاني من ألم فى أمعائها ، وهذا مرض شائع بين أهل الجزيرة العربية . أعطيتها شيئاً من مسحوق اللودانوم^(*) Laudanum ، راحت على إثره فى نوم عميق فى فترة الظهيرة ؛ وعندما استيقظت أخبرتنى أنها رأت أحلاما كثيرة ، وأنها أصبحت أحسن حالا عن ذى قبل ، ولكنها لن تستعمله بعد ذلك ، حفاظا على جنينها الذى لم يولد بعد . درست الأمر ، ثم قلت لمهنا ، سوف تلد لك زوجتك خلال أسابيع قليلة ولداً ليكون سلوى وراحة للأسرة .

انقضت أيام ، ولما لم تصلنى أخبارا عن أبى سنون ، اتفقت مع رجل عجوز كان قد أعطانى تيسا نظير شفاء عيني حفيده ، على أن يقوم بإرشادى فى الحرة أثناء محاولتى الوصول إلى الموءاهيب . صعدنا فى اتجاه الشمال الشرقى فوق سلسلة قديمة من الصخور البركانية ، الشبيهة بالفيضانات البركانية الشاسعة التى سبق أن رأيتها تنبعث من بركان فيزوف قبل سنوات قليلة . أدى الصخر المنصهر إلى طمس ذلك الوادى من وديان الجزيرة العربية المكونة من الصخر الرملى ، ليصل الوادى إلى ما نشاهده اليوم فى العويرض . وعندما أصبحنا فوق منطقة الصخور البركانية الرئيسية التى كانت تعلونا ، بدت لنا كما لو كانت فيلا هائل الحجم ؛ وهنا راحت جماعة من الغزلان المنزعجة تجرى أمامنا ؛ والغزال هنا قوى البنية ، ويشبه لونه لون البازلت ؛- والغزال يكون أبيض اللون فى السهول الرملية . صعدنا بعد طبقات

(*) اللودانوم : مسحوق الأفيون ويستعمل مسكنا للأمراض . (المترجم)

الصخور البركانية ، فوق رمل أسود اللون ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى تل كان فوهة بركان من البراكين ؛ وخلف ذلك التل شاهدت عالما بديعا جديدا من فوهات البراكين القديمة التلال التي يعلوها الصدا البركاني ، - مسحوق أسود ، شظايا بركانية حادة ، أحجاراً نارية ، كل هذه كانت مكونات التربة التي كانت جمالنا تسير فوقها . كانت المخلفات البركانية تنتشر من حولنا إلى حد أنني أحصيت منها حوالى ثلاثين مخلفاً من تلك المخلفات . وبعد ذلك شاهدت مرة أخرى على الأرض البازلتية المسطحة مجموعة من الجحور ، وبالقرب منها شاهدت مجموعة من أعلام المقابر . ثم انتقلنا إلى مكان آخر شاهدنا فيه مقبرة أخرى ، سألني عبّيد الله ، ذلك الرجل العجوز ، ولحيته متجهة صوب المقابر ، "ما هذا الذى رأيته ، وما رأيى فيه ؟" - "هل هذه مقبرة من مقابر أعرابكم ؟" - "لا ، إنها ليست مقابر من مقابر البدو ، التى نراها هنا ومن فوقها أحجار كبيرة . استعمال المقابر بهذا الشكل ليس من زماننا ؛ إنها من العالم السابق ؛ ألا تعرف شيئاً عن هذه القبور ! بالله ، يا خليل ! ألا يمكن أن تكون تلك القبور من زمن الناس الوثنيين القدامى ؟" - الطحالب لا تنمو فى هذه الأرض التى يصيبها الجفاف بفعل حرارة الشمس ، إضافة إلى أن التربة المحروقة تكون جرداء وبلا غطاء ؛ ويمرور الزمن ، وفى ضوء الملاحظة البشرية ، لا يكون هناك خلاء عنصرى معقول ، - قد يصعب من أول وهلة تمييز ذلك ، وبخاصة عندما يكون عمر هذه القبور عشر سنوات أو ألف عام . - "هذه القبور من عالم قبل الوثنيين ؛ أهل تلك الأزمان كانوا كفارا ، واليهود والنصارى كفار ؛ خليل نصرانى ؛ ولذلك هؤلاء الذين يرقدون هنا فى هذه القبور هم أسلاف خليل الذين ماتوا منذ قديم الأزل . " هذه هى الطريقة التى ينطق البدو بها كلامهم ، وهذه الطريقة تمثل أرضية قوية فى دين هؤلاء الناس ، وهم يقيمون تشددهم على هذه الأرضية المنطقية .

فى كثير من التجاويف المكسرة الموجودة فى الأرض البركانية الجرداء غير المستوية تنمو فيها أشجار قليلة من أشجار السنط وشجيرات نبات الوزال . هذه التجاويف الغائرة كانت مليئة بالجراد ، الذى شاهدناه متراكما مثل قطرات المطر فوق الأغصان الشوكية كلها ، التى هبت طائفة على شكل جحفل يضرب بأجنحته ، وقد حرك ذلك المنظر قلوب البدو المكومة . "قال : ها ! أليست عندك ، يا خليل ، تعويذة

لطرّد ذلك الجراد ؟ ابحث فى أوراقك أيها الرجل ، لأننى أرى أن الوقت الحالى هو وقت الكتابة ، وليس وقت الأشياء التى تسألنا عنها كل يوم ؛ أليس بوسعك ، أن تفعل شيئاً لطرّد هذا الجراد بعيداً عن ديرتنا ؟" أجبت ، "ولكن ما هو فى رأيك الذى فى كلام الله يمكن أن يبعد الجراد ؟ إن هذا الجراد هو "جيش الله" وأجابنى الرجل بتهيدة توحى بتدينه ، نظراً لأن كل واحد من الببو يتلقى كل قول باعتباره نوع من الحصن الدينى ، "هيه ! صحيح أن الجراد هو فى واقع الأمر يمكن النظر إليه باعتباره من جيوش الله . فى أحد الأماكن شاهدت الصخر الرملى وهو يبرز من خلال سطح الحرة المستوى ، على شكل موجة عارمة متسلقة من البازلت الذى يتخذ الشكل العمودى الذى يشبه الدعائم الخشبية الموجودة فى جانب من جانبي السفينة ؛ - هذه الأعمدة البازلتية المبردة عند القاعدة ومتحجرة نحو الأعلى ، فى حين كان ارتفاعها نحو الخارج ، وبذلك يصبح ذلك المعدن الكوكبى معلقاً مثل لؤلؤ فى عقد من العقود المغربية .

فى ضوء هذا بدأنا نفكر فى الأماكن التى يمكن أن نعثر فيها على المواهيب : قال عبيد الله : "إذا لم نعثر عليهم خلف هذه الصخور ، فقد لا نراهم طوال النهار هذا اليوم ،" وهذا يحتم علينا البحث عنهم فى مكان آخر . وهذا هو كل ما يمكن توقعه أو انتظاره فى مثل هذا الحال ، والسبب فى ذلك أن الببو ينتقلون من يوم إلى يوم ، كما يحلون وينزلون فى منازل جديدة. كان الوقت يصادف قبالة el-J(g)alia ذلك اليوم ؛ والقبالة هى حرارة ما قبل الظهيرة ؛ وكنا لم نأخذ معنا أى شىء من الماء ، كما لم يكن معنا ما يمكن أن نأكله : كان الهواء المشبع بحرارة الشمس ، يهفّف على ذلك الشاطئ المكون من الصخور البركانية . لم يكن نظر عبيد الله على ما يرام ، ولذلك أخبرنى بأنه يعتمد على نظرى أنا ويثق به ؛ وعندما أجبت بأن بصرى لم يكن طويل المدى ، بدت عليه الدهشة بعض الشيء ، إذ إنه لم يكن يتوقع حال من هذا القبيل . "يا خليل ، ما هم لصوص الحويطات ، قادمون علينا راكبين دوابهم ، فماذا يمكن أن يحدث إذا لم نراهم نحن ولم يراهم أصدقاؤنا أيضاً ؟ وأسفاه ! لو كنت قلت لى ونحن فى منزل أنك لست بعيد النظر ، لما جئنا إلى هنا . انا أكاد لا أبصر ، ولكن ماذا تفعل الآن ؟" - "لدى هذه النظارة التى ترى إلى مسافة بعيدة ، أخبرنى ما هو الجزء الذى يجب أن أوجه إليه نظارتى ، وسوف أحاول إمعان النظر قدر المستطاع . " واصلنا

مسيرنا راكبين ، وقال لى رفيقى : "يا خليل ! إنى أرى هناك شيئاً صغيراً أبيضاً يتلألاً ، انظر نحو الأمام . " - "حسن ! أنى أرى جملاً أبيضاً يأكل . " - "هؤلاء هم الأعراب ، هيا بنا ، نتجه ناحيتهم . " وبذلك استطعنا الوصول إلى الرعاة الموهَّاب ، ومعهم الماشية العظيمة؛ أضعفونا على أرض مرتفعة ، استطعنا منها رؤية مَنْزل أهلهم .

جامنا من تل فوهة البركان المجاورة رجل يجرى نحونا كما لو كان مارداً أو عملاقاً ؛ كان ذلك الرجل يحمل جانتة ganna (أى نبوته البدوى القصير) فى يده : صاح ذلك الرجل ، وهو يقترب منا ، وقد أحمر وجهه ، وغلظ صوته ، وكادت أنفاسه تنقطع ، قائلاً : "يا عبيد الله ! " لماذا أحضرت لنا هذا الكافر ؟ - ها ! السلام عليك ، ومرحباً بك . وبينما كنت أعجب للطريقة التى تعرفنى الناس بها فى هذه المنطقة ، واصل ذلك الرجل كلامه ، وراح يتصرف تصرفات هوجاء غير مسئولة ، ثم وضع يده على لجام ناقتى ، وهو يهز ذلك العكاز المमित وهو فى قبضة يده ، إلى حد أنى كنت أحسب أنه سيقوم بين لحظة وأخرى ، بضربى على أم رأسى بذلك النبوت . سألت عبيد الله هامسا ، ما الذى يتعين على عمله فى هذا الموقف ؟ وقال لى : "والله ، أنا لا أعرف ماذا تفعل ، يا خليل . " - "أقسم بالله ، أنى حسبتكما لصين (يصيح الماهوى) عندما نظرت نحوكما من التل الخلفى . وفاجأتكما على غرة . " - "عليكم السلام ! (قال عبيد الله ، وهو يضحك) بالله عليك ، يامشوات Mishwat ، هل حسبتنا حباليص ! أين أعرابك ؟ " - لقد رحل الناس اليوم ، هيا ، تعال ، يا عبيد الله ، فمَنْزلنا يقع فى القاع . هناك خلف هذه الأرض المرتفعة .

راح الرجل يمشى أمامنا ؛ - وبينما كان يمر على بعض الخيام البعيدة ، تقدم رجل إلى الأمام ، وقال شيئاً لعبيد الله ، الذى كان يركب فى المقدمة ، ثم أمسك بلجام دابته : وهنا استدار مشوات إلى الخلف ، ووضع يده فوق يد ذلك الرجل ، وسحب عليه سلاحه . وعندما حاولت قراءة نظراتهما العاجلة ، ولم أسمع ذلك الذى كانا يعنياه بتلك النظرات ، خطر ببالى أن واحداً منهم عارض رفيقى وطالبه بدين قديم ، وأنه سوف يربط ناقتة ، التى وجدها يقتاتونها بعيداً ، مع ناقة عبيد الله ؛ وعند جانب الخيمة جذب الناقة وبركها على ركبتيه . - كانت تلك مباراة فى كرم البدو الفقراء ! قال مشوات : إنه عثر علينا ، ورافقنا ، ومن ثم فنحن ضيوفه ؛ ولكن الرجل الآخر رد عليه

قائلا : "ينبغي أن لا نتعدى بيته !" قال عبيد الله : "نوخ ، يا خليل ، أى إنزل عن دابتك إذن ! وسوف نتناول الإفطار هنا ." هذا الرجل العجوز اللطيف ، الذى كان واحداً من الجيران كان أيضا صديقا لهذين الرجلين . دخل مشوات معنا أيضا : ومشوات هو ابن عم شيخ المواهيب ، وهو يجىء فى المرتبة الثانية بعد الشيخ فى مجالس القبيلة . كان الحكم معقوداً عليه ، باعتباره أكبر أهل البيت سنا ، وذلك أثناء غياب شيخ القبيلة ، وأمام أبناء الشيخ ؛ ومع ذلك ، عندما يموت الشيخ البدوى يخلفه ولده . كان مشوات رجلا صاحب قلب كبير ولكنه كان متشدداً ، ومتشككا ، وسانجا ، ولكن مزاجه كان يشبه مزاج الثيران ؛ كانت قوة مشوات تكمن فى عضلاته العنيدة وصدره العريض . ولكن قوته العقلية كانت قليلة ، إذ لم تكن قواه العقلية مستقرة تماما . كان مضيفنا الذى مارس علينا هذه القوة اللطيفة ، رجلا فقير الحال ، يتمتع بعقلية كريمة للغاية ؛ ويبدو الجبال الذين من هذا النوع فيهم شئ أصيل ، وذلك على حد قول جيرانهم البدو الرحل ، من الكرم القديم . كانت خيام ذلك المضيف عبارة عن ثلاث خيام ، التى نصبها دوننا عن سائر خيام المنزل منتحيا بها بعض الشئ اتجاه الغرب ، عند نهاية المخيم ، الأمر الذى يحتم على كل من يجىء إلى المخيم ، من ذلك الاتجاه ، المرور على تلك الخيام الثلاث . رحل الرجل عنا بعد ذلك مباشرة ، ومعه مقدار صغير من تمر الحصاد ، فى خير ؛ هذا يعنى أنهم سوف يخيمون مع ولاد على ، ويتلقطون الفضلات ويشترون تمرا من تلك الوديان المحسومة . ذهبت معهم زوجة من زوجات شيخ المواهيب . - هذه المجموعة الصغيرة من عنوز Annezy الجنوب ليس لها ميراث فى خير . وبينما كنا جالسين دخلت والدته : وتحية النساء قصيرة جداً إذ يقلن : "قوأك الله ! سلام ." جاءت ربة البيت المضيفة بقرية اللبن الحامض ، أو إن شئت فقل : لبن الخض ، ورجت تلك القرية وراحت تصب لنا منها لبنا ، إلى أن أتت على كل ما فى تلك القرية من لبن ؛ ثم رفعت بعد ذلك السلطانية المليئة بالمغذيات المنعشة ووضعتها بين أيدينا ، وهى تنطق بالكلمات اللطيفة الحانية قائلة : أشرب Ishrub وأوريك Waerwik بمعنى "أشرب وأروى ظمأك ؛" ومرت السلطانية على الحاضرين ، نظرا لأن وجبة الضيف لم تكن قد جهزت بعد .

هذه الجماعة الصغيرة النائية من المواهيب ، والمتبقية على الحدود فيما بين

العنوز Annezy والبلى ، معروفة من الطرفين ؛ والمواهيب من البلى من حيث التبنى ، ولكنهم من حيث السلالة النسبية فخذ من أفخاذ تلك القبيلة العنزبة الفرعية الموجودة في الشمال ، والتي يطلق عليها اسم السباع es-Sbāa ، أو إن شئت فقل : بدو منطقة الشمبل Shimbel الرحل (وقد سميت بذلك الاسم ، الذي هو معيار أو مقياس من معايير القمح يساوى اثني عشر مدراً Mids) ؛ وهذه القبيلة الفرعية تعيش في الجانب الشرقي من دمشق . والسباع منذ القدم هم أعراب ولاد الرماح ، الذين كانوا يعيشون في منطقة تحمل ذلك الاسم ، وتقع إلى الشمال من حرّة خيبر ، وأسفل القصيم ؛ وهذه هي المنطقة التي يتجول أو يترحل بدو الحطيم فيها في الوقت الراهن . وهناك مستعمرة أو إن شئت فقل : مستوطنة أخرى من مستوطنات المواهيب القدامى ، المزارعون الذين "يربون الأبقار" ، في منطقة الأحساء (التي تقع على بعد مسافة طويلة جداً من هنا ، في شرقي نجد) . هؤلاء المواهيب ، القليلون في الوقت الحالي ، مضى عليهم الآن أكثر من ثلاثة عشر جيلاً في العويرض ، ازداد عددهم ، بعد أن غزوا بني صخر وأغاروا عليهم وجربوهم من ممتلكاتهم . والعويرض كلها ، ملكا طبيعيا لهؤلاء المواهيب ، نظرا لأنهم كانوا أصحابها في يوم من الأيام ؛ وبالرغم من تناقص أعداد تلك الجماعة المواهيبية ، فهم يحتلون ذلك الجزء الجنوبي فقط . هناك أيضا بعض أسر المواهيب التي تعيش مع أقربائهم السباع في سوريا ، كما أن هناك بعضا منهم يعيشون في خيام مع بني صخر في منطقته بلقاء Belka . وديرة المواهيب في اتجاه الشرق ، في المنطقة أسفل الحرّة ، تسير محاذية لطريق الحج ، كما تمتد أيضا من الأخضر el-Akhdar إلى المدائن . Medain والمواهيب في اتجاه الغرب ينزلون إلى كل من جاور Jau ، وأم شاش Ummshash ، وإلى النشيفة Ensheyfa ، في بلاد السحامة ، لكي يرعوا أبقارهم ويسقونها من تلك الأماكن . والسحامة الأصدقاء ، يصعدون بنفس الطريقة إلى منطقة المواهيب الصيفية في الحرّة . أو قد يسكنون أو يقيمون بالقرب منهم في الوديان الغربية . من هنا ، إن أخفقت إحدى ديارهم حلت محلها ديرة أخرى تخدم كلا من السحامة والمواهيب . وهذا عرف من أعراف الجوار في الصحراء ، والذي تلجأ إليه القبائل في السنوات العجاف ، وفي أزمان الأخطار ؛ وهذا العرف هو الذي يسهل استقبال القبائل (كما شاهدنا مؤخرا بين بدو الفجير) بعضها البعض ،

اقتساما لخير الله . كرم الجزيرة العربية يقوم على قدر كبير من التسامح ، والتراحم الدينى ، ومع ذلك فإن الصداقة هى التى تحافظ على ذلك التوازن ، الذى هو ، من منظور دين الصحراء ، مثل المرأة ، التى يمكن مد طولها ثم تقصيرها بعد ذلك . ويصعب بعد ذلك وصل الأجزاء التى يجرى فصلها : هذا يعنى أن الصداقة والحب الطويلين ، قد يتباينان فى مرحلة لاحقة طبقا للمصالح ، التى تُقدَّم على كل شئ ، وطبقا للمرعى والماء أيضا . وعندما يحدث عراك ومشاجرات طوال اليوم بين رجال القبائل ، حول حفر الماء ، وحول أيام السقيا ، فإن ذلك يحتم أن تكون السياسة التى يتبعها الشيوخ قوية عندما يجلسون للبت فى خلافات الرعاة والسُّقاة . حدث فى العام الماضى نزاع كبير وخطير فى ديرة السُّحامة ، وقد دار ذلك النزاع بين المضيفين الأعراب الأصدقاء والسراحين^(*) Serahin ، أو إن شئت فقل : بنى سرحان ، الذين هم جماعة صغيرة من الموءاهيب ، الذين وقفت بقيتهم إلى جانب السحامة فى وجه أهلهم المعتدين . واحتكم الطرفان إلى السلاح ؛ ومعروف أن الموءاهيب أولى بأس فى القتال وفى الشجار ، وقتل سحامى ، فى ذلك الشجار ، بيدى سرحانى .

وعندما يعلم الناس بوصول أغراب إلى الديرة ، يشيع خبر وصولهم فى كل أنحاء المنزل على وجه السرعة ، ويتوافد معارف عبيد الله واحداً بعد الآخر على بيته ، لتحية أولئك الأغراب ، وسماع الأخبار . وعندما يهيم الناس بالوقوف ، ترى مضيفنا يطلب منهم ، فى ود ، البقاء معنا ، بمعنى . "ابقوا معنا وتناولوا الطعام معنا " . مضت فترة طويلة ، إلى أن ظهرت حمالة الحطب ، التى لا تقل أهمية عن بضائع وأوانى العائلات البدوية الأمينة المترحلة ؛ هذا يعنى أن حمالة الحطب تلك ، التى تشير إلى الكرم يراها الرائي مثل ترس يجرى تكتيفه مع الترس فوق الجمل الذى يحمل الأمتعة أثناء الرُّحلات . وضع أمامنا ذلك الطبق الضخم وعليه كومة كبيرة من الأرز المطبوخ ، وفى منتصف تلك الكومة كان هناك إناء ملئ بالسمن المنصهر اللذيذ ؛ كانوا يغمسون كل لقمة قبل أن ياكلوها فى ذلك السمن ، (كانت اللقمة عبارة عن نصف ملئ اليد يكومها الأكل

(*) السراحين : السكان الذين يسكنون وادى السرحان وهو منخفض يقع فى الجزء الشمالى الغربى من الحجاز ، (المراجع)

على شكل كرة ،) ويرفعها إلى فمه بخفة ودقة يترتب عليها ألا يسقط منها ولو حبة واحدة . ويقوم المضيف بتحية ضيوفه بطريقة لطيفة ومناسبة ، طالبا منهم الاقتراب من الطبق والتحوط حوله ، وهو يقول لهم " بالرغم من أن الطعام على قدر الحال ، إلا أنكم يجب أن تقدروا نعمة الله حق قدرها " . والأغلب الأعم أن لا يجلس المضيف إلى تناول الطعام مع الضيوف ، إذ أنه يسعد وهو يرى ضيوفه يأكلون ، وأنه واقف إلى جوارهم للقيام على أمر خدمتهم ؛ ولكنهم هنا يجلسون جميعا كما لو كانوا اخوانا . والعرب يقولون دائما قبل تناول الطعام أو عندما يشربون السوائل "بسم الله" . ويجرى تقديم الأرز وجلبه من قدر الطهى ؛ وبالرغم من أن العرب ، فى فصل الصيف ، يتركون الطعام فترة قبل تناوله (فى الواحات يضع العرب الطعام فى الشباك) ، إلا أنه كان ما يزال حارا إلى حد أننا بعد أن انتهينا من تناول الجزء العلوي من الطعام قد التهبنا أصابعنا : بعد ذلك ، يتوقف الأعراب عن الأكل ويسحبون أيديهم مدة لحظة ، يقوم خلالها واحد منهم بالتهوية على الطعام مستخدما فى ذلك حجر عباته . كان مشوات يجلس إلى جوارى ، وهو رجل كريم ومضيف فى داخله ، بالرغم من أن حاجبيه كانا يوحيان بخطورته . ركز على مشوات هذا عينية اللتان كانتا تشعان ودأ أثناء تناول العيش والملح : كان يدفعنى بكوعه وهو يقول موافقا : "كل ، سيفيدك الطعام ، كل بنفس الطريقة التى أكل أنا بها ؛ والطبق عندما يوضع أمام أحد من الرجال . يتعين عليه أن يأكل منه بنهم ، كل ووسع صدرك ، هنا بين البدو . " بدأ مشوات يدفع ساعده إلى الأمام ويصنع من الأرز كرات ، أو إن شئت فقل : لقيمات ، كان يضعها بالقرب منى ، كان مشوات بمثابة مضيفنا فى ذلك اليوم ، بل إنه كان صديقا لطيفا أثناء هذه الوجبة . هذا المشوات كان يذكرنى بالخير بالرغم من أنه كان خارج نطاق ذاكرتى ؛ كان مشوات قد سبق له أن مر على قلعتنا فى المدائن فى فصل الشتاء ، وكان قد طلب منى أن أملا له غليونه بالدخان ، وكنت قد ملأت له يده بالتون (التبغ) وكان يأمل فى وجود مخزون كبير لدى فى خرج الجمل ، من ذلك المخدر الذى يؤثر على المخ ، - هذا الدخان كان أحب شىء إلى نفس مشوات ، بعد حبه لولده الذى كان له عزاء تحت سماء هؤلاء البدو الرحل . كان محمد أبو سنون زوجاً لشقيقة مشوات .

عندما ينتهى أحد الأكلين من تناول الطعام يظل جالسا إلى جوار الطبق ، ماداً

بيده نحوه إلى أن ينتهى الآخرون من تناول الطعام ، ثم يردد الحاضرون عبارة "خلف الله عليك يا معزب" وهنا يرد عليهم المضيف قائلا : "هاني Hani " أو "صحة Sahah وعافية Auaf" . أو قد يقول الضيوف : "كثّر Kathir الله Ullah فضلكم Fathilakom" . ثم بلغنى بعد ذلك أن مضيفنا أنفق على الوجبة التى قدمها للضيوف كل ما تبقى له من طعام فى ذلك الموسم الجذب . ولم يتبق لأهل البيت بعد ذلك سوى الحليب والمرسى وهذان لا يكفیان . ومن طبيعة الأعراب أنهم يستطيعون البقاء فترة طويلة يعيشون على الكفاف ، إلى حد أننا أيقنا أنهم بوسعهم أن يصبروا على الجوع وعدم تناول الطعام . وعظمة البدو تتجلى بصورة مدهشة فى تضحيتهم من أجل الكرم وهذا نابع من دينهم؛ هؤلاء الناس فى تعاملاتهم الأخرى أرذال ونصابون ولا يحبون إلا أنفسهم كما يكرهون الغير ، أو إن شئت فقل البشر ، بطريقة توحى بالحق والحسد . وأبلغ شرف يصيبه أى واحد من هؤلاء الأعراب هو امتداح الآخرين لكرمه . والبدوى كلما زادت حساسيته وتعلقه تحرك صوب الكرم فى استقبال الضيوف ؛ والبدوى ، بحكم زوهه يتعلق بنوع من التقدير فى هذه الدنيا : هذا يعنى أن دين البدو الطبيعى يساعده أيضا فى هذا الصدد ، وبخاصة أن أيام مثل هذا البدوى لا تعدو أن تكون تجوالاً بين السماء والأرض ، فى ظل أخطار تتفاقم وتترايد من حوله . هذا البدوى يستقبل ضيوف الله استقبالا طيبا ، لأن الله هو (سبحانه وتعالى) مُضيف الجميع ، كما أنه (سبحانه وتعالى) هو صاحب واهب ومعطى الخير كله ؛ والبدوى عندما يفعل ذلك ، يكون متطلعا إلى البركة والعناية الإلهية . سمعت صورا كثيرة من صور الشكر والثناء ؛ وقد أخبرونى أن ترديد مثل هذه الصور أمر مطلوب ومحبوب فى بعض الأحيان ؛ من هذه الصور : "كثّر Kathir الله Ullah لبانكم Lebanakom" بمعنى "كثّر الله ألبانكم" ، أو "كثّر الله إبلكم" بمعنى "كثّر الله ماشيتكم" ؛ أو "كثّر الله غنمكم Ghrannamakom" بمعنى "كثّر الله قطعانكم" ، أو قد يقولون ، "كثّر الله عيالكم" بمعنى "أعطاكم الله الذرية الكثيرة" ؛ ومن بين هذه العبارات أيضا "كثّر الله كلابكم Kilabakom" بمعنى "كثّر الله الكلاب التى تحرس منازلكم" (إشارة إلى الدعاء للمضيف بأن يقلل الله من خسائره ومن الأخطار التى يمكن أن تحدث به)

عند هذه المرحلة فقط حضر أبو سنون لتحيتى ؛ وذهبت بصحبته لأضع حقائبي

وديعة فى بيته ، ثم تحركنا سويا لزيارة شيخ الموءاهيب طُلُج Tollog ، الذى سلمنى له عبيد الله ، تسليفاً ، وذلك بناء على طلبى ، على أنه وديعة من عند مُهنا . هذا الشيخ متسلق الجبال ، كان يبدو شباباً بالرغم من كبر سنه ، نظراً لأنه كان يكبر الجميع بعدد كبير من السنوات ، ولكنه لم يكن يبدو عليه كبر السن . وربما يكون ذلك الشيخ قد تزوج فى زمانهم من جدّات زوجاته الحاليات . كان الشيخ عندما وصلنا إليه ، عائداً من صلاة العصر ، واستقبلنى استقبالا ودياً ، وبعد أن انتهينا من شرب القهوة فى الخيمة ، قُدمت لنا وجبة أخرى من وجبات الأرز . وقد اكتشفت واحداً من فجبرى منزل الشيخ زيد ، ضمن الجماعة التى كانت فى بيت الشيخ طُلُج Tollog ، هذا الفجبرى جاء يرجو الشيخ أن يسمح له هو وأقاربه وأهله بالتجوال مع الموءاهيب ، (هذا الفجبرى كان قد سبق له إصابة بدوى بجرح وحكم عليه بالنفى) . ظللنا صامتين طوال حرارة النهار ، إلى أن بدأت تغرب الشمس ، ثم عدنا بعد ذلك إلى منزل المغربى .

منزل المغربى هذا ، كان عبارة عن خيمة شتوية طويلة ، وكانت عظيمة بشكل لم يسبق لى أن رأيته فى الجزيرة العربية ، وهو من نوعية بيوتنا ؛ كان يسكن فى ذلك البيت إضافه إلى أهل البيت ، أسرتان أخريان من أسر الأشقاء : كان الرجال الموجودون فى ذلك المنزل ، واحد منهم راعى لماشية ذلك المغربى ، والأخران من الأتباع الذين كانوا يرافقون ذلك المغربى فى رحلاته التجارية فيما بين بلدة تبوك Tabok والساحل . ولما كان ذلك المغربى ، غريباً ، ومن السبيكة الغربية الجافة ، فقد كان يبدو عليه التفتح وسعة الأفق والفهم ، وكذلك الحرص المدنى بين هؤلاء الأعراب من أهل الجزيرة العربية الذين لا يكثرثون بالأمور ولا يعملون عقولهم كثيراً . هناك طرق كثيرة يستطيع هؤلاء البدو ، من خلالها ، أن يحققوا مكاسب عن طريق المحاولة الأمينة ، ولكنهم لا يودون تحمل التعب أو العناء . هذا هو محمد الحُمّال الذى استطاع أن يحسن من حاله تماماً خلال فترة قصيرة :- ألا يمكن لمثل هذه الشخصيات القليلة ، التى تتناثر بين القبائل الجائلة ، أن تصبح بمثابة نظار المدارس فى الجزيرة العربية ؟ هؤلاء البدو الرحل يمضون كل يوم من أيام حياتهم وهم يتضورون جوعاً ، انتظارا لرحمة الله: هذا هو البؤس والشقاء البين لبعض العقول البشرية التى يكاد يغمى عليها بسبب الجوع الذى يمتد معها إلى عدة أجيال . ويسبب تبيسها وجفافها فى الصحراء .

هذا هو أبو سنون أصبح شيئاً من لاشيء ، وهو أفضل واحد بينهم فى الوقت الراهن : ولكن هذا الرواج السريع الذى تحقق بفضل جد أبى سنون يعتبره الأعراب إرهاباً وإفراطاً ؛ كانت حياة أبى سنون بين هؤلاء الأعراب هى حياة الغريب الأجنبى عنهم ويعيش فى منزلهم ، وكانوا يسخرون منه . جاء أبو سنون بلا لحية إلى هذه الديار ليكون مجرد نفر (فرد) فى حامية الأخضر el-Akhdar ؛ وبعد ذلك بعشر سنوات أو نحو ذلك ، كان يعانى من داء الريو ، وهاهو الآن قد تجاوز منتصف العمر . سألت محمداً ، كيف حصل على الثقة التى جعلته يعيش حياة البدو الرحل ، وسألت أيضاً عن المكان الذى تعلم فيه حرفة تربية القطعان والإبل ؟- ولكنه ، لم يرد على سؤالى على مسمع ومرأى من البدو .

يتعين على محمد أن يتجه صباح الغد إلى بلدة الأخضر ومعه شحنة الأرز التى كان قد جلبها مؤخراً من بلدة الوجه Wajh ، ثم ينقلها بعد ذلك من الأخضر إلى بلدة تبوك . هذا المغربى ، لم يستطع بسبب قصر نفسه ، نيل قسط من الراحة فى الخيمة البدوية المفتوحة ، ولذلك استلقى أيضاً بين قطعائه فى الخارج ، لينال قسطاً من النوم . وعندما حزم أشياءه عند الفجر ، رحل مع رفاقه ، وطلب من زوجته أن تتولى شئونى وتعتنى بى لحين عودته مرة ثانية . هذا المخيم الموءاهى ، المكون من ثلاثين بيتاً ، أقامه أصحابه على قسم من الأرض البركانية : لم يكن فى هذا المكان سوى بعض الأدغال المكونة من نبات الهزال التافه الحقيق ، الذى لا يصلح أن يكون مرعى للماشية ، ولكنه نما بين الأحجار البركانية الضخمة . وهذه أوتاد خيام ربات البيوت ، التى لم تتمكن ربات البيوت من تثبيتها فى الأرض الصخرية ، جرى تثبيتها فوق سطح الأرض عن طريق كتل من البازلت ثقيلة الوزن ، وفوق هذه الصخور كانت ربات البيوت يشدن حبال خيامهن شداً محكماً . وفى فلولق الصخور البركانية ، وفى زلطة الحرّة الحادة المحيطة بنا من كل جانب ، كانت تظهر سيقان بعض الأعشاب ، وبعض الشجيرات الصحراوية النادرة أو إن شئت فقل : القليلة جداً : هذا يعنى أن جحافل الجراد أتت على كل أعشاب الربيع ، الأمر الذى حتم جلب العشب المطلوب لمهرة الشيخ من مكان بعيد ، يبعد مسير يوم كامل ، ويقع السهل الرملى الموجود أسفل هذه الصخور

البركانية : هذه القبيلة الصغيرة التي كانت تقيم في الحرة لم يكن لديها قلوّة غير القلوّة التي لدى شيخ هذه القبيلة .

رحلنا وخيمنا بعد ذلك وسط عدد كبير من الصخور البركانية التي يقولون لها بلغة القوم "حليان" hillian، وكانت أكبر صخرة من هذه الصخور المحيطة بنا يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ٥٠٠ قدم ، فوق مستوى سهل الجبل ؛ كان هناك عدد آخر من هذه الصخور ، في كل ميل مربع تقريبا . من هذا المكان ، ولسافة مسير ثلاث ساعات في اتجاه الجنوب ، عبر أرض بركانية مفتوحة ، شاهدنا ذلك المخروط البركاني العظيم الذي يطلقون عليه اسم "عنان" Anâz ؛ وهذا المخروط به سلسلة طويلة من القمم البركانية ، مخروط "عنان" هذا الذي يعد أعظم المخاريط كلها يطلق عليه الأعراب اسم "شيخ Sheykh العويرض el-Aueyrid" ؛ والمخروط الثاني بعد عنان ، في الحرة ، هو جبل عشوب Usshub ، (وهو يطل على قرية الحجر ،) ، ومن ثم يطلق عليه الأعراب اسم "ابن" Ibn "عمه" Amm - hu . وقد أخبروني ، عن وجود موقع أثرى بالقرب من منزّلنا الجبلي المرتفع .

وبينما كنا نقيم في ذلك المنزل وصل إلينا (برفقة رفيق ماهوي) ثلاثة رجال من الحويطات ، أعداء المواهيب الذين يقيمون في تهامة . هذه الجماعة كانت عبارة عن شيخ يقال له "أبو" Abu "بطن" Bâtn ، ومعه بعض أتباعه . كان أبو بطن هذا يسعى لتسوية "المدة" midda ، "والمدة" هذه هي دفع الدية المقررة لشخص قتل : - فقد كان واحد من الحويطات قد قُتل بطلق نارى أثناء شجار دار مع المواهيب . وحياة العدو تقدر عند هؤلاء الأعراب بما قيمته خمسة رؤوس من الإبل . هذه المدة لا يجرى التنازل عنها بين القبائل المتعادية التي لا تعدو أن يكون أفرادها لصوصا يسرقون إبل بعضهم البعض : والنزاع الوحيد الذي لا يمكن أن يشتمل على الصفع هو الصراع المبني على سفك الدم ، كما هو الحال في الصراع أو النزاع القائم حاليا بين الفجير وبنى عطية ؛ هذه النار المشتعلة في داخلهم حيننا إلى قتل الغير مثلما كان الحال في الماضي ، يمكن أن تستمر معهم أجيالا طويلة ، وبالتالي فمن يقدر له أن يسقط في يدي العدو يتعرض لخطر القتل دون رحمة أو هوادة . هؤلاء الأعراب ، في ظل حياة المعاناة التي يحيونها (وبخاصة بعد أن فرغ كأس حياتهم ، ولم يعد يتبقى فيه سوى الحثالة)

والتي تزيد وتؤجج سفك الدم ، والتي تضعف القلب ، هؤلاء الأعراب يستشعرون غيرة جنونية تجاه أعدائهم ؛ - والتطرف والتشدد الساميين هما أيضا من هذا القبيل . هؤلاء الأعراب ، في أية عملية من العمليات الحربية ، يشبهون زنايير الجنس البشري ، الذين يميلون في دواخلهم إلى لسع العدو أو الخصم ، بالرغم من أنهم قد يخلفون شيئا من أمعائهم في هؤلاء الذين يلسعونهم : وعليه فمن المناسب لهم ، وهم يقومون بالغزو أن تدور بخلدهم ، فيما يتعلق بالمدة (الدية) فكرة دفع قيمة هذه الدية من ملكهم الخاص ، حتى عندما يتعين عليهم قتل عدو من أعدائهم . سألته : وماذا يحدث إذا لم يتم الوفاء ؟ أجابني : نحن لا يمكن أن نفعل ذلك ، نظرا لأنه يترتب عليه تهديد حياة الجميع طول الوقت وعلى مدى الأيام ؛ وهنا يتحتم على العدو أن يقتل وعلى الفور أي واحد منا عندما يلتقيه .

هؤلاء الغرياء ، كانوا على وشك النزول عند خيمة أبي سنون عندما أبصروها مفرودة واسعة . وربما لم تكن لديهم الثقة التي تجعلهم يسألون عن الشيخ في منزل أعدائهم . قامت حمدي (*) ، زوجة محمد ، بطبخ الأرز المطلوب للعزيمة ، ولكن طُلِّجَ Tollog دعاهم بعد ذلك إلى الذهاب إلى خيمته ؛ إذ يتعين أن يكونوا ضيوفا على الشيخ . هؤلاء الضيوف هم والشيخ كلهم كانوا رجالا أجلاء ، يتمتعون بتواضع الشيوخ واعتدالهم ، وكانوا يتكلمون بود وشفقة بقدر المستطاع ؛ كان هؤلاء لا يطلبون أي شيء سوى المنطق والعقل . ولكن أولئك كانوا لا يريدون تضليلهم أو تأخيرهم . كان أبو بطن ، ذلك الرجل المتقدم في السن ، وصاحب المظهر الضعيف (أبشع من رأيت في بلدة كيراك Kerak البدوية في موءاب) ، كان من المطالبين بالدم والثأر : - فقد سبق له التعامل مع رجال القبائل الذين قتلوا ولده . والمعروف أن الغزو لا يلتقى إلا بقلة قليلة من الرعاة . الذين لا يقوون على معارضته والتصدي له ؛ ولكن بعضا من الموءاهيب ، عندما اكتشفوا بعضا من الحويطات في ديارهم ، حملوا عليهم وراحوا يهاجمونهم وذلك من باب الدفاع عن مواشيهم ، ووصل بهم الأمر إلى حد فتح النار على جسد واحد منهم . وهنا تنهد والد ذلك الابن الشجاع ، لأن ذلك اليوم كان ينتظره

(*) حمدي : من المرجح أن يكون الاسم حمدي أو حمادي . (المراجع)

فى ذلك المدفن الضحل: "آه - ها ! ويل لى ! وينهى الرجل حديثه بتهيدة عميقة قائلا :
"نحن لا نسرق سوى المواشى ، ولكنكم تقتلون الرجال ؛" وتنهّد طلّج Tollog من بعد
الرجل ، لأنه كان أباً ، ثم لاذ الاثنان بالصمت .

عندما تحدثت مع هؤلاء متسائلا عن ديرتهم ، أجابوا على أسئلتى إجابات خالية
من دلائل أو إشارات الحقد البدوى البغيض على دين معاد . الأعراب بوسعهم الجلوس
فترة طويلة فى جلال مهيب ، ثم تراهم بعد ذلك يسرون عن أنفسهم بشيء من السخرية
الخرافية : وهنا قال شويش Shwoysh ، شقيق الزوجة المغربية ، قال وهو يجمع بين
المرح والمرارة ، وعلى مسمع ومرأى من أولئك القبليين الأقرباء ، قال وهو يتسم : نحن
قوم ، يا خليل ، مع الحويطات ، - وقد يكون من بينهم أناس طيبين من أمثال هؤلاء
الناس ، ولكن الباقين كلهم أشرار وأقذار ! - أعراب منهم ، نصبوا مخيمهم الصيفى
على نبع من ينابيع مياها فى تهامة ، - وقد أرسل الله عليهم القوضى والارتباك! أقول ،
أليس لديك من بين أدويتك شيء سام أو مهلك نضعه لهم فى الآبار ، حتى نسممهم ،
وسوف نكافؤك على ذلك . - "دينى يحثنى على التعامل مع الرجال جميعا كما لو كانوا
أشقاء ؛ إن فضتكم سواء أكانت فوق الأرض أو تحتها لا يمكن أن تحركنى فى هذا
الاتجاه أو تغرينى . " وهنا ابستم الحويطانيون ابتسامة تنم عن الدهشة وقالوا : "أنعم
بما قلت !" ورددت عليهم ، بآنى أطلع إلى زيارتهم فى وقت من الأوقات . " (قال أبو
بطن) إذا أنا وصلت إلى ديرتهم ، فذلك يحتم عليهم الترحيب بى . - بقى منزلنا
منصوبا إلى ما بعد رحيل الحويطانيين ، "مخافة أن يروا فى الرحلة المزيد من أراضى
الحرّة . " والبدوى المترحل عندما يمشى فى أرض غريبة عليه ، يتمعن تماما فى
العلامات الأرضية ، حتى يتسنى له تذكرها عندما يمر بها مرة أخرى : زد على ذلك أن
ركاب الدواب المتمرسين لديهم معرفة قليلة بهذا الجزء من البلاد ، أو إن شئت فقل :
الديرة بركانية التربة .

تمنيت لو صعدت عناز ذلك التل البركانى العظيم ، وألقى منه نظرة على ذلك
الجزء البركانى من البلاد : ولكن كلما وافق أحد على اصطحابى إلى هناك منعه الشيخ
من ذلك ؛ احتفظ الشيخ طلّج Tollog بذلك الامتياز لنفسه وأبنائه فقط. كان يدور بذهنه
أنى ربما أنفعه فى اكتشاف عيون الماء أو الكنوز ؛ وهو بصفته بدوى ، لم يخطر بباله

أى شىء آخر غير أن مجيئى إلى هنا إنما هو للإثراء ليس إلا، وأنه سوف يثرى معى. شيوخ الفجير ، أصحاب العقول المدنية الأكثر تحضرا ، فهموا ضباط الحج حق الفهم؛ أما هؤلاء الناس فهم أصحاب آراء متحجرة ، ومتسلقى جبال أشداء . بعد أن بحث طُلُج Tollog فى قلبه عن كل غريب سمعه من النصارى ، طلب منى أثناء جلوسنا حول وجار القهوة : "يا خليل ، بالله عليك ، أليس هناك وعاء للهواء - خبرنى عن مثل هذا الإناء ، وأعط بقية الجماعة فرصة للاستماع إلى ما تقول - يستطيع النصارى الطيران فيه ؟" - "هذا صحيح تماما ، يا طُلُج ؛ فقاعة كبيرة داخل جوال من الحرير ، أكبر من هذه الخيمة ، وبوسعه أن يطفو فى الهواء . " طُلُج Tollog : "قل لنا المزيد عن ذلك ! أليست هناك سفينة تصنع كى تسير تحت سطح الماء ، ويدخلها كل أعرابها ، والتي تستطيع الارتفاع فوق سطح الماء مرة ثانية ؟" - " (سألته) من أين جاء بما قال ؟" - "من ولد من أبناء عمه (هو واحد من السبيعات Sbaite) فى سوريا ، الذى تزوج من امرأة غربية ، ثرية جداً ، من بلاد فيما وراء البحار ، أو أنه لا يعرف من أين جاءت ."

انتقلنا إلى مكان آخر مرة ثانية ، ويعد أن نصبنا خيامنا ، نظرت حولى من فوق الأرض المرتفعة ، وأحصيت حوالى أربعين قمة من قمم تلال البراكين داخل أفق المنطقة التى كنا فيها ؛ وخرجت بعد ذلك لزيارة أقرب تلك القمم إلينا . ومسألة السير لمدة ميل واحد ، أمر صعب ومرهق ، وبخاصة فوق الصخور البركانية الحادة ومنايم أو إن شئت فقل : أحواض الصخور والأحجار البركانية شديدة الوعورة . وهنا سارعت إلى القيام بتلك الزيارة قبل أن ينادى على أى أحد من الأصدقاء الوبودين ويمنعونى من ذلك ؛ وعليه وصلت إلى مخروط وقمة تل بركانى هما الأصغر من نوعهما فى هذه المنطقة ، إذ يصل ارتفاعهما إلى حوالى ٣٠٠ قدم ، وهما من المواد البركانية التى تقذفها البراكين ، وصخورهما من الصخور النارية الصدئة الخفيفة ، ولها كثير من الحواف الحادة . جانب هذا التل أثرت عليه الأمطار منذ عصور وأجال طويلة . تسلفت قمة هذا التل ثم دخلت الفتحة البركانية الموجودة أعلاه . داخل هذه الفتحة شاهدت جدران حادة من الحمم البركانية المتجمدة ، كما وجدت القسم البعيد من تلك الفتحة مهشما - وقد حدث ذلك التكسير قبل اندلاع الحمم البركانية - كما وجدت أيضا أن ذلك القسم كانت تغطيه قشره من الصخور النارية الناتجة عن ثورة البركان والطفح

الذى نزل على الجانبين نتيجة لذلك ، كما عثرت أيضا على صخرة جرانيتية حمراء اللون ، هوت من رأس واحد من تلك التلال البركانية ، إلى عمق الجبل . هؤلاء البدو الرحل يطلقون على الحجر الجرانيتي الأحمر ، اسم "حجر" hajr "الكر" el-kra ، وهذا الحجر ، يوجد فى بعض الصخور ، على عمق ليس بكبير ، وهم يقولون إنهم يشاهدون هذا الجرانيت الأحمر بالقرب من عناز Anâz ! كما يقولون أيضا : إن الجرانيت الأحمر موجود أيضا تحت جبال العويرض . توجد أيضا بعض البقايا الأثرية فى قرية جاو Jau ، وهذه البقايا الأثرية بنيت من كتل كبيرة من المادة نفسها ، أو إن شئت فقل من الحجر نفسه ؛ وفهمت من البدو أن ذلك الصخر ، أى الجرانيت الأحمر ، إنه يشكل الصخر المكونة منه الطبقة السفلى من ديرة الشفا Shéfa ، كما أن الجرانيت الأحمر يتمثل أيضا فى العلامات الأرضية البارزة القوية التى تظهر عند الأفق الشمالى الغربى ، أى فى جبال تهامة ، أو بالتحديد فى كل من الوتيد Wuttid وجولة Jowla . والبدو يصنعون من أحجار الجرانيت فى قرية الحجر أفضل أنواع أحجار الرعى التى يستعملونها فى طحن الحب : هؤلاء البدو ليست لديهم العدد اللازمة لذلك ، ولكنهم عندما يكونون بحاجة إلى كتلة من الجرانيت فإنهم يترقون عليها ، بلا انقطاع ، مستعملين فى ذلك صخرة صلبة أخرى ، إلى أن يطوعوها إلى الشكل الذى يريدونه ؛ وهم يحدثون ثقباً فى الصخرة التى من هذا القبيل ، عن طريق الطرق على رأس مسمار . وقد عثرت على حفرة طبيعية تحت قمة التل البركانى ويميل لونها إلى الاصفرار . وقد نتجت تلك الحفرة عن خليج بركانى حدث فى الزمن البعيد جداً ، كما عثرت فى الأحجار المحيطة بتلك الحفرة ، على كثير من البللورات الشائعة التى يميل لونها إلى الاخضرار .

نحن نطل من أى مكان هنا على الحرّة ، على أرض جرداء تقلب عليها مكونات الحديد ؛ هذه مادة بركانية شديدة السواد وخالية من الحياة -! هذه عبارة عن وجه كالح متجمد من وجوه الطبيعة التى لا تعرف الابتسامة إلى أيدى الأبدى ، أرض جرداء قاحلة مكونة من مادة تثير فى نفس من يراها لواعج الاحتراق والرعب . ما هى حياة العزلة التى لا يمكن أن تستشعر التحفظ وهى تتجاوز هذا المكان أو تتعداه ؛ السماء أيضا جرداء ، التربة عبارة عن مقاساة شديدة ؛ أين يبحث عن الراحة والسلوى ،

ذلك الذى تحدّثه نفسه بالمجئ إلى هذا المكان ؟ - الإنسان فى مثل هذا المكان يصاب وعيه بالاندھاش عندما يدرك وجوده المسكين فى هذا المكان، كما يحس أيضا بالاندھاش دنيوى ، فى وجود قامة مقدسة أو سماوية من ذلك العالم المكون من العناصر ! هذه القوى الكوزمولوجية(*) الرابضة مثل الأسود عند نومها ، تبتلع داخلها برغشة الروح ، - تلك الحركة القصيرة والاغتصاب المتطفل الذى يشكل الحادث الضعيف فى المادة . شاهدت عنان ، كما لو كان راكبا عاصفة صخرية ، على بعد اثنى عشر ميلا ؛ - وقد أصابنى اليأس من مسألة الذھاب إلى هناك ، قاطعا المسافة كلها وسط الكثير من المنخفضات البركانية والشعاب الصخرية ، وكثير من الصخور البازلتية المتحدرة .

ومع تنقلنا مرة ثانية خلال الحرّة ، خطر ببالى أنتنى لا أصدق أنتنى أتجول فى ديرة فظيعة من هذا القبيل ! المنظر من هنا يبدو (كما لو أن آلاف الثنيات) التى ترهق العين التى تنتظر من أسفل بركان فيزوف فى اتجاه الجنوب الشرقى ؛ ذلك الاتجاه الذى يصعب على الأوروبي السير فيه بقلب مكلوم يترتب عليه إرباك قدميه ؛ - ولكن تجوال البدو ، فى الجزيرة العربية ، جلب عليهم اللبن والسمن لينتفعوا بهما فى حياتهم فقيرة الحال . والأعراب عندما ينزلون فى مكان وعر ، مثل قاع برى على سبيل المثال ، فإنهم يقيمون فى ذلك المكان مدة ليلتين أو ثلاث ليال من ليالى الصحراء ، بنهارين أو ثلاثة نهارات أيضا ، وهنا تصبح شقوق البازلت الضخمة ، هى والقلعة القليلة من الأشجار الشوكية ، وكذلك أدغال نبات الوزال الهزيلة ، كل ذلك يتلاشى أمام عيون معارفنا الذين درجوا على رؤية هذه الأشياء ، ولكنها بالنسبة لنا تحظى بكثير من الحب الإنسانى ، إلى الحد الذى يصعب معه علينا تركها أو عدم العزوف عنها ؛ - وبالتالي فإن الماهوى الذى يولد فى هذه البيئة يكون بينه وبين الحرّة شكل من أشكال علاقة الحب والإعزاز . هؤلاء المواهيب ، بمنطقهم البسيط يفترضون أن جزءا كبيرا من العالم على هذه الشاكلة ، أى أنه عبارة عن صخور بركانية : وأطفال المواهيب هم ونسائهم طرحوا على السؤال التالى : "هل ديرتك ، يا خليل ، حرّة أم سهول رملية ؟"

(*) الكوزمولوجيا : فرع من فروع الميتافيزيقيا يعتبر العالم كله منتظما . (المترجم)

لا يوجد أى شكل من أشكال الحياة فى هذا المكان غير الأعراب هم وماشييتهم .
فى هذا المكان نقى الهواء والمرتفع لا يعيش الذباب ، الذى يوجد على شكل أسراب فى
ديار الأعراب الجرداء القاحلة . لا يوجد فى هذا المكان سوى طائر وحيد أسود صغير
، ضامر الشكل ، هذا الطائر الصغير حجمه أصغر من طائر الدُّج ، وفيه بعض الريش
الأبيض ؛ والبند هنا يطلقون على ذلك الطائر اسم السويدية Sweydia ، التى تعيش
بالقرب من الجنس البشرى شأنها فى ذلك شأن الطائر الذى يقولون له "صاحب
الصدر الأحمر" . وفى كثير من الأحيان يسمع المترحّل بين هذه الصخور ، صوت
السويدية وهو ينبعث فجأة وعلى دفعات قصيرة مدويا فوق المروج الجرداء ، فى الطرق
والمسارات الصحراوية ، بين خرائب الجبال التيتانية Titanic والخوف ، ولهذا الصوت
عذوبة كما لو كان قادما إلى روح من يسمعه ، من روح حانية عطوفة . ولا يوجد من
الوحوش البرية فى هذا المكان سوى الذباب التى تعوى بين منازلنا الجبلية : هذه
الذباب توجد بأعداد كبيرة فوق الحرّة ، وهى فى هذا المكان أجراً وأشرس من ذباب
الديار السهلية . واللّيل هادئ وسماؤه صافية ، فى الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان
الجو منعشا عند مثل هذا الارتفاع وبخاصة فى الأسابيع الأولى من شهر يونيو ؛ زد
على ذلك أن نهارات الصيف هنا تكون عامرة بالهواء أيضا . وذات يوم فى الصباح
وجدت أن درجة الحرارة كانت ٧٩ فهرنهايت عند شروق الشمس ، كما سجلت درجة
الحرارة فى جيلة Jalla 90 فهرنهايت ، وعند منتصف النهار كانت درجة الحرارة ٩٥
فهرنيتية فى ظل الخيمة. هذه الأرض المرتفعة تكون قارسة البرودة فى فصل الشتاء ؛
هذا يعنى أن البند الرُّحْل لا يقوون على مقاومة لفحات البرد القارس : الأهم من ذلك
أن الحيوانات البرية نفسها تهجر الحرّة فى ذلك الموسم . زد على ذلك ، أن المواهيب
يعوبون إلى تهامة فى ذلك الوقت من العام ، ويحتمون بقاع وادى جرّل Jizl؛ الذى
يعثرون فيه على الكثير من حطب الطرفاء (*) الجاف ، الذى يظل مشتتلا طول الليل
داخل خيامهم المغلقة والمصنوعة من صوف الغنم : فى الوقت الذى لا يضع البند فيه
على أجسادهم سوى قميص فضفاض من القطن ، ومن فوقه عباءة (بشت) واسعة ،

(*) يطلق البند عليه اسم "الطرفه" . (المترجم)

كما أن الغالبية العظمى من هؤلاء البدو تنام بدون لحف أو بطانيات ، ومع ذلك فهم يقولون : نحن لا نعانى سوى القليل من البرد ، هذا إن لم نعانى منه على الإطلاق . والبدو أثناء نهار الشتاء يسلون أنفسهم برشف القهوة أو الحليب بعد تسخينه ؛ وشمس الظهيرة في الشتاء تكون دافئة دوماً في هذه الحرّة .

الماء الذى كتب لنا أن نشربه في ديرة الصخور البركانية ، كان من إحدى البرك وكان لونه أسود ، وغلظ القوام وكريه الرائحة أيضاً . هذه البركة تصل إلى الحثالة بعد أن تشرب الإبل منها مرتين أو ثلاث مرات ، وسرعان ما يتحول لون هذا الماء إلى اللون الأبيض الذى يغلب على لون الكتان ؛ ومع ذلك فإن البدو يملئون قرايبهم من ذلك الماء ويشكرون الله :- إذ لا يوجد ماء آخر غير هذا الماء . ولكن الأسوأ من هذا أن البعض منهم ينزلون إلى ذلك الماء ليغتسلوا فيه ، إذا لم يجدوا إلى جوارهم واحداً من الشيوخ الذين يمنعونهم من ذلك ، والأدهى من ذلك أنهم يخلعون ثيابهم ويغسلونها في ذلك الماء :- والبدو دائماً ، إذا ما توفر لهم الماء ، فإنهم يستحمون منه وذلك بحكم تعاليم الدين عندهم ؛ وفي المنازل يحمل البدوي سطلا من الماء ويخرج من الخيمة ، ليظهر نفسه في مكان مستور في الصحراء . ويحتمل أن البدو الرجل يقومون بتنظيف البرك (التى يتعين عليهم أن يتركوا فيها نصف ماءها ،) من الرواسب التى تسببت فيها الأجيال السابقة ؛ صحيح أن البدو لديهم سرعة البديهة ، ولكنهم يفتقرون إلى فضيلة العمل الجماعى ؛ زد على ذلك ، أن سلطة الشيخ ، لا يمكن أن تعمل على تقييد حرية أفراد القبيلة . قد يوجد بين الحين والآخر ، بين البدو ، بعض الأرواح (الأفراد) المحرّضة ، على التمييز بين حرية الإرادة والمصلحة الخاصة ، وبالتالي يقوم البدو بتنظيف بعض الآبار التى يكونون قد توقفوا عن تنظيفها وتطهيرها .

عندئذ عاد أبو سنون مرة ثانية قادماً من الخضر el-Khuthr وتبوك Tebuk وكان بصحبته بعض من رجال تبوك ، وهم أيضاً جملة من بنى عطية . استراح معنا أبو سنون يوماً واحداً ، وفي الصباح يمموا مسيرهم نازلين في اتجاه قرية الوجه . وهنا (قال أبو سنون) يا خليل ، إنها لمصادفة غريبة أن تلقانى هنا ، وأن ألقاك أنا في هذه الأرض الجرداء الخراب . أنا مغربى ، وأنت إنجليزى ! - أه ! أين منى جبال مرأكش البراد ، وأين منى تلك المياه الجارية في الوديان ، وكل ذلك نعمة من الله ؟ -

أين حقول القمح في البلاد ، وأين البساتين يانعة الثمار ، والليمون والبرتقال ، والأترج ، والكروم ، والرمان التي نعصرها لنحولها إلى مشروبات للصيف ، وأين ذلك القرع العسلي كبير الحجم الذي تمتد عيدانه على الأرض . وأين منى ذلك البطيخ المنعش ؟ - هذه الأشياء الطيبة ، ألسنت رجلا غيبيا ، عندما أهجرتها ، لأجىء هنا لأعيش حياة البدو التعيسة الشقية ، وسط هذه الصخور الحارقة وبلا أى ظل يحمى من أشعة الشمس ؟ - "ولكنك ، يا محمد ، وجدت نعمة الله هنا أيضا ؛ ما الذى يريده الإنسان غير ثروة سهلة ؟" - "حسن . تقول الإنسان الذى يستطيع التغيير من مكان إلى مكان ، يستطيع أن يجد هذه النعمة فى أية ديرة من الديار ؛ ثم أردف أبو سنون قائلا وهو يتنهد : "لن تطول حياته" ؛ كان يرى أن وفاته فى هذه الصحراء ليست سوى شكل من أشكال التعاسة ، تاركا وراءه من بعده ليكون بدويا هو الآخر . سألتنى وهو يكاد يبكى ويضحك فى آن واحد : "أليس لك ، عندما تعود إلى الغرب أن تحمل معك ذلك الطفل (ذلك الصبى غير البار) إلى هناك ؟" كانت إبل محمد فى ذلك اليوم تزيد على عشرين جملا وجميعها صالحة ، وأن عنزاته وغنمه لا يقل عددها عن مائة عنزة ونعجة ؛ وهو فى الوقت الراهن لا يرى أى إنسان آخر أثرى أو أغنى منه بين هؤلاء البدو الرحل "الضعاف" .

حدثنى أبو سنون عن سفره من الغرب بصحبة بعض الناس المراكشيين الآخرين: أبحروا من هناك قاصدين الحج ، بصفتهم من المغاربة المغامرين ، الذين كانوا يبحثون عن الثراء . وفى أعالي البحار فاجأتهم العواصف ، وحملت الريح أثناء ثورتها ، قاربهم أياما عدة . ولما كانوا عاجزين عن رؤية الشمس ورؤية النجوم أيضا ، فقد دفعتهم العاصفة فى اتجاه الشرق ، إلى أن وصلوا إلى ساحل الأناضول Anatoly ، واستطاعوا إنقاذ أنفسهم فى مرفأ أزمير Smyrna . ولما كانوا يعانون من الدوخة والدوار على إثر وجودهم على ظهر القارب ، وعلى إثر نجاتهم أخيرا من خطر الموت ، استطاعوا فى النهاية أن يسمعو أنفسهم وهم يتحدثون إلى بعض الناس فى أرض غريبة ويلبغتهم الخاصة ، كما استقبلهم ضابط الصحة فى المرفأ استقبالا طيبا ؛ كان ذلك الضابط طليانى الجنسية (نظرا لأن غالبية الضباط فى الحجر الصحى فى الليفات Levant هم من الطليان) . سألتنى محمد ، وعلى وجهه ابتسامة نتجت عن

تذكر شىء طيب ، سألنى عما إذا كان الطليان والإنجليز أمة واحدة ؟ ولم ينشرح صدر محمد كثيرا ، عندما أجبت ، من باب إعلاء الحقيقة ، قائلا : "إنهما ليسا أمة واحدة ."

رحلات محمد فيما بين تبوك والوجه لم تكن خالية من الأخطار . كان محمد يقطع هذه الرحلة ثلاث مرات طوال فصل الصيف الحار ، بل وربما أربع مرات فى بعض السنوات ، وكل رحلة من هذه الرحلات ذهابا وإيابا ، يصل طولها إلى ما يقرب من خمسمائة ميل صحراوى . ولو قدر لغزو من الغزوات أن يقطعوا عليه طريقه وسرقوا منه إبله ، فإن خسارته ربما وصلت إلى حد لا يستطيع معه تعريضها حتى بعد القيام بكثير من تلك الرحلات المؤلمة . جرى الهجوم على أبى سنون فى العام الماضى وأخذوا منه ناقته التى كان يركبها ، ولم يكن قد تجاوز سوى سهل الحجر ، وقع ذلك السطو فى المنطقة ما بين وادى تربة Thirba والقلعة . أثناء العودة من الشمال شاهدوا جماعة صغيرة مكونة من ستة زاكبين ، ولكن هؤلاء الراكبين لم يلاحظوا أفراد الغزو . وهنا استدار أبو سنون وأوصل ذلك الخبر إلى مهنا Mahanna ؛ لقد انتقل السحامة Shemma بالفعل. وبعد ان استمع محمد أبو سنون إلى آخر الأخبار الخاصة بترحالنا ، تمكن من الصعود مباشرة من ذلك المكان إلى مَترلنا ، على بعد حوالى ثلاثين ميلا من المكان الذى تركنا فيه . خط سير البدو الرحل يصعب اقتفاء أثره فى هذه الأراضى البركانية ؛ والسبب فى ذلك هو قلة وجود الرمل بين هذه الصخور ، مما يجعل عملية قص الأثر صعبة بل ومستحيلة . هؤلاء الأعراب يقولون لى إنهم عندما يقيمون مخيما من المخيمات ، فإن أسرة الأعرابى الذى يكون متغيبا عنها ، تقوم برسم خط من حول هذه الدار المهجورة ، بحيث يوضح هذا الخط موقع المنزل الجديد ، أو قد يستعملون إشارة أخرى. هى عبارة عن غصن أخضر من أغصان السنط . هؤلاء الذين ولّوا فى الصحراء تنمو لديهم مهارة عظيمة عن الطرق والمسارات ، ومع ذلك فإن الغرباء الذين يتدربون على الحياة البدوية قد يصبحوا بدوا . ومن الممكن للبدو أن يذهبوا للبحث بثقة كاملة ، عن منازل مجهولة فى الصحراء الشاسعة ، التى يعرفون أماكن الماء فيها ، ومن ثم لا تكون طاردة بالنسبة لهم . وعندما يجد الأعراب أن المكان الذى عثروا عليه لم يكن معروفا ، أو إن شئت فقل : مجهولا لهم ، فهذا يحتم عليهم أن تدور فى أذهانهم مشكلة من نوع ما ، - فى هذا الموسم يتعين علينا البحث عنهم فى المكان كيت وكيت ؛

وسوف نركب إلى هنا المسقى أو ذاك ، وهنا سنرى آثار أقدامهم " إن قدر لهم أن يكونوا فى هذه الديرة أو المنطقة - وإذا لم تتمكن من ذلك ، دعونا نبحث عنهم فى مكان آخر ، يحتفل أن يكون أولئك الأعراب قد لجأوا إليه . هؤلاء الأعراب عندما يجدون قطعة من الصحراء جرداء ، وليس فى تربتها أى شىء من النبات ، يعرفون أن المطر لم يسقط على هذه المنطقة ؛ - وبالتالي يستنتجون أن الأعراب الذين يبحثون عنهم لم يجيئوا إلى هذا المكان ، ويتجهون للبحث عنهم فى مكان آخر ؛ هذا يعنى أنهم (البو) فى المناطق البووية الواسعة الشاسعة ، قد يعثرون فيها على أصدقائهم . والبو الذين يعودون بعد طول غياب ، ومن بلاد بعيدة ، مثل سوريا ، ومكة ، والعراق ، يسألون عن الأعراب الأصدقاء ؛ وهم يذهبون لتصيد الأخبار من قرى الأسواق مثل قرية تيمة (تيماء) أو قرية العلا .

قال محمد : " قد أكون بصحبته غدا ؛ ولكنى أجبته قائلا : " لا " ، والسبب فى ذلك أنى بلغت من الضعف حداً لم أتمكن معه من التضحية بهواء الجبال ، وأقوم فى هذه الشمس الحارقة بعبور سهول تهامة شديدة الحرارة . بقيت فى خيمتى ، وتنقلت على ظهر ناقتي ، ولم ألتقى أى شىء من العرب الجائلين سوى الماء . وعندما كنت أشرب شيئاً من الحليب كنت أحرص على رد قيمة ذلك الذى أخذته ؛ هذا وقد أغدقت على أبى سنون العطاء نظير فناجيل الأرز الثلاثة التى أعطانى إياها على امتداد أيام الضيافة الثلاثة ، فقد أعطيته ريات كثيرة . كان المتسوقون البلى Bllll يذهبون إلى الوجه كل بضعة أسابيع قليلة ؛ قد انتظر بعض الوقت ، ولكن نظرا لأن كل حبة من حبات الهواء كانت تنعش روحى ونفسى ، فقد رحت أتأمل من جديد مسألة التجوال خلال الجزيرة العربية . بدأ يتبدى لى أن وجود الغريب مع الأعراب أصبح أمرا غير مرغوب فيه من جانب الشيخ العجوز الحقود ، فقد وجه الشيخ طلج Tollog اللوم إلى المغربى بسببى ، وقال محمد : " أنا لا يمكن أن أعصى أوامر الشيخ ، بالرغم من أنى أود لك أن تسكن وتعيش معى هنا ؛ هم يقولون : إنك واحد من الفرنجة أتيت قبلهم وأنهم سوف يحتلون ديرتنا . يجب أن لا يغيب عنك أن طلج غضبان ، ولا يمكن لأحد أن يعارضه أو يفعل غير ما يريده هو ، ويجب أن لا يغيب عن بالك أن هؤلاء بو . ولا يعرفون شيئاً عن الدنيا من حولهم . " سألت طلج Tollog ونحن فى المجلس .

حول هذا الأمر ، قال : اذهب مع محمد باكر ، وسوف يوصلك إلى قرية الوجه ؛ واعلم يا خليل ، أنك لن يصبح بوسعك بعد اليوم مرافقة الأعراب . - " وإلى أين أنت ذاهب يا طُلُج ؟ " - " أنا ذاهب غداً إلى الجبيلي ، سوف أشارك في الغزو (هذه أسباب ملفقة ساقها بدافع من أدبه البدوي) ؛ زد على ذلك ، أن الأعراب على وشك الرحيل إلى مكان بعيد ، في ديار تعاني من العطش الشديد ، ورحيلك يحميك من تلك المعاناة . - " يا طُلُج Tollog ، أنتم أيها البدو ، لستم سوى أفراد ظمأنين ، ولكني أنا أشرب القليل جداً من الماء ويوسعي تحمل الكثير مع الأعراب ، سواء أكان ذلك ظمأ أم جوعاً ؛ كل ما في الأمر أنني أمل ألا تطردني بطريقة غير ودية ، في هذا الجو شديد الحرارة ، كي أموت في تهامة . أبداً ، يا طُلُج ، سوف أبقى معك ومع الأعراب . - " بالله ، هذا لن يكون يا خليل ؛ إذ من الأفضل لك أن تعود إلى شعبك ، ولا تموت : ارحل غداً مع إبي سنون ، ولكن اشرب الآن قهوتك ، ولا نتكلم معنا حول هذا الموضوع بعد ذلك . "

طوال ذلك اليوم (وبناءً على طلب طُلُج) لم يعطيني رب الأسرة التي كنت أسكن معها أي شيء من الماء كي أشربه ؛ من منطلق أن شعوري بالظمأ يمكن أن يعجل برحيلي عن الأعراب . كان المضيف يتحمل ذلك على مضض ؛ ولكني في فترة ما قبل الظهيرة ، وعلى العكس من كل طقوسهم ، التي تتنافى مع المنطق الإنساني ، ذهبت وطلبت جرعة ماء ، وهذا أمر لا يمكن إنكاره في الخيام المجاورة . وهنا خطر ببالي أن اتفق مع راعي من الرعاة البدو ، والذي وجدت أن لديه استعداداً للقيام بذلك ، على أن يقوم بإرشادي كي أصل إلى عناز Anaz ، وبذلك يتسنى لي عندما أنزل من الحرة ، زيارة كلا من بدا Béda ومدين Middan ، اللتان يقال عنهما إنهما يمثلان قرية أثرية مخربة في تهامة ، ثم انتقل بعد ذلك من تهامة إلى الوجه . قالت لي زوجته ، إنه ذهب للسقيا ، وسوف يعود خلال فترة وجيزة . دعنتني إلى الجلوس في الخيمة ، ثم صبت لي شيئاً من الماء واللبن ؛ - سألتني ، بطريقة نفاق النساء ، هل تسارع وتذبح لي تيساً ؟ استدعت نديماتها وراحت تجعلهن ينظرن إلى النصراني في بيتها . وهنا جاء الرجال من البيوت ، وجاءت النساء البدويات : أمهات وبنات ، جنن جميعاً ليجلسن ويطلقن لالسنتهن العنان ، ويشبعن فضولهن عن طريق الكلام مع الغريب . وبعد بداية الكلام ، أصبح كل هؤلاء الحريم يقفون إلى جانبي ، ورَّحْنَ يَدْنِ سِوَةِ نِيَةِ الْأَعْرَابِ وَجْهَهُمْ ، لأنهم أسأوا فهم ديني ، الذي لم يكن شريراً ، على حد قول الرجال ؛ - كيف نصلي

نحن ؟ - خليل ، هل لك أن تقول لنا شيئاً من صلواتكم ؟ هل تصلى بلغتك ؟ وهي ليست لغة عربية . " تلوت عليهن شيئاً من صلاة الرب . " يا الله ! صحن قائلات : نحن ظالمون ، انظروا إنه يصلى بحق ، هؤلاء أناس طيبين ، " ثم أصفن بعد ذلك المثل الذى يقول : "...(*)" هذا هو ما قالته ربات البيوت ، - بنات الطبيعة ، ويتواضع : " سوف نسأل عنك ، ونعرف إذا كان كما نسمع ، أن النصارى لا يختنون ، وكيف يستطيع الرجل معاشرته زوجته على هذا الوضع ؟ سألتنى ربات البيوت إن كان لدى دواء لواحد من أزواجهن الشباب ، التى لم تحمل منه زوجته بعد عامين أو ثلاثة أعوام من الزواج . وامتدحت النديمات "صبر" تلك الزوجة ، على زوجها وعدم تركها له ، لأن من حقها أن تفعل ذلك . "

كان فايز Faiz ، زوج هذه المرأة ، الذى وصل فى تلك اللحظة ، غير راغب فى مرافقتى ، نظرا لأن الشيخ كان قد منع ذلك منعا باتا . كان فايز هذا واحداً من الذين أعطونى فكرة عن الديار التى لا تحوم من حولها الشكوك . وفى عصر يوم من الأيام ، كان فايز هذا قد رسم لى على الرمل بمشعباه ، شكل الحرة ، وكان يستعمل الأحجار فى تحديد الجبال ، وفى تحديد مجارى السيول أيضا ، وكذلك الوديان ، بما فى ذلك وادى الحريرى Hareyry ، وادى الحمض el-Humth . وعندما نظرنا إلى الأعلى كانت الشمس توشك على الغروب ، ونهض الرجال من مجلسهم ، وذهب كل منهم لأداء الصلاة . وهنا يعجب فايز ، فلم يرانى عندما أوشكت على أن أجنو على ركبتى وأقول : "أين ربك ؟ هذا هو الوقت الذى تطلب وتلتمس فيه العفو من الله ! " مات فايز فى نهاية صيف ذلك العام فى سهل الحجر قبل وادى تربة eth-Thirba ، فى الغزو الذى قام به البشّر Bishr ، والذى أسفر فى ذلك اليوم الأغبر عن سرقة واغتصاب كل الماشية العظيمة التى لدى هؤلاء القبليين . ولما كان فايز من معدن أصيل وعنيد أيضا فقد اندفع بين مائة من الرجال المسلحين الأعداء ؛ لم يرض عن تسليم كل ما لديه فى هذه الدنيا ، فضلا عن ثقته أيضا بالإبل المملوكة للشيخ طُلُجْ - وهنا وضعت طليقة طائشة ، انطلقت من يد أئمة ، نهاية لمقاومة ذلك الرجل العنيد .

(*) رأينا حذف المثل لأنه يمس بالدين الإسلامى . (الناشر)

ملحق الفصل الرابع عشر

كلمه "ناموس" ؛ فى القاموس ، أو إن شئت فقل : فى القاموس المحيط ، تجد كلمة "ناقوس" أو "ناجوس" بمعنى "الجرس" والنواميس تكون هى الأخرى على شكل أجراس : ونجد أيضا مادة "ناموس" بمعنى "عرين" أو "مريض" - ، وبخاصة كفن الصياد ؛ وحيث توجد النواميس توجد بعض الزنازين المصنوعة من الحجر ولها أبواب ويحكى لنا البدو عنها على إنها فخاخ لصيد الفهود والضباع . والنواميس السيناوية شبيهة بالرجوم الموجودة فى حرّة العويرض ، وفى خير ، وسوف نوضح أن تلك عبارة عن مجرد جحور ليس إلا . - ومن رأى السير هنرى رولنسون أن كلمة "ناموس" السيناوية قد تعنى أيضا "مقابر" ؛ وهو يقول : إن حرف الميم وكذلك حرف ال ۷ يتداخلان ، وأن الشكل الصحيح لهذه الكلمة هو "ناقوس" وهذه الكلمة كانت معروفة فى كل الأماكن التى تواجد فيها العرب . وكلمة "ناقوس" فارسية الأصل ، ولكنها دخلت العربية وأصبحت تطلق على الجبانة القديمة وهذه الكلمة تداخلت مع الكلمة الإغريقية *vaós* ، كما كانت هناك مئات النواثيس حول بلاد الرافدين ، وورد ذكرها عند المؤلفين القدماء .

الفصل الخامس عشر

حياة البدو الرحل في الحرة

طلّوج يأمر والنصراني يقاوم . طاسة مهيبة من اللبن . يخشون من تصليح النصراني للشاي . زيارة طلّوج أثناء الليل . بلاد الشفا . صورة لسطح الأرض . حرة العوررض . الآثار الكوكبية في الحرة . فورة بركانية عظيمة . بركان فيزوفس . هل الحمم البركانية Lava هي ما يقول له العرب "لأبا" Laba ؟ اطلب من البدو فن . الشيوخ ليست لديهم معرفة كبيرة بالأرض . قبيلة جهينة القديمة . ارتفاع الحرة . طلّوج يزور الغريب في خيمته . طلّوج يصاب بالمرض . جمل الشيخ . أغنام البدو الرحل . الذئب أثناء الليل . كلاب الحراسة عند البدو الرحل . حياة راعي الغنم . ريا الراعي . راشيل هي روخال عند الأعراب . مريان في الأرض . زوجات الصوف . ماعز البدو الرحل تهتاج . البدو الرحل يربون صفار الغزال . موسم الطيب . المواهب ينزلون إلى صحارى السهول . الفايش . مشاهدة قطع . النزول إلى وادى غريب . كومة قبر والدة أوى زيد . تسليات الأطفال . محسن الكريم يسطو عليه الغرازو أثناء القيام برحلته من الشمال . أبو سليم مسلك العيون المغربي .

سمعت قبل اكتمال طلوع الشمس ، صوت طلّج Tollog العالى الأجش - حيث كان قد ذهب بنفسه إلى بيت المغربي - يطلب من محمد : "اصرف هذا الفرنجى عنا اليوم وخذه معك !" كما أكد أيضا على من سيرافق المغربي أن لا يتركنى ويسهو عن أخذى معهم . كانت آخر كلمة سمعت ذلك الشيخ يقولها : "والله ، بعد أن أرحل ، سأعود لاحتلال الديار والبلاد ." - ذكرت محمداً بوعوده القديمة ، التى شدتنى إلى هنا . ورد الرجل على ، بأنه مرتبط بالشيخ ، ومع ذلك ، أبلغنى إننى إذا ما بقيت فلن

يكون هناك من يجبرنى على ما لا أريده . يضاف إلى ذلك أن الأعراب هم أيضا كانوا رحيل rahil ، بمعنى أنهم على وشك الانتقال إلى مكان آخر ! كان محمد قد سبقنا فى ركوب دابته ومضى فى المسير قدما : وعندما وجد أن رجاله يضيقون الخناق على ، وجدت أن من الحكمة مقاومتهم ! وإلا إذا ما سمعت القبائل الأخرى بأخبار طردى من هذه القبيلة ، ألن تحاول عمل الشيء نفسه ، عندما أدخل منازلهم وديارهم ؟ يضاف إلى ذلك ، أننى ازداد تصميمى على الذهاب إلى خيبر . أركبونى على دابتي ، واستأنف البدو مسيرهم ، وراح أولئك الذين كانوا سيصاحبون محمداً فى رحلته ، راحوا يستحثون ناقتى العجوز . - وأقسموا بحياتى أن أسير معهم على هذه الشاكلة ! وراحت الدابة المسكينة تخبب تحت وطأة ضرباتهم من ناحية ، وتحكمى فيها باللجام من الناحية الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى تعثر الناقة من تحتى مرات عدة . "اترش ، أى امض قدما! قد لا أبقي هنا ، صاح أولئك القساة الغلاظ! والله ، إذا ما بقيت هنا ، فإن الأعراب قد يجردونى من كل شيء ويقتلونى . " - "أيها الأصدقاء ، ليس هناك من يقوى أو يستطيع إيدائى ، إذا لم يكن الأمر يتعلق بالخوف من الدولة (الإمبراطورية العثمانية .) " ولكنهم ردوا على كلامى باحتقار شديد - "ملعون أم الدولة !" وعندما قلت لهم : فى رحلة الحج القادمة . ألن يسألهم عنى محمد سعيد (باشا الحج) ؟ " ردوا على وهم يصيحون قائلين : "ملعونة أم زوجة محمد سعيد ! يا خليل ، هيا وحياتة الله ، سوف ترحل عن هنا !" - "قلت : بُينى ، مناديا إياه باسمه ، ألسنا معارف منذ مدة ! توقف يا ولد !" - "يا خليل اعلم أن طُلُج جبار ، وهو يحكمنا حسب هواه . وأنا أخشى أن يأخذ منى ناقتى." تأكد ، أنه إذا ما أخذ ناقتك بسببى، فسوف أعيدها لك ، لأننى رجل مخلص وأمين . " وضع واحد منهم يده على حكمة الناقة ، وكشر عن أنيابه واتجه ناحيتى موجهها عكازه نحوى . هذا يعنى أن هؤلاء كانوا من الخدم وليس من بينهم أحد من الشيوخ . "صاح بُينى Beneyyi قائلا: ممنوع العنف !" لم ينس الأعراب فى ذلك الوقت أن الغريب كان ضيفا من ضيوف الله ! وعندما أيقنوا أن التهديدات أو التوسلات لن تجدى معى ، وأن جماعة السوق قد سبقتهم بحوالى ميل تقريبا ، تخلوا عن النصرانى وتركوه ، وراحوا يجرون ويسرعون الخطى كيما يلحقوا بجماعة السوق .

اختفى عن بصرى هؤلاء البدو أثناء رحيلهم فى تلك الأرض الشاسعة الوعرة ؛ وهذه هى ناقتى راحت تحاول الانتفلات للحاق بأولئك الذين كان يبدو أنهم متجهون إلى قرية الوجه . بُركت ناقتى ، إلى أن اختفى أولئك المسافرون وراء الأفق : لم استطع التحكم فى الناقة عن طريق اللجام . وبالرغم من أنى لم أصبح فيها كثيرا ، إلا أنها لم تتعبنى فى امتطاء سهوتها ، أو إن شئت فقل : الركوب فوقها ؛ قفزت على ظهر الناقة ، وسقطت منى بعض أشياءى ، ولكنى لم أعبأ باسترداد تلك الأشياء ؛ نهضت الناقة واقفة وأنا من فوق ظهرها ، وبدأت تعدو ، فى حين رحت أنا أوجه رأسها صوب البدو الراحلين . - كان ذلك كرب وبلاء عظيم لى ، أن أكون حائرا أو مشوشا الذهن بين هذه الصخور البركانية الضخمة والمريعة ، التى كانت تشبه أرضية القرن فى أشعة الشمس الحارقة ، والأدهى من ذلك ، أنى كنت بلا ماء ؛ مضيت راكبا ناقتى وفؤادى مكلوم ، مخافة أن لا ألحق بهؤلاء الناس مرة ثانية ؛ زد على ذلك ، أن بصرى لم يكن على ما يرام . لم يمض وقت طويل ، فقد شامت السماء لى أن ، تقع عينائى على أثر هؤلاء الناس أثناء تجوالهم ، الذى كان قد حجبته عنى القيعان الوعرة برهة قصيرة من الوقت .

ركبت دابتي وحدى منفصلا عنهم ، ولم أكن واثقا من أن أحدا منهم لن يشتمنى أو يسبنى . لم يكن هناك سرج فوق ناقتى ؛ وكان متاعى الذى ربطته بحبل يتدلى على جانبي الناقة . وتوقف رجل طيب ، تصادف أن مر بى ، ونزل من فوق ناقتة ليقدم لى يد العون والمساعدة . وبعد فترة قصيرة أدركت واحداً من رفاق محمد ، واحداً من أولئك الذين صادقتهم عن طريق الدواء ، ونظرا لأنى كنت أشعر بالظمأ الشديد صباح هذا اليوم ، فقد ناديت باسمه قائلا : " يا عايد Aÿd ! هل لك أن تصب لى شيئا من الماء لأشرب ؟ " وبعد شئ من التأخير ، والامتناع ، أحضر لى شيئا من اللبن فى فنجال . لاحظت سلوكه الغريب ، كما لاحظت أيضا شخصا آخر من أولئك القريبين منى ، يقول : " تموت " ، وهنا ظننت أن الأمر ليس على ما يرام . إذ قام عايد ، بإعطائى الفنجال دون أن يشرب منه قبلى : قال آخر : " ليس فيه أى أذى " - لقد شربت ، رددت عليه دون أن أشرب من الفنجال شيئا ، وأكرمك الله . عاد عايد مرة ثانية إلى الجمل الذى يحمل زوجته ، وتظاهر بأنه يعيد اللبن إلى القرية ؛ ولكنه تسلل جانبا بعد

ذلك ، واستدعى الكلاب التى كانت ترافق القفل ، وصب لها شيئا من اللبن فى تجويف صخرة من تلك الصخور البركانية : وعندما أدرك إنى كنت أراقبه ، عاد إلى وهو يبدو عليه عجزه عما يمكن أن يفعله بعد ذلك . قلت له : أليس الله فوقنا ؟ ما الذى فى اللبن يا أيها الرجل ؟ - " ليس فى اللبن أى شيء يا أخى (الراعى السقيم) سوف يشربه ، " ثم اتجه بعد ذلك بالفنجال نحو الراعى : بعد أن شرب المريض اللبن كله ، أمسكت عايد من يده ، وسلمت بأن لبنه كان ممتازا . وحدقتى الرجل بنظرة جانبية . القتل غير المباشر باستخدام السم فكره تدور فى أعماق أهل الجزيرة العربية ، من هنا فهم يتذوقون الشيء قبل أن يأكل منه أو يشرب منه الآخرون ؛ ومع ذلك ، فإننا أؤمن أن هذه الجريمة لا يجرى ارتكابها فى الصحراء . واصلنا مسيرنا وسط الحر الشديد طوال فترة الظهيرة ، فى الوقت الذى خيم العرب فيه طلبا للراحة : وعندما نزلت وحدى ، عن ناقتى لنيل قسط من الراحة ، نادانى أولئك الذين كانوا ضمن الجماعة قائلين : " لماذا لم أنصب خيمتى بين خيامهم ؟ " هؤلاء البدو يخيمون ، حسب القرابة ، والرفقة ، ويمعدل خمسة أو ست جماعات فى كل منزل : ومع ذلك فهم يفضلون نصب الخيام على شكل خط طويل ، على نفس طريقة بدو البلى ؛ ولكن السحامة يخيمون على شكل شارع من الخيام .

جلست ، فى المساء ، بعد أن نقيت قليلا من الماء باستخدام الفحم النباتى ، أصلح شيئا من الشاي ، فى حين راح القبليون ، الذين كانوا يتحوطون حول الوجار ، ينظرون إلى بحقد ينطوى على شيء من الشك . وعندما رفعت الغطاء ، وطلع البخار وهو يحمل رائحة مثل رائحة الورد ، تراجع البدو إلى الخلف ، وصاح واحد منهم : " إنه مؤذ ، ارفعه وأبعده عن هنا ! أبعده عنا . " - قلت لهم ، ليس هناك شيء أصح ولا أحسن منه ، هذه نكهة طيبة ، وهى من نكهة أشجار الجنة . " صاح آخر : " إخص ، ينبغي أن يبعد ذلك عنا ! لأن رأسى بدأ يدور " . سوف أذهب الآن لمهادنة طلج ! قال لى أحدهم : " بيته قريب من هنا ، " وهمس له شخص آخر قائلا : " قل إنه بعيد عن هنا ! " ورد عليه : " لا ، إنه بعيد جداً عن هنا . " - وكيف يكون البيت ، أيها الرفيق قريبا وبعيدا فى آن واحد ؟ عايد : " نحن نعرف ، يا خليل ، أنك تعرف الأشياء كلها . [وأنت بواسطة كتابك تستطيع أن ترى ما لم يرى ،] ولكن لا تذهب إلى بيت طلج

فالحباليص يتجولون فوق الحرة . - إذن ، فليقرضنى أحدكم سلاحا ، وأنا سوف أستعير سيفك لفترة وجيزة . - لا ، يمكن لك أن تفعل ذلك عن طريق دفع الأجر . - وأنا على أقل تقدير يمكننى أخذ عكاز هذا الصديق . كان ذلك الصديق ، هو الراعى المريض ، الذى كان يعيش على صدقاتى اليومية من الدواء الذى كنت أعطيه إياه ، ولكن هذا الرجل الناكسر الجميل حرمنى وأنكر على ذلك ، وهنا ألقى العكاز على الأحجار . وهنا غمغمت الجماعة التى استامت من ذلك التصرف ، وهنا قال أخوه عايد صاحب العين الحاسدة الشريرة : "نحن البدو ، ولسنا من أهل الحضر !"

كانت خيام الشيخ طُلُج Tollog ، بحكم ضيق هذه الدار ، منصوبة فى أرض خالية أخرى تبعد عن هنا قرابة ميل . مضيت سائرا فى طريقى ، عبر هذه الأرض البركانية ، ماشيا فى الظلام فوق الصخور والأحجار الغليظة السائبة والمفككة ، إلى أن بدأت تطالعنى نيران حراسة الشيخ طُلُج . يا الله ! (قالها طُلُج ، بينما أدخل أنا عليهم قادما من وسط الظلام ، ثم جلست بينهم بعد ذلك) ، أجنث على هذا النحوفى هذه الظلمة ؟ لا يا خليل . ودون أن يكون فى يدك سلاح ! استقبلنى هذا الشيخ العجوز استقبالا حانيا . قلت له : "لا يمكن أن أنام إلا بعد أن ألقاك ، وسبب تأخير قدومى إلى الآن ، مرده إلى تعبى والإرهاق الذى أصابنى بسبب حرارة النهار . وأنت يا طُلُج ، إن تمنعنى من تنفس الهواء العام ؛ وهذا هو الذى دفعنى إلى المجئ إلى الجبل الذى نصبت عليه خيامك . " طُلُج : ولكننا ، نحن البدو ، مساكين ، نحيا حياتنا فى ظروف بالغة القسوة . نحن نخشى أن يحدث لك مكروه . وبالتالي يوجه اللوم إلى الهواء هيب ؛ قد يخاطر رفيق طائش باغتيالك ، باعتبارك نصرانى ، وبالتالي يجر علينا مسألة دمك ! - ألا تخاف الذئاب يا خليل ، ألا تخاف قطاع الطرق ! بالله عليك يا خليل ، ألن تخبرنا ذلك الذى جئت به فى ذهنك ، لتفعله هنا ؟ هل لديك مهارة اكتشاف الأشياء الخبيثة ، ورؤية الغيب ؟ - ليس لدى أى شئ من هذا القبيل فى واقع الأمر : هذا يعنى أنكم لديكم بعض الظنون الأثمة فى كتبى ، التى لا تعدو أن تكون مجرد نظم لآراء الناس بعضها إلى بعض . لديك قصائد تتغنى بأمجادكم الممتازة ؛ ونحن لدينا أيضا مثل هذه القصائد ، وكلمات تلك القصائد التى لا ينبغى لها أن تموت معنا ، مدونة فى كتب من الورق ؛ ولكن الأعراب غير متعلمين . - قال طُلُج رداً على كلامى :

تعم ، والله ، غير متعلمين ! - " يضاف إلى ذلك ، إذا مرض أحد منهم فأننا هنا لخدمته ، ولن أرفض أى واحد ! وهم أيضا قد يعطونى قليلا من اللبن ، باعتبارى ضيف من ضيوف الله أقيم بينهم . تقولون : ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ وما الذى دفعنى إلى السؤال عن الخرائب والآثار ؟ وأنا أرد عليكم قائلا : إنى أبحث هنا عن نقوش قديمة ، فى قرى (الحجر كما سبق أن رأيتم بأعينكم ؛ وهذا لا ينطوى على أى مكسب مادى ، وإنما هو لإمتاع بعض المتعلمين ، المسلمين والنصارى ، الذين يدرسون اللغة القديمة ، مثل لغتكم التى دونت بها تلك النقوش . " طُلُجْ : ولكن ماذا عن تلك الأحجار التى عليها كتابات ونقلتها من قريه العلا؟ - "أنت بعد أن زرت تلك الأحجار ، سمعنا أو بلغنا فى صباح اليوم التالى أنها اختفت من مكانها . " - "لا تصدقوا ذلك الإفتراء والحماقة ، نظرا لأنى بوسعى شراء أى حجر مكتوب ، من صاحبه ؛ ويجب أن لا يغيب عن بالكم أن إسطنبول فيها قصر كبير لهذا الغرض ، والذى تتجمع فيه الأشياء الغريبة والنادرة التى من هذا القبيل ، وتجىء إليه من سائر أنحاء الدنيا كلها . لقد شملنى الباشا بعطفه ، - والسبب فى ذلك ، أن الباشا يعرف أهل Ahi السواح Sūwahh - أضف إلى ذلك أنى من الإنجليز ، حلفاء السلطان ، ومن ثم فهم من أصدقائكم . ما الذى فعله أبو سنون فى رحلته الأخيرة إلى قريه الوجه ؟ - " ومع ذلك ، فأننا أرى أنهم ليسوا مع الإسلام قلبا وقالبا : ألم يظهروا لنا شيئا من التحول الشرير فى السنوات الأخيرة ؟ هل أنتم تتزوجون من بنات الإسلام ؟ - "نحن بعيدين جداً ، نحن نجيء إلى إسطنبول مبحرين فى سفنتنا ، وبوسعك أن ترى سفنتنا ، معظم الأيام ، أمام الساحل الذى يقع خلف ، أو فيما وراء هذه الصخور البركانية . " - قال الرجل العجوز فى النهاية "ألن أكل منك ليرتين ، على أقل تقدير يا خليل . " - "أنتم أيها الأعراب لستم كرماء ، عندما ترون الغرب ، يمر مهموما ومكروبا فى دياركم ، بل أنكم قد تلبسوا ما معه وتجردونه من كل شيء . " - "ولكننا سوف نفرجك على الأماكن الأثرية وعلى الخرائب أيضا ، وأنت يا خليل ، ستكون حراً فى تجوالك فى أى مكان تراه أو تود الذهاب إليه . " "لن أرى أى شيء من هذه الأشياء ، لأنى ليس لدى سوى مبلغ ضئيل من الريالات ؛ كل ما أوده هو أن أتنفس هواء الجبل هذا فترة من الوقت ، يالك من طُلُجْ !- أم أنك سوف تطردنى من هذه الديرة أيضا ؟ - "انصرف الآن مع

هذا الشاب ، الذى سيرافقك إلى المنزل ، وسوف تكون ناقتك فى صباح الغد ، على طريق الحج؛ انهض ، فهم يقولون إن ناقتك ضلت طريقها . - "ولكن ، ماذا عن باكر ؟ هل ستطردنى من هذا المكان ؟" - "عُد الآن ، وسوف تكون مع جماعتك . " - "وحياة هذه اللحية ، يا طُلُج ! هذا شيء لم يكن مفروضاً أن نتحدث أو نتكلم عنه أمام البدو المحترمين الأشراف . " - "أنت معنا ، وكل ما فى الأمر أنك يجب ألا تخرج وحدك أو بدون سلاح أثناء الليل ؛ " - ثم أرسل معى واحداً يحمل رمحا ليعيدنى ثانية إلى المنزل الذى كنت فيه من قبل .

وفى مضرب آخر ، ينحدر قليلا على جانب الحرّة ، وجدنا أن حرارة الحموك كانت أكبر بكثير فى هذه المنطقة عنها فى أى مكان آخر. ونظرنا من ذلك المنزل، نحو الأسفل من خلال الحرارة الخائفة إلى جبل جاو Jau ؛ ومن فوقه إلى ساحل يمتد على شكل شرفة بارزة وفيه صخور بازلتية سوداء ، وتحيط به مجموعة من تلال فوهات البراكين يطلق الناس عليها هنا اسم حرّة الخضيرى Khúthery . فى اتجاه البحر ، كانت تمتد من أمامنا الجبال المحيطة بديرة تهامة ، وهى مثل الجبال التى تراها بصورة غير واضحة من حرف جبل إيدوم ؛ أو تلك الجبال التى نراها عندما ننظر إلى الأسفل من الحجاز فوق مكة حيث نجد مجموعة من الجبال المنخفضة غارقة فى تهامة من ناحية مدينة جدة . وبلاد الشفا Shéfa هى كل ما نراه الآن من تحتنا ، على شكل سياج من الجبال ؛ والبدو يقولون إن هذه الجبال تبعد مسير يوم واحد عن هذا المكان ؛ وبعدها يستقيم حال التنقل والترحال . والبدو هناك يطلقون على البحر الأحمر اسم "البحر المالح" أو قد يقولون له "البحر" - "ردُّ على زَيْد ذات مرة ، عندما سألته عن اسم البحر فقال : "بحر Bahr الظلام" eth-Thellam بمعنى "بحر الظلمة أو الدكنة (الغرب) . " - وينفس هذه الطريقة نجد أن ألفريد Alfred^(*)، ملكنا الساكسونى ، يقول فى كتابه الجغرافى : "أيرلندة تكون باهتة وغير واضحة ، فى الناحية التى تستقر

(*) ألفريد Alfred : عرف بألفرد الكبير Alfred the Great تولى الحكم فى غرب سكسونيا فى عام ٨٧١ وكان فى صراع دائم مع الدانماركيين . وتمكن من السيطرة على إنجلترا كلها وحكمها حتى عام ٨٩٩ . واشتهر عنه كونه عالما ومشجعاً فهو الذى أدخل نظام المحلفين وأسس جامعة أكسفورد . (المراجع)

الشمس فيها ، أى تغرب . كل هذه الأرض المنخفضة الوعرة تقف عليها علامتان أرضيتان جبليتان وضخمتان أيضا (انظر الصورة رقم ٥٩ أيضا)؛ وهاتان العلامتان الأرضيتان يطلق الببو عليهما اسم الجولة Jowla والوتيد Wuttid (بمعنى وتد الخيمة) . بين هاتين العلامتين لا يوجد سوى ممر ! وهما ترتفعان على شكل ساحل جرائنتى متدرج ، يمتد من الشمال للجنوب ، يمكن قطعه سيرا على الأقدام خلال نصف يوم ؛ وأنا لا أذكر جيدا اسم ذلك الممر ، هل هو الحداد el-Hadād أم إنزان Enzan أم نجابة Negaba . والمسافة بين الحداد والبويرض تزيد على مسير يوم أو ما يزيد على ذلك . وكل ما هو موجود داخل الحداد يطلقون عليه اسم ألشفا Es-Shefa ، وكل ما هو خارج الحداد يطلقون عليه اسم التهامة et-Tehāma ، بل إن البويرض ، فى أسلوبهم المهيّب ، لها مفهومان فى الشفا . وكل ما عدا ذلك ، فى رأى المواءهيب هو "التهامة" ؛ (نظرا لأن البدو يندر أن يتفقوا فى وضع حدود للصحراء المفتوحة) وهذه المنطقة تمتد من حافة الحرة حتى البحر .

والفراع el-Farā يقع فى منطقة تهامة الشفا ، والفراع هذا عبارة عن قاع سهل من السهول ، تنمو فيه عيدان الخيزران . ومياه السيول تصل إلى ذلك القاع قادمة من كل من جولة والوتيد من ناحية ، والسيول القادمة من الوديان وكثير من القلوج فى البويرض من الناحية الأخرى . هذه هى الرعوس الموجودة على هذا الجانب من الحرة ، أو إن شئت فقل : المجارى المائية الحجازية الكبرى فى وادى الحمض el-Humth . هذا القاع العلوى ، الذى ينخفض عن الفراع يطلق الناس عليه هنا اسم وادى نجل Nejl ، الذى يستقبل مياه السيل القادم من جاو Jau ، ومن بعده وادى نجيد Nejid . ووادى نجد ينحدر من جبل من الحجر الرملى وله رأسين ، ويطلقون عليه اسم شرافات النجيد Nejid . وهذا النجيد ليس هو نجد ، ذلك الاسم الذى يطلقونه على ذلك الجزء الضخم المرتفع من البلاد ، الذى يعد أفضل الأقسام التى أطلق عليه الجغرافيون القدماء اسم القسم "الرعى أو البدوى من الجزيرة العربية" . وهناك تباينات كثيرة بين هاتين الكلمتين عندما تجريان على ألسنة البدو ؛ والبدو يتعجبون ويضحكون عندما لا يستطيع لسان أجنبى محاكاة تامة . ووادى-نجيد هذا يقع على طريق

القوافل ، بين قريتي العلا والوجه : والمسافة بين هذا الوادى والمناطق الداخلية تقدر بيومين ، ولكنهم يقطعون الوادى وحده فى يوم واحد . والفراع أيضا ليس هو الفراع Ferrá ، ذلك الاسم الذى يطلق على واحة من واحات قبيلة حرب فى الجبال الواقعة بين الحرمين ، هناك وادى آخر ينزل من ناحية الغرب فى الشرافات - متجها صوب البحر ، ويطلقون عليه أيضا اسم وادى نجيد ؛ وهذا الوادى يتجاوز البداع Bédac ويصعد إلى قرية الوجه . والبداع هذه عبارة عن موقع أثرى ينمو فيه شجر الدوم أو نخيل الجوز البرى ذى الأغصان . وفى الفراع توجد هجرة ، أو إن شئت فقل : مجموعة دائمة من خيام البلى ، الذين يقومون على أمر قلة قليلة من النخيل . والمكان يبعد عن قرية البحر مسير يوم واحد ، حسبما يقول محمد المغربى ، ويعد وادى النجيد ، نجد أن ذلك الوادى تنساب إليه السيول التى تأتى منحدرة من الفراع (الذى يطلقون عليه حاليا اسم وادى جزل Jizl) ، ومن الوديان العميقة على جانب الحرّة ، والتى يطلقون عليها أسماء : العروش Aurush ، والدوخان Dokhân ، وظاع Thá ، وجيله Gaila وهى الوديان التى توجد فيها الجرّية(*) gerÿa ، أو إن شئت فقل : هجرة (**) من خيام الزراع الموءهيب . هذا الوادى يستقبل من ناحية أخرى ، مياه السيل القادمة من وديان الحريرى Hareÿry : التى من بينها بعض الوديان ، مثل وادى جيدة Jaida ، وهى عبارة عن وديان نخيل ، يرعاها بدو البلى ويقومون على أمرها .

جبل العويرض البركانى المنبسط ، له ثلاثة أعضاء تقع فى الشمال والجنوب ، وتمتد إلى مسافة مائة ميل تقريبا . والناس يعرفون أن الرحلة فى أى مكان من أماكن هذا الجبل تستغرق زمن الصيف بكامله ؛ هذا بالرغم من أن المسافة فيما بين وادى تربة Thirba ووادى عروش لا تستغرق سوى نصف يوم فقط . ومعروف أيضا أن الأسماء الأرضية تتكرر فى معظم الأحيان فى الجزيرة العربية ؛ وهذا جزء من جبل أجا Ajja (فى جبال الشمر ،) يطلق الناس عليه اسم العويرض كما أن هناك جزءا

(*) الجرّية : بكسر الجيم وفتح الراء وتشديد الباء ، تعنى القرية أى تصغير قرية ، والبدا يقبلن القاف جيما فى كلامهم . (المترجم) .

(**) الهجرة : مجموعة صغيرة من خيام البدو ويقال لها أيضا قَرْيَة . (المترجم)

آخرًا في شرقي نجد يعرف باسم العروض el-Aruth . وكل هذه الأماكن تشترك في مغزى واحد هو "الاتساع" . والجزء العلوى من العويرض ، أى الجزء الذى يلى تبوك مباشرة ، يسميه (البدو الرحل الذين يقيمون فى المنطقة) ، باسم "حرّة السُدنين" es-Sydenyin ، الذين هم جماعة معروفه لبنى عطية ؛ ونساء هذه الجماعة يضيفن خصلة الشعر الأمامية على شكل قرن يتدلى فوق الجبهة ، وتزينه ببعض حبات الخرز ؛ ويتردد هنا أن هذه الجماعة كانت واحدة من الجماعات التى تمت إلى البلى بصلة قرابة ، وأن هذه الجماعة كانت من جبل سيد Seyd فى تهامة ، كما أن جبل سيد هذا لا يبعد كثيرا عن قرية الوجه . - والناس هنا ينسبون بدايات أية سلالة نسبية ، أو قبلية أو أمة إلى جبل من الجبال ، بالرغم من أن مثل هذا الجبل قد يكون بعيدا جداً عنهم ؛ - وعليه فإن القحطان ، الذين يعدون من أنقى الدماء فى جنوب الجزيرة العربية ، يقال إنهم جاؤا من جبل من جبال عسير والقبيلة التى تقوم بغزو ديرة قبيلة أخرى ، تقوم بالاستيلاء على جبل من الجبال ؛ من هنا فإن اسم معقلهم الجبلى القديم ، لا يغفل موروثهم عن ذكره ، بالرغم من أنهم قد يكونوا أبعدوا عنه منذ زمن طويل . - وأرض حرة السدنيين الجبلية المنبسطة عبارة عن "سهل ، ووديان ، وفيها أيضا بعض التلال البركانية" .

الحرّة الثالثة ، وهى توجد فى الوسط ، يسميها البدو ، الخُذيرة el-Khuthéra ، وهى أيضا فرع من بنى عطية . وادى الرموضة Rumûtha الذى ينزل قادما من القسم الشمالى الغربى ، فيما بين تلال الشيبان Sheybân والوتر Witr ، يتجه صوب الشمال الشرقى ، وهو يفيض فى الداخل فى اتجاه تبوك ، حيث يقطع طريق الحج فى هذه المنطقة وبذلك يعتبر حداً من حدود ديار الموءاهيب ، ومشكلا بذلك أبعد أجزاء الحدود العنزىة من ناحية الجنوب . ولعلنا نذكر ، وادى الخدار ، ذلك الوادى الرئيسى الذى ينزل هابطا من شرقي الجبل ، ثم يعبر طريق الحج من ناحية القلعة ؛ ومعروف أن طول المسافة من هذا الوادى ، والتى تمتد خلال رمال الصحراء ، تقدر بحوالى أربع رحلات . والسبوت S'but ، الذين هم أيضا فرع من بنى عطية ، يتجولون فى القسم الغربى فى الحرّات الشمالية ؛ هؤلاء السبوت ، نكتشف عندهم استعمالا قديما ، ورد ذكره عند

والين Wallin (*)، الذى عندما كانوا يعبرون هذه الأجزاء ذات يوم ، قادمين إليها من المويليح Mueyliih متجهين إلى حائل Háyil بماشيتهم ، ليعيدوها على صوت جرس عند المساء . قد يبدو مثل هذا العمل أمرا شاذاً فى الجزيرة العربية ، ولكن الشيء نفسه نجده أيضا عند فروع أخرى من المعازى Maazy والحويطات . والجاو Jau يقسمون الخذيرى Khúthery من ناحية حرة المواهيب الثالثة والأخيرة . والبدا يطلقون كلمة الجاو Jau (وجمعها جيان Jian) على الأرض التى توجد فيها مياه منخفضة ، ومعها أيضا آبار فى الصحراء ؛ وبناء على ذلك ، يجوز لنا القول بصورة عامة إن مصطلح الجيان إنما يطلق على آبار الأرض المنخفضة ، عند قبيلة من القبائل ، كما هو الحال فى جيان Jian البشر Bishr . أما الجاو العظيم فهو عبارة عن سهل أجوف ، يقع فيما بين الصخور الرملية عند الصخور السفلى من الحرّة ، والتى تبرز أيضا على شكل رف من ناحية الشرق ، ومصب ذلك الجاو تقفله ، إلى حد ما ، بعض كتل الصخور الرملية . وطريق فرق الغزو ، يمتد خلال هذا السهل ؛ وبذلك يستطيع أولئك الغزاة تحاشي المرور الصعب خلال الحرّة للإبل التى لا تكون متجهة إلى منزلها ، كما يقللون أيضا من تعرّفهم وكشف مستورهم . والطريق فى هذه المنطقة يقع بين الوجه وقرية تبوك ؛ وهذا الطريق يقدر طوله بحوالى سبع رحلات ، من رحلات الإبل المحملة . والناس هنا متعارفون على أن ذلك الجاو يمثل ، بطبيعة الحال ، الحدود بين أهل قبلى Gibly وأهل الشمال Es-Shemal ؛ أو إن شئت فقل: إن هذا الجاو يمثل الحدود الطبيعية بين أعراب الشمال وأعراب الجنوب . أما الحرّة الثالثة الجنوبية التى يتعين علينا تناولها هنا ، فهى عبارة عن غطاء هائل من المادة البركانية القديمة ، تتخلله أعداد كبيرة من قمم التلال البركانية ، فوق جبل منبسط من الحجر الرملى . هذا ويزيد متوسط ارتفاع الفيضانات البركانية فى الأجزاء الشمالية التى قمت بزيارتها ، عن ٥٠٠ قدم ، أما رأس عناز Anáz ، التى تعد أكبر تلة من بين التلال ، فيصل متوسط ارتفاعها إلى حوالى ٧٦٠ قدم .

(*) والين Wallin : جورج أغسطس والين ، رحالة فنلندى قام فى عام ١٨٤٨ برحلة إلى شمال الجزيرة العربية ، وف تلك الرحلة زار مدينة حائل على عهد عبد الله بن الرشيد الذى تولى الحكم فى عام ١٨٢٥ على جبل شمر من قبل الإمام فيصل بن تركى ، انظر Notes taken during a Jownly thraugh Part of Northern Aorabia, Royal Geograpli Cal Sociriy, XX, 1851. (المراجع)

رأس وادى الحمض el-Humth ، على الجانب الغربى من الحرّة ، تمثل السيل القادم من وادى Wady قريب Garib ؛ هذا الوادى يمتد من هنا ، من خلال كل من Thorreyd ، وسهل الحجر ، إلى قرية العلا ؛ ثم يمتد من العلا متجاوزاً إياها ، إلى بئر الفرنم (الغنيم) el-Gharannem ، الذى يستقبل مياه السيل القادمة من وادى الصنّدر es-Sodr ؛ وهذا المجرى المائى الجاف يتصل به هنا الفرع الغربى من وادى جزل الذى ينزل هابطاً إلى تلك المنطقة قادماً من الشفا Shéfa . والحرّة التالية من سلسله حرّات العويرض ، هى تلك الحرّة الصغيرة التى ورد ذكرها مؤخراً تحت اسم الحيرى El-Hareyry ، التى هى أيضاً عبارة عن أرض منبسطة من الحمم البركانية القديمة فوق جبل من الحجر الرملى ؛ وهناك بعض التلال البركانية فوق هذه الحرّة . وحرّة الحيرى أعلى من الحرّة الرئيسية ، وشكلها مستدير ؛ وهى تابعة لقبائل البلى .

ونحن نرى فى سلسلة الحرّات هذه منظر الغنف البركانى القديم الذى عصف بذلك الجانب الحدودى من شبه الجزيرة العربية . ولقد تتبعت تلك الحرات حتى مدينة مكة ؛ وذلك خلال ما يقرب من سبع درجات من دوائر العرض . ووسط العويرض قد يصل إلى ما يقرب من مائة وعشرين ميلاً بدءاً من جانب البحر الأحمر القاحل الجذب؛ الذى شاهدت فيه شعاباً مرجانية مرتفعة ، التى تعد وثائق لمستويات أرضية ومائية مختلفة كان لها وجود فى أزمان العالم القديم .

ونحن عندما تلقى نظرة على العويرض ، لم يكن سهلاً علينا تمثّل قصة تلك القسمات أو الملامح الطبيعية ؛ هذا هو جبل منبسط من الحجر الرملى ، تصل مساحته إلى حوالى ألفى ميل مربع عند الحافة ، وفيه الكثير من التدفقات البركانية العامة ؛ كما نرى بعد ذلك ، حولنا حدوداً خراباً من الصخور التحتية والإبر المكوّنة من صخر الحجر الرملى ، وقد هوت إلى السهول المنخفضة . - من هنا يبدو لنا أن الفيضانات البركانية ساعدت على المحافظة على الصخور الرملية الهشة الموجودة تحتها ، فى الوقت الذى تآكلت فيه منطقة الحجر الرملى القديمة وتحولت إلى بياض بفعل معظم التحلات البطيئة ، وعلى نحو يجعل هذه الكتلة من العويرض التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ستمائة قامة ، كما لو كانت جبلاً كبيراً ، كانت أرضيته فى الزمن القديم هى عبارة عن سهول الحجر الرملى المنخفضة فى الوقت الراهن !

عندما استعرضنا كثافة تلك الفيضانات البركانية ، أمكن لنا تصور البداية الأولى لتلك الحرة - هذه الأنهار البازلتية المتراكمة فوق بعضها ، والتي تتجلى فى جدران بعض انكسارات هذا الوادئ من وديان العويرض الجرداء القاحلة . وعندما وجدنا أن التلال البركانية هنا ليست أعظم من مثيلاتها فى أماكن أخرى ، توصلنا إلى افتراض مفاده أن الكثير من تلك التلال (كما هو الحال فى تلة مونت Monte نوفو Nuovo) إنما هى عبارة عن أنواع من الخبث والمسحوق الذى ينبعث مع فورة بركانية شديدة . يضاف إلى ذلك أن الحمم البركانية الفوقية هى أقدم بكثير من الشكل الذى عليه الأرض فى الوقت الحالى :- وأنا أندھش تماما فى هذا البلد عديم الأمطار ، عندما ألقى نظرة على بازلت الحمم البركانية فى هذه الحرّة ؛ هذا البازلت مشقوق ، ومفتوح إلى عمق يصل إلى حوالى مائة قامة ليصل بذلك إلى بعض الوديان الأرضية ، كما هو الحال فى جبل تربة Thirba . كتل هذا البازلت متأكلة على شكل أخاديد فى الأجزاء الضعيفة منها ، بفعل أى شئ يتحرك فوقها ؛ ولكن يا لهذا التآكل العظيم الذى حدث فى "أحجار الحديد" ، تلك الأحجار التى هى مادة يصعب تحطيمها أو قهرها ! ونحن نفهم من نقوش الصخور فى مدائن صالح ، أن سمك المسمار لا يمكن أن يضع من وجه الحجر الرملى الناعم ، فى ظل مناخ مثل مناخ الجزيرة العربية ، وعلى امتداد ما يقرب من ألفى عام !

هذه هى الكتل العجينية كل واحدة منها مشروخة من البيئة المحيطة بها ؛ وهذا النوع من الشقوق أو الشروخ ، يفترض أن يكون مفتوحا فى إطار ذلك الحجر الرملى ، المحمل على رأس غازية من الحمم البركانية الكواكبية ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه الشروخ عندما تنتفخ بفعل العنف الهائل ، فإن ذلك يحتم على الحمم البركانية التصرف على شكل شروخ طبيعية كثيرة ، كما يترتب على ذلك ارتفاع بعض هذه الشروخ والفلوق إلى أن تصل التربة عند سطح الأرض ، لتتساق خلالها على شكل اندفاعات من بخار الماء فائق الحرارة ، يكون محبوسا ومتمثلا فى شكل بحيرة أو بركة من الحجر المنصهر ، مكونا بذلك مع انبعاثات الحمم البركانية ذلك الاستعار البركانى الهائل . وفى العام ١٨٧٢ الميلادى كنت شاهداً على ثورة بركان فيزوف . Vesuvius وبينما كنت واقفا وحدى منذ طلوع الصبح على قمة جبل من الجبال ، فى ذلك اليوم

على وجه التحديد الذى ثار فيه البركان ، كانت قدامى تخوضان حتى ساقيهما فى مسحوق الكبريت ، المتراكم فوق تجويف مشتعل من الحمم البركانية : وفى وسط ذلك التجويف كانت توجد مدخنة على شكل ضرع ، تكونت منذ فترة قصيرة ، وكانت تفوح منها أنفاس حافرة أو قارضة؛ والتي ظهرت أثناء الليل ، لأولئك الذين كانوا فى السهل، كما لو كانت إشارة نارية تتساقط منها حمم بركانية . ومن أسفل هذه المدخنة كان هناك مركز جديد ضعيف من مراكز الفوران اليومية ، وكان ذلك المركز عبارة عن بركة من الحمم البركانية المنصهرة ، والتي كان يصدر عنها كل تلك الضوضاء والجلبة الشديدة من داخل الجبل ، وكانت تتبعث من تلك البركة ، بين الحين والآخر ، طائرة فى الهواء حشود من المقذوفات شبه المنصهرة . اقتربت من ذلك التخمر المخيف ، ورحت أراقب تلك البركة النارية التى كانت تصعد إلى الأعلى عند أجنابها وتفور من وسطها كما لو كانت عينا أو نبعا من المعدن ، - ولأحظت فى تلك البركة وجود غشاوة فى الهواء ، مثل تلك الغشاوة التى تطفو على سطح الطيب الساخن ، نوع من الزبد الطرى ، الذى لم يدم سوى لحظة واحدة ، - وفى الفورة الثانية ، وبانفجار مخيف ومرعب ، يشبه انفجار المدفع البخارى ، بسبب التكسير المخيف فى الريح الناتجة عن الأبخرة المكتومة ، المتصاعدة من النار الجهنمية الموجودة تحت السطح ؛ هذا الانفصال اندفع طائرا نحو الأعلى فى الهواء كما لو كان لوحا من الألواح ، محدثا دويا وهو يرتفع ، ثم انفصل ذلك اللوح متفتتا ؛ شاهدت ذلك اللوح وهو يصعد مندفعاً إلى الخارج ومنقسماً إلى عدد كبير من الشقوق الصغيرة والكبيرة . وتتساقط تلك الشقوق ، وهى تحدث حفيفاً وصفيراً فى الهواء ، وتتساقط طرية بالرغم من ارتفاعها مسافة نصف ميل نحو الأعلى ؛ ويهوى القسم الأكبر من تلك الشقوق على شكل صخور كبيرة ، كان البعض منها عبارة عن قشور ضخمة تشبه أحجار الأعلام . كان جانب البركة يسيل منه ميزاب من الحمم البركانية .

فى فترة العصر ، ارتفع وزن المعدن المنصهر داخل بطن تل البركان (الذى هو عبارة عن جدار من المسحوق البركانى وعروق من حمم بركانية قديمة ، ويشبه حفرة مليس الجبس ولكن داخل وعاء من الرمل ،) ؛ هذا المعدن المنصهر بدأ يأكل ذلك الجدار ، ويتسرب عند منتصف ارتفاع ذلك التل ، خلال جوانب التل المتأكلة ، التى كان

ينبثق منها شلال من الحمم البركانية . وتساقطت فوق بعض الأشخاص التعساء الذين كانوا يقتربون مصادفة في تلك اللحظة المخيفة من المكان ، زخة نارية من المسحوق البركاني ، أحرقت ملابسهم ، وكذلك أجسادهم إلى حد الوفاة ، إذ لم يبقوا على قيد الحياة بعد ذلك سوى ساعة واحدة . وهذا شاب خابت كل مساعيهِ وابتلعتهُ وهو يتألم الحمم البركانية التي كانت تطارده ، تلك الحمم الذي كان تيارها كبيرا كبر تيارات نهر التيمز في منطقهِ كوبري Bridge لندن . - وهنا بدأت الحمم البركانية السفلى ترتفع بدورها خارجة من بطن البركان العميق ، والتي تحتبس في داخلها عنفا توسعيا أشد وأقوى من عنف الحمم البركانية العليا ، وبذلك يكون الطريق إلى قمة الجبل قد أصبح مشتعلا الآن ، كما بدأ بالفعل دمار كبير في أعلى الجبل .

قبل طلوع نهار الغد ، كان نفق الجبل هو وكأسه قد تحول إلى غلاية كبيرة من الحمم البركانية ، غلاية كبيرة بحجم مدينة كبيرة ، راح لهيبها المخيف يثير الرعب والاضطراب في التربة على امتداد مسافة مسير نصف يوم من جميع النواحي والأجناب . وهذه هي المادة المعدنية السائلة العليا ، تختلط بالهواء ، وتتفرق على شكل حبيبات دقيقة تختلط بالبخار المندفِع ، وهماى تبرد فجأة متحوّلة إلى مسحوق يتساقط على الأرض ؛ وهذه هي سماء من البخار الذي يشبه المطر ، وسماء أيضا من الدخان الذي ينتشر على مساحة كبيرة في الأعلى ، ويطوق هذه العاصفة البركانية العاتية ، هذه السماء مشحونة بشحنة كهربية أكبر بكثير من طاقتها ؛ والرعد الذي يصدر عن ذلك الذي يدور هنا ، يصعب تمييزه في وجود هذا الطنين الهائل الصادر عن البركان . وهذا هو الهواء ، وعلى امتداد عدة أميال من حولنا ، وطوال أيام كثيرة ، ظل مليئا بالإشارات الخادعة ، والطنين المخيف الصادر عن هذا الجبل . وتهب مع الريح أمطار غبار الأعاصير على مساحة واسعة من البلاد ؛ وتتساقط بقايا الجمار المحترقة في كل الدائرة المحيطة بالجبل ، كما يتساقط خبث الأشياء المحترقة بفعل أوزانها على جانبي البركان ومن حول فوهته ؛ ويكون بين هذا الخبث بعض من قطع الصخور الغريبة ، التي جاءت أصلا من الإطار التحتي للأرض (أى من عمق ٥٠٠٠ قدم) ، - هذه الصخور في بركان فيزوف هي من الحجر الجيري . والنظر الذي يراه من ينظر إلى ذلك الفوران من سرج الجبل ، أثناء الليل ، عبارة عن لافحة متقدمة على شكل حزمة

أرجوانية وحمراء اللون تنبعث إلى الأعلى بشكل مخيف ، محدثة دخاناً أسوداً يخرج من الفجوة البركانية ، التي وصل اتساعها حالياً ، إلى نصف ميل تقريباً . وهذا هو الضوء المخيف لذلك الوهج الكوكبي يخفت قليلاً بفعل ذلك القناع الكثيف من الغبار البركاني الذي يتساقط على المكان ؛ وهذا هو ظلام ، وغبار أسود بلغا من الكثافة حداً لا نستطيع معه رؤية أيدينا ، أو الأرض من تحت أقدامنا ، وها نحن نتكئ على جدران تهتز ، وهذا هو الجبل يخفق ويلا توقف من تحت أقدامنا : وعلى بعد مسافة ميل تقريباً ، ووسط استعمار ذلك الصراع العنصرى ، لا يستطيع الإنسان سماع صوته أو حتى صوت جاره . - وتمر الأيام ، وتحتضر معها بصورة متدرجة تلك الانفعالات والفورات المنبعثة من جوف الأرض ، مؤذنة بانتهاء تلك الثورة البركانية .

بعد أن يتخلص الرحم البركاني من أحماله السطحية ، يتساقط عمود الحمم البركانية ، خلال التآرجحات الأخيرة ، فوق جنور التل المجوفة ، تظل تلك القوة النارية عند هذه الجذور تحت قشرة سميكة وتروح تبرد شيئاً فشيئاً . وهناك قد تتكون خلال جيل أو جيلين كتل كبيرة فى بعض القنوات أو المجارى التي لا يزيد عمقها على بضعة قامات ؛ ونحن نقول بذلك ، من واقع الخبرة التي لدينا فى هذا الموضوع . وعندما تنقضى عصور كثيرة من الراحة ، يبدأ ذلك النفق البركاني فى الاندمال اندمالاً محكماً بالقرب من سطح الأرض . وفيما يتعلق بأى جيب من الجيوب المعدنية الأرضية المنصهرة ، التي تكون على مستويات منخفضة ، وعلى شكل بركة أو بحيرة فى الأسفل ، يجب ألا نفترض أن مثل هذا الجيب ينتج عن عملية التبريد لفترة زمنية طويلة تقاس بالسنين الفلكية ؛ كما يجب علينا أيضاً أن لا نسلم أن التداخل بين المواد يتوقف عند القسم المنصهر فى جوف الأرض . والبركان عندما ينشط من جديد ، يجعلنا نتوقع تورم أو انتفاخ ذلك الرحم المعدنى المنصهر ، ليحدث شيئاً مثل ذلك الذى حدث فى الفورة الأولى ؛ - ولكن هذه الفورة الثانية ، قد تخمد بفعل بعض مياه البحر . وهنا يتعين على الصخر البازلتى أن يلين مرة أخرى عندما تزداد الحرارة البركانية ؛ وإذا لم تحدث تلك الليونة ، قد ينتفخ طريق مفاجئ عن طريق تمزيق قوة العناصر التي يصعب كبح جماحها فى المنطقة العليا . - ترى هل كلمة "Lava" الإنجليزية هي كلمة "لابا" Laba العربية ، ثم دخلت إلى لغاتنا الأوروبية عن الإيطالية المغربية

فى جزيرة صقلية(*) ؟ وصقلية هى ذلك المكان الذى عثر فيه المحتلون العرب على كثير من الأشياء التى يمكن أن يطلقوا عليها ذلك الاسم "لابا" Laba . واللابا عند أهل الجزيرة العربية (وهى تتمثل فى ذلك الجزء الذى أتناوله من الحرّات الكبيرة - التى أعرفها حق المعرفة ، وهما حرة العويرض وحرة خيبر) لا تقتصر فقط على كل ما يمكن أن ندرجه تحت هذا الاسم ، ولكن ذلك الاسم يطلق أيضا على الكتل البازلتية ، كما يطلق أيضا على البازلت المسحوب ، وعلى البازلت الحاد ، فضلا عن إطلاق ذلك الاسم أيضا على سائر أنواع البازلت الزجاجى : هذا لا يعنى أن كل أنواع الخبث ، أو نفايات المعادن ، أو بقايا الفحم الحجرى ، أو الأحجار النارية يمكن أن تندرج تحت هذا الاسم .- هذا هو كل ما عندى عن هذه الديرة البركانية .

التقاء أفرع وادى جِزْل Jizzi ، خلف جبل الحريرى ، ووادى الحمض es-Humth القادم من الجنوب ، وكذلك وادى العيص el-iss مَوْقَعٌ على الخريطة ، بعد تلك الخريطة التى استلمتها أو أخذتها من الأعراب . ففى وادى العيص توجد ستين عينا (قد تكون ست أو أكثر) وحوالى مائة وثمانين (ثمانية عشر أو أكثر) بئر ، كما يوجد فى ذلك الوادى أيضا أنقاض قرى قديمة ونخيل الدُّوم . ونخيل الدُّوم ينمو هنا حول كثير من المناطق السكنية المهجورة فى ذلك القسم من الجزيرة العربية الذى لا يعرف الندى ، والذى تكون المياه الجوفية فيه قريبة من السطح ؛ كما هو الحال بالنسبة للورد البرى الجميل ، وكذلك نبات القرأص Nettle الربيعى فى الديار الشمالية . وفى وادى القرى Kora الذى تقع بدايته فى الحريرى ، توجد بعض أنقاض القرى ، التى هى أنقاض صلصالية يقولون عنها إنها لا قيمة لها . ووسط أنقاض هذا الموقع الصلصالى ، توجد قلعة ، أو إن شئت فقل معقل ، غير متقن البناء . والاسم وادى "القرى" يعنى ، على حد قول الأعراب ، "الوادى الوعر" أو إن شئت فقل : "الوادى غير المستو" ، الذى هو أمر شائع فى كل أنحاء البلاد . وهناك وادى قرى آخر فى اتجاه الجنوب ، توجد بدايته

(*) من المعروف أن العرب حكموا جزيرة صقلية واستوطنوا فيها ما يقرب من قرنين ونصف قرن ٨٢٧-١٠٩ وكان لذلك أثر كبير فى إحداث تغييرات حضارية لم تقتصر على صقلية وحدها وإنما امتدت إلى الأقاليم المجاورة لها فى أوروبا كما انتقلت الكثير من المفردات العربية إلى العديد من اللغات الأوروبية . (المراجع)

فى حرة خيبر ، (وفيه أيضا مواقع أثرية ، وماء يخرج من الأرض ، ونخيل من نخيل الدوم) ، وهذا الوادى يلتقى بوادى الحمض العظيم بالقرب من منطقه سُجوة Sujwa . وواديا تهامة : وادى العمودان Amudân ووادى الذرى Therry ينزلان من منطقة الجبل الرملى المجاور للحيرى، ويمران خلال جزء رملى عميق ، متجهين إلى وادى الحمض ؛ وهذان الواديان من ديار البركات Barakat (الذين هم فرع من البلى) ومن ديار أعراب جهينة أيضا .

- مسألة دراسة البدو فى هذه الديار تعد فنا من الفنون ؛ ولقد تحملت الكثير من الآلام عن طيب خاطر ، على أمل أن تضيف حياتى التى ستنتهى ، شيئا قيما إلى الجغرافيا الأوروبية . ومعرفتنا بشبه الجزيرة العربية ، التى تصل مساحتها إلى مساحة الهند على وجه التقريب ، ما تزال معرفة قاصرة بشكل كبير ، عن معرفتنا بأى بلد آخر من بلاد الدنيا التى تستحق الزيارة . ومعروف أن التساؤلات التى من هذا القبيل تكتنفها مصاعب كثيرة ؛ فضلا عن بلادة الأذهان بشكل عام ؛ فإن تلك القلة القليلة من الشيوخ ، الذين لديهم عقول أفضل ، ويمضون كل حياتهم التى تقوم على الحاجة والعوز فى ظلال خيامهم ، هم الذين لديهم أقل القليل من هذه المعرفة الجيدة . والغالبية العظمى من هؤلاء الشيوخ يستخفون بالأسئلة التى تطرح عليهم ، وهم يظنون أن أسئلتك لا طائل منها ، ويحسبون أيضا أنك معجب ومتيم بما يقولون . صحيح أننا يمكن أن نحصل على إجاباتهم وردودهم الملتوية التى تقوم على اللف والدوران ، ولكن تلك الإجابات والردود تكون بشيء من التردد والقلق من هؤلاء الأشقياء المولودين فى الخلاء ، ويغارون على مياههم وديارهم التى يتجولون خلالها . عقلاؤهم الذين يمكن أن يقولوا ما يعنون بصدق ، يملكون عقولا لا أمل فى إصلاحها . ولم يصبها أى شيء من التنقية والتطهر على إثر المعرفة التى أصابتها ؛ هذا يعنى أن تلك العقول يصعب عليها الاحتفاظ حتى ولو بمقياس واحد عن الطول والعرض . والعقول التى من هذا القبيل تقول لك : اهدأ ووسع صدرك - نظر لأنهم لن يزوروا العلامات الأرضية - داخل ديارهم ؛ ولكن الأراضى التى تكون خارج نطاق ديارهم لا تدخل فى نطاق معرفتهم ، أو إن شئت فقل : تظل خارج نطاق معرفتهم . كنت أعجب فى بعض الأحيان عندما أرى كيف تختلف آراء أصحاب الربط والحل حول الديار المجاورة لهم ، بل إن من

بينهم الكثيرين الذين لا يعرفون شيئا ولكن إمعانا منهم فى إرضائك ، تراهم يروون لك أسطورة فى آخر الأمر ، وأنا قبل أن أدخل الجزيرة العربية ، كنت قد أمضيت بضعة أشهر مع بدو سيناء ، والبدو الذين يعيشون فى المنطقة الواقعة خلف الأردن ، وجدت ذكر هذه الأماكن على ألسنة أهل الصحراء : وفى سنوات آخر كنت أنزل مع بعض الأسر السامية المختلطة من السوريين ، وعندما بدأت رحلتى من دمشق كنت قد تعلمت الكثير عن هؤلاء البدو . وعندما كنت مع الأعراب كنت أنصت جيدا للرجال المخلصين الذين كانوا من بين رفاقى ومعارفى . وفى كثير من الأحيان ، كنت أستخلص ، من خلال كلامى مع مختلف الأشخاص ، كثيرا من الإجابات والردود الصحيحة ، فضلا عن أنى كنت أستخلص ، من مجرد كلمة يقولونها لى بطريق المصادفة ، كثيرا من المعلومات عن العلامات والحدود الأرضية . كنت أركز انتباهى على ردود الغرباء ، وكنت أستعيد تلك الردود مرة ثانية عن طريق الأصدقاء ؛ كنت أكرر السؤال نفسه على الشخص نفسه أكثر من مرة ، وأتدبر الردود لأخرج منها بما هو دقيق وصائب ، وبالتالي أتحاشى الردود الأخرى كلها ، هذا يعنى أنى تحاشيت البناء على أشياء لا طائل من ورائها .

لم يكن الشيخ مطلقا شيخ بدو الفجير ، الذى يراعى الحذر فى تسيير أمور قبيلته ، لم يكن على استعداد لإعطائى شيئا عن الأرض فى هذه البلاد ؛ فى ذات يوم ، بينما كنت أسأل قبليا ، فى خيمة مطلق ، عن وادى العيص العظيم ، وبخاصة أن ذلك القبلى كان قد شارك فى الغزو الذى دار فى تلك الأجزاء من البلاد ؛ هنا وجدت مطلق يسأل هو نفسه قائلا : "خبرنى ، كم يبعد وادى عيص Iss عن قرية الحجر؟" وربما كان ذلك مثالا على جهل الشيوخ هم والبدو الرحل بالمناطق الداخلية ، وذلك فى الأمور التى لا تخصهم ولا تعنيهم . هذا الوادى العظيم ، أو إن شئت فقل : وادى العيص el-iss العظيم هذا ، الذى لم يكن بعيدا عنا ، كان فى أرض معادية تنتمى إلى الجهابذة ، الذين تفصلهم الجبال عن بدو الفجير . وأنا على يقين أنه ليس بين البدو أو القبليين أحد يمكن أن يقول لى أكثر من ذلك الذى استطعت تجميعه وتوقيعه على تلك الخارطة

المنشورة مع هذا الكتاب ؛ عن الأرض الصحراوية الواقعة فيما بين تبوك *Tebûk* وخيبر *Kheybar* . قبيلة الجهينة القديمة، التي يمتدحها الناس ويقولون لها "اختيارين" *Ikh-tiarîn* ، نظرا لكرمهم الزائد ، يقول عنهم جيرانهم إنهم أيضا من المصلين ومن الصائمين كذلك إتباعاً لدينهم . وقبيلة جهينة تسكن ديرة وعرة جداً ، وكما يقول العرب ، فإن قسماً كبيراً من تلك الديرة جرانيتي الصخور . وأنا ، بنفسى أيضا ، شاهدت بعض الأصداف المتحجرة التي يسميها الناس هنا "ظفر *Zófr* مريام *Miriam* أم *Umm Sinnakit* ؛ هذه الأصداف هي من الحجر الجيري الذي في هذه البلاد . يضاف إلى ذلك أن ابن الرشيد يرى أن مشروع غزو أولئك الجهينة إنما يعد أمراً صعباً عليه . - والبدو الذين تعتمد حياتهم الضعيفة على زخات المطر ، يتمتعون بفضل غريب فيما يتعلق بمراقبة الأرض ؛ هؤلاء الجهينة لا يوجد بينهم بئس معدم ، يمكن أن يردك في ديارهم سواء نزل أم لم ينزل الغيث من عند الله .

في اليوم الخامس عشر من شهر يونيو وصلنا إلى أعلى نقطة مستوية من الحرّة ، والتي تقع على بعد مسافة خمسة أميال شمالي عناز ، حيث سجل البارومتر ارتفاعاً مقداره ٦٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ولكن الظهيرة في هذا المكان كانت شديدة الحرارة ، وكانت تنهال على الخيام المصنوعة من الصوف . وعند منتصف الليل هبت ريح عاتية إقتلعت خيمة حمدي الطويلة . هذه الليلة الصيفية القصيرة أمضيناها في قلق واضطراب شديد ؛ فقد ضلت الإبل فيها طريقها ، كما هُصي لنا أننا كنا نسمع أصواتاً غريبة في الحرّة ؛ كما أن ربا *Rubba* ، الراعى المريض ، استيقظ قبيل الصباح ، على إثر ألم ووجع مبرح ، وراح يتأوه بصوت عال وطويل ويجأر إلى حد أن أخيه ظن أنه كان يعاني سكرات الموت . سمعت ذلك الراعى المريض وهو يحول أنينه إلى ما يشبه الإنشاد إذ كان يقول : "يا ربى ! أنا أيست من حالى ، وأنت تكوينى *Tekúbbny* " بمعنى "يا رب ! لقد ينست من حياتى ، فخذنى !" ثم راح ينتحب انتحاباً شديداً ، كما لو كان يقيم شعائر جنازته الخاصة . ناديت ذلك الراعى المسكين وطلبت إليه أن يتمالك نفسه ، قدر المستطاع ، حتى يهئ لنا شيئاً من الراحة ، نظراً لأن نباح الكلاب أيقظنا الليل بطوله . وعقب ذلك مباشرة راح شقيق ذلك الراعى يغنى غناءً فجاً . وعندما لمت في الصباح ، على ما فعل ، أخبرنى أن درجه حرارة ربا ، شقيقه ، كانت

قد بدأت تنخفض مما يعنى أنه أوشك على مفارقة الحياة . - سألته : "ولماذا كنت تغنى بتلك الطريقة الفجة ؟" - "حسن ، قال الرجل ، لقد فهمت ، أنت لا تعرف عاداتنا وتقاليدنا ، فنحن هنا نغنى للناس وهم يحتضرون ."

رحل الأعراب عن المكان مع شروق الشمس ، وبينما كنا نسير بالقرب من عناز شاهدت القمة وكثتها مشط من الحمم البركانية الوعرة . أنا الآن أرى الجبل من ثلاثة جوانب من حولى ، وهو عبارة عن مخروط كامل فى كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة . كانت كومة الغبار البركانى تبدو لى أكبر بكثير من مثلتها فى بركان فيزوف فوق المرصد . ومن فوق أعلى نقطة منبسطة فوق الحرة شاهدت منظرا عجيبا من فوق أرض بركانية منخفضة ، حيث نزلنا حاليا عن طريق أجانب تل فوهة البركان من ناحية والحمم البركانية الحارة من ناحية أخرى ، والحرة عند أسفلها عبارة عن شرفة بركانية منخفضة : وهامى الصخور الرملية حمراء اللون تطالعنا من جديد ، بارزة من تحت أنهار الحمم البركانية المتجمدة ، كما تنتشر فى هذه الصخور الرملية الحمراء قشور من الحمم البركانية المفككة . خيمنا فى تلك الديرة المربعة التى تقع على بعد ١٥٠٠ قدم أسفل المنزل الذى كنا نخيم فيه من قبل : كان الأعراب يبحثون عن بركة ماء ، يسمونها أبو Abu ثين Thain ؛ وإذا ما وجدوا فيها ماء فسوف يرتاحون أياما قلائل . وبعد أن يأتوا على ماء البركة كله ، فسوف يتخلون عن ارتفاع الحرة وينزلون طلبا للسقيا من تهامة ؛ أو قد يذهبون طلباً للسقيا أيضا من مدائن صالح ، وقد تهيأت لى هنا فرصة العثور على أحجار الصوان ، هنا فيما بين الصخور البركانية والمشارف ، أو إن شئت فقل : الأراضى العالية التى تطل على الأراضى الأخرى ، كما عثرت على ذلك الحجر الصوان أيضا فى البطين (التل المرتفع) ، الذى هو عبارة عن رف طباشيرى به بعض أصداف المحار ، ومحروق إلى أن أصبح أحمر اللون ، بفعل الحمم البركانية غير الكثيفة التى انسابت من فوقه ، الأمر الذى أدى إلى نوباته وتوزعه بين الصخور على شكل كتل كبيرة منزقة قليلة العدد .

هنا ، فى هذه المنطقة ، طلب منى طُلُجٌ . أن أريه أشياء النصارى الغربية : وفى عصر يوم من الأيام ، وبالرغم من كبر سن طُلُجٌ ، جاء وحده لزيارتي . وعندما نظر مليا من خلال تلسكوبى المزودج قال متعجبا : "يا إلهى ! أهذه هجرة سليمة Sàlema .

هناك عند نهاية المنزل ، هذه هي الهجرة تتراعى أمامى وكأنها منضمة إلى البيت التالى لها ! - وعندما نظر خلال التلسكوب المزدوج وهو مقلوب ، ووجد أن الأشياء اختفت ، فى مسافة لا نهائية ، راح الرجل يتأمل ويقول : " شوف Shuf ، انظر ، يا طُلُجُ ! " وعندما كان طُلُجُ يعبث بكتاب الطب الذى كان معى ، وراح يقلب صفحاته ناظرا إلى الصور ، ومستخدما فى ذلك أصابعه الوقحة التى لا تعرف واحداً من أحرف الكتابة قلت له : " هل أكتب لك اسمك ؟ - انظر هنا ، هذا هو اسمك " طُلُجُ Tollog . - " يا خليل ، قالها طُلُجُ وهو يتراجع خوفا بصورة مفاجئة ، أرجوك أن لا تكتب اسمى ! " وعندما شاهدت التغير الذى طرأ على وجهه قطعت الورقة إلى قطع صغيرة ، ودقنت تلك القطع الصغيرة تحت أحجار الحرّة ، مما جعله يشعر بالارتياح من جديد .

بعد ذلك مرض الشيخ المسن مرضا شديدا ؛ ولم تحضر أية واحدة من زوجاته المحبات له لاستدعاء الحكيم ، - وهذا أمر يندر وجوده عندما يكون الرجل متزوجا من أكثر من واحدة ، وعندما تكون تلك الزوجات وقتيات ، - ولكن أخته المسنة كانت تبكى . كان طُلُجُ Tollog يرقد مستلقيا تحت مظلة ، نصبتها زوجاته له بين أدغال أشجار الوزال العالية التى تنمو فى مجرى السيل ، أو إن شئت فقل "الشعب" es-Shaeb : شرب طُلُجُ بالأمس طاسة من المريسى ، الدافئ ، وازداد حاله سوءا . أعطيته بعض نقط من زيت الكروتون Croton ، كما أعطيته جرعة أخرى من الزيت نفسه فى المساء ؛ وفى اليوم التالى تحسن حال الرجل ، وراح يتكلم وهو فى المجلس ، متفاخرا بالعلاج الفعال الذى أعطاه خليل إياه. وبناء على ذلك ، تردد على كل أهل هذا الرجل ، من أجل تطهيرهم مثلما حدث مع طُلُجُ ؛ " كان الجميع يظنون أننى سوف أقدم لهم العون والمساعدة بلا مقابل كبير فيما يتعلق بغالبية أمراضهم؛ يضاف إلى ذلك، أن النواء كان يروق لهم تماما ، لأنهم كانوا يتسلمون ذلك النواء (مشوبا بالحلاوة والدسامة) على قطعه من السكر ، وفى مقابل ذلك كانت ربات البيوت يحضرن إلى حفنًا من الأرز ومن المريسى أيضا . وفيما يتعلق بطُلُجُ ، فقد كان رجلا أبويا بحق ، كما أنه كان يحسن معاملتى فى كل الظروف؛ وعندما كان يقدم عشاءا لضيف من الضيوف فى خيمته، كان يرسل فى طلب الغريب ليشارك ضيف الله الطعام؛ وكان أرباب البيوت، أو إن شئت فقل غالبيتهم يفعلون الشيء نفسه، عندما يقوم أحدهم بذبح ذبيحة إكراما لضيف من الضيوف.

هذه القلة القليلة من الناس الذين يعيشون فى التلال، لم يتخلوا عن الكرم القديم ، تمتدحهم القبائل كما رأينا : ومع ذلك ، كانت هناك حكاية غريبة تتردد فى خيام هؤلاء الناس . "حدث أن بلوياً Beluwy أو إن شئت فقل : رجلا من رجال قبيلة البلى Billi ، كان يعبر الحرة ؛ وعند غروب الشمس ، وفى المنطقة ، أو المكان ، الذى توقف فيه لقضاء الليل، ظهر له جمل غريب الشكل، ومدّ الجمل عنقه فوق الرجل وراح ينطق بكلام مثل كلام البشر : "هذا الموتان(*) والجفاف الشديد الذى أصبح يداهمنا مرات كثيرة ، هو والجراد ، وبشكل لم يسبق له مثيل ، ويفاجئنا كل عام ، ومع ذلك فأنت لا تعرف سببا لذلك :- لماذا ارتد البدو عن عادات وتقاليدهم وأبائهم ؟ أنتم تجعلون عابر السبيل يعانى عندما يمر ببيوتكم؛ كما أن الجائع يمر عليكم دون أن تسدوا رمقه !" راح العرب يتكلمون عن الشيخ زرافات وجماعات فى خيامهم وفى المجالس ، وهكذا أصبحت هذه الحكاية أمرا شائعا فى سائر أنحاء الديرة . سألنى بعضهم ،- باعتبارى من أهل الكتاب ،- "عن رأيى فى هذا الأمر ؟" كل الناس يعرفون ذلك الرجل الذى رأى ذلك الشيخ على أنه "رجل فاهم وواسع المدارك ."

والمواهب ، بحكم معيشتهم فى ديرة آمنه يصعب النفاذ إليها ، يربون الأغنام والإبل ، ومع ذلك فإن أكبر قطيع من قطعان هؤلاء البشر لا يزيد على مائة رأس من الغنم والإبل . وأغنام البدو الرحل ليست كلها من نوع واحد فى الجزيرة العربية ؛ فهناك أغنام الأراضى المرتفعة فى نجد ، كما أن هناك نوع صغير آخر (يشبه أغنام ويلز فى بلادنا) ، يعيش فى الديرة المتاخمة لحدود مكة . والأغنام العظيمة لها هيكل عظمى هزيل ، ووجه هذه الأغنام معقوف ، وفراؤها خشنة ومشعرة ؛ لحم هذا النوع من الأغنام طرى وخشبي المظهر والتكوين ، - ومع ذلك ، فذلك اللحم دافئ وتذب فيه الحياة، عندما يلقونه فى وعائهم البدوى . زد على ذلك ، أن الحرة مرتعا سخيا للذئاب ، التى طالما أزعجتنا أصواتها التى كانت تصدرها فى الليالى غير القمرية . وهذه هى كلاب البلى طويلة الأنبال ، تقف فى مكانها ، بعد غروب الشمس وعقب اختفاء ضوء النهار ، لتذهب بعيدا إلى مكان قيما وراء موقد النار ، أو إن شئت فقل : مكان خلف

(*) مَوْتَان : بفتح الميم ، وتسكين الواو ، هو "وباء المواشى" . (المترجم)

نار الوجار . كلاب الحراسة تجوب المكان هنا وهناك فيما بين الذئب اللص والقطيع ، وتروح تنبح بين الحين والآخر نباحا مخيفا ، وإذا ما اقترب الذئب من القطيع ، تتراجع أغنام القطيع متدافعة إلى جوار بعضها البعض ؛- وهنا يزداد خوف وقلق الراعى ، وينهض واقفا على قدميه ، ويحسب أن صياحه يمكن أن يعيد الحال إلى ما كان عليه . وهنا يروح البدو الملتفون حول وجار القهوة يحملقون خلال الظلام الكثيف ؛ ويتناول الراعى عكازه ، ويتقدم نحو الأمام وهو يلقي بعض الأحجار ، مناديا على كلابه ومحامسا إياها ، فتعود إليه ثانية وهى غاضبة ، وهنا ينتشر نباح الكلاب فى كل أنحاء المخيم . وهذه الجمال والإبل المسالمة باركة تجتر طعامها طوال الليل الطويل ، هذه الإبل لا تلقى بالا إلى كل ما يدور من حولها ، وإذا ما حدث أن وقف أحد الجمال بفعل الخوف ، رآه الجالسون فى الضوء الصادر عن النار ، وهو يقف على ثلاثة أرجل نظراً لأن الرجل الرابعة تكون مربوطة عند الركبة وتجعله يسقط إلى الأرض مرة ثانية . ولكن عندما نرى الأرجل الرمادية تجرى ، فهناك احتمال كبير أن يكون الذئب قد أمسك بحمل صغير (بالرغم من أن رعوس تلك الحملان تكون مربوطة بعقدة فى حبل على الأرض) ، وهنا يتناهى إلينا قادمة من الظلام ، صوت احتضار الحمل أو التيس المسكين ، وهو بين فكى الذئب المفترس . وعلى هذه الوتيرة كانت القطعان الكبيرة ،- التى تكون أكثر تعرضاً هى الأخرى - تخسر بعضاً من صفارها ، فى كل ليلة من الليالى غير القمرية ، فى كل المنازل التى كنا نقيم فيها فى سائر أرجاء الحرة . والأعراب يتحملون كل هذه الخسائر بصبر دينى . حمدية ، ربة بيتنا ، فقدت ستة حملان فى ست ليالى مظلمة ، وفى كل مرة كانت تقول : "الذئب eth-thib (الذئب) خطفها ، أه من ذلك اللعين !"

كلاب المواءهيب ويخاصة الرعاة ، تظل تنبح حتى منتصف الليل ، إلى أن يؤوى البدو إلى فراشهم طلباً للراحة ، ويستمر ذلك النباح إلى أن يطلع نور الصباح ، وعنده تكون حلو تلك الكلاب قد تعبت وكلت ، وهنا قد تتوقف عن النباح . كلاب البدو هذه يضعف بصرها أثناء النهار ، وتكون مكدودة ومرهقة بسبب الحراسة الطويلة المضنية . بل إن صوتها يكاد يكون ضائعاً خلال فترة النهار . والبدو يندر أن يطلقوا أسماء على كلابهم أو ينادونها بتلك الأسماء ؛ ومع ذلك ، تعرف هذه الكلاب أسماءها ، وهى غالباً

ما تكون أسماء طريفة ، وهى من قبيل الأسماء التى يطلقها البدو على البشر الفانين . من هذه الأسماء ، على سبيل المثال ، "أم ذيل" Ummthail و "أبو سنّان" Abusinnan . أسماء الكلاب تظهر أيضا فى أسماء بعض القبائل وفى سلالات الأعراب المختلفة ، كما هو الحال فى العدوان Aduàn ، الذين هم فخذ من المعازى Maazy فى الحسمة Hisma فوق عقبة المسرى el-Missry ، وفى الشعلان Shalán ، ذلك الفرع من القبيلة (الذى سُمى على اسم عائلة شيخ الفرع) ، وهم من العنوز الشماليين . ومن هذه الأسماء أيضا "ابن سمري" IbnSimry الذين هم فرع من الحطيم Heteym (وقد أطلق هذا الاسم تيمنا باسم عائلة الشيخ أيضا) بالقرب من خير . من بين الأسماء الأخرى التى تطلق على الكلاب : "السوّان" Sowwan (وأم "سوّة" Sowwa) ، والنظّان Nuzzan (وأم نُظّة Nuzza) ، والموشى Mushy ، ورشدان Rushdan ، ودُجّمان Dogman ، وأميرة Ammera ، وأويش Oweyish ، والطُرُاف Tun'fa ، والحفيرة El-háfera ، والنمران Nimrán ، والحجيلان Hajjilan عديلة Adilla ، والهوديبان Huddeban ، وعجيلان Ajilan ، والتوجه Tôga ، والزوجمان Zuggiman ، والدوبلان Dubbilân ، والسحران Seheran ، والهومة Hówama ، والسمران Simrán ، والبوجان Buggan ، وعابدة Aida ، والواجة Waga ، والودّة Wadda ، والفجوان Fejjuan ، وعودة Auda ، والخزّانين Khuzayn .

بعد طلوع الشمس بنصف ساعة ، يحمل الراعى عباة على كتفه ، وينادى على القطيع ، ويمضى قدما ؛ وهنا ينهض أفراد القطيع متكئين على ركبهم ، ويسيروا خلف الراعى إلى منطقته المرعى ؛ - والكلاب لا تتبع الغنم . والماعز هى والأغنام ترعى مع راعيها الذى يتجول بها هنا وهناك إلى أن تحين فترة القيالة ؛ وعندها يستدعى الراعى القطيع المبعثر ؛ وإذا لم يكن اليوم موافقا ليوم السقيا ، فإن الراعى يقتاد القطيع إلى ظلال الصخور ، أو إلى بعض الأشواك الصحراوية ؛ وعندها يحلب الراعى عنزة ليفطر على لبنها . والغنم تضم روعسها بعضها إلى بعض ، فى فترة اشتداد الحر ، أما الماعز فهى تحرس نفسها بنفسها . أما الراعى فيفرد طوله الفارع على الأرض لينام نومة القيلولة . إلى ما قبل العصر ، وعندها ينهض الراعى من نومه ، ليقود القطيع إلى المرعى من جديد ، لحين غروب الشمس ، وعندها ينادى الراعى مرة ثانية على قطيعه

لتجميعه ، وهنا يتبع القطيع راعيه إلى خيام الأعراب . وفى تلك الخيام تقع الماعز والنعاج التى امتلأت ضروعها بالحليب ، فى أيدي ربة المنزل المسنولة ، لتقوم بحلبها على وجه السرعة ؛ وكثير من تلك الماعز والنعاج تعجل بالدخول إلى الخيمة البدوية وترقد على أرضها . أما فيما يتعلق بالراعى الذى ليس لديه ما يأكله فليس أمامه من شئ سوى الضروع ، وهو راض عن هذا الروتين الحياتى اليومى : من هنا ، وبالرغم من أن هذا الراعى قد يمشى حافيا طول اليوم . تحت الشمس المحرقة ، إلا أنه هو أكثر الناس سماحة فى حياة الصحراء . والجسم البشرى الذى يتغذى بالحليب ، فى ضوء وحرارة الشمس الجافة ، يكون نحيفا ، ومليئا بالنخاع ، وله قدره كبيرة على التحمل ، ولكن فيما بين التفاخر بالفقر وصلافة البدو ليس هناك من يرضى أن يكون راعيا ، وإن فعل ذلك فهو من باب الضرورة القصوى . والرعاة ينامون أثناء النهار ، وبخاصة فى ساعات الحر الشديد ، ويطونهم خاوية ، فى ظلال الخيام ، ويظلوا يعانون آلام الجوع إلى أن تعود الماشية إلى المنازل فى المساء . ولكن الراعى قد يفنى فى الصحراء ، لأن مغامرته خفيفة ومحدودة ، وإذا ما سرق منه القطيع فهو ليس له فيه سوى قلة قليلة من الماعز والنعاج . ورعايته تنصب على حيوانات أناس آخرين ، الذين يثيرون الملل طوال النهار فى البيوت التى تخلو من البشر والسرور ، وعندما يجىء الليل قد لا يحصل على قسط من الراحة مطلقا : ومع ذلك فهو سعيد بجولاته اليومية من خلال عمله الذى يقوم به على أحسن وجه ، فى هواء الصحراء النقى الجميل .

غنى البدو الرحل تشرب يوما بعد يوم ، ومع ذلك فإن الرعاة من البدو ، قد لا يصلون بحكم اتساع ديارهم ، فى كل الأحيان ، إلى مكان السقيا على وجه السرعة . وهنا يرسل الراعى ، على وجه السرعة ، فى طلب إحضار الماء على ظهور الحمير . والحمار لا يتعرق ، ولا يرقى إلى مرتبة الجمل فى كونه حيوان من حيوانات الخلاء ، أو إن شئت فقل الصحراء . ومع ذلك ، هناك الحمير الوحشية التى يعيش فى الشمال الشرقى ، أى فى المنطقة القريبة من أنهار الصحراء السورية . والبدو يطلقون اسما محددا على كل رأس من رؤس الماشية ، وفى كل قطيع مختلط ، إذا ما نادى الراعى ، الذى تعرف الحيوانات صوته ، "على اسم من تلك الأسماء تراه يرفع رأسه إلى أعلى . " جلسنا ذات مساء بجوار حمدي Hamdy وربا Rubba ، ذلك الراعى

المريض ، وراحا يحدثاني عن أسماء الغنم والماعز ، التي كانت تقف بالقرب منا ، أو راقدة تجتر طعامها من حولنا . والقطعان عندما تذهب للشرب ، تراها تنفصل عن بعضها ؛ "والراعى عندما يقتاد تلك القطعان بعد الشرب ينادى كل قطيع باسمه ." كان الراعى ربا Rubba رجلا طيبا بسيطا بالرغم من أنه لم يشكر حكيمة فى مرة من المرات . وقبل ذلك بثمانية عشر شهراً ، وعندما كان يقوم بغزو ضد بنو الشرارات ، أصيب "بستوة" Stowh ، أو إن شئت فقل : بجرح نتج عن ضربة سيف ، فى عجزته : والتأم جرح ذلك التعيس التئماً سيئاً ، وراح يؤله من الداخل ؛ ورقد طول النهار يتأوه ، وجعلته يتمتع براحة الليل عن طريق المسكنات ؛ ونظرا لأن ربا كان رجلا محطما ، فلربما يموت بسبب معاناته . لقد هجرته زوجته منذ مدة طويلة ، ولذلك تحول إلى مسكين داخل خيمة محمد العظيمة : هذا يعنى أن كل رفاقه كانوا بصحبة الماشية الصغيرة . كان ربا ، يعرف كل تفاصيل حياة كل واحد من أفراد ذلك القطيع ، بدءاً من الفطام : كان ربا يقول : إن أفراد القطيع ، بالنسبة له تعد قطعاً من جسده ؛ وأنه كان يحزن عندما يذبح فرد من أفراد قطيعه ؛ وأنه كان يأكل من لحم الذبيحة "بحكم الضرورة وليس عن طيب خاطر ."

نعاج هذا الجزء المرتفع من البلاد تصوم مرة واحدة كل عام ، ولا تلد توائم مطلقاً ، والماعز قد تبرز فى بعض الأحيان ، وهذا البروز يكون لكل ماشية الأعراب ، وغالباً ما يكون فى فصل الربيع ومراعيه . والعرب يطلقون على الحمل الذكر اسم "خروف" Kharûf ، الذى يسميه أهل نجد "طلى" Tully وجمعه "طليان" Tullian ؛ ويطلقون على الأنثى اسم "روخال" Rókhāl (وهو راشيل Rachel فى الإنجيل) وجمعه "رُخُل" Rokhàl ؛ وهذا الاسم يمكن أن يطلق أيضاً على صغار إناث الماعز والنياق . سبق أن عرفنا أن وباء الماشية ، أو إن شئت فقل : الموتان ، قضى على قطعان الفجير : وهم يقولون لى : إن الغنم لا تريبو أو تزدهر أو تزيد فى ديارهم ، والسبب فى ذلك هو الرمل الحاد الذى تأكله تلك القطعان مع الأعشاب الهزيلة التى تقتات بها ، ولقد شاهدت بنفسى ذلك الذى يقول عنه البدو نعجة "مصابة بالرمل" ، والتى وقفت بلا حراك طوال اليوم شائتها شأن النواجن عندما يصيبها التوعك والكآبة ، وهنا سرعان ما تعمل الطبيعة عملها وتموت تلك المخلوقات . فى ذلك الوقت كان الموءاهيب فى جاو Jau ، التى مات

فيها هي الأخرى عدد كبير من مواشيهم ، نتيجه للآلام والأورام ، يظن البدو الرحل أنه كان هناك مرض خبيث في العشب في ذلك العام ، وأنه لم يؤدي فقط إلى نفوق دبوشهم (*) وإنما شاهدوا الجراد أيضا ميتا على شكل أكوام كبيرة تحت الأدغال ، كما شاهدوا أيضا جثث اثنين أو ثلاث من النعام نافقه في الصحراء ، فضلا عن نفوق الكثير من الأرانب البرية . وهم يقولون أيضا : إن الإبل تأثرت بذلك المرض الخبيث ولكن أمكن تطهيرها وشفائها باستعمال جرعه من الزبد ، كما قالوا أيضا إنهم لم يخسروا من الإبل سوى اثنين فقط . وقالوا : إنهم كانوا يعالجون الماشية الصغيرة باستعمال الحليب ، ولكن لم يتبقى من تلك الماشية الصغيرة سوى فرد واحد من بين كل عشرة أفراد مرضى . كانت بطون المواشى تنتفخ عند النفوق . - ولقد شاهدت وعرفت بنفسى أن أعداد كبيرة من الأرانب البرية نفقت بدءا من هذا القبيل في وادي (نيوميديال) أحد الوديان الأسكندنافية ، في عام من الأعوام .

ربات البيوت البدويات يبعن أصوافهن في بلاد الحدود ؛ ولكن هذه الأصواف قليلة القيمة ، وبخاصة ذلك الصوف الذى يشحن من سوريا إلى أوروبا ولا يستخدم إلا فى صناعة البسط والسجاجيد ، والأغطية الصوفية الخشنة . هذه النساء البدويات أبدين اعجابهن بلباس صوفى كنت أرتديه : "إنه حرير (رَدْدُنْ هذه العبارة فيما بينهن ، وهن يتحسسن ذلك اللباس الصوفى) ، إنه ليس صوف " وعرب الجنوب الفقراء ليس لديهم سوى القليل جداً من هذا الصوف الخشن ، الأمر الذى يحرمهم من بيع أى شئ منه ، نظرا لعدم وصول أى من تجار ديار الحدود لشراء الصوف ؛ والنساء يحتفظن بما لديهن من صوف لتقمن بغزله، واستعمال خيوطه فى نسج قماش الخيام الصوفية ، ولكنهن يبتعن تلك الخيوط فيما بينهن ، فى بعض الأحيان . والأعراب عندما يجزؤون أصواف أغنامهم ، لا يراعون فى ذلك موعداً محدداً ، وهذا ينسحب أيضا على شعر الماعز : هذا يعنى أن ربة البيت عندما تجد أن نعجة أو خروفا قد طال صوفه ، فإنها تطلب من الراعى الإمساك به ، فى حين تقوم هى باستخدام شفرة ثلثة ، وتقوم بقطع كل ما تصل يديها إليه من الصوف بطريقة همجية غير منظمة ؛ ويعد أن يضيع منها

(*) الدبوش : الحيوانات والماشية كبيرة السن . (المترجم)

ثالث صوف الخروف ، تطلقه ليعود إلى حيث كان بين القطيع . والببو يتكون الصوف الناعم متعلق حول أعناق الإبل وحول أردافها إلى أن يتساقط من تلقاء نفسه ، وعند هذه المرحلة فقط تستطيع ربة البيت أخذ ذلك القليل ، الذي يمكن لها أن تتدفعه مستخدمة في ذلك إصبع الإبهام والسبابة . وتقوم ربات البيوت بخلط شعر الماعز وأصواف الأغنام ووبر الجمال ، تمهيدا لقيامهن بغزله ، وكل ما تفعله ربة البيت هو فرز الألوان ليس إلا ، واللونان السائدان هما اللون البنّي لوبر الجمال ، واللون الأبيض من صوف الغنم ، والنساجات البدويات ينسجن أحزمة بيضاء على أرضيات الخيام المصنوعة من الصوف الأسود كما يستعملن الصوف الأبيض في تزيين حواف الصوف الأسود .

الماعز هنا تشكل أغلبية قطعان البدو المختلطة ، وهذا هو حال الغنم في نجد : والبدو هنا يعيشون على حليب الماعز ، ورائحة الماعز هنا ليست زنخة . ويحدث في بعض الأحيان، أن الماعز التي تشتهت الذئب، أو التي يتخلى الغزاة عنها أثناء الهروب، تذهب وتتجول في الصحراء لتكبر في الصحراء وتتحول إلى ماعز برية ، وهنا يتحتم على الأعراب الاقتراب من تلك الحيوانات كما لو كانت ماعز برية . سألت البدو عن سبب عدم استئناسهم البدون الصغار (البقر البري) ؟ وطالما أن البقر البري المتوحش أشد قوة وأطيب لحما ، يمكنهم تهجين ذلك الماعز البري مع ماعزهم وإنتاج سلالة محسنة . أجابوني : " سيكون ذلك مضيعة للجهد ، نظرا لأن البدون (البقر البري) لا يمكن استئناسه ، نظرا لأن برية ذلك البقر تظل متصلة فيه . " شاهدت في كثير من الأحيان حيوانات الغزال بصحبة قطعان البدو ؛ وبشكل عام يجري ربط ذلك الحيوان الغريب من رجله إلى ساق عنزة من ماعز الحليب ؛ شاهدت الغزال موضوعاً أيضاً في خيمة حليب الإبل ؛ كان البدوي يرفع الحيوان الصغير بين يديه ، ليجعله يرضع في بز واحد من ضرع الناقة. والأعراب ينالون على حيواناتهم بندايات مختلفة، إذا ما أرادوا لها الغدو أو الرواح أو الوقوف . ويحق لنا القول هنا إن هناك كلام مشترك واحد بين البدو هنا ، فيما يتعلق بالماشية ، ومع ذلك ليس هناك ما يختلف اختلافا كبيرا ، في هذا الصدد ، بين القبائل البدوية .

انتهى الآن موسم الحليب الجميل ، بما فى ذلك المناطق المرتفعة البرأد من الحرّة. فى شهور موسم الحليب الجميلة ، يصب اللبن الحامض من السميلي (القرية) لكل من يدخل بيتا من بيوت الأصدقاء :- واللبن الحامض "نعمة من الله" . وأعظم شىء بين الأعراب هو أن يصف الناس حياة أى إنسان منهم بأنها حياة إنسان "كريم" ؛ وبالتالي فإن أخس الأسماء عندهم هو "بخيل" . وأوعية الحليب عبارة عن طاسات من الخشب ؛ والبعض الجيد ، من تلك الطاسات ، يأتى به البدو من سوق الحج ؛ بعض آخر من تلك الطاسات يكون مربع الشكل ، ويقوم حدادو الصحراء بنحت تلك الطاسات بطريقة فجة. قلة قليلة جداً من الشيوخ هى التى لديها طاسات مصنوعة من النحاس الأحمر المطلى بالقصدير . هذه الأوعية لها أسماء كثيرة عند العرب مثل ، الجديهة Jiddyyha والمهاليب Mahallib والحلوية Helwia ، الزلفة Zilfa والحنابة Hanába . الجزيرة العربية مغلظة من حيث الماشية . وربما كان هناك سبب يدعو إلى الاندهاش عندما نعلم أن الماشية البدوية لا تتزايد أعدادها فى الخلاء ، أو إن شئت فقل الصحراء - ولكن أصحاب هذه الماشية والماشية نفسها يزدهر حالهم فترة طويلة من الزمن . التربة هنا ليست حاضنة بسبب ضرب أشعة الشمس لها والجفاف الذى ينتج عن ذلك ، وهذا الجفاف يحد ذاته ينهى الحياة بكل صورها : زد على ذلك أن الطواغين المهلكة تداهم مكة كل جيل من الزمن ؛ والبدو يمضون حياتهم راكبين وقائمين بالغزو ، ومن المؤكد أن الكثيرين منهم يموتون بسبب ذلك الغزو ؛ والسنوات التى تقل فيها الأمطار ، تخلو من الربيع ؛ هذا يعنى أيضا أن ماشية هؤلاء البدو تضع على امتداد السنين ، بفعل الغزو ؛ إنها "أرض تاكل السكان الذين يعيشون فوقها" .

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو غادر الأعراب ذلك الجزء المنبسط المنخفض من الحرّة : هذا يعنى أن آخر البرك جرى الإتيان على كل مائها، وهنا يتعين على البدو النزول من الحرّة إلى السهول طلبا للماء . سرنا أثناء نزولنا خلال خلاء (صحراء) من القمم والتلال البركانية ، فوق أرض من الحمم البركانية ، عبر وديان ضحلة من ديار منخفضة محروقة . وفى منتصف الرحلة ظهرت لنا مجموعة من الرجال الذين كانوا يقفون فوق سلسلة الجبال البركانية . تساءلت : "من يكون هؤلاء ؟" الإجابة "جيش Jaysh أى أعداء ، وماذا نحن فاعلين الآن ؟" - هم هنا لإعطاء إنذار زائف :

رأيت الأعراب وهم يمرون بهدوء ، ومسلحين تسليحا سريا جيداً ، سمعتهم دون أن أبالي ، - ألا يمكن أن يحدث لنا جميعاً شيء واحد ؟ قالوا : اسمع وانتبه يا أنت ، انظروا كيف يستمد ثقته من كتبه ! " ما رأيك يا أنت أليس "الجيش" هو ما تسموه أنتم Army ؟ " - لا - يا خليل ، هذا هو كلام مدينتك . البدو يطلقون كلمة "جيش" على النياق وراكبيها الذين يشتركون فى العمليات الحربية . هؤلاء الذين رأيناهم كانوا بعض رجال قبيلتنا ، لقد سبقونا قبل يومين ، وراحوا يصيدون البدون .

قبل دخول الظهر كنا قد وصلنا إلى حافة رأس الوادى التى يسمونها قريب Garib ؛ ومنطقة القريب هذه هى التى تمثل حافة الحرة . وادى القريب هذا عبارة عن تصدع شديد فى حدود ذلك الجبل المكون من الحجر الرملى ، وهو ينفتح من أمامنا مثل منخفض من المنخفضات ، رحت أتعجب كيف سنستطيع الهبوط إليه ونحن على ظهور الإبل . وعند الحافة ، التى نزل الجميع عندها من فوق دوابهم ، شاهدت رجمين ، أو إن شئت فقل : تلين من الحجارة ، وربما كان لهذين الرجمين علاقة بالوفاة أو الموت (نظراً لأن القدماء كانوا يضعون مثل هذه الرجوم فى المواقع المهمة) ، أو ربما كانا موضوعين هنا ليكونا علامتين إرشاديتين .

نزل الرجال والماشية بحذر وانتباه هبوطاً من فوق تلك الأماكن الوعرة المنحدرة ؛ وهذه هى إبل الحرة المتمرسنة تحافظ على نفسها أثناء النزول بصعوبة بالغة ، أثناء سيرها بين تلك الأحجار المتدخجة ، هذا المنزل ، يقول البدو عنه ، إنه لم يكن بهذه الوعورة من قبل ، ولكن "نجما هوى منذ أربع سنوات" وأسفر عن هذا الطريق الوعر بعد أن طمس معالم الطريق القديم" ، وهذه هى مقدمة جسم الجبل المكون من الحجر الرملى تظهر من أمامنا . ومن فوق هذه الجبهة ، أو المقدمة أرى الحافة المنحدرة للحرة ، ومن حولها كورنيش طويل من الحمم البركانية السوداء التى تشبه فى لونها لون الفحم ، والتى تساقط البعض منها فى الصخر الرسوبى الرخو وبين الصخور البازلتية . ونحن قد نقرأ هنا فى لحظة من اللحظات الطبيعية أن هذا الوادى المتصدع ، هو أحدث من تلك الحمم البركانية الضحلة البعيدة . وهناك أيضاً فى المنتصف صخرة شامخة مرتبة على شكل جداول ، وهذه الصخرة من الحجر الرملى (الصورة رقم ٦٠) والتى انهالت

عليها كمية كبيرة من الحمم البركانية . وفى المنخفض الموجود فى الأسفل شاهدت صخرة بازلتية ترتفع من بين الحجر الرملى المنخفض .

رأس الوادى الذى هبطنا إليه ، كانت مليئة بكتل الحمم البركانية الضخمة ، وهذا الانجراف لا يقل حده عن حدة لسان الجبل الجليدى ، عندما ينحدر فوق رمال ذلك السهل الذى ينخفض عن مستوى ذلك الجبل . ومنطقة الحدود السوداء الموجودة فى المنطقة التى تصطبغ باللونين الأصفر والرمادى ، هى التى تحدد منطقة الرعى فى وادى على ، وتفصلها عن الأرض المنخفضة الخارجة عن الزمام . وعقب الظهر مباشرة نزل البدو من فوق دوابهم وراحت النساء ينصبن بيوتهن فوق تلك الرمال الساخنة ، وكنا ما نزال على ارتفاع حوالى ٤٧٠٠ قدم . وادى الحجر الرملى من تحتنا كان يمتد لمسافة ميل تقريبا ، فيما بين صخور وعرة ، كما بدأت درجة الحرارة تزداد بعد أن نزلنا من الحرّة ؛ وهنا بدأ حليب القطعان والنياق فى الزيادة والظهور ؛ ولكن ذلك الحليب تناقص فى الأيام التالية إلى النصف تقريبا . وعندما عثر الأعراب على الماء فى خزان طبيعى ، قرروا أن ينالوا قسطا من الراحة . فى هذا المكان ، على امتداد أيام قلائل . وظهر فوق الوادى كفر (هجرة) صغير مكون من خيام البدو الرحل : أصحاب هذه الخيام هم من السّراحين Serahin ، - ذلك الفرع أو الفخذ من الموءاهيب الذين تصالحو مؤخرا مع بقية أفراد القبيلة .

أسفل الصخره المقابلة من صخور الوادى ، وصلت إلى مكان فيه كثير من التماثيل ، أو إن شئت فقل النقوش الصخرية المحفورة ، ومن حولها صور للماشية والحيوانات . كانت هذه الرسوم التى رسمتها أيدي القدماء وجعلتها تنبض بالحياة ، كما شاهدت أيضا كومة كبيرة من الأحجار يقولون عنها "إنها كومة قبر والدة أبى زيد الهلالي" . فى ذلك المكان هلّ على كل أطفال المنزل ، جاؤا مسلحين كما لو كان حيوانا متوحشا ظهر فجأة فى بيرتهم ، وكل واحد منهم يمسك فى يده مقلاعا ، أو "مرداحة" Merdaha كما يقول له البدو . وهنا بدأ ذلك القطيع من الأوغاد يطلقون مقاليبعهم من مسافة بعيدة . وعندما أوضحت لأولئك الأطفال أن بوسعى جعل الحجارة تغنى مدوية من فوق أذانهم ، فروا هاربين . وعندما بلغ طلجُ سوء ما فعله أولئك الأطفال استاء منهم ، أمام الجالسين فى مجلسه ؛ "ويل لهم ! - وغمغم ذلك الشيخ قائلا : أوصل

الأمر إلى حد ، أن عيال البدو لم يعودوا يحترمون الغريب بعد ، الغريب ضيف الله ! ولا يهم أن يكون ذلك الضيف مسلما أم نصرانيا . خليل شاب أمين ، ووالله ، إن من يأنوثه كلاب ، وملعوتين ، ويهود أيضا ؛ أنت ، يا خليل ، لا تكثر بهم : وأنا أقول لك : إذا تجرأ أحدهم على فعل ذلك مرة ثانية ، فوالله ، سوف أقطع رءوسهم ، وألقى بها فى البئر . - هذه الكلمات المهدئة التى صدرت عن الشيخ ، لمنع الأطفال من تكرار ذلك الذى فعلوه ، هذه الكلمات حجمت الآباء أيضا وأوقفتهم عند حدودهم : هذا يعنى أن أولئك الأوغاد كانوا ، بلا شك مُحَرِّضِينَ من قبل الكبار المتشددين .

مظاهر الترويح عن الأطفال قليلة فى المخيم البدوى ، ذلك أن الطفل أو الولد الصغير غالبا ما يدفعه والده إلى الرعى ، بمعنى أن يقوم ذلك الصبى الصغير برعاية الحملان وصغار الماعز فى منطقة لا تكون بعيدة عن البيوت : هؤلاء العيال راحوا يصنعون لأنفسهم شقافا صغيرة مثلثة الشكل ويطلقون عليها أسماء "مرتاحتاتهم وإبلهم" ، وهم ينظمون تلك الشقافة فى الرمل ، وهم ينادون على رفاق اللعب قائلين "تعال Taal شوف Shūf" ، بمعنى "هيا ، احضر إلى هنا لترى بعينيك !" - بعض آخر من أولئك العيال ، لديهم لعبة يطلقون عليها اسم الفرنينى Ferneyny ، وهى عبارة عن شقفة من الفخار فيها ثقبين ، ومخيطة بخيط من خيوط الحياكة ، التى تغزلها لهم أمهاتهم من أفضل أنواع وبر الجمال . هذا الحجر ، أو إن شئت فقل : تلك الشظية من شظايا الخشب ، تعلق فى المنتصف ، وعندما تقذف فى الهواء يلف الأطفال الخيطين ليكونا خيطا واحدا ، مما يجعل تلك الشظية تدور محدثة طنينا عالى الصوت . شاهدت ورأيت عيال البدو وهم ينصبون فخا بالقرب من آبار المياه ، ليمسكوا أو يصطادوا به طيور الحبارى ؛ كان ذلك الفخ عبارة عن بيرق من الحجر ، يعلق تعليقا خفيفا فوق عصى ؛ وكان طعم ذلك الفخ عبارة عن حفرة صغيرة فى الأسفل ، يضع فيها أولئك العيال ، الطعم المطلوب مع شئ من الماء . - والكلمة الإنجليزية Masque التى تعنى "تمثيلية ترفيهية تتخللها الموسيقى والغناء" ^(*) مأخوذة من كلمة "مسخرة" Maskhara :

(*) شاع استعمال هذه الكلمة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . (المترجم)

لقد شاهدت أطفال البدو يجرون ويجمعون (*) ؛ ونحن هنا نعجب لماذا لم يتطور ذلك المزاج الفكاهي الذي هو في الدم السامي ، ليصبح له شكلا مسرحيا أو شكل شعبي في الديار المستقرة التي يسكنها الساميون . سرعان ما نشبت بيني وبين هؤلاء الأطفال صداقة ، بل إن البعض منهم زاروني في خيمتي ذات مساء ، وهم مسودين وجوههم مستعملين في ذلك الفحم النباتي ، بعد أن صنعت لهم أمهاتهم لحى من صوف الغنم . كانوا يدعيحون قائلين إنهم "سودان" (**) Sudan بمعنى "رجال سود" ، وأنهم جاؤا من بلاد بعيدة ، وأن صاحب أفضل لحية بينهم هو شيخهم . وبعد أداء التحية البدوية الطويلة ، التي هي في معظمها تكرار ممل قد يستمر عشر مرات لعبارة واحدة هي "شيف Cheyf إنت ent" التي معناها "كيف حالك ؟ كيف حالك يارجل ؟" لم يعد لدى هؤلاء الأطفال ما يقولونه لى ، وانصرفوا عنى ليلعبوا في منطقة الخيول البرية . - تحولت إنسانية الترحيب والاستقبال السامي Semitic إلى نوع من النفاق في المدن ، وهذا التحول منصوب عليه في العهد الجديد .

كان محسن قد مر على هذه المنطقة قبل مجيئنا إليها بوقت قصير ؛ هذا الشيخ الكريم من شيوخ ولاد على كان عائدا من دمشق وأحضر معه مرهما من هناك لعينه . وعند تبوك ، مر على ذلك الشيخ هو ومن معه ، غزو من الشرارات ، وبالتالي سقطوا في أيدي الأعداء . عثر اللصوص على صناديق الدواء في خرج الحكيم ، واكتشفوا أن ذلك الحكيم كان غريبا عليهم. "قالوا للشخص الآخر: من أنت بالله ؟" ورد عليهم الشيخ قائلا : "أنتم يا من تنتمون إلى الشرارات ، تعلمون أنى محسن العللايدة . " - "وأنت محسن العللايدة - هيه ، أيها الرفاق ! هذا هو ذلك الرجل الكريم - فى خرجك ، يا محسن ؛ لابد أن يكون هناك سكرٌ . " (تقدم القهوة فى خيمة محسن محلا بالسكر فى شهر رمضان .) قال محسن (وهو يقدم قراطيس السكر بنفسه) ، "هذا هو السكر ، خذ ما تشاء ! وأعط منه شيئا لكلا الشرارات ! " قال شيخ المنصر ،

(*) الجمجمة : الكلام بصوت غير مفهوم . (المترجم)

(**) الكلمة "سودان" هنا مستخدمة بمعنى عكس "البيضان" . (المترجم)

أسمعون ما يقول أيها الرفاق ! لقد أخذنا النياق هي وما عليها ؛ ولن نجردهم مما معهم لأن هذا هو محسن الكريم ، والله ، لن نسيء إليه مطلقا . " وهنا سأل الحكيم عن نفسه "هل سيعيدون إليه أنويته ؟" - لا ، سوف نصطحب تلك الأدوية معنا ، لأننا نعتقد أن الحريم سوف يتعرفن عليها ؛ ولكننا سنعيد إلى الغريب كتبه مرة ثانية ، ونتركهم لحال سبيلهم . - ونحن جد أسفين لأنك ستمشى على قدميك يا محسن ؛ والمسافة ليست بعيدة ، كما أنك تعرف الطريق إلى القرية . " - كان محسن في ذلك اليوم قد تسلم من رئيسه الكبير مبلغا صغيرا من باب الإشفاق الإنساني -! هذه الشهرة الأمنية كانت قد سبقت ذلك الرجل إلى أعدائه . وجاءوا ، إلى تبوك ، في تلك الليلة ماشين على أقدامهم ، واستأجروا من تبوك لأنفسهم نياقا ، ركبوها ودخلوا عن طريق درب Darb البُخرة el-bukhra من داخل طريق الحج ، بحثا عن الأمن والسلامة ، ليصلوا بعد ذلك إلى بعض من الأعراب الأصْدقاء .- هذه هي حياة الهروب التي يحياها أولئك الذين يعيشون في الجزيرة العربية ، الذين هم أبأس أنواع الجنس البشري !

حكيم العيون هذا ، كان مغربيا من مرأكش واسمه أبو سليم Selim : بلغني أن ذلك الحكيم قال للأعراب إنه سبق له أن عرفني في دمشق ، "أني كنت من بلدياته ، وأني رجل أمين ، وأنه هو نفسه كان إنجليزيا : " كان ذلك يعنى ، أن ذلك الحكيم ، إذا ما دعت الضرورة ، يستطيع إبعاد نفسه عن مطاردة الضباط الأشراف من الأتراك ليكون في كنف القنصلية الإنجليزية الصديقة: لم يكن شخص ذلك الحكيم معروفا لى ، بل أنني تأكدت منذ ذلك الحين ، أن ذلك الشخص لم يكن معروفا في القنصلية . وربما يكون ذلك الشخص ، قد سمع من ضباط الحج ، أثناء العودة ، عن المغامرة التي كنت قائما بها في الجزيرة العربية ؛ يضاف إلى ذلك إنهم ربما طلبوا منه السؤال والتحري عنى . كان أبو سليم ماهرا في عمله ، فقد ورث مهارة أبيه ، الذي كان حكيما للعيون في البلاد الغربية تحت اسم أبو سليم ، هذا الذي راج أول ما راج في المستعمرة المغربية ، أصبح اليوم على كل لسان من ألسنة المسلمين الموجودين في دمشق ؛ ومع ذلك لم يكن بوسعه ممارسة عمله علانية في المدن الحكومية نظرا لأنه لم يكن يحمل مؤهلا . وسرعان ما ذاع صيت أبي سليم في كل الأرجاء البعيدة من سوريا ؛ إذ كان

يذهب إلى تلك الأرجاء فى معظم الأحيان ، ولم يكن فيها من يمكن أن يسأله أو حتى يسأل عن مؤهله أو تعليمه، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من مرضى العيون كانوا يترددون على أبى سليم فى دمشق . كنت قد نصحت الشيخ محسن بزيارة أو التردد على أطباء البعثة المتعلمين فى بيروت : ولكن مسلمى دمشق كانوا يفضلون المغربى على أولئك المتعلمين فى مدارس الطب الإفرنجية . وبلغنى أيضا أن المغاربة كانوا يعظمون أبا سليم باعتباره شيئا فريدا : هذا الرجل ، أبو سليم ، كان عندما يدخل مقهى من المقاهى ، يطلب من المحاسب أن لا يأخذ مليما واحداً من أى واحد عندما يغادر القهوة خارجا منها ، - هذا يعنى أن جميع الحاضرين قد أصبحوا ضيوفا عليه ، فيما يتعلق بالشيشة وفنجال المشروب ، طالما بقى أبو سليم جالسا معهم .

كان أبو سليم قد سمع عن مريضه ، عندما قام محسن بزيارته . " (قال أبو سليم) ماذا ستعطينى نظير شفاء عينيك ؟ " محسن : " تقول هذا بنفسك . ماذا يعنى لو أنفقت الذهب سواء أكان أبيضاً أم أحمر ، حتى أستعيد بصرى مرة ثانية ؟ " - "مائة ليرة" (جنيه ، أو بالعملة التركية) . - "حسن ، اتفقنا على مائة ليرة . " - "انتبه يا محسن ، سوف أعالجك مجانا ، وسوف أرافقك بعد ذلك " إلى ديرتك فى الحجاز ، لأمارس مهنة طب العيون بين القبائل ، فترة من الزمن . " هذا هو محسن استعاد بصره بصورة جزئية وأصبح يرى رؤية ضعيفة .

نزل أبو سليم بعد حادث شفاء محسن ، إلى المدينة (المنورة) لشراء بعض الأدوية : - بقى أبو سليم طوال فصل الصيف مع محسن فى خيبر ، ولقد بلغنى منذ سفره أنه بحكم أنه كان مبشرا بالإنجيل : "لم يستطع هناك ممارسة العلاج على كثير من الأفراد ، نظرا لعدم إيمان الناس فى خيبر بما كان يقول به أبو سليم . " وهنا وجد من المناسب له أن يبقى بلا عمل فى خيبر ، على أن يعمل من أجل أناس من البدو يمثلون جيلا بلا عقيدة. ومع ذلك ، وبحكم أن أبا سليم كان واحداً من المغاربة النجباء ، فقد ألقى بعض الأحاديث فى خيبر ، إلى حد أنه وعدهم بعرق من المياه ، يبلغ من القوة حداً يستطيع معها ، عند فتحه ، إدارة طاحونة من طواحين الماء ، شريطة أن يعطوه مائة ليرة . يضاف إلى ذلك ، أن أبا سليم أبلغ هؤلاء الخيابرة أنه اكتشف "موقعا

قديمًا لكنيس Kinisy يهودى قديم (معبد يهودى) ؛ ولذلك فإنهم سوف يقومون بالتنقيب عن ذلك الكنيس ، ووعده بأنه سوف يأخذ الرقاق التى سيجرى العثور عليها ، والتى يمكن أن يعرف منها ومن الكتابات التى عليها ، الأماكن التى خُبأ فيها أولئك الخيابة (الموسويين) كنوزهم الدنيوية ؛ وابتلع الناس كلام أبى سليم : ولكن متى يجتمع العرب للقيام بشيء جديد ؟ ليس هناك من بين هؤلاء العرب من هو على استعداد لإنفاق بنس واحد نظير الحصول على عشرة جنيهات ؛ ولذلك تركوا ذلك الحكيم لحال سبيله ، ومع ذلك ظل الخيابة يتحدثون عن الأستاذ أبا سليم وكلامه الغريب ، حتى عندما وصلت أنا إلى هذا المكان .

الفصل السادس عشر

الأعراب يتركون الحرة وينزلون إلى محطة الصيف فى وادى تربة

مولود جديد لطلّوج العجوز . نبات السنّا . هودج الإبل الخاص بالنساء . رحلاتهن فى قيظ الصيف . جراحة فى الصحراء . ممر ثرويد . أشجار الورد السورية . وادى تربة الصحراوى . عدد كبير من عربات اليد العظيمة جيدة الصنع . القرى الميتة . الآبار المتدفقة فى تربة . المحطة الصيفية . جوع الناس . حياة ينقصها كل شيء . يوم الجوع الحار . يظنون أن النصرانى منفى . العرب ناقلوا حكايات . تتشرح صدورهم لخطاب الغريب . أسئلة وإجابات فى الدين . عربات اليد . المنهل . طيور فى الماء . مكان الدفن وأماكن الصلاة . الملوك . دفن الموتى . قريان طلّوج . نشر الدم . القربان . القبائل لن تنزل إلى خيبر هذا العام . النصرانى يود زيادة مياههم . المواهب يتشككون فى مسألة خضوعهم أو عدم خضوعهم لابن الرشيد . يحضرون أسلحتهم للنصرانى . النعاج تعود إلى الديار طلبا للسقيا . السقيا . الفيل . والبجعة . والأسد . ليست سوى أسماء من أسمائهم . الداريش .

بعد أن تركنا وادى قريب Garib خيمنا لمدة خمس ساعات فى اتجاه الجنوب الغربى ، فى منطقة يسمونها أجرة Agorra ؛ كانت حرارة منتصف الصيف شديدة تماما حتى فى هذا الجزء المرتفع من الأرض ! فى هذه المنطقة حملت امرأة شابة جميلة ، والتي يجىء ترتيبها الخامسة عشرة بين زوجات طلّج ، وليدها الأول منه وراحة تواسى ذلك القلب العجوز فى شيخوخته . وفى اليوم الأخير من شهر يونيو هبطنا متجهين جنوبا مستخدمين فى ذلك طريق الحج ؛ وفى ذلك الاتجاه شاهدت من جديد الآثار التى خلفتها عجالات عربية مدفع الأورطة . ومن بين التلال البركانية التى

عن يسارنا ، ها هو جبل من الحجر الرملي شكله يشبه شكل خلية النحل ؛ الناس هنا يسمون ذلك الجبل باسم جبل مرزوم Merzum الذى هينى لى أن قمته من البازلت ، بالرغم من وقوعه على بعد عدة أميال عن جانب الحرة . رأيت فى ذلك الممر القاحل كثيرا من نباتات السنأ ، أو إن شئت فقل : السنأ ، المزهرة ؛ وزهور هذا النبات صفراء اللون ، وتشبه زهور البازلاء البرية تقريبا . وراحت ناقتى تقطف وتقضم أعراف ذلك العشب ، الذى تعافه الإبل فى أغلب الأحيان ، إضافة إلى أن البدو يسرعون خطى إبلهم عندما يرون هذا النبات ؛ ولكن أولئك الذين كانوا زاكبين دوابهم ويسيروا إلى جوارى نظروا إلى نظرة بدوية حاقدة ، وكظموا غيظهم ؛ ثم قالوا لى بعد ذلك : "ما السبب الذى جعلك ، يا خليل ، تترك ناقتك تأكل ذلك النبات السام ؟"

رحلة المواءيب وسيرهم فى الصحراء أكثر شجاعة ، إلى حد ما ، من رحلة الفجير ؛ والسبب فى ذلك أن ربات البيوت المتزوجات من الشيوخ يركبن دوابهن فوق سروج مبهجة يطلقون عليها اسم "موكسير" maksir ، ومفرد عليها سجاد زاهى الألوان . هذه الموكسيورات التى تصدر أصواتا هى على شكل سلال من الأغصان الرقيقة ، مجذولة ومخيطة بدقة إلى بعضها البعض باستخدام أعصاب عنق الجمل ، (التي يبيض لونها وتزداد متانتها بعد أن تجف ،) وشرائط من الجلد الخام . غالبية تلك الموكسيورات ، تكون مربعة الشكل ، تسمح للزوجة بالجلوس فيها القرفصاء ، ومعها أطفالها ؛ ومن فوق ذلك الموكسير يوجد عود أو عودين مطويين لتعلق الزوجة عليهما عباعتها ، لتكون بمثابة غطاء ، يحميها هى وأولادها الصغار من أشعة الشمس المحرقة . لديهم أيضا ، فى تلك الديرة نوع آخر من السلال ، التى ربما كانت من الموروث العربى القديم ، لأتبنى سبق لى أن شاهدت مثل هذه السلة فى رحلة من رحلات البدو فى الصحراء Sahara الجزائرية الصغيرة . وهذه السلة عبارة عن إطار طويل من الأغصان ، يشبه إلى حد بعيد جداً شراع طاحونة الهواء محملة على صلب الجمل ؛ هذا يعنى أن الزوجة تزحف فى ذلك القفص المستقيم ، الذى تجعل أذرعه البارزة التى تصطدم بالصخر وبالأشجار ، شيئا غير مريح أثناء التنقل . وساءت نفسى ، كيف خطر بباليهم ، أن يستعملوا شيئا غير مناسب مثل هذه السلة . "هذا من أجل الزينة ، يا خليل ! كما أن النساء الشابات يركبن فى تلك السلال وهن متشجعات . " والحريم

يقمن بوضع شراشيب حمراء اللون من حول أركان تلك السلال ، كما يضعن على السرج أيضا كسوة لها شراريب متدلّية من الجلد . من هنا فإن ركوب ربات البيوت يشكل موكبا مبهرجا وجميلا ، فى أذهان الأعراب ، أثناء مسير مواكبهم المتجولة . أما الرجال فهم يتقدمون ، مثل هذا الموكب ، راكبين نياقهم . والرجال يلتزمون الصمت ، فى أغلب الأحيان ، أثناء ترحالهم ، إذا ما اشتدت حرارة الشمس وارتفعت درجة الحرارة ، والسبب فى ذلك أن حديث الأعراب ، فى ظل مثل هذه الظروف ، يجعلهم يفتحون أفواههم فى ذلك الجو الجاف ، مما يؤدى إلى إحساسهم بالعطش : وهم يركبون نياقهم ويتنفسون الهواء من خلال غترهم (أغطيهِ رَعْسَهُمْ) ، التى يطلقون عليها اسم التريب horrib والتى يضعون من فوقها شيئا يسمونه المحسوب meyhsb ، أو المعسوب masaub أو العقال agal) ، بحيث لا يظهر من ذلك الغطاء أى شئ سوى هاتين العينين السوداوين اللتين تشبهان عيون اللصوص .

هذه الرحلات التى يقوم بها البدو ، خلال حرارة الصيف يقولون عنها : إنها شديدة القسوة : فهذه هى الصحراء ترغل العيون ، وتتسلط عليها أشعة الشمس ، وهذا هو المخ البشرى يكاد يغمى عليه من شدة هذه الحرارة ؛ من هنا فإن الأعراب كلهم ، وبلا أى استثناء ، ينسحبون ، خلال فصل الصيف ، إلى محطات سقياهم الصيفيّة العظيمة ، مما يجعلهم يقيمون فى مخيمات ثابتة أو دائمة إن صح التعبير . هؤلاء هم الرعاة والأطفال يرحلون معنا وهم حفاة ويمشون فوق الرمال المتوهجة والأحجار المشتعلة ؛ والصبية يكونون حاسرى الرعس فى كثير من الأحيان ، بل ويكونون عراة أيضا . وفى بعض الأيام يقطعون مسافة قد تتردد بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهم صائمون ولا يحمل الواحد منهم معه سوى قربة صغيرة من الماء . هذا يعنى أن مثل هؤلاء الصبية يتعرضون منذ فترة مبكرة وبحكم الضرورة ، لتحمل أعباء الحياة فى الصحراء ، فضلا عن أنهم يتعلمون كيف يهتدون بالعلامات الأرضية : ولكن حرارة الشمس الحارقة التى تشوى أجسامهم العارية ، وكذلك تعرضهم لويلات الريح ، يتسبب فى إصابة سيقانهم الضعيفة بكثير من الأمراض ، التى تنمو وتتفاقم معهم ثم تظهر عليهم أعراضها عندما يكبرون فى السن . وعند الظهيرة خرجنا من الطريق الذى كنا نسير فيه ، لنصبح فوق مستوى مُنْزَل الحج بصورة طفيفة ، ثم دخلنا

بعد ذلك شقا طوليا متصدا بين حدود العويرض المكونة من الحجر الرملى ! هذه هى المنطقة التى يسمونها الثوريد eth-Thorréyid ، ووادى السيل اعتبارا من وادى قريب Garib إلى وادى السهل فى منطقة الحجر . هذا الجزء من البلاد الذى انشق حجره الرملى على شكل صليب ، يتحول إلى متاهة طبيعية فيها كثير من الممرات المسدودة والمعقوفة والملتوية ، التى تمتد خلال الجبل ، وسرعان ما نزل البدو عن دوابهم فى هذه المتاهة ، وراحوا ينزلون أشياءهم ، كل فى منزله ، فى الظل الناتج عن الصخور ، وتركوا إبل الحمل حرة طليقة ؛ فعلوا ذلك لكى يُقِيلُونَ yugalalun ؛ هذا يعنى أنهم سوف يمضون ، فى هذا المكان ، ساعات الزوال ، طلبا للراحة على أن يبدؤا من جديد قبيل العصر .

هؤلاء هم إخوان الراعى المريض يحملونه بين أيديهم ، وهو يتأوه ألما بسبب الركوب غير المريح - وهذا هو الرجل الوقح يشعر بالإرتياح وهو يستمع إلى أنين ذلك المريض. وهذا هو بنى Benneyi ، شقيق الراعى المريض، فى ظل هذا الظرف الطارئ، رأيته وهو يمسك إبرة ، وراح يحاول بها فتح خرأج ، أو إن شئت فقل : دُمْلًا عند مفصل الورك . وأفلح بنى فى وخز الدمل إلى أن فتحه ، لينساب منه على الرمل صديد عجيب . وأمسك الحاضرون أنوفهم ، وابتعدوا قليلا عن المكان ؛ وعلى الفور سحب شقيق المصاب ، وعلى وجه السرعة ، واحدة من الغتر (أغطية الرأس) . ووقف الأعراب عند مسافة ظنوا إنها أدنى ما يمكن عمله لتجنب العدوى ، وتحاشيا لتلك الرائحة العفنة الصادرة عن ذلك الصديد . ونحن نجد فى مدن الساميين بعض الأفكار الطيبة التى من هذا القبيل ، كما هو الحال بالنسبة للأقوال الماثورة عند الدمشقيين عندما يقولون : "من يتأخر فى التطعيم يتعين عليه أن لا يشم لحم البشر ؛" والبدو يقدرون الروائح الطيبة باعتبارها مفيدة للصحة ، وهذا هو ما أقره أطباؤنا القدامى (ذلك الذى تتراح إليه أنوفنا يرجع إلى الورود الجميلة الحلوة) . من هنا فإن الأعراب يصنعون بعض أنوية الأنف على شكل مساحيق من بعض الأعشاب ، والروائح الطيبة ، بحيث تعلق تلك المساحيق والروائح مدة يوم أو يومين فى أنوفهم ، وفى أنوف إبلهم . ذات مساء ، عندما كنت فى مدائن صالح ، استعرض عقرب نفسه على أحجار وجار القهوة؛

وتراجع الحاضرون كلهم ، وقام أحدهم بضرب العقرب بعصاه ، ثم وضعه فوق جمر النار ! "صاح الحاج نجم ، أخرجوا ! لقد أحرقت العقرب !" وهنا نهض الجميع وتركوا المكان ! ولما كان شيء من عصارة العقرب قد تناثر على جبهة حسن ، فقد مسح ذلك بظهر يده وهو يضحك ، وكان كل همه يتمثل في عدم تشمم رائحة ذلك العقرب وهو يحترق . الأعراب ، تسرهم العطور الطيبة ؛ وريات البيوت البدويات تصنعن كنوزا من تلك العطور التي تكون بحوزتهن ، إذ يستعملنها في الدواء ، كانت ربات البيوت البدويات تسألني في أحيان كثيرة "أليس معك عطور تبيعها ؟" وأهل الجزيرة العربية عندما يزكون مكانا من الأماكن ، ولتقل مكانا كئيبا مثل قرية العلا أو خيبر ، يقولون : "إنه غارق في هواء فاسد ، وأنت تشرب منه ماء غير صالح ."

توقف بعض الرعاة الذين كانوا بصحبة القطعان ، كيما يسألون عن الطريق ، نظرا لأن هذه المتاهة الجبلية هنا غير واضحة المعالم ، حتى بالنسبة للأعراب أنفسهم . (قالوا لي) إن طريق الحج السوري كان يمر بهذه المتاهة في يوم من الأيام ! - ولكني لم أستطع ، عن طريق أى نقش من النقوش التي على حواف الحجر الرملي الهاوية ، معرفة ما إذا كان هناك أى قسم من أقسام طريق القوافل التجارى القديم . هذا المكان الزاخر بالصخور ، والعامر بالكهوف التي تتخذ شكل الصخور ، والملىء بالمعاقل (النقاط الحصينة) سواء على الأرض أو في أماكن السكنى الطبيعية ، والتي تشبه السرايب ، وتقع على جانبي السائر في هذا المكان ، لا يمكن لمثل هذا المكان أن يصلح لمرور القوافل أو حتى من يمارسون العمل ضمن هذه القوافل . في هذه المضائق التي تمتد لمسافة أميال ، هناك الكثير من أشجار السنط الشوكية ، كما يوجد بها أيضا شجر برى من أشجار التين التي تشبه أوراقها أوراق الريحان ويطلقون عليها اسم "العثوب" el-uthub ؛ كما يوجد في الأماكن المنخفضة شيء من العشب الأخضر ، الذي يوحى بأن ماء السيل يقع على بعد مسافة قصيرة أسفل ذلك العشب الأخضر . - ولكني لم أر في أى مكان أى أثر لأشجار الغار التي تحمل زهورا من قبيل الورد البلدى ، التي تسر زهورها الناظرين في كل المواقع الجديدة في الصحراء الجيرية من الناحية السورية . كما أن هذه الزهور جميلة في مدينة بيترا Petra ، وكم هي جميلة أيضا في مجارى سيول الأردن ! - ويا لجمال تلك الحدائق البرية فاتقة الجمال التي

كانت فيها مدينة القيصر Caesarea فيلبّي (*) Philippi فى يوم من الأيام !- ولكن أنعم بالزهّور المائية التى فى البيارات اللذيذة التى تتساب مياهها بفعل مياه بحيرة الجليلى Galilee ! ومن كان مسيحيا ، ينبغي (إن أمكن له ذلك) أن لا يتذكر ذلك المكان عندما يموت ويرحل عن الدنيا !

غربت الشمس عقب وصولنا مباشرة إلى سهل الحجر ، ومع ذلك واصلنا مسيرنا فى ضوء الشفق الذى كان لونه يميل إلى اللون البنّى ، ملتزمين فى ذلك الأطراف السفلية لصخور الصخرة . دخل الليل علينا ، وعجلنا بالنزول على وجه السرعة . وكنا سعداء عندما توقفنا ، بالرغم من أننا كنا ما نزال صائمين وبلا عشاء ، كما سعدنا أيضا بإراحة رءوسنا على مخاد ، هى فى حقيقة أمرها قطعا من الصخر ، وسط هذا الانجراف البركانى الكبير . لم يكن فى ضروع الماشية التى كانت معنا أية قطرة من الحليب ! إضافة إلى أن أى أحد منا لم يقو على الوقوف فوق الأرض التى كان ينام عليها ، حتى يتسنى له جمع شىء من الحطب لإشعال نار المساء ، إذ كان الجميع ، فى هذه المنطقة ، خائفين ، من الدوس فوق الديبان debyan أو إن شئت فقل : الشعابين . والبدو الرحل يخشون تلك الحيوانات أو الزواحف السامة ، وقد شوهد شعبان فى بيت من البيوت وهو يزحف بين بعض الجوالات التى لم يأخذها البدو معهم ، (وقد تأكدت أن تلك الأسرة هجرت بيتها وتخلت عنه ، وبقيت بعيدة عنه عدة أيام إلى أن تأكلوا من زوال الخطر .)

أمضينا هذه الليلة القصيرة من ليالى الصيف على ذلك النحو إلى أن شقشق النهار . وعندها حمل الأعراب أشياءهم ومضينا قدما من جديد ، لنضرب خيام المخيم الدائم فى وادى تربة Thirba فى ذلك اليوم . كنا نقيم فوق عالم من الحمم البركانية ، تساقطت صخوره من كهوف العويرض ، إلى أن التحم ذلك الركام البركانى بالجيلة Jaila ، التى وصلنا فيها إلى بداية ذلك الوادى ، الذى يطل على المزحام Mezham فى

(*) مدينة القيصر فيلبّي : واحدة من المدن السورية حالياً . كانت مدينة فلسطينية قديماً . وهى حالياً قرية بنياس التى تقع فى أقصى جنوب غربى سوريا ، بالقرب من الحدود الإسرائيلية . والموقع هو أصلاً لمدينة بنياس Paneas الإغريقية الذى غيره الرومان إلى القيصر فيلبّي . (المترجم)

الصخور المطبقة على سهل مدائن صالح . قاع هذا الوادى القاحل عبارة عن حوض جذب من الحصباء والحمم البركانية وكذلك الأحجار البركانية التى هى عبارة عن شرائح ورفوف ، وضفاف وشرفات ، وأكوام مربعة بلا عدد فى منطقة كبيرة من مناطق السيل . كل ذلك العمل ، وكل ذلك التشقق يتكرر ويحدث نتيجة مجرى مائى متذبذب : ولكن من أين تجيء وفرة المياه فى هذا المكان فى ظل مناخ منعدم الأمطار تقريبا ؟ هذه هى زخات الخريف الضعيفة ، تنزل بعد الأمطار التى تسقط على الجبال العالية . أو المياه التى تنتج فى فصل الشتاء عن نويان الجليد ، كل هذه المياه يتعين أن تغوص وتمتصها تلك النفايات الشاسعة من الرمال والصخور .

بعد أن سرنا فى الجبل مدة ساعتين ، مررنا على كثير من الأكوام المبنية ، التى يطلقون عليها اسم "الرجوم" rijūm ، وسط هذه الصحراء القاحلة التى هى عبارة عن ضفاف وأحجار . رأيت بعضا من تلك الرجوم مبنية فى جزء من أجزاء قناة السيل ؛ - ترى هل توقفت قنوات السيل عن أن تكون مجارى مائية فى عهد أولئك البناة القدماء ؟ أم أن هذه الرجوم هى مقابر عائلات وأسر الشيوخ؟ - ولكن ما مدى قدم تلك الرجوم ؟ معروف أن الحياة السامية Semitic فى المناطق المرتفعة، ليست أصيلة بل يمكن القول: إنها تكون دوما بدائية ، من هنا يمكن القول : إن تلك الرجوم من زمن مقابر المعابد الخاصة بتجار قرية الحجر Hejr - والتى نستطيع التخمين ، بأنها وذلك من منظورنا إلى شكلها ، ربما تكون من بداية العالم الإنسانى ! معروف أن آثار الأيدى البشرية ، بما فى ذلك المقابر الأثرية ، إنما تشكل منظرا مريحا ويسر خاطر فى سطح أو تضاريس هذه الأرض التيتانية Titanic (الشاسعة) .

جدران الوادى ، عند بدايته ، عبارة عن صخر رملى من فوقه الحمم البركانية التى فاضت عليه من الحرّة ؛ وترتب على ذلك هبوط الحجر الرملى أسفل أرضية الوادى الأخذة فى الارتفاع . وبعد مسير ساعة فوق هذه الأرض تتحول جدران الوادى إلى مجارى مائية زرقاء اللون من فوق مجارى من البازلت ، ويصل ارتفاع كل هذه الأجزاء إلى مائة قامة . وفى الأعلى ، حيث يوجد وادى جانبى ، على الناحية اليمنى ، مررنا ببعض الآثار القديمة . وقد أطلعنى العرب فى تلك المنطقة على قناة مهدمة ، ويقع أو إن شئت فقل : أماكن من المباني القديمة : شاهدت فى تلك الأماكن بعض المباني

الجافة من الكتل البركانية ، والجدران الطويلة ، فى اتجاه منتصف الوادى ، فى منطقة الصخور الجرداء ، والشُرُفات ، والأراضى المستوية ، وفى مسورات البيوت القديمة :- ولكن تلك المستوطنة الميته فقدت اسمها ، وهم هنا يطلقون عليها اسم "الجرية" el-Geria بمعنى "القرية" . شاهدت بعد ذلك كثيرا من الرجوم التى تقف إلى جوار بعضها فى الوادى ، وهذه الرجوم بناها الإنسان بالطريقة الجافة ، كما شاهدت أيضا كثيرا من الجحور تظهر على شكل مجموعة على جانب الوادى الذى يتخذ شكل الرف . والبدو ليس عندهم أى علم أو معرفة بتراث أولئك الذين عاشوا فى الزمن القديم فى عالمهم أو إن شئت فقل : بلادهم : يقولون ، إن بناء تلك القرى الميته هم يهود أو نصارى .

ومع ذلك ما تزال هناك بعض عيون الماء فى تلك الأجزاء العالية من البلاد ، الأمر الذى يجعل المواءهيب لا يتخلون عن وادئ تربة وبخاصة أولئك الذين يعملون بالزراعة من بين أولئك المواءهيب ؛ هؤلاء المواءهيب الذين يعملون بالزراعة هم من وادئ العروش el-Aurush المقابل لوادئ تربة ، ولكن السبب الرئيسى وراء تضى المواءهيب عن وادئ تربة ، فى هذا العام ، هو خوفهم من الغزو الذى يقوم به البشر Bishr (أفراد قبيلة بشر) بتحريض أمير الشمر Shammar . مررنا على عدد قليل من المساحات الزراعية الخالية من الزروع ، والتى تقع وسط أحجار الحرة القاحلة الجرداء ، فى الأرض القريبة من الأبيار ؛ فى تلك المناطق نزل الأعراب عن دوابهم ، وبالتالي تسنى لكل أسرة النزول فى المنطقة التى تود النزول فيها . وعلى امتداد سنوات متتالية ، وفى تلك الأجزاء البارزة من تلك التربة البركانية، وبدون أى غطاء ، راح أولئك المواءهيب يزرعون الشعير والقمح، والقرع العسلى، والشمام والبطيخ ، بالإضافة إلى قليل من التبغ ؛ وكل هذه الأنواع من الحاصلات أفضل من مثيلاتها التى يمكن زراعتها فى التربة الرملية الصفراء فى قرية ولاد على . قنوات الرى يجرى مدها من العيون ، التى توجد منابعها أسفل البيارات الخضراء اللذيذة من أشجار التين البرى المثمرة التى يطلقون عليها اسم الحماتة hamāta . وبعد انتهاء ذلك الحصاد الهزيل ، يعود أولئك المستوطنون من البدو ، من أراضى الحبوب هذه ، إلى قرية الخيام التى يطلقون عليها اسم "الجرية" Geria (بمعنى "القرية" - وادئ عروش هو الآخر من الوديان الحجرية، ولكن فيه الكثير من النخيل المزروع الذى يروى من عين فى الجزء الأعلى من جانب الوادى .

كنا نرى أمامنا بعض خيام البدو الرحل المتناثرة فى الوادى المهجور ، والملوكة للطوالة، Towwála من أبناء ولاد على . كان البدو الرحل جميعا ، يتركون بيوتهم المبنية وحريصهم ويلونون بتلك البيازة الجديدة ، حتى يتمكنوا من رؤية تلك الآبار، رائقة الماء ، التى هى عبارة عن حفر محفورة فى الجزء الخلفى من التربة السوداء التى يتكون منها حائط ، أو إن شئت فقل ، جدار الجانب المرتفع من الوادى ، والمبطنة بمبان جافة : الماء فى هذه الحفر يجرى من بين الصخور الأرضية البازلتية . - يا لها من تسرية تسر النفس والخطر عندما ينظر الناظر إلى ذلك الغطاء الفردوسى الذى هو عبارة عن بيازة خضراء كثيفة وماء جارٍ ! فى هذا المكان ، يتعين علينا نيل قسط من الراحة ، مع الماء المتدفع ، حتى يتسنى لنا إنعاش عروقنا وأوردتنا التى أصابها الجفاف . وأنا منذ يوم أو يومين ، طوال ترحالنا ، لم أذق طعم الطعام ، وأنا اليوم تغذيت ، أو إن شئت فقل : أكلت من تلك الثمار البرية ، التى هى عبارة عن تين برى لا يزيد حجم الواحدة منه على حبة البندق ، ولا يختلف طعمه عن طعم توت الخشب ! ولكن السطح الخارجى لذلك التين البرى جاف وخشن ، فضلا عن أن ذلك التين حار ، ويحس من يأكله بحرارته فى لسانه وفى حلقه . من هنا فإن البدو لا يقبلون على قطف حبات التين هذه ، لأنهم يظنون أن ذلك يقلل من شأن رجولتهم؛ ولكن هاهم البدو ياكلون عن طيب خاطر ، من تلك الحبات التى جمعتها أنا بنفسى . حرارة منتصف النهار (الظهيرة) هنا فى ظل الخيمة ، وعلى ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم ، يصل متوسطها إلى حوالى درجة واحدة أو درجتين بعد المائة الفهرنهايتية ؛ ومع ذلك ، كنا ننتظر ارتفاع درجة الحرارة ، وسوف تصل هذه الحرارة إلى "درجة رديئة" كما يقول الأعراب .

هنا ، فى هذا المكان ، يقع المُنْزَل الصيفى لأولئك البدو الرحل ، وهم يرتاحون فيه فى الوقت الراهن ، ولديهم معظم ذلك الذى يحتاجونه لأنفسهم ولماشيتهم ، إضافة إلى توفر الماء فى المكان أيضا . هذه هى مؤن هؤلاء البدو الرحل ، بدأت تتناقص بدءا من بداية العام . عندما كان لديهم شئ من النقود التى كانوا يصيبونها من صُرَّة الحج ، ومع ذلك لم يكونوا يشغلون أنفسهم بما هو قادم ؛ وبالرغم من عدم وجود الكثير الذى يمكن أن يقتات به أولئك البدو الرحل ، سوى قليل من المريسى الذى تبقى معهم فى جوالاتهم . هؤلاء البدو يحتفظون إلى جوارهم بسلطانية من ذلك المريسى

المخلوط بالماء ، ويتناولونه فى معظم الأحيان أثناء النهار الطويل "الطويل (على حد قول الكتاب المقدس) والخالى من الخبز" .

بالرغم من قصر المسافة ، فإن أحداً لم يفكر فى النزول إلى قرية ولاد على لابتياح الطعام ، وهم يذهبون إلى قرية ولاد على عندما تضطربهم الضرورة إلى ذلك ، أو عندما يحل عليهم فصل الخريف . وحريم العائلات الفقيرة تلاقين الأمرين ، نظرا لأن الرجال يمكن أن يقوموا بجولة على الحرة يرعون خلالها الإبل ، ويشربون من ألبانها ما يشبعهم ، وهم يقولون فى هذا الصدد : "إنهم يضاعفون اللبن" . ناديت امرأة مسكينة الحال كانت تمشى بالقرب من خيمتى ، وكانت تغطى فمها وأنفها بغترة (غطاء الرأس عند الرجال) وسألتها "هل تشعرين بأى ألم ؟" "ردت على قائلة : "أنا مثلك "خرمان" Khorman ، أى جوعانة ، لعل الله يرسل علينا شيئا من الغوث !" من هنا فنحن نسمع العبارة التالية تتردد على ألسنة هؤلاء البدو : "نحن اليوم لم نجرح صيامنا ، وهذه هى الشمس تغرب الآن ! قطعان الماشية الصغيرة والكبيرة موجودة فى الجبال ؛ والبدو يقتادون الدبوش يوما بعد يوم للسقى ، وبالتالى كانت ربات البيوت البدو ، تذهبن إلى تلك الآبار لجلب ألبان هذه الماشية ، ولكن تلك الألبان كانت تتناقص يوما بعد يوم إلى أن خفت الضروع فى النهاية ؛ ولكن ها هى الماشية الصغيرة بدأت ألبانها تزيد من جديد . والبدو يطلقون على زيادة ألبان الماشية الصغيرة اسم "تغريز tghruriz الغنم el-ghrannem". كان البدو الرحل يقتادون قطعان الإبل للسقى كل ثلاثة أيام . كان البدو يخلطون لبن النياق بالمريسى ، ثم يشربونه ، ويحسون على إثر ذلك بشيء من الانتعاش . ونظرا لعدم قدرتى على الاتصال بالمدينة ، فلم يكن يتبقى معى شيئا سوى تلك الحفنات القليلة من الأرز التى كانت ربات البيوت الكريمات قد جلبنها للمداوى نظير الدواء الذى أعطاهن إياه . وهنا قمت بسلق حفنة كبيرة من الأرز فى قليل من الماء وخلطته بشيء من المريسى ، ثم شربته وعشت عليه طوال اليوم ؛ كان الأمر يبدو لى كما لو كانت مناسبة ، عندما كنت أشرب شيئا من الحليب عندما أكون مع الماشية فى مكان السقى . كنت أصلح الشاى فى بعض الأيام ، الذى كانت تفوح منه رائحة تسرى فى الأرواح الهزيلة فتبعث فيها الحياة من جديد . كان أولئك الأعراب يتألمون كلما وقفوا على حالى الذى كان يتدهور؛ والغريب بين البدو ضيف على الجميع،

وعندما كانت النساء الجارات تريننى وأنا أسير على الأحجار الساخنة ، لجمع شىء من الحطب للنار ، كانت واحدة أو أخرى منهن تعرض على شىء من الشفقة وتقول: "يا خليل ، أذان lak أويش Oweyish بمعنى "سوف أجهز لك شئنا قليلا من الطعام؟" وهنا كانت تعلق امرأة أخرى على ذلك بقولها: "أترك الأمر لها يا خليل،" و wa سواتها swat-ha أطيب tayib " ، بمعنى إنها تستطيع أن تفعل ذلك بطريقة جيدة .

يا لهذا العسر الذى لاقاه البدو فى فصل الصيف ! ومع ذلك ، كانت هناك بعض الأسر ، بخلاف أسر الشيوخ ، التى كانت تأكل على نحو أفضل من الشائع . أفضل ما يمكن أن تعثر عليه هذه الأسر هو عبارة عن وجبة غير مشبعة من الأرز المسلوق فى الماء ، تلك الوجبة التى كان حريمهم يعدونها فى السر وليس علانية ، وذلك عن طريق إغلاق الخيمة أو أن يكون الطهى أثناء الليل ، مخافة أن تفوح رائحة الطهى وتعم المكان . إذ إن فواح رائحة الطهى يحتم على الطاهى دعوة من يجيء إليه إلى تناول الطعام . الفقراء من هؤلاء الناس ، عندما يبصرون أحداً قادماً عليهم ، أثناء تناول الطعام يسارعون إلى القول "غطا" ghratta بمعنى "غطى هذا الطعام واستره عن الناظر إليه " . ومع ذلك ، إذا ما فاجأ أحد هذه الأسر ، فهم يبادرون على الفور بدعوته إلى الجلوس ومشاركتهم الطعام . والإنسان صاحب النفس العفيفة يرفض الجلوس ، أما إذا كان صديقاً من أصدقائهم ، فهو يجلس ويتناول لقمة واحدة ثم ينهض على الفور قائلاً "والله Wellah غديت ghradeyt" بمعنى "لقد أكلت وما أكلته يكفى" . هؤلاء البدو المساكين يعيشون هذه الحياة المعسرة خلال ذلك الجزء من العام ، أى عندما يجف الحليب من ضرع المواشى ، إلى أن يهل على أولئك البدو موسم التمر مرة ثانية . وعندما تشرق الشمس علينا كل صباح بحرارتها الخانقة ، فهى تحبى الذكريات فى صدورنا بمدى العسر والعوز . من خلال فكرة مفادها : "كيف ستكون حياتنا فى هذا اليوم ؟" - وهكذا بالنسبة لى أمضيت الصيف صائماً أفعل مثلما يفعلون ، وممكننا على كوعى . ومع ذلك ، لم يكن يمر على أسبوع حتى تنهى الفرصة ويقوم رب من أرباب الأسر بذبج ذبيحة ، سواء أكان ذلك من باب ذكرى تمام السنة لأسلافه ، أو من أجل مولد طفل أو ابن من أبنائه ، أو لشفائه من المرض ، أو من أجل الحفاظ على صحة إبله . وفى كل هذه المناسبات كان أصدقاء صاحب الذبيحة يجتمعون للمشاركة فى تلك

الوليمة من اللحم المسلوق : وهم فى هذه المناسبات يبحثون أيضا عن ضيف الله ، وكنت أنا الآخر ، أذهب للمشاركة فى تلك المناسبات مخافة أن ينسانى أحد منهم ؛ ولكن إذا حدث وكان صاحب الوليمة ، أو المناسبة ، واحداً من الجيران الذين أعرفهم ، أو من مرضاى ، أو شيخ من الشيوخ ، فإنهم كانوا يرسلون لى شيئا من طعام تلك الوليمة .

كانت أيام حياتنا ، باستثناء تلك الأمور التى لا داعى أو لزوم لها ، تمضى سهلة على شكل سكون طويل . هذه هى حياة البدو الرحل ، إنها عطلة طويلة ، مرتبطة أو متحالفة مع نوع من أنواع البساطة المقدسة ، ولكن تلك البساطة تكون مرتبطة بتسامح طويل فى مسألة الجوع فى الصحراء والخلاء . والشمس سرعان ما تبكر فى الشروق بعد متعة لىالى الصيف القصيرة ، مما يؤدى إلى إيقاظ الأعراب فى ساعة مبكرة ، والذين لا يطرق النوم جفونهم بعد ما يرون ضوء النهار ، إذ يتحتم على المسلمين بحق أن يؤنؤا صلاة الصبح . والناس يجتمعون ، فى خيمة القهوة ، ليشربوا سويا فنجال قهوة الصباح . ويبادر الأطفال إلى اقتياد القطعان المفطومة الصغيرة إلى الأدغال القريبة وإلى جوانب الوادى . أما النساء فيستأنفن غزلهن : وهن أثناء الغزل لا تؤدين أى عمل آخر من الأعمال المنزلية ؛ حيث لا يكن فى استعداد للرحيل ، ولا يكن مشغولات بصناعة الزيت من الحليب ، كما لا يكن مشغولات أيضا بحلب القطعان . ولا يسمع أحد صوت الرعى فى سائر أرجاء المنزل كله ؛ كما لا يكن مشغولات بمسألة جلب الماء .

كانت الشمس محمولة فوق الأفق ، وكانت الحرارة التى تشبه حرارة الفرن ومتسلطة علينا ؛ وفى ظرف ساعة واحدة بلغت أعمدة الخيمة من السخونة حداً يصعب معه لمسها . هؤلاء البدو يستلقون طوال النهار داخل الخيام وهم يلهثون (فى جو بالغ الجفاف) دون تعرُّق : النهار هنا فى هذا المكان ، يتمثل فى تلك الساعات القليلة التى تكون عين الشمس خلالها على جبهاتنا مباشرة ، من يحاول الرقود ، يحس بالضيق . هذه هى الشمس تغرب فى النهاية إلى جبهة الوادى فى الحرّة ، وهذه هى الظلال المريحة تتقدم لتغطى خيامنا ، وما نحن بدأنا ننسى حرارة النهار المحرقة . وهؤلاء ربات البيوت تخرجن من الخيام ليتنفسن الهواء ، ويجلسن أمام بيوتهن وهن تغزلن . أما الرجال ، الذين يطلق البدو عليهم اسم "الزُّلم" ezziilim فيتجهون إلى مجلس الشيخ

والى خيمة القهوة ؛ ففي تلك الخيمة يكون "نادى" القبيلة ، وجرت العادة أن أذهب إلى تلك الخيمة لأحتل مكانى بين الحاضرين إلى أن يدخل علينا المساء . هذه هى جوانب الوادى تصطبغ باللون الأحمر ، وهذه هى الحرّة تبرز من بين التلال البركانية الموحشة . وهذه هى الشمس تتضاءل من فوق طرف الشرعان المدب ، الذى يظهر واضحا من هذه المنطقة ممتدا خلال وادى تربة Thirba ؛ طرف الشرعان هذا عبارة عن جبل من الحجر الرملى يقع خلف ركب Rikb الحجر el-Hejr ، ويعد علامة مميزة فى منتصف ديرة بدو الفجير Fejir . وبعد انحسار الضوء عن الأرض ، تبدأ حرارة النهار فى الانعكاس على جو الجبل قليل الكثافة ؛ وهنا يهب على المكان نسيم بارد من الحرّة ، ويرخى ليل الجزيرة العربية الهادى سدوله من حولنا ومن فوقنا ، ويكون خاليا من الندى ومن البرد أيضا . وبعد أن استمعت إلى ما يقال بقيت فى منزلنا لتجاذب أطراف الحديث مع الحاضرين ؛ أو كنت أذهب سعيا إلى التعارف على أهل خيمة من الخيام . هؤلاء هم البدو يرقدون ملفوفين من حول وجار النار المسائية ، ويكونون بعيدين عن مجال الرؤية إذا ما رأوا بينهم غريبا غير مقرب إليهم وهم عندما أظهر عليهم فجأة أسمعههم يقولون: "إيش eysh بيه b'hu" بمعنى "ماذا حدث له !" ثم يقولون: "خليل حزين وصامت ! ربما يكون قد رأى شيئا سيئا اليوم (فى كتيبى ، بعد الإطلاع عليها) ، ربما يكون قد مات له أحد ، من أقاربه ورفاقه . " كان البدو يسألونى كل يوم حول ما إذا كنت أحس بالحنين إلى الوطن أم لا ؟ كانوا يتهامسون فى أحيان كثيرة بأننى رجل مطرود أو منفى "إلى متى ستظل ، يا خليل ، تفتقد مكانك وصحبك ؟" - ثم يقولون : "قد يطول ذلك إلى عشر سنوات . " زمن النفى عند أعراب خليل يقدر بعشر سنوات ، التى إذا ما انتهت ، يصبح من حق خليل العودة إلى منزله . أليس عليك دم لأحد ؛ أليس ذلك هو الذى أوصلك إلى هنا ؟ خبرنا ، هل أنت واحد من المجرمين أو الخارجين على القانون ؟ وإلا ، فنحن خائرين فيمن تكون أنت !

يرى البدو أن جريمة الدّم، إنما هى من قبيل النحس الذى يصيب حياة أى إنسان من البشر ، وليست وصمة فى جبين الصداقة أو الرفقة الإنسانية . ذلك أن القاتل الذى يهرب إلى قبيلة أخرى أو إلى قرية أخرى ، إنما يحظى بالكرم العام ؛ بل إنهم يخصصون له مسكنا إذا ما كان بلا مسكن إلى أن يتمكن من استئجار منزل : هذا

يعنى أيضا أن المحسنين يدعونه لتناول الطعام ، إضافة إلى أن الرفاق لا يكون لديهم أى مانع من أن يضعوا أيديهم معه فى الطبق الذى يأكل منه . وهو من أمامهم عبارة عن هارب تعيس ، وليس شخصا أثما : معنى ذلك أنهم ينظرون إلى الجريمة التى ارتكبها على إنها خطأ إنسانى وليست خطأ مقدساً (الذى هو الخطأ الوحيد الذى لا يغتفر) ، هذا يعنى أيضا أن ذلك المجرم لا يجدف فى حق الله عندما يرتكب مثل هذا الجرم .- والعرب عندما يرونى أجلس واضعا رأسى بين يدى يقولون : "لماذا تفعل هكذا ، يا خليل ؟ هذا الذى تصنعه ليس طيبا !- وعندما كنت أحملق فى جمال القمر الصافى مطيلا النظر إليه ، كانوا يقولون لى : "لا تطل النظر إلى القمر على هذا النحو ، فهذا ليس فى صالح صحتك .- وأنا أرى ، أنه لا خطر من النوم فى العراء ، والوجه متجه إلى القمر الطالع ؛ وهذا هو ما يفعله البدو الرجل طوال شهور الصيف على امتداد حياتهم : والبدو الرجل ، فى سوريا ، لديهم فكرة مفادها ، أن ضوء القمر ، أكثر من أى قدر من ضوء الشمس ، هو الذى سيصيب وجوههم بالسواد . وكنت إذا ما رحت أنال قسطا من النوم ، بعد صلاة العصر ، كانوا يوقظونى بلطف وهم يقولون لى : "لا تنم فى هذه الساعة ، يا خليل ، فهذا ليس فى مصلحة صحتك ."

بالرغم من أن الكلام عن العرب قد يكون بمثابة انفعال من الضمير الحر (الليبرالى) إلا أن الإنسان ينبغى أن لا يلتزم الحذر أو الحيطة تماما فى الكلام عنهم . استماع العرب غير المكثرت ، للأشياء البسيطة التى كنت أقولها ، جعلهم يسيئون التصرف بمثل هذه الأقوال ، إلى حد كان يدهشنى كلما سمعت تلك الأقوال ، تتردد كما قلتها أنا ، على لسان العرب أنفسهم : هذا يعنى أن هؤلاء الأعراب كانوا يقولونى أشياء لم أقلها أو أفعالها ؛ ومع ذلك كان الشيوخ مقتنعين دوما برفضى الصريح والمباشر لكل ذلك . حدث أن أحضرت لى أم طفلها المريض ؛ ونظرا لأنى أمسكت ذلك الطفل مسكة حانية من يده ، فقد قال الأعراب أنى ماهر فى قراءة الكف . قالوا عنى أيضا أنى أحضرت كنزا من الرجوم ، وعلى (حد قول أحدهم) "طالما أن لديك نقود ، فهل لك أن تشتري منى ذلك الذلول الذى هو ملك لى؟" دخل بعض الشباب على الخيمة ، حيث كنت جالسا أقرأ فى كتاب ، وعندما تركت الكتاب يسقط من يدى قالوا : "انتبهوا ، لقد وقف فى هذا الكتاب ، على مصيبة ستحل بواحد من أعزائه أو أحبابه !"

وأنا عندما كنت أتحدث مع البدو كلاما من باب الوعي الإنسانى العام ، أو إن شئت فقل : ذلك الكلام الذى يصلح لكل زمان ومكان ، كان الأعراب يستمعون إلى ذلك الكلام بإعجاب مشوب بالمتعة والسرور ؛ ويجيء رد فعلهم على ذلك الكلام رزينا ووقورا عندما يقولون "عَلَيْنَاك aleynak صادق Sadik بمعنى "كلامك مخفف للألام وملطف أيضا" . زد على ذلك ، أن الأعراب العاطلين يجدون متعة أيضا فى الكلام المطاط الذى يحتمل الكثير من المعانى ؛ هذا يعنى أن الأعراب يقدرّون ذلك الذى يستطيع تحريك عقولهم عن طريق الكلام ، ويرضون عن ذلك الذى يبعث المرح والسرور فيما بينهم . رجال الأعراب يقولون كثيرا عن الابتسامة ، إنها هى التى تريح الناس أكثر من أى شئ آخر ، وهم يرون أيضا أن الضحك يتسم بالجانب الإنسانى أكثر من أى شئ آخر ؛ ومن الصعوبة بمكان أن يختلف أولئك الأعراب أو يتنازعون مع شخص تمتعوا معه بلحظة من تلك اللحظات التى نسوا فيها أنفسهم .

وجه الأعراب إلى ، ونحن جلوس حول نار المساء ، مئة سؤال وسؤال ؛ وكانت كل هذه الأسئلة ، تدور مثل العجلة الدوّارة ، فى فلك ذلك الذى يمتلك أرواحهم السامية semitic . ألا وهى عاطفة الدين . أما النساء فكان يسألننى بفضول غريب عن تلك الشيخة Sheykha الكبيرة (*) ، أو إن شئت فقل : تلك المرأة الملكية فى شعبى ، أو إن شئت فقل : أمتى ، "المرأة التى أكد خليل أن سلطتها أقوى من سلطة أى رجل فى هذه الدنيا كلها !" رد أحد الأبطال على ذلك الكلام بقوله : "والله ، كم هذه السيدة عظيمة ؟ خبرنا هل هذه المرأة أكبر حجما من خيمتك التى تعيش فيها ؟" سألوني أيضا عما إذا كنت شيخا أم لا ، وهل لدى فرس فى بلادى ؟ كانوا يستمعون إلى ربوى على أسللتهم بشوق مشوب بالرضا والانشراح ؛ كان من بينهم واحد أو اثنان يتدخلان عندما يريان أنى بدأت أحس بالملل ويقولان : "أنت يا من تسأله ، أين أدبك ودماسة خلقك ، لماذا تزعج الغريب ؟" . ومع ذلك كان الأعراب يعجبون بشكل عام كلما سمعوني أتحدث عن سلوكيات المسيحيين الطيبة . (يقولون) طلبنا من خليل أن يحدثنا عن

(*) الشيخة الكبيرة : المقصود بها الملكة فيكتوريا التى وصلت إلى الحكم فى بريطانيا فى عام ١٨٣٧ ونصبت إمبراطورة على الهند فى عام ١٨٧٦ وحكمت أربعة وستين عاماً حتى وفاتها فى عام ١٩٠١ . (المراجع)

النصارى : ووالله ، هؤلاء الذين نرى أنهم كفار ، يخشون الله أكثر منا نحن الذين نسمى شعب الله : يضاف إلى ذلك أن خليلا ليس عدوا ، ومن الذى يجزئ على أن يقول غير ذلك ، وفكره وذهنه مثل فكر الأعراب . كان الأعراب يتعجبون فى بعض الأحيان وهم يقولون : "حكى el-hichy خليل Khafil حلو helw بمعنى "كلامى كان حلوا" فى أذانهم . كانوا ، مثل سائر كل الأعراب ، يتوقون شوقا ليسمعوا منى شيئا عن "جيزات jizat النصارى en-Nasara" أو إن شئت فقل "الزواج عند النصارى" ، وكانوا يعجبون وأنا أحكى لهم مستقيضا عن الرباط المقدس الذى لا يباع ولا يشتري ، فى الزواج المسيحى !

أنا أعجب أيضا لذلك الظلام المطبق الذى يخيم على أولئك البدو الرحل فيما يتعلق بمسألة الدين عند الساميين Semitic ! قال لى هؤلاء البدو : "نحن مساكين وجهال ! ونحن عندما تراودنا بعض الشكوك الدينية نستفتى فيها العلوانة (أى ولاد على) لأن أولاد على يكتبون كما يقرعون أيضا الكتاب المقدس . " ومن بين هذه المسائل الدينية - أن هؤلاء البدو المترحلين كانوا يصلون أكثر من جيرانهم فى الغرب أو الشمال - بعض هؤلاء البدو لم يسمعوا عن حياة ما بعد الموت ! كل ما يعرفه هؤلاء البدو الرحل هو أن من يغضب الله "سيلقى فى جهنم" . سألتنى أحدهم ونحن جلوس حول نار المساء : "يا خليل ، هل هناك شيء بعد وفاة الإنسان ، خبرنا عن ذلك ، (فكرة أن الشعب المعوز أو المحتاج ، عندما يضحى بالكرم ، يتحتم عليه فى أحيان كثيرة أن يفش أمعائه هو) وهل إذا قدم الإنسان الصدقات طمعا فى رضا الله ، سيجد تلك الصدقات فيما بعد؟" الصدقة هى منة من عند الله ، وهى شفقة إلهية من جانب الرجل المستقيم ، يخرجها المتصدق بالضرورة لغوث شخص آخر ؛ ورددت على السائل من واقع الكتاب المقدس (الإنجيل) : "من يعطى الصدقات إنما يقرضها لله ؛ وسوف تحصد فيما بعد ، ذلك الذى تزرعه." - "لقد سمعنا أنه ستكون هناك نارا ، وماذا بعد هذه النار ، يا خليل؟" - "النصارى والمسلمون يؤمنون بأن الموتى سيبعثون ، ليقفوا أمام الله يوم الحساب ، فى وادى يقع أمام جدران (المدينة) المقدسة ، أو إن شئت فقل : القدس " - "iel-Küds أه ! أين المدينة المقدسة ، وأين تقع مدينة الخليل (مدينة "الصديق" ، "مقام إبراهيم ، أو إن

شئت فقل: حبرون(*) (Hebron)؟ سمعنا أن الناس سيجمعون في حفرة تحت "الصخرة المعلقة هناك": فما هذا، في رأيك، يا خليل؟ ومتى ستسقط تلك الصخرة؟ وهل هي صحيح معلقة في الهواء؛ وهل تبدو الصخرة كما لو كانت توشك على السقوط؟ - الكهف وغطاؤه، "الصخرة المعلقة" عبارة عن حفرة، وردت في دين محمد (ﷺ) عن إبراهيم والبطارقة، (أو بالأحرى هي عبارة عن غرفة مسقوفة، محفورة بكاملها في صخره من الحجر الجيري) في المنطقة المحيطة بمعبد جبل Mount Moriah موراية Moriah، ومبنى فوق تلك الصخرة مسجد عمر: هذه الصخرة تشبه مسقى مائي صغير، وهناك كثير من الخزانات الشبيهة بها والتي كانت تستخدم في الزراعة قديما، في المنطقة المحيطة بأورشليم (القدس). - "والحكم النافذ، ماذا سيكون مصيرنا؟" - "ستكون وجوه العادلين منورة مثل ضوء الشمس، سيقودهم الملائكة إلى جنان الرب، حيث حسبما ورد في الكتاب، لا يتذكرون متاعب الدنيا التي لاقوها؛ ولكن الأشرار سيهون في النار، حيث لا ينتهي عذابهم." - "هل سنعرف أبانا ونراهم هم ومعارفنا؟ حدثنا أيضا عن دينك. متى جاء عيسى؟" - "دين عيسى بن مريم، من روح الله، أي أنها أعلى من السماء! هذا الدين يحرم ويمنع كل المعاني والتعامل الشرير. ويطلب من الناس أن يخشوا الله ويحبوه لأنه هو خالقهم، وأن نعبر لجيراننا عن حبنا الإلهي لهم؛ وأن نحيا حياتنا بلا أضرار وفي هدوء، ولا نكره أحداً أو نجعل منه عدواً لنا، وأن نتمتع بالصفح والعفو." كان البدو يرددون ذلك الكلام بعدى وقد ظهر الإعجاب الديني في وجوههم: ولكن الأمر كان يبدو غريباً عليهم، فيما يتعلق بحب الإنسان لعدوه أو خصمه، في هذا العالم العامر بالحقد والحسد، وغير العادل بطبيعة الحال. "يا خليل، هل صحيح أن التبغ هو بول إبليس؛ وهل سيهوى شاربو drinkers الدخان محترقين في جهنم؟" - "يا لحماقة الأطفال هذه! - ما هو إبليس أو الشيطان Sheytan؟ لم يستطيعوا الرد على هذا السؤال، وكانوا يتعجبون أن هذين الاسمين مسميان لشيء واحد: - بدا قولي لهم أيضاً طريفاً لغرابته!

(*) حبرون: موقع هذه المدينة في الضفة الغربية لنهر الأردن على مقربة من مدينة القدس. (المراجع)

قمت فى عصر أحد الأيام بزيارة إلى تلك الرجوم التى تشبه خلية النحل (الصورة رقم ٦١) والتى كانت فى مكان قريب من المكان الذى كنا نقيم فيه ؛ كانت تلك الرجوم عبارة عن أكوام من التراب فوق التربة الجرداء القاحلة ، ولها أوزان معقولة وصلابة معقولة أيضا . أحصيت من بين هذه الرجوم ما يقرب أو بالأحرى ما يزيد على مائة وخمسين رجما . كان بعض تلك الرجوم متصدعا ، أما البقية فمن الواضح أنها سبق اختراقها والتجوال خلالها . هذه النباتات التى على شكل أكوام مستديرة ، أو على شكل شبه بيضاوى يصل عرضها إلى حوالى خمسة وعشرين قدما ، كما يصل ارتفاعها إلى حوالى عشرة أقدام . داخل هذه الأكوام عبارة عن زنازين عميقة ضيقة ، بواقع زنازنة واحدة ، أو اثنتين بل وأحيانا ثلاث زنازين فى الرجم الواحد، وهى مزودة بفتحات تشبه الفخاخ . عن طريق هذه الحفر التى من عمل الإنسان . نزلت إلى بعض من تلك الرجوم ، حيث كنت أجد دوما بداخلها هواء يشبه هواء القبور ؛ ولكنى لم أعر على عظام داخل هذه الحفر أو الزنازين . لاحظت أن الزنازين كانت مبنية بطريقة إنكماشية نحو الأعلى ، ومغلقة من أعلاها بقرميد من الحجر ؛ ومن فوق هذا الغطاء توجد بعض الأحجار السائبة صغيرة الحجم أو إن شئت فقل: الحصى ؛ زد على ذلك ، أن فتحات تلك الخنادق تبدو كما لو كانت آباراً عند رءوس تلك الرجوم . وعند كل فتحة من هذه الفتحات ، كانت هناك حافة بارزة ، أو إن شئت فقل : قدم متقدمة حول المسارات الأرضية لبعض هذه الرجوم . هذه الرجوم كلها مبنية بالطريقة الجافة ، ومرصوفة رصا جيدا ، وهى مبنية من البازلت المنخوذ من الوادى نفسه . هناك فى وادى عروش أكوام أخرى من هذا القبيل ، كما أن هناك بعضا آخر من تلك الرجوم التى شاهدها فيما بعد فى وادى الشلال Shellal ، ولكنها كانت أقل حظا من حيث مصنعية البناء . وبعض الرجوم التى تظهر لى من هنا ، على حافة الوادى ، هى أكبر من كل الرجوم الأخرى التى سبق أن رأيتها ؛ وفى منطقة هذه الرجوم التى عند حافة الوادى أشاهد مدقا من مدقات الأغنام المؤدية إلى أعلا الحرة ؛ ولكنى عندئذ كنت أبلغ من الضعف مبلغا عجزت معه عن الصعود إلى الحرة سيرا على قدمائى . أخبرنى الشيوخ أن ذلك الذى رأيته لا يعدو أن يكون نواتر من الجدران ليس إلا . سألت الأعراب ، "أليست هذه الرجوم هى مقابر القدماء ؟" الإجابة : "خطر ذلك ببالنا ، ولكن

البحث والتفتيش الذى قمنا به فى العام الماضى ، أسفر عن عدم وجود عظام أو بقايا عظام فى تلك الرجوم .

اتخذت من دغل التين البرى الرطب ملجأ لى طوال بضعة أيام ، إذ كنت ألجأ إليه عندما تشتد حرارة الجو - والذى لم يكن ظله يدوم طويلا . كانت القطعان تتوافد على ذلك الدغل لترتوى من مائه الدافئ ، كما كانت تغد على ذلك الدغل أيضا ربات البيوت البدويات لتملأن قرابهن بالماء ، كما كان الرجال ينعمون أنفسهم بالاستحمام فى ذلك الماء . يوجد فى هذا الدغل بئران ، أولهما يقع خارج البئارة (وهو الأفضل) ؛ درجة حرارة الماء فى هذا الدغل تصل إلى ٨٣ فهرنهايت . والبئر الموجودة داخل الدغل أو إن شئت فقل : البئارة (وماؤها فيه شئ من مذاق الكبريت) ينساب ماؤها فى بركة صغيرة من الصلصال ، مملوكة لبعض البدو الغائبين الذين يمتنعون الزراعة ، وهم يستخدمون ماء هذه البئر فى عملية الري . هذا التين البرى (الحماة hamât) له أوراق صغيرة جداً ، تشبه أوراق أشجار توت الحدائق ؛ وتسغ أشجار التين البرية هذه ، يبلغ من الحموضة حدًا يترتب عليه حدوث التهاب للجلد إذا مالامسه ، ويظل يحرق من يصيبه طوال يوم أو يومين . قلة قليلة من أشجار ذلك التين البرى ، هى التى يمكن العثور عليها فى هذه الصحراء ، وهى تنبت (بفعل زراعة الطيور البرية لها) حول مصادر المياه . وأنا لم يسبق لى أن رأيت بئارة من هذا القبيل فى الجزيرة العربية ؛ بالقرب من هذه البئارة ، توجد مقبرة ، يعتقدون أنها منهل menhel ، أو إن شئت فقل : مكان منخفض فيه ملائكة أو حوريات .

فى هذه الظلال الوارفة ، شاهدت ثعابين طويلة تشبه الكرياج ، كما شاهدت أيضا عناكب تبلغ من الكبر حدًا تشبه معه راحة يد الإنسان ومعها أصابعه : كما شاهدت أيضا ذبابا كبيرا مختلف الألوان ، يلمع ويتلألأ فى هذا الفيض من الضوء المنكسر . كما شاهدت طول اليوم ، فوق تلك البركة الصلصالية سحابة من طيور الصحراء الرمادية التى تسبح فوق المياه ، وتجئ إلى هذا المكان قادمة من الصحراء ، لكى ترتوى وتطفى ظمأها ؛ كما شاهدت أيضا بعض طيور خطاطيف الكتبان والمنخفضات ، فضلا عن بعض من يمام الصقور أزرق اللون ، وتلك كلها من الطيور التى تحوم حول مصادر المياه فى الجزيرة العربية . أسفل هذه البركة مباشرة ، فى

الوادي الواسع ، توجد بعض الأشواك الصحراوية ، التي نمت إلى أن أصبحت تشكل نوعا من الأخشاب ، ورجال المخيم يلونون بتلك الظلال الهزيلة : وفي هذه الظلال يفرد الناس أجسادهم طلبا للنوم . مفضلين تلك الظلال على الخيام ، وفيها يمضون ساعات الحر القاتل . منحدر الوادي خلف منطقة البيرة وبركة الماء يعد موطننا وملأدا للحبارى الصحراوية التي لها أرجل حمراء اللون : فقد استمعت إلى تلك الحبارى وهي تغرد بلحن مرح لطيف ، طوال نهار الصيف بكامله . في هذه المنطقة وحدها شاهدت الفراش يرفرف بأجنحته كما لو كان زهورا تتداعى في هواء الصحراء . والأعراب يطلقون على ذلك الفراش اسم "الشَّرَّارَة" Sherrâra ، - أما أهل الحضر فيطلقون على الفراش اسم "عيسون" aisûn ويخاصة في المدينة (المنورة) .

مقبرة شيوخ الموءاهيب ، توجد بالقرب من البيرة في ذلك الجزء الحجري الوعر من الوادي . شاهدت في منطقة المقبرة بعض الجدران الأرضية المهذمة المتخلفة عن مباني جافة ؛ وبين أكوام الحجارة الكبيرة ، توجد مجموعة صغيرة من قبور مختلفة الشكل ، كما يوجد عدد قليل أيضا من المصليَّات (أماكن الصلاة) ، من قبيل المصليات التي رأيناها عند ابن الرشيد في الحجر ؛ هذه المصليات فيها متسع من الأرض يسمح للإنسان بالانحناء عند الدخول إليها ، وهي مفصولة عن المصلى العام بأحجار مرصوفة على شكل حدوة الفرس ، وقبلتها متجهة نحو مكة . في تلك المصليات شاهدت ورأيت أفراد القبائل وهم يحضرون للصلاة على قبور أسلافهم . والبدو يحرصون على اجتياز ذلك الطريق أثناء الليل ، وهم يقولون إن الأشباح تجوس في ذلك المكان ، الذي سكنه الكفار في سابق العصر والأوان .

من هنا يصبح معنى "منهل" menhel الملوك "el-melûk" ، "مكان إضاءة قوة الهواء". ولكنهم عندما وجدوني أحتقر خرافتهم هذه ولا ألقى لها بالاً قال شاربو القهوة : يا خليل . هذا صحيح بحق ، وبالرغم من أننا لم نر هؤلاء الكفار ، فقد رأهم أبائنا ؛ هناك بعض القبليين الآن ، الذين مازالوا على قيد الحياة وهم على استعداد أن يقسموا أنهم سمعوا وداسوا بأقدامهم ، في رقصاتهم ، وسمعوا أصواتهم ، وأغنياتهم ، أثناء الليل ، وأنهم فهموا كلامهم ؛ وأن ذلك حدث في زمن كانوا يجيئون فيه للصيد في هذا المكان ، وكانوا يقيمون فيه وحدهم هنا في هذا الجزء من وادي تربة ؛ - وأنهم كانوا

متاكدين تماما من عدم وجود أى أحد من الأعراب مخيما فى ذلك المكان فى سائر أنحاء الوادى . "يردف هؤلاء البدو قائلين : "لو حاول أحد نزع غصن من الأغصان ، فسوف يُمسك به فى الهواء ، ولن يراه أى أحد بعد ذلك ؛ أو قد ينسى عقله ، ويهيم دوما فى أنحاء الخلاء (الصحراء) بلا طعام أو شراب . " حكوا لى أيضا عن حادث وقع منذ فترة طويلة ، لواحد من أثرياء الطُّوالَة Tuāly - كان ذلك الطوالى معروفا لكل الأعراب ، - هذا الرجل (بالرغم من الخرافة السائدة بينهم) أضرم النار فى واحدة من تلك الأشجار المسكونة التى تنمو فى الجاو Jau : "ولكن ذلك الرجل بعد أن قاسى الكثير من المرض الخطير ، برزث أعضاؤه من شرجه وانتهت حياته نهاية مأساوية : ومات أطفاله أيضا بنفس الطريقة، كما نفقت كل ماشيته أيضا بالطريقة نفسها؛" كان ذلك الرجل يملك حوالى أربعين جملا . تلك كانت إشارة أو علامة من علامات السماء الصامتة فى زمنهم ، والتى سجلت فى الكتب (هل كان لدى هؤلاء البدو معرفه سطحية بالقراءة والكتابة)، وربما انتقلت تلك الخرافة إلى الأجيال التى جاءت بعد ذلك ؛ كان البدو يقولون لى دوما أن أحداً من الأحياء لم ير تلك الرؤى الملائكية ، - وهم يقولون إن هذه العلاقة جاعتهم عن طريق القدماء . "سألونى ، إذا لم تكن تلك التوضيحات من قبل الملوك ، فماذا تكون ؟" الملائكة يُروْن فى الهواء على هيئة فرسان ، يتقدمون إلى الأمام ويرجعون إلى الخلف ؛ هؤلاء الملائكة "يختفون ، بالله ، من منظوركم ."

هناك أيضا بعض "المناهيل" menahil فى أجزاء من الجزيرة العربية . بل وفى كل ديرة من ديار البدو الرحل . هذه المناهيل تتمثل بصورة عامة فى بعض الأشجار وبعض الأعشاب أيضا التى توجد فى الخلاء ، أو إن شئت فقل : الصحراء . فى تلك المناهيل ، يقوم القبليون المرضى أثناء ترحالهم ، وعندما يصلون إلى تلك المناهيل ، بذبح شاة ، قربانا لتحسن صحتهم ، أو عتزة ، ويروحون ينثرون دماء هذه الذبائح هنا وهناك . ويقوم ذلك المريض بطبخ لحم الذبيحة فى المكان وتوزيع لحمها المطهى على أصدقائه ، ويترك بعضا من ذلك اللحم معلقا على أغصان ذلك المنهل : ثم يستلقى بعد ذلك لينام على الأرض بدافع من إيمانه العميق بخرافته أن الملائكة سيجيئون فى الرؤية، ويتكلمون عن بعض الدروس المهمة فى صحته . "يستيقظ المريض سليما ومعافا؛ لكن إذا ما كانت صحة أى إنسان تسمح له بالنوم فى المنهل ، فإنه يصحو فى الصباح

محطما ومعتل الصحة . " والجاء Jau فيها منهلان ، أحدهما دغل من أدغال نبات "السرّاح" Sarhâh ، أما المنهل الثانى فهو عبارة عن واحدة من أشجار الأرو Oak دائمة الخضرة التى يطلقون عليها اسم "البوتم" butm أو الثروة Thirwa ؛ هذه الأشجار المسكونة (من الجن) يعلق عليها هؤلاء البدو الرحل أنواعا كثيرة من الخرز ، وكذلك شرائح من القماش ، وتماثم من مواد ملونة ، فضلا عن كثير من الأشياء الأخرى . ومن بين المناهيل أيضا ذلك النبات الشوكى الصحراوى الضخم الموجود أمام القلعة قبل قرية ، أو إن شئت فقل : وادى الحجر . - ترى هل مسألة خرافة أشجار المنهل هذه ، بقية من بقايا عبادة الأشجار ، التى نعرف أنها سادت الجزيرة العربية وانتشرت فيها .

هذا الشيء نفسه ، نجده مستمرا أيضا ، فى الريف والحضر ، فى البلاد العربية المتاخمة للحدود . فى كل هذه الأراضى المفتوحة نجد أشجارا ، وأماكن ، يصلى الناس لها ، وذلك فى المنطقة بدءا من سوريا إلى مراكش (المغرب) : فى هذه الأماكن ، يعلق كل من يفد إليها من أجل الصلاة خرقة من القماش على تلك الأشجار إشارة إلى الصلاة التى أجيبت فى ذلك المكان . ما أكثر تلك الأدغال التى لا تعطى ظلا ، فى وقت الحر ، لعابر السبيل هذا الظمان الذى لفحته حرارة الشمس ، الذى يروح يركع ويسجد أمام تلك الأدغال ، فى وادى بردى Barada ، بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال هناك بعض الأعراف والاحتفالات الوثنية بين المسلمين ، قمت بزيارة اثنتين من بيارات أشجار السنديان دائمة الخضرة ؛ هاتان البيارتان تعدان من أماكن التمنى والأمنيات عند الفلاحين . هؤلاء الفلاحون إذا ما تحقق لهم شيئا يكونون قد تمنوه ، يبادرون بالذهاب إلى إحدى هاتين البيارتين فى يوم محدد من أيام العام ليقوموا هناك بتكسير قطعة من الفخار ؛ أو قد يضعون تميمة جديدة فى كهف صغير موجود تحت صخرة فى البيارة الثانية . هذا الكهف ، شاهدته ممتلئا تماما بأواني القرابين : هذا يعنى أن الإنسان يرى تلك البيارة الثانية كومة من قطع الفخار المكسور . [هاتان البيارتان موجودتان فى ساحل الوادى ناحية الغرب فوق قرية الزبدانى Zibdany] . - تلك هى معتقدات عامة وشائعة من معتقدات الوعى الإنسانى الخرافى غير المنطقى فى سائر أنحاء الدنيا كلها . الأمثلة على ذلك كثيرة جداً على نحو يصعب معه حصرها ،

وبخاصه فيما يتعلق بأشباح الملائكة ، التي وردت فى كتاب موسى ، وفى التواريخ المقدسة لأزمان أو عصور إسرائيل الأولى . لدينا مثالا مدهشا [بالرغم من عدم وجوده فى النص الأصلي] فى العهد الجديد : فى مواسمه تنزل قوة الهواء لتريك خزاننا فى أورشليم (القدس) ، ومن ينزل فى البداية إلى الماء ، كان يشفى من وهنه .

سألت هؤلاء البدو الرحل عن عادات الدفن عندهم وعن طقوس الموت أيضا . الميت عندهم يدفن فى نفس يوم الوفاة ، وإذا ما مات فى المساء دفنوه فى الصباح . وهم يغسلون الجثة ، ويكفنها فى قماش أبيض جديد : وهم يحفرون بشدة ، باستخدام أيديهم أو عصا من العصى ، فى التربة الحارة ، قبرا ضحلا . وهم يوجهون قدمى الميت ناحية مكة (القبلة) ثم يقومون بوضع كومة من الأحجار الجديدة حفاظا على الجثة ؛ ومع ذلك فقد وجدت قبورهم فى الصحراء وقد نبشتها الضباع الضارية . كما شاهدت أيضا الأكفان مجرورة إلى سطح الأرض . وقد أبلغنى ماهوبى Muhūby أنهم "يخلقون رأس الميت ، ويذرون شعره فى الريح" وإذا ما ثبتت صحة كلام ذلك الماهوبى ، فهذه العادة لا وجود لها فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية . قال لى الماهوبى أيضا : "هم لا يخلقون شعر المرأة ، وهم يدفنون معها مشط شعرها . وهم يدقون وتدأ من أوتاد الخيمة عند رأس قبر ربة المنزل" . وهم ينثرون العطر على نعش المرأة عندما يحملونه . والمرء عندما يموت يقوم أقاربه بذبح نعجة عند قبره ، ولكن دون أن ينثروا دمها ؛ وهم يسلقون لحم النعجة ويوزعونه على المشاركين فى الجنازة . وفى الذكرى التالية للوفاة يجتمع أو إن شئت فقل ، يتجمع أصدقاؤه عند أقرب أقاربه .

الذى يذبح ذبيحة بقدر ما تسمح به ظروفه وحسب مقدرته - والبدو الرحل أصحاب درع شديد فيما يتعلق بهذا الأمر - إذ إن الذبيحة ينبغى أن تكون بقرة أو جملا ؛ ولكن نظرا لعوز تلك الأسر وفقرها ، ونظرا أيضا لعدم توفر القطعان ، فإنهم يبيعون ثلاثة أو أربعة من الأغنام أو الماعز ، ويشترون بثلثها "فطيرا" Fatir ، أو إن شئت فقل : ناقة فقدت أسنانها الأمامية ، ولم تعد تحمل (تنجب) ، ويقومون بإعفاء تلك الناقة من كل الأحمال ويتركونها تسمن عدة أشهر . - وهم لا يقدمون أضحية . أو إن شئت فقل : ذبيحة ، للمرأة الميتة .

بينما كنت جالسا ذات يوم فى الظهيرة بالقرب من الحماة hamat (شجرة التين) جاءت مبلّيس Miblis زوجة طُلُج الشقراء الشابة ، ومعها خمسة أو ستة من قراب الماء : سألتها عن سبب كثرة القراب فى ذلك اليوم ؟ أجابتنى : " سيقيم طُلُج الليلة وليمة ، وسوف يذبح بعيرا صغيرا ؛ ولا تنسى يا خليل ، أن تحضر تلك المناسبة . " - وعندما كنت أجلس ضمن مجلس العصر سمعت أن الشيخ سوف يحتفل بتمام السنة اليوم ، وسوف ينحر ذبيحة تأيينا لوالده من ناحية ومولاه من ناحية ثانية . خرج طُلُج عندما أوشكت الشمس على الغروب ، ونادى طالبا إحضار سكين ، ثم شمر كُمَيْه ، - نظرا لأن رب الأسرة هو الذى يتعين عليه أن ينحر ذبيحته : وكانت ناقة وبغيرها تقف خارج الخيمة . صاح أحد الحاضرين قائلا : " انتظر ! لماذا تفعل هكذا يا طُلُج ؟ والرضيع أنثى . اذبح شاه ، يا أنت ، أو عنزة بدلا منها . " ورد عليهم حامد ولد الشيخ - على من ستحل لعنة هذا القربان فى يوم من الأيام ، " ولكن هذه الناقة الرضيعة ترفض الرضاعة ، ولذلك قررنا ذبحها . " كان ثمن تلك الأنثى الصغيرة يتراوح بين ثلاثة وأربعة ريالات ، إضافة إلى أن ذلك الثمن كان يزداد بمعدل ريال واحد كل شهر . لم تفت تلك الكلمات فى عضد الشيخ . فعل الواقفون ، ذلك الذى أمرهم به الشيخ ، ووضعوا أيديهم الخشنة على البعير الصغير وطرحوه أرضا وهو يناضل ويذمر . وعندما شاهدت الناقة الكبيرة ذلك التعامل الخشن مع ولدها ، اتجهت نحوه ، وأنزلت عنقها الطويل ، وزمجرت زمجرة عاطفية من خلال حلقها الكبير ، كانت تلك الزمجرة مليئة بالمتاعب . أحدث طُلُج جرحا عميقا فى رقبة تلك الضحية البائسة ، وكان ذلك الجرح بالقرب من صدر البعير الصغير ؛ كانت الأم البائسة تقطع المكان جيئة وذهابا وتدور من حول نفسها ، وتتشمم الدم وسرعان ما وضع لحم البعير فى الأوانى ، التى راحت تغلى فوق نار البدو الضعيفة المكونة من قليل من الحطب وشئ من روث الإبل . وعند منتصف الليل أصبحت وجبة الوليمة التى أقامها طُلُج ، جاهزة ومعها أيضا الأرز المطبوخ . كنت قد غادرت المكان لكى أنام ، ولكن ذلك الرجل العجوز الطيب لم ينس الغريب ؛ فقد أيقظنى مرأسله ، بعد أن وضع طبقا شهيا خلف باب خيمتى ؛ " هذا الطبق من عند طُلُج ، هيا انهض وتناول عشاءك . " لحم البعير الصغير هذا طرى وحلو المذاق مثل لحم العجول الصغيرة . والبدو نادرا ما يتكولن لحوما غير اللحوم التى

يذبحونها هم بأيديهم ؛ ولكن يتعين أن تكون الذبيحة من النوع الذى يذبح بأيديهم :-
والبدو يندر أن ياكلوا لحوم الصيد أو الطرائد .

ونحن عندما نتكلم بصورة موجزة عن الأضحيات التى يقدمها هؤلاء البدو الرُّحل
فى الصحراء نقول : إن الطفل الذكر ، عندما يولد يذبح له والده نعجة ، ولكن الطفلة
الأنثى لا يذبح لها والدها شيئا . وسبق أن تحدثت عن نثر الدم على الأرض ، كما أنهم
يسكبون الدم أيضا فى أساس المنزل الجديد عند بنائه ؛ وهم يلجأون إلى مثل هذا
العمل عند افتتاح مصدر جديد للمياه ، أو توسيع بئر من الآبار . وعندما يعود الغزاة
بغنيمة من غزوهم ، يقال لهم "فيض" feyd أو "شسَاب" Chessab . فى هذا "الفيض"
أو "الشسَاب" تخرج النساء ترقصن وتغنين لاستقبال أولئك العائدين من الغزو ؛
ويجرى فى نفس الليلة تلطيف ذلك الشسَاب بدم الذبيحة أو الضحية . هذا هو متعاد
Metaad ، واحد من جيرانى ، أرسل لى هدية من لحم عنزة سمينة كان قد ذبحها فدية
لجمل مريض ؛ و "هنا ، قال الأعراب ، سوف تبدأ صحة الجمل فى التحسن . " وهذا
هو ربا Rubba ، الراعى المسكين ، أقام وليمة عشاء لأصدقائه ، مقسما بينهم لحم
عنزة ، كان قد نذرها عندما كان مريضا ويحس بالآلم . وهذا هو سويش Swoysh ،
يقدم أضحية لمولاه ويقوم بتوزيع أجزاء الذبيحة فى خيمته ، ولم نتناول عنده طعاما .
هؤلاء البدو على قناعة من أن تأخير تقديم الذبيحة لن يكون فى صالحهم وقد يضرهم .
وهم يطلقون على الأضحيات الدينية كلها اسم "قربان" Kurbān . ولقد شاهدت بعض
حضر المدينة (المنورة) يطلقون قليلا من البخور قبل نحر الأضحية أو إن شئت فقل :
القربان ، نظرا لأن رائحة الطيب "مقبولة عند الله" ، كما أنها توجه عقولنا نحو الدين .
- وفى الأماكن التى يكون الناس فيها هم الجزائريين ، فربما (مثل العرب) يكونون
أكثر ميلا لإهدار دم البشر . والبدو عندما يقدمون أضحية (قربان) للجان ، فهم
يقدمون أيضا قربانا للشياطين . والواحد منهم عندما يقدم قربانا من أجل الصحة ،
فإنهم يعتقدون أن ذبح الخروف أو العنزة إنما يكون فداء عن حياة الجمل أو حياة
البدوى هو نفسه ، بمعنى أن تلك حياة من أجل حياة . [وعليه فإن ذبح شاة أنقذ حياة
ولد (سيدنا) إبراهيم.] هذه الأضحيات التى يتناولها الناس فى الصحراء بصورة
جماعية تخفف قليلا من جوع أولئك البدو المستمر ؛ - هذه الأضحيات أو القرايين التى

هى نداء من عند الله العاطى ، عبارة عن تناول لعشاء ريانى من الخبز والملح مع الله
(سبحانه وتعالى) !

انتظرت على أمل مواصلة الرحلة إلى خيبر . مرت على أيام عجاف ، كنت لا أرى
خيبر تقترب منى خلالها ، كما تناقصت خلالها قدرتى على الترحال والانتقال .
كان محصول التمر قد بدأ ينضج فى تلك الوديان الحارة . والمؤكد أن المواهيب كانوا
قد ذهبوا إلى تلك الوديان مع بدو الفجير ؛ ولكن كان قد سبق لنا معرفة أن بدو الفكرة
لم يذهبوا إلى خيبر فى ذلك العام . إضافة إلى أن بدو الفكرة ، بحكم قلة عددهم
لا يجرون على عبور منطقة ميوعة (فى هذا الموسم) بعصابات الغزو ، كان رسل
شيوخ الفجير قد عابوا من خيبر ، ويحملون معهم أنباء مفادها أن قسماً كبيراً من
تمر النخيل قد أكلته أسراب الجراد ، وأن جنود المدينة (المنورة) كانوا فى خيبر
ليأخذوا مستحقاتهم من ذلك التمر ؛ وبلغنا ، عندئذ أن الشيوخ والقبليين قرروا التنازل
عن محصولهم فى ذلك العام . ومعروف أن ضريبة الدولة (الإمبراطورية العثمانية)
كانت تقدر بواقع ريال مجيدى واحد عن كل ستة من الإبل ، أو ريال مجيدى واحد عن
كل أربعين رأس من الماشية الصغيرة ، - والناس هنا يقولون ، إن هذا أخف وأعدل
من الضريبة التى يفرضها جباة ابن الرشيد ، والتى يعبدونها أيضاً معتدلة وغير مبالغ
فيها . ولكن ذلك يحز فى نفوس أولئك البدو الذين ليست لديهم أية خبرة فى المسئوليات
أو الأعباء العامة .

كيف لشيوخ الفكرة أن يواصلوا حياتهم فى غيبة تمرور خيبر عنهم ؟ -
عن طريق بيع بعض مواشيهم الكبيرة ، نظير الطعام ، فى القرى ؛ ولكن ماذا تفعل
الأسر القبلية الفقيرة ؟ - "بوسعهم تأجير أفضل إبلهم ، لجلب الماء من الآبار فى
الواحات ، مقابل عدة مكاييل من التمر كل شهر . " يضاف إلى ذلك أن الإبل القوية
بدنيا قد لا تتحمل العمل فترات طويلة ؛ يتحتم بعدها إطلاقها إلى الصحراء ؛ والبدو
يقولون ، إن المجموعة القوية والجيدة من الإبل لا تتحمل العمل لمدة تزيد على مائة يوم .
هناك بعض من أصحاب الآبار ، الذين يشغلون تلك الإبل بصورة مستمرة ، الأمر
الذى يجعلها تهن وتضعف فى النهاية . يضاف إلى ذلك أن الأشخاص المتذمرين ، فى
وقت الشدة والعوز ، يفرضون أنفسهم على الموسرين من رجال القبائل ليحصلوا منهم

على شربة صغيرة من اللبن ، من باب مرضاة الله ، كما يطلبون منهم أيضا شيئا يقتاتون به فى الغد . ولقد شاهدت ربات البيوت الغاضبات الحانقات وهن يقدمن تلك الصدقة التافهة بتراجع شديد ؛ ومع ذلك ، فإن هذه الصدقة القليلة ، تعطى وتقدم لهؤلاء الناس ، مخافة من الله وتحاشياً لألسنة الناس وكلامهم . ولما كان الفكرة قد عقدوا العزم على عدم الذهاب إلى سوريا ، فقد قرروا ألا يقيموا هذا الصيف مخيمات دائمة ، وأن يواصلوا السير هم وإبلهم ، هذا يعنى أن كل أسرة من الأسر سوف يتعين عليها شرب الحليب فى المساء . لم يكن فى منزلنا أحد يمكن أن يغامر بإرشادى إلى خيبر وتوصيلى إليها . ومع ذلك ، كنت أود مشاهدة خيبر ، ونظرا لضعفى وقلة حيلتى ، قررت أن أنهى رحلتى فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية ؛ ترى ، ما هو ذلك السبب الذى يجعلنى أهرق حياتى بصورة مستمرة ، عن طريق تعريضها للخطر بصورة دائمة؟ أو ما هو ذلك السبب الذى يجعلنى أعانى هذا الكرب والبلاء ، وأنا أواجه ذلك التعصب والتطرف فى سائر أنحاء هذه البلاد المسلمة Ishmaelite ؟

رجانى المواهيب أن أكتشف لهم المياه القديمة . ورغبة المواهيب فى تلك الميزة الدائمة تفوق بكثير جشعهم العبرى وطمعهم فى الذهب . هؤلاء المواهيب على استعداد للتضحية بكل المزايا المؤقتة ، فى سبيل منجم الماء الذى يدر عليهم زبدا وحليباً بصفة مستمرة . وبينما كنت جالسا فى المجلس ، سألنى بعض الشيوخ : هل أستطيع أن أفتح لهم بعض المياه الميتة فى وادى تربة ؟ سألتهم : ألم يحاولوا هم أنفسهم القيام بذلك ؟ طُلِّجَ : إذن خليل سيكشف لنا الماء . ونحن موافقين على أن يأخذ الكنز الذى سيعثر عليه ، ويكون حكرا عليه وحده ! كانت بثرا قد تفجرت مؤخرا تحت الجانب البعيد من الوادى ، ولكن جرى توقيف ذلك النبع عن طريق سيل من الأحجار ، ولم يستطع البدو توحيد جهودهم من جديد لإعادة فتح تلك البئر من جديد . سوف أشرع فى ذلك العمل ، وعليكم أن توجدوا لى كل صباح رجلين أو ثلاثة ليكونوا بمثابة عمال معى . - رد على طُلِّجَ متسائلا : ولكن من ذا الذى سيخرج معك ؟ إن مثل هذا الرجل سوف يطالب بدفع أجره مقدما ، ونحن ليس من سلطاتنا إجبار أى أحد على فعل أى شئ من أى نوع كان . - وأنت إذا كنت جباناً إلى هذا الحد ، فمن ذا الذى يمكن أن يساعدك ؟ - يجوز لك أن تقول ، - البدو ! البدو ! يا خليل . ولكن يستطيع

خليل في أضعف الأحوال أن يدلنا على منبع الماء ، الذى شاهدتم مجراه المكسر يوم أن كنا فى الوادى . قلت لهم : إذا أركبوني فقد نستطيع الذهاب إلى هناك ونبحث عن ذلك المنبع ؛ ولكنهم حتى : مع مثل هذا الموقف كانوا عاجزين عن اتخاذ القرار .

كنت قد شاهدت من قبل دلائل وإشارات الماء الجوفى فى الثريد Thorreyid . وتمنيت لو تركت لدى هؤلاء البدو الرحل مزية دائمة طيبة عن رحلة النصرانى وضيافته فى دبرتهم ، والأعراب يطلقون على حفر المياه الضحلة التى يستطيعون من خلالها الوصول إلى المياه الجوفية ، اسم "زميلة" Themila وجمعه "زمايل" Themeyil . قلت : "لعلمهم يوفدوني مع مجموعة صغيرة من الرجال فى تلك المهمة ، ولم أطلب مقابلا لذلك سوى حليب الناقة . وفى ظل الحرارة الشديدة فى هذا الجزء من العام ، لن يشعر أحد بالمتعب أو الآلام؛ كان الكثيرون منهم تراودهم الشكوك حول ما إذا كان الغريب - من أجل شئ قليل من الحليب - سيضلّهم ، وبخاصة عندما وجدوا أنى لم أطلب منهم مكافأة من نوع بعينه ؛ - والسبب فى ذلك أنه يستحيل على هؤلاء البدو أن يسلموا بأن أى إنسان آخر لا يمكن أن يتتوى سوى الخير لجيرانه . وهنا قلت لهم : "لا تكتروا من هذا الحديث ؛ وأنا أعرف ، يا طلّج ، أنه إذا ما فتحت عين من عيون الماء فإنها سوف تثير نزاعا كبيرا بينكم (الأعراب يهوشون Yuhowwishun) حول حقوق استعمال الماء." اكتشاف عين من عيون الماء يمكن أن يسبب القلق والنزاع حتى بين الأقرباء ؛ وهذا النزاع يمكن أن ينكأ جراح الماضى ؛ وقد يعجز شيخ القبيلة عن احتواء مثل هذا القلق أو النزاع بين الأعراب : وقد بلغنى أن هؤلاء الأعراب كانت بينهم مشاحنات حول مياه البيارة . ورد على طلّج قائلا: "يا الله ! هذا أمر طيب ولطيف ؛ (وأردف طلّج متعجبا) ، ولكن من أين لخليل بكل هذه المعرفة عن الأعراب!"

حاول بعض البدو إقناعى "طالما قطعت هذه المسافة الطويلة وربما تصعب على العودة إلى بلادى ، فالأفضل لى هو البقاء فى وادى تربة ، وزراعة ذلك الوادى . - وماذا عندما ينتقل أو يرحل الناس عن الوادى-؟" الإجابة: "سينون لى قلعة، ويتركون معى بعضا من الرجال ؛ وأنى يتعين على افتتاح أو إن شئت فقل : اكتشاف المزيد من المياه المخبأة، وأن الوادى سوف يخضر لونه بفعل جدى واجتهادى . سألتهم : "لماذا لم يحضروا هم بعض الرجال من قرية العلا على أن يقتسم المحصول فيما بينهم ؟" -

وأجابوني قائلين : "العلانة ليست لديهم الشجاعة كي يتجولوا فى هذا المكان . " - وكنت قد سألت العلانة أيضا لماذا لم يرسلوا بعض المستوطنين إلى الوادى القريب منهم الذى يوجد الماء فيه على عمق قليل ، وأرضه خصبة ؟ الإجابة : "إن من سيذهب إلى هناك سيعيش فى خوف دائم ، وما هو ذلك الذى يمكن أن يوفر لهم الأمن فى ذلك الجزء البرى من البلاد ، وما الذى يمكن أن يحمى عقيدة البدو الصغيرة ."

جرى تناول أمرا هاما فى المجلس ، "مسألة خضوع القبيلة أو عدم خضوعها لابن الرشيد ؟" - كان ذلك هو الجدل أو النزاع السائد بين شيوخ السراحين . فى السابق كان أولئك الموءاهيب ، أو إن شئت فقل: أبو Abu شامة Shamah ، يقدم الزكاة ، أو إن شئت فقل : العشور إلى الجبل Jebel (*)؛ - إلى عبد الله الأمير الأول ، واستمر ذلك إلى بداية حكم طلال . كانت تلك الزكاة عبارة عن ضريبة خفيفة عن كل خمسة من الإبل ، تصل قيمتها إلى ١٨٠ أو ٢٠٠ ريال ، وكانت تفرض الضريبة نفسها على كل ثلاثين رأس من المواشى الصغيرة بواقع ١٠٠ ريال . واعتماداً على جبل الحرّة ، راح أولئك البدو يمتنعون عن دفع القدية الصغيرة ؛ وعندما كان عبيد بن الرشيد عائدا ذات مرة من حملة كان يقوم بها على تهامة ، عرّج ليغزو منزل الموءاهيب على أحد جانبي العويرض ، ولكن هؤلاء الجباليون تفرقوا هاربين فى جوانب التلال ، وتحاشوا الاشتباك مع ذلك السُرب المعادى . وعندما أيقن عبيد أنه لن يستطيع إخراجهم من بين الصخور الوعرة ، تراجع حاملا معه غنائم بيت واحد من بيوت الموءاهيب ؛ ولكن كان من بين تلك الغنائم ، أولئك الذين أصيبوا بجراح بفعل نيران الموءاهيب ، على امتداد الطريق المؤدى إلى تيماء ."

ذات يوم ، وعندما كانوا يتدارسون فى المجلس السياسة التى يجب أن يتبعونها مع ابن الرشيد شاهدوا " قبيل غروب الشمس ، القمر الجديد ، أو إن شئت فقل : الهلال ، عن بعد . وهنا وقف طلّج ومعه بقية الحاضرين ، وخرجوا من خيمة المجلس وراحوا يطيلون النظر ويحلمقون فى ذلك النجم الحبيب ، ثم وجهوا وجوههم نحو

(*) الجبل : جبل شمر مركز حكم أمراء آل رشيد . (المراجع)

السماء وراحوا يدعون الله متوسلين ، "أن يحسن الله أحوالهم فى زمن هذا القمر ، وأن يخلصهم الله من أعدائهم . " ثم قال لى طلّج بعد ذلك متسائلا : "ما رأيك ؟ هؤلاء أصحاب الجبل Jebel (أى حكومة بن الرشيد) يقولون عنا إننا مشركين Mushkrakīn ، أى نعبد الأوثان ، لأننا امتنعنا عن إعطائهم الزكاة ، يا خليل ، هل عثرت خلال ترحالك على أعرابى يصلى أكثر منا ؟ هؤلاء البدو ، الذين التقيتهم أنت فى الأجزاء الشمالية ، أو بالأحرى أهل Ahi الشمال es-Shemāl ، هل يصلون ؟ - ما رأيك ؟ - لا ، إنهم لا يصلون إلا قليلا ، إنهم أقرب إلى أهلك ، النصارى . " بدأت أجيب على تلك التساؤلات مؤكداً أن أهل الشمال هم الأفضل والأحسن ولكن الشيخ المتين لم يفهم ما قلت : "قال : أنت صادق الرأى ، لقد وقفت بنفسك أننا أفضل من أهل الشمال ؛ إنهم لا يصلون أكثر من الكفار ، أما نحن فمسلمين . أليس من صالحنا ألا ندفع الزكاة لابن الرشيد؟" - "طلبا أن الزكاة خفيفة أليس من الأفضل لكم أن تؤمنوا أنفسكم من المواجهة ، بدلا من الهجوم عليكم من الأجانب الأمر الذى يترتب عليه ضياع عدد كبير من إبلكم ؟" - "صديق ، بالله ! ونحن ليس لدينا ما نخشاه أو نخافه من الخلف ، حيث كل الموجودين هناك ، إلى جانب الحويطات ، هم كلهم أصدقاء لنا . "

بعد أن أعرب هؤلاء القبليون عن رأيهم الذى مفاده أن الفنون كلها من عند النصارى ، كانوا يلجأون إلى ساعات طوال ومعهم سيوفهم الطويلة وسيوفهم القصيرة أيضاً ويسألونى عن إمكانية التعرف على طباعهم أو أمزجتهم ؛ وهذا الطبع أو المزاج هم يتعرفونه من خلال تشمم الصلب ، أو قد يطلقون أنفاسهم على نصل السيوف ، ويروحون يراقبون بخار الماء وهو يختفى من فوق أنصال تلك السيوف . بعض آخر منهم كان يضع بنادقهم الطويلة بين يدى ، وعندما كانوا يرون نقوشا على تلك البنادق أو الأسلحة ، كانوا يطلبون منى قراءة تلك النقوش . - وسوف أقول شيئا قليلا عن الأسلحة الشائعة بين هؤلاء البدو : بنادق الجزيرة العربية الطويلة ، هى دائما من نوع البنادق القتيلية . وأفضل أنواع هذه البنادق هى تلك التى جلبها هؤلاء البدو من أوروبا فى قديم الأزل ؛ (وباستثناء بعض هذه البنادق التى صنعت مؤخرا فى أسبانيا وفى مصر) ، فإن كل هذه البنادق القتيلية تنتمى إلى قرون ماضية . لقد مضى على تلك البنادق ستة أو عشرة أجيال اعتبارا من امتلاك أسلافنا لها ؛ لقد بيعت تلك البنادق فى

أماكن بعيدة من أسواق الشرق. والناس هنا يطلقون على أفضل أنواع البنادق الفتيلية اسم "الأزاري" el-Azzary - وقد قرأت على تلك البنادق العلامة التجارية التي كانت مكتوبة بأحرف لاتينية "لازاريون Lazzarion كومينازي Cominazzi" ؛ وتجيء بندقية "المجار" el-Majar الفتيلية في المرتبة الثانية ، وهي أيضا بندق قديمة - لا يستطيع البدو معرفة أى شيء عن تاريخها - وهي من صناعة المجر Hungary ، وربما كان الأتراك هم الذين جلبوا تلك البنادق إلى مدن الحدود . وتجيء في المرتبة الثالثة البندقية الفتيلية الإنجليزية el-Engleusy ؛ وهذا أيضا اسم من الأسماء الواردة ضمن أنواع هذه البنادق ولا يعرف هؤلاء البدو أى شيء عن تاريخه . والبنادق الإنجليزية لا توجد عليها نقوش . وفي كل نوع من أنواع تلك البنادق يعلق البدو أهمية كبيرة على المعدن المصنوع منه البندقية . ومعروف أن الحدادين في الجزيرة العربية لديهم خبرة كبيرة في ذلك . هؤلاء البدو يعتقدون أن نوعية تلك البنادق تنحصر في أمرين ، مثلما كان أسلافنا يقولون عن أقواسهم ، هما : الرماية السريعة والرماية البطيئة . يقولون : إن المعدن الجيد يظل دوما نظيفا وأنيقا ، ويلمع في الفم مثل فنجال القهوة ؛ أما المعدن الرديء فيتلف بسرعة ؛ ولكن كل أنواع المعادن لابد أن تتسخ بسرعة بفعل شحنات البارود الضعيف ذات الحبيبات الخشنة . ولقد شاهدت بعض البنادق القديمة الطويلة ، تقذف الطلقة سيئة الصنع إلى مسافة حوالى مائتى ياردة .

والعرب يثمنون الأسلحة غالبا كلما زادت قدما وقيمت صالحة للاستعمال . والعرب يعتقدون أن الدنيا كانت أقوى في الزمن الماضي عما هي عليه الآن ، ولكن بعضاً من أسلحة العرب النارية بلغت من القدم والتآكل حداً يمكن أن تنفجر معه إذا ما وضعت فيها شحنات أكبر مما هو مطلوب لمثل هذه الأسلحة ؛ وإذا ما حدث ذلك ، فإن صاحب مثل هذا السلاح ، يشكر الله ، عندما ينجو من مثل هذا الانفجار ، وهنا يبادر بأخذ بندقيته إلى أقرب صانع ، لكي يصلح العطب الذي حل بها ، ويعد أن يثق بالله بأنه لن يصيبه منها أى مكروه . والعرب يثمنون أفضل قطع السلاح عندهم تسمى غالبا ، إلى حد أن البندقية التي تعد من النوع الممتاز يصعب بيعها بأى ثمن مهما كان . وأعراب الجنوب ، الذين هم في مرحلة متدنية من رفاهية العالم يندر أن تجد بينهم ثلاث بنادق أو أربعة سيوف بين كل خمسة من الرجال . والذي ليس عنده بندقية من أعراب

الجنوب يزودونه بعضاً خشبية لها عند رأسها سن من الحديد ، ليست أفضل حالا من عصي تماثلها في الطول وفي الوزن ، أما إذا كان ذلك واحدا من المشاة فهو يحمل حربة الخيال القوية التي يطلقون عليها اسم "الشلفة" Shelfa والبديء المترحل الفقير ، الذي يود أن يكون بوارديا (حامل بندقية) ، يمكن أن يبتاع لنفسه بندقية ، من الأنواع المقلدة ، مقابل ثلاثة أو خمسة ريالات ؛ والبنادق التي تكون من هذا النوع هي في أغلب الأحيان من طراز "لازاريون" أو الطراز "البربرى" Barbary أو الطراز المصري - بعد أن تلصق عليها أختاما مزيفة . والبديء المترحل ليس صيادا ، إذ من النادر تماما أن يضطر إلى إطلاق بندقيته ، وهو أيضا لا يطلق بندقيته أثناء الغزو ، في مرحلة أخذ المشاة من الرعاة ، ولا يطلق نيران بندقيته إلا عندما يسارع طلبا للهرب من المطاردة . والبنادق التي يحملها ميسورو الحال هم والشيوخ تكون متوسطة القيمة بشكل عام ؛ لأن هذا النوع من البدو لا يدفع ثمنا للبندقية سوى ستة عشر أو سبعة عشر ريالا . هناك بعض أنواع أخرى من السلاح في أيدي بدو الجنوب وتتمثل في قلة قليلة من المسدسات ؛ وقد اكتشفت أن تلك المسدسات من أصل أوروبي ومن النوع الذي كان أجدادنا يستعملونه ، وأفضل أنواع تلك المسدسات هو ذلك النوع الذي يطلقون عليه اسم "الإنجليزى" el-Enqleysy .

والسيف الأحذب الفارسي ذو الحد الواحد هو والسيف الهندي من أسلحة الجنب عند البدو ، وهذان السيفان شديدا الصلابة ومعقوفان مثل السيوف التي يحملها ضباطنا من الخيالة ؛ وهذا الشكل من أشكال السيوف هو المفضل في الشرق . وهم يقولون بحق : "إن السيف الماضي هو ذلك الذي تكون ضربته منشارية" . والبدو يقولون إن ضربة البلطة غير مأكرة ، أو إن شئت فقل ، ليست ضربة قاضية ؛ معنى ذلك إن تلك الضربة لا تؤذي ولا تشج تماما . والبدو يقولون أيضا ، إن ضربة اليد المجردة ضعيفة ، ولكن ضربة الظهر هي الضربة التي يستجمع الإنسان فيها كل قوته ، وباستخدام الحد الماضي بواسطة يد خبيرة ، ومثل هذا السيف قادر على فصل رأس ابن المرأة عن جسده بضربة واحدة . شاهدت أيضا بعضا آخر من السيوف مع قلة قليلة من الموءاهيب ، وقد جلبوها من بلاد الغرب ، من بين هذه السيوف سيفان من نوعية سيوف البحارة القصيرة حصلوا عليهما منذ زمن بعيد من سفينة تعطلت

أورست عند الساحل . كان الشعر المكتوب على أحد هذين السيفين مدون باللغة اللاتينية أما الشعر الذى كان مكتوبا على السيف الثانى فكان مدوناً باللغة الألمانية . كان السيف الثانى سيفاً أحداً مصنوعاً من الحديد ، بل ربما كان مصنوعاً خصيصاً لأسواق الشرق . هذا هو مشوات Mishwat يحضر لى سيفه مع سيوف الآخرين . وعندما رحت أقلب السيف فى يدى ، رأيت يثبت على نظريه تثبيتاً غريباً ، ولكنى عندما تحسست حد السيف بواحد من أصابعى (صاح مشوات) يا خليل ! ما فعله ليس جيداً ! لماذا تعبت بقم Fumm السيف es-seyf ؟ كان مشوات يخشى من أن مرورى بإصبعى على حد سيفه يمكن أن يضعف ذلك الصلب الذى ينبغى أن يواجه به عدوه فى يوم من الأيام فى ميدان القتال . وفيما يتعلق بالأسلحة الأخرى مثل السكاكين التى يطلقون عليها اسم "الخوسة" Khusa ، يصعب العثور عليها فى ثلاث من خيام هؤلاء البدو الرحل الفقراء ؛ وعندهم أيضاً سكين شبيه بالسكين الذى استعمله ، وهم يطلقون عليه اسم "الريش" Rish ولديهم أيضاً نوع آخر من السكاكين يطلقون عليه اسم "الخنجر" Khanjar ، ولكنه يندر وجوده بينهم ، والبدو يطلقون على ذلك الخنجر اسم "القدامية" Kiddamiyyah أو قد يقولون له "الشبرية" Shibriyyah ؛ نظراً لأن هذا النوع من السلاح يشيع فى مناطق الحدود ، فى حين أن الأرض هنا منخفضة وجرداء ويفوح منها البؤس والشقاء .

إبل هؤلاء البدو تتردد على مكان السقيا كل ثلاثة أيام فى فترة العصر . ونحن نرى فى طلعة تلك الإبل علينا من بعيد (ذلك المنظر الذى يشيع الراحة فى النفس فى تلك الأرض الميتة) تلك الأعناق الطويلة التى تشبه أعناق النعام ، كما نشاهد أيضاً الكتل الشهباء الداكنة المتحركة عند بداية وادى الحرة ، ثم نستمتع إلى تلك الإبل وهى تزمجر أثناء قدومها ؛ هذه هى النياق وقد امتلأت ضروعها بالحليب الذى ستفيد منه الأسر الفقيرة ، إضافة إلى أننا سوف نشرب حليباً منعشاً فى عصر هذا اليوم . وجسم الإنسان عندما ينال قسطاً من الراحة ، لا يحتاج إلا إلى قليل من الطعام فى هذا الهواء الجميل شديد النقاء ؛ والجوع المستعر يجرى إخماده بتكرار تناول القهوة وشرب الدخان ؛ يضاف إلى ذلك أن جسم الإنسان ، وبخاصة لحمه ، يضمّر شيئاً فشيئاً فى مثل هذا الجو بسبب كثرة العمل . والنوم هنا أثناء النهار ، هو وبرآد ليل

الأراضي المرتفعة في الجزيرة العربية هما اللذان يُسرَّيان عنا ويجعلاننا ننسى متاعبنا ، معروف أن الرعاة يسبقون الماشية ، عند الدخول إلى المخيم ، حتى يتسنى لهم معرفة زاد أسرهم ، وتمر الماشية من تلقاء نفسها متجهة صوب مكان السقيا الذي يطلقون عليه اسم "المويريد" Maweyrid ، والذي يتجمع عنده كل الرجال الذين من سلالة الموءاهيب : هذا يعنى أن الشيوخ جميعهم ، فيما عدا الشيخ طُلُج هو وولده الأكبر ، يتعين عليهم النزول للمشاركة في عملية السقيا .

هذا هو الغدير ، الذي يطلقون عليه اسم "الحوض Hawd جاهز ومستعد بواقع ، حوض واحد لكل مجموعة من الإبل : هذه الأحواض عبارة عن أوعية ضحلة ، يصل عرض الواحد منها حوالى ياردة واحدة ، وهى مصنوعة من جلود الإبل ومعلقة فوق بعض الأغصان الصغيرة . وهذه هى الدلاء التى وضع داخلها صليب من الخشب كى يبقى عليها مفتوحة ، وكل واحد من السقاة الذين يقف كل واحد منهم فى بئر من الأبيار ، يرفع الدلو وهو يغنى ليسلمه إلى يد زميل له ، على أن يقوم هذا الزميل نفسه بترديد اللزمة نفسها ، ويسارع إلى سكب محتويات ذلك الدلو فى الحوض . هؤلاء السقائون يشمرون أكماس ملابسهم التى تشبه الأجنحة (والتى شوهدت ذات يوم فى أوروبا القديمة ، ولكنها الآن رداء فى الجزيرة العربية) ، كما يشمرون أذيال ثيابهم عن طريق ربطها إلى أعناقهم ، كل ذلك من أجل الإسراع والتعجيل بعملية السقيا . وهنا يمكن للرأى أن يوقن بأن البدور شيقو الحركة ، وأنزعهم جافة وقوية وصغيرة العضلات : وهذه هى صدور الرجال ، بما فيهم الشبان الصغار ، شعطاء (منكوشى الشعر) . وفى أحيان كثيرة يلبس الأولاد الذكور أساور ، يطلقون عليها اسم "المنوذ" Mathūd ، من حول الجزء العلوى من الذراع : وقد ورد ذكر هذه الأساور فى العهد القديم، ضمن قصة وفاة شاول Saul . إسورتهم ليست سوى طوق من النحاس الأحمر؛ وسوف يهدى ذلك السوار إلى "ابنة الخال" ، التى سيكون بذلك قد اشتراها لنفسه ، فى يوم زواجهم . السقائون من الأعراب يؤدون عملهم بسرعة وحماس - وهذا العمل الطويل والسقائون ضعاف - مستخدمين فى ذلك تلك الأغنية المبهجة . هؤلاء السقائون يقولون : إن أصعب جزء فى عملهم هو "الوريد" Weyrid (عملية سقاية الماشية) : ولكن معروف أن الأعمال الشاقة يكون وقعها ثقيل على الرجال الذين يعانون من الجوع .

والبدو يتمتعون بقدر كبير من الشجاعة وبخاصة فيما يتعلق بالأعمال التي تقتضيها الضرورة . فى مثل هذه الظروف تراهـم يقفون منتصبى القامات ؛ ومن هنا جاء ذلك القول المأثور الذى يتردد فى الواحات : "البدو كلهم شجاعة " . ولكن الجوع الذى يخيم عليهم ، على شكل نوبة قصيرة ، يجعل عقل الإنسان غير مستقر ، فيما يتعلق بمعدته الخاوية ، وهنا يسلم البدوى أمره لله ويتحتم عليه الجلوس على الأرض من جديد .

تلك الأغنية التى يتغنى البدو بها أثناء العمل لا تعدو أن تكون مكونة من مدرج مكون من ثلاث أو أربع كلمات ذات إيقاع ، ومعها مدرج آخر على شكل قافية ، وهذه الكلمات من بين الكلمات التى تخطر على أذهانهم بطريقة عفوية ، وغالبا ما يكون فيها شىء من المعنى ، ويعد أن يتغنوا بكوبليه ، أو إن شئت فقل : زوج من الأبيات ، فترة من الوقت ، ينتقلون إلى الكوبليه الذى يليه . - تلك هى قافية من قوافى الرعاة التى نظمها صاحبها عنى عندما كنا فى الخيمة ويقول فيها : "يا خليل ! زى الفيل" التى معناها "يا خليل أنت مثل الفيل" . - هذا الحيوان الذى من قارة أخرى ، معروف لهؤلاء البدو من الناحية الاسمية فقط ، والشىء نفسه يمكن أن يقال عن الأسد وعن الخنزير أيضا ، وهذه هى مجرد أسماء فقط (وهى لا تعدو أن يكون معناها هو المعنى نفسه الذى نستعمله) بالنسبة لهؤلاء العرب الذين يعيشون فى وسط الجزيرة العربية . والأسد لا وجود له فى الجزيرة العربية ، اللهم إلا إذا كان ذلك ، حسب ما يرويه أهل الجنوب ، فى إقليم اليمن . ومعروف أن الخنزير البرى يشيع فى كل الأراضى السورية العالية فى منطقة الحدود : كان الأعراب قد سألونى مرارا عن ذلك الحيوان ، عند النصارى الذين لا يصلون ، والذى يحرم الرسول أكل لحمه ؛ كان من بين هؤلاء البدو من أجابوا على ذلك التساؤل ، وبخاصة أولئك الذين سبقـت لهم زيارة الشمال ، والذين تبو الحكمة فى كلامهم إذ قالوا : "لقد رأينا وشاهدنا أثر ذلك الحيوان ، ووالله إن له لأرجل مثل أرجل الغزال، وله منخار إذا ما دقت فيه حسبته كلبا " . - سألنى السقاثون ، وهم فى ذروة عملهم ، لماذا أقف إلى جوارهم وأطيل النظر إليهم ، ولم أنزل معهم لتقديم يد العون والمساعدة لهم ؟ - "أيها الرفاق ، هل ترون هذه الأذرع المرهقة ؟ أنا ضعيف جداً بسبب الجوع ، وأنا لا أقوى على سحب الدلو ؛ ولكن أرجو أن تسمحوا لى بأن تشرب ناقتى قليلا من الماء الذى يتبقى فى الغدير ، وسيجزىكم الله خيرا " . وعندما سمعوا

كلامى ربوا على قائلين : "والله ، إنه يقول الحق ؛ ساعدك الله وأعانك يا خليل ؛ ولا تشغل بالك بهذا الأمر ، وأجلس واسترح ، وسوف نسقى لك ناقتك ."

هذه الإبل العظيمة القادمة من مرعى الصيف ، الذى مكثت فيه وعرقت فى ضوء الشمس طوال ثلاثة أيام (ومن ثم فإن أفضل الإبل، من وجهة نظر البدو ، هى تلك التى لا تتعرق كثيراً) سوف تشرب من المسقى كمية كبيرة من الماء . إذ سيشرب كل واحد من هذه الإبل - وهذا من وجهة نظر السقائين - ثلاثة أو أربعة قراب من الماء - وهذه الكمية تقل ، بواقع الثلث ، عن الكمية التى يشربها حصان البدوى، خلال فترة الصيف هذه ؛ وبعد أن تتورم تلك الإبل ، وتروح تتأوه من ذلك الحمل الذى ابتلعت ، يقاتدها أصحابها إلى المنزل ، لتنضم إلى قطعان البدو مرة ثانية أمام خيامهم . وتروح تلك الإبل المبتلة تتبول طوال الليل ، ومعروف أن الإبل ، فى كل الأوقات ، بل وأثناء الترحال والجفاف ، تفرط فى إفراز الماء ، ولكنها بالرغم من كل ذلك ، تكون أقل من الحيوانات الأخرى فى مسألة الإفراط فى إخراج الماء . وفى الصباح يكشف أصحاب هذه الإبل أنها قد هضمت كل تلك المياه وعادت أجسادها إلى حجمها الطبيعى مرة ثانية . وعند شروق الشمس يجرى دفع تلك الإبل من جديد إلى المسقى عليها تشرب المزيد من الماء ؛ بعد ذلك ، تتحرك تلك الإبل من تلقاء نفسها نحو الأعلى (*) ، سالكة طريق الجبال إلى مرعاهما الهزيل ، الذى لا يوجد فيه طوال هذه الأشهر الطويلة الحارة سوى بعض النباتات دائمة الخضرة ، التى تكون مرة أو ملحية الطعم ، إضافة إلى قليل جداً من العلف الجاف . سألت الأعراب فى كثير من الأحيان : "أليس لهذه الحيوانات أمعاء أو جزء فى أمعائها لحفظ ذلك الماء؟" وكانوا يجيبوننى قائلين: "لا ، يا خليل ، وإلا (وكل جمل من تلك الإبل يجرى ذبحه فى نهاية الأمر) كيف لنا بعدم اكتشاف ذلك إلى يومنا هذا؟" عذاب Azab . أو إن شئت فقل: رعى هذه الإبل منفصلة، يبدأ منذ الأيام الأولى من فصل الخريف ، على ألا تعود للسقى من جديد قبل صباح اليوم الخامس :- إذن ، من أين للجمل بكل ذلك اللعاب ؟ الذى يساعدها على ابتلاع العلف الجاف .

(*) البدو يستخدمون مصطلح يقول : "الجمال يصدرون" Yusuddirun بمعنى أن تتجه الإبل نحو الأعلى قاصدة المرعى . (المترجم)

تراقب الأسر البدوية إبلاها أثناء الرحيل إلى المرعى ؛ وتصبر عليها إلى اليوم الثالث ، حتى يتسنى لهذه الأسر الحصول على الحليب من النياق مرة ثانية . ونظرا لقلة الماء وعدم كفايته لسقاية القطعان كلها فى وقت واحد ، فإن المنازل كلها لا تسقى إبلاها أو قطعانها فى آن واحد . هذا يعنى أننى كنت أستطيع الحصول فى كل مساء على شئ قليل من الحليب . فى عصر أحد الأيام عرفتني حمدي Hamdy (التى كانت مضييفة طبية فيما يتعلق بصحتى) الطريق الذى أسلكه كيما أعبر الوادى قاصداً بدو السراحين Serahin . قالت : يتعين عليك أن تقصد داريش Daryesh وهذا الرجل لديه أربعة نياق مخصصة للحليب . داريش هذا ، كان هو شيخ السراحين ، وهو رجل ضيق الصدر . وعندما دخلت عليه عند الشفق ، صاح وعلى وجهه مسحة من الجراحة والشجاعة متسائلا : " ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ " أشرت فى صمت إلى الإبل الكثيره التى كانت أمام خيمته . وابتسم الرجل ابتسامة تنم عن الحماسة المفرطة ، قال : وما الذى جعلك تترك أعرابك وتجئ إلى هنا ؟ - "حسن مرحبا بك يا خليل ، (قالت الصلبة) ، اجلس وانتظر قليلا إلى موعد حليب النياق ، وسوف يحضرون لك الحليب . " هذا الرجل الذى يشبه وجهه وجه الكلاب والذى سبق أن رأيته مرارا فى خيمة شرب القهوة عند الشيخ طلج ، كنت دائما أرى على وجهه مسحة العداء لى والتشدد معى ؛ كان ذلك الرجل يطلق على سهام عينيه ونحن جلوس فى المجلس ، ولكنه لم يسبق له الكلام مع أى أحد من الكفار ! فتعج الرجل فاه وصاح قائلا : ها ! إذا ما رأيتك فى الصحراء مرة ثانية ، وكانت معى بندقيتى ، فسوف أرديك قتيلا ! - " خذ بندقيتك غدا ، اللهم إذا لم تكن جبانا " وأرم رميتك ، وسوف أرمى أنا رمية أخرى ؛ وأنا أقسم بالله أنى لن أرحمك . - " اسمع يا أنت ، كيف أن النصارى أهل Ahi كليمي Kellimy " ، بمعنى كيف أن النصارى " أصحاب كلمة " ؛ أى أنهم يعنون ما يقولون : - نحن الببو ، يا خليل ، وأنا عندما أقول شيئا ، لا يكون هو ذلك الذى أعنيه بالفعل ، وأنا لا أتمنى لك أى أذى . " عند هذا الحد جاءت الزوجة ومعها سلاطين الحليب الطازج ، وهنا قام الشيخ داريش بوضع سلطانية طبية أمامى وهو يقول : "إشرب ، يا خليل ، وأنعش نفسك . " عدت إلى منزلى ، بعد أن دلننى إلى الطريق ؛ ولكنى ضللت طريقى بسبب خفوت الضوء ، الأمر الذى سقطت على إثره من منطقة الحصى التى ينصبون فيها خيامهم ، إلى صخور مجرى السيل فى الأسفل .

الفصل السابع عشر

مخيم الموءاهيب الصيفى فى وادى تربة

زيارة العلا شائعة خاطفة للأبصار فى الجبل . النساء يغطين الحناجر . الحنظل . تعاويذ الحب . النساء الشقراوات . مبلّس . قصيدة حامد . دعوة النصرانى لتسمية واحدة من بناتهم . البدو يسأمون أغاني الصحراء . أسماء النساء البدويات . امرأة واود . النزاع بين القبليين الشبان . دفاع طلّوج عن زيجاته الكثيرة . بدوى يقتل نفسه . ظُرف البدو الذى يضيق الصدر ، وعقليتهم الدينية . حمدي . طواعين مكة . مجاعة الصيف . النُساك القدامى . أخبار الحرب الزائفة . هل القديس سيرجيوس ، أصبح مسلماً بعد وفاته ؟ الوجه . بعض النصارى يسكنون هناك . مهنا يصل للمطالبة بالدّية . قروى من خيرير يصل إلى العلا . مقهى موسى . الجماع أو الحزب السامى . القاضى المضيف . هل يجوز للرجل المتدين أن يشرب البُخان ؟ العودة مع حوريش . يسلم النصرانى ذلوله . أشباح فى تربة . زد البدو مرة ثانية . النصرانى الذى يتهمه حوريش ، يبرئ الشيوخ ساحته .

ذات ليلة ، وقبل طلوع الفجر بقليل ، أفزع صوت فظيع البدو موقظاً إياهم من أحلامهم ونظراً لأن ذلك الصوت كان صادراً عن عاصفة رعديّة . فقد بدا الأمر وكأنّ الدنيا أوشكت أن تكون حطاماً . كنت مستيقظاً فى ذلك الوقت ، وسمعت ذلك الصوت من بدايته إلى نهايته ؛ فقد كان صوتاً مزدوجاً ، أى كان هناك فى البداية صوت ضجيج مستمر ومروع عند رأس الحرّة ، تلاه صوت آخر أقصر منه ، ربما كان صدًى فظيلاً للصوت الأول . وتردد فى سائر أنحاء الوادى . بعد ذلك بلحظة ، خشيت أن أشاهد النيران البركانية القديمة ، التى تنام منذ زمن طويل فى جوف هذه التربة ، ومن

ثم تلك الفيضانات من الحمم البركانية التي يمكن أن تنهال علينا : ثم خطر ببالى بعد ذلك سقوط صخرة ضخمة فى الطرف البعيد من الحرّة ؛ ترى ، هل كانت تلك الضوضاء صادرة عن انهيار سلسلة من الأحجار ، انهيارا مفاجئا فى أعالى الوادى ؟ كان ذلك الصوت المرتفع شبيها بذلك الصوت الذى يصدر عن انهيار الجليد فى الجبال الجليدية أثناء العواصف الثلجية . تجمع البدو فى خيمة القهوة قبل طلوع النهار على أثر وصول ذلك الصوت الفظيع إلى مسامعهم . توقف بعض البدو ، وهم فى طريقهم إلى خيمة القهوة ، ليسألوا النصرانى ، "ما الذى حدث ؟" - أنتم لا تعرفون ديرتكم حق المعرفة ! - ولكن أحضر كتبك وأعرف منها ذلك الذى حدث ، ألن تقول لنا ، ماذا حدث ، يا خليل ؟" - ترى ، هل كان ذلك صخرة متهاوية ؟ - "كان الأمر أكبر من ذلك بكثير ، نظرا لوجود الكثير من التكهّنات فى تلك الديرة . كانت أغلبية الجالسّين فى المجلس ترى أن ما حدث كان "نجما" هاويا ؛ كان ولد الشيخ فى تلك اللحظة يفك فلوته ، وبالتالي شاهد ذلك الشهاب الذى ظهر فى السماء ثم حدث الصوت فى إثره تماما . كانت هناك زوجة عجوز مستيقظة ، عندما سمعت ذلك الرعد ، وأحسّت بالأرض تهتز من تحتها . خطر ببال كل الناس ذلك النيزك المضى الذى مر ، قبل خمس سنوات "من فوق رؤوسهم ، محدثا دويا هائلا ، فى وقت الظهيرة ، متجها صوب الشمال ، ومحدثا خلفه ، فى السماء ، سلسلة طويلة من الدخان : شاهد الناس ذلك النيزك وفى وقت واحد ، فى كل أنحاء البلاد (كان طوله يقارب الألف ميل) فى المنطقة ما بين مكة ودمشق . مما جعل الناس فى سائر أنحاء هذه الديرة يظنون أن ذلك النيزك سقط داخل نطاق حدودهم . "وخطر ببال الجالسّين فى المجلس أيضا ، نيزك آخر ، حدث فى السنوات العشر الماضية ، واندفع فى السماء أثناء الليل ، مما أضاء الصحراء المظلمة لتبدو كما لو كانت فى رابعة النهار . كان الصوت الذى صدر عن ذلك : كر - كر - كر - كر - ولكن هذا هو ما يقوله الأعراب فى كل أحاديثهم عن الضوضاء المتحركة .

عندما كنّ يجلسن معى عند باب خيمتى للتحدث إلىّ ، كانت تلك البدويات الكاشفات صغيرات السن - لقد جنن إلىّ ليطلبن منى أنوية - كانت الواحدة منهن تسحب غترتها فوق زورها والفق الأسفل من فمها . سألتهن لماذا تفعلن ذلك ؟ (قالوا) يفعلن ذلك لأن ذلك التقليد أصبح جزءاً منهن ، وأنهن يفعلن ذلك فى وجود الشخصيات

المهمة . [فى اليونان ، عندما كانت تحت الحكم التركى ، كانت الأعراف تقضى أن تقوم النساء كبيرات السن ، عندما يخرجن من بيوتهن بتغطية أزوارهن والجزء الأسفل من وجوههن بمنديل ، - هذا الشيء نفسه شاهده فى الدول الأوروبية ، متمثلا فى تلك الصور القديمة الخاصة بمریم البتول .] عندما كنت أتغيب عن المكان ، كنت أترك خيمتى دوما مفتوحة ، بدون أية حراسة من أى نوع كان ، بالرغم من أن البدو كانوا يحذرونى "لا تكن طائشا إلى هذا الحد . " ومع ذلك لم يحدث مطلقا أن ضاع أى شيء من خيمتى طوال إقامتى فى منازل الأعراب .

أصبح العلاج الذى كان يقوم على نقطتين من زيت الكروتون Croton ، جرعة معتادة بين أولئك البدو : وعندما كنت أعطى الواحد منهم أربع نقاط ، كان يحس قليلا من التوعك ؛ وعندما أعطيت الواحد منهم ست نقاط ، وجدت أنها لم تؤثر على أو تحرك بنية هؤلاء البدو الحديدية ، بل إن البعض منهم لم يشعر بأى شيء حتى وإن صببت زيتى كله على الحرّة . وبينما كنت أدهش وأتعجب مما يحدث ، كانوا هم يعدون على أصابعهم ويكتشفون أن اليوم كان مصادفا ليوم الجمعة ، ذلك اليوم ، الذى ليس من المناسب تناول الدواء فيه ، وبالتالي أن يفعل الدواء مفعوله . فى النهاية ، كنت أعطى لبعض أفراد هذه السلالة الصحراوية ، ثمانى نقاط ، لم يكونوا يشعرون معها بأى شيء سوى أثر لطيف من الإسهال . كنت أشتكى منهم وأقول لهم : "أنتم تحطمونى عندما تحملونى أثمان ذلك الدواء ؛ الجرعات التى أعطيكُم إياها كفيلة بأن تميت أشخاص آخرين . " - قالوا ، نعم . صدقت يا خليل ، أعطنا أعط يا خليل ! البدو رجال أقوياء ! - فى المدن العربية التى يتغذى أهلها تغذية جيدة ، اكتشفت أن الجرعة العالية المعتادة من زيت الكروتون كانت كافية تماما . هؤلاء الأعراب كانوا يطهرون بطونهم باستعمال نبات الحنظل أو العلقم ، ولكنهم لا يلجأون إلى ذلك إلا فى الضرورة القصوى ، ولرات قليلة جداً طوال حياتهم : كان معجون ذلك العلقم شديد الحرارة . يقال إن التحاميل التى تصنع من ذلك المعجون تفيد كثيراً المرضى الواهنين . والبدو يعرفون بالفعل نبات السنّا أو السنّى ، ولكنهم لا يفيدون منه .

هؤلاء الساميون البدائيون لا يعلقون آمالا كبارا على أية مهارة من المهارات البشرية ؛ إنهم يركزون اهتمامهم على السماء ، ويطلبون التمانم والأحجية من رجال

بمارسون السحر والشعوذة ؛ والواحد منهم عندما يكون بحوزته حجاب ، أو إن شئت فقل ، تميمة جيدة فإنها تصبح بمثابة المعلق والمعطل المريع لفهم ذلك الرجل ، يثق حامل مثل هذا الحجاب ثقة جنونية في أن الله سوف يفعل فيه ذلك الذي يراه هو في أحلامه . يجيئون إلى وهم يقولون لى "فتش Fattish بالكتاب b'il Kitâb يا خليل Ya Khalil فشر Fecher (أو فسر Fasser) ! " كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يرونى دانما وأنا أقرأ فى كتبى وأطلع عليها . "ألا تستطيع عن طريق كتبك معرفة ذلك الذى يدور فى عقول الرجال ومعرفة نواياهم أيضا ؟" - "من ذا الذى يكذب عليكم إلى هذا الحد ؟" - "العلامة يدعون مثل هذه الأمور . " - "ألم يكن ذلك من أجل الاستيلاء على أموالكم وسلبها منكم ؟" - "والله ، إن خليل يعرف كل شيء ! ولكن ألا تستطيع عن طريق كتبك معرفة مكان الأعداء ، وهل الغائب يكون حيا أم ميتا ؟ ألا تستطيع ، عن طريق كتبك ، رؤية أسرتك ، يا خليل ، التى تعيش فى مكان بعيد عنك ، وهل تستطيع معرفة أحوال معيشتهم الغذائية ؟" وهكذا كان الكثيرون يأتون إلى لأغراض من هذا القبيل ، دون أن يكون لجينهم أية جدوى أو منفعة . "وا أسفاه ! قالتها زوجة مسكينة هجرها زوجها) اطلع على كتبك وابحث فيها ، وخبرنى هل سأستعيد حب رجلي الطيب لى مرة ثانية - أه ! أليست لديك تميمة للحب ؟ أعطنى شيئا من الكتابة التى تجعلنى حلوة ومليحة فى عينيه مرة ثانية . " قال لى شاب ذات مرة : "حسن ، يا خليل ، خذ بوصتك ، وورقتك ، ومزّر هذا فوق ذلك للحظة واحدة ! وإن كنت لن تأخذ نقوداً مقابل ذلك ، فاعطنى تلك الكتابة ، التى تجعلنى محبوبا فى المكان الذى أحب فيه ، - هيه ! اجعلها تبكى من أجلي فى أضعف الأحوال ! " كان الأزواج يأتون إلى ويرجوننى أن أعطيهم أحجية يمكن أن تعيد إليهم زوجاتهم القاسيات ، الهاربات الشاردات ، ولكنهم يحبونهن . "كيف يمكن للورق والحبر أن ينقذك ؟" - "الكتابة عندما تحدث يا خليل ، تكون مصحوبة باسم الله ، وجدنا أنها يكون لها نفع عظيم ."

جاعتى أيضا مبليس Mibils ، زوجة الشيخ الشابة الشقراء ، وأجمل جميلات بنات أولئك البدو الرحل . من بين هؤلاء المواهيب ، والسحامة ، وكذلك البلى ، نساء شعرهن كستنائى ، ونساء شقراوات الشعر ، وهن يقال لهن "مزبونات" Mezunas أو إن شئت فقل "جميلات" ؛ ولكن هذه النساء ، عندما تحرقهن حرارة الشمس ، وعندما يستبد

بهن العطش والجوع بصورة مستمرة فى بلد جدد ، تهزل أجسامهن وتضيع منهن
نضارة وجوههن . كانت للشيخ طُلُج أخت صغيرة صاحبة جمال نسائى أُخَاذ ، وكانت
زوجة لشويش Shwoysh ومليحة القسمات ،- كانت ملامح تلك المرأة التى تسبى تسبب
الكثير من المتاعب لذلك الشاب الصغير . أذكر ذات يوم أننى التقيت بالقرب من قرية
العلا زوجة بدوية كانت تسير وحدها ، ومعها فتاة شابة ، ابنتها ، التى كانت دون علم
منها بذلك ، بالنسبة لى ، صاحبة جمال أُخَاذ فى تلك الصحراء المخيفة وجدتهما
جالستين خائفتين ، مثل اثنتين من الحبارى الخائفة ، وسط دغل من الأدغال تنتظران
رجلا طيبا . كان قد ذهب إلى البلدة . قالتا : نحن من فخذ البلى من المواءيب ؛
ولكنهما لم تكونا من أعراب طُلُج . ومن بين أشياء الزينة هنا بين الشابات ، ذلك العقد
الذى يصنع من أنواع من الخرز ، الذى يجلبونه من مكة .

سألتنى مبلبس Miblis ، والضوء يترقق فى عينيها الواثقتين : هل بوسعى أن
أعيد لها حب زوجها ؟ - كل ذلك ، فى الوقت الذى كان جمالها يتبدى لى سواء فى
كلامها أو فى حركتها . وعليه عندما كان الرجال يسألونى ، وما أكثر ما كانوا يسألونى
عن الحريم فى بلادى ، كنت أشير بالبنان إلى مبلبس صاحبة الصوت الحلو ، وصاحبة
الشعر الكستنائى وأقول لمن يسألنى : هذه التى تجلس هناك تشبه حريم بلادى !
وجهها نو العينين الوسيعتين ، اللتين كانتا تبدوان مثل الكمين ؛ هذا الوجه كان يميل
إلى الشكل البيضاضوى ، بل والأرجح تشبيه ذلك الوجه بثمره من الثمار اليانعة ، بين
خصلات شعرها الجانبية كهرمانية اللون ، هذا الوجه لم يكن يظهر عليه أى ضوء من
أضواء الروح .

كان الشيخ طُلُج مستاءً دوماً من زوجته الشابة ، التى اختارتها عيناه لجمالها
وجمال جسدها من بين أفراد منزل رقيق الحال ، هذه المرأة الشابة الحلوة كانت تحب
سيدها العجوز ، الذى رفعها إلى هذه المنزلة من التكريم من بين زوجاته ، أو إن شئت
فقل : حريمه . لقد أنجبت مبلبس للشيخ طُلُج ، منذ عذريتها إلى الآن طفلين ، هما
أجمل أطفال القبيلة ؛ ومع ذلك ، فقد كانت مبلبس ، فى بعض الأحيان ، تضرب ولديها
ضربا مبرحا ، وهنا كانت تبدو وكأنها قد خلا قلبها من الرحمة والحب . والجمال
الزائد عن الحد كنز لا يجلب الفرح على صاحبه ، إضافة إلى أن طُلُج نفسه ، ويصفته

رجلا حاد الطبع أيضا ، لم يكن على استعداد لتحمل صلابة أحوال تلك المرأة الشابة .
أو عنادها . كانت لدى طُلُج زوجة شابة أخرى ، أنجب منها ولداً فى الأجرّة Agorra ؛
قصد الشيخ العجوز خيمة تلك الزوجة الشابة وسمح لمبليس أن تخرج من منزله . ولذلك
جاءت مبليس لتبنى بيتها معنا ؛ وعن طريق الابتسامات الجميلة الساحرة طلبت من
الغريب أن يكتب لها حجاباً ، 'لأنها كانت تخشى أن يرمى أو يوقع زوجها عليها يمين
الطلاق' . وأشرت أنا عليها بالجوء إلى حجاب التواضع الزوجى ، وبخاصة من جانب
الزوجة . وأن تنأى بنفسها عن التعالى والشموخ . وعدت أن تتحلى بذلك التواضع .
وسرعان ما راح طُلُج يتحدث معها بطريقة حانية ، فى رحلة من الرحلات ، مما جعله
يطلب إليها أن تنصب خيمتها إلى جوار خيمته من جديد .

عاش طُلُج عهود رجال ثلاثة ، وصل فى هذا العهد الأخير إلى حكم القبيلة . كان
طُلُج دائم الزواج . وكان يشعر دوماً بشباب القلب ، إذ كان يبدو للجميع كما لو كان
أباً للقبيلة ، وواقع الأمر أنه كان بالفعل أعظم الرجال وأجدرهم فى القبيلة كلها : -
وشيوخ الجزيرة العربية كلهم تقريبا من هذا القبيل لم يكن عمر أى فرد من أفراد
القبيلة يسمح لصاحبه بتذكر مرحلة شباب الشيخ طُلُج ؛ وأكبر أفراد القبيلة سنا
عاصروا الشيخ طُلُج عندما كان فى منتصف العمر . كان طُلُج فى ذلك الوقت أباً لثلاثة
أبناء كبار مازالوا على قيد الحياة ، وكانت له ابنة أيضا ، بخلاف الأطفال ، وكلهم
ذكور . أنجبتهم له زوجتان طيبتان فى هذه السن المتقدمة . الولدان الكبيران ، اللذان
أنجبهما من زوجة واحدة ، كانا شابين صغيرين وأبوين أيضا . كان مشوات Mishwat ،
ولد عم الشيخ طُلُج قد تزوج أم هذين الولدين بعد أن طلقها الشيخ ؛ وهى الآن الزوجة
الأكبر سنا حالياً من بين زوجتيه . ورث ولدا هذه الزوجة من طُلُج ، عن أمهما رجاحة
الرأى والفطنة ؛ كان حامد ، الولد الأول ، شابا محترما ، ومتواضعا تواضع أبناء
الشيخ العظام ، فى عهود آبائهم . وكان له رأى صائب فى المجلس ، وقائداً شجاعاً
لجماعات الغزو . إلا أنه كان فى داخله شىء من الوحشية التى لم أعدها بين الأعراب .
فقد رأيت ذلك الرجل وهو يضرب دابته العنيدة ضرباً مبرحاً مستخدماً فى ذلك وتدأ
من الأوتاد ؛ هذه الوحشية كانت متأصلة فى عائلته ، بل كانت فى دم هؤلاء البدو
متسلقى الجبال .

فى بداية الأمر اكتشفت أن حامدا كان على العكس من ذلك ، إذ كان يغار من النصرانى وحاقداً عليه ؛ كان حامد من النوع الجعل سريـع الانفعال ، وله أراء الشباب المتطرفة ، وبخاصة فيما يتعلق برؤيته لى فى منزل Menzil الأعراب el-Aarab ، فى ذلك الوقت ، كانت القهوة ، التى هى خيمة الضيافة وخيمة المجلس أيضا ، هى بمثابة بيت حامد إذ كان الشيخ الكبير يتطلع بوصفه أبا إلى راحته الخاصة ، أو ربما كان ذلك تنفيذا لإرادة زوجته الشابة التى كانت تريد الأمر على هذا النحو . ردت على حامد فى يوم من الأيام ، بعد أن أساء إلى وقلت له : يا جومانى Gomany ! بمعنى "يا عدوى ! لماذا أنت عدوى ؟" عض حامد شفته ، ومعروف أن ولد الشيخ يكون يوما خجولا فى حضرة والده وطوال بقائه على قيد الحياة . وبعد ذلك بأسبوع ماتت كراهيته لى ، وأصبح واحداً من أصدقائى المخلصين الدائمين . راح حامد فى ذات الوقت ، يسلى نفسه بقافية ، أو إن شئت فقل : قصيدة ساخرة ، نظمها عن خليل وهو راكب على "الخويرة" el-Khuéyra ؛ والمقصود "بالخويرة" هنا هو جملى الضعيف المسكين . أعمل حامد ذهنه فى تلك القصيدة طوال نهار كامل وليلة كاملة من ليالى الصيف ؛ وفى عصر اليوم التالى وحول وجار القهوة راح حامد يسمع قصيدته الجديدة للحاضرين ؛ وهنا راح الشيخ طُـلج العجوز يتناول أفضل أبيات تلك القصيدة بروح الفكاهة والاستخفاف ، وراح يكرر أبيات ولده بروح الدعابة ، وامتدحها . كان يجلس بيننا واحد من القصادين Kassad ، أو إن شئت فقل قصّاد من بنى عطية ؛ كان حامد قد تتلمذ على ذلك القصّاد فى كتابة الشعر .

كان عبد الله ، شقيق حامد ، الابن الوحيد لأمه سليطة اللسان ، قد نصب خيمته داخل منطقة منزلها ، بجوار خيمة "عمه" (*) مشوات . وفى هذه المنطقة كبر ذلك الصبى متشابها مع الاثنين إلى حد بعيد . ومع مجيئى أول مرة ، وفى ظل المداعبة والدلع السامى Semitic ، الذى نقف عليه فى البلدان الأقوى من هذه البلاد ، ويدخل ضمن فنون الخداع التى تمارسها النساء ، أفلح عبد الله فى التظاهر بالصدّاقة مع النصرانى؛ ونظرا لأن حمدي كانت تنصب خيمتها فى كل رحلة إلى جوار خيمة أخيها،

(*) المقصود بكلمة "عمه" هنا هو "زوج أمه" . (المترجم)

فقد كان عبد الله جاراً لنا بصورة مستمرة . وعندما شاهدت صبياً صغيراً أسمر اللون معه سألته . "طفل من هذا أهو طفلك ، يا عبد الله ؟" - أجاب البدوي سليط اللسان قائلاً : "أمه تقول ذلك . "ومرت الأيام وحملت الزوجة الشابة ، وأنجبت طفلة ، أو إن شئت فقل : ابنة ، وهنا قال عبد الله : "صاحبى Sahiby ، أى صديقى الكلى ، خليل يتعين عليه أن يختار اسماً لهذه الابنة ،" اسم من الأسماء الجميلة التى تطلق أو تعطى للإناث ، والذي يعتقد أنه لا بد أن يكون من كلام بلده البعيدة ، وأن ذلك الاسم ينبغي أن يكون كلمة حلوة لها جرس أجنبى ، - "لقد سئم أسماء الأعراب ، وأن تلك الأسماء أصبحت معافة Muàffin وتملأ الأذان ،" "حسن فليكن ذلك الاسم مريام Miriam" - "لا مريام لا يصلح ، لأنه اسم يطلق على العبد أو العبدية فى هذه الأماكن." رددت كثيراً من الأسماء على مسامعهم ، إلى أن وصلت فى النهاية إلى ذلك الذى لا يلقى قبولا فى أذانهم . "سارة ليس اسماً سيئاً ،" إنه اسم ذائع بين هؤلاء البدو ، ولكن الأسماء الإنجليزية التى كان خليل يأتى بها كانت ثقيلة الوقع وثقيلة الجرس أيضاً قياساً على الأسماء العربية التى تتردد على ألسنة هؤلاء البدو ؛ علمت بعد ذلك أنهم سوف يسمونها بَنَّا Banna . والعرب بحكم أن لهم رأياً مسبقاً عن أنفسهم ، وهذا الرأى مشوب بالخيال المكسال المخلوط بالحزن والألم ، تراهم يوماً يقللون من شأن أشياءهم الخاصة بهم ، والعرب يعتقدون أن لغتهم فوق كل اللغات الأخرى ، وهم أيضاً يعتقدون أنهم أول الأمم . فيما يتعلق بالشجاعة فى الحرب وفى القتال . ولكن البدو فى حياتهم يضحون بأشياء كثيرة فى بيوتهم ، التى لا يجدون فيها سوى الكلام والحديث فى الأوقات التى لا يكونون نائمين فيها ؛ من هنا فإن روعسهم تؤلهم بسبب خيوط العنكبوت التى يسجونها طوال فترات ذلك الخواء . هؤلاء البدو مشبعين بأغنية جديدة ، لها علاقة بالطقائيق المتكيفة التى ينظمها شعراء البادية ، وتستحث ذهن الإنسان ، الأمر الذى يرفع فيه ضغط دمه ، ويجعله يعبأ بحياته ويهتم بها . ولما كان البدو من الصعب إرضائهم ، فهم لا يعرفون سوى شكل واحد من أشكال الخداع ؛ لقد سمعت البدو وهم يسخرون ، من هذه العملية الشاقة والثقيلة على النفس ، لأنها لم تتغير مطلقاً ، إضافة إلى مدرج التآؤب ، وربة الإبداع فى طبيعتهم الصحراوية ، التى تحتم أن يكون كل البدو راكبين كما هو الحال فى العبارة "يا أنت yaent راكبين Rākabin" والتى معناها "آه ! منك يا من تجلس راكباً" (على ذلول) . - هذا يعنى أن الذهن

البدوى ليس سوى قابلية للنحت والتآكل ، وبالتالي يمكن أن يصيبه النصب والإرهاق بصورة متدرجة من خلال هذه الدائرة الصغيرة ؛ شأنه شأن الحيوان المربوط الذى أكل علفه ، وارتاح قليلا ، وأوشك على المضى قدما .

فيما يلى أورد بعض أسماء حريم البدو : سالة Sallema وسلّمه Selma (من السلام) ، حمدى Hamdy (من الحمد) ، خُضْرَة Khothra (تلك التى ولدت فى مكان أخضر) ، أمطيرة Umteyra (المولودة فى المطر) ذريّة Therrya (المولودة فى واحة من الذرة العويجة أو الذرة) ، بُخَيْتَة Bokhÿta (من الحظ أو البخت) ، الفُصِيحة el-Fosiha (الفصيحة فى الكلام) ، عويضة Auwéytha ، الرُّملة er-Romla ، دليل Daléyel ، (من الدليل ، الذى يدل على الطريق) ، بُسِيّة Bussiyeh ، فرجة Furja (سرور) ، جورمة Gorma (الوفيرة) ، التى يحورونها أثناء اللهو إلى نيس Nibs ، أو قد يحولونها إلى ورمة Worma عند الغضب) ، صبيرة Sobere (من الصبر) عذبية Atheba (من الحلاوة أو العذوبة) ، أم الصوف Umm es-Sûf (أم الصوف أو زوجة الصوف) ، هوشة Howsha (ويُخ) تعفيلة Taffila ، الحديفة el-Háddefa ، الفيحة el-Feha ، الفشيلة el-Fushila ، جرده Girtha ، جزيرة Glithera ، صبة Sebba ، عتيجة Ateja ، اللجمة el-Lejima ، ناه Naha ، دغريمة Deghrèyma ، رقية Rakyÿeh ، وجيد Wajjid .

شاهدت زوجة عبد الله وهى عائدة من الصحراء بعد ساعة واحدة من عملية الولادة ؛ كانت تمشى عائدة إلى منزلها وهى فى منتهى الإعياء ، وجاراتها يسندانها ، بعد أن قمن لها بدور القابلة ؛ وبينما كانت تمر على الخيام كانت ربات البيوت القريبات منها يخرجن للقائها ، ويقمن فى صمت بدور ربات البيوت السابقات ، وتضعن أيديهن من تحت ذراعيها ، وبالتالي يتسنى لهن جميعاً المشاركة فى مضيقها قدما نحو منزلها ، وآخر واحدة من ربات البيوت هى التى تصحبها إلى بيتها ، هذا هو حنان النساء على النساء . وبعد ذلك بحوالى يومين وجدت زوجة عبد الله واقفة إلى جوار خيمتها ؛ وكانت قد انتهت بالفعل من أعمال المنزل . وابتسمت هذه المرأة الشابة ، التى يوحى شحوبها بضعفها ، عندما سألتها عن أحوال طفلها ، - ولكن أخاها الشقيق لم يسأل عن الطفل الوليد ، نظراً لأنها كانت أنثى . سألت زوجة شابة فى منزلنا ، هل كن يلدن بسهولة ؟ ولكن بدا عليها شيء من الخجل والكسوف لأن رجلا سألها مثل هذا السؤال ، ثم قالت

بعد ذلك بابتسامة عذبة وصيحة لطيفة : "أنا لم ألد سوى مرة واحدة إه ! إه ! إه ! ،
لقد كانت مرة طيبة بطبيعة الحال" .

البدو بشكل عام كثيرون الثرثرة ومغرمون بالحكايات ، وهم حتى في هذا الإطار
ليسوا أجواداً تماماً ! وأنا لم أسأل كثيراً عن الأشخاص ، نظراً لأن الكلام ، في مثل
هذا الحال ، سيرتد إليهم مرة ثانية . ومصدق ذلك ، أن خبر سؤالي عن عدد زيجات
الشيخ طُلُجُ سرعان ما ذاع وانتشر بين أفراد المجلس ، وفي اليوم التالي ، عندما
وصلت إلى نادى القهوة ، التقانى الشيخ طُلُجُ بمزاج رائق تماماً ، وعينان توحيان بأن
لديه فعلاً ما يقوله على الفور "نعم ، يا خليل ، لقد تزوجت الكثير من النساء . ومع ذلك
أرجو ألا تظن أنى أخذ الحريم أو إن شئت فقل : أنزوجهن ، بطريقة "هى Hy يلاه !
Yellah " أى من أول لقاء واعتماداً على الله . إننى أختارهن بعد تعقل وتمحيص ؛
(وعند هذا الحد انخفض صوت الشيخ طُلُجُ إلى ما يشبه النحيب أو البكاء الكوميدي
أو الفكاهى) ولكن الأمر لا يسير حالياً على تلك الشاكلة ، وهذا أمر يدعو للأسف ، زد
على ذلك أن هذه اللحية شاب شعرها : " وهنا قال الرجل ، دونما خجل أمام ولديه
الكبيرين ، وببساطة البدو ، التى لا يستطيعون معها تخبئة أى شىء : "أنا لست على
ما يرام فى نظر جوَّارى Jowwari ، وهذا هو سبب كل خلافنا ، أليس لديك دواء يساعد
الرجل ؟ ليتنى أعيش فى راحة بال مع أسرتى ! " كان ذلك العجوز يبتسم من كل قلبه
وهو يتكلم ، فى حين كان أبنائه يأخذون الأمر مأخذاً مرحاً ، بل وضحك الحاضرون
أيضاً . لقد استطاع طُلُجُ أن يحكم الأعراب ، ولكنه عجز عن احتواء كبرياء وحزن
جواريه Jaras . كان طُلُجُ يدخن غليونيه طول اليوم وهو جالس فى الخيمة " وعندما كان
الدخان ، عزاء الوحيد ، يخذله (وحسبما قال لى بصراحه تامة مازجا المرح بالرحمة)
كان يملكه الغضب " ويروح يضرب حريمه البرئ " .

كان مشوات قوى البنية ، ولكنه عجز عن تسود زوجاته : فهذه أم عبد الله كانت
تخيفه وترهبه بلسانها . أما الزوجة الثانية ، هى امرأه شابة ، فقد هربت منه مؤخراً
وكان مشوات يتنهد كثيراً عندما كان يتحدث عنها ؛ صحيح أنها غادرت الأسرة
وتركتها ولكنها لم تغادر قلبه أو تخرج منه مطلقاً . "قال لى : إنها جميلة ، إن لها
جدائل شعر تصل إلى خصرها " . والبديوات يندر أن يكون لهن شعر طويل . كما أن

شعرهن ينذر أيضا أن يكون كثيفاً . والرجال يتركون سوائف الشعر الجانبية على حالها الطبيعي التي هي عليه : من هنا فإن البدو عندما يمتدحون جمال شاب من الشبان يقولون : "إن له سوائف كبيرة وطويلة" . هذا هو محمد بن الرشيد ، أمير الشمر ، الذي يناهز منتصف العمر ، ولا ترقى ملامحه إلى ملامح الأمراء ، يقولون عنه : "إنه شاب جميل ، إذ له سوائف طويلة" . الرجال الكبار ، يرفضون تلك الزينة التي يتمسك بها ذلك الشباب المأسوف عليه ، وهناك بعض آخر من الناس لا يطيقون تلك السوائف مطلقاً . وأنا عندما كنت أعير مشوات من باب المداعبة ، وقلت له إنه ليس من الشرف أن لا يدفع ثمن النواء الذي أعطيته إياه ، رد على قائلاً : "حسن ، أنا مدين لك حق ، ولكن أنتظر وأصبر إلى أن أتمالك نفسى من جديد وأهرس " éheris ، أى أتسود الحريم وأسيطر عليهن ."

تلك كانت عائلة الشيخ طُلُجٌ : كان لذلك الشيخ أخٌ فى السابق ، وقد أصابتنى الدهشة عندما علمت أنه قتل نفسه رمياً بالرصاص ! ولم أستطع الوقوف على تلك المرارة التي أودت به إلى ذلك ؛ وعندما تحررت ذلك الأمر سرّاً قيل لى أن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، لم يستطيعوا تحديد المدة ، وكما هو واضح فى ولد عم مشوات ، وفى مزاج طُلُج الحاد الذي يتغير بسرعة ، وفى عجلة أولاد طُلُج وتسرعهم ، لابد أن تكون هناك أخطاء طبيعية فى عقول أفراد أسرة ذلك الشيخ ، وبخاصة أن تلك العقول تكاد تكون ملتهبة ومشوشة أيضاً . روح هؤلاء الساميين Semites تتعلق بالتراب أو إن شئت فقل : بالأرض ، ولكن ثقتهم الدينية ترتفع إلى سماء قريبة منهم ، فى حين تحيط بهم دائرة الحنان الإنسانى من كل جانب . ينذر بين هؤلاء البدو ارتكاب الخطيئة الكبرى التي تقبل عليها الأرواح اليائسة المنعزلة . إذ كيف لروح ذلك البدوى أن تئأس أو تهون من أمر العناية الإلهية ، التي لا تعتريها أية شائبة دينية ؟ ويد الله تحنو على أولئك البدو فى كل أوقات الضيق والشدة ، ولما كان البدو مولودين فى ذلك الخلاء والجذب غير المفيد ، فذلك يعنى أنهم . بطبيعة الحال ، يقاسون الكثير من المعاناة الطويلة . هذه الروح السامية Semitic عديمة الإيمان والمنحلة أيضاً ، تعتمد على الله فى شكل سكون تام . وهم يرون يد الله تعمل عملها فى كل ما يحيط بهم . كما أن اسم الله يدخل أيضاً فى أسمائهم ، إنهم ينادون الله فى كل ما يخرج من أفواههم .

- هذا هو طلال(*) أمير الشمر الشهم يفتح النار على نفسه في نوبة من نوبات الحزن الجنوني الذي أصابه ! - هذه الوفاة البائسة التي لقيها الأمير خالية تماما من أى نوع من أنواع الشك . طرحت على العالمين ببواطن الأمور من مدن الجزيرة العربية السؤال التالي : "ما الذى يمكن أن تتاله ، فى النهاية ، روح تعيسة من وراء القيام بعمل من هذا القبيل ؟" أجابوا على سؤالى : "إنه يحترق !" - وسط تعفن مجتمعاتنا المدنية ، التى تبو أن الملائكة الحارسين يرحلون عنها ويهجرونها ، نشاهد ، فى كل وقت وحين ، الكثيرين الذين ينزلقون نحو حافة الهاوية . يا لهذه الكروب التى تعتمل فى أعماق الروح ، ويا لهذا الجحود الذى يؤلم القلب ويوجعه عندما يكون من الأصدقاء ، ويا لهذه المحاولات التى تبوء بالفشل ! ويا لهذه البحار التى تبتلع كل شىء ، ويا لهذه العواصف والألام الموجعة المميتة ، التى يلاقيها الإنسان فيما بين ميلاد العقل ووفاته ! وعندما تصل النار المستعرة إلى القلب ، وعندما يغضب الإنسان ، فإن تلك الأيدى التى لا تستطيع ضبط نفسها تنزل الضرر برأسه هو نفسه ، لتجيب عنه وهم العالم المكروه وذكره الموحشة عن نفسه ، وعندما تجرى نجده فى الساعة المنسية ، بعد أن تكون شجاعته قد اهتزت - بفعل عطر الحنان الإنسانى ، فلربما ظل على قيد الحياة إلى يومنا هذا . كثير من الناس كانوا يبحثون عن السلوى والعزاء فى بلاهة أرواحهم ، وبخاصة عندما يلاقون بجمود الوجه والاعتراض ، هؤلاء ماتوا قبل الأوان بسبب القصور الذى أصاب إنسانيتنا .

منغصات الروح البشرية لا حصر لها ، الإنسان ظاهرة غريبة من ظواهر البؤس . فى ظل بعض المناخات الأخرى هناك الكثيرين غير هؤلاء البدو يتمسكون بالدين « ويبحثون فى غلظة الجسد ، عن الإرادة الكاملة للروح :- ولكن ذلك لا ينطبق على سذاجة العرب المتناهية ، - العرب طبيعيون فى مسألة الدين . هذا يعنى أن هؤلاء العرب ليس لديهم وعى كامل برائحة الخطيئة فى داخلهم ، إنهم لا يرون البرص الذى

(*) طلال أمير الشعراء : حكم إمارة الرشيد ١٨٤٧-١٨٦٧ وتوسعت الإمارة فى عهده ، وكانت علاقاته ودية مع كل من الدولة العثمانية والسعودية . وعلى أثر فقدانه لقواه العقلية أطلق على نفسه الرصاص ومات فى عام ١٨٦٧ . (المراجع)

أصاب أرواحهم ، هناك دم شغوف ، أو إن شئت فقل : ضعف مؤذٍ يتمثل في خليط من الخيوط الإنسانية ، الذي لو قدر له أن يكون مع آدم في السماء لما أفاده ؛ وكما يتهاافت الذباب على الجراح ، فإن صرور الدهر أيضا تتهاافت على الأشخاص الذين يكونون من هذا القبيل . وفي الصحراء أيضا تجد الخزرات المتأصلة في الدنيا منثورة تحت أقدام أولئك الأشخاص : وفي بواخل هؤلاء الأشخاص تكمن الاهتزازات غير المحددة التي تصيب الروح الإنسانية ، وبالتالي لا يكون هناك منقذ في حياتوات الرجال . والأعراب ليسوا سوى رموس منتشية ، ومستخفة ، ولكنها مليئة أيضا بالحزن الذي يقوم على التفكير العميق والتأمل ؛ ومثلما يوجد جمل أجرب في كل قطيع ، ونعجة عليلة أيضا في كل قطيع ، هناك أيضا في بعض منازل البدو بعض الأشخاص المحتقرين ومشوشى الفكر .

الأعراب يعيشون في خوف دائم من الذئاب ومن العدو ، يفكرون دوما في دينهم . وبينما كنت أتجول في الوادي سمعت صوتاً حاداً يناديني من إحدى الخيام ويقول : "ليه Ley تحوّم Tahowwam " بمعنى "لماذا جئت تتجول هنا ؟ ألا تخاف الحيوان البرى القاسى ؟ ألا تعلم أن الغريب يأكله الضبع ، (حج Hág الضبع eth-thūba)؟" العاملون في قوافل القصيم يقولون الشيء نفسه عن الأسد . حيثما دخلت أو ذهبت كان هذا النوع من البشر يرهقونى بدينهم غير المألوف عندما يقولون : " خليل ، فين Fen ربك Rubbuk ؟ بمعنى "أين ربك ؟" أو ، ألا تستطيع أن تقول مثلما نقول نحن ؟ يا Ya ربى Rubby ! أو تقول "الله Ullahu أكبر Akhbar . " وهنا كان البعض يصيحون "ألا تسمعون أن بوسعه أن يقول هذه الأشياء مثلما يقولها المسلمون؟ ولماذا يقولون إذن إنه رجل وثنى ؟ كلمة أخرى ، يا خليل ، رد بعدى : "الله Uallih الرحمن er-Rahman الرحيم er-Rahim : - اصغوا أيها الرفاق ! إنه يقولها ويردها ؛ إذن كيف يقولون إن اليهود والنصارى لا يستطيعون النطق بلفظ الجلالة ؟"

البدو يفضلون رأى الغريب في المسائل غير الدينية ، متصورين أن ذلك ربما يكون ميلاداً سعيد للفهم ، ومتصورين أيضا أن حظوظ الرجال قد تكون أفضل في أبراج غير أبراجهم الفلكية . والعرب أثناء نوبات ضيق صدورهم الخيالية يتحدثون حديثاً مرا عن أمتهم ؛ مضيفتى حمدي Hamdy ، ابنة عم الشيخ ، هى امرأة قوية البنية ، أو إن

شئت فقل : "شيخة الحريم"، وهى تفيض أنوثة ، عندما كان يلح عليها الكثيرون طلبا لشيء من التتو (التبع) الذى سبق أن جلبه زوجها من الساحل ، وعندما كانت تجدهم ما زالوا مشغولين بأمرى ؛ "قالت متسائلة : إلى متى ستظلون تضايقون الغريب ؟ اطردهم ، يا خليل ، إخص ! الببو كلهم 'حطب النار' بمعنى 'الببو كلهم وقود نار جهنم " هذه المرأة البدوية قالت بعد زوجها الأول ، وقبل أن يتزوجها المغربى ، قالت كلمتها إنها 'لن تتزوج من بدوى' . هذه المرأة أنجبت حاليا طفلين من أبى Abu سنون Sinūn ، ولكن هذين بحكم اختلاف الصفات الوراثية ، كانا يبديان سلالة غريبة بين الأعراب . ولكنها بدأت تشعر حاليا بضغط وتوترات الزوجة فى الجزيرة العربية ، عندما تدخل مرحلة منتصف العمر ، وعندما تبلغ المرأة هذه السن يفكر ، أو إن شئت فقل : يأتى الرجل الطيب بعروس جديدة تنضم إلى أسرته .

كانت حمدي ، امرأة مجدة ، وحرّة ، فى عصمة زوجها المغربى ، كما كانت أيضا واحدة من النساء العاملات الجيدات ؛ كانت هى التى تصنع بيديها حكمةً ناقته التى كان يركبها . كما أنها هى التى كانت تصنع له الخرج الأبيض المنسوج ، ذى الشراريب الطويلة المصبوغة بالألوان المرحّة . وأنا لم أر عيباً فى هذه المرأة سوى شيء قليل من التهور والاندفاع ، الذى كان أصيلاً فى أسرتها . والذى رأيتها تمارسه مع ولدها الأكبر من زوجها السابق . هذا الصبى أشقر الوجه ، الذى يبلغ من العمر اثني عشر عاماً ، كان يافعاً ، ويمتاز بروح ممتازة وطيبة ؛ كان ذلك الصبى يرعى صفار الماعز والحملان فى أسرة "عمة" (زوج أمه) ، كان ذلك الصبى عريانا ، منذ مولده ، كما كان ذلك الطفل اليتيم يتجول بين الأعراب على هذه الشاكلة ، تحت الشمس ، وتحت نجوم الليل البارد . كان المهر الذى دفعه المغربى ، لمشوات أخيها غير الشقيق ، عبارة عن ناقة ؛ كانت هذه الناقة تشكل حوالى ٢٠/١ من الثروة الحيوانية التى عند هذا الرجل الثرى . وقام مشوات بتقديم الناقة لأخته حمدي . بعد ذلك ، ويوم أن حدثت الكارثة التى أملت بهؤلاء القبليين ، وجرى خلالها تجريدهم ، فى الحال ، من إبلهم ، ولم ينجو من تلك السرقة سوى إبل أبى سنون وحده هو وطاهر ، عندما كانا يخيما فوق الحرّة ، فى تلك الأثناء كشف المغربى عن كرم جوده : فقد قام الرجل فى ذلك الوقت باعطاء مشوات Mishwat ناقتين طيبتين ، كما أعطى طُلج أيضا ثلاث نياق ،

كل ذلك من قطيعه الذي كان يقدر بعشرين رأسا . لم تكن حمدي الشبيخة البدوية هي وحدها التي تتكلم باحتقار عن البدو ، أو إن شئت فقل : الأعراب ، نظرا لأن مثل هذا العمل يعد أمرا شائعا بين البدو ؛ هذا هو شاب صغير جاء يسألني شيئا من الدواء ، ولكن شخصا آخر صاح فيه قائلا : " لا تعطيه شيئا ، إنه ولد نتن . " ونظر إليه الشاب ورد عليه قائلا : " يقطع Yakta عموك Umrak " ورمقه بنظرة حادة . ورد عليه الشاب السابق قائلا : " إنه يشبه ذلك الذي أنكته من أنفى ، وهو والله ، وقود لنار جهنم ! "

كل الأسر التي كانت ضمن هذه العشيرة البدوية كانت ترتبط مع بعضها البعض بصلة قرابة ، والسبب في ذلك ، أن القبلي يندر أن يتخذ لنفسه زوجة ، أو إن شئت فقل : ربة بيت ، من خارج القبيلة . والمواهيب أصحاب أجسام قوية ، ويبلون بلاء حسنا في العمليات الحربية . قبل عشرين عاما كان هؤلاء المواهيب يقومون بالغزو على شكل جماعات مكونة من ثمانين راكبا - أما الآن فقد انخفض ذلك العدد إلى النصف - يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أكثر ثراء من الآن فيما يتعلق بقطعان البقر والأغنام وكذلك الإبل . كان مُعَمَّر Muámer شقيق طُجج ، شيخا في ذلك الوقت ، ومات أبناء مُعَمَّر : ماتوا بسبب مرض الجدري وأبو Aub توفيش (Tawfish الكنية التي يطلقونها على مرض الكوليرا) - طواعين مكة - دمرت الأعراب . والموتى بعد أن يدفنوا ويواروا التراب لا يأسف أحد عليهم ، ولا يحيون ذكراهم : هل يمكن للمسلمين أن يعترضوا على قضاء الله ؟ وبالرغم من صلة النسب والقرابة وتوفرها في كل حالات الزواج الخاصة بالبدو ، لم يكن من بينهم أحد مُشَوَّه أو مصاب بمس من الجنون . وعندما استمع العرب إلى رأينا عن عيوب الزواج الطبيعية التي تظهر بين أولئك الذين يتزوجون وتكون القرابة بينهم من الدرجة الأولى ، بدوا يقتنعوا بها إلى حد ما . وردوا قائلين : هذا الكلام ليس مضطرباً بصورة دائمة على أقل تقدير ؛ وهذا الذي تقوله نحن نراه في الماشية ، ومع ذلك تكون صفارها بحالة جيدة .

عانيت وقاسيت مع البدو من مجاعة الصيف ، هؤلاء الذين يذلهم الجوع في جو من هذا القبيل ، وخالٍ من بنور التخمر والتعفن ، لا يصابون بالأمراض المهلكة . جسم البدو يشبه جسم السفينة المصنوع من الخشب الخفيف ، الذي يظل مجذولا إلى أن يجيء فصل الربيع ، حيث يقوم البدو باستعواض طبيعته المتلاشية . ومن ثم يتجدد دمه

بعد تناول الطعام الآثم أو إن شئت فقل : الشريد ، طوال عدة أيام . والبدو على استعداد دائم لأن يرووا حكايات مدهشة عن شخص يعرفونه ، استطاع أن يأكل طليا كاملا فى مرة من المرات . وهم يعتقدون ، أنهم يتعين عليهم أن يشربوا من لبن النياق القليل المتوفر لديهم . ويعتقدون أيضا أن حليب النياق هو الذى جعل أجسامهم رشيقة وخفيفة ، فضلا عن زيادة قدرة تلك الأجسام على تحمل الجوع والإرهاق وكذلك الصبر لفترات طويلة . وإذا لم يتوفر لبن النياق فهم يستعيضون عنه بقليل من المريسى ، غير أن المريسى يكون غير كاف إلى الحد الذى يجعلهم يتكاسلون . ويندر فى حياة هؤلاء البدو أن يتحولوا إلى طعام آخر مثل الجراد ، الذى يقولون عنه : إنه يحفظ عليهم حياتهم إلى أن تحل عليهم أزمان موأية . معروف أن سوء التغذية بين البدو يبعث الضعف فى أحشائهم ويجعلها تتأكل ؛ وليس هناك شعوب أخرى مصابة بهذا المرض أكثر من هؤلاء البدو : يضاف إلى ذلك أن سكّنى هؤلاء البدو وإقامتهم فى أراضى لا تصيبها الأمطار يجعلهم لا ينزقون أو يطعمون الثمار عندما تظهر فى مواسمها المختلفة ، هذا يعنى أن شبح الجوع ، وأمراض الصحراء كانت أمرا واردا فى كل خيام هؤلاء البدو . والعبارة البدوية الشهيرة "معانا Máana لون Lon" التى معناها "لم يتبق لنا شيء فى هذه الحياة " تلوكها كل أسنة البدو ، ويرردها كل واحد منهم على مسامع الآخرين . وتمر الأيام ، ومن بعدها أيام أخرى فى ظل هذا الضعف الناتج عن الجوع ، وفى ظل النسيان الذى يخيم على هذا العالم البعيد ، وفى ظل الحياة التى تستنفد الجسم البشرى وتهلك قواه . والملجأ الوحيد ، يل والعزاء الوحيد لنا هنا يتمثل فى نسيم ليل الصيف الجميل فى الجبال ، والذى يهب علينا كل يوم ؛ وأنا عندما كنت أستلقى طلبا للراحة وسط أحجار البازلت البرية ، وتحت نجوم السماء الصافية ، وفى أرض الأعداء ، كنت أجد متعة أكثر فى ذلك ، عن النوم أو الاستلقاء فوق الأسرة والمخاد فى غرف نومنا المغلقة . - فى هذا المكان ، لا تجد طريقا واصلا أو قادما إليه من مدينة العالم ، والآلف عام تنقضى كما لو كانت نهار يوم واحد . نحن فى الدنيا (العالم) ولسنا فيها أيضا فى آن واحد ، حيث أنجبت الطبيعة إنسانا ، ذلك اللغز الذى يحير نفسه ، وبذرت فيه الروح الشريرة بنور الاستهتار . ونحن عندما ننظر إلى ذلك المنظر الذى لا نهاية له ، نجد أن حياة الجسم الفانى تتضائل ، ونجد الروح تفرد

جناحيها على ذلك الغموض المقدس . - خطر ببالي أننى كنت أحصى ما يزيد على عشرين نيزك فى كل ساعة من الساعات التى كانت تمر على .

طوال تلك الليالى والأيام كنت أتأمل تُسَاك العقيدة المسيحية القدامى فى بلدان الصحراء العالية ، فى ذلك الجزء من العالم - فى هذا المكان كانت تظهر فى كل عصر من العصور موجة بدائية تجدد الأرض وتحاكمها ؛ وكيف فرت إلى هذه الأماكن موجات متعبة وعنيدة وشديدة المراس ، محاولة بذلك استعادة حياة آدم عليه السلام داخل أرواحها ، ومتطلعة إلى إقامة وعيش خال من الخطايا مع العناصر ، فى مكان يعملون فيه على إنقاذ أنفسهم من المصائب الشائعة ، مما يجعلهم يستنفدون ما تبقى لهم من صبر ، ويرحلون بعد ذلك إلى حياة أفضل . هناك نوع من الفلسفة الطبيعية الذى يقوم عليه الحكم العادل والعلاج العادل أيضا للأمور . الزهد الدينى هنا هو الجراحة الماضية التى تستأصل ميل الإنسان الانحرافية من جنورها ؛ وبذلك يتفق ذلك التفاخر الخيالى والحزن العميق الذى يكمن فى الروح الإنسانية ، تلك الروح التى سئمت نفسها فى هذه الدنيا ، وعلقت بها بعض الأدناس خلال فترة قصيرة ، أو إن شئت فقل : فى المدى القصير . هذه الروح التى تتطلع إلى تخلص نفسها من هذه الأساليب المحيرة ، تراودها أثناء غضبها رغبة فى إفناء ذلك الجسد المعادى والتخلص منه ، نظرا لأن هذا الجسد هو المصدر الوحيد لأمرضها . محمد عليه السلام طلب أو أراد إنقاذ ذلك الجيل من أبناء السبيل ، هؤلاء المصلين الذين ضُربت من حولهم الظلمة فى الصحراء ، إذ كانت بينهم أنواع من النمازيم Nimrods الروحية ، تتجول من حولهم فى أرض الأحلام الدينية ، لتبنى من نفسها درجاً صاعداً إلى السماء . وكان السبب وراء ذلك ، أن البعض من هؤلاء النمازيم كانت لديهم روح النبوة " وكان أولئك النمازيم قد حيوا فى رجال القوافل صفار السن العلامات السرية لرسالته Apostleship (بعثته) المستقبلية . ولكن محمد عليه السلام ، فى القرآن الكريم ومع كياسة الفهم العربى ، يلاحظ القناع القاسى الذى يرتديه العصاة Undoers ، له ، ولأنفسهم وإخوانهم فى الإنسانية : " الله أرسل الإنجيل على رسوله عيسى بن مريم ، ومن ثم إلى الأمة المسيحية ؛ ولكن طريق النُّسَاك هو من صنعهم هم أنفسهم "

جاعى أبو سنون مرة ثانية ، كان الرجل قد تغيب منذ مدة طويلة ، الأمر الذى شغل ذهن زوجته وأذهان أصدقائه عليه ، والمؤسف أنه لم يجرى إلى بيته لنيل قسط من الراحة ، ولكنه كان يتعين عليه أن يعود ، فى صباح اليوم التالى ، من حيث جاء ، أى لإحضار المزيد من الأرز من قرية الوجه ، كان المغربى ينقل طوال رحلات الصيف إلى جانب الأرز شيئاً من المريسى؛ كان الرجل يسير أثناء الليل فى أراضى تهامة المنخفضة شديدة الحرارة. جاء لنا محمد بأخبار من قرية الوجه . "لقد نصب المسلمون مذبة تشبه مذابح الغنم ، إذ قتلوا وأسروا حوالى ٣٢٠,٠٠٠ من النصارى ؛ ولم يقع من جانب الإسلام سوى ٣٠,٠٠٠ شهيد " فقط : - هل سمعت هذا ، يا خليل ! الشكر لله ! - لقد انضم الإنجليز أيضاً إلى جانب السلطان ! سينصر الله السلطان نصراً عظيماً ! لقد اجتاحت جيوش الدين بلاد الأعداء ، وهم يتقدمون الآن صوب مدينة موسكو العظيمة ، وعندما يستولون عليها ، سيبعدون عنها ملك الصفّر Yellow العظیم مربوطاً بالسلاسل . وسوف يستعيروا كل الأراضى التى جرى الاستيلاء عليها من قبل وأخذت عنوة من المسلمين. لقد هزموهم لا فى البر فقط وإنما فى البحر أيضاً: لقد غاصت متحطمة سفن كثيرة من سفن موسكو(*)! كان محمد هو الذى حمل هذه الأخبار إلى البدو ، (تلك الأخبار التى لم تحظ بقبول كبير عند الرعاة ، فيما يتعلق بكلامه عن الأجانب) ، وأوصلها إليهم عن طريق سياق مبتسم صادر عن رجل صاحب معرفة كبيرة ، ويتواضع لتعليم الجهّال . - ترى ، كيف لى بتفسير الأنباء التى أوردتها المغربى عن الحرب ؟ وأنا عندما غادرت سوريا كان الأتراك يحاربون كلا من صربيا Servia هذا يعنى أن الأخبار التى حجبت عنا فى دمشق كانت نذير شؤم . "القديس جورج - على حد قولهم - أصبح مسلماً منذ وفاته، وأنه ظهر فى مونتنيغرو Montenegro وهو يطارد الكلاب المسيحية مستخدماً فى ذلك رمحه ؛ وأن الجبال ابتعدت عند ظهوره مسافة مسير ساعتين" . - لم يكن القديس جورج وحده ، ولكنهم يعتقدون ويؤكدون أن

(*) تشير هذه الأخبار إلى ما عرف بمذابح البلغار وهى تلك المذابح التى قامت بها الدولة العثمانية لقمع الثورات التى حدثت فى البلقان فى عام ١٨٧٦ والتي كانت بتحريض روسيا المتزعمة لحركة الجامعة السلافية وكان قيام الدولة العثمانية بقمع تلك الثورات مبرراً لكى تعلن روسيا الحرب على الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ . (المراجع)

سيدنا عيسى (أيضا ، هو وأمه مريم أصبحا مسلمين ؛ وأن الخلق لم يخلق إلا لسيدنا محمد الذى له الأولوية على كل مخلوق آخر " . وأن شخصا يدعى سيرجيوس Sergius كان قديسا مسيحيا فى دمشق ، ولكنه أصبح الآن فى زمرة الإسلام ؛ ويوسع من يريد أن يشاهد ضريح سيرجيوس هذا فى السوق (الشارع) بالقرب من إحدى النافورات ، وقضبان نوافذ ذلك الضريح كلها مغطاة بخزف على شكل قرايين . وذات صباح ، ومع بداية الثورة والتمرد ، وجدوا مصابيح سيرجيوس مضاءة عن آخرها ، كما أن نافورته كانت تفيض دما ، كانت الخوارق الطبيعية التى فسرها المتعلمون أصحاب العمامة الكبيرة تقول إن هناك دمارا عظيما ينتظر الدم المسيحى !

يقول البدو عن سكان ميناء الأرز فى قرية الوجه : "إنهم بخلاء مع الغريب ، أناس لهم لهجة تختلف عن لهجتنا (كلامهم خليط من اللهجة المصرية ولهجات أخرى) " . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو ، الذين تعودوا على الإقامة فى المناطق المرتفعة الجافة ، لا يطيقون حرارة الصيف فى تلك المنطقة القريبة من شاطئ البحر . وفى تلك القرية ، هناك بعض من رجال القبائل ، الذى يرددون فى تلك القرية حكاية ذلك النصرانى الذى يتجول مع الأعراب ، وراح يدون بلادهم ويسجلها ، - وهل استطاع أولئك الذين يعيشون فى تلك القرية القريبة من البحر ، أن يقولوا للناس شيئا عن أهل بلدى ، أو أين يوجد ذلك البلد ؟" وردوا على ذلك السؤال قائلين : "إذا جاء النصرانى إلى هنا فإنهم سوف يستقبلونه . وفى الوجه ، أخبرنى البدو متسائلين : هل بعض النصارى ، رجالن أو ثلاثة رجال ، لهم ذقون حمراء ، هم أشخاص أمناء بالرغم من أنهم كفار ، وهم يعيشون وحدهم فى القلعة ، ويلبسون فوق رؤوسهم قبعات عريضة ؛ - لكن خبرنا هل من المقبول أن لا يطيق الكافر النظر إلى السَّما (السماء) Sema ؟ - انظر إلى أعلى ، يا خليل ، إن كنت تستطيع ذلك . طلبت منهم أن يتذكروا أنهم ، فى كل عام ، يشاهدون الحجاج السوريين (الدمشقيين) هم والحجاج الفرس Persians ، وهم يلقون وصلات من الجلد على جباههم ، لكى يحموا عيونهم من الشمس . - ولكن هذا الرأى واجهته فى كل أسفارى التى قمت بها فى الجزيرة العربية ؛ فى كل الأماكن التى وصلت إليها كان هناك بعض الأطفال وبعض النساء اللاتى كن يقلن لى : "ارفع عينيك يا أنت إلى

السَّما (السماء) ! " قال أحد القحطانيين(*) الخلصُ ، الذى سبق أن تعرفت عليه فى القصيم Kasim ، قال عن أهل نجران ، الذى سبق أن زارها مرات عدة : "إنهم ليسوا مسلمين حقيقيين(**) ، - إنهم لا يؤذنون للصلاة (بنفس) الكلام الذى نقوله نحن - وإنما مثل الفرس ، كما يلبسون عمامتهم مدفوعة إلى الأمام كى تغطى عيونهم ، (وأردف قائلا :) مخافة أن ينظروا إلى سيدهم . هؤلاء الرجال الثلاثة الموجودين فى برج من الأبراج ، خطر ببالى أن يكونوا (يونانيين أو إفرنج) هم الذين يقطنون أو يعيشون فى منازل خفيفة .

وصل إلينا مهنا Mahanna ، الذى قطع المسافة عبر الحرة قادما إلينا مطالبا بالمدة Mida لأفراد قبيلته الذين سقطوا فى شجار العام الماضى . كان شيخ السحامة يقيم فى خيمة القهوة ، التى كان يجرى دعوته منها هو وأعضاء المجلس ، لتناول وجبة الضيافة ، التى سبق أن أعدها له أحد المواهيب الكرماء ، وبالتالى كانوا يجلسون إلى وجبة من الأرز المطبوخ فى الماء ، والمضاف إليه شىء من ملح وقلقل قرية تيماء ، والملون بلون الزعفران . كانت تلك العزائم خاصة بأسر الشيوخ ، كان المضيفون ،فى تلك الأزمان غير الرائجة ، يقدمون أعذار الشهامة والمروءة عن البدو الرحل ؛ وأظن أيضا ، أنه كان هناك بعض الناس ، الذين كانوا ينفقون كل حياتهم فى ذلك المكان . كانت سلوكيات الإنسان معتدلة ، كما كانت مهمة الإنسان لطيفة أيضا وهو يتحسس جرحا التأم حديثا ، وهو بين إخوانه المتصالحين ؛ يضاف إلى ذلك أن شيوخ البدو كانت لهم سياسة طبيعية عظيمة . هؤلاء الشيوخ يتمسكون بشدة بذلك الذى يمكن أن يحصلوا عليه ، ويتنازلون بطريقة لطيفة عن ذلك الشىء الذى يستحيل عليهم الحصول عليه . ابتسم مهنا ابتسامة فيها كثير من الود عندما وجدنى هنا ، وغمرته السعادة عندما سمع طلجٌ يمتدحنى من قلبه بحق ! وقام ذلك الرجل الطيب بتقديم غليونه الطويل إلى طالبا منى أن أملاه له بالتتون (الدخان) .

(*) من قبيلة قحطان ، وهى إحدى القبائل القديمة فى الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) أهل نجران : على خلاف ما ذكر أعلاه فإن أهل نجران مسلمون حقيقيون ويعتقون المذهب الزيدى ، وهو نحلة من نحل الشيعة . (المراجع)

فى صبيحة اليوم التالى أوفد مهنا رجلا إلى قبيلته يحمل إليها بعض الأنباء ، مفادها أن عدد النياق لم يجر بعد تحديده بين الطرفين : والخطر هنا كان يتمثل فى الاختلاف حول مسألة التحديد هذه ، الأمر الذى كان يمس أهم انفعالات أولئك البدو . كان مهنا يطالب بأربعين ناقة ، قيمة الدية بين أفراد القبائل . قال السّراحون إن تلك الدية ينبغي أن تكون خمسة نياق فقط ، كما هو معمول به بين القبائل فى حالة العداء - نظرا لأن الرجل قتل من منطلق العداوة ، وأنهم دفعوا الدية فى ذلك الوقت بواقع خمسة نياق : ولكنهم يرون مهنا يعود إليهم اليوم ليطلب منهم خمسة وثلاثين ناقة أخرى ! ولكنهم يتعين عليهم أن ينفذوا كلام داريش Darÿesh الشيخ السّرحانى ضيق الصدر .

ولما كان التبغ الذى مع مهنا قد انتهى ، فقد حتم عليه ذلك الذهاب إلى قرية العلا لابتياح شىء من التبغ ، من هنا فقد رافقه ، فى هذه الرحلة ، كل من حامد وشويش Shwoysh . والبدو يطلقون على الرحلة التى يقوم بها عدد قليل من الرجال ينتقلون خلالها بسلام فى الصحراء ، اسم "طُرقية" turkieh . قبل أن يركب هؤلاء الرجال دوابهم ، جاؤا إلى يسالونى عن طريقة اتقاء أو تجنب ذلك الذى يسمى بحمى الواحة ، - الذى يطلقون عليه أيضا اسم "حمى الحجاز" فى نجد ، التى تمتلك أجساد هؤلاء البدو ، على نحو يصعب معه عودة الجسد إلى سابق حالته الصحية مرة ثانية . حمى العلا El-Ally حمى طويلة الأمد أكثر منها حمى مهلكة أو مميتة . والبدو لديهم حساسية شديدة جداً ضد الرطوبة والتخمر ؛ كما أن لديهم حساسية شديدة أيضا ضد برودة الليل غير الطبيعية التى تنتج عن المناطق المروية ؛ هؤلاء البدو يعودون إلى ديارهم فى كثير من الأحيان وهم يحملون كثيرا من الأمراض غير المروية ، والموت غير المرنى أيضا ، من أسواق القرى التى يترددون عليها .

عندما عادوا قادمين من العلا ، أبلغنى مهنا أنه يجرى بينه وبين رجل من خيبر حديث ، وأن ذلك الرجل أبلغ مهنا أنه سوف يتجه إلى خيبر عائدا إليها ، فى صباح اليوم التالى ، أو إن شئت فقل : بَكْير bāchir ، وأنه (مهنا) يود أن يرسلنى مع ذلك الرجل . وبالرغم من أن خيبر والعلا لا تبعدان عن بعضهما سوى مسافة رحلة طويلة من رحلات الإبل ، إن أن قروى هاتين القريتين يمضون حياتهم دون أن يزورا

بعضهم البعض الآخر ، كما أن المدينة (المنورة) تعد سوقا لهاتين القريتين . قام البدو بسرقة عجل مخصى من قرية خيبر ؛ وعندما بلغهم نبأ وجود ذلك العجل فى قرية العلا ، قام القروى (صاحب العجل) يرافقه أحد البدو بالذهاب إلى العلا ليطلب باستعادة ذلك العجل المخصى . قال مهنا ، إننى سوف أصل فى الوقت المناسب إذا ما بدأت رحلتى فى الصباح . ولم يكن من السهل على العثور على رفيق يذهب معى إلى "المدينة" المنورة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الشخص الذى اتفقت معه أثناء الليل خيب ظنى مع طلوع النهار .

مع طلوع النهار ، جرى اقتياد سبعة عشر جملا ، إلى خيمة القهوة ، وذلك من باب سداد المدة (الدية) أو الوفاء بها ؛ بالأمس تسلم مهنا فى وادى عروش كثيرا من سيقان النخيل بدلا من الإبل . - والمعروف أن الساق الجيدة من سيقان النخيل تقيم على إنها جمل . ولكنى أسمع الآن أن مهنا يرفض كل العروض التى تقدموا بها ، ويصيح قائلا : "الأعراب سوف يعودون إلى عدائهم المستحكم ، وأنه لم يعد يتبقى بينهم سوى الموت الأسود؛ - ووالله ، فإنه لن يرضى بأقل من أربعين ناقة . " ركب مهنا ناقته، وأدار ظهره دون أن يستأذن من الحاضرين ، وراح يتجه صوب رأس الوادى ، عائدا إلى ديرته عن طريق الحرّة . هذه الحدة ، فى الاستعراض ، إنما هى شكل من أشكال سياسة ذلك الرجل فى الحصول على المزيد من الإبل ؛ يضاف إلى ذلك ، أنه لم يكن من مصلحة ذلك الرجل تسوية أمر خطير ، مثل هذا الأمر ، دون أن تكون هناك بعض المصاعب . راح الموءاهيب الذين كانوا ينتظرون ذلك الحادث ويتطلعون إليه ، يراقبون مهنا أثناء انصرافه ، ثم ذهب كل واحد منهم إلى مورد تزود الماشية بالماء ، أو إن شئت فقل : مسقى الدواب .

عثرت على الشيخ طُلُج ، جالسا عند عين الماء ، مع أولئك الذين كانوا ينتظرون دورهم فى السقاية . وهنا وجدت الشيخ سيدان Seydan ، الذى كانت له طبيعة معينة ، وكان يفضل الغريب فى كل الأحوال ، يقول : "إذا لم يكن هناك أحد غير ولدى فسوف يذهب هو معك ، نظير أجر . " كان ذلك الابن يدعى حوريش Horeysh ، ونظرا لأنه كان موجوداً فى بيته فقد ذهب لإحضار ناقته ، ولكنه سرعان ما عاد إلى خيمتى وهو يكشر عن أنيابه ويقول لى أننى ينبغى أن أزيد له فى الأجر ، وقد لبى له ذلك الطلب .

والبسوى يحتم الحصول على أجره قبل بدء الرحلة ، على أن يحاول بعد ذلك بذل كل ما فى وسعه . كان لابد من فك النقود فى قرية العلا ، وهنا قال حوريش بطريقة همجية غير مهذبة ، لأمه أخوه على إثرها ، إنه لا يثق بما قلته له ، وقال : "إننى كنت نصرانياً". وهنا أعطيته النقود فى يده ليقوم هو بفكها من قرية العلا ، ثم استأنفنا مسيرنا بعد ذلك .

إنشاء سيرنا انضممنا إلى جماعة صغيرة أخرى كانت مسافرة، كانت تلك الجماعة عبارة عن رجل سرحانى يقوم بتوصيل أخته ولدها الصغير إلى الواحة . كان زوج هذه المرأة البدوية ، وهو رجل قروى من قرية العلا ، قد أرسل فى طلب ولده حتى ينشأ ويتربى فى كنف تلك الحياة المستقرة . وكان يسافر أيضا مع هذه الجماعة الصغيرة رجل آخر كان يسوق معه رأسين أو ثلاثة من الحيوانات الصغيرة ، وقد تعرفت على ذلك الرجل ، واكتشفت أنه حضرى من قسماات وجهه قاتم اللون . كان ذلك الرجل قصاباً ، جاء معه قليلا من التبغ لكى يبيعه للبدو . وها هو الآن يعود ومعه لحوم حية (حيوانات) . كانوا يلقون السلام على بعض الرعاة الذين كانوا عند منبع الوادى ؛ ولما كنا نسير بحذاء ساحل الوادى المنخفض فقد وصلنا إلى وادٍ آخر ، يقع منبعه فى الحدود الجبلية المكونة من الحجر الرملى والأجزاء البازلتية العالية من الحرّة ، - وهى منطقة خالية من الماء لا يزورها أو يتردد عليها الرعاة البدو ، ويخيم على تلك المنطقة أيضاً شكل من أشكال الصمت العنصرى . هذه العدة الخشبية التى على ظهر الجمل ، أيقظت فى شعورا دفيناً وغير مريح أحسست معه بالجوع ، ولا أذكر أننى فى حياتى كلها ، فيما قبل تلك الشهور التى أمضيتها فى الجزيرة العربية ، لم أتناول الإفطار حتى ولو لمرة واحدة . وهنا نحن نصل إلى تلك الغابة الضخمة من الصخور التحتية المكونة من الحجر الرملى؛ والناس هنا يطلقون على تلك الغابة اسم الأخمة el-Akhma ، وهى تمثل الحد الخارجى للعويرض . ومع دخول وقت الظهر ، نزل المسافرون عن دوابهم ، كما هو متبع فى السفر أثناء فصل الصيف ، وجلسوا فى ظل صخرة عالية ، لقضاء أشد ساعات النهار حرارة . وعثرت فى تلك المنطقة على نقش حميرى ؛ ولكنى خشيت الوصول متأخرا إلى قرية العلا بسبب مثل هذا التأخير الذى لا داعى أو لزوم له .

عندما استأنفنا مسيرنا من جديد ، كنا قد أقبلنا على الجزء الثالث والأخير من
نهار اليوم . وهنا سارعت لأحمل عن القصاب قرية مائه التي كان يحملها على ظهره ،
مستهدفاً بذلك أن يعجل من مسيره معنا ، وحتى لا ينفصل عنا في ذلك المكان غير
الآمن ؛ القصاب قال : ' لا ! لن يفترق عن القرية التي هي في مقام أمه . وهنا رد عليه
البدو ، وهم يتعجبون : ' صدقت يا رجل ، إنها أمك بحق ! ' - هذا هو الفكر الذي يدور
في أذهان أهل الجزيرة العربية عندما يفترقون عن الماء مدة ساعة أو ساعتين ! وفي
النهاية ، بدأ يطالعنا منظر نخيل القرية ، في ضوء الشفق . وعندما نزلنا عن دوابنا
عند بوابة القرية كان الليل قد أرخى سدوله علينا ، وأحدثنا شيئاً من الجلبة ونحن
نسوق دوابنا عبر البوابة ؛ هذه الدواب عندما تشممت الشوارع الضيقة خافت من
الدخول إلى الظلمة الموجودة أسفل الغرف المبنية . وهنا ضربت ناقتي العجوز رأسها
في الجدران ضربة شديدة ظننت بعدها أنها ربما تكون قد أصابها مكروه . وهنا جاء
قروى أو اثنان كانا عائنين متأخرين إلى القرية ورداً علينا السلام والتحية وراحا
يعاملانا بود نحن البدو . كانت المسارات الضيقة في هذه المدينة الحجازية الأصلية
تفوح منها رائحة ماء الورد بشكل فظيع . وتوقفنا في مكان واسع ذهب فيه حوريش
للبحث عن واحد من معارفه اسمه فرحان Farhan ؛ وبعد أن تركنا جمالنا المبارك بعد
ربط ركبتها ، قام الشابان اللذان أخذانا إلى الأمام ، بحمل أكياسى الكبيرة على
اكتافهم ، ومشيا أمامنا في اتجاه الباب . جلسنا فوق الضفاف (المصاطب) الطينية ،
التي جرى صنعها لتكون بجوار المداخل كلها ، ثم أحضروا لنا بعد ذلك طبقاً من التمر ،
وسلطانية أخرى من مائهم غير الصحى ؛ - كنا لم نتذوق أى شئ من الطعام طوال
ذلك النهار الذى انقضى علينا . تلك الغرفة كانت مخزناً ، وضعوا فيه أشياء ،
وأغلقوا عليها الباب طوال الليل . وبعد ذلك اقتادنا هذان الرجلان إلى شرفة نظيفة في
منزل خالٍ ، يمكن لنا أن ننام فيه .

وصلنا مبطينين mabty ، أى متأخرين ، كما توقعت ؛ فقد بدأ ذلك الخبيرى رحلته
قبل ظهر هذا اليوم ، - والبدو هنا يطلقون على فترة ما قبل الظهر ، بعد انتصاف
النهار ، اسم "البيريج" el-beyrih ، بمعنى "أمس" . - هذه الساعات القليلة التى ضاعت
منا كانت بسبب التباطؤ الغادر من جانب حوريش ، الأمر الذى هبأ لى فرصة لقضاء

عام آخر من المتاعب والأخطار فى الجزيرة العربية ، نظرا لأن هدفى الرئيسى كان يتمثل ، بالدرجة الأولى ، فى زيارة خيبر . هنا ، فى خيبر ، نجد أن حرارة الليل البهيم لا تتناقص بشكل محسوس عن ذلك الذى كانت عليه أثناء نهار الظهيرة ؛ استلقينا على الأرض شبه لاهثين ، إلى حين طلوع الشمس ، وبعدها لم نستطع النوم حتى ولو للحظة واحدة . هذه الديرة لا تعرف الأسرة ؛ وعابرو السبيل يستلقون على الأرض لنيل قسط من الراحة ، ويستخدم الواحد منهم ساعده ليكون مخدة يضع عليها رأسه ، مفترشا الأرض من تحته :- والمرء يرى هنا ، فى كثير من الأحيان ، البدو المساكين ، الذين جاؤا للتسوق، وهم ينامون عند الظهر فى المدينة أو القرية ، مثل الصبى يعقوب، ويضع الواحد منهم حجرا من تحت رأسه ! بل إن قرويين قرية العلا أنفسهم ينذر أن يداعب النوم جفونهم طوال فصل الصيف الطويل الحار والقسم الأكبر من قرويين العلا يقضون ليالى الصيف فى البساتين ، التى يحتفظون فيها بتعاريش يصنعونها من جريد النخيل وسقيانها ، ويفرشونها بحصير يصنعه من زعف النخيل . وهم يقيمون وينامون فى تلك التعاريش ، كيما يتسنى لهم حراسة محصول التمر والفاكهة أثناء فترة النضوج ، ويهب عليهم وهم فى تلك التعاريش هواء مشبع بالرطوبة ، وشيء من البراد قبيل طلوع الصبح . وعقب طلوع النهار ، نركب إبلنا ونواصل المسير فى الشوارع . ويستمر حال المعاناة هذا مع تلك الماشية خاوية البطون ، طوال ثلاثة أو أربعة أيام ، لتعود محملة بالتمر مع رب الأسرة ،- هذه الحمولة تكون أكبر بكثير جداً عن أية حمولة تحملها هذه الماشية وهى بكامل صحتها وعافيتها ؛ والمرء يمكن أن يصادف تلك الحيوانات المسكينة وهى تمشى متناقلة عائدة إلى المنزل ، قادمة من تلك المستوطنات الطاردة .

وجهنا مواشينا صوب مقهى القاضى موسى ، ذلك الرجل الحجازى الذى له عقلية إسلامية بدائية بحق وحقيقة ؛ ولما كان ذلك الرجل عائدا من مقر راحته الليلية فى البساتين busatin ، فقد استقبلنى بابتسامات إحسانه الذى يوحى بالكرم . وهنا جرى إشعال أو إن شئت فقل : شب نار قهوة الصباح ، وقام مقدم القهوة ، أو إن شئت فقل : "القهوجى" Kāhwajy بتحميمص البن على نار الوجار ثم طحنه طحنا إيقاعيا فى هون البن . ويتوافد الأشخاص المعروفون ، على ذلك المقهى ، قادمين من البساتين لتناول

فنجال قهوة الصباح ، هؤلاء الأشخاص المعروفون هم من سوق (حارة) القاضى موسى ، وهم يخلعون نعالهم قبل الدخول إلى المقهى ، وعندما رأونى أنا ورفيقي ونحن جالسين بالقرب من الوجار ، حيونى تحية طيبة ، "أهو أنت ، يا خليل - من أين جئت؟" وتقدموا لمصافحتى . هنا لا تجد تحضر شيوخ الصحراء وقرى نجد الذى يجعل المرء يفقد صوابه ، والذى تصدق عليه الكلمات التى قالها إشعيا ذات مرة فى وجه بنات يهوذا الخائن ، "هم متعالون ، ويمشون بأعناق ممدودة ، وعيون فيها فضول ، ينقثون السناج وهم يمشون . " ولكن أهل العلا متزنون وطيعون وعاقلون .

- هذه هى صالة ونادى قهوة "جماعة" موسى ، المقصود "بالجماعة" Jummaa هنا هو الاتحاد الأسرى الطبيعى ، الذى يولد وبينه صلة قرابة أو نسب ، من خلال كبير ، يكون هو رأس المنزل ، ويكون وارثا لسلطة الأب الأكبر . هذه الروابط والانقسامات عن طريق القرابة تمثل الحياة المشتركة الواحدة والأمن المشترك الواحد فى بلد تعمه الفوضى التى تكون من هذا القبيل . والغرباء الذين يفدون على هذا التحالف يجرى تعرفهم عليه من خلال أصدقائهم . والرجال الذين يجرى تحريرهم من عبوديتهم يتحولون إلى عملاء فى منزل رب الأسرة ، وأطفال هؤلاء الرجال ، مع أطفال الغرباء الذين يتكاملون مع ذلك التحالف ، يمنحون نفس الأبوة التى يحصل عليها أطفال الأسلاف : هذا يعنى أنهم يصبحون "أبناء عمومة" فى الجماعة نفسها .

الأجزاء السياسية المختلطة أمر نادر الحدوث فى الجزيرة العربية ؛ والسبب فى ذلك أن أى إنسان ، مهما كانت قوته ، حتى وإن كان فى المدينة ، لا يمكن له ممارسة سلطة من السلطات العامة إلا إذا كان منحدرا من سلالة شيخ من الشيوخ . ففى كل المدن الواحية توجد قرابات كثيرة ، وغالبا ما تكون متشابكة من خلال أكثر من سلالة نسبية واحدة ؛ وهنا يكون مثل هذا الشخص مناسبا للحكم - وأصدق مثال على ذلك هو أمير عنيزة - الذى يعد الرأس الطبيعية لذلك البيت القديم المنحدر عن الشيوخ القدامى ، وبخاصة الشيوخ الذين يكون أبائهم من البدو ، الذين أسسوا مستوطنة

(*) عنيزة : من البلدان الهامة فى منطقة القصيم . كان يحكمها أثناء رحلة "توني" الأمير زامل بن عبد الله ١٨٦٧-١٨٩١ . وينتمى أمراء عنيزة إلى قبيلة السليمى وهى بطن من بطون قبيلة السبيع . (المراجع)

النخيل فى الصحراء . فى بعض المدن ، قد يتصادف قيام حزب فرعى ، من خلال تهيد الفرصة المناسبة ، بالوصول إلى المقدمة ويتسود كل شيء ، مثلما حدث لبيت ابن الرشيد فى حائل ، الذى باركه الوهابيون فيما بعد ، الأمر الذى أدى إلى نمو ذلك الفرع الجانبى ليصبح أعظم الأسماء قاطبة فى الجزء العالى من الجزيرة العربية . - تجمع أتباع دين محمد ﷺ كان عبارة عن جماعة مختلطة ، وهذا التجمع يشكل فى الوقت الحالى نوعية ، أو إن شئت فقل : تحزب خاص من الأمم - يكشف عن قسّمات القراة فى الوجه لهذا الحزب أو ذاك من أحزاب الجزيرة العربية .

الجماعات فى الواحات عبارة عن "إخوانيات" تسكن أحياء عديدة ، وأهل الحضر الذين يتشاجرون ولا يكونوا من نفس "الإخوانية" يحاول كبار السن بينهم إعادة الوفاق إليهم ؛ ولكن فى الواحات الكبيرة ذات الحكم الذاتى ، كما هو الحال فى عنيزة ، فإن المواطنين الحضر ينقلون خلافاتهم ليحكم فيها الأمير الجالس فى المجلس ، وذلك أسوة بما يفعله البدو عندما يحملون مشاكلهم إلى شيوخهم . وإلى أن بدأت مزايا ومنافع الحكم الوهابى تتبدى للجميع ، كان القرويون منقسمين ويقفون فى وجه بعضهم البعض ، وجماعة فى وجه جماعة ، سوق (شارع) فى وجه سوق (شارع) آخر فى السواد الأعظم من مستوطنات الجزء المرتفع من الجزيرة العربية . - سمعت أثناء الخطر الذى كان يتهددنى فى خيبر إنه "إذا ما تعرضت حياة الغريب للخطر فى سوق (شارع) من الأسواق ، واستطاع الهرب إلى شارع آخر ، فإن ذلك الشارع يحميه ويدافع عنه " .

أحضر موسى قطعة من البطيخ ليرفه بها عنا ، ويعد ذلك مباشرة اصطحبنا لتناول الإفطار ؛ والإفطار فى قرية العلا عبارة عن خبز مخمور معجون بالزبد ، ومعه سلطانية من ماء العلا الذى تفوح منه رائحة الكبريت . ونظرا للإحباط الذى أصابنى بسبب خيبر ، فقد انتابنى شيء من الحيرة . إذ من الخطورة بمكان على من لا ينتمى إلى الدين الإسلامى ، أن يحاول العودة إلى تسامح المسلمين الذى لا يدوم فترة طويلة ، الأمر الذى جعلنى على استعداد دوما فى كل مكان إلى التراجع عن التشبه بالمسلمين تماما . ترى ، هل ينبغى أن أسكن المدينة ؟ حيث يتصبب العرق على شكل قطرات من فوق جباهنا ، وحيث الهواء الساكن الذى لا يتحرك ، والليالى التى تسير على وتيرة

واحدة . الطعام متوفر فى الواحات ؛ ولكنى أثرت العودة إلى الخلاء (الصحراء) التى يهب عليها الهواء . كان الشيخ طُلج العجوز الطيب قد قال عند رحيلى ، ومتوقعا افتقادنا لرفيقنا الخبيرى ، "أنت رجل من الذين يقيمون مع البدو ، عد إلينا ثانية يا خليل ، وابق معنا إلى مجيء موسم الحج الجديد . " وهنا قال القاضى موسى : "يا خليل ، إذا أردت السكنى والإقامة فى المدينة ، فابق هنا معى ، ومرحبا بك . " - كنت قد اخترت القاضى موسى ليكون مضيفا لى ، وهو بدوره وجّه طبيته الطبيعية نحو الضيف النصرانى : وفى هدوء راح القاضى موسى يسألنى عن كثير من الأشياء . وكان يستقبل ردودى استقبالا طيبا ، على مرأى ومسمع من الجميع . وعندما كانت يد صديقه تمتد نحوى بالغليون ، كانت هناك يد أخرى ، تجعل صاحبها يثير القضية القديمة "هل يتعين على الشخص المستقيم أن يشرب الدخان؟" قام البعض بالرد على هذا السؤال قائلين : "إن الإنسان ينبغي ألا يضيع الكثير فى ذلك الدخان ؛ وبعض الجيران الآخرين ، الذين كانوا أكثر تمسكا بالخرافات ، غمغموا قائلين إن الإنسان ملوم فى ذلك ؛ وهذا هو شخص ينظر إلى الدخان نظرة كره واستياء ، تكلم على إثر نفزة بالكوع وجهها إليه من كان يجلس إلى جواره ، تكلم فقال : "ألسنت أنت بنفسك تزرع الدخان ، وتتعمده فى الحقل ، الذى يجاور حقلى ؟" - وبناء على هذا الكلام غير صاحب الموقف الرسمى موقفه كيما يلتمس لنفسه الأعذار ثم قال: "حسن ، إنه لم يفعل أى شئ سوى بيع شئ من هذا الدخان للبدو ؛ (ثم سألتنا) ألم يكن البدو كفارا بالفعل ، وأنهم وقود نار جهنم ؟" وعندما وجد موسى أن ملاحظتنا ومراعاتنا للدين كانت هشة وغير متماسكة سألنى : "ماذا يقول النصارى عن هذا الموضوع ؟ - هل شرب الدخان ، خطأ فيما بينكم ؟ أهو حرام ؟" وهنا أجبت على الفور قائلا: "الله ، هو الذى خلق الحرام ؛" وعندما خرجت هذه العبارة من فم النصرانى ، رحب بها ذلك القروى الحجازى الذى ينتمى إلى الشيوخ ؛ يضاف إلى ذلك أن ذلك القروى كان من أصدقاء الغليون ، وراح يردد فى سره العبارة التى تقول: "الله لم يخلق شيئا محرما ."

عندما سألت حوريش عن مصير العملة التى أعطيته إياها لفكها من قرية العلا ، رد علىّ وهو يكشر عن أنيابه قائلا : "إنه دفعها ثمنا للشعير فى المدينة . " ورددت عليه ، أنه طالما أنفق نقودى ، فإنه يتعين عليه أن يحمل أكياسى الثقيلة على ذلوله (ناقته)

فى رحلة العودة ، إضافة إلى أنى سوف أركب أيضا فوق هذه الناقة . وعلق القاضى على كلامى بأنه عادل ، وأيد القرويون الحاضرون ما قاله القاضى ! هؤلاء القرويون تطوعوا من تلقاء أنفسهم ، مثلما كان الناس فى عهد أيوب الصديق ، لتعنيف هؤلاء البدو الخونة ، - يضاف إلى ذلك أن كل أولئك القرويين كانوا يكرهون ذلك الحوريش المتوحش . زد على ذلك أن الشاب السرحانى ، الذى رافقنا فى الرحلة، عندما مرُّبنا ، اعترض هو الآخر على تصرفات ابن قبيلته . وعليه عندما وجد حوريش أن الكل يعارضه ، رضىخ (كما هو حال البدو دائما) لرأى الجماعة وانصاع له .

وبينما كنا نرحل فى فترة برّاد مطلع النهار ، وافقت على أن يركب حوريش ناقته فترة من الوقت ، تلك الناقة التى كانت تحمل أمتعتى ، ومضينا قدما خارجين من الهواء الساكن الراكد ومبتعدين أيضا عن طاعون الذباب الذى يعيش فى الواحات . كانت ظلال الجبال المرتفعة تنعكس على المسار الذى نسلكه : ثم وصلنا إلى مقدمة صخور المقابر فى الخريبة ، وواصلنا مسيرنا نحو أسفل الحرة ، تاركين الطريق المؤدى إلى الحجر يصعد فى اتجاه جانبنا الأيمن . كنا نرى من أمامنا أرضا لامعة من الصلصال تنمو فيها كتل من العشب الطويل ! وفى هذه المنطقة كان يتعين علينا تجاوز دغل من أشجار الطرقاء ، التى كان بدو الحويطات يتخنون منها مكننا لهم فى معظم الأحيان : من هنا كان البدو عندما يقتربون من ذلك الدغل يستحثون نوابهم كيما يتجاوزوه عدوًا . ولم تتمكن ناقتى العجوز من الجرى إلا مثل جمل من الجمال . ركبت الناقة ، محاولا تمالك نفسى من فوقها ، فى الوقت الذى جرى خلاله حوريش بناقته مبتعدا عنى . وعندما وصلنا إلى مسافة بعيدة فى الأخر Akhmar ، شاهدت رفيقى مرة ثانية ، وناديتهم قائلا : " طالما أنه سيفقد نفسه لوحده على الناقة ، فهل له أن يعطينى سيفه القصير ؟ " - كان مسدسى مربوطاً داخل خرج الجمل الذى كان موضوعا على ظهر ناقته . ورد على حوريشن قائلا : " إنه سوف يهرب فى ظل أى خطر من الأخطار التى يمكن أن تتهدده ، دون أن يلقى بالا أو اهتماما ! وما هو السبب الذى يجعله يعطينى السيف ؟ وأنتى إذا لم أكن قادرا على العدو بناقتى ، فسوف يتخلى عنى ويتركنى " . ولم ينتظر ذلك الرفيق بعد ذلك ولو للحظة واحدة . هذه السرعة أوصلتنا إلى منطقة الحوارء Howwāre : - هذه الرأس السوداء المستوية لها علاقة

بالبازلت ، الذى انساب عليها من العويرض بطريقة متساوية ، ولكن ذلك البازلت مفصول هنا عن الجبل ، إذ بينه وبين الجبل مسافة تقدر بمئات الياردات !

عندما بدأت الشمس فى الغروب طلبت من رفيقى أن ينتظرنى ، ونزلت من فوق ناقتى ووقدت على الأرض وأنا أشعر بالإعياء التام . وهنا وافق رفيقى على أن أركب أنا ناقتة ، شريطة أن أضع أكياسى الثقيلة على ظهر ناقتى . - "ناقتى المحملة لا يمكن أن تحمل راكبا ، ولكن يمكن لك أن تركب خلفى" . - المسافة ليست بعيدة ، وأنا سوف أمشى سيرا على أقدامى . "ساعدنى رفيقى على ركوب الناقة ، وعندما أصبحت فوق الناقة ، جرى مسرعا وتناول لجام ناقتة مرة ثانية . واستخدمت عقبى فى استحثاث الناقة على الجرى بسرعة ، ونظرا لأنى كنت أحس بارتاح ، ونظرا أيضا لأن الحظ كان فى يدي فقد مكننى ذلك من تحقيق شئ من التميز على حوريش ، بليد الحس ، والقوى جداً ، والمسلح أيضا بسيف : هذا يعنى ، أنتى إذا ما دعا الداعى ، يمكن أن أشق طريقى إلى الأعراب فى وادى تربة ، أو عبر السهل إلى قلعة مدائن صالح . وعندما نظرت حولى ، وجدت ذلك البدوى الثقيل قد ركب فى صمت على ظهر ناقتى المسكينة . وطلبت منه النزول من على الناقة وأن يسير معى على قدميه ، ولكنه استحث الناقة العجوز وتجاوزنى ، بطريقته الفجة فى الركوب . ناديت عليه ، وطلبت منه النزول من فوق الناقة ؛ وعندما سمع خطو ناقتة السريع التى كانت تحملنى ، انطلق نازلاً إلى الأرض من فوق الناقة ، ثم وقف على قدميه ونظر إلى نظرة كان يخشى معها (حسبما أكد هو بعد ذلك للأعراب - إذا لم يكن يعرف أنى مُسلحٌ ،) أن تخترق الطلقة التى سيطلقها النصرانى جانبيه . - واعتبارا من ذلك الوقت ، بدأ حوريش السير على قدميه ، وكان يجرى من حين لآخر للإمساك بلجام ناقتة ، ولكنى كنت أفلت منه بسرعة . "على Aly هونك houn-ak ، على Aly هونك houn-ak يا خليل Ya khallil ! " بمعنى "تمهل ! انتبه إلى الناقة ،" هذا هو ما قاله ذلك الأهمل ، الذى يتصرف على هذا النحو ، بالرغم من أنى هبأت له ركوبا مريحا . خطر ببال ذلك البدوى ، وهذا هو حال الببو ، إن النصرانى جرده من ناقتة وأنه سوف يفر هاربا بها . "وأنا حتى لو كنت لصا من اللصوص فأنا لا أعرف طرق هذه البلاد أو دروبها ، أو كيف لى أن أضحي بناقتى هى والأغراض التى عليها ؟" - "واله - إنها لتهدئة ، يا خليل . " - "آلسنا

رفاقاً؟ " - "أنا لم أكن أبغى شيئاً سوى شرب القليل من الماء " - "هيا ، تعال وأشرب أنت أيضاً ، ثم اركب خلفي . "واقتربت بعد أن شربت وركبت خلفه ورحنا سوياً نقود الناقة التي كانت تحمل الأمتعة .

عند بداية الوادى غير حوريش خط سيره ليكون وسط أحواض وضياف خالية من المسارات وعامرة بالأحجار المتدحرجة وقنوات السيل المتآكلة ، بدلاً من السير أسفل الصخور القريبة . ولم يستطع الوقوف على السبب الذى دفعه إلى مثل هذا التغيير ، إلى أن سألنى حوريش فى صوت صغير خافت "هل الأشباح التى فى هذا الوادى أشباح نصارى أم أشباح يهود ؟" وهنا بدأ ذلك البأس يتخوف تخوفاً شديداً من النصرانى ، الذى سبق أن أساء إليه منذ فترة وجيزة جداً ، كان يخشى ويخاف أن تطبق عليه فى هذا المكان أشباح بعض من أسلافى . - "زاد على ذلك قائلًا : أه الملائكة ! "وعند اقتراب منتصف الليل كنا قد اقتربنا من المنزل القاحل ، الذى كانت الخيام السوداء الأولى فيه ، هى خيام حمدي : كانت كلاب الحراسة ما تزال صباحية ، وراحت تقفز وتعترضنا وهى تفتح أقفاصها ، . رددت (أسماء الكلاب) رشدان Rushdan وعديلة Adilla ! وعندها جاء هذا الكلبان يسعيان نحوى ويقتربان منى .

بعد أن نزلت من فوق دابتي صاح حوريش حقداً ، وهو يمضى قدماً : "أيها الناس ! ها آنذا أعيد إليكم ذلك وأنا لا أعرف إن كان - يهودياً أم نصرانياً . هؤلاء البدو الرحل الذين ينامون النهار ، يكون نومهم خفيفاً جداً فى الليل ، هذه هى سالة Salema العجوز سيئة الخلق والسلوك ، تخرج من بيتها فى الحال بصحبة بعض جاراتها ، ورحن يساعدننى على إنزال أشيائى ؛ - وهذا دور طيب تقوم به الحريم لمساعدة الرجل القادم من سفر طويل . وبالتالي فهن يطلبن منك شيئاً من التبغ . صاحت سالة : "أيتها الرغائيات ! " - كان مزاجها لا يشبع من الكلام البدوى القاضح الفاحش ، "آه . هى - هى - هى ! هذه هى صنيتك المدورة تعود مرة ثانية ! " هنا يحضر على الفور من الخيام المجاورة رجل أو رجلان ويجلسان إلى جوارى ليسألانى عن أخبار الواحة ، ويحصلان من العائد على شئ من التبغ . جاء هذان الرجلان وهما يرتعدان بعد أن استيقظا من نومهما ، وكانا يلفان عباةيهما المهلهلتان من حولهما ، وهناك فرق كبير بين درجة حرارة النهار ودرجة حرارة الليل ، إذ يصل الفرق بينهما

إلى ثلاثين درجة : قدم لى أحدهما سلطانية من الميسى ، وقامت النساء بنصب خيمتى ، ولكن خطر ببالى أن استلقى على الفور على الأرض فى ضوء النجوم ، - سوف يطلع الفجر الحار علينا خلال فترة وجيزة .

تبدأ حركة البدو مع طلوع النهار ، ويعد أن فتحت عينيى بقليل ، وجدت مشوات Mishwat واقفا على رأسى ، وجاء من بعده وعيل Wáyil ذلك الشيخ السرحانى العادل الودود : - ذهبنا سويا (عيل ومشوات) ليجلسا فى خيمة حمدي ؛ وعندما انضمت إليهما راحا يسألانى عن ذلك الذى حدث بينى وبين حوريش Horeysh . - وهنا أدركت أن رقودى فى العراء أحلم خارج الخيمة كانت له أخطاره . كان حوريش قد أتهمنى أمام أخيه الذى ينتمى إلى عائلة الشيوخ ، أن النصرانى كان سياتخذ منه سيفه ، ويهرب بناقته ، وأننى لعنت (وهذا لم يحدث) والدهما . - وهنا أقسم سيدان Seydan مع أول نوبة من نوبات ضيق صدره ونفاد صبره ، أن يقوم بعمل قاس تماما مقابل ذلك الخطأ الذى وقع على أخيه ، ونهض الرجل من مكانه "ليقطع رأس ذلك النصرانى ، على حد قوله " . ولكن الشيوخ عارضوه قائلين إنه لابد من سماع أقوال خليل ، كان مشوات صديقا لى من الناحية الفكرية ، إذ كان يكره "عدو الله" ؛ صحيح أن تلك الكراهية أفادته نفسيا إذا أراحت قلبه، ولكنه كان يشعر بالأسف عندما يرى أن ضيف أخته متهم فى أمر مميت أو مهلك : ولما كان وعيل رجلا ، بمعنى الكلمة ، رجلا كان يقف بجانبى فى المجلس ، هذا الرجل جاعنى بصمته الذى يوحى بالشفقة ، ليسألنى عن حقيقة ما جرى ، ومحاولا وضع حد للعنف المنتظر. وافق وعيل على ما قلته ، بل أن مشوات أيضا ، ظهرت فى عينيى ، أنه موافق وراض عن دفاعى عن نفسى . عندئذ جاء سيدان ؛ وعندما وجذنى وودا وهادنا بالفعل جلس إلى جوارنا . حييته بالقاء السلام عليه، ولكنه أشاح عنى بوجهه . ورجاه وعيل أن يعمل عقله فى الأمر ويتأمله جيدا ولكن سيدان رد قائلا: "الرجل نصرانى، وأنا أقول أقطعوا رأسه . ولن يكون هناك من يطالب بدينه نظرا لمقتله بأيدينا " . وهنا بدأ قلب سيدان يرق ويحن ، وسط هذا الكلام الكبير . وهنا انضم إلينا رجال جاؤا من البيت المجاور ، ليروا ما سيؤول إليه ذلك النزاع ، نظراً لأنهم يعرفون أن سيدان ، عندما يغضب ، يتحول إلى رجل خطير . وهنا تمكنت من الوقوف على ما يدور فى أذهانهم لأن منهم من أيدنى ومن عارضنى ووقف ضدى؛

وكان ولد الشيخ طُلُج من بين أولئك الذين وقفوا إلى جانب عبد الله ؛ هذا الولد أعطى صوته من واقع حقه الدفين "أننى كنت أنتوى الإضرار بحوريش Horeysh ، ألم يقل الحكماء "بعدم مصادقه الأحمق" ؛ ولكن ما الذى يمكن أن يفعله ذلك الذى يعجز عن الاختيار ؟ وقد يكون من الأفضل ، فى بعض الأحيان ، الاسترشاد بأحمق بدلا من الامتناع عن القيام بأى شىء على الإطلاق . لقد تسببت رفقتى مع حوريش فى ضياع زيارة خبير منى . كان يمكن أن أنزل ، فى خير ، ضيفا على الشيخ مطلق ، شيخ ولاد على ، الذى سبق أن زكأنى البعض عنده تزكية طيبة ، وكان بوسعى أيضا أن أتجه من منزل الشيخ مطلق مباشرة إلى بلدة حائل وأنا فى أمن وسلام . - وأنا عندما وصلت إلى خيبر بعد ذلك ، كنت قد لاقيت كثيراً من الآلام وواجهت كثيراً من الأخطار ، ولقيت فى تلك البلدة أسراً لا قبل لى به . هؤلاء الأعراب ، الذين يفضلون إنهاء الأمور على وجه السرعة ، حتى يعودوا إلى حالتهم الطبيعية ، نهضوا وذهب كل واحد منهم لحال سبيله بعد أن اقتنعوا بوجاهة دفاعى ومصادقته :

وهنا وضعت مسدسى Pistol تحت قبضتى واقتدت ناقتى إلى المسقى ؛ ولكنى عندما عدت أخفيت السلاح فى خيمتى ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى خيمة القهوة . حيث كان الشيوخ جالسين هناك. وجدت فى الخيمة كل من طليج، وحامد، ومشوات، ووعيل ، وداريش ، ولم يغب عن المجلس سوى سيدان ، جلست معهم وطلبوا منى . بعد ذلك أن "أحكى للشيخ عن مغامراتى" ، ثم بدأ مزاجهم يتحسن شيئاً فشيئاً إلى أن وصلوا إلى حد الابتسام . وهنا قال الشيخ طليج : "ما رأيك فى حوريش ؟" - "لن أعجب لو لم يكن رأسه متين Matin بالحيل hail-bil " بمعنى أنه "مخه متحجر" واستطلقت تلك الكلمات الضحك من أفواه الحاضرين . طُلُجُ : "والله إن حوريشا لفاسد Fasid (بمعنى "منحل أخلاقياً") . وهنا نادى حامد خليلاً قائلاً : "مُد إلى يدك يا خليل" ، وهنا قال كل من مشوات وداريش : "مد لنا يدك ، يا خليل ."- كل هؤلاء كانوا من شيوخ الموهاهيب بالإضافة إلى سيدان ، لم يستطع أحد منهم الامتناع عن ذلك الفرح والسرور البدوى ووسط ذلك المرح وصفاء النوايا ، وبعد أن راح كل واحد منهم يمسك بيدي اليمنى ، كان يتمنى لى دوام الصحة ، ويشكرنى قائلاً : "عافيه Afia عليك" . وهنا قال وعيل : "والله ، إنه يقول كلاماً لطيفاً ، إن خليل لا يكذب ."- (رد عليه طُلُج) صدقت والله !

وها نحن الآن قد تصالحنَا معك من جديد ، يا خليل ، وأصبحنا كلنا رجل واحد ، وأنت أصبحت مثل واحد من أبنائى : - وأردف الرجل قائلاً : أنت لست وحدك الغريب هنا فى هذه الديرة ، ولكننا جميعاً وافدين عليها ، و خليل "اختيار" Ikhtiyar (بمعنى أن قلبى لم يكن منفصلاً عنهم فى مسألة المرح والود والحب) ، إنه من الأعراب الطيبين ، بمعنى ، الإنجليز أعراب طيبين . "وعيل Wāyil : " قل لنا شيئاً عن نظرك الثانى ، يا خليل ، إقرأ لى ذلك المكتوب فى كف يدي . " (مد يده لى) . طُلُجُ : "نعم ، انتبه يا خليل البعض يقولون إن كلمة "سليمان" مكتوبة هنا . " - أنا لا أرى شيئاً ، ولكنكم لن تصدقونى . " قالوا : "والله ، خليل لا يخدع العرب . " - طُلُجُ : "ما رأيك يا خليل ، فى المهرة المربوطة هناك ؟ لقد اشتريتها من العنوز ، وهى ترضع ، ودفعت ثلاثة من الإبل ثمنها لها . "

الفصل الثامن عشر

الفُكارة يهضون الصيف في الحجر

طلُّج ينتقل مع معظم آل بيته . ظاهر . السموم . إنذار في الليل . الغزو . الجراد من جديد . ولد حوريش يعتدى على النصراني . ظاهر يسبك الطلقات . كلامه عن الملوك . مهر العروس . الدية . طريقة تحديدها . الفصادة . الاستعداد للذهاب إلى طُلُوج في وادي الشلال . سلامى . الناقة الخويرة تكتشف الطريق . الأعراب في الوادى . المصالحة مع حوريش . حكاية عبد الله الحاقدة . كيف يتجرأ النصراني على شن الحرب على الإسلام ! مبدع الأغاني والأناشيد . أسطورة الكنز المسحور . ابنة ظاهر زوجة طُلُوج . عبوس الرعاة البدو (المستمر) . أضحية مشوات . نزاع القبليين في العويرض . المرور وحيداً إلى مدائن صالح . الشيخ الفُجيري يمكن معرفته من بعد . تعال لزيارة الفُكارة مرة ثانية . زيارة الحاج نجم في القلعة . شيخ متزمت من ولاد على . كلام مطلق وكلام طُلُوج إلى النصراني . إبراهيم عمود الحج . آثار الحجر . غزوة من غزوات المهنا . السلالة النسبية للشرارات والتي يجهلونها . شيوخ المواهب يركبون مطاياهم قاصدين ابن الرشيد للتعبير له عن خضوعهم له . دفء الهواء أثناء الليل . الزواج من من زوجة العم المطلقة . زيارة العلامة مرة ثانية في أوائل موسم التمر . هويشيم . شهر رمضان . حرارة الصيف في الحجر . نُزُوح Therrÿeh أكبر أبناء مطلق . حاج سورى يعيش مع أعرابنا . نخيل القلعة . أمسية مع الحج نجم . رحلة جديدة إلى العلا . إنذار أثناء العودة في الليل . داريش ودولان يعثران على آثار أقدام حوريش .

أسفرت مغامرة حوريش الفاشلة عن تعزيز موقفى عند الشيوخ ، نظرا لأن حورش كان رجلا ملفوظا بين هؤلاء الشيوخ ؛ ولكن ذلك أثار نوعا من العداء العام المتشدد الذى جعلهم يظنون أنهم أصبح لديهم من الأسباب ما يبيح لهم الثأر من النصرانى . وعقب ذلك مباشرة ، انتقل الشيخ طُج ومعه القسم الأكبر من الأسر ، إلى وادى Wady شلال Shellal على بعد مسافة مسير ثلاث ساعات تقريبا ؛ ولكن أهل منزل حمدي ، وأهل منزل ظاهر Tháhir ، ولد عمها بقوا فى وادى تربة . وفى اليوم التالى ، وتحسبا للصوص الليل ، ضمنا منزلا إلى منزل ظاهر ، الذى كان مقابلا لنبع الماء العالى . هذا يعنى أن ربات البيوت ، فى منزلنا ، سوف ينصبن خيامهن بالقرب من الماء ، حيث ينتشر روث الماشية على الأرض كلها فيما عدا مكان واحد فقط ، اكتشفته عندما كنت أستطلع الأرض بغية النزول فى مكان بعيد عن ذلك الروث . وهنا تناولت حمدي فى يدها قبضة من الروث وقالت لى : " ما العيب فى هذا ؟ " فأننا أشم رائحة هذا الروث ، كما أننا يمكن أن نضعه أيضا فى أفواهنا ؛ إنها رائحة معيشتنا ، وهى رائحة حلوة عند البدو . اتجهت بعد ذلك لنصب خيمتى إلى جوار خيمة ظاهر . ظاهر هذا ، كان رجلا محترما ، يتمتع بشيء من الوعى الطبيعى الحر ، وهو حاليا فى سن متقدمة ، وروحه قوية وبدنه قوى أيضا شأنه شأن كل أولئك الذين عثرت عليهم بين البدو ؛ وقد قمت بعلاج زوجته من التهاب فى عيناها .

لم يكن التكاسل الشديد فى الخيمة من مسئولية ظاهر ، نظرا لأنه كان مشغولا بل وعلى استعداد أن يأخذ على عاتقه كل مسئولية من المسئوليات العامة . كان ظاهر يلبس ثوبا عربيا طويلا ، الذى يلبسه الرعاة ، ويصل طول ذلك الثوب إلى ما فوق ركبتى ظاهر . ولم يكن الثوب يغطى أطراف ذلك الرجل أيضا . كان ظاهر وحده ، أو بصحبة رفيق آخر يختاره هو ، يركب ناقته ، فى معظم الأحيان ، ويتقدم القليلين من البدو الرحل ، حتى يستطلع لهم الصحراء من أمامهم ؛ فى بعض الأحيان كان ظاهر يقع فى كمين من الكماثن التى كانت تنصب له لأخذ الناقة منه ، أو للقضاء على الحياة الإنسانية الغريبة التى كانت تقع داخل نطاق المدى الذى تصل إليه طلقات بنديته : وقد أخبرنى أبناء ظاهر أنه لم يكن يدخر وسعا فى القيام بأى شيء ، - وهكذا نجد أن الضرورة هى التى تشحذ هم هؤلاء البدو إلى حد انعدام الضمير ،

فى العنف الذى قد يأتونه خارج أراضيهـم . كان يمكن لظاهر هذا ، الذى أصبح حاليا فى منزلة "عمى" بل وصديقا مخلصا ، أن يكون هو قاتلى ، لو أنه التقانى قبل ذلك فى الصحراء ؛ هذا الرجل الصحراوى كان صيادا ولا كل الصيادين من أهل قبيلته ، ولا أبالغ إن قلت ؛ إنه واحد من بين الصيادين القلائل بين البدو . تلك كانت ابنته الجميلة الطيبة ، التى كانت أجمل جميلات البدويات الشاباـت ، والتى أنجبت للشيوخ طُلجَ طفلا فى الأجرة Agorra ؛ - كان ذلك العجوز قد قال عندما طلب يدها إنه يتمنى أن تنجب له طفلا شبيها بأبيها . كنت أمضى القسم الأكبر من وقتى ضمن جماعة ، أو إن شئت فقل : صحبة ظاهر ؛ كان ظاهر صاحب فهم ووعى أكثر نضجاً عن أولئك الذين يحيطون به ، كما كان كلامه سمحاً وترحابه ملحوظا ؛ وقد أمضى ذلك الرجل سنين حياته بدويا وفى هذا النوع من الحياة التأملية أكثر من مجرد الحصول على المعرفة الطبيعية . كان ظاهر حاد البصر وكانت قدرته البدنية على التحمل عالية جداً ، كما كان أيضا واحداً من بين البدو القلائل الذين تربوا على الغزو ؛ لقد غنم الكثير من الإبل ، إلى حد أنه تحول من رجل "ضعيف" فى بداية الأمر ، إلى أن أصبح الآن من بين أوائل الرجال الذين يشتهرون بكبر أعداد مواشيهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ظاهراً بحكم شخصيته القوية ، وبحكم حصافة عقله أيضا ، كان بمثابة زعيم القسم الفقير من بين أفراد القبيلة . (" قال لى ذلك اللص القوى وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة الرجولة) يا خليل ، لماذا تبحث عن الحليب بعيدا عن هنا ؟ فى الوقت الذى أملك أنا فيه نياقا كثيرة . ومع ذلك ، لجاَ ظاهر ، فى يوم عودة الإبل إلى المنزل ، إلى الماطلة فى التنفيذ . هذا الظاهر ، بعد أن خلط الحليب بالماء ، وبالرغم من أنه كان مدينا لى بأجر علاج عين زوجته ، لم يرسل لى سوى جرعة صغيرة من ذلك الحليب المخفف ؛ ولكنه أعطانى تلك الجرعة بوجه بشوش تماما .

عندما كان الجوع يعض ظاهر بنابه ، كان يسارع إلى حمل بندقيته الطويلة ، ويأخذ معه حفنة من المريسى ، وينطلق سعيا إلى إسكات ذلك الجوع ، ثم يغيب بعد ذلك عن الأنظار ؛ وقد اشتهر عن ذلك الرجل أنه يغيب نهارا من نهارات الصيف وليلة من لياليه ، يعود بعدها مرهقا ومتعباً فى الصباح ، قادما من مسافة بعيدة ، تمكن فيها من التقاء واحدة من الماعز البرية أو ظبيا من الظبيان ؛ - يضاف إلى ذلك ،

أنه يكون قد وقف على دلائل وعلامات ذلك الذى حدث مؤخرا فى الصحراء . لم يكن غبار المغامرة الأخيرة مع جوريش قد اختفى وضاع ، وكان من المفيد لى البقاء داخل إطار صداقة هذا الرجل ، الذى دافع عن قضيتى ولم يخش أحداً عندما وجه لومه إلى الطرف الآخر . - هبت علينا فى ليلة من تلك الليالى ريح قوية من رياح السموم ، - ريح السموم هذه ، هى تلك الريح التهامية الساخنة التى تهب على الحرّة : هذه الريح الخفيفة المقلقة لا يمكن أن توسع الصدر أو تنشط الدم ، ومن ثم تكون تلك الريح متبوعة بشئ من التوعك وآلام الرأس ، أو إن شئت فقل : الصداع . هذه الرياح الساخنة التى يقول الأعراب عنها إنها "موبوءة" تشيع وتستمر إلى منتصف فصل الصيف كل عام ؛ ولكن أحداً من أولئك البدو الذين تحدثت معهم حول موضوع ريح السموم ، لم يقل ، أو يذكر لى ، أن أحداً مات بسبب هذه الريح . - لقد اكتشفت أن ريح السموم تهب طوال الجزء الأكبر من العام على الصحراء العالية فيما بين القصيم وديرة مكة المدارية ، التى أمضيت فيها أحر فترات فصل الصيف ، حيث يكون الجو مشتعلاً أثناء طلوع الشمس : لقد أصابنى الإعياء التام مرة أو مرتين عندما كنت فوق تلك الصحراء العالية . يقال ، إن الإبل ، قد تموت فوق تلك الصحراء العالية بسبب قلة التنفس ، أثناء هبوب تلك الريح الحارة أو الساخنة : التى تجلب الدمار لتلك الماشية الضعيفة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن تلك الريح الحارة تقضى أيضاً على السواد الأعظم من الأعلاف البرية الضعيفة . وبعد اجتيازى وادى فاطمة بوقت قصير جداً ، سمعت فى جدة أنباء عن نفوق الكثير من إبل القرويين بسبب ريح السموم .

استيقظت أثناء الليل ، مذعورا من نومى ، على إثر شائعة راجت وانتشرت فى خيمة ظاهر Tháhir ، - كان الناس يجيئون ويروحون هنا وهناك ، فى ضوء النجوم : لم أتمكن من معرفة كنه ذلك الذى كان يدور فى المكان ، ولكن ما على مما يدور ، نظرا لأن مصيرى أصبح مرتبطا بمصير ظاهر ؛ يضاف إلى ذلك ، أن عودتى إلى النوم مرة ثانية ، لن تفسد على متعة حياتى الوحيدة . تناهت إلى مسمعى قبل طلوع الصبح قافية غريبة عذبة كان يتغنى بها صوت واحدة من النساء (كانت تلك القافية شبيهة بالتفريد السعيد الذى يصدر عن طيهوج الخشب فى شمالى أوروبا) وما تزال إلى يومنا هذا عالقة بذاكرتى ولا تغيب عن بالى . ومع تساؤل أضواء النجوم ، نظرت إلى

الأعلى ، فرأيت شخصا يقف عند رأسى ، واحد من البدو له شكل كشر ؛ كان ذلك الشخص يحمل بين ذراعيه كتلة كبيرة من البازلت ، ثم تظاهر بحركة من حركات التضليل ، عندما وجد عيناى مفتوحتان ، بعدم إلقاء تلك الكتلة وتركها تهوى على صدره . "صاح الرجل ، أه ! يا ملعون ، أنت أيها النصرانى الذى تنام هنا ! لو أنى هويت بذلك الحجر عليك ، فسوف يقتلك وبذلك أكون قد قتلته عدوا من أعداء الله . " كنت أعرف أن ذلك الشخص الحاقد ، واحداً من الرجال الذين يتسمون بالخلج والتصرفات السلوكية الوحشية ، كما كنت أعلم أيضا أنه مكروه ولا يرحب به أحد فى خيام تناول القهوة . هذا الشخص كان يود أن يصب على جام غضبه على إثر الاتهام الدينى الباطل الذى وجهه حوريش إلى مؤخرى . وعندما أدرك أنى لا أوليه بالا. أو اهتماما ، ونظرا أيضا لأن حملة كان ثقيلًا ، فقد قام بالتخلص من ذلك الحمل بطريقة متدرجة وذهب إلى حال سبيله وقد تكونت لديه عن النصارى فكرة أقل حقدًا وتعصبًا ؛ ولم يعد ذلك الشخص يضايقنى بعد تلك المرة .

كانت قد وصلت من الحرة أثناء الليل أخبار من الشيخ طليح فى وادى شلال :-
 تمكن كل من داريش ومعه حليلة Haleyma ، تلك المرأة الفجيرية التى تعيش معنا ، تمكنا عندما كانا راكبين فى اتجاه بدو الفجير ، من مشاهدة غزو قوامه أكثر من مائة رجل ، يركبون نياقا ويقتادون معهم بعض الخيول ، وكانوا يمشون فى سهل الحجر ! ولم يستطيعا تبين القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الغزو ، - وربما كانوا من قبيلة بشر التى يخافها البدو ويخشونها . سألت ظاهراً ، "ألم يمر ذلك الغزو وينتهى ، فما الذى يخيفك الآن ؟" - "أخشى أن يتجه ذلك الغزو إلى وادى تربة طلبا للسقى والماء . " قالت زوجته "نُهَجْ Nuhej بمعنى "سوف نهرب بلا مقدمات أو إنذار" فى فترة العصر ، شأنا فى ذلك شأن إبل الحمل والنقل - وكانا قد أرسلنا فى طلب إبل النقل تلك أثناء الليل - عندما تصل إلينا . " - "ماذا لو وجدوك متأخرا ؟" - ظاهراً : "سوف نتسلق جانبى الوادى ونفتح النار عليهم ؛ المواءيب لا يكون على أى شىء ، وهذا شىء مشهور عنهم ، عندما يكونون وجها لوجه مع أعدائهم." تأكد كل من داريش وحليلة ، بعد ذلك ، أن ذلك الغزو الكبير قد تجاوزهما وانتهى أمره ، ولذلك أعادوا إبل النقل الى المرعى فى الحرة مرة ثانية .

هذا هو اليوم الأخير من شهر يوليو ، ونحن نحس خلاله بالبراد والانتعاش ، مع ذلك كانت درجة الحرارة فى الظل حوالى ٩٧ فهرنهايتية . وهنا بدأ البدو يقولون إن حمى هواء منتصف الصيف قد بدأت تتحسر ، ولكن ظاهراً ، بحكم كونه أعلم الجميع فى مدرسة البدو قال : إن بعض النجوم الحارة سوف تظهر عند الأفق بالرغم من كل ذلك ! وقال أيضا : إن أشد فترات العام حرارة ستحل بعد شهر من الآن . سرى الذعر والاضطراب بين الناس فى الصباح عندما سرت بينهم أخبار الغزو ، الأمر الذى منعهم وحال بينهم وبين مغادرة المنزل إلى منزل آخر ؛ لو كانت مواشى هؤلاء البدو فى الحرة فى ذلك الوقت ، لكانوا قد فقدوا . فى أسوأ الأحوال ، كل متاعهم ومقتنياتهم وثروتهم أيضا . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الخيام ، السوداء المنصوبة بطريقة غير منتظمة فى الأرض البركانية غير المستوية ، لا يستطيع أحد تمييزها أو التعرف عليها من بداية الوادى التى يبعد مسافة خمسة أميال عن هذا المكان . سالت ظاهراً إن كانت تلك الجماعة المسلحة من بدو الفكارة ؟ ولكننا عرفنا فيما بعد أن تلك الجماعة المسلحة كانت من بدو الفجير ، الذين لم يسبق لهم القيام بالغزو منذ زمن بعيد ؛ وها هم يقومون بالغزو ومعهم بعض أفراد قبيلة البشر ، وكانوا يشنون ذلك الغزو على بنى عطية . بلغنا بعد ذلك أن أولئك الغزاة استولوا على ثلاثين جملاً . تساءلت : ألم يأخذوا أكثر من ذلك ؟ وأجابنى الشيوخ ، ولكن هذا عدد كبير من الإبل . كنت فى فصل الخريف قد سمعت مطلق زعيمهم ، يتفاخر بأن ذلك الغزو كان غزوا بمعنى الكلمة عندما قال : "إى ، والله إنه غزو بحق" - لقد سطوا على هجرة (قرية صغيرة) من هجر أعدائهم فى المساء ؛ وهنا هرب كل من كانوا فى البيوت (الخيام) عندما شاهدوا الأعداء ، وهنا تقدم البشر وحدهم وراحوا يجوثون خلال الجاو Jau ، ليسرقوا الماشية من تهامة ؛ وفى فترة متأخرة من النهار ، وعندما وجدوا أطفال البللى يرعون قطعان الغنم - أجبروا هؤلاء الرعاة الصغار على أن يقولوا لهم أسماء ملاك الإبل والأغنام ، وهنا بدعوا يذبحون حيوانات من يشاعون من تلك الأسماء . وذبحوا من تلك الأغنام "خمسین رأساً لتكون عشاء لهم" - ولكن نظراً لأنهم كانوا هنا على مسافة بعيدة (تزيد على مائة ميل) من ديرتهم ، فإنهم لم يأخذوا معهم أى شئ من الماشية الصغيرة بطيئة الخطى .

شاهدنا بعد ذلك "جحافل" من الجراد ، كان ارتفاع هذه الأرض القاحلة يبدو كما لو كان فوق مستوى التربة ، أثناء هبوب ريح المساء ، وكان ذلك الارتفاع يبدأ من ناحية الغرب متجها صوب كل من قرية العلا el-Ally وخيبر : فى هذه المنطقة شاهدنا سحباً كثيفة من الجراد تهفّف بأجنحتها وهى تمر علينا دون أن تحدث أثراً كبيراً على ضوء الشمس الذى كان أخذاً فى التضاؤل .

عندما وصلنا المسقى التالى اتجه نحوى صبى (واحد من أولئك الذين يرافقون الماشية عند عودتها من الجبل) كان يحمل رمحه معه ؛ ولكن الواقفين منعه من الوصول إلى . كان ذلك الصبى واحداً من أبناء حوريش ، ولو تمكن لثأر لوالده من التهمة التى افترأها والده على النصرانى ؛ - وهم هنا لا يعدون قتل الشخص الأعزل نوعاً من الخيانة . جلس ذلك الصبى بعد ذلك فى خيمة ظاهر ، فقد كانوا أبناء عمه . ولكنه كان أفضل من والده ؛ وبينما كنت أتحدث مع ذلك الصبى هدأت ثورته . وفى يوم آخر ، وعندما كنت أستحم خرج علىّ من بين الأدغال شاب وقف يهددنى بحجر كبير كان يمسك به فى إحدى يديه ، بينما كان يمسك عكازه البدوى فى اليد الأخرى . وعندما عنفته بأنه وغد وقح ، تراجع ثانية ؛ وعندما عثرت عليه فى المساء عند المسقى سحبته أمام الناس جميعاً ، - كان بوسع ذلك الشاب أن يضربنى عندئذ بسيفه القصير، ولكن الواقفين منعه أو حالوا بينه وبين ذلك . كان ذلك واحد من أولاد الساقطة سالة Salema ؛ كان هؤلاء الأولاد من الرعاة الغائبين ، ولم يسبق لى رؤية وجوههم من قبل .

جلس ظاهر يصلح طلاقات لبندقية . وهو يشتري الرصاص المطلوب لصناعة تلك الطلاقات من سوق الحج ، أو من سوق المدينة المنورة . كانت الصبّة المعدنية تتم فيما بين لوحين من الحجر ، ، قام هو بنفسه بتشكيلهما ؛ (وكما يقال) فإن أعمال الطرق هذه هى من أعمال العرب المترحلين ، يضاف إلى ذلك أن شكل تلك الأعمال كان بدائياً ، كما هو الحال بالنسبة لتلك الأعمال البدوية التى تقوم بها غالبية أفراد هذا الجنس السامى غير الأنثى . كان ظاهر يضع كل رشّة من رشات الرصاص داخل حصبة ، وفوق كل حصبة كان يصب عليها غشاً سميكاً من الرصاص . قلت له : " طلاقاتك خفيفة جداً ، وليست متمركزة تمركزاً جيداً كما إنها ليست مستديرة ، فكيف يمكن لمثل

هذه الطلقات أن تطير بحق؟" - "ولكن الرصاص عزيز في هذا البلد." كان ظاهر يرى أنه يوسع عن طريق هذه الكرات البدائية الرمي على هدف طوله ذراع واحد ، ومن مسافة مائتي خطوة؛ ولكنه اعترف بأن ذلك لم يكن يوفر عليه نقوده، إذا لم يكن الغزال أو العنزة البرية التي يصطادها تساوي ريالين أو ثلاثة ريالات . هذا الظاهر الذي كان يتمتع بذهن حر وصريح ، وهو ما يميز الرجل القوي صاحب الفهم الجيد ، لم يتشكك فيّ عندما كان يجيب إجابة أمينة على تساؤلاتي التي كنت أطرحها عليه حول بلاده (على قدر معرفتي بتلك البلاد في ذلك الوقت) . كنت في هذه الأحاديث وفي الأحاديث الأخرى ، أمضى ساعات طوال من ساعات أيام الصيف شديدة القيظ ، ومع ذلك كان كلام ظاهر يتجه دوما صوب الدين ، وإلى الانفعال الطائفي عند أولئك الساميين ؛ كانت رؤية روح ذلك الرجل شديدة الوضوح ؛ وعندما كنت أتجراً وأسأله ، "أليست عبادة الناس للمنهل تجديفاً في حق الرب ، بل وأثر من آثار الخرافات الوثنية في ديار بدوكم الرجل؟" ويعد أن تأمل ظاهر رأى الملائكة هذا ، لمدة لحظة واحدة ، ذلك الرأي الذي تربى هو نفسه عليه ، رد على سؤالي وهو يحس بالحرج والضيق قائلاً : "لا ، والله ، هذه العبادة ليست عبادة طيبة ، إنها شكل من أشكال الخرافات ." كان ظاهر ، عندما يقوم الآخرون لأداء الصلاة ، تعتريه حالة من الحالات النفسية غير الصريحة أو المباشرة ؛ وعندما كان بعض الأشقياء ، يكابرون ويتحدون ذلك الرجل المحترم كان يقول لهم كلمة سريعة ، "اذهبوا للصلاة ! (ويتأجب بعد ذلك) " والله Wellah أنا ana عجزت ajizt " بمعنى "لقد سئمت ما أنا فيه ، أنا ، يا من أدعو إلى هذه الصلاة" ، - آدم طالت أيام انتظاره اعتماداً على عناية إلهية حانية من فوقه ، وما يزال فارغاً !

بعض البدو كانوا يُسلُّون أنفسهم بأن يسألوني رأيي في هذا وذاك من الأشخاص:- وكما هو الحال في كل الصداقات الصغيرة المألوفة ، تشيع بين هؤلاء البدو بعض شرارات الحقد التي تنبعث من القلوب. وأنا كنت، في بعض الأحيان أحاول الرد على تساؤلاتهم بطريقة تضمن لي الأمن والسلامة ؛ فقد سألني سليم Selim ولد ظاهر الكبير : "ما رأيك في مشوات Mishwat؟" - "أليس هو مكسور الرأس إلى حد ما؟" - وما إلى ذلك من الكلمات ، التي تحظى في نفوسهم بالقبول ، ويستقبلونها بالضحك من القلب وتثير لديهم الدهشة والعجب .

هذا هو سليم قد عاد إلينا ثانية قادماً من وادى العروش ، الذى ذهب إليه طلباً للغزل والتودد ، تمهيداً للزواج . كانت أم سليم قد أبلغتني أنهم لن يدفعوا مهراً ، نظراً لأن الكُنة ، أو إن شئت فقل : زوجة الابن تعد واحدة من أقاربهم : هذا يعنى أن والد العريس سوف يقدم فى زواج ولده ناقتين وعدداً من رؤس الماشية الصغيرة . معروف أن غالبية البدو لا تسمح دخولهم الهزيلة بدفع أية مبالغ لزيجاتهم ، هذا يعنى أن البدو نادراً ما يدفعون مهراً أو صداقاً للإناث . يسود بين هؤلاء البدو نوع من أنواع الخرافات ، مفاده أن من يستطيع الدفع بالإبل ، سوف يعفى نفسه فى كثير من الأحيان ، من كثير من الريالات . والشخص عندما يُرى ساحته من دية من الديات - التى تقدر بأربعين ناقة عن القتل - فى الوقت الذى لا تزيد فيه ثروته الحيوانية كلها عن أربع أو خمسة من الإبل ، يشعر بالسعادة لأنه سيكون له أصدقاء كثيرين سيقومون بالتوسط له . من ذلك مثلاً أن بندقيته التى قد لا تساوى ثلاثة أو أربعة ريالات ، سوف يدفعون فيها ثلاثين ريالاً ، بدلاً من الجمل ، كما يشترون وعاء طبخه بخمسة عشر ريالاً ، كما يشترون أيضاً سيفه الذى لا يصل ثمنه إلى ثلاثة دولارات ، بما يساوى عشرة دولارات . كل صديق من أصدقاء هذا الرجل سيقف إلى جانب المطلوب منه دفع الدية كيما يسد له شيئاً نظير الصداقة ، ومن أجل عيون المعرفة الطيبة "أيها المرتاد! أنت يا عبد الله ، تنازل له عن ناقة، أقول تنازل له عن هذه الناقة ، حبا منك لى . " ولكن "صاحب الدية" قد يزيد الأمر غرابة ، ويقف منهم موقف التاجر . لأن مثل هذا الموقف يكون لمصلحته ولفائده . - وهنا تسقط هذه الجريمة ، ويقوم كثير من الأشخاص غير المبالين بإعطاء أصواتهم لصالح القبلى المخطئ ، حتى يمكن استعادة السلام والأمن عن طريق المنطق والعقل : وإذا ما تبقى من الدية شئ ، يتعهد أصدقاء المخطئ بدفعه على شكل دفعات محددة .

أحس ظاهر بشئ من الصداق النصفى ، وطلب من ولده سليم Selim أن يستنزف من عنقه قليلاً من الدم . وهنا تقدم ذلك الشاب ، الذى ورث عن والده مهارة يدى الصياد ، ومعه قرن من قرون البقر ، مثقوف من طرفه . وبعد أن أحدث بسكينه جرحاً فى عنق والده ، راح يمص الجلد ، ثم أغلق فتحة الجرح بقطعة من الجلد كان يضعها فوق لسانه بالفعل . عندئذ قام ظاهر الذى أحدث له ولده حجارة فى كل من

الرأس والعنق ، والظهر ، وبعد ان استشعر شيئاً من التخفف ، بتغطية الدم المستنزف بشيء من التراب ، وهنا دخل علينا رجل يسأل : " ما هذه الكومة ؟ " وأجابه ظاهراً : " إنه دم قمت أنا بدفنه . " معروف أن كل منازل البدو الكبيرة فيها الكثير من أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعالجون بالفصد ، وبالكى ، ويخلعون الأسنان ، فضلاً عن الحلاقين . وفى أحيان كثيرة تنتج قرح جلدية عن عمليات الكى ؛ وقد أطلعنى بعض مرضى الدم على قرح كثيرة من هذا القبيل بعد أن مضت عليها سنوات طوال . ونرى بين هؤلاء البدو أيضاً بدويات شابات لم يتورعن عن وسم وجوههن تخفيفاً للصداع وعلاجاً له .

عاد أبو سنون إلينا بسلامة الله . مرة ثانية ؛- وبذلك يكون قد قطع ثلاث رحلات صيفية فيما بين تبوك وقرية الوجه .بقى أبو سنون صامتا طوال سبعة أيام ؛ وبعد تلك الأيام السبعة ، وبعد أن أحس بكثافة هواء الخيمة وثقله علينا ، كان على استعداد للمشاركة فى الغزو ، الذى سوف يتولى حامد قيادته ، خلال أيام-قليل . لكن لماذا تفنى حياتك بهذه الطريقة ؟ هل محمد بدوى حتى يذهب لسرقة الماشية ؟ ثم رفع رأسه بعد ذلك إلى أعلا وقال " طمع Toma يا خليل ، قالها وهو مهموم ، إنه الطمع Tomal ، إنها الرغبة فى الاستحواذ ، والاستحواذ على المزيد ، وهذا هو حال هذه الدنيا ؛ وأنا أعيش مع البدو ، وأفعل مثلما يفعل البدو ، يضاف إلى ذلك أنى قد أكسب جملاً أيضاً .- عقدت العزم على الانضمام إلى أول جماعة مسافرة ، قاصدا الأعراب فى وادى شلال Shellal ، قبل أن أموت جوعاً هنا فى هذا المكان ، نظراً لأن تلك المؤن التى جلبتها من ولاد على كنت قد أعطيتها لحمدى Hamdy . وأنا إذا ما وصلت إلى ذلك الوادى المنخفض ، سأكون على بعد مسافة قريبة جداً من الواحة . وبناء على ذلك ، يمكن لحمد الذى سوف يتجه إلى البلدة فى غضون يوم أو يومين أن يتركنى عند بداية ذلك الوادى .

وفى الصباح ، وعندما كانت الماشية عائدة من المسقى ، أخذنا إيلنا وركبناها . وودعنى ظاهراً وداعاً حانياً متمنياً لى " السلامة " ؛ ومضينا فى طريقنا قدماً ، وسرعان ما ضاع من ناظرى منظر البيارة الخضراء فى ذلك الوادى القحل . رافق سلامى Salamy أبو سنون ؛ وسلامى هذا شقيق لظاهر ، ولكنه مختلف عنه تمام الاختلاف ، كما رافقهما أيضاً شخص يدعى هادى الطوالى ، الذى كان متزوجاً من شقيقة سيدان .

كان ذلك اليوم يوافق الأول من شهر شعبان . كان ينتظرنا على الطريق صبي ، طلب من واحد من جماعتنا أن يركبه معه ، إذ كان هو الآخر مسافرا إلى وادي الشلال ؛ كان ذلك الصبي واحداً من أبناء حمدي من زوجها البدوي السابق . مثل هذا الطلب لا يرفضه القبليون . فقد طلب ذلك الصبي من سلامي أن يركبه معه ، فرد عليه قائلاً : " لا ! " ولكنه سرعان ما ناداه على الفور قائلاً : " هيا ، تعال واركب معي . " وبالقرب من بداية الوادي ، تركنا طريقاً من طرق الأغنام ، يقع على حافة العويرض ، في منطقة يصعب على الإبل السير فيها . كانت إبليم كلها متخففة من أحمالها : وبينما كنا نسير على أقدامنا كنت أتطلع كل لحظة إلى ناقتي العجوز المحملة ، وأتخيل أنها سوف تنزلق وتهوى ساقطة من ذلك الجرف . - ربما كان في ذلك شيء من الحقد من جانب سلامي Salamy ؛ ذلك الرفيق المزور ، الذي اقتادنا ، وعلى غير رغبة الجميع ، إلى النزول إلى ذلك الطريق الوعر الخطير .

نزلنا بعد ذلك بنصف ساعة ، إلى أرض الوادي المنخفضة ؛ التي عثرت فيها على عشب طويل يشبه عشب الرياح ، ولكني لم أر ذلك العشب من قبل . ثم تجاوزنا بعد ذلك المزيد من السلاسل الجبلية ، ومن بعدها الوادي العظيم التالي لها ، لنصل ونصبح على مقربة من وادي الشلال . كنت راكبا ناقتي في المقدمة مع سلامي . - " قال سلامي ، أعرنى وعاطك حتى أشرب قليلاً من الماء ، وضع لي في الوعاء شيئاً من الدخان (التبغ) . " - " الوعاء والدخان في قاع الخرج ، وأنا مرهق تماماً ؛ ولكني سوف أقوم بتجريك ناقتي ، وبعدها تعال أنت وخذهما بنفسك . " استقبل ذلك الرجل ردى هذا بابتسامة تنم عن عدم الرضا ، وبكلام خبيث ، في الوقت الذي كنا فيه على بعد خطوات قليلة عن المكان الذي سوف نفترق عنده إلى الأبد .

وصلنا بعد ذلك إلى شق في الجبل ، كان مفتوحاً على بداية وادي الشلال ، ونزل الصبي من خلف سلامي ، الذي أصدر تعليماته للصبي بآلا يدل النصراني على الطريق الموصل للأعراب ، وطلب منه إسراع الخطى ليسبق ناقتي بطيئة الخطى حاولت ناقتي اللحاق ببقية الإبل ، ولكني عندما برّكتها ربطت ركبتيهما عندما كانت بقية الإبل على مرمى بصرى . كان الممر الذي دخل منه الصبي يوصل إلى وادي بركاني شبيه بالسهل ، لم ألاحظ على صخوره الصلدة سوداء اللون أى أثر من آثار مواشى البدو ؛

ونظرا لأن أرض ذلك الوادى غير المستوية ، حجبت عنى رؤية ذلك الصبى ، فقد اختفى عنى تماما . ومضيت قدما فى اتجاه ارتفاع الوادى ، وهنا رأيت تحت قدمائى دغلا تتخلله النباتات الشوكية . وعندما ركبت ناقتى ثانية أبصرت الصبى أمامى . كما شاهدت الوادى الكبير منقسما من الأمام . أعطيت الخويرة (الناقة العجوز) رأسها . بمعنى "أعطيتها حرية الحركة ؛ ويعد أن نظرت الناقة حولها ظلت واقفة ، ثم بدأت بعد ذلك تتحرك وتمشى بطريقة أمنة ومطمئنة ، هين لى معها أن الناقة تعرف طريقها . هذه الناقة لابد أن تكون قد جرى سرقتها فى غزو من الغزوات التى وقعت لقبيلة حرب منذ سنين بعيدة . التقيت بشخص ، أو إن شئت فقل : بصاحب تلك الناقة ، وهو من قبيلة بشر ، فى بلدة حائل ، الذى أبلغنى أن تلك الناقة كانت تعرف الديرة كلها ، إلى حد أنها فى بعض الغزوات كانت "هى التى تقوم بعمل الدليل" . كما أخبرنى أيضا أن تلك الناقة كانت تعرف أيضا المكان الذى كنا نتجول فيه فى الحرّة ، وتعرف أيضا اتساع ذلك المكان من ناحيه نجد ؛ معرفة الأرض هذه كانت متيسرة لتلك الناقة فى كل مكان . وعندما رحت أعود بالناقة تمكنت من تجاوز ذلك الصبى التعيس ، الذى كان اسمه كرييش Kreybish ، الذى كان يتدارى خوفا منى ويفطى وجهه خوفا منى أيضا . ولما كنت أتوجه بناقتى صوب الذراع الرئيسية من الوادى المنقسم ، الذى بدأت تظهر فيه الكثير من أشجار الطلح ، بدأت الخويرة (الناقة العجوز) تبطنى الخطى ؛ شاهدت بعد ذلك بعضا من الرجوم ، كما شاهدت أيضا بعض الجدران المهذمة فى مستوطنة قديمة ميتة . تجاوزت بعض الصخور لأرى بعدها أول خيمة من خيام البدو . ولوح لى الجالسون داخل هذه الخيمة بأننى قد أجد الراحة عندهم ، كما أن هذه الخيمة كان مشوات Mishwat يقيم فيها معهم ، ومشوات هذا هو شقيق المرأة حمدى ؛ وهنا عقدت العزم على نصب خيمتى فى المنزل الذى فيه مشوات .

غيرت الأشجار والأحجار النظام القديم الذى كانت عليه هجرة hamlet البدو الرحل . عثرت على بيت مشوات أو إن شئت فقل : منزله . من قطعة من القماش الذى نسجته زوجته ، وكانت قطعة القماش تلك ، مفرودة ، مثلما كان الحال فى وادى تربة ، على الأرض أمام الخيمة ، التى كانت مغلقة بسبب حرارة الأرض الشديدة . قال صوت حلو انبعث من داخل الخيمة : "مرحبا بك" ؛ كان ذلك صوت زوجة مشوات ، التى كانت

تنظر من تحت حافة الخيمة ، وطلبت منى النزول عن راحلتى والدخول إلى الخيمة اتقاء للشمس . وهنا نهضت زوجة مشوات ، وخرجت من الخيمة لتحضر لى سطلا من الماء ، "لأنى ، على حد قولها ، لابد أن أكون مشرفا على الموت بسبب العطش " كانت حرارة الأرض الحارقة قد شوت قدمائى وأنا أنزل أشياءى القليلة من فوق ناقتى . وإذا كان الأعراب ، بسبب تشددهم وتطرفهم ، لم يستقبلونى استقبالا طيبا ، فقد رحبت كلابهم بمقدمى مرة ثانية : ها هنا من بين هذه الكلاب ذلك الكلب من كلاب حمدى الذى ضل طريقه وتبع الأعراب قادما معهم من وادى تربة ؛ هذا الكلب اسمه رشدان ، وقد جرى نحوى فرحاً ، متعرفاً على أبعد حد ممكن . عقل الطبيعة فى ذلك الحيوان المسكين يميز كثيرا عن أصحابه الأقل منه عقلا ، إلى حد أن هذا الحيوان لا يعرف أى فرق من الفروق بين النصرانى والمسلم .

ها هما مشوات وعبد الله قادمان من خيمة القهوة بعد أن شاهدائى وأنا أصل إلى منزلهما . وبعد أن تحسس مشوات ثقل صندوق الأدوية الذى كان برفقتى ، قال ، ها هى حزم خليل من الريالات " وفتحت الصندوق أمامهما ، وكان بداخله بعض العقاقير الثقيلة التى من قبيل سكر الرصاص ، وقلت لهما ، إنه لو عثر على نقود فى الصندوق ، فمن حقه الاحتفاظ بها لنفسه . وهنا تراجع مشوات إلى الوراء ، تحاشيا لتلطخ سمعة المضيف وشرفه . - " لكن لماذا جئت إلى هنا يا خليل؟ " اقتادنى مشوات إلى ظل الخيمة، حيث قامت زوجته بخلط سطل من المريسى للضيف الذى حل عليهم ؛ ثم انصرفت بعد ذلك لتطبخ لى وجبة من الأرز فى الماء . كنت لم أذق الطعام منذ أيام كثيرة ؛ إضافة إلى أن ذلك الوقت كان من أيام الجوع عند الببو .

بعد أن انتهيت من زيارة المجلس ، الذى استقبلنى الشيوخ فيه استقبالا وديا من جديد ، قصدت بعد ذلك إلى سيدان . " قلت : ناد حوريش ، وأنه ذلك الشجار ، لأنى أنا لست المخطئ؛ يا صديقى . " جاء حوريش ، الذى كانت خيمته قريبة من خيمة أخيه ، على إثر سماع صوت أخيه ، وعندما وجدنى فى الخيمة انتحى لنفسه جانبا . " تعال . يا حوريش ، ورد على ، " بالله عليك Bullah أنا ana خالفت عليك aleyk : بمعنى "هل أسأت إليك ، ونحن على الطريق قادمين من قرية العلا ؟ " وتخوفا من أن يرد الببوى رداً مخالفا ، بعد أن استحلفته بالله ، أقسم أن يمتنع عن الكلام . ثم تعثر

لسان حوريش وتتعتق قليلا بعد ذلك ثم قال : "انا لا أستطيع القول إنك أسأت إلى . سيدان : "بس ! Bess أى ، كفى . " - "مد لى يدك إذن ، بالرغم من أنك خدعتنى . سيدان : "إى، يا حوريش، مد يدك لخليل، وينتهى الأمر ! ويصبح كل من خليل وحوريش أصدقاء من جديد ! أنت ، يا خليل ، مخلص للرفيق ، ولكن نحن أيضا مخلصين . " - "المعروف أن البدو هم أفضل الناس فى رفقة الطريق . " - "لا ، ليسوا كلهم كذلك ، كما أن هناك قلة قليلة أخرى ، يمكن للغريب أن يثق بها ويركن إليها ؛ وليس هناك قبيلة واحدة من بين القبائل المحيطة بنا ، لم تتلطخ سمعتها أو اسمها بارتكاب الجرائم التى من هذا القبيل ؛ ولكن ذلك لم ينسحب مطلقا على الموهايب ، أى لم يثبت أن أحداً من الموهايب خان رفيقه أو خدعه . " - "ومع ذلك ، فقد لاقيت اليوم شيئاً من هذا القبيل من جماعة مواهيبي . " (لم يعرف الشيوخ أننى جئت إليهم لوحدى .) - "آه ، أقول لكم إن سلامى غشاش دوماً . " قال آخر ، - ذلك السرحانى الشاب الذى كان عضواً فى جماعتى السابقة أثناء سفرنا إلى قرية العلا ، والذى يطلقون عليه ، بسبب سؤاله الطويلة ، اسم "أبا القرون" - "حسن ، كان المقروض أن لا تعود إلى ديرتك بصحبة أخى مع أبى Abu قرون Krôn ، لأن أبا قرون هذا نجس néjis بمعنى أن "روحه ليست من الأرواح العامرة بالدين" ، والله يعلم أن أبا قرون هذا كان قد خطط لقتلك . " هذا السلامى نفسه ، عندما كان يزور وادى الشلال مؤخراً ، كنت قد حملته حزمة من التبن (التبغ) على سبيل الهدية منى إلى الشيخ طلج ، ولكن الشيخ لم يستلم تلك الحزمة مطلقاً . "قال العجوز ، يا لخرابة هذا الأمر ، والغريب أيضاً أن ذلك الكلب كان هنا ! لقد "شرب" drunk تلك الحزمة لوحده ، ولكن متى كان الخير فى ذلك السلامى؟"

حكى لى عبد الله ، بطريقة توحى بالحق أنه كان طوال تلك الأيام ، فى زيارة لوادى جيدة Jaida ، أحد وديان الحريرى ، الذى عثر فيه على غزو كبير قامت به قبيلة البللى ؛ وأن ذلك الغزو كان قوامه حوالى ثلاثمائة وثمانين خيلاً - معروف أن الأعراب فى مثل هذه الأمور يضامفون الرقم عشر مرات - وأن ذلك الغزو عندما كان عائداً من طريق داخلى ، عُرِج على السُعادين Saadîn ، الذين هم بعض من قبيلة حرب على طريق الحج بعد المدينة (المنورة) مباشرة . عبدالله : "وبينما كنت أتكلم معهم عن النصرانى

الجانل ، الذى كان يُدَوِّنُ البلاد ، قالوا : " لو جاء الينا ، فوالله ، سوف نكرمه ! " -
وردت عليه قائلا : " إننى لم التقى أحداً من البدو أكرم أو أصدق من البلى .

كانت الماشية ترعى فوق الحرة حيث كانت توجد بعض الأدغال الصالحة للرعى ،
واقترنت ناقتى إلى مسافة ميل أو ميلين فى اتجاه أعالي الوادى . وبعد أن ربطت رجلي
الناقة الأماميتين بحبل ، أطلقتها لحال سبيلها متلما يفعل البدو . وبعد أن رحت
استنزل بضفة السيل المجوفة ، وجدتني أروح فى ثبات عميق . وعندما صحت من
النوم كان وقت العصر قد أوشك على الدخول ، ووجدت شيئاً من المشقة فى العثور على
ناقتى من جديد ، التى كان لونها يطابق لون أرض هذا الوادى البرى ؛ وركبت ناقتى
وعدت بها إلى المنزل . ولكن الشيوخ ضحكوا عندما كانوا جالسين فى المجلس ،
وشاهدوا الغريب يفد عليهم راكبا ناقتة بطريقة الرعاة : " سمعتمهم يقولون : انظروا !
والله ، لقد تحول خليل الى بدوى بمعنى الكلمة . "

البدو يخيمون فى هذه المنطقة حول حفرة من حفر الماء ، تشبه البركة ، والتى
يأتى البدو على كل ماء فى الصباح عندما يسقون منها ماشيتهم . ولكن منسوب الماء
يرتفع فى هذه الحفرة مرة ثانية ، قبيل دخول وقت العصر ؛ يقول البدو ، إن هذا الماء
" من الشتاء " ، أى من الأمطار التى تسقط فى فصل (الخريف) ثم تغوص فى أرض
السيل ، نظرا لعدم وجود نبع مائى تحت هذه الأرض . والبدو عندما يغيبون عن تلك
الحفرة تتحول إلى مسقى تشرب منه الطيور والمخلوقات البرية التى تفد إليها قادمة من
جبال الصحراء ، كما شاهدت بالقرب من تلك الحفرة مكانا للصيادين ، بناها
أصحابها من أحجار غشيمة جرى رصها بطريقة غير منظمة ، كما جرى عرشها أيضا
بأفرع من أخشاب أشجار السنط . وذات صباح وبعد أن ذهب الشيوخ لقضاء أمر ما ،
لم يتبق معى فى القهوة سوى حامد Hamed ، هو وشخص آخر سرحانى ، وكانت كل
أفكارهما الغبية تنصب على عمليات السلطان الحربية ، وهنا سألتني ولد الشيخ طُلُج ،
" ما هى تلك الحروب التى تدور حاليا فى العالم ، وكيف ضعفت قوة الإسلام ؟ إلى حد
أن النصارى تجرؤوا فى هذه الأيام على شن الحرب على سلطان المسلمين ! " أوضحت
لهما وأنا أُلَفُّ صندوق فناجيل القهوة ، أن " الطريق أو المسار فى هذه الدنيا (العالم)
يشبه دوران العجلة . الجزء العلوى الحالى منها كان قبل ذلك هو الجزء السفلى ، وأن

ذلك الذى علا مؤخرا ، بدأ يهبط الآن : " الكلام الذى يكون من هذا القبيل ، وبهذه الصياغة تستقبله أذان العرب وعيونهم دوما بقبول فيه الكثير من براءة الأطفال وسذاجتهم .

دخل علينا بعد ذلك شخص غريب ، هو شاعر بنى عطية ، ذلك الرجل الذى بلغ من الفقر والمسكنة حداً جعله لا يضع على جسده سوى القميص فقط ؛ هذا الشاعر كان مريضاً بالحمى فى الآونة الأخيرة ، وكان ضيفاً فى فصل الصيف على الموءاهيب . هذا المسكين الذى وفد علينا لا يحتقره البدو أو يزدرونه ؛ إذ مازالوا يفسحون له مكاناً حول وجار القهوة ، ويجلسونه بجوار الشيوخ . وأفضلهم لا يرتدى أفضل مما يرتديه ذلك الشاعر ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الشاعر يمكن أن يكون خدوماً لأولئك الشيوخ فى تلك الأمور الصغيرة التى يستطيع القيام بها . كان على Aiy ، من مؤلفي الأشعار الفاحشة أو المكشوفة ؛ التى يتنوقها الأعراب ويستحسنونها ، - ومن ذا الذى لا يقبل المرح قبولا حسنا فى هذه الدنيا ؟ الجميع يسعون عندما ينسون أنفسهم ومعها الساعات الطوال . كان على Aiy مؤلفاً جيداً ويبلّ بلاء حسناً ؛ ولقد سمعت الشيخ طُلج العجوز يردد أبيات ذلك الشاعر وهو يضحك ويتسمم ملئ شذقيه ، بل إن الصحبة كلها كانت سعيدة بذلك الشعر ؛ كما كانت ربوات بيوت الشيوخ يستجبن ويتجاوبن مع تلك الأشعار وهن يضحكن . ويتهاMSN بكلمات مرحة من داخل خيامهن ، أو إن شئت فقل : بيوتهن .

هذا المسكين ، شاعر المرح والسرور ، الذى عضه الجوع بنابه ، جلس مهموماً ، فى الآونة الأخيرة ، ولم يكن أمامه شئ يأكله سوى صراصير الليل ؛ قال لنا ، إنه لم ينزل جوفه طوال هذا الأسبوع ، سوى دخان قليل من التبغ وشئ قليل من الماء . وعندما رأى الشيوخ قادمين ، " وا ، أسفاه ! أهكذا يتعامل الموءاهيب مع ضيوفهم ؟ - أنا أموت ، وسوف تدفنونى هنا فى وادى الشلال Shellal ؛ وأنا أقسم بالله ، أننى ليس فى من القوة ما يجعلنى أرحل عن هذا المكان ، إلا فى صباح الغد ، - وقد سبق لى أن رحلت من قبل ، ولكنى كنت أخشى وأخاف أن ألقى أحداً من الفكاراة " . جلس الأعراب صامتين بعد أن استمعوا إلى شكوى ذلك الرجل الموجهة والمؤلة ؛ ثم تكلم الشيخ طُلج بعد ذلك بنغمة من الود والحنان ، " يا على ، نحن نأسف لما حدث لك ، ولكن

ألا ترى أنت بنفسك ذلك الضيق الذى نحن فيه . - لم تخرج من قم ذلك الشيخ كلمة خبيثة ، لأن ذلك يتعارض مع إكرام وتقدير ضيوف الله . - البدو يترافعون عن بعضهم البعض عن طيب خاطر ، من هنا فإن الواحد منهم قد يتباهى بالآخر ، من باب المجاملة ، عندما يقول (تلك الجملة الإنجيلية) "إنه أفضل منى ، من هنا فقد امتدح حامد شاعره أمامى بهذه الطريقة ، حتى أرق عليه وأعطيه بواء للحمى . قال حامد ، هذا هو على ، صحيح أنه فقير ، ولكنه رجل له رفقة مهمة مع الشيخ ، فضلا عن أن له علاقة لها وزنها أيضا مع باشا الحج . - يا على ، أنا أعرف أن الباشا يتمنى أن يرى كل أفراد قبيلتك وقد أعدموا جميعا . - ابتسم على وأخذ الأمر على محمل حسن . سوف يحسب الناس البدو أبناء للشجعان ، بالرغم من أن ذلك يمكن أن يكون على حساب شيء من أمانتهم . سمعت فى موسم الحج أيضا أن بعضكم متوحشين وغير متحضرين ، خبرنى ، ما نوع بدو بنى عطية ، الذين يمشون عراة ، ولا يعرفون الخبز ، ويقولون ، إنه ليس هناك عالم آخر غير ذلك الذى يعيشون فيه ؛ - ويعتقدون أن المخلوقات الخرافية الأسطورية تمتلك ليل الشتاء ! " وهنا رد على على الرجل ردا لطيفا : إى ، بالله ، إنهم معروفون لنا ، ولكننا يصعب علينا تعرفهم ، وهم مع انتهاء النهار يحفرون لأنفسهم فى الرمل حفرا تصل إلى مستوى أعناقهم ، وينامون فيها وهم يشعرون بالدفى تماما .

حكى لى ذلك الشاعر الفكاهى أسطورة "الجرية" Geryeh (القرية) التى هى عبارة عن رحلة إلى الشمال من تبوك : فى هذه المنطقة لا يوجد سوى أطلال قرية مسورة ، تقع وسط أكوام مثل أكوام الخريبة . هناك خرافة شائعة تقول إن كنوزا ثمينة مدفونة فى تلك المنطقة ، وأن النقود تتدحرج ، فى كل يوم جمعة ، خارجة من الأرض ، وتروح تجرى من تلقاء نفسها فى السهل الصحراوى لحين غروب الشمس . كان البدو يطلبون منى بفضول كبير ، "هل يمكن إسكات ذلك أو تهدئته ؟" معروف أن البدو تتضح أمامهم الأمور فى حدود آفاقهم الطبيعية القصيرة ، كما أنهم يميلون إلى عدم المصادقية أو الخرافة فيما يتعلق بالأشياء الدنيوية . أضاف رجل آخر من بنى عطية "توجد بجوار بنى عطية صخرة من صخور الحجر الرملى (لم يسبق له زيارة تلك الصخرة) ، وفى تلك الصخرة توجد بوابة ، وخلف تلك البوابة ممر محفور فى الصخرة ، التى توجد

غرف فى جدرانها ، ووالله ، هذه الغرف تشبه الدكاكين التى فى السوق ، كما يوجد كنز عظيم خلف باب لا ينفتح ، (حيث يوجد السحر) ويحرسه رجل أسود شاهرا سيفه .- قال البدوى ، تعال يا أنت ، واستخرج تلك الكنوز ، وستكون ملكا لك ، وبالتالي ستكون قد كشفت لنا المياه المخبأة !"

نهض طُلُجٌ واقفا فى مكانه وأشار إلى بالخروج معه : اقتادنى ذلك الشيخ العجوز إلى خيمته ، ثم اصطحبنى إلى القسم المغلق الخاص بربة بيته الشابة الجميلة ، شقيقة ظاهر ، التى يعترف الجميع بجمالها بين النساء . كانت تلك الزوجة جالسة ترضع طفلها ، وكانت منحنية على كوعها ، على سجادة تركية بهيجة الألوان . نظرت الزوجة الشابة بعينها إلى الأعلى : ومع هذه الحركة الرشيقة أحضرت سطلا مملوءا بالتمر ، ويصوت المرأة الحانى راحت تقنعنى بلطف أن أكل . خرج طُلُجٌ إلى غدران سقاية الإبل ، وجلب للضيف ماء يشربه ؛ وبناء على ذلك ، تركنى ذلك الشيخ العجوز مع شقيقة ظاهر لتناول الغداء ، وذهب هو إلى المجلس . هذا الكرم الواضح من جانب شيخ كريم كان بمثابة إشارة أو علامة لى على مدى تدنى الأسر الكبيرة . كان من النادر أن تعانى خيمة طُلُجٌ من الفقر أو الحاجة أو العوز ؛ وطُلُجٌ بوصفه شيخا من شيوخ الأعراب ، كان يحصل أيضا على ما يسمى بالخوة (*) Khuwa ، بواقع حمولة جملين من التمر ، من بلدة تبوك ، كما كان يحصل على حمولة جملين آخرين من قرية تيماء . - كان بعض هؤلاء القبليين يمتلكون بعضا من النخيل فى تيماء ، ولكن عندما نشب العداء بينهم وبين ابن الرشيد ، لم يستطيعوا الذهاب إلى تيماء ؛ وبالرغم من ذلك ، بقيت حقوق هؤلاء البدو قائمة دون مساس بها . قالت مضيفتى فى لطف ، إنها بلغها أننى نصبت خيمتى بالقرب من خيمة والديها ؛ وعن معاملتهما لى ، هل كانت على ما يرام ؟ - ولكن ، يا خليل ! كل ، من أجلى ! لماذا لا تأكل ؟ ألا تستطيع الأكل ؟"

كان حوريش قد أخذ على عاتقه القيام بدور القهوجى ، "كيف حالك يا حوريش؟" - "على ما يرام ؛ وكيف العيون Ayun بلا bila سنون Sinûn ؟" قال حوريش هذه العبارة

(*) الخوة : تعنى فى هذا السياق الإتاوة التى كان يدفعها الحضر لشيوخ البادية تحاشيا للاعتداء عليهم من القبائل . (المراجع)

حقدا على ناقتى العجوز : ولكن هذا الاستلطاف لم يرسم أية ابتسامة على وجه أى من الحاضرين . - لماذا لم تخبره زوجته أن فكيه كانا على نحو يجعله يبدو كما لو كان جملا ؟ والبدو فى كثير من الأحيان تكون لهم أسنان تشبه أسنان الخيول ، وبيضاء كما لو كانت مطلية باللبن الحامض ، أو إن شئت فقل : لبن الخض : هناك أيضا كثير من الشبان الذين يرعون الماشية يكشفون بصورة مستمرة عن أسنانهم وهى مسنونة مثل أسنان الكلاب عندما تكشف عن أنيابها . ولما كان هؤلاء الشبان يمارسون مهنة الرعى منذ طفولتهم ، ويتحولون إلى رفاق للصخور والأدغال والماشية فى الصحراء ، فهم يكبرون وهم لا يعرفون أى شئ عن التفاهم الإنسانى . وفى ضوء استمرار ضرب الشمس لجباه هؤلاء الشبان طول اليوم ، فإن ذلك يؤدى إلى بروز جباههم إلى الأمام ، وترتفع شفاههم إلى الأعلى ، وتبقى على ذلك الوضع بسبب تيبس العضلات : والقلب الرقيق والذكاء الفطرى ، منعدمان عند هؤلاء الشبان لافتقارهم إلى الصحة الإنسانية فى ذلك النوع من التخلف العقلى . - وأنا هنا أذكر أن شابا نصرانيا سوريا قال لى إنه عثر فى الكتاب المقدس على قول مأثور مخيف ليس فى صالح البدو ! ثم تناول إنجيله (التبشيري)، وقلب منه صفحة واحدة وقرأ "جراد تقدم أو جاء من حفرة سحيقة، عليه شعر يشبه شعر خصل النساء، وله أسنان مثل أسنان الأسود!" هذا وقد سبق لى أن سمعت الناس وهم يشبهون البدو المساكين وهم يتسوقون فى بلدة القصيم ، بأسراب الجراد أو "مثل mithil الجراد jerad" على حد تعبيرهم .

كانت فى وادى شلال ريع جبلية ، كانت تلك الريح تهب نحو الأسفل نظرا لأن السهول أسفل الجبل كانت تسخن بصورة مستمرة ؛ وكانت تلك الريح أيضا تزيد من سوء أشعة الشمس ، وبخاصة فى أيام موسم الصيف ؛ هذه الريح كانت تتزايد إلى ما قبل العصر بقليل ، ويزداد هبوبها من رأس وادى الشلال فى الحرّة إلى حد أنها كانت تطيح بخيمتى الصغيرة .

بلغتنا أخبار مفادها أن بدو الفكرة Fukara كانوا على وشك التخييم فى منطقة الحجر ، إذ كان من عادة هؤلاء البدو أن يقيموا مدة شهر واحد من شهور الخريف ، فى كل عام ، بالقرب من موارد المياه فى وادى الشلال . وهنا خطر ببالي أن أعود إلى أولئك الفكرة ، حيث سيرحلون بعد ذلك مباشرة إلى قرية تيماء ، التى يمكننى منها

الوصول إلى بلدة حائل Hayil . عندما عثر على مشوات Mishwat وأنا جالس إلى جوار جدار مهدم ، أثناء هبوب الريح سألته الذكر ، أقرأ في كتاب "صاح الرجل ، يا خليل ! لا تحاول الإنكار ، هل جئت إلى هنا لاستخراج كنز من الكنوز . وفي المساء ، نحر مشوات شاة قربانا لصحة إبله ، - ياله من مسكين ! لم يكن مشوات مدركا للإرادة العليا ، كما كانت الأحداث كلها في غير صالحه ! فقد أصبحت تلك الإبل بعد شهر من الزمان في قبضة العدو وتحت تصرفه . طرح مشوات تلك الشاة صامطة على الأرض ، وهى تحاول التخلص والتملص من قبضته (ومعروف أن رأس الأضحية لابد أن تكون في اتجاه القبلة أثناء الذبح) ؛ برك مشوات ، فوق الشاه ، وسمى باسم الله ، ثم نحرها مستخدماً سيفه في ذلك . وأخذ مشوات شيئاً من الدم المندفَع ووضعهُ في سطل ، ثم راح بعد ذلك يحمل ذلك السطل ويتجول بين قطيعه ؛ ويغمر إصبعه في سطل الدم ثم يلبط عنق وخالصة كل حيوان من الحيوانات المباركة على الأرض . كانت الأغنام تقترب من الوعاء . والبدو عندما يذبحون أى حيوان من حيواناتهم ، ويعد أن يسلخونه تقوم النساء بالتخلص من أمعاء ذلك الحيوان على بعد مسافة صغيرة ؛ ويقوم البدو بعد ذلك ، وعلى وجه السرعة بشوى حلويات ذلك الحيوان على نار الوجار ، ويوزعونها كما لو كانت قطعاً من الحلوى على أبنائهم وأطفالهم . وكلاب البدو تتشمم دم الذبيحة الذى ينساب على الأرض ، ولكنها تعافه ولا تأكله . وقد شاهدت ، عندما كنت مع بدو الفجير ، أنهم يلقون بقطع من كبِد الذبيحة ، فى نار الوجار ، ليأكلها بعد الشواء صغار أفراد الأسر ، قبل عشاء الضيوف . وهم أيضاً يلقون رأس الذبيحة فى النار ليشووها ، ومخ الحيوان لا يأكله أحد سوى النساء ، ولدى الرجال خرافة مفادها أن أكلهم المخ يضر بأبصارهم ونور عيونهم .

كان الغد مصادفاً للوريد ، أى يوم سقيا الحيوان ، مما أدى إلى النزاع والجدل فيما بينهم . لم يتفق الأعراب فيما بينهم على السعر المحدد للناقة عندما يجرى سداده أو دفعه برعوس حيوانات صغيرة . حتى يتمكن ذلك الرجل السرايىنى من دفع نصيبه فى المدة (الدية) التى يتعين دفعها إلى مهنا . والعرب لا يكونون عادلين فى المساومة أو المكاسرة ، وهذا هو صوت داريش العالى بدأ يتناهى إلى مسامع كل السُّقاة ؛ وقد شاهدت ، وأنا فى خيمتى ، الشيخ السرايىنى وهو يرفع ذراعه الخشبيتان ،

كما شاهدت أيضا أن ذلك المخصى هو وغريمه قد استل كل واحد منهما سيفه . وهنا خرج الشيخ طُلج العجوز من خيمته لفض ذلك الاشتباك ؛ ولكنه عاد ثانية إلى خيمة القهوة عندما لمس عدم جدوى صوته فى ذلك الصراع . معروف أن المواهب عنيدون وأولو بأس ، ولذلك فقد ثارت ثائرة داريش إلى حد أنه كاد أن يتشاجر مع الجميع . بعد نوبة التصايح الأولى ، بدأت تسود كلمات التهدة والسلام ، وبدأ العرب ينصرفون كل إلى حال سبيله ، عائداً إلى خيمته ليكون إلى جوار ماشيته . راح وعيل ، وهو متجه إلى بيته يصيح فى زوجته ، طالبا منها فك البيت لأنه سوف يترك هذا المكان فى التو والحظة ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة اقتنع وعاد لهدوئه ورضخ للصالح العام .

سوف يزور الشيوخ ، فى الصباح ، الفكرة الذين نصبوا خيامهم فى منطقة الحجر ، لمناقشة مواضيع الصالح العام المشتركة ، والقضاء على ذلك الفتور الذى نشب بينهما منذ موسم الحج ؛ كان الشيوخ يودون أن يكون الشيخ مطلق على وفاق معهم ، وينضمون إلى أعرابه ليكونوا معهم مخيماً واحداً . ركب الشيخ طُلج وبصحبته كل من حامد ، وعيل ، وداريش ؛ أما مشوات فقد رفض الذهاب معهم ، وذلك على العكس مما كان عليه رأيه مساء أمس ، من هنا فقد "أرسلت" ناقتى إلى الحرة مع ماشيته . وهنا عرضت جوتده Gottha ، الراعية الشابة ، ابنة الأرملة ثنوة Thanwa ، الذهاب على الفور لإحضار الناقة من المرعى :- هؤلاء البدو المساكين ، على استعداد فى كثير من الأحيان ، لأداء هذا النوع من الخدمات للشيخ أو للغريب . مرت ساعة كاملة قبل مجيء الناقة ؛ وبالرغم من أن الشيوخ كانوا قد رحلوا منذ مدة طويلة ، إلا إننى خطر ببالى أن أخطر بالركوب وحدى وأفعل مثملاً فعلت عندما جئت إلى هذا المكان . وقدم لى مشوات آخر توجيهاته ونصائحه ومحددأ لى العلامات الأرضية التى "يمكن أن تعيننى" وتلك التى يجب أن لا أهتم بها ، وهذه التى عن يمينى وتلك التى عن شمالى ؛ وأعطيت زوجته ، حسب طلبها ، شيئاً من "دواء الحمى" ، وتمنيا لى رحلة طيبة وسرعة الوصول .

كان ذلك الوادى القفر وسيعا ، ولم تكن آثار الأقدام ظاهرة فوق أرضية ذلك الوادى المكونة من الصخور البركانية الصلدة ، وبخاصة آثار أقدام أولئك الذين سبقونى بالمرور فى هذا المكان . وهنا وجدتنى أطيل النظر إلى الأرض المنخفضة ، -

حتى يتسنى لى العثور على مخرج طبيعى لماء السيل ؛ وبهذه الطريقة استطعت أن أنجح فى الوصول إلى حوراء Howwara . فى كل أنحاء هذه المنطقة شاهدت بعض الكرات الصغيرة فوق الرمل ، هذه الكرات عبارة عن مادة معدنية تساقطت من الصخرة الرملية المتآكلة ، ومعظم تلك الكرات تشبه بقايا حيوانات متحللة ؛ القليلون المساكين يأخذون تلك الكرات ، ويخاصه تلك التى يمكن أن تتدحرج فى بنادقهم ، ويستعملونها بدلا من الطلقات الحقيقية .

ونظرا لأنى لم أكن راكبا راحلة جيدة ، فقد كان كل واحد ممن يسيرون على أقدامهم ، قادرا على اللحاق بى :- تمنيت أن لا ألتقى الحباليس ، والمعرف أن أبا سنون سطا عليه الصوص فى هذا الممر القصير المؤدى إلى القلعة . وعلاوة على الصراع الشرس من أجل الحياة ، سينشرون أيضا أن النصرانى كان يحمل مسدسا من نوع خطير ؛ ولو قدر لذلك المسدس أن يضيع منى ، فسوف أكون مكشوقاً ومهدداً فى ترحالى كله ، وسط أعداء مسلحين . كان الطريق مليئا بالصخور المجوفة التى تصلح أن تكون ملاجئ ومخابئ لأولئك الأشقياء ؛ - ومن ذا الذى يجدنى هنا ، وهو يفعل فعلته دون أن يراه أحد ، ويبقى على حياة النصرانى ؛ هذه هى القمم العالية ، والقمم المستدقة لجبل إثلب بدأت تتبدى لى؛ كما بدأت أرى أيضاً قطعان إبل الأعراب ، التى كان الرعاة يحدونها ببطئ عبر السهل . بعد أن قطعت تلك الأميال القليلة ، وصلت إلى خيام بعض الصلوية ، المنصوبة فى منطقة منخفضة عن القلعة ، وعرفت أن خيام الشيخ منصوبة بالقرب من آبار الماء أسفل صخور البرج Borj .

واصلت المسير بناقتى ، وتجاوزت قبليا من عائلة الشيوخ ؛ عندما رأيت ذلك القبلى من الخلف، استنتجت على الفور من تربية كتفيه ، ومن عبائه الخشنه المقلمة ، ومشية قدميه الحافيتين ، أنه واحد من أولئك الذين يُصلحون القهوة فى أسرة زيد :- كانت رأس ذلك الرجل ترتفع فوق صدر بارز إلى الأمام ، وذراعا قريبتان من أردافه ، وكان يمشى مشية النساء . هذه هى مشية الشيوخ فى الصحراء ، كما أن هذه أيضاً هى مشية الشخصيات الرئيسية . هذا يعنى أن تلك الشخصيات إنما ولدت وربيت فى ظل الرقة الشديدة لحياة الصحراء ، وتجلس تلك الشخصيات تشرب القهوة فى المجالس طوال حياتها . وزوجات هذه الشخصيات هن اللاتى يقمن بكل ما يلزم هؤلاء

الشيوخ داخل الخيام . وبالتالي فإن هؤلاء الرجال الذين يسكنون الخيام ويقيمون فيها بصورة دائمة ، لا يكون لديهم ما يفعلونه خارج هذه الخيام ، يضاف إلى ذلك أن هذه الشخصيات يندر أن تشارك في الغزو الذي يقوم به البدو . أسفل غترة (غطاء رأس) ذلك الشيخ يمكن أن تقف على حكمة الرجل السياسي ، مع شيء من الرقة الأنثوية ، كما ترى أيضا عينان وسيعتان توحيان بالطموح ، ومتربتان ومن فوقهما حاجبين جميلين . وشيوخ الفجير كلهم ، حسبما يقال ، يجمع بينهم نوع من التشابه في الصوت وفي القاربة أيضا .

نزلت عن ناقتي أمام الخيمة التي وجدت نياق شيوخ الموهايب باركة أمامها ، هؤلاء الشيوخ كانوا قد سبقوني في الوصول إلى تلك الخيمة . كان هناك جمع كبير داخل الخيمة ، وتلك كانت خيمة الشيخ مطلق . نظر الفكرة إلى في هذه المرة نظرة كالحة متشدة . خفة الظل والمرح الذي كان يعم المكان ، كان من أجل زيد ورفاقه (زيد الصلوص) ؛ يضاف إلى ذلك ، وحسبما قيل ، لا يمكن لكافر أن يعود إلى المسلمين ويرحبون به للمرة الثانية : ولم يرحب بي أحد ، سوى رجل شاب جاء بعدى ، ورحب بي ترحيباً ودياً ، وسلم على سلاماً ودياً أيضاً ، كان ذلك الشاب واحد من الشباب الماهويين ، وكان في المنفى ، وهو من أعراب الشيخ طلج . وجه إلى شيوخ الموهايب نظراتهم الصامته التي توحى بشيء من الود والصدقة ، وراحوا يومنون برؤسهم إشارة منهم إلى ذكرى حلوة سابقة . قال الشيخ طلج: "ها ، يا خليل ! لو كنا قد علمنا بمجيئك ، لكنت انتظرتك" ، ثم تحول طلج إلى الأعراب وقال : "كان خليل يعيش معنا طوال هذه المدة ، ووالله ، كلامه لطيف ومنطقي ومعقول ؛ وبالرغم من أنه نصراني إلا أنه وليد يراعى تماما مشاعر المسلمين . " - معروف أن الموهايب لا يحبون الفكرة ، الذي ينعتونهم "بالفجارة" el-Fuggera (*) ويسمونهم أيضا يهود خيبر . وهنا بدأ الشيخ طلج الحديث عن الأمور التي جاؤا من أجلها : "والله ، يا شيخ مطلق ، وأنتم أيها الفكرة ، أنا أعلم ما يقال من أن "الفكرة والموهايب لا يمكن أن يكونوا على ونام مع بعضهم البعض . " - كانت تهامة في تلك الأيام عامرة بالأعراب ، وكان مرعى

(*) من "الفجور" (المترجم) .

الصيف نادرا وعزيزا ، مما جعل طليح يتطلع إلى التجوال فترة من الوقت مع الفكرة ، وقد استمع مطلق على مضض ذلك الكلام ، نظرا لبعض مظاهر الاحترام والتقدير (الواجبة لابن الرشيد) . جاء طليح أيضا لاستطلاع رأى الفكرة فى مسألة خضوع قبيلته لابن الرشيد : وهنا يمكن لو عيل هو والسراحين Serahin أن يعملوا من أجل السلام والوفاق . فكر الفكرة هم والمواهيب فى عدم الخوف بعد اليوم من البشر ، الذين كان ابن الرشيد يحرضهم على الفكرة والمواهيب . وبحلول وقت الظهر دخلت علينا كومة إفطار كبيرة من الأرز ، كانت تبرد منذ فترة ، فى القسم المخصص للنساء فى الخيمة . كانت حرارة سهل الحجر ما تزال خانقة .

نهض الشيوخ من حول طبق العشاء وذهبوا لشرب القهوة فى القلعة وزيارة الحاج نجم . أندھش الرجل العجوز وابتسم عندما رأى للمرة الثانية : وجدت عند الحاج نجم كلا من زيد ومحسن وأصدقاء آخرين . وسرعان ما جلس الضيوف على شكل صف طويل ، فوق سجاد الحاج نجم ، بجوار الجدار الغربى من الطريقة أو الممر : ولكن البدو لم يطبقوا مناقشة بعض خلافاتهم الصغيرة . ورأيت وعيلاً وهو يستدعى من المجلس مرتين ليقسم على سيفه حول أمر متنازع عليه ؛ هذا الحلف على السيف نوع من الخرافة الرسمية التى تحظى بالرواج بين هؤلاء البدو . وهنا صاح محمد ، ذلك الجندي البدوي صيحة شجاعة ، فى وجود المواهيب ، "والله ، وفيما عدا أنه قيدٌ واحداً منهم ، والأول (بعد ذلك) الذى ربما يكون قد أخذه واستولى عليه ! " وهنا رد الشيخ طليح رداً أبوياً : "يا وادى ، نحن لا نعترض على كل ما هو ملك لك . " نهض البدو من مجلسهم مرة ثانية عندما أوشكت الشمس على الغروب ، كي يعودوا إلى منزلهم . قام الشيخ مطلق بذبح شاة لوجبة العزيمة ، ولكن مضى ثلث الليل ، قبل أن يصبح اللحم (ومعه القطع الممتازة هى والكبد فوق كومة الأرز) جاهزا للأكل . وهنا تحلق الضيوف حول الطعام وراحوا يمدون أيديهم اليمنى ، وهم يذكرون اسم الله على الطعام - كانت لقيماتهم الأولى عبارة عن قطع من "لية" الخروف ومعروف أن اللية فى هذا النوع من الغنم تغطى تقريباً الجزء الخلفى من الخروف وتزن عدة أرطال ؛ - هؤلاء البدو يظنون أن هذه اللية حلوة وصحية أيضاً . هؤلاء الأعراب الذين سبق أن قلت لهم مراراً إن الغنم عندنا ليس لها مثل هذه اللية ، وإنما لها ذيل صغير ، فردوا على قائلين : "إذن

لابد أن تكون أغنام النصارى من النوع السيئ: بعد أن ينتهى البدو من تناول الطعام، ينهض الضيف وهو يدعو لمضيفه (الذى لا يسعده أى شئ سوى امتداح الحاضرين لكرمه والثناء عليه) ، والبدو فى هذه الحياة الصحراوية ، التى يعز فيها تدفق الماء يمسحون أيديهم من الدهون فى ذلك الجزء من الخيمة الذى يكون مجاورا لهم ، أو قد يفركون أيديهم فى أعمدة الخيام أو أى سرج من سُرُج الجمال التى تكون قريبة منهم . والبدو الرحل لا يشربون الماء على الطعام أو إن شئت فقل : أثناء تناول الطعام ، ولكن سلاطين الماء أو اللبن توضع على جنب ليشرب الناس منها بعد أن يفرغوا من تناول الطعام . ولم يحدث إلا مؤخرا ، أن بدأ البدو يحضرون إناء كبيراً ، ويملاونه بخليط من لبن الضأن ولبن النياق؛ ثم يروح الضيوف يصبون لأنفسهم ما يشاعون من ذلك الحليب.

تعجبت وأنا أستشعر فى داخلى شكلا من أشكال الرعب ، من حقد هؤلاء البدو المتشددى الذى يشبه الحقد الشيطاني ؛ وبخاصة أن أى شكل من أشكال الاتصال بهؤلاء البدو ، أو أى شكل من أشكال الحياة الشريفة الكريمة الحقيقية ، أو أى شكل من أشكال الأداء الجيد لا يمكن أن يحظى بأى شكل من أشكال الرضا أو القبول من الخرق الممل ، غير الإنسانى ، والمتأصل ، فيما يتعلق بخطايانا ، فى دين هؤلاء البدو المتهم بإهدار الدماء . ولكنى سبق لى أن أكلت من طعامهم ، ويحتمل أن أنام أيضا بين الذئاب . هذا يعنى أن الغد مظلم تماما مثل الموت . هذا يعنى أيضا أن كل الطرق كانت موصدة أمامى . دخل المجلس ، بعد ذلك ، شيخ من شيوخ ولاد على ، وكان واحداً من شيوخ تلك القبيلة فى ذلك المكان بالذات . كان ذلك الرجل مشهوراً بين البدو بأنه محامى عرفى ، وذلك فيما يتعلق بعادات وتقاليد الصحراء : جلس ذلك المحامى العرفى بالقرب منى وركز على ناظرية ، وسأل شيوخ الموهايب بصوت خفيض "لماذا أحضروا النصارى معهم ؟" قالوا : "جاء خليل من تلقاء نفسه . استدار ذلك المحامى إلى حامد وهمس له بكلمة أعتقد أننى استرقت السمع عليها تماما ، ولماذا أنت لم تتركه وراءك - وهكذا ؟" ثم أشار إليه بعلامة الموتى وهم يلهثون فى أواخر لحظات أعمارهم . أجاب حامد على سؤال ذلك الشقى وهو يتنهد قائلاً ، "استغفر Istugfir الله Ullah ! " كان تعريبية Tārība (المحامى العرفى) رجلاً متقلب المزاج ، وقد حدث بعد ذلك ، أن قام ذلك المحامى فى مرحلة لاحقة ، بالدفاع عنى فى تيماء ، ضد التطرف

ضيق الأفق من قبل شخصية قروية مهمة ، هددتني ذات يوم "أننى ما لم أتحول إلى دين الله ، ورسوله ، وبخاصه أننى أمشى بلا اكتراث ليلاً ونهاراً فى حارات ومسارات الواحة ، فإن طلفة واحدة من بندقية رجل من الرجال الذين يخشون الله ويخافونه قد تنهى حياتى فى أى وقت من الأوقات" . وهنا رد تعريية على ذلك القروى رداً يعبر عن عدم الرضا والاستياء ، "والله ، إن البدو أفضل منك !" كان اعتراض تعريية على طريقتى فى السلام (إذ كنت أقول متلماً يقولون) ، سلام Salaam عليك Aleyk . هذه هى "تحية الإسلام ، ولا يمكن أن تتلفظ بها أفواه عبدة الأوثان ، الذين لا يمكن مسالمتهم أو مهاندنتهم أو مصاحبتهم ، لا فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة أيضاً ؛" كما قال أيضاً إنه سوف يُعرفُ الناس أننى "خواجه" Khawāja . وكلمة "خواجه" هذه هى اللقب الذى يطلق على اليهود وعلى المسيحيين فى المدن السامية Semitic المختلطة التى خضعت للفتح العربى .

قال الشيخ مطلق فى الصباح ، "حنا Henna رحيل Rahil بمعنى "نحن على وشك الرحيل" : أنت ، يا خليل ، لا يمكن لك البقاء هنا مع الأعراب ، وأنا شخصياً لا يمكن أن أسمع لك بذلك ، إضافة إلى أن أحداً منهم لن يكون على استعداد لاستقبالك . - "أقول لك إنهم جميعاً سوف يستقبلونى ؛ هل تعتبرنى عدواً ؟" - "حسن ، أنا لا أعتبرك عدواً ، ولكن حياة البدو شاقة ، وفى ظل حرارة الصيف الشديدة يكون من الأفضل لك البقاء فى القلعة Kella (*)" وهنا رد عنى شيوخ المواعيب رداً طيباً ، "خليل ليس غراً ، إنه مثل واحد من البدو ، ولقد سمعنا ذلك من أبى سنون ، وسمعنا أيضاً أن أعراب خليل (**) من الأعراب المتحالفين مع السلطان . - قال الشيخ مطلق "هذا هو زيد عم خليل، دعوه يرافق زيدا" . ولكن زيدا رد قائلاً : "خليل يعد حالياً خارج نطاق سلطتى ، ولن أكون مسئولاً عنه بأى حال من الأحوال ، يضاف إلى ذلك ، أنه عندما كان معى ، وكنا أصدقاء إلى حد بعيد ، وسمنى خليل بأنى حبلىص (ل ص) ! " وهنا افترق

(*) نطق الشيخ مطلق هذه الكلمة الإنجليزية بحرف G بدلا من ال K . (المترجم)

(**) أعراب خليل : المقصود بأعراب خليل الشعب الذى ينتمى إليه الرحالة فوتى ، أى الإنجليز المتحالفين مع السلطان العثمانى ، ومن المعروف أن إنجلترا رغم إدراكها بأن الدولة العثمانية أصبحت رجل أوروبا المريض إلا أنها كانت تقف إلى جانبها خوفاً من روسيا القيصرية . (المراجع)

الأعراب وانتشروا بعد تناول قهوة الصباح ، ثم نهض الشيخ طُلُج واقفا وأخذنى على جنب . قال الشيخ الطيب العجوز ، يا خليل ، إذا كنت لا تستلطف هؤلاء الناس ، فنحن راحلين الآن ، وبوسعك أن تعود بصحبتنا ؛ أو إن شئت ، فعندما تجد من المناسب لك بعد ذلك ، عد إلينا وسوف نرحب بك ، وأبق معنا إلى عودة الحج .

فك شيوخ الموءاهيب عَقْلُ نياقهم وجعلوها تنهض واقفة ، بعدما كانت باركة أمام خيمة الشيخ مطلق ، وصائمة منذ الأمس . ركب الشيوخ فوق عدد (سُرُج) النياق ، بينما كانت واقفة ؛ والشيخ طُلُج ، بحكم كبر سنه ، كان هو الوحيد الذى ركب ناقته وهى باركة : ومضى الشيوخ فى طريقهم . ولم يتبقى من أولئك الشيوخ سوى الصيحة الأخيرة التى صاحوها دون أن يلتفتوا إلى الخلف ، أو حتى يستأذنوا . ومن عادة أولئك البدو أن يرحلوا فى ساعة مبكرة من الصباح : - هذا يعنى أن الضيف الذى يحظى بالضيافة الكاملة طوال الليل يتعين أن يطرد من المكان مع طلوع الصبح . بقيت قلقا فى خيمة الشيخ مطلق ، نظرا لأن زوجته من ولاد على كانت سليطة اللسان ، إلى حد أن أبناء زوجها كانوا يكتونها "بالمرأة العجرية" إذ كانوا يقولون لها "صُلُوبية" Solubbia ؛ ولما كانت آخر حفنة من مؤنى قد انتهت ، فقد توجهت إلى الخيام المجاورة القريبة من آبار الماء التالية للآبار التى نحن بجوارها حاليا ، أو إن شئت فقل : توجهت إلى الخيام التى يسكنها شيخ ولاد على إبراهيم السَّنَاد es-Sennad ، الذى كان يمثل بريد الحج : هذا الرجل صاحب المزاج المتشدد إلى حد ما ، كان ودودا معى ، ومن بين معارفى أيضا .

عثرت على الشيخ إبراهيم السَّنَاد ، شيخ ولاد على ، فى خيمته الصيفية ، نظرا لأن قيالة الظهيرة كانت قد أوشكت على الدخول علينا . اندهش الرجل من دخولى عليه ، وهنا طلب الرجل من ربة بيته (زوجته) أن تخرج الصقر من الخيمة . وتجهز لى عدة (سرج) الناقة كى أجعل منه مسندا أتكى عليه . هذا الرجل الذى استقبلنى فى بداية الأمر بنظرة شبه متحفظة هاهو يقول لى فى ود ، "مرحبا بك ؛ وأنت ، يا أيتها الزوجة عجلى وجهزى على وجه السرعة ، حتى يتمكن خليل من تناول طعام الإفطار ، وليكن ذلك بأسرع ما يمكن . " سألت الرجل ، أثناء حديثنا عن ضيافة البدو . "أجابنى فى ود ، أن الضيف ، أيا كان ، وكذلك الغريب ، هو ضيف الله ، وله معزة الأحباء . " قال

الرجل عن زوجة مطلق ، "إنها ليست من أصل طيب ، ابنة شيخ قليل القدر بين الشيوخ" : ثم أردف بعد ذلك ، "اسمع ، يا خليل ، إذا كنت أنفقت كل ما معك ، وبالرغم من تدنى حالى فى قرية العلا فى الوقت الحالى ، حيث رهننت سيفى نظير الحصول على قليل من الشعير ، إلا أنى على استعداد لتعزيز موقفك عند الحاج نجم ، كى يعطيك بضعة ريالات إلى حين مجئ الحج . " ومع ذلك كان الحديث الذى دار بيننا مشوبا بتشدد ذلك الرجل الذاتى ، "الأسير المسلم الذى يجرى تبادله ، فى الجهاد ، يكون مقابل عشرة أسرى من النصارى بالتمام والكمال . " وأبلغنى أيضا أنه سوف يسافر هو وخلف ومحمد الشرارى ، قبل رمضان ، لقضاء بعض أمورهم فى دمشق ، على أن يعود مع الحج ، وطلب منى أن أرافقهم فى تلك الرحلة .

ولما كنت أقيم ، وهذه هى المرة الثالثة ، أمام تلك السلاسل الجبلية الكالحة من آثار الحجر - والتي تشبه جحور الفئران - من على بعد ، فى المنطقة الواقعة أسفل الضفاف الجبلية المكونة من الحجر الرملى الصلد - لم أعتثر فى تلك الجحور على أى شىء لم يسبق لى أن شاهدته من قبل .

كان محمد الديبس ed-Deybis على استعداد لرافقتى إلى خيبر، نظير أجر كبير؛ لأنه سوف يحضر من خيبر لأسرته حملا من التمر ويعود مع الأعراب : ولكنه فى الصباح اعتذر عما قاله فى المساء ، " يا خليل ، السبب فى ذلك (وراح يضرب بيده على عظمة عنقه) ! وأنا والد لأطفال . " عثرت على رجل آخر اسمه جازى Jazy ، ولكنه تراجع بعد الاتفاق وقال: "هذه سفرة متهورة." وعثرت على شاب من الضمالة Khamala ، كان يملك ناقة طيبة ، وقال إنه سوف يجعلنى أركب ناقة أخرى نظير عشرة ريالات عن تلك السفرة ، وأنه على استعداد لقبول ناقتى ثمنا لتلك السفرة . ولكنه هو الآخر ، انسحب عندما جد الجد؛ وكانت يد زيد هى التى وراء كل ذلك التعطيل، إذ كان ما يزال يزعم أنه حريص على أمنى وسلامتى إضافة إلى مسئوليته عنى أمام الدولة (الإمبراطورية العثمانية) .

بلغنا أن مهنا Maanna الذى قام بغزو بالقرب من خيبر هو وثمانية من رفاقه ، قد سرق خمسين من إبل الحطيم Heteym ، وأن نصيبه من تلك الإبل قدر بحوالى

سبعة جمال : - ومع ذلك سمعنا فيما بعد ، أن تلك الإبل أعيدت ، أو إن شئت فقل : استردها أصحابها ، نظرا لأخذها من أعراب ليسوا أعداء لهم . هذا يعنى أن البدو يمكن أن يكونوا فى كثير من الأحيان أصحاب سياسة عادلة وأصحاب شهامة ومروءة ، تحت أى ظرف من الظروف . ولكن العجيب بحق ، كيف يمكن لهؤلاء البدو المرهقين ، فى ظل القيظ والحرارة طوال العام ، وليس معهم من شىء سوى حفنات من المريسى ، كيف يمكن لهم أن يتجولوا مع بعضهم البعض طوال أيام سعيا إلى الغزو ، فى ظل تعب مرهق ومميت ، وفى ظل أيضا عدم تأكدهم من العودة إلى ديارهم بأى شىء ، فضلا أيضا عن عدم تأكدهم من العودة أحياء إلى منازلهم المصنوعة من قماش صوفى محكم النسج . كان من بين ضيوف الشيخ مطلق شاب شرارى(*) ، جاء لعلاج بعض الإبل المصابة . وعندما سألت ذلك الشرارى عن جد أو إن شئت فقل : والد قبيلته ؟ رد على قائلا : "الأعراب لا يتذكرون الماضى القديم ، ولكن بإمكانك معرفة ذلك من كتبك : راجع كتبك لترى إن كان ذلك فيها أم لا . " كان هناك أيضا ضيف من نصف قبيلة "ولاد على" الذين يقيمون فى الشمال ، هذا الضيف سبق له أن جاء راكبا ناقته مع جج العام الماضى ، لزيارة أقاربه فى الجنوب . أمضى ذلك الضيف كل هذه الشهور مع هؤلاء البدو بصفته هاربا ، وهو يتنقل حاليا من خيمة إلى خيمة مع الفكرة ، إلى أن يحين الموعد التالى لصعود موكب الحج .

عاد إلينا شيوخ الموهاهيب فى اليوم الرابع ، يقتادون معهم جملا ، وسوف يركب الشبان الصغيران حامد ووعيل ، مع قربان السلام هذا لتوصيله لابن الرشيد . هاهو مطلق يقيم وليمة عشاء من جديد ؛ وعندما طلع النهار ، ركب الصديقان ، على حد قول الناس ، راحلتيهما ومضيا فى طريقهما إلى ابن الرشيد ومعهما الجمل ذى السنامين . كل الأعراب الداخلين فى نطاق سلطة الأمير ، والذين كانوا يعادونه إلى ما قبل استنجاره لهم ، كانوا يستأجرون فى سفرهم رفيقا من بدو الفجير ، وبالرغم من أن ذلك الفجبرى كان من بين معارف الشيخ طُجَّ القدامى ، إلا أنه أساء إلى تلك المعرفة عندما بدأ يساوم ويكاسر فى أجر تلك الرحلة : ومع ذلك ، كان ذلك الرفيق واثقا من

(*) شاب شرارى : من قبيلة الشرارات . (المراجع)

حصوله على غيار من الملابس من حائل . إبتداء من هذا المكان أمضى هذان الشابان سبعة أيام راكبين (ركوب البنو) وقاصدين "الجبل" (*) THE JEBEL . وعلى ذلك ، عاد طُلج ، وحده ، إلى وادي شلال Shellal ، ومعه حمالة صَبِيّ خَلْفِيَّة . - كانت ليالى تلك النهارات الحارة تبدو براداً فى سهل الحجر القريب ، ومع ذلك فقد اكتشفت أن درجة الحرارة (عند الفجر) كانت ٧٢ فهرنهايت، وفى أحيان كثيرة كانت تصل إلى ٧٦ درجة. قراب الماء التى كانوا يلقونها فى الهواء اعتباراً من غروب الشمس، كانت تتعرق يوماً، وفى غمضون ساعة أو ساعتين كانت تعطى من يشرب من مائها مذاق الماء المثلج ، - وعندما قست درجة حرارة تلك القراب وجدتها ٥٢ فهرنهايت . والماء الموجود فى الأبار الموجودة تحت البرج أبرد وأحسن من الماء الذى يجرى جلبه من بئر الناقة داخل القلعة. - كل الماء الذى ذقت طعمه فى الجزيرة العربية كان فاتراً ، ومختلفاً تماماً عن المياه الجوفية التى فى مناخنا ، والسبب فى ذلك أن رياح السموم تختلف عن أية رياح صحية أخرى ! - هذه الأبار بعد أن يجرى نضح مائها ، بواسطة مسقى من المساقى التى تستخدم فيها الإبل ، يرتفع الماء من جديد فى تلك الأبار خلال ساعات قلائل . مذاق هذا الماء ليس واحداً فى الأبينار كلها ؛ ذلك أن ماء البئر الذى يبعد مائتى خطوة جنوب غربى القلعة هو الأفضل مذاقاً . والسقاة عندما يسقط منهم شئ من أشياءهم فى الآبار ينزلون فيها طفلاً لجلب ذلك الشئ - اليوم كان طفل الشيخ مطلق هو الذى أنزل إلى البئر - الأعراب يربطون ذلك الطفل من تحت ذراعيه: وعلى حد قول الأعراب، فإن لديهم روعاً ممتازة على استعداد للمغامرة بحياتها على هذا النحو ، ويقولون أيضاً : إن الطفل ينزل بكل سرور وانشرح إلى هذا العمق الكبير والظلام الدامس .

نزل بعض المتسوقين قاصدين قرية العلا وكنت أنا بصحبتهم . كانت غالبية أولئك المتسوقين من الفهجات ، جماعة من الشحاذين يحملون على جمالهم أحمالاً من العشب البرى ، الذى سوف يقايضونه بشئ من التمر . كان من ضمن هذه الجماعة بعض من النساء القبليات اللاتى كن يسرن على أقدامهن : كانت واحدة منهن ، وهى

(*) الجبل : جبل شمر مركز حكم آل رشيد ويشتمل على جبلى أجأ وسلمى ، ويشتمل على قرى ومدن كثيرة من أبرزها حائل عاصمة آل رشيد ، وقفاز ويقعاء وسميراء . (المراجع)

مخلوق ضعيف جداً ، زوجة من قبل ، لرحيل Rahyel شقيق الشيخ مطلق ؛ وعندما طلقها تزوجها ابن أخيه الأكبر ذريح Therryeh ، وقد ظهر ذلك ، على أنه شكل من أشكال التملق والمداهنة . كانت تلك الجارة المسكينة قد أنجبت لولد الشيخ مطلق بنتا ، ونظرا لكبر سنهما عن سنه ، فقد طلقها وتركها لحال سبيلها . هذه المرأة الوحيدة حاليا ، تحمل معها سطلا مطلى بالقصدير ثمنه يتراوح بين شلنين وثلاثة شلنات ، جاءت لتبيعه ، وتشتري بثمنه جلد من جلود الأغنام كي تستعملهما قرابا في خيمة العزوبية . سألت ذريح Therryeh مرة ثانية عن زواجه غير الموفق هذا ، "هل حياتك الزوجية على ما يرام ؟" وأجابني ، "نعم إنها كذلك ؟" ولكن والد مطلق الذي كنا نجلس في خيمته رد على مؤكدا ، "أبدا ، والله ! ليست حياته الزوجية على ما يرام . وبينما كنا نركب نياقنا ونسير في الأدغال بين الصخور الوعرة والقمم والصخور المرتفعة ، سمعنا صرخة مفاجئة من خلفنا تنذر بالغزو ، ولكن سرعان ما تعرفنا راكبي الإبل ، على أنهم من أفراد القبيلة ، ومن المتسوقين الذين جاؤا إلى القرية .

في قرية العلا ذهبت لشراء بعض المؤن من صالح Salih المسلماني Moslemany ، ولكنني اكتشفت أن ذلك الرجل لم يكن صادقا أو أميناً في تجارته ، مثل سائر التجار الآخرين ، وقد جاءت زوجته تجرى خلفي في الشارع كي ترد الحق إلى صاحبه الشرعي . والعلاونة بخلاء في تعاملاتهم . وأنت إذا ما اشتريت منهم شيئا وأعطيتهم قطعة من النقود قيمتها أكبر من الثمن المطلوب ، فمن المحتمل أن يرفضوا إعادة الباقي إليك ، أو إعادة بضاعتهم إليهم ، قائلين لك ، "يمكن أن تأخذ بالباقي بضاعة ؟" يضاف إلى ذلك أنهم يكذبون في ردودهم وكلامهم ، بأنهم ليس لديهم شيء يعينه ، ولكنهم سرعان ما يظهرون ذلك الشيء على الفور إذا ما توفرت لهم ظروف أحسن وسعر أفضل . زد على ذلك أن الغريب العطشان يمكن أن يمر على أبواب هؤلاء العلاونة طالبا إليهم اعطائه قليلا من الماء ، ولكنهم يردون عليه ، "ليس لدينا ماء هنا ،" بالرغم من مشاهدة ذلك الغريب لقربة الماء المعلقة في مدخل المنزل . وقد اكتشفنا أن القرويين في قرية العلا رفعوا أسعارهم بنسبة ثلاثين بالمائة عندما علموا أن بدو الفكارة كانوا مخيمين في سهل الحجر .

الموكب الأخضر فى قرية العلا شىء جميل ، كسى أرض الصحراء بعد أن كانت جرداء . شاهدت ألف عرف من أعراف النخيل المحملة حالياً بثمار أرجوانية اللون وثمار صفراء وثمار حمراء ، كل هذه أنواع من التمر ، تلك الثمرة التى يجعل الناس منها هنا غذاء لهم ؛ أول هذه التمور الذى يجرى حصاده هو من النوع الرخيص ومع ذلك فهو طيب أيضاً ، ويباع بواقع عشرين صاعاً للريال الواحد ، هذه البساتين الكثيفة فى قرية العلا لا يفسد سكونها سوى ذلك الصراخ المرح الذى يصدر ، بين الحين والآخر ، عن طائر من الطيور آكلة التمور ، وقد اكتشفت أن درجة الحرارة عند الظهيرة تصل إلى ٩٢ فهرنهايتية فى تلك البساتين الكثيفة. والشمس هنا تطلع متأخرة، ولكنها تبكر فى الغروب ، عندما تختفى خلف سواحل الوادى العميق ؛ ولكن الليالى على اختلاف أنواعها تكون شديدة الحرارة ولا يتخللها أى شىء من الانعاش . شاهدت فى السواد الأعظم من أرض الخضراوات نوعاً من القرع العسلى كبير الحجم ، كما شاهدت أيضاً أنواعاً من الشامام طيب الرائحة .

دخلت البلدة للمرة الثانية قبيل دخول وقت العصر ، عندما يتجمع القرويون لشرب القهوة فى مقاهى شيوخهم . ومع أول قهوة التقيتها دخلت من عتبتها ؛ أفسح الحاضرون مكاناً للغريب ، وجلست بين الجالسين . - وسرعان ما سمعت صوتاً من أصوات أولئك القرويين ؛ كان ذلك الصوت يحمل نغمة التأنيب ، وكان صادراً عن مرح شبه محموم ، "هنا يجلس واحد من أبناء عمك ، وأنت لم تعرفه بعد !" نظرت فوجدت شاباً خفيف الحركة ، يجمع محياه بين السماجة والمرح الخفيف ، وكانت بشرته بيضاء وتميل إلى الاحمرار ، وذلك بالمقارنة مع بشرة العلوانة التى تشبه كُناسة المداخن . كان ذلك الشاب يجلس وعلى رأسه طربوش تركى أحمر ، له "زر" متأرجح من الحرير الأزرق ، - من المعروف أن أكثر أولئك القرويين الذين يكونون على طريق الحج ، يتشبهون بالدمشقيين . والد هذا الشاب ، كان نصرانياً ، وجاء هنا بغرض التجارة ، أو بسبب الهرب، من بعض أجزاء مصر ، إلى هذه المنطقة ، ونجح الناس فى قرية العلا فى إدخال ذلك الرجل فى الإسلام. هذا الشاب الصغير ، واسمه هويشيم Howeychim هو ولد هذا الرجل ، الذى حيأنى قائلاً : "كيف حالك ؟ وأنا ، مثلك ، إنجليزى (كان من الأفضل أن يقول ، من النصرارى الأحرار) . والذى كان من تلك البلاد: وعندما جاء إلى

هنا ، تكاثروا علينا ، وأمسكوا به وضربوه ، إلى أن نطق بعبارة "محمد Mohammed رسول الله rasúl Allah " . يا خليل ، الكلاب هي صاحبة اليد العليا ، وأنا هنا ، بفضل الله ، أصبحت مسلماً - ونقول "لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" وتسكن معنا وسوف يعطونك دخلاً . " رد شاربو القهوة بدورهم ، " نحن نعد بذلك ، ولكن انتبه يا خليل ، - ماذا كانت الكلمتان الصغيرتان ؟ انطق بهاتين الكلمتين معنا ولن يصيبك أى أذى . يا خليل ، أمن بالدين المنقذ ، وعندها لن تهلك أمور الحياة ، وسيكون كل شيء معك على ما يرام فى النهاية . - الجيران ، خليل رجل أمين ، ولكنه أعمى ، وقد يرضى الله عنه ويعطيه النور ، وإذا لم يعطه الله (سبحانه وتعالى) النور فذلك إرادته (سبحانه وتعالى)، والبلد هنا من بلاد المسلمين ، وهو حر يتجول فيها كيفما شاء دون مساعلة من أحد ."

عزمنى هويشيم Howeychim على بستانه ، قائلاً إنه سوف يعطينى بعضاً من الشمام ، ولكننا عندما وصلنا إلى ذلك البستان جعلنى أدفع ثمناً لذلك الشمام أكثر مما هو محدد له بسعر السوق ؛ وعندما عدنا فى أدينا ذلك الشمام ، تولى هو الرد على الرغى والقليل والقال الذى أصابنا من كل أولئك الذين التقيناهم؛ إذ كان يقول لهم: "والله ، إن هذا بقشيش Bakshish أعطيته للنصرانى ! " كان ذلك الرجل الوقح يجرى مهرولاً من أمامى ! وعندما كان يرانى مقبلاً عليه أخرج قدمائى كان "يصيح قائلاً : ما هذا ! إنك شاب ، أما انا فأحمل خمسين عاماً على ظهري : " كان ذلك الرجل ، يرى أن مسألة الضعف هذه أمر محتمل ، بالرغم من أنه كان يبدو أصغر منى بعشرين عاماً : "ولكنك صبى تماماً ، وبوسعك أن تعدو وتقفز أكثر من عنزة برية . " - آه ، أنت تقول ذلك لأنى بلا لحية ؟ كل ما فى الأمر أن الفرنان جانتنى وأكلت لحيتى أثناء الليل . " هذا الهويشيم، كان له ذهن يعينه على عمل أى شيء . قبل سنوات قلائل ، تخيل الهويشيم، تلك التربة الخالية ، المكونة من الغرين القيم ، والتي تقع على مسافة نصف ميل فوق الواحة ، وأسفل الخريبة ، بنى هويشيم لنفسه فى ذلك المكان حصناً Redout ، يزيد حجمه على حجم منزل أو منزلين ، وما زال ذلك الحصن باقياً إلى يومنا هذا ، ويحمل اسم ذلك الرجل . الحصن ، أو إن شئت فقل ، القلعة التى من هذا القبيل تكون عبارة عن "مسور مغلق مكون من أربعة جدران عالية ، ضماماً للأمن ، يحتوى بها الفلاحون

على وجه السرعة من تحرش البدو الرُّحل بهم . ولكن هويشيم لم يجد بغيته أو ما كان يتطلع إليه فى قرية العلا ، نظرا لأن أولئك الحضر القساة لم يكونوا على استعداد للسير على الخط الذى رسمه ذلك الرجل ، ومن هنا تبخرت آماله كلها . كان هويشيم دونا عن سائر أهل هذا البلد ، صاحب مطمح كبير كان يهدف من ورائه إلى أن يتمكن فى يوم من الأيام من تسلق روس كل هؤلاء الناس ، كى يصل إلى رئاسة البلدة . ذهب هويشيم فى العام السابق لزيارة خيبر ، وعثر هناك على رجل [أصبح صديقا لى بمعنى الكلمة فيما بعد] ، اسمه محمد النجومى el-Nejomy ، من المدينة (المنورة) ، - الذى حصلت منه أثناء مرجه الصاخب على الحكاية التالية - لما كان محمد النجومى رجلا قويا ، فقد حدثه هويشيم عما يدور بخلده ، وقال له تحديدا ، إنهما الاثنان ينبغي أن يعودا إلى قرية العلا ، ويجعلان من نفسيهما سادة هناك بقوة السيف . قال : أهل القرية من العلولة جبناء بحق وحقيقة ، وأن أولئك العلولة سيكونون ، والله ، لعبا فى أيديهما لو أنهما أطاحا بقلّة قليلة من الروس ، الأمر الذى سيمكنهم من تسود البقية والسيطرة عليها فى النهاية . - عندما اكتشفت أن تلك الجماعة البدوية لن تتحرك قبل الغد ، عدت إلى قهوة موسى ، التى سبق لى النزول فيها ، وقام ذلك الرجل الطيب بتقديم شىء من علف البستان لناقتى : أمضيت الليل وأنا خائف من هواء النخيل الرطب ، أمضيت الليل نائما على سطح منزله الذى كان يشبه الشرفة .

وصل المزيّد من البدو فى الصباح ، وكان زيد من بينهم . قالوا لنا : إن الأعراب تحركوا بالأمس (عقب رحيلى عنهم) ، وهم الآن عند آبار العذيب el-Atheyb - بالقرب من البلدة . كنت قد تركت زكائى أمام بيت الشيخ مطلق ؛ ولكن أصدقائى طلبوا منى الهدوء ، لأن المضيفين لا بد أن يكونوا قد حملوا تلك الزكائب معهم من باب التكريم . عدت إلى أولئك الأعراب بصحبة زيد ، الذى اشترى تمرا وأرزا بالأجل لحين مجىء موسم الحج .

- البدو الرحل هنا يعيشون متفرقين ، على مساحة طويلة منحدرّة من الرمال ، تقع بين صخور الأخرم Akhmar العالية وجبل الحرّة ؛ هؤلاء البدو كانت منازلهم تحتل مسافة تزيد على ثلاثة أميال ، عندما مررنا بها . وفى مساء الليلة التالية وصل معنا ، الذى كان يقود كفلاً آخرأ متجهاً إلى مدينة الوجه . صحيح أن معنا نزل أمام خيمة

الشيخ مطلق ، ولكن رحيل هو الذى قدم طعام العشاء ، إذ قام بذبح خروف طيب عند غروب الشمس ؛ وفى ساعة متأخرة من المساء ، استدعانا جميعا ، ونهضنا واقفين من خيمة الشيخ مطلق ، كي تنتقل إلى خيمة رُحيل . نظر إلى مهنا نظرة ودية ونحن نتحلق حول طبق الطعام ؛ - قال مخاطبا زيدا ، الذى جلس وتناول عشاءه بجوارى ، أهذا هو حال خليل لا يأكل يوما ؟ كيف لرجل ، تربى هذه التربية أو نشأ هذه النشأة ، يتحمل حياة البدو !

كان رمضان ، شهر الصوم ، على وشك الدخول ، وهذا الشهر يشغل أرواح المسلمين ، بما فى ذلك الأعراب الذين يعيشون فى البادية ، ويضفى على تلك الأرواح المزيد من الورع والتدين ؛ هؤلاء البدو ، يحاكون ما يحدث فى الحضر ، ذلك الذى شاهده فى المدينة (المنورة) ، وهم يخرجون من بيوتهم فى مواقيت الصلاة ، ويقفون على شكل صفوف ، ويستمعون إلى الإمام ، ويحنون جباههم الخالية ثم يسجدون . والشيخ مطلق عندما يكون هناك لا يصلى بالناس إماما ، ولكنه يقف مثل واحد منهم . والمسلمون جميعاً يتساوون فى الدين والعبادة . وأى درويش فاجر بوسعه أن يؤنب أميره ويوجه إليه اللوم فيما يتعلق بمسألة الدين ، ويتعين على ذلك الأمير قبول ذلك التأنيب واللوم بصبر لا ينفد . هذا هو الشيخ مطلق ، صاحب الصدر الضيق ، يؤنبه شخص ويقول له "حان موعد الصلاة" ؛ "جوم goom يا ʔa صل Sʔa !" بمعنى "هيا ! إلى الصلاة، انهض يا مطلق ، انهض وصلى !" - وصل أولئك المتحمسون فى تشددهم إلى حد جعل مطلق يقول عنهم مثلما قال أيوب الصديق ، "لا يمكن أن أدرجهم ضمن كلاب قطيعي !" ومع ذلك ، يقف الشيخ مطلق مطيعا ويذهب لأداء هذه الفريضة الدينية . وأعظم الشيوخ لا يمكن أن يفعل غير ذلك ، لأن هذا الذى يفعله فيه سلامه وأمنه بين إخوانه أتباع محمد ﷺ . قلة قليلة من حريم البدو هن اللائى يصلين أمام بيوتهن فى شهر رمضان ؛ ويندر فى غير شهر رمضان أن ترى امرأة تصلى .

على امتداد تلك الليلة ، كان القمر بدرا ، وبدت السماء وقد اكتست بزرقة ضوء النهار الجميل ، كما خلت أيضا من النجوم . وغاب القمر كلية مع اقتراب الصباح ، وقال لى الأعراب، أنهم رأوا السماء حمراء مثل الدم ، وهذا "مؤشر من مؤشرات درجة الحرارة المرتفعة" . كانت درجة الحرارة ٨٢ فهرنهايت عند شروق الشمس ؛ وطلع علينا

النهار بلا حبة هواء واحدة ، وقبل العصر كانت درجة الحرارة حوالى ٤٠,٥ مئوية ، كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وكان الأعراب واهنين ، ويرقدون على الأرض فى الظلال الناتجة عن الجبل الضخم . وفى اليوم التالى ارتفعت درجة الحرارة لتصل إلى ٤١,٥ مئوية (١١٠ فهرنهايت) ؛ فى عصر ذلك اليوم تحرك البدو عائدين إلى سهل الحجر . وأثناء سيرنا ، نزلت امرأة مسكينة كانت تسير بالقرب منى ، نزلت عن راحلتها بمحض إرادتها ، وهى حافية القدمين ، والأرض من تحتها عامرة بالأشواك ، وهبت لمساعدة الغريب عندما وجدت أن أمتعتى التى لم تكن محكمة الربط أخذت تنزلق وتسقط على الأرض - وهذه هى فضيلة طبيعية وفطرية من فضائل الأعراب .

عندما نزلنا فى مدائن صالح للمرة الثانية ، قامت الأسر البدوية بنصب خيامها فى أماكنها السابقة ، وشبت نيران المساء فى نفس الأماكن السابقة التى كانوا يشبون فيها نيرانهم من قبل . ومع طلوع شمس اليوم التالى ، وهى أبرد ساعات النهار ، وجدت أن درجة الحرارة كانت ٨٦ فهرنهايت ، وجدت أن درجة حرارة فترة العصر كانت ٤١,٥ مئوية . حال ذباب الحجر المقلق ، الذى كان فى كل مكان مثل الطاعون ، كما كان أيضا فى الظل الناتج من الصخور المرتفعة ، وفى ظل الخيام أيضا . حال بينى وبين الحصول على الراحة بأى حال من الأحوال . أويت إلى الديوان Diwan ، ذلك الممر الصخرى الذى لا تشرق الشمس عليه مطلقا ؛ ولكنى حتى فى هذا المكان وجدت جحافل كبيرة من الحشرات . فى كل مكان جلست فيه ، كنت ألاحظ طائرا من الطيور آكلة الذباب ، وهذه الطيور صغيرة الحجم ولونها يشبه لون الإردواز ، وهى تشبه إلى حد كبير طائر أبى فصادة ، وهى تنقض بخفة ورشاقة على الذباب ، وتختطف فريستها التى لا يمكن أن تفلت منها مطلقا : طرحت على ذلك الطائر غترتى (غطاء رأسى) ، وأمسكت به ودلته دون أن أصيبه بأذى ، ثم تركته يطير من بين يدى : وبالرغم من كل ذلك لم يبتعد ذلك الطائر عنى سوى مسافة قصيرة جداً ، ولم يطر مبتعداً عنى .

كانت خيمة الشيخ مطلق الوسيعة مكانا ينام فيه القبليون الجائلون فى فترة العصر : فى تلك الخيمة كانت ألسنة المتحمسين لرمضان البذينة تصب جام غضبها على النصرانى ، إلى حد أننى قلت لـ *Therryeh* ، فى أحد الأيام : آه ، من

جحافل الذباب ، هي والحرارة وكذلك الكلام الجارح الذي يصدر عن هؤلاء الدبوش !
إنهم يعرفون مصلحة الإنسان أكثر من الرب الذي خلقه . - " أنت تقول صدقا ، إنهم
دبوش بحق . - " ولكن ماذا يعبدون ؟ العقاقير المثيرة للشهوة والغليون ! - تلك هي
مقدساتكم أيها الأعراب . - " آها - ها - ها ! والله ، يا خليل ، هم لا يمكن أن
ينكروا ذلك ، وكل أفكارهم تتركز حول هذه الأمور ؛ البدو يقدسون هذا وذاك . " صحيح
أن ذريحا كان الأخ الأكبر للشيخ ، ولكن صالحاً أخيه الأصغر ، ذلك الشاب قوى البنية
صاحب المزاج المتغير ، كان هو الأكثر قربا إلى قلب أبيه . إضافة إلى أنه كان من
نسل أم تنتمي إلى أسرة من أسر الشيوخ ؛ وقد ورث صالح عن جده ، من أمه ، صرّة
لها قيمتها . كان مطلق يفضل صالحا ، الذي بدأ شأنه يتزايد في القبيلة ، وعندما وجد
زريح نفسه شبه مخلوع في المنزل ، رضى بأن يكون واحداً من أفراد البلاط . كان
زريح يشغل نفسه يوميا بزيارة والده ، (الذي كان يحس تجاهه بقليل من الدفء)
وكان ذلك يبدو من باب التملق والمداينة : كان زريح قد بنى لنفسه بيتا كبيرا مثل بيت
مطلق ، إضافة إلى أن منزله كان منزلا مستقلا مع الأعراب ؛ كان لدى زريح إبل كثيرة ،
إضافة إلى أنه كان قائداً شجاعا من قادة الغزو . سمعت هذا الرجل وهو يقول بين
زملائه وفي صوته مسحة من الحزن ، - " ولكني لست شيخاً ! " ورد عليه زملاؤه متلهلين ،
" أنت شيخ Sheykh الشيخ es-Sheukh . " أما صالح فقد كان مقيما في منزل والده ،
حيث كانت خيمته التي كانت أحسن الخيام ، لا تعدو أن تكون مجرد هجرة hejra
متواضعة . - ويتناول زريح بيده الكتاب الذي كنت أقرأ فيه ، وراح يسرّي عن نفسه بأن
أخذ قلمي الرصاص ليحدث رسما على صفحة من صفحات الكتاب - هذا الرسم من
وجهة نظرهم - عبارة عن صور للرجال والحيوانات .

كان من بين أولئك النائمين في خيمة الشيخ اتقاء لحرارة الشمس رجل لاحظت
أنه ليس من أهل الجزيرة العربية ؛ " درويش تائه أو ضائع (حسب ظني) تخلف عن
قافلة الحج " ومع ذلك كان وجهه أكثر اسمراراً عن بقية أوجه البدو . قال لي إنه
بستاني من بيروت ، وأنه بقي هنا مع الأعراب متخلفاً عن الحج الثالث ؛ وقال لي أيضا
إنه اشترى بالنقود التي كانت معه زوجا من الإبل ، كما زوجه بدو الخمالة Khamala
امرأة منهم ، أنجبت له طفلين . قال ، إنه اعتزم العودة إلى وطنه على الفور ، وأنه

سوف يصحب معه عائلته البدوية . كان الرجل يحس بالقلق والإرهاق فى الصحراء . ومن رآه أن حرارة فصل الصيف الحالى لم تكن أكبر من مثيلتها فى بلده الفينيقى . هذا الشخص كان مصابا فى إحدى عينيه ، - إن كثيراً من المجرمين يرافقون الحج ويهربون من العدالة : والمؤكد أن الفلاح متدنى الروح المعنوية إلى هذا الحد ، لا يمكن أن يضحي بما لديه من أشياء جيدة ، بلا سبب ، طمعاً فى حياة هؤلاء البدو القاتلة !

دخل الحاج نجم فى تلك الأمسية الأخيرة فى جدله القديم حول البلدان الغربية . قال مطنبا للجمهور المتشوق ، " يجب أن لا يكون تقديركم لخليل ومن هم على شاكلته بأنهم كفار ، لأنهم يؤمنون بمعظم الأشياء التى تؤمن بها نحن . سيدنا عيسى Isa ، ولد السيدة مريم ، ربهم ، هو فى واقع الأمر نبي من أنبياء الله . وكذلك عندهم موسى ﷺ ، وداود وقدامى الأنبياء ، وهم يقولون مثل المسلمين إن الله إله واحد ، وأنه لا شريك له وليس هناك غيره . انتبهوا ، يتبقى شيء واحد بيننا وبينهم ، إنهم لا يقولون عن سيدنا محمد ، - عليه الصلاة والسلام - أنه رسول الله . ويجب أن تعلموا أن أهل (شعب) خليل ، أى الإنجليز ، أصدقاء للإسلام ، كما أنهم جيران لنا . ولا يفصلنا عنهم سوى البحر الضيق من فاس ومراكش ، وبلادهم قريبة جداً منا إلى حد أن شاطئ بلادنا وبلادهم يظهران للسكان على الجانبين من خلف الماء : وكلام الإنجليز " Waar " - [ولكن البلاد السورية تقول عن هذا الكلام أنه " Helw " ، كما يقولون عنه أيضاً إنه " لغة Loghrat الطير et-Teyr " بمعنى إنه يشبه تغريد الطيور] . ثم عاد الحاج نجم يتمتم ويغمغم ، بحبه وهيامه لبلده الغربى ، " الملىء بالينابيع ويظله مناخ صحى ، والذى تمتد أعمار سكانه إلى أجال بعيدة ! " وراح الرجل يعد على أصابع يديه " كيف أن الإنسان يمكن أن يتجول على امتداد أيام كثيرة فى أى جزء من أجزاء بلاده ، دون أن يرى نهاية للنخيل فى ذلك الجزء ! وأخيراً فإن الصحراء الجرداء تمتد ناحية الجنوب امتداداً يقدر بمسير شهرين جنوباً فى اتجاه السودان (أرض الناس السود) : الذى تذهب إليه كل عام قوافل كبيرة من التجار المغاربة ، الذين يترددون على مدينة تمبكتو Timbuctu^(*) ، كما يذهب المغامرون إلى البلاد

(*) تمبكتو : عاصمة سلطنة مالى وكانت تعد من أهم الحواضر الإسلامية فى السودان الغربى . (المراجع)

العميقة الواقعة خلف السودان ، سعيًا إلى تجارة الرقيق ، وتجارة الذهب والعاج وأيضًا ريش النعام .” تحدث الحاج نجم أيضًا عن المدن الكثيرة التي على شاطئ البحر : كما تطرق أيضًا إلى العواصم الكبيرة . وفي فاس ، كان عدد المساجد يقدر بثلاثمائة مسجد ، إلى حد أن الإنسان عندما يدخل وقت الصلاة يمكن أن يسمع أصوات المؤذنين تنبعث من كل مكان في أرجاء المدينة ؛ كما أن عدد الحمامات يقترب أيضًا من عدد المساجد : وهناك نهر ينساب خلال المدينة ، يجلب السكان منه المياه النقية . والجميل أيضًا أن ينظر المرء إلى الشوارع العالية المستقيمة ، وإلى المنازل المبنية حفاظًا على خصوصية العائلات [في ضوء الغيرة على الأسرة الإسلامية ،] في كل مرحلة من المراحل ، زد على ذلك أن الأسواق تغص أيضًا بكل ما يلزم الحياة اليومية ، كما أن كل حرفة من الحرف لها مكان مخصص لها ، إلى حد أن الإنسان يستطيع خلال رحلة قصيرة ، الحصول على كل ما يحتاجه دون أن يضيع وقته في البحث هنا وهناك .” رد الأعراب ، وهم يأخضون بعين اعتبارهم كل كلمة من كلمات الحاج نجم ؛ وبعد أن انتهى من كلامه قالوا : ” اسمع ! يا حاج نجم ، أنت لديك أشياء رائعة يمكن أن ترويتها للناس ، وتلك الأشياء هي من معارفك الخاصة : أي ، والله ! من يسافر يرى الكثير ، ومن منا ، بخلاف من استمعوا لهذا الحكى ، يمكن أن يخطر بباله كل ذلك ؟ الدنيا كبيرة ، بلا شك ، وفيها الكثير من العجائب ، عجائب أكثر بكثير مما نعرف :- صدقت ! يا حاج نجم ، ماذا نكون نحن البدو ، سوى دبوش ، أو إن شئت فقل قطع من الحيوانات الصغيرة ؟” - أثناء عودتنا إلى خيامنا قال لى محسن : ” أنا معجب بالحاج نجم ، وهو يتكلم بطريقة شيقة ، وإذا ما تتبعه أحد ، فإنه قد يعاني من مصطلحاته المغربية ، وأنا شخصياً لا أفهم أكثر من نصف كلامه . وأنا لم أحتاج معه إلى مترجم : وقد لاحظت أن الأسماء الغربية للبلاد الأجنبية ، وكذلك الأشياء الأجنبية أيضًا كانت تترك البدوى الذى تربى فى الصحراء وتحيره .

كانت درجة الحرارة أقل مما كانت عليه من قبل ؛ كانت تلك الأيام تشبه الأيام الأولى من فصل الخريف ، ومع ذلك كانت درجة الحرارة في فترة العصر تتراوح بين ٥٠ ، ٤٠ و ٤١ مئوية . كان الحاج نجم العجوز ، قد طرد محمد ، ذلك الصبى البدوى من القلعة ؛ ولذلك جاء ذلك الصبى لتمضية الليل معنا في خيمة محسن ، الذى وافق

نظير الحصول على صقر ذلك الصبى ، أن ينقله فى الغد إلى قرية العلا ، الذى يمكنه السفر منها إلى أهل أمه البدوية . وفى الصباح ركب محسن راحلته ، ومن خلفه الصبى كما ركبت أنا أيضا ناقتى وذهبت لزيارة البلدة معهم . ترك الصبى البدوى زوجته تقطع المسافة سيرا على الأقدام ، إلى أن تصادف أن مر بنا قبلى جاء للتسوق ، فأركبها خلفه ، على غير رغبة منها . مررنا على قبر بدوى منعزل ، موضوع حوله بيارق برية من الحجر الرملى ، - قالوا ، هذا شيخ كبير من شيوخ ولاد على ، مدفون فى هذا المكان . وبالقرب من نهاية الأخمة Akhma ، أرونى صخرة مجوفة ، يطلقون عليها اسم "مخزن Makhzan الجندى el-Jindy" - وأن طريق الحج القديم كان يمر بذلك المكان متجها إلى قرية العلا . توفت زوجة أحد الجنود أثناء السير ، وعجل زوجها بدفنها فى ذلك المكان ؛ ونظرا لعدم وجود امرأة ضمن الجماعة المسافرة ، تقوم بإرضاع طفل المتوفاه . فقد تغاضى ذلك الجندى ، عن ذلك الطفل بأن تركه فى ظل الصخرة . وعندما عاد الأب مرة ثانية مع عودة الحج إلى المكان نفسه (بعد ذلك بسبعين يوما) وجد طفله ما يزال على قيد الحياة ، بعد أن تولت إناث الغزال الصحراوى إرضاعه . - نزلنا عن راحلتنا فى قرية العلا ، عند دخول وقت الظهر ، أمام قهوة موسى : كان القاضى فى ذلك الوقت مريضا بالحمى . زرت هذا الرجل الطيب فى منزله وتركت له شيئا من الكنين(*) .

عندما عثرت على هويشيم ذهبت معه إلى منزله كى أبتاع بعض المؤن ، وأدخلنى الرجل إلى مخزن بضاعته ، حيث شاهدت فيه أكواما كبيرة منظمة كل حسب نوعه ، وكل هذه الأكوام كانت من التمر الجديدة . وطلب منى الجلوس أمام أفضل أنواع هذه التمر ورجانى أن أجرح صيامى ، وأحضر الرجل لى شيئا من السمن فى الطبق الذى يستعمله قاعدة لمصباحه . وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث سمعنا شيئا من الضوضاء فى الشارع ، كما سمعنا أيضا حركة أقدام عند باب المخزن ، وهنا أمسك هويشيم بصفيحة التمر ، ليخفيها عن أعين أى من البدو الجوعانين الذين يمكن أن يدخلوا علينا فجأة . وسرعان ما دخلت علينا عنزة ، وهنا دخل علينا ، بعد خطوتين من

(*) الكنين : عقار قديم كان يستخدم فى علاج بعض أمراض القلب . (المراجع)

دخول العنزة ، ذلك القبلى المسكين ، الذى كان يقتاد تلك العنزة بدلا من النقود . ولكن هويشيم عنف ذلك القبلى وويخه وهو يصيح قائلا : "أخرج ، أيها البدوى الكلب ، أخرج من منزلى ، أنت وعنزتك ! - عليك اللعنة - لعن الله الأب الذى أنجبك ! " واعتذر الرجل القبلى عما بدر منه : "هو لم يطلب شيئا سوى عنزته ! " ولم يجرؤ ذلك القبلى على مجادلة أى إنسان فى الواحة ، نظرا لأن الجميع سوف يطاردون مثل هذا البدوى بالأذى والصياح والاحتقار . قال هويشيم عن الفكرة "مافى MaFi أرذل Arzal منهم Minhum " بمعنى "ليس هناك من هو أرذل من البدو المترحلين " .

بعد دخول الليل ، خرجت أبحث عن جماعتنا البدوية بين النخيل ، إذ كان من المقرر لتلك الجماعة أن ترحل قبيل منتصف الليل ، أى عند طلوع القمر ، عثرت على محسن ومعه عدد قليل من البشر ، نائمين على حصر مفرودة فى مزرعة التاجر ، وكان البعض منهم يشربون القهوة . - قمنا برحلتنا متجهين نحو الجزء العالى من الأرض ، وكنا نسير أثناء الليل ، وبعد مسيرة طويلة ، وصلنا إلى الأرض الفضاء التى أمام سهل الحجر ، وهذا هو القمر العجوز يعكس القليل من الضوء ، وشاهدنا النار التى يشبها الناس باستعمال حجر الصوان أمامنا ، كما لو أن شخصا كان يريد التربص بنا ، ورأينا فى ذلك أيضا الكبريت الذى يجرى إشعاله فى بنادقهم الطويلة ؛ - الحياة العربية مليئة بالخواف التى من هذا القبيل . وهنا لاذ البدو بالفرار على ظهور نياقهم ؛ أما الحريم فقد رحن يجرين هنا وهناك على أقدامهن ؛ وهذان هما رجلان جاءا معنا وكانا يقودان عددا قليلا من المواشى الصغيرة (الغنم) ، راحا يضربان تلك الأغنام ويستحثونها عن طريق الضرب المبرح حتى يمكن إخفاؤها فى ظلال الصخور المعتمة . ورحت أنظر حولى فى ذلك الضوء الخافت بحثاً عن محسن ، رفيقى ، ووجدته يتجول فوق السهل : سارعت أجرى فى أثره ، ونظراً لأن قبيلتنا كانت هى التى تسيطر على تلك الديرة وتمتلكها فقد كنا جميعا ننزل إلى الأسفل ونحن مجردين أو إن شئت فقل : عزلاً من السلاح . وهذه هى ناقتى العجوز ، قد بدأت تجرى وسقطت من تحتى مرتين ، وكنت كلما أوقفقتها ، كانت تتماسك على مضض وعلى نحو كنت أخشى معه أن تجهض وتخسر وليدها الذى يقال إن عمره يصل إلى عدة أشهر حالياً فى بطنها ، وهذا هو جوال التمر الذى كنت أحمله فوق ناقتى ، مساعدة منى لامرأة مسكينة ، هذا هو

الجوال يسقط من فوق عدة (سرج) الناقة . تساءلت: "ما كل هذه الفوضى يا محسن ؟"
 - أجبني "إنهم الحباليص" ، ولكننا عرفنا بعد ذلك ، وبصورة متدرجة ، أن تلك
 الفوضى لم تكن سوى إنذار كاذب . ولكن ناقة محسن العفية ، عندما استشعرت هواء
 الليل العليل ، شردت لوحدها ، وراحت تجرى ومحسن من فوقها ، قاصدة مدائن
 صالح . وعندما وصلنا إلى مدائن صالح قبل طلوع الفجر بلحظات ، وجدت محسناً
 جالسا في تفكير عميق داخل منزله (بيته) ، الذي وصل إليه قبل وصولي بنصف
 ساعة . وعندما ووجه محسن بتلك الحماقة - فقد تخلص عن رفيقه - راح يبارك ،
 بصورة تهكمية ، معرفة الآباء لتلك التوافه التي واجهتنا ، وراح يسم الجميع بأنهم
 "بدو" وأنهم أيضا "أجسام مصابة بمس من الجنون" . وقال إن السبب وراء تلك المتاعب
 التي وقعت أثناء الليل ، هو زنجي شاب ، أو إن شئت فقل العبد الذي حرره الشيخ
 مطلق ، الذي كان يمر متأخراً ، ولم يكن أمامه من بد سوى إشعال غليونه ، عندما
 سمعنا مقبلين عليه ، ظنا منه أنه سوف يعود بصحبة جماعة صديقة .

زار منزلنا كل من مشوات Mishwat ، شويش Shwoysh ، وسيدان Seydan
 وكلهم من الموءاهيب : هذا هو شويش ، الذي لديه زوجة جميلة جداً في بيته ، جاء
 لإقناع زوجة هاربة ، موجودة حالياً بين بدو الفكارا ، بالعودة معه إلى البيت . وهذا هو
 داريش Daryesh ، الذي انتقل مع أسرته من طُلُجْ ، جاء إلى هنا لينصب خيمته أسفل
 القلعة . كان داريش قد قام مؤخراً مع دولان Doolan وشخص آخر برحلة طويلة إلى
 ديرة الرولة Ruwālla على بعد حوالي ٢٥٠ ميلاً ؛ وهاهم عائدون خاويين الوفاض
 ومرهقين ومتعبين من منطقته تقع إلى الخلف من منطقة الجوف . وعندما كانوا قريبين
 من وادي تربة عثروا على ناقتي ، كما تعرفوا أيضا على أثر أقدامها ، كما تعرفوا
 أيضا على آثار أقدام حوريش الحافية . حكى داريش لهم الحكاية ، ونزلوا من فوق
 راحلاتهم كيما يتثبتوا مما شاهدوه: وهنا راح دولان يبتسم لي - ها - ها - ها ! خليل ،
 نعم ، هي - هي - هي ! لقد عثرنا على كل شيء في الرمل ، وبالتالي قلنا نتوقف طلباً
 لشيء من الفرح والمرح . "عفوا" (Elafu) Afuah) والله ، "عشت" Aysht يا خليل بمعنى
 "أعطاك الله الصحة والعافية على ما فعلت" : ويضع هذا المسكين يديه على كتفي
 ويجثو على ركبتيه من الضحك . وقد استراحت قلوب الواقفين عندما رأوا النصراني

قد هز حوريش الفتوة (القبضاي) (بل وأخذ جملة نو السنامين ، من وجهة نظرهم) .
 "والله ، يا خليل ، أنت ولد عمي ، - وما رأيك في داريش ؟" - لم يطق الذهاب إلى
 داريش ليبلغه بردى على سؤاله الذى قلت فيه إن داريش "غندور ، مزده بنفسه ،
 وشخص متعال متكبر" وأن الشيخ السراحينى ، عندما التقانى للمرة الثانية ، كان يبدو
 أنه أعلى منى قامه ، كما اكتشفت أن إحاطة الغريب علما بشهامته وكرمه كان أمرا
 مناسبا تماما . هذا هو بولان يعرج بعد أن رفسه الجمل ، والمعروف أن ضربة قدم
 الجمل ثقيله جداً ، وتدهور حاله فى هذه الدنيا ، الأمر الذى أدى إلى إيكال مهنة
 الراعى إلى شخص آخر . قال ذلك الفهجى المسكين " معناش " (*) Manásh بمعنى "لم
 يتبقى لنا أى شىء" ، وراح ذلك المسكين يعض ظفر إبهامه بأسنانه . عاد الموءاهيب
 مرة ثانية إلى وادى تربة . وهذه هى البئر تمتلئ ببطئ ، وأن ذلك حدث ، على حد تعبير
 البعض منهم ، منذ استحمام النصرانى فى تلك البئر ، "وكتابتة" على الماء ؛ يا لهذا
 الكلام ، ألم أعمل هناك طيلة فترة الصباح فى تطهير القنوات والمجارى المائية ؟ وترتب
 على ذلك أن أصبح تيار الماء أقوى من ذى قبل ، الأمر الذى جعل البدو يقولون : "لقد
 أحسن الغريب ، وقسما بالله أنه أفادنا ، ويتعين على كل من يسقى من هذا الماء أن
 يحلب عنزة لذلك الغريب ."

فى ذروة هذا المناخ ، كنت أراقب تقلبات الجو يوميا باستعمال الباروميتر . كان
 ارتفاع مدائن صالح [...] يصل إلى ما يقرب من ٢٩٠٠ قدم .

(*) هذه الكلمة إضغام للعبارة البدوية "ما معنا mamána شىء "Shy" أى لم يعد يتبقى لنا شىء مما كان
 لدينا من قبل" . (المترجم)

الفصل التاسع عشر

تيماء

الرحيل مع الأعراب بصفة نهائية عن مدائن صالح . إنذار مع مطلع الشمس .
كارثة المواهب . الرحلة إلى تيماء . مشاهدة القمر الجديد . بداية شهر الصوم الكبير .
منظر تيماء من بعد . المزارعون . امرأة فقيرة مشنتة الذهن . بيت ريفي في الضاحية .
رمضان . جنى التمر الجديد . حديث الحضر حول تنور القهوة . صباح شاق . عابر
سبيل يتناول طعام الإفطار . حسن . عجيل . زيارة المرضى . عادة التفل على العيون
المتورمة . خلف . شيخ تيماء . إفطار الصيام الكبير بعد غروب الشمس . عشاء
الصيام الكبير عند منتصف الليل . "حكايا" البدوى "عن الرحالة" . بدوى من الشمال
يتكلم منصف النصارى . أحد المنفيين من العلا . توبيخ واحد من المتشددین . أعمدة
أثرية . أسرة حداد . تيماء ثلاث واحات . فرس بثلاث أرجل . صيد الطيور البرية في
تيماء . هجرة الطيور . النصراني لا يراعى صيامهم . محسن ينصب خيمته في حوطة
أو بستان من بساتين تيماء . لعبة الداما . صيام النساء . قلق محسن على أهل بيته .
فصل الربيع . "البدو هم الذين سينقنون الإسلام" . رأيهم في صيام المسيحيين .

أخيراً ، وبعد انقضاء عدة أيام أخر من الحر الشديد ، والتي كانت بمثابة الأيام
الأخيرة من ذلك الصيف ، وعلى وجه التحديد في الثامن والعشرين من شهر أغسطس
غادر الأعراب سهل الحجر . وهام "تيممُون وجوهم مرة أخرى شطر" بلاد تيماء ،
وركبت أنا معهم وأنا أحس بسعادة بالغة مثل السعادة التي يستشعرها التلميذ عندما
يترك مدرسته الداخلية عائداً إلى منزله ؛ - وتخلصت أخيراً من احتقان العينين
واحتقان الأنف اللذان يصيبان من يعيش في منطقة هذه القمم الصخرية ، كما تخلصت

أيضا من القلعة ومن المغاربة الخطرين الذين فى مدائن صالح . الآن ويعد أن تركنا منطقة طريق الحج التركى ، أصبحت أجد أمامى ، أو إن شئت فقل الجزء المرتفع الحر من الجزيرة العربية !

تجاوزنا السهل المفلق الموجود فى الناحية الجنوبية الشرقية . شاهدت الكثير من الصقور التى كان يحملها راكبو النياق فى تلك الرحلة ؛ لقد أشتروا هذه الصقور من عرب البوابة ؛ وهناك بعض آخر من سادة البدو ، كانوا يحملون معهم فى تلك المسيرة كلاب الصيد الخاصة بهم ، فوق ظهور الإبل ، مخافة أن يؤثر الرمل الحار على أرجل هذه الكلاب . استمر ترحالنا على شكل مسيرات قصيرة فى اتجاه الشرق طوال أربعة أيام . وكان البدو كلما توقفوا فى فترة ما قبل الظهيرة ، يطلقون ماشيتهم فى المرعى . وبذلك تكون حرارة الصيف قد انتهت بالنسبة لنا فى هذه المنطقة المرتفعة متحركة الهواء . وعند شروق شمس الغد وبينما كنا جالسين لمدة لحظة ، قبل استئناف الرحلة ، وأمامنا نار شبيناها على وجه السرعة ، وجدت أن مقياس درجة الحرارة قد سجل ٢٧ فهرنهيتية ؛ واتضح لنا أن الريح التى كانت تهب علينا كانت ريحا باردة .

وأنا هنا سوف أترك تلك القرية الجائلة ، وأذهب مع محسن وجماعة من القبليين المساكين الذى سيذهبون لتمضية شهر رمضان فى بلدة تيماء ، حيث بدأت بشائر نضج محصول التمر الجديد . وسوف تجيء القبيلة إلى تيماء بعد شهر من الآن ، أو بالأحرى فى الأيام الكبيرة من الصوم الكبير (*) عند المسيحيين ، وذلك لتمضية أجازة العيد فى القرية من ناحية ، ولشراء التمور أثناء موسم الحصاد .

عندما طلعت شمس اليوم الأول من شهر سبتمبر ، وبينما كنا نغادر منازلنا ، سمعنا صرخات فى جانب من جوانب المخيم ، تصيح قائلة : " القوم ! El-Gom ! . وعلى إثر هذه الصرخات اندفع القبليون من بيوتهم ، وقد لف كل واحد منهم حزام الطلقات حول جسمه ، ويمسك فى يده بندقية الفتيلية الطويلة ، أو مسلح برمح أو جرية . واتجه

(*) الصوم الكبير : صوم أربعين يوما قبل عيد الفصح عند المسيحيين . (المترجم)

الشيوخ لإحضار خيولهم ، فى حين تقدم المشاة إلى الأمام ، وراح الكل يصيحون . ولم يتبق مع الحريم سوى عدد قليل جداً من الرجال المسنين ؛ وشيئاً فشيئاً ظنوا أنهم يسمعون أصوات الطلقات تصدر من الخلف . وهذا هو زيد مر علينا ، وهو بطيء بعض الشيء ، ويعود ولكن ببطء . كانت قسمات وجهه توحى بالصرامة ، وكان يستحث فرسه سعياً إلى المناورة والمحاورة التى كان يحاول القيام بها ، وكان الرمح الطويل يهتز على كتفه ، فضلاً عن أن سؤالف شعره الإسلامية كانت تتهفّف مع الريح راجعة إلى الوراء ، هذا هو أحد أبناء السبيشان Sbeychan يبدو كما لو كان شخصية عسكرية محاربة . وهؤلاء هم الصبية المتحمسون يقفزون فوق نياقهم ، ويسوقونها نحو الميدان ليقفوا على تطور المعركة : هذا الإقدام من جانب هؤلاء الصبية يقدره الكبار حق قدره . وهذا هو محسن ألقى حملة على الأرض ، وجرى فى إثرهم ، بلا سلاح فوق ناقته المجنونة . ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا رئيس كتيبتنا قادم علينا : - (وكما قيل) فإن ركوب مائة رجل على إبل بسنامين يعد منظراً مهيباً ، عادوا راكبين فوق سرّوجهم المرتفعة أو إن شئت فقل : العالية ملتزمين بالخطوات العميقة لماشيتهم ، وسط لمعان الحديد، ويتغنّون بأغنية الحرب، على شكل نسق طويل يشبه نسق القطعان.

علمنا بعد ذلك بنبأ الكارثة التى وقعت لأصدقائنا ! فقد عثر الرعاة الأول على بعض الإبل الغريبة فى الصحراء ؛ وقد تعرفوا على تلك الإبل من العلامة ٣ التى تدل على أن تلك الإبل مملوكة للموءاهيب ومن هنا راحوا يصيحون ، وبعد تكرار ذلك الصباح نفسه بعد الرعاة، وصلت أصدائهم إلى المنازل . - وعندما تولى ذريح Therreyh قيادة الجماعة المسلحة ، جاء رعاة تلك الماشية للقاء هذه الجماعة المسلحة وتحية تلك الجماعة بالعبارة التى تقول : "قوأك Gowwak يا ya ذريح Therreyh ، نحن من بنو العواجى "وأخذنا" الموءاهيب بالأمس فقط ؛ والله ، أخذنا كل إبلهم فى كل من سهل الحجر ، والمنطقة المجاورة لوادى تربة . - ونظراً لأن بنو الفكارة على الجانبين كانوا أصدقاء لبنو العواجى ، فلم يستطيعوا التدخل بين الطرفين ؛ ولكن لو أن الموءاهيب كانوا يتحركون ويخيمون مع بنو الفكارة فى ديرتهم ، لما تحداهم البشر وتعدوا عليهم . تجمعت من جديد ، فى صمت وتأمل الجماعة المتجهة إلى تيماء ، كان قوام تلك الجماعة

حوالى أربعين راكبا ، وراح كثير من أفراد هذه الجماعة كل يفكر ويتدبر تهديد أمنه وسلامته بصورة مستمرة ، وهو يواجه ذلك الحظ العاثر . وخلال ساعة واحدة كان أصدقائنا المقربين قد خسروا أرزاقهم أو إن شئت فقل : معاشهم ! واتضح حجم الهزيمة الكبيرة نظرا لأننا شاهدنا شيوخ هؤلاء الأصدقاء - لا من باب تجنب هذا الخطر وإنما لوصولهم متأخرين إلى أرض المعركة - وقد توجهوا للتعبير عن خضوعهم المذل للأمير . وهنا تنهد الأعراب أسى وحسرة وبلا اعتراض على ما يجرى ، ثم توقفوا بعد ذلك عن الشكوى قائلين : "لقد حدث ذلك بقدر من الله (سبحانه وتعالى) !"

بعد مسير ساعتين ونحن ركوب على ظهور نياقنا وصلنا إلى المسقى طلبا للشرب وملئ قراب الماء من بئر منعزلة من آبار القدماء ، وهذه البئر مبطنة بالحجر المبنى ؛ وبالقرب من تلك البئر كانت هناك شجرة من أشجار التين البرى . وأثناء سيرنا فى ذلك اليوم مررنا بثلاثة آبار صغيرة ، التى تكثر (فى المناطق التى لا تكون المياه الجوفية فيها على عمق كبير) فى كل أنحاء خلاء صحراء الجزيرة العربية القاحلة : هذه الآبار تكفى لسقيا مواشى السكان الصغيرة .

كانت الرحلة ساكنة وخائفة الزيح ، ونزلنا عن دوابنا قبل العصر ، فى منطقة وجدنا فيها ظلا ناشئا عن صخور ضخمة ، كما وجدنا فيها أيضا بعض أشجار الطلح ، فضلا عن مرعى للإبل . خلد الرجال إلى الراحة وراحوا يشربون القهوة ؛ وشبت ربات البيوت النيران ورحن يخبزن خبزا سريعا ، تحت رماد النيران ، هذا الخبز كان مصنوعا من آخر وجبة لديهم من وجبات الشعير . وبعد ساعة أو ساعتين ، وعندما أفاق الرجال والحيوانات من الحرارة الخائفة ، ركبنا راحلتنا من جديد واستأنفنا مسيرنا فى الصحراء ، أو إن شئت فقل : فى السهل الصحراوى ، إلى أن أوشكت الشمس على الغروب ، وعندها توقفت الجماعة فى منطقة سبق لهذه الجماعة أن خيمت فيها فى فصل الربيع . تعجبت قائلا : أيها الرفاق ، هذه هى أم سبع ! "Umsubba" ولكن هؤلاء الأعراب أحسوا بخيبة الأمل والإحباط، وذلك من باب التخوف من الأعداء ، عندما سمعوا غريبا ينطق باسم المكان ، بالرغم من أن ذلك المكان تميزه تلك المسلة الطويلة الفريدة المكونة من الحجر الرملى .

ومن حول نيران الحراسة راح الناس يتساقطون فيما بينهم ، حول إذا ما كانوا قد جرحوا صيامهم فى ذلك اليوم ، الذى حدده بعض شيوخ هؤلاء البدو على أنه اليوم الأول من شهر الصوم ، ولكن محسن المتحرر ، قال : إنه لا ذنب على من أكل "إلى أن يرى الهلال الجديد (وغالبا ما تكون تلك الرؤية فى مساء اليوم الثالث من الشهر) ، وبعدها يصوم الناس الشهر اعتبارا من ثبوت تلك الرؤية" . بعض آخر ردوا عليه : "الناس فى المدن يعتمدون على الهنـدى (المقصود علم الحساب الهنـدى) ، وهم يقولون إن ذلك الحساب دقيق ولا يخطئ مطلقا ، ولكن ما الذى نعرفه نحن البدو ! " استطلعنا فى بـجـة الليل ، مشاهدة القمر الجديد عند الغروب ، وعمره ثلاثة أيام : وراح البدو يحيون تلك العلامة السماوية بشئ من الأدعية الدينية ، وبخاصة أن تلك العلامة جلبت لهم شهر التدين والتقوى . سكان الصحراء يصومون كل شهور حياتهم ، وهم يلتزمون بذلك الصيام اليومى ويراعونه بدقة بالغة فى ذلك الشهر الفضيل . ولكن رمضان عند البدو عبارة عن إرهاق غير عادى يشيع فيه تأوهات هؤلاء البدو وشكاواهم ؛ إذ يصبح من الصعب على هؤلاء البدو الامتناع عن الشرب وعن تدخين التبغ لحين غروب شمس الصيف ؛ بل إن المتزوجين يفترقون عن زوجاتهم طوال أسابيع الصوم . والبدو الرحل هم والقرويون يقولون إن شهر الصوم الكبير الذى يتعين الحفاظ عليه نظيفا وطاهرا ، يتحول إلى موسم للشر والخبث ، إذ تنساب فيه رذائل الطبيعة البشرية . والذين يراعون الصيام والصلاة خلال هذا الشهر ، من بين البدو لا يزيد عددهم على النصف بأى حال من الأحوال ؛ - أما بقية البدو فمن "الجهال" ، - بمعنى أنهم لا يعرفون كيف يؤدون الصلاة ، ومع ذلك فهم يحتفظون فى داخلهم بقليل من التطرف والتشدد ، وهذا نوع من الحقد الوطنى أو إن شئت فقل: شكل من أشكال الوطنية السامية Semitic . - وبالنسبة للرعاة الذين تشويهم طول النهار حرارة الصحراء ، يصعب بل ويستحيل عليهم أن لا يشربوا الماء إلا بعد أن ينطفئ قرن الشمس عند غروبها . المسافرون عليهم القضاء : القرآن يرخص لهم أن يقضوا الأيام التى عليهم عندما يعوبون إلى ديارهم .

بدأنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، وكان ينتظرنا طريق طويل خائق ساكن الهواء ، يتعين على البدو قطعه أو إن شئت فقل تجاوزه اليوم وهم عطشانيون ؛ وعندما بدأت حرارة الصباح تزداد من فوقنا ، كنا قد قطعنا مسافة كبيرة فى اتجاه

قرية تيماء - هذه هي العلامة الأرضية المتمثلة في جبل غنيم^(*) Ghreneym بدأت تظهر لنا - وما نحن نصل إلى تلك التربة العارية الجرداء التي تقع قبل بلدة تيماء ؛ هذه التربة عبارة عن أرضية من الصخر الرملي أرجواني اللون ، المشوب بأحجار الحديد وبالحصى أيضاً ، الذي لا تنمو فيه الحشائش بل ويندر أن نرى فيه أى دغل من أدغال الصحراء . مع بدايات فترة العصر بدأنا نشاهد أعراف نخيل الواحة ، ثم اقتربنا بعد ذلك من مسور البلدة الدائري . هذه هي البساتين الخارجية بدأت تطالعنا ونحن نقترّب منها ، - هذه البساتين تشبه في نظرنا جنة عدن بعد منظر الصحراء الذي تعودت عليه عيوننا ؛ وما نحن نرى النخيل المحمل بالثمار ، من تحت الأعراف الجميلة ؛ هذه تمرور ذهبية اللون ، وتلك تمرور أرجوانية اللون . لقد مرت جحافل الجراد هذا العام على القرى كلها ، ولم ينجو من أشجار تلك القرى سوى ما يزيد قليلا على النصف وبخاصة في قرية تيماء . تفرقت الجماعة وراح كل عضو من أعضائها ينصب خيمته فوق أرض صديقة . أما أنا فقد رافقت محسن ، حيث برُكنا إبلنا فوق بعض بقايا الجدران الطينية المهتمة في أرض واسعة : وراح الرجال ينادون في عجالة على ربات البيوت ويطلبون منهن نصب الخيام ؛ نظرا لأن البسوس العطشانيين يوبون اتقاء حرارة تلك الشمس الحارقة .

خرج علينا من البوابات التالية بعض العمال الذين كانوا يحملون فؤوسا في أيديهم ؛ طلبت من أولئك العمال علوجاً من التمر الجديد (من باب إحسانهم السامي Semitic إلى الأغراب) ، وكوبا من الماء . (قال القرويون وهم يتعجبون) أخ ! ما لهذا الرجل الذي معكم ، أيها الفكاره ، الذي يأكل ويشرب في رمضان ، وما زالت الشمس طالعة ! - يا للعار ! ألا تعرف الله ، يا أنت ؟ ثم انهالت على بعد ذلك التعليقات والتوبيخ من كل جانب . قال أحدهم : "أليس هذا هو خليل الكافر ، ذلك الرجل الذي كان هنا من قبل ؟ نعم ، إنه هو . " - "خسئت يا أنت ، يا من تمنع عني

(*) جبل غنيم : من الجبال المقدسة عند التيامنة الذين كانوا خاضعين للمملكة النبطية . وقد وجدت في قمة ذلك الجبل العديد من المخربشات المكرسة إلى الإله الأكبر «صلم» تدعوه إلى أن يحقق النصر على الأعداء .
(المراجع)

الطعام وأنا عابر سبيل ، مسافر musafir - (قال صوت امرأة ، تصادف أن كانت تمر بالقرب منا وسمعت ما يدور بيننا) " ها ! هذا الغريب يقول الحق ، إنكم أنتم ، يا رجال تيماء ، الذين لا تخشون الله ، " ثم مضت مسرعة في طريقها بعد ذلك . وفى وقت آخر ، وبينما كنت أسير معهم ، جاعنى تلك التى كانت تبدو امرأة مسكينة من البدالة Bedlam ، وهى تجرى ، وراحت تشدنى من عباى بون أن تقول كلمة واحدة ، وفتحت حجابها ؛ وينظرة تدمى القلوب مدت إلى هذه المرأة يديها الضعيفتين ، وهما مملوحتان بالتمر والرمان ، وراحت تومئ لى برأسها إشارة منها لى بقبول هذا التمر والرمان ؛ كانت تلك المرأة تعيش فى المكان الذى قصدناه للسقيا وطلب الماء . - هذه المرأة المسكينة جاعنى فى المساء ، كما لو كانت شبه مشدوهة وتكاد تتراجع مما تراه . قالت : أيها الغريب ، تبأ لى ! لماذا لم تأكل كل الثمار التى قدمت لك ؟ لقد جريت وجلبت لك تلك الثمار عندما سمعتك تتحدث عن الطعام . اعلم أنى امرأة مسكينة مصابة فى عقلى . - يا الله ! من أعطى هو الذى أخذ ! لقد خسرت أطفالى ، الواحد بعد الآخر ، أربعة أبناء ، وقد رجوت الله أن يترك لى الطفل الأخير ، ولكن توفاه الله أيضا - واعذابه ! - كان ذلك الطفل الأخير قد دخل فى طور الرجولة . وأنا فى بعض الأحيان يعترضرنى الحزن ويضنينى ويسيطر على ، الأمر الذى يجعلنى أهيم مثل المجنونة ؛ ولكن قل لى ، أيها الغريب ، أليست عندك نصيحة لى فى هذا الأمر ؟ وفيما يتعلق بى فأتا أفعل ذلك الذى تراه ، - أحاول تلبية احتياجات الآخرين - متطلعة إلى رحمة ربى لى فى النهاية . "

- هؤلاء هم رجال تيماء ضغطوا على جماعة الآبار ، ضغطا بارعا وجعلوهم يجلبون الماء للضيوف . كان المكان المخصص لضيقتنا عبارة عن بيت ريفى كبير ، يقع على بعد مسافه قصيرة من جدران البستان الرئيسى فى قرية تيماء . ووسط ذلك البستان ، كان هناك مبنى عل شكل منزل ، أو إن شئت فقل : قصر kasr ، - كانت هناك مجموعة من الغرف المبنية من الصلصال داكن اللون ، تحيط بأرض فضاء طويلة على شكل مربع . وكانت تلك الغرف مظلة لحمايتها من أشعة الشمس ، بواسطة سقف سائب محمل على أعمدة من جريد النخيل . كان بستان المضيف واحدا من بساتين النخيل ذات الأسوار الجيدة ؛ لم يكن ذلك البستان مقصورا على النخيل فقط وإنما

كان صاحبه يزرع فيه القمح أيضا ، كما كان ذلك البستان يسقى ليلا ونهارا من بئر مركب عليها جهازين لجلب الماء : ومع كل ذلك لم تكن هذه الممتلكات تكفى تماماً أو تفى تماماً ؛ بالاحتياجات المعيشية البسيطة لأسرة عربية من عام إلى عام . كان ذلك المضيف يبيع ما يزيد عليه من ثمار أشجاره غير المضمونة ، للبدو نظير ثمن معقول ؛ فقد كان محتما على ذلك المضيف دفع أجور العمالة الموسمية التى كان يستخدمها ، ودفع أجور الإبل التى كان يستخدمها فى جلب الماء من البئر ، ودفع ثمن الأنوات ، علاوة على دفع ثمن حبل البئر المصنوع من الجلد ؛ وفى ضوء ما يقوله هؤلاء الملاك الصغار ، عن مصروفاتهم وعن مديونياتهم ، يستطيع المرء أن يعرف أن أولئك الملاك يرفعون رءوسهم بصعوبة بالغة فى هذه الدنيا .

هؤلاء العرب الذين يعانون معاناة شديدة من العطش فى الأيام الأولى من شهر رمضان ، يستلقون على صدورهم يتنهّدون ألما طوال ساعات النهار التى تمر بطيئة عليهم ، ويروحون يركزون أبصارهم وأفكارهم على ضوء النهار إلى أن تغرب عين الشمس مبتعدة عنهم . وبعد انقضاء خمسة أو ستة أيام من أيام شهر رمضان ، يكون هؤلاء العرب قد اعتادوا على الابتعاد عن حرارة وضوء النهار، ويحاولون استغلال الليل إلى أبعد الحدود . وإذا ما صادف شهر الصوم موسم حصاد القمح ، أو حصاد محصول التمر ، فإن العاملين فى جمع هذه المحاصيل يتعين عليهم تحمل العطش البالغ من أجل الدين ؛ والمعروف أن القرويين ، فى شهر رمضان ، يتنازلون عن كل العمل الجاد ، باستثناء مسألة إدارة بئر الماء التى يجب أن لا تتوقف مطلقا . كان القسم الأكبر من أنواع التمور التى ينتجها أولئك القرويون قد نضجت وطابت مع انتصاف شهر الصوم؛ ومع ذلك ترك أولئك القرويون تلك التمور معلقة على أشجارها . صاحب المزرعة ، الذى كررت له رجائى بمباشرة عملية الحصاد، تأخر عن القيام بذلك، كما لو كان ذلك التأخير غير نابع منه . (همس لى أحدهم) هذا فيه ألم للرجال ، الذين يهدم العطش والجوع ، عندما يرون شخصا آخر يأكل الحلوى ويشرب الماء ؛ - صاحب المزرعة تلكأ أيضا كى يسخر بعض الشيء (وهذه رغبة يحبها العرب) من ذلك الغريب من منظور أعرافهم الدينية العالية . ثم خرج صاحب المزرعة بعد ذلك ، وأحضر لى عسلوجين من عساليج التمر الممتاز ، من ساق واحدة من النخيل ، كانت تلتف حوله

عيدان شجرة التوت ، التي كانت بدورها تحمل ثمارا أرجوانية اللون لم تنضج بعد ؛ هذا التمر الملىء بالعصارة حلوة المذاق يطلق البدو عليه اسم "البليح" blah طوال فترة النضج ؛ والعرب يعدون البليح صحيحا ومنعشا تماما . يضاف إلى ذلك أن الأنواع الشائعة من التمور تكون من الناحية الغذائية ، أفضل عندما تكون بلحا ، - البليح عندما يلين عندما يكتمل نضجه على أشجاره ، وينتفخ حجمه بفعل أشعة الشمس وينساب منه نوع من عسل التمر .

عدنا إلى أصدقائنا في الكوخ عند حلول المساء ، وهى الفترة التى يُسرى العرب فيها عن أنفسهم ويشغلون خلالها غلايينهم التى يتمتعون بها ، وذلك من باب العزاء لأنفسهم . هذه هى النار قد شبت من جديد فى الوجار الذى كان بارداً من قبل ، وهذه هى فناجيل القهوة قد جهزت من جديد ، ومشروب القهوة لا يراه الناس أو يعرفونه هنا ، فى معظم الأحيان ، فى هذا المكان الفقير . تلى ذلك وصول بعض الأشخاص قادمين من البلدة ، وكان كلام هؤلاء الناس معنا ، نحن القادمون الجدد عن الحدّاج (بئر الماء) المهْدَم ، "قالوا لنا ، إن التيامنة مقتنعون أن البئر انهارت بعدما "كُتبت عنها" ، وأنهم إذا ما رأوني مرة ثانية فى بلادهم ، فوالله ، سوف يقتلنى أهل البلد الذين أصابهم الغضب . " ولأنهم سبق أن شربوا معى شرية الصلبة والصدّاقة ، فقد نصحونى بعدم المغامرة والدخول إلى تيماء مرة ثانية ؛- سوف أترك الأمر لأصدقائى البدو ، لأنهم هم الذين يتعين عليهم المحافظة على حياتى . رد محسن (وقد كان رجلا حاسما) على ذلك بقوله ، "مع طلوع نهار الغد ، يتعين على خليل ، أن يركب ناقته ويعود ثانية إلى زيد." - قلت لهم : انتبهوا ! ، إذا كنت أنا مذنبا فى مسألة انهيار الحدّاج (بئر الماء) ، فأنا لم أجيء إلى هذا المكان بمحض إرادتى . وهل يمكن لأجسامنا أن يطول تحملها إلى أبد الأبدى ؟ المباني القديمة تسقط ، وكذلك أيضا فإن هذه البئر القديمة لابد أن تتحلل فى وقت من الأوقات . " - ولكننا سمعنا ، أنك رفضت إعادة بناء البئر بعد سقوطها!" - تركناهم على هذا الوضع فى تلك الليلة .

كانت اللحظات الأولى من شروق شمس الغد ، من تلك اللحظات البشعة الثقيلة التى كانت تمر على ، فى معظم الأحيان ، فى الجزيرة العربية ، وذلك عندما علمت من أصدقاء العيش والملح ، أن حياتى أصبحت مهددة ، وراحوا يحثونى ويقتنعونى بالهرب

ومغادرة المكان على وجه السرعة . جاء إلى بعض الحريم عندما استيقظت ، - كان محسن قد غادر المكان في فترة البرّاد ، أى قبل طلوع الفجر ، قاصدا تيماء ليبيع فيها رداء جديدا لونه مثل لون الزعفران ؛ وكانت بقية الرجال قد ذهبوا معه - هذه هي شقيقة زيد ، مضيفتي ، هي والنساء الأخريات رحن يحثوني على الرحيل ومغادرة المكان على وجه السرعة ، "مخافة أن يقتلني أحد أمام عيونهن" . - هذه الزوجات البدويات كن قد ذهبن أثناء الليل لزيارة صديقاتهن في المستوطنة ، وأثناء حديثهن ذكرن أن النصراني قد وصل بصحبة الجماعة . "صاحت ربات البيوت التيمانيات ، النصراني ! - - أليس هذا ، على حد قولهم ، واحد من أبناء الشيطان ؟ عجبا ، جاء ليقيم بيننا ! وأنتن ، إن كنتن تخشين على حياة خليل ، فلا تسمحن له أو تتركه يدخل تيماء ، - لأنه بمشيئة الله ، إن دخلها اليوم ، فسوف يقتل في الغد : لقد أقسم بعض رجالنا على قتل خليل . " - ولماذا تظنون السوء بذلك الرجل ؟ وهو يعيش بين البدو منذ مدة طويلة ، وفيما عدا أن اسمه النصراني ، فليس هناك أى غبار عليه . - "مع ذلك ، يجب أن تعلمن أنه شخص شرير ، كما أنه من أعداء الله ! وهم يزيدون على ذلك ، أنه ساحر ودجال ، ألم تسمعن عن انهيار الحداج (بئر الماء) ؟ والرجال يقولون : إنها عينه الحسودة . - ألم تكتشفن أنه أثم ؟ ولكن أحدا لا يستطيع أن يقطع بماهية ذلك الخليل . ولا حتى بالمكان الذي قدم منه إلى أرض الأعراب . من الذى سبق له أن علم بمجىء أى نصراني إلى هذا المكان ؟ وأهلنا هنا يرون أنه لا ينبغي أن يبقى على قيد الحياة ؛ وقتله سيصبح ميزة ومنفعة . "

"قالت زوجة محسن ، يا خليل التيامنة مصممون على قتلك بسبب ما حدث في الحدّاج (بئر الماء) ، وهم إذا ما جاؤا فنحن قلة ولا يمكن لنا أن نقاومهم . التيامنة ليسوا هم البدو ، الذين لديهم فكرة طيبة عنك ، فضلا عن احترامهم وتقديرهم للدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، ولكن أهل تيماء أصحاب الروس اليابسة ، وأصحاب أذرع طويلة أيضا ، إلى حد أننا ونحن نقيم هنا ، نشعر بالخوف منهم؛ التيامنة خونة ، ملعونين malaunin ! " - قال محسن الذى وصل في التو واللحظة : "إخص ! سيأتى البعض منهم إلى هنا ، أثناء بقاء خليل في هذا المكان؛ أربك الله التيامنة؛ أركب ناقتك ، يا خليل ، وحل بينهم وبين ما يريدون ! " - أردفت النساء قائلات : "إذا ما فعلت ذلك

على وجه السرعة ، فلن يستطيعوا قتلك . " صاح الأطفال قائلين : " أركب ناقتك وعجل بالابتعاد عنهم يا عم خليل . " هذا هو صالح صاحب الشعر الأشيب ، وحامل بندقية والد زيد ، وحارس زيد الخاص ، كان يستحسنى على الركوب والهروب إلى البدو ، " (قال) أعرابنا مازالوا فى المكان الذى تركناهم فيه ، كما أن ولدى ومعه شخص آخر على وشك أن يعودا بناقتيهما مع الإبل ؛ هيا ، أركب ناقتك وأنقذ نفسك مع هذين الشابين ؛ وأبق مع زيد ، وبين أصدقائك ، إلى أن يحين موعد مجيء قافلة الحج . " -

" وإذا كان كل ما نقوله غير كاف لتحريكك وحثك على التصرف بسرعة ، قالها الرجل العجوز هو ومحسن ، فذلك يعنى أنك فقدت فهمك وتقديرك للأمور ! - وأنتم أيها الرفاق ، هذا الرجل الذى كنا نعهده حصيفا وعاقلا (من خلال كتبه الحكمة) ، يتشابه تماما مع أى رجل من الرجال الذين يتلبسهم الجن : انهض حالا ! حتى لا يهدروا دمك أمام أعيننا . وهم إذا ما جاءوا إلى هنا ، لن يكون أماننا سوى استعطافهم ، ولكننا لن نستطيع منعهم من ذلك الذى يريدون فعله ، - والله ، إن أهل هذا البلد ملاعين . - نحن لا نعلم شيئا عن ذلك الذى ربما يكون قد ارتآه (فى كتبه) ؛ ومع ذلك ، لا تبقى هنا يا خليل ، انهض فورا ، واهرب من هؤلاء الناس مع الشابين ! أه ، من هذا التأخير ! إنه لا يلقى بالا لكلامنا جميعا ، وإذا ما بقى هنا ، فقد لا يكون أمامه من الحياة سوى لحظات قصيرة : - وما هو خليل ، ما يزال لم يتحرك أو يفعل شيئا ! " صوت آخر ، " قد يكون الله قد كتب عليه الموت هنا ؛ حسن ، اتركوه وشأنه . " ورحت ألوم أولئك الرجال الذين وثقوا بكلام الحريم السخيف . - " وماذا سيحدث إذا ما جاء التيامنة ، ألا أستطيع أن أجعلهم يتراجعون عن طريق العقل والمنطق ؟ " - هؤلاء الذين سيأتون حالا إلى هنا سيكونون غاضبين ولن يستمعوا إلى كلام أى أحد . -

هناك حكمة جلدية بين الألم واللذة ، وهذه الحكمة تتمثل فى تلك القسوة البالغة التى يستشعرها الأطفال . عندما يرون شخصا آدميا مثلهم يعانى او يقاسى من كرب مميت ، دون أن يؤثر ذلك على شغاف قلوبهم ؛ وما أنا عندما أتطلع فى هؤلاء الأطفال من حولي ، أراهم وهم يطيلون النظر إلى عيني ، والبعض منهم يغفرون شفاههم عجبا وحسرة ، كما أرى أيضا احمراراً غير إنسانى بدأ يظهر على وجوه هؤلاء النساء نوات الوجوه الذابلة الشاحبة . " آخ ! ماذا يحدث لو قدر الله لهذا الرجل أن يقتل ! - ها نحن

نرى أنه لا يفهم ما نقول ولا يستمع إليه ، ولا أظن أنه يتغابى عن فهم ما نقول ! ها نحن نكرر ما قلناه مرة ثانية ! أركب ناقتك ، يا خليل ! فليس أمامك فسحة كبيرة من الوقت . والله ، نحن لا نود لك أن يهدروا دمك بجوار بيوتنا ، وعلى أيدي أهالي تيماء المتهورين ، ونحن لا يمكن لنا أن نسلمك لهم . - أيها الأصدقاء ، عندما كنت في تيماء في المرة الأولى وجدت أهلها طيبين وعلى ما يرام . - عندئذ ، أنت كنت بصحبة شيخ كبير ، هو زيد ، أما هنا فليس معك من يحميك ويأويك ! - ولكن طالما حاولنا ولم نفلح في إقناعك ، نتمنى أن لا يصل الأمر إلى ما نخافه ونخشاه ! - لقد فات الأوان ، وربنا يستر .

عندئذ وصل شابان من أهل تيماء ، وتكلما معنا كلاما حلوا . كان أولهما يدعى حسن بن سلامى . Salamy ، حسبما قال لى البدو ، وهو من الشمال ، ويمارس حالياً مهنة الجزار في تيماء ، - وحسن هذا هو الذى جلب هذه المهنة الجديدة إلى تلك البلدة التى تشبه بلاد البدو . كان ذلك الشمرى (*) يتباهى بأنه شاب متمرس فى الأسفار ، فقد سبق له أن زار الشام وزار العراق وهو حالياً يبحث عن مزايا العقل الحر . ولما كان حسن هذا واحداً من أشد العقول تحركاً ، فقد كان أول من خرج على أثر سماع شائعة وصول شخص غريب إلى تيماء ، واقتاد معه ذلك الشيخ ، الذى يسكن معه فى نفس السوق (الشارع) ليكون بصحبته . سيقوم حسن بنفسه بتحديد ما إذا كان ذلك النصرانى ينتسب إلى شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل التى سبق أن زارها ، أو ربما يكون قد مر ببلاد هذا الشعب أو تلك القبيلة أثناء اشتراكه فى رحلات القوافل: يضاف إلى ذلك ، أنه دار بخلده ، أن ذلك النصرانى ربما يكون فى يده شطارة Shatara أو تفوق ، فيما يتعلق ببناء الحدّاج (بئر الماء) ، وبالتالي يمكن أن يحصل ، نظير ذلك ، على الشكر والثناء من شيوخ القرية . هؤلاء التيامنة كانوا قد بنوا جدار البئر ثلاث مرات منذ حلول فصل الربيع ، بنوا جدار البئر ثلاث مرات ، وها هو ينهار من جديد . وهذا هو أفضل المهندسين القرويين ، الذى بنى منازل تيماء الوسيعة العالية من الصلصال والصخور . كان هو المشرف على بناء جدار البئر فى المحاولتين الثانية

(*) الشمرى : من قبيلة شمر . (المراجع)

والثالثة ، بل إنه تقاضى مكافأة كبيرة على ذلك ، - تقاضى خمسين ريالاً . وكالعادة ارتفع الجدار ، وقام ملاك الأراضي بتركيب عدد الرى ، وبدأت فرق الرى عملها على التربة التى لم تجف ، حتى لا يستغرق الرى زمناً طويلاً ؛ وهنا هوت وانفصلت التربة الضعيفة ، وانهار كل ما بنوه مرة ثانية . لم يعرف التيامنة ذلك الذى يمكن أن يفعله بعد ذلك ، وعندما دخل عليهم رمضان ، تركوا الأمر على ما هو عليه ؛ يضاف إلى ذلك أن العمال (حفاظاً منهم على وقتهم) طالبوا بأجور أكبر ، - إضافة إلى أن هؤلاء العمال لا يعملون فى شهر الصوم إلا مدة نصف اليوم فقط .

كان آخر انهيار للبئر قد مضى عليه أسبوعان . قال الببوى ، إننى إذا كنت صاحب شطارة Shatara فى البناء ، فإن الشيوخ سوف يصدقون على ، ويعطونى ذلك الذى سوف أطلبه . أكد حسن من جانبه هذا الكلام ، نظراً لأنه واحد من الراعيات ralyat ، أو إن شئت فقل : أحد الملاك الرئيسيين للبئر ، أو بالأحرى فى الجزء المخصص له من البئر ، ألا وهو الجزء الذى انهار بالفعل . قلت ، سوف أذهب لمعينة البئر ، إذا كانا يريان أن البلدة آمنة . - (قال حسن) لا تخشى شيئاً ، وأنا ضامن thamin لك أمام هؤلاء الموجودين هنا ؛ وأنت إذا لم تكن صائماً فتعال إلى بيتى ، وسوف أعد لك إفطاراً ؛ ثم نذهب بعد أن نتناول الإفطار لمعينة البئر ؛ ولكن فيما يتعلق بسقوط الجدار ، فهذا من الله ، وليس بيد الإنسان . كان مغشياً على من الجوع ، وكان سلاحى مربوطاً فى ردائى ، وعندما سمعت أنهم سوف يأخذوننى لتناول الإفطار ، نهضت لمرافقتهم . قال الببوى : يجب أن تثق فيما نقول ؛ ومع ذلك جذبتنى زوجة محسن من كم جلبابى لتهمس لى قائلة ، يا خليل ، نحن نعرفه - إنه شيخ كبير ، ومع ذلك قد يكون هنا من أجل اقتيادك إلى الدمار : احترس منهما ، إفتح iftah "عيونك ayûn-ak " بمعنى "افتح عينيك" لأن التيامنة كلهم خونة .

بينما كنا نقترّب من نهاية قرية تيماء ناديت قائلاً : يا حسن ! هل أنت قادر على الدفاع عني إذا ما قدر لنا أن نلتقى أحداً من الأشخاص الأشرار ؟ وهنا رد على حسن بابتسامة مأكرة ، ومن باب الخروج من مغامرة للدخول فى مغامرة أخرى ، وباستخدام العبارة السامية Semitic التى تميز كلامهم ، رد قائلاً : ليس هناك ما يمكن أن تخشاه أو تخافه ، وأنا أضع كل هؤلاء الناس فى بطنى . وعن طريق

حارات البلدة وصلنا إلى عتبة دار حسن الكبيرة . جلسنا فوق سجادة تركية زاهية الألوان ، فى الفناء الذى يقع أمام قهوته . وتحت تكعيبية كبيرة من تكعيبات العنب ، التى كانت أذرعها الممتدة تشبه غابة أمام اخضرار أشعة الشمس : ودخل علينا جار واحد أوأثنان . وصبوا على يدي ماء من الإبريق ábrik ، ووضع المضيف أمامي صينية من التمر الذى يطلقون عليه اسم "الحو" - هذا النوع من التمر يسيل منه سائل حلو يشبه العسل - أحضروه لى وهو ساخن بفعل أشعة الشمس ومعه بعض من الرمان .- تعجبوا عندما رأونى أكل دونما اعتبار للصيام العام ، ولكنى استرضيتهم عندما قلت : "أما Imma أنا ana مسافر musafir " بمعنى "أنا على سفر . " أبتمسوا عندما أخبرتهم بأن البدو لا يثقون بهم ، فيما يتعلق بى ، وقلت لهم أيضا : "الحال هنا يشبه البدو ! ولكن ، يا خليل ، ليس لديك هنا ما يمكن أن يخيفك ، بالرغم من وجود بعض العقول بيننا مثلما هم بين البدو ؛ ولكن أصحاب مثل هذه العقول يخشون الشيوخ ، وهم عندما يرونى معك ، "خلاص" ! khalas بمعنى "انتهاء الخطر وزواله ."

اتجهنا صوب البئر الكبيرة ، حيث سمعت عندها أصوات كثير من الشبان والبدو العاطلين - "انظروا ، ها هو قادم ، انظروا إنه الكافر ! هل سيقطله الشيوخ ؟ أليس هذا الكافر هو الذى تسبب فى انهيار الحدّاج (البئر) ؟ أم أنهم سوف يكلفونه ببنائه من جديد ، ويكافئونه على ذلك ، وهم يقولون ، إن البئر عندئذ سيكون أفضل مما كان عليه من قبل . " رجاني حسن ألا أعير كلام هؤلاء الأوغاد أى قدر من الاهتمام ؛ وعندما مررنا حول البئر ، تركنى حسن هناك ، وقال لى إن أحدا لن يجرؤ على إصابتي بأى أذى . هذا الرجل الذى يشبه الفراشة الشجاعة ، والذى يضع على رأسه غترة زاهية الألوان قيمتها ريال واحد ، لن يرى بعد ذلك بصحبة الكافر ،- لم يكن ذلك من قبيل الأمانة : ذلك أن الأمر عندما يتعلق بالدين ، فإن الشجاعة الفردية تختفى من تلك الشهامة المظهرية ، إذ يصعب على فرد واحد الوقوف فى وجه الجماعة . من هنا اقتربت من بعض كبار السن الذين كانوا جالسين يتفاهمون تحت إطار واحدة من السوانى (السواقى) : وعندما ألقى عليهم السلام ، حيونى هم بدورهم بتحية معقولة : وسألتهم إن كان هناك خطر فى تنقلى خلال البلدة؟ "لا تشك فى أى شىء : وقالوا لى ، ادخل واخرج ، حسبما يحلو لك فى كل دروب وطرق تيماء ، ولا تلقى بالا لكلام أولئك

الشبان الأغبياء . - لقد ذهب الشمري ، يحمل رسالة "للأمير" ؛ ولذلك استدعى كبير الشيوخ في تيماء (في عهد بن الرشيد) وهو الشيخ خلف el-Ammr الخلف العمر - هذا الشيخ أمير (عند العرب) ، وهو بيده الأمر amr : من هنا يصبح معنى "أمير emir القافلة el-káfila " حاكم قافلة مدينة عربية" ؛ والعرب يقولون شيئاً مماثلاً في السلاح أيضا : "أمير emir العشرة" ويقولون أيضا "أمير emir مائة" . وقف البدوي على استعدادي للقيام بالمطلوب ، ولذلك قدم لهم الحجة التالية ، "بئرمهم القديمة كانت من عمل الكفار القدامى ، وخلييل كافر ، ومن ثم يصبح خليل هو الأفضل في عملية إعادة بناء الحدّاج (البئر) ."

سألت من يدلني على الطريق المؤدى إلى دار عقيل Aj(k)eyl ، الذى كان واحداً من أولئك التجار التيامنة الذين كانوا يحلون ضيوفاً على القلعة (قبل موسم الحج) فى مدائن صالح . كان ذلك الرجل قد عرض على بشىء من الود ، أن أقيم فى منزله إذا ما تصادف أن ذهبت إلى تيماء . وهكذا شدنى كلام ذلك الرجل الطيب ، كما أقنعتنى تلقائيته بصدق ما يقول . ومع ذلك رجائى البدو أن لا أثق بعجيل ، "إنه آدمى أسود القلب يمكن أن يقتلنى فى منزله من أجل ذلك الذهب " أو معدن النقود ، الذى يتصور أهل الجزيرة العربية أنه بحوزة كل غريب من الغرباء . كان زيد قد قال لى من قبل : "قتل عجيل أخيه" فى نزاع على قطعة من النقود ؛ وأردف ثريخ Therryeh قائلاً : "احترس من هذا الرجل ، لأن عجيل جلف بحق" . - هنا قال زيد كلاماً طيباً : "أنت إنسان ساذج تماماً ، يا خليل ، إذا لم تستطع بالفعل تمييز كل ذلك والوقوف عليه ، حب النقود هذا يستحوذ على الأعراب قبل كل الأشياء الأخرى : وأنت إذا ما أخذت ذلك بعين اعتبارك ، فلن يخدعك أحد أبداً ؛ صدقنى ، إن أى إنسان عندما يربط نفسه بنصرانى ، فذلك يكون على أمل الحصول على شىء من المنفعة . زد على ذلك ، أن من الصعب عليك قطع المسافة من هنا إلى جبل غنيم Ghreneym ؛ ومع ذلك لا بد لك من فعل ذلك ، - وأنا أقولها لك ، يا خليل ، إن بوسعك أن تنتقل فى ديرة الأعراب عن طريق الطُعْمة Toma فقط ؛" - أى عن طريق إلقاء بعض اللقيمات التى تقلل من جشع الأعراب الفظيع .

ذهبت عندئذ لأتبين بنفسى ، بعد الوعود التى سبق أن أعطاها عجيل ، إن كان بوسعى أن أسكن أو أقيم فى غرفة من غرف منزل عجيل : "أجابنى عجيل ، كل الأماكن مشغولة ، ولكنه سوف يتحدث مع والده فى هذا الموضوع ."- اقتادنى شاب من أهل البلد لزيارة أمه المريضة . وفى دار أخرى ، من الدور الكبيرة ، وجدت هذه المرأة مستلقية على الأرض وتعانى منذ مدة من مرض من أمراض الحويصلات ، الذى لا شفاء منه سوى بالموت . وعدنى ظاهر رب هذا البيت بمبلغ كبير إذا ما شفيت هذه الزوجة العجوز ، وسوف يسمح للحكيم بالإقامة فى منزله ؛ ولكن وجه ذلك الرجل كان يوحى بالكآبة والغلظة ، كما أن عينيه كانتا توحيان بالعنف ، مما جعلنى أفكر مليا فى مقصده المتشدد (كما لو كان يريد أن يدخلنى فى الإسلام عنوة وبالقوة) ، إلى حد أننى استبطعت ، عن طريق الاعتذار اللطيف المهدب ، أن أخرج من المنزل مرة ثانية وأغادر المنطقة المجاورة له عن آخرها .- اقتادنى شخص آخر للكشف على امرأة أخرى كانت تعانى من مرض الاستسقاء فى منزل قريب من الحدّاج (البئر) ؛ كانت المرأة ترقد (متورمة على نحو جعل أولئك الذين كانوا بصحبتي عندما دخلت إليها ، يسخرون من ذلك التورم) تحت نخلة ، صنعت منها صديقاتها مظلة لتلك المرأة . ووعدت هذه المرأة بدفع أجر الحكيم إذا ما جاء شفاؤها على يديه . وأنا عندما كنت أنور المرضى كنت أهدف من وراء ذلك إلى تخفيف ذلك الطبع الوثئى عن طريق الإحسان المسيحى ؛ ولكنى توصلت إلى أن كل ما يمكن أن أفعله ، سيكون بلا طائل ، وأنه قد يكون خطر على أن أبدد جزءا من كمية الأدوية الصغيرة التى فى حوزتى ؛ - علما بأن هذه الأدوية هى بمثابة جواز سفرى أو إن شئت فقل : مرورى الوحيد فى حالة فشلى فى هذا البلد المعادى .

هذه أم شابة ، ما تزال فتاة رشيقة ، أحضرت إلى طفلها وطلبت منى أن أتقل على عيني ذلك الطفل الملتهبتيّن ؛ هذه العادة ، أو إن شئت فقل : الرأى السامى Semitic الذى هو من صميم العادات والتقاليد ، وقفت عليه بعد ذلك فى الأماكن كلها التى زرتها فى الجزيرة العربية .- هؤلاء هم بدو المطير فى القصيم ، أحضروا لى بعضا من خبزهم ، وشيئا من ملحهم ، كيما أتقل عليه من أجل أن يعالجوا به أصدقائهم المرضى . - وسرعان ما حذت نديمات هذه المرأة الشابة ، حذوها ورحن يطلبن منى الشىء نفسه ،

وعندما أنبتهن على تلك الخرافات أجبن بأن "هذا هو العرف السائد هنا منذ أزمان
سحيقة". - يضاف إلى ذلك أيضا أن أهل الجزيرة العربية يتفنون على كالون الباب
الذي لا يفتح بسهولة .

استأذن عجيل منى قائلا : "إن امرأة بدوية من معارفهم قد حلت عليهم ضيفة منذ
الأمس ، وأن تلك البدوية شغلت الغرفة الوحيدة الشاغرة عندهم ، وأن مسألة طرد
الضيف يمكن أن تصيبه بالأذى : ومع ذلك ، فإنه سوف يساعدننى ويقدم لى يد العون ،
حتى لا يخذعنى أحد فى البلد . إذا ما ذهبت لشراء أى شىء من الأشياء . " ومع ذلك ،
وعندما كنت أشتري منه قمحا فى يوم من الأيام ، فإن عدد الصاعات التى أعطانى
عجيل إياها لم تكن مملوءة تماما .

خطر ببالي أن أقيم فى منزل خلف Khalaf ، وأن ذلك سيكون من الأفضل
والأحسن . وكان خلف قد تكلم عن موضوع قيامى بإعادة بناء الحداج (البئر) ؛ وكان
بوسعى حل هذه المشكلة البسيطة . إذا ما أحسست بالانتعاش إلى حد ما ، - عملية
تسوير بئر الماء تسويرا متينا ، أكثر من ذى قبل ، وأترك لهم هذا العمل ليكون تذكارا
لهم بمرور رجل مسيحي على بلادهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن التقرير الطيب الذى
سيصدر من أهل تيماء ، عن هذا العمل ، سوف يفتح البلاد أمامى . كان خلف ومعه
بعض رجال أسرته وبعض الضيوف جالسين مربعين على المصطبة أمام بيته فى
الشارع ، وكانت فوق تلك المصطبة مظلة مصنوعة من جريد النخيل ، وكان الجميع
ينتظرون غروب الشمس ، حتى يمكن أن يدخل بعد ذلك لتناول طعام الإفطار . وجدت
فى خلف رجلا نحيفا طويلا معتدل المزاج . تجاوز مرحلة منتصف العمر ؛ كما وجدت
فيه أيضا طيبة التسامح وانفتاح فكرى يليق بشيخ من الشيوخ ؛ كان خلف رب أسرة
حصييفا ، كما أنه كان زائد الكرم . كان كل عالم هذا الخلف يتمثل فى هذه القرية
الصغيرة من قرى النخيل ، فى تلك الصحراء الشاسعة ، ويتمثل أيضا فى بلدة حائل
التي كانت عاصمة لهذه القرية ، كما كان سكان مدينته أقل عددا من طاقم سفينة من
السفن الكبيرة . ومع ذلك كان يبدو عليه الفهم والتفتح ، ولا تبدو عليه الوقاحة القطرية .
هذا يعنى أنه كان يبدو نبيل السلوك (من ناحية مجتمع الذكور) ؛ ولملح نبيل السلوك
هذا يمكن الوقوف عليه فقط بين الأفاضل من السلالة العربية . والعرب لم يكونوا همجا

فى يوم من الأيام ، وإنما هم من عرق نقى يبعدهم عن الهمجية والبربرية ؛ والعرب عندما يخرجون من بساتينهم العربية ويدخلوا خلية حياتنا المدنية (كما هو الحال فى بومباي) ، فإن أقدامهم لا تكون أقل ثقة من أقدام الآخرين ، وبالتالي يبدون فى الرواج هنا شيئا فشيئا .

جلست فى صحبة خلف ، ولم نتحدث فى شيء ، بعد تبادل التحية ، إلا بطريقة طفيفة تماما ؛ والسبب فى ذلك أن الجميع كانوا متعبين من الصيام . وعندما هممت بالانصراف أشار لى إشارة ودية وطلب منى البقاء معه : وأثناء غروب الشمس ، وعندما نهض خلف واقفا ومعه الآخرين ، اقتادنى معه إلى داخل منزله ، لشرب القهوة ، وقال لى ، لقد دخل علينا المساء ؛ كان المنزل من الداخل عبارة عن فناء جميل ، وكان البيت مليئاً من الداخل بالجبس الجالس ؛ جلسنا أرضاً فوق بسط طويلة أمام وجار القهوة ، المظلى باللون الأبيض أيضا ، على الطريقة النجدية ، والذي وقف عنده بالفعل عبده الذى كان يعمل على شب النار ، وتصليح القهوة ؛ - سيكون ذلك أول انتعاش لخلف وأهل منزله ، بعد غروب الشمس . وفى قرى نجد ، يرى الناظر إلى وجار القهوة مجموعة كبيرة من دلال القهوة منها الكبير ، ومنها الصغير ، وهم يستعملون تلك الدلال لحفظ المتبقى من القهوة السابقة ، ويتناقلون ذلك المخزون من دلة إلى أخرى . وهم جالسون حالياً ، وأمعانهم خالية ، وكلهم يراقبون ضوء الشمس الذى يختفى رويدا رويدا خلف أعراف النخيل ، إلى أن سمعنا صوت المؤذن ، وهو يرفع الأذان لأداء الصلاة . عند هذه المرحلة فقط يصبح بوسع الشخص المتدين أن يضع فى فمه لقمة من الطعام ويقوى نفسه ؛ وعلى الفور بدأ تقديم القهوة ، وبعد أن تناول كل واحد منهم فتجلاً واحداً ، بدأ يفرغ عبائه أمامه فى اتجاه القبلة ، وراح يؤدى الصلاة . بعد أداء الصلاة ، يجرى تقديم الوجبة الأولى التى يطلقون عليها اسم الفطور Futur ، أو إن شئت فقل : الإفطار ؛ كان الإفطار فى منزل خلف عبارة عن عساليج من التمر الطازج الذى جرى إحضاره من النخلة . تناولوا الطعام ، بالرغم من أنهم كانوا يعانون من العطش طول النهار ، ولم يشربوا ماءً طوال تناول الطعام ؛ وبعد التمر وضعوا أماناً شرائح من بطيخة كبيرة ولكنها عديمة الطعم ، وهذا النوع من البطيخ يشيع فى تيماء فى فصل الخريف .

كان معنا شابان من تبوك حلاً ضيفان على تيماء ، وكانا يرتديان ملابس العطلة ؛ هذان الشابان جاءا إلى تيماء لابتياح شيء من التمور في موسم الحصاد . أخبراني أنه "لا توجد في هجرتهما (قريتهما) بئر تحمل اسم سيدنا موسى . " - هذان القرويان المسكينان ينسبان نفسيهما إلى بنى Beny صخر Sókhr ، الذين كانوا سادة لهذا البلد الشاسع في يوم من الأيام . وهما لا يعرفان السبب الذي جعل الناس يطلقون على عشيرتهما اسم الكعباني kaab'ny ، "اللهم إلا إذا كان ذلك الاسم نسبة إلى الكعبة في مدينة مكة . " وهم يقولون : إن المسافة من تبوك إلى الوجه ، أو إلى تيماء أو حتى مدينة معان Maan ، - هذه المسافة تقدر بحوالى خمسة رحلات والإبل مُحَمَّلَةٌ . هؤلاء القرويون يحصلون على ما يحتاجونه من الأرز من بلدة الوجه ؛ ولكنهم يقولون إن القمح والملابس (السورية) أفضل في بلدة معان . وقالوا لي أيضا أن الأرض فيما بين تيماء والقرية التي جاءا منها عبارة عن خلا (صحراء) ليس فيها أى مجرى من مجارى السيل . - جلس معنا أيضا ذلك الشمرى Shammary ، وراح يتحف الجماعة بالحكايات التي كان يرويها عن ترحاله وأسفاره ؛ وهو يتفاخر بأنه استطاع الوصول إلى شعب كان يعبد الشيطان Sheytan ويعبد الشر the Evil أيضا ، وأنه سمعهم يتلفظون بالكلمات التالية : "اتركنى وشائى ، حتى أنكأ الله بهذا الرمح وأخرجه من عرشه فى السماء ؛" وراح هذا البدوى يضحك ساخرا من ذلك التجديف ؛ وهنا رد عليه جمهور القرويين وهم مكشرين عن أنيابهم ، غيظا وحقدا على ذلك الكلام ، "إخص akhs ! إخص akhs ! " ثم وصلت بعد ذلك ، فى ساعة متأخرة من المساء جماعة من بنو الفكاراة مكونة من ثلاثة أفراد ، وريد Weyrid وجلوى Jellowwy ، وفريع Feraya ؛ هذه الجماعة وصلت بعدنا ، ولما كانت تجمعنا بهم معرفة سابقة فقد جلسنا نشرب القهوة حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم يكن من المناسب لى الخروج من المنزل فى الظلام ، لغياب القمر ، بحثا عن رفيقى البدوى الذى لم أعرف إلى أين ذهب ؛ وهنا أثرت الرقود على الأرض ، متخذًا من ذراعى مخدة ، أملا فى قسط من النوم بجوار وجار القهوة . كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل عندما صحت الجماعة لتناول وجبة السحور ، كانت تلك الوجبة عبارة عن تمر ليس إلا ، - هذه تغذية بالغة السوء ؛ وبعد تناول السحور عاد العرب مرة أخرى إلى النوم على الأرض فى براد النجوم ، إلى

أن طلع نهار صوم اليوم التالي ، وعندها نهض الأعراب لأداء الصلاة . تحدثت مع خلف في الصباح ، وقال لى : إنه "سيعطيني غرفة فى منزله ، فى غضون يوم أو يومين" - وأردف قائلا ، إن الغرفة فى الوقت الحالى عبارة عن مخزن ، ملئ بالقمح ، الذى قالت زوجته إنه لا يمكن إخلاؤه من الغرفة فى الوقت الراهن . - وربما يكون من رأى حريمه الذى يؤمن بالخرافات أن مسألة إيواء نصرانى فى المنزل ليست من حسن الطالع .

المكان الوسيط حول الحداج (البئر) يستعمله الناس ميدانا عاما . ويفد إلى ذلك الميدان العام المواطنون الذين يأتون من الصحراء ، وهم يرتدون ثيابهم الجديدة ، ويحملون سيوفهم فى أيديهم ، وذلك عندما تنحسر حرارة الشمس فى فترة العصر ، يأتون إلى هذا المكان ليجلسوا ساعات طويلة على ضفاف الحداج (البئر) المبنية من الصلصال ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا المكان يتسكع فيه البدو الغريباء العاطلون فى الواحة . وقد صادفت ، فى أحيان كثيرة ، فى ذلك المكان كثيرا من الرجال الذين كانوا من الصُّنَّاع : سألنى واحد من هؤلاء الصُّنَّاع : "قال ، ألم أراك فى سوريا ؟ كان ذلك من حوالى عام فى كرياتين Keriatelyn . " (أى آخر بقعة مأهولة بالسكان قبل بالميرا Palmyra) . ذات يوم عندما تجمع حولنا عدد من الناس راح ذلك الصانع يتكلم عن دين النصرانى ! قال للحاضرين ، إن أفراد قبيلته بينهم وبين النصرانى على الحدود السورية ، معاملات يومية : "وأنتم من حقكم أن تثقوا بهم قبل الناس جميعا ، ونحن عندما نكون معهم وبينهم ، تراهم يقولون إذا لم يقم أحد من الرجال للصلاة عند قيامها : "جوم Gom صل Sully على ala دينك dinak يا مسلم Ya Musslim : جوم Goom يا ! ٧ صل Sull " بمعنى "انهض ، يا مسلم ، وصلِّ للرب حسب دينك ؛ هيا إلى الصلاة ، أيها الرجل ، اذهب ، صلِّ ! " وهم لا يثقون بنا فى غير ذلك . " عرَّج ذلك البدوى ، بشيء من التفاهم ، على الطابع غير الاجتماعى فى توأم العقيدة الدينية . قال البدوى : "الذى يفصل بيننا هو شيء صغير ؛ فهم يؤمنون بالله وبالأنبياء ، ولكنهم لا يعتبرون محمدا نبيا من عند الله: وسبب ذلك عندهم ، على حد قولهم ، أن كل الأنبياء القدماء كانوا من سلالة بنى إسرائيل ، ولكن محمداً من خارج هذه السلالة ، وليس أيضا من سلالة الأنبياء . " وكرر ثانية إنهم إناس طيبون ، وراح يردد تلك الكلمة

الإسلامية الشهيرة الشائعة ، "تعشى مع اليهود (إذا ما وصلت إلى بلاد الكفار) ولكن نم تحت سقف النصارى . " هذا الرجل ، جاء إلى هذا المكان منذ عامين ضمن جماعة من أفراد قبيلة العنزى المساكين ، الذين يطلقون على أنفسهم اسم السباع es-Sbáa ، والذين تمتد أراضيهم التي يتجولون فيها من شمالي سوريا حتى مدينة حلب . كانت قبيلة ذلك الرجل من العنوز القدامى الذين عاشوا في منطقة خيبر ، يضاف إلى ذلك - أن حقوق البدو في تملك الأرض ، لم تسقط حتى الآن بالرغم من تخلى هؤلاء البدو عن تلك الأرض منذ مدة طويلة - لقد جاء أولئك السباع للتجوال في الجنوب مع البشر Bishr ، وبذلك يتسنى لهم أن يأكلوا من نخيلهم في خيبر : وها هم السباع عاثون حاليا إلى سوريا ، ولذلك دعاني ذلك الرجل إلى مرافقتهم في رحلتهم إلى سوريا .

عثرت على غريب آخر جاء من قرية العلا للعيش في تيماء ، هذا الغريب اسمه سليم Selim ، وهو من المنفيين بسبب قتل واحد من الناس ، ومع ذلك كان الرجل يستلم كل عام حصة من التمور . ذات يوم ، وبينما كنا نتحدث في فناء عجيل ، أصر جريث Greyth ، ولد العجيل ، وهو من النوع المتشدد ، أصر على أن النصارى هم أبناء عمومة (قبليون) اليهود . - "لماذا سوء القصد هذا ، يا أبا عجيل ، أهذا فقط لأن اسمي من دين آخر غير دينكم ! تدبر أيها الرجل ، ألم أولد على ذلك الدين بناء على رغبة من السماء (الله) ؟ وأنت إذا ما استطعت أن تثبت لى أن دينك يمكن أن يفيد الإنسان أكثر من ديني ، فسوف أدخل في الإسلام وأصبح مسلماً . نحن لسنا يهود ، ولكن صدقني . يا أنت ، يا من يجهل هذه الأمور ، نحن سلالة من والد واحد ، ولسان واحد - مع من ؟ أقول مع اليهود . " تراجع جريث Greyth! وهنا تحولت إلى سليم Selim الشبيه بالزنوج ، ويعرف القراءة والكتابة ، وقدم هو الدليل نيابة عني من كتابهم المقدس ، وكان ذلك الدليل يبين السلالات التي انحدرت عن آباء العالم الجديد سام ، وحام ، ويافت .

كان هناك حداد شاب اسمه سيدان Seydan استطاع الوصول إلى ! وكثير من أهل الجزيرة العربية وبخاصة الصُّنَّاع منهم ، يحسبون أن بوسعهم تعلم حرفة من النصراني ، والسبب في ذلك أن الصُّنَّاع من أهل الجزيرة العربية يسلمون بأن الفنون والمعرفة تنبع منا . هذا الحداد الشاب ، جاء إلى هنا بصحبة أسرته ، قاطعا المسافة

سيراً على الأقدام، وقادماً من بلدة حائل مسقط رأسه، ليستقر في تيماء ويعيش فيها . كان ذلك الحداد من بين أولئك الذين توقفوا في القلعة في العام الماضي في مدائن صالح عندما كانوا في طريقهم إلى قرية العلا . دخلت ورشة أولئك الصانع كي أصلح قطعة من الصلب حتى يمكن استعمالها في توليد شرارة مع قطعة من الصوان ، - هذه القطعة ثمنها مرتفع في ظل الحياة الصحراوية الضعيفة والفقيرة ، وبخاصة في شب نار الغجر في الحطب الذي تنبعث منه رائحة طيبة عند الاحتراق : - هناك مثل من أمثال الشتاء يردده الفقراء في أوروبا « يقول المثل : "النار نصف الخبز" ! الصلب هنا عبارة عن حلقة مقدارها أربع بوصات ، يجرى تقصيرها إلى بوصتين ، ويجرى طوى طرفي القطعة إلى الخلف بعد أن انتهى ذلك الحداد من طرق قطعة الصلب ، كانت الشمس قد أوشكت على الغروب . قال الحداد الشاب ، نحن لا نعمل طول اليوم في شهر رمضان ! وينهض الحداد من مكانه ، وقد ابتلت ملابسه من العرق ، ويروح يجفف حبات العرق من على وجهه ، وبينما كان يغلق أبواب ورشته دعاني إلى شرب القهوة معه في داره . وتجول الرجل معي ليريني نقشا كان في منزل واحد من جيرانه . في ذلك المنزل عثرت على مجموعة قليلة من الأحرف الأثرية القديمة ، كانت على عتبة من الحجر الجيري ولونها أزرق داكن . هذه العتبة من النوع نفسه الذي سبق لي العثور عليه من قبل في تيماء كان منزل الحداد هو آخر منازل البلدة عند الخروج منها ويقع خلف منزل خلف Khalaf مباشرة ، وهو منزل صغير ، ولكنه مبنى بناية جيدة من الطوب اللبن . كان الحداد هو وشقيقه قد قاما في العام الماضي ببناء ذلك البيت على قطعة أرض كبيرة تجاور الصحراء مباشرة ، وقد بنيا ذلك المنزل بطريقة منازل حائل ؛ لم يعولا كثيراً على العمارة التيمائية .

في مرة أخرى ، أخذني ذلك الحداد الشاب إلى مسافة قصيرة خارج بلدة تيماء (ولكن داخل أسوار القرية) في اتجاه الشرق ليريني بعض الأعمدة الأثرية العظيمة . وصلنا إلى حقل مساحته حوالي نصف فدان ، بنى عليه من اللبن المسجد الكبير . شاهدت في ذلك المكان بعض رؤوس الأعمدة الكبيرة ملقاة هناك ، كما شاهدت أيضاً بعض الأعمدة الملساء ، التي يصل سمك الواحد منها إلى سبع وعشرين بوصة . وهي مصنوعة من الحجر الجيري الذي يميل لونه إلى الزرقة . ولا يوجد (في رأيي) عمود

مماثل له فى الدائرة المحيطة به . ونحت هذا العمود ليس على ما يرام ؛ ولم أر عليه أى نوع من النقوش . هذه القطع الحجرية الضخمة لا يمكن أن يكون قد تم نقلها على ظهور الإبل . وخطر ببالي أن ذلك ربما كان موقع معبد تيماء القديم ؛ وكم تبهر هذه الآثار كل من ينظر إليها ، وهى تعانى من هجران البشر لها ، ومن الموات الذى يصيب الطبيعة فى الجزيرة العربية ، والغريب الذى يتصادف وجوده فى هذه البلاد يجب عليه ألا يطيل النظر أو يتمعن تلك الانقراض والآثار ، ومن هنا عدنا إلى المنزل على وجه السرعة .

كان سيدان يحكى لى أشياء عظيمة عن بلدة حائل : كان من رأى سيدان أن هذه المدينة أو البلدة من بلدان الجزيرة العربية (التى يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثة آلاف نسمة) ، بأسواقها المنظمة تنظيماً جيداً ، وبورها الكبيرة التى يمتلكها كثير من الأثرياء ، وحياتها المدنية السهلة الميسرة ، وكثرة عدد الأشخاص الذين يتجولون فى المناطق العامة وهم ملفوفين بالشيالان ، ومسجدها العظيم الذى يتسع لهذا العدد الكبير من السكان ، ينبغى أن تكون مثل الشام [أى دمشق التى تضم ١٣٠ ألف نسمة] ؛ ورحنا نتجول أكثر خلال البلدة ، وخلال المقبرة ونحن نبحت (بلا جدوى) على شواهد القبور عن نقوش أثرية قديمة . كان هناك نقش واحد ما يزال موجوداً على عارضة فى حظيرة إبل عجيل ، ولكن المؤسف أن تلك العارضة سقطت على الأرض وتكسرت ، وأبلغونى أنهم لا يمكنهم العثور على تلك القطع المكسورة ؛ كان هناك أيضاً نقش طويل على حجر من أحجار جدران الحدأج (البئر) التى انهارت بالفعل . [وأنا اعتباراً من كتابه هذا الكلام فى العام ١٨٧٩ الميلادى ، وأكد ان نقش البئر شاهده كل من هوبر(*) Huber ويوتنج(**) Euting من بعدى بعدة سنوات . ويوتنج

(*) هوبر Huber : رحالة فرنسى قام برحلة فى الجزيرة العربية ، ونشر دراسته عن النقوش التى عثر عليها فى مجلة الجمعية الجغرافية فى باريس تحت عنوان : Inscriptions recueillies dans L'Arabie Centrale, Societe Geographie, Paris, 1884. (المراجع)

(**) يوتنج Uting : عالم ألماني فى النقوش التذكارية ، سجل رحلته فى داخل الجزيرة العربية فى كتاب نشر فى ليدن فى عام ١٨٩٦ بعنوان : Tagbuch Einer Reise in inner Arabien, Leiden, 1896.

يسلم بأن ذلك النقش ، الذى هو من النقوش الإهدائية ، ومكتوب بالحروف الآرامية شأنه فى ذلك شأن النقوش الأخرى التى اكتشفتها أنا فى تيماء ، قد يرجع تاريخه إلى أربعة أو خمسة قرون قبل المسيح.]

كنا فى بعض الأحيان نقطع مسافة ميل ، خلال أنصاف الأيام الرمضانية ، عبر الصحراء لنصل بعد ذلك إلى واحد من أعمام سيدان ، الذى استطاع بفضل عمله فى مهنة الحدادة، شراء حوطة hauta (بستان) طيبة فى واحة الغرب Ghreb، أو إن شئت فقل : فى مكان على طرف الواحة من ناحية الغرب . وعندما وصلنا إلى تلك الحوطة ، أو إن شئت فقل : البستان ، أحضر لنا ذلك الصانع ، الذى كان يريد منى شفاء عيني ولده ، ليمونا ورمانا ، وتركنى جالسا فى ظلال شجرة الفاكهة ، ودخل هو ومن معه لممارسة أعمال الحدادة ، فى الورشة التى أقامها هذا الصانع هنا فى منزله الذى يقيم فيه . ذات يوم ، تحدث إلى ذلك الحداد الشاب عن مسألة الكرم فقال : "يا خليل ! هل إذا جئت إلى بلدك ستذبح لى خروفا ، وتعطينى شيئا من النقود ، وفاتة لتكون لى زوجة ؟" قلت : "لن أذبح لك أى شيء ، نظرا لأننا نشتري اللحم الذى نحتاجه من السوق ؛ وسوف أعطيه شيئا من النقود إذا ما كان بحاجة إليها ؛ وإنه يمكن أن يحصل على زوجة إذا ما التزم بقانوننا ؛ وإنه سوف يلقي ذلك الترحيب فى دارى التى أصبحت له دارا وأصبحت لى شرفا وتكريما " . جلسنا فى منزل خلف ؛ ورد علينا الحداد الشاب قائلا : "عجبا لمدى صدق واعتدال كلام النصارى ! قد يكون خليل قد قطع على نفسه وعدا الآن - شأنه شأن أى واحد منا - بكثير من الأشياء الطولة والجميلة ، ولكنه قد لا يبر بذاك الوعد " . وأنا من باب مكافأتى لسيدان Seydan سوف أريه عروق حجر الحديد فى الصحراء المحيطة بنا ؛ وقد تعجب عندما سمع أن معدن الحديد يوجد فى تلك الأماكن الضحلة ؛ - ولكن ، كيف يمكن صهر ذلك الحديد ! حديدهم ، الذى يتعين نقله عبر الصحراء مسافة خمسمائة أو ستمائة ميل ، على ظهور الإبل ، من مدن الساحل ، له قيمة غالية فى الجزيرة العربية .

واحة تيماء عبارة عن ثلاث واحات : الواحة الرئيسية ، تقع فى الوسط ، ويطلق الناس عليها اسم الحداج (البئر) ؛ أما واحة (هجرة) الشرق es-Sherg هى واحة

(هجرة) الغرب el-Ghreb ، فهاتان الواحتان ترويان من أبار القدماء التي يجرى اكتشافها بين الحين والآخر . فى كل هذه الواحات الثلاث ، وباعتبارى واحداً من رجال الدواء ، كان لى أصدقاء ومعارف ، وبخاصة فى واحة (هجرة) الشرق Sherg ؛ وحينما كنت أدخل كان الناس يفرشون سجادة الضيافة تحت ظلال أشجار النخيل الخضراء أو تحت ظلال أشجار التين : يلى ذلك ، قيام رب المنزل بإحضار الغريب ويقدم له خياره يربط بها فمه أو بعض عساليج التمر ، ويطلبون منه أن يأخذ قسطاً من الراحة ، بينما ينصرفون هم للقيام بأعمالهم البستانية . - كسب العيش العربى الخالص عملية تسر خاطر عندما تكون مشاعاً أو على مرأى ومسمع من الجميع ، وكسب العيش هذا فيه شئ من الاكتفاء الذاتى فى بعض الأشياء القليلة جداً التى يجرى اختطافها بطريقة عادية جداً عند القيام برحلة من الرحلات ! هذا يعنى أن حياة هؤلاء الناس حياة بسيطة وملينة بالهنوم السطحية . يضاف إلى ذلك أن جهل هؤلاء الناس ليس من النوع المتوحش أو القاتل ، كما أن فقر هؤلاء الناس لا يعد من قبيل الوضاعة والاحتقار . ولكن منازل هؤلاء الناس وقحة وغير منظمة ؛ وبالرغم من مشاعر الحب الطيبة لدى هؤلاء الناس ، إلا أنهم لم يتعلموا بعد الاعتداد بالزهور طمعاً فى حلوتها وجمالها ، كما أنهم لا يلقون بالا لتفريد الطير .

كان من بين هؤلاء الناس شخص يدعى شافى Shafy ، أخذنى ذات صباح قبل طلوع الشمس (حتى نعود قبل ارتفاع درجة الحرارة) ، لزيارة نقش أثرى قديم فى الصحراء . وبعد مسير حوالى ميل ، سألنى شافى إن كنت رباعاً جيداً ، - (قال) بالرغم من أنى تخطيت سن الشباب ، إلا أنى بوسعى أن أسابق الناقة وأتغلب عليها ؛ وها أنت سترى بعينيك كم أنا خفيف الحركة ، وأخذ شافى يجرى مبتعداً عنى . وبينما كان شافى بعيداً عنى ، اقترب ناحيتى رجل كان يحمل فى يده عكازاً عربياً ؛ كما أبصرت أيضاً خيلاً جاء من تيماء للقائى . وهنا تمنيت لو أنى لم أصل إلى هذه المسافة وأنا أعزل بلا سلاح . كان هذان الرجلان من أهل الواحة الشرقية ، بالرغم من أنهما كانت تبدو عليهما البداوة ، وكان هذان الرجلان قد جاءا إلينا لمعرفة ما إذا كنا

قد عثرنا على كتونز أم لا . جاء الخيال يدعو بحصانه وفي يده حربة طويلة؛ وهنا تبين لى أن الفرس التى كان يركبها ذلك الخيال كانت تمشى على ثلاثة أرجل فقط ! أما رجلها الرابعة فكانت مربوطة فى جزء منها . ضحك الحاضرون ، ولكنهم قالوا الفارس "عطا الله Atullah" فرسه من أحسن السلالات، والله، وأنه جاء فى هذه الساعة المبكرة لاستنشاق الهواء ؛ كانت تلك الفرس تلد لذلك الرجل مهراً أو فرساً . " كان النقش الذى جئنا من أجله عبارة عن نحت بدائى باللغة العربية . ولما كان عطا الله رجلاً ثرياً ، ورب أسرة من الذين ينعمون برغد العيش ، فقد كان يود منا الجودة معه . كانت بساتين ذلك الرجل من أفضل بساتين تيماء : وإلى جانب هذه الثروة ، عثر ذلك الرجل فى الفترة الأخيرة على فوهة بئر قديمة بالقرب من المكان الذى يعيش فيه فى الصحراء . أحضر لى هذا الرجل الثرى سلة كبيرة مملأها بأفضل أنواع الفاكهة ، وطلب منى أن أتردد عليه مرارا .

حيثما كنت أتجول فى الواحة كنت أشاهد بعض المباني البدائية . المبنية من نوعين أو ثلاثة أنواع من الحجارة ، ومسقوفة بالعصى والطين . هذه المباني عبارة عن مواقع لحملة البنادق ، وكل مبنى من هذه المباني لا يتسع إلا لرجل واحد يرقد مستلقيا على صدره . وعند طرف هذا المبنى ، أو إن شئت فقل : الموقع ، هناك مسند يضع الرامى عليه بندقيته ، كما يوجد أيضا وعاء من الصلصال خارج الموقع ، تقوم الحريم قبل طلوع الشمس بملئه بثلاث قراب من الماء . وهذه هى الطيور البرية . التى تحوم عاليا فى الهواء ، تقع أبصارها على الماء المتلألئ ، تنقض عليه لتشرب منه بعد المسافة الطويلة التى جاءت منها أو قطعتها ؛ والناس هنا "يعمرون" البنادق بقطع صغيرة من الحجر . واقع الأمر ، أن القرويين الذين ليسوا من بين العمال يصطادون من هذه الطيور . حوالى خمسة طيور ، حتى الفترة إلى ما قبل دخول وقت العصر ، ثم يعيدون إلى بيوتهم لشرب القهوة ويحسبون أنهم مضوا يوم عطالتهم : وقد وجدت أن كل الطيور الميته كانت عبارة عن صقور حوامة وصقور عادية ومن طيور الرخام ، خلاصة القول : أن هذه الطيور كانت من الطيور الجارحة والمفترسة ، - ومع ذلك ينذر على

الإنسان أن يرى تلك الطيور وحيدة في الصحراء. سألت بعض الحاضرين: "هل تأكلون لحم هذه الطيور؟" - "إي بالله ، نحن نأكل لحومها ، وإلا لماذا نصطادها؟ وإذا لم تكن لحومها جيدة ، فهي أفضل ما يتيسر لنا ؛ وما لا نأكله نحن نعطيه للحريم ، إذ إن الحريم يرضى بأي شيء وكففيه أي شيء ."- والتيامنة ملامون لأكلهم الطيور الخسيسة ؛ ذلك أن غالبية البدو تعاف نفوسهم أكل هذه الطيور . ولذلك سهلت على الإجابة عندما لامنى أهل الجزيرة العربية على أكل النصارى للحم الخنازير . "إذا كان الله يأمركم بشيء ، فيجب عليكم الحفاظ على ذلك الأمر والإلتزام به ؛ وها أنا أراكم تأكلون الغربان والحدآن ، كما تأكلون لحم النسر الذي يأكل الجيف والرمم . البعض منكم يأكلون البوم ، وبعض آخر منكم يأكلون لحوم الثعابين ، وأنتم جميعا تأكلون السحالي . وتأكلون الجراد ، فضلا عن أكل الفئران أيضا ؛ والكثيرون منكم يأكلون لحوم القنفذ ، وفي بعض قرى (الحجاز) يأكل الناس الجرذان ، وأنتم لا يمكن أن تتكروا ذلك ؛ أنتم تأكلون أيضا لحوم الذئاب ، ولحوم الثعالب وكذلك لحوم الضباع ، وخلاصة القول ، ليس هناك من شيء دنئ إلا وتأكلون لحمه . " هؤلاء الشبان القرويون يزجون وقتهم في استعمال البنادق في الصيد . تراهم يحملون بنادقهم الطويلة طوال ساعات طلوع الشمس ، ويتجولون بين طرق البساتين ، مهددين بذلك أرواح العصافير التي تقف على أفنان النباتات . وها هي أصوات طلقات هؤلاء الشبان تتردد أصدائها من حولك ، بل إنك تسمع أيضا أزيز تلك الطلقات وهي تمر من فوق رأسك . هنا في تيماء ، يصطاد هؤلاء الشبان ، في مواسم محددة ، بعضا من الطيور المهاجرة التي تجئ إلى هذا المكان . ولقد شاهدت هنا بعض الطيور المائنة البيضاء التي لها أعراف فوق رؤوسها ، كما شاهدت أيضا طيور الغرنوق ، أو إن شئت فقل : طيور الكركى ، التي يطلقون عليها هنا اسم "السعدى" Saady ، والتي يصطادها أولئك الشبان من مزارعهم ، في هذا الموسم ؛ هذه الطيور المزهقة حطت عند برك مياه الري . والعرب هنا يحسبون أن هذه الطيور المائنة العابرة تأتيهم من أراضي بلاد الرافدين المروية (التي تبعد عنهم مسافة أربعمائة ميل .) هذه الطيور تعود إلى أوطانها في فصل الربيع . وعندما كنت في قرية الطور Tor تلك القرية التي تقع على ساحل جزيرة سيناء ،

فى شهر مارس من العام ١٨٧٥ الميلادى ، شاهدت سربا من تلك الطيور ، قادما من ناحية البحر ، كان ذلك السرب مكونا من عدد لا يحصى من الطيور بيضاء اللون ، - وأنا لم أستطع تميز تلك الطيور إن كانت من طيور اللقلق أو طيور الرأخام ؛ كان ذلك السرب يمر من فوق رأسى متجها شمالا .

فى الوقت الذى كان البعض فيه مستاءا من النصرانى لأنى لم أراعى حرمة صيامهم، كان هناك بعض آخر يدافع عني، "ولكن لماذا يتعين علينا أن نقسوا عليه، فى الوقت الذى ، بالله عليكم، لا يصوم فيه نصف البدو ، الذين تقول عنهم إنهم مسلمون ؛ خليل مولود فى إطار دين غير ديننا ، وهم يصومون فى أوقات آخر . أليست النصرارى هم أهل الإنجيل ، الذى هو أيضا كلام الله ، بالرغم من إبطاله بعد مجيء القرآن أو إن شئت فقل : الفرقان el-Furkan . " - وأنا فى المدينة (المنورة) سمعت كتابهم إلى جانب "الفرقان" Furkan ("القراءة التى تفصل عباد الله عن الجهل الدنيوى") ، التى يشيع بين الناس هنا تسميتها "الختم" el-Khtam، وقد مد الناس هذه الكلمة لسهولة، لتشمل أى كتاب ؛ إذ إنهم هنا لا يعرفون غير الكتب الدينية . وبينما كنت أتجول فى البلدة ، كان بعض الناس يطلون على من أبواب منازلهم ويدعونى إلى الدخول ؛ وبينما كنت أجلس وأروح أحدث معهم ، كانوا يقدمون إلى التمر ؛ - وفى البداية ، وارضاء منهم لضماثرهم كانوا يستلوني "هل أنت مسافر ؟" .

كانت خيام كل من محسن وصالح ، وكذلك خيام الأسرة البدوية ، منصوبة فى بستان من بساتين ذلك البدوى الفجيرى ، الذى استضافنى فى فصل الربيع . عندما ذهبت مع زيد لزيارة تيماء ، ونظرا لوجود الإبل فى الصحراء ، فقد انتقل هؤلاء الناس على ظهور الحمير التى استعاروها من معارفهم ؛ وقد جرى العرف ، أنه إذا ما طلب إنسان حمارا من قرى الجزيرة العربية (بالرغم من أنهم لا يسمحون بتأجير الحمير) أن لا يرفض مثل هذا الطلب . أما أنا فقد قمت بنصب خيمتى الصغيرة إلى جانب خيامهم ، بالقرب من أسوار الواحة فى تلك الحوطة (البستان) . كان فى تلك الحوطة حقول القمح ، وقلة قليلة من أشجار النخيل المحملة بالثمار ؛ ومع ذلك لم يكن البدو ولا

أطفالهم يمدون أيديهم على التمر التي لم تسقط بعد من النخيل . وبعد أن نفذ آخر ريال مع محسن ، لم يكن على بيّنة من المدة التي يمكن أن يبقى خلالها في تيماء ؛ - وهذه هي المفاجآت التي تواجه كل البدو الفقراء ! إذ يتعين على هؤلاء البدو أن يطرقوا أبواب الناس في قرية السوق ، ليتبينوا "أولئك الذين يمكن أن يقدموا لهم خيرا" وقرضونهم نقوداً بزيادة ثلاثين في المئة عن سعر السوق ، إلى أن يجيء المدد ، والذي يتمثل هنا في الصرة Surra* التي يحصل عليها هؤلاء الناس في موسم الحج . اشترى محسن بالأجل ثمار نخلة طيبة في الحقل الذي نخيم فيه ، كي يسد رمق أطفاله بتلك الثمار طوال هذا الشهر ؛ وكان هؤلاء الأطفال ، كلما أحسوا بالجوع يتسلقون النخلة ليأكلوا من ثمرها .

كان محسن رجلا مريضا ، وكان الصيام متعب له تماما ، إذ كان الصيام يحول بين البدو وبين غلايينهم طوال نهار اليوم ، كما كان يمنعهم أيضا عن قراب الماء طوال النهار أيضا ؛ وكان من عادة هؤلاء البدو ، في شهر الصوم ، أن يناموا اعتبارا من طلوع الشمس ، ولا يغيرون أماكن نومهم إلا بحثا عن الظل ، ويستمر ذلك النوم إلى ما قبل العصر بفترة وجيزة . لم تكن حرارة الصيف قد خفت بعد ، إذ كانت درجة الحرارة تصل إلى ٩٧ فهرنهايتية عند الظهر ، وذلك تحت جريد النخل الذي كانوا يعرشون به المقاهى في بيوت تيماء . كان البدو يصحون من نومهم عند دخول وقت الظهر لأداء الصلاة ، حيث يستشعرون شيئا من الارتياح على إثر وضع الماء على أيديهم وعلى أذرعهم وأرجلهم أثناء عملية الوضوء - والبدو ليسوا بحاجة إلى انخار الماء وتوفيره والاقتصاد فيه في الواحات - وكانوا أيضا يستعملون الماء في ترطيب ألسنتهم ؛ نظرا لأنهم يتمضمضون بالماء ويخرجونه من أفواههم مرة ثانية . وبعد أن ينتهوا من أداء الصلاة ، يتجمعون أسفل الجدار الغربي العالى ، الذي بدأت تنكسر عليه ظلال المساء ، ويجلسون في ذلك المكان ليمارسوا لعبه "البيطة" beatta التي يمكن القول عنها إنها لعبة من ألعاب الداما ؛ والرقعة التي يمارسون عليها تلك اللعبة عبارة عن صفيين في كل صف سبعة حفر أو إن شئت فقل : "بيوت" beyts ؛ وهذه الرقعة

يصنعها البدو المستقرون من قطعة من الخشب ، يطلقون عليها اسم "المنقولة" mungola ؛ ولكن عند بدو تيماء وأهل قرى الحجاز تكون تلك الرقعة عبارة عن حفر صغيرة يحفرونها في الأرض . وأنا لم أر هذه اللعبة في نجد ، التي جرى فيها التخلص من كل ألعاب تزجية الوقت ، في زمن الإصلاح الوهابي ، من منطلق أن تلك اللعب تبعد روح البشر عن التأمل في الله الحي الذي لا يموت . وفي كل حفرة يوجد سبعة أحجار ؛ هذه المنقولة كانت بمثابة أطول لعب الصيف عند الحاج نجم في القلعة التي كانت في مدائن صالح ، وكان أولئك البدو بمثابة رفاق اللعب المرضى . (قال العجوز صالح) إى ، والله ، الحاج نجم من عشيرتي ashiraty بمعنى "كواحد من قبيلتي" . كان البدو يتخذون من روث الإبل ، أو إن شئت فقل : "الجلّة" jella ، طلاقات بدلا من الحصى الشفاف الذي كانوا يجلبونه من سهل الحجر (والذي كانوا ينقلونه أيضا إلى دمشق) - وكانوا يطلقون على الطلاقات التي يصنعونها من روث الإبل ، اسم "جود" gaud ، وما إلى ذلك من تلك الأسماء . وأنا لم أر مطلقا أهل الجزيرة العربية الحقيقيين يلعبون من أجل المكسب أو الخسارة ؛ - إنهم يعتبرون الإنسان خارجا عن إطار بينه إذا ما عرض ذلك الخير الذي أعطاه الله إياه ، لمغامرة غير محسوبة . وقد شاهدت لاعبي الورق في قرية العلا وسوف نشاهدكم أيضا في خيبر ، ولكن هذه قرى من قرى الحجاز التي أصابتها العدوى من المدن المقدسة . - العبيد الأحباش أبلغوني أن لعبة المنقولة يلعبها الناس في ديارهم ، وأن هذه اللعبة تنتشر في كل أنحاء الدنيا .

ترى ، من الذى يقاسى أشد الآلام في ذلك الصيام ؟ زوجة محسن بكل تأكيد هي التي تكابد مثل هذا الألم ، لأن لها طفلا ترضعه من ثديها ؛ وبقوة العزيمة والمثابرة ، حافظت شقيقة زيد على شهر الصوم ، ولم تكن تشرب أو تأكل إلا بعد غروب الشمس . من أجل هذا سمعت نساء البلدة وهن يمتدحنها ويثنيين عليها ، - "كانت مثلا للبدوية البسيطة تحظى بإعجاب الجميع" ! النساء المتدينات الحوامل تصمن أيضا وفاء بتعاليم دينهن ، وهن يجبرن أطفالهن الصغار على الصيام أيضا . كانت زوجة محسن ، امرأة طيبة ، وأما جيدة أيضا ، وربة بيت جادة ومثابرة ، وكانت كلها حب وخدمة ،

ومشاركة لزوجها المسكين فى متاعبه ؛ زوجها كان مثل زيد تماما ، عبارة عن خليط من الجد والمرح فى إطار إنسانية الصحراء . كانت زوجة محسن امرأة ولود ! مما أدى إلى - بالرغم من أنهم يعززون مسألة الإنجاب هذه إلى الله (سبحانه وتعالى) - ضعف حال زوجها ماديا ، إذ لم يكن لديه سوى خمس من الإبل « وحوالى عشرة دبوش ، إضافة إلى بيتهم المصنوع من الصوف الخشن » والمواعين اللازمة لذلك البيت :- كل ذلك لا يتجاوز ثمنه ٦٠ جنيتها إنجليزيا . من هنا كان اعتماد محسن بصفة أساسية على الصرة التى كان يتسلمها من الحج كل عام. ونظرا لأن محسن كان ضعيفا فيما يتعلق بتقلبات الحظ هذه ، فقد كان يؤنب أهل بيته فى كل الأحيان ، كان يؤنب الجميع : زوجة وأطفالا ، ولكن الزوجة كانت تصبر على ذلك وتحمله . لم تكن تلك الزوجة أو الأطفال يشكون من الكلمات النابية البظيعة (التى لم تصل إلى حد الشتائم المهينة مثل "أنت كلب") : الكلمات أو الشتائم التى من هذا القبيل فقدت بين الأقارب وبين أفراد القبائل سوء القصد الذى تنطوى عليه فى أذان هؤلاء البشر . ولناخذ الطفل على سبيل المثال ، - نجد الأب يصيح ويشتمه قائلا : "سُبُّك ! Subbak أى شج الله بطنك ، اللعنة على هذا الوجه !" أو قد يشتم الزوج زوجته ، إذا لم تلبى طلبه بسرعة ، فيقول لها "صلوبية Solubía" ، امرأة غجرية ، أو قد يشتمها قائلا : "بغريلة" baghrila أى 'بغلة' (والبدايشاهدون ذلك الحيوان فى القلعة) ! أو قد يصيح الزوج شاتما : "أنهدم Inhaddem بيتك beytich " بمعنى "أعدمك الله" أو قد يقول : "الله Ullah يفكنى yafukkinى منك minnch " بمعنى "الله يخلصنى منك !" أو يشتم قائلا : "والله ، أنت لا تعرفك إلا عبد !" ولكن جرت العادة أن يرجو الأب البدوى ولده عندما يريد منه أن يفعل شيئا ، وهو فى مثل هذه الحالة يرجو ولده وكأنه أفضل منه ، وبعبدا عن التصحيح والتقويم . والأب بعد أن يؤنب ويوبخ الأسرة كلها بهذه الطريقة ، نرى محسن يتحول إلينا بعينيه الباسمتين ويعطفه البدوى باعتبارنا أصدقاء له .

هبت ريح خفيفة خلال الأشجار ، - انسابت تلك الريح فى البداية . بعد حرارة الصيف التى استمرت شهوراً طويلة ، مما أثر على أجسادنا التى كانت متعطشة لمثل

هذه النسمة ! وهكذا بدأنا نحس بالانتعاش فى فترات العصر ، فضلا عن أن الشمس لم تعد تشرق على ارتفاع كبير جداً ! كان ذلك الوقت من العام يصادف فصل الخريف . وعند غروب الشمس ، كنا نتجول خلال تيماء ، إذا ما دعانا أحد إلى منزله ؛ أو كنا نقصد ذلك المنزل بعد تناول العشاء لشرب القهوة ، وتمضية فترة المساء فى الحديث مع الآخرين . والبو الذين يسكنون الخيام أرق طبعاً من أولئك القرويين الذين اعتادوا على فلاحه القرية ، يجد واجتهاد مع طلوع النهار :- والبو الرجل يتفوقون على هؤلاء القرويين من حيث القدرة على تحمل الجوع ، والترحال والانتقال إلى مسافات بعيدة . ونحن عندما نكون جالسين تجد الواحد من هؤلاء البو يمد غليون له لم يجلس بجانبه . وهو يقول: "اشرب Issherub وكيف wakeyyif راسك ras-ak". "إشرب! واجعل رأسك يحلم بالسرور". وهذا الكلام من باب مواساة الروح ومواساة حاسة "الكيف" keyyif، - الهدوء بعد التعب ، الراحة بعد العناء ، مهرة جميلة أو ناقة جميلة ، أو الطلعة البهية لامرأة جميلة .

فى بعض الليالى ، عندما كان أولاد البو يزوروننا ، كان البستان ، مثل الصحراء يدوى ، بأغاني هؤلاء الأولاد الفجة ، على أنغام الرباب المصنوع من النحاس الأصفر . سألتهم ، "ما رأيكم فى خطاب الأمير ؟" [تعليماته إلى التيامنة بالتخلي عن تلك الآلة الموسيقية.] أجابوا: "ابن الرشيد يمكن أن يصدر أوامره للقرويين، ولكننا نحن البو!" - ونظرا لأن الوقت كان زمن حرب كبيره ، فإن أفكار هؤلاء البو كانت تنصب فى بعض الأحيان على الجهاد(*) الذى كان معلنا فى ذلك الوقت بين النصارى والإسلام . جاءنا رجل من البو قادما من الجوف ويحمل معه أخبارا كاذبة ، - "إن سلطان المسلمين قد خرج من اسطنبول ، لينزل إلى أرض القتال ، وأن السلطان مراد الذى جرى عزله مؤخرا كان بصحبته، يحمل معه بيرق النبى !" - "تنهد محسن) إعلموا جيداً أنه عندما تسوء الأمور بالنسبة للإسلام ، فإن الأعداء الغزاة سوف Shall يهزمون repulsed

(*) الجهاد : الإشارة فى هذا السياق إلى حركة الجامعة الإسلامية التى أعلنها السلطان عبد الحميد الثانى ١٨٧٦-١٩٠٩، وكان يهدف بها إلى مقاومة التعديلات الاستعمارية على الولايات التابعة للدولة العثمانية. (المراجع)

أمام بيوت الشعّر ! houses of hair " بمعنى [أن الببو هم الذين سوف يتقنون دين الرسول ﷺ] . والله ، هكذا وكيد ! wakid بمعنى "هذا مؤكد ومكتوب في الكتاب !" - يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل المسكين استشعر الراحة عندما علم أن انتهاء تلك الآلام سيكون لصالح الأعراب . قلت : "بالرغم من كل زهوك وفخرك ، فأنت لا تدفع شيئا ، ولا تدفع حتى ولو رجل واحد لخدمة السلطان !" - "ربوا على ، ما حاجة السلطان إلى ذلك الذي يمكن أن نقدمه نحن المساكين ؟"

سألني الببو ، في بعض الأحيان ، عن صيامنا ؛ وقلت لهم إن النصارى من عادتهم أن يصوموا يوماً واحداً في الأسبوع ، وهم يداومون على صيام شهر الصوم الكبير ، بعض النصارى يصومون شهرين أو أكثر من شهرين . - وكيف يكون صيامهم ؟ - إلى حين غروب الشمس ؟ - لا ، ليس الأمر كذلك ، ولكنهم يمتنعون عن أكل اللحوم ، والبعض منهم يصوم عن كل ما يخرج من اللحم ، مثل الحليب والبيض ، ولا يأكلون سوى الثمار التي تخرج من الأرض ، مثل الخبز والسلطة ، وزيت الزيتون ، وما إلى ذلك؛ - وطوال فترة الامتناع هذه يكون بوسعهم أن يأكلوا عندما يريدون ذلك. "آه - ها - ها ! وهل تسمى أنت ذلك صياما ؟ لا ، والله ، يا خليل ! أنت تضحك وتنكت !" ولكنهم يحسبون ذلك حمية صيامية ، "مثل الموت" في تلك البلدان الغنية ، - أن يأكل الإنسان مثل هذه الأشياء الضعيفة ومثل هذا الطعام الضعيف . - "الله قادر ! حسن، ذلك كان صياما جيدا ! - وصاحوا جيعا بين الضحك والدهشة - يا ليت الله ، يكتب علينا مثل هذا الصيام كل يوم !"

الفصل العشرون

حصاد التمر

زواج العذراوات . نساء شقراوات . أهل تيماء أميون . البدو يلاحظون طيشهم ومرحهم . إيل الآبار . عمال يعملون فى حدّاج مُخَرَّب . مشروع لإعادة بناء الحدّاج . الممثل المقيم لابن الرشيد . ابن الرشيد ، حكيم الأعراب . حكومة المدينة (المنورة) تضع عينيها على تيماء . مرضى غير معقولين . وباء الروماتيزم فى الواحة ، عين الحسود . شعوذة إخراج الأرواح الشريرة . المتشددون فى رمضان . أنقاض تيماء الموسوية . مقابر تيماء الأثرية الكبيرة ذات النقوش التى ورد ذكرها فى التقارير . الضواحي السبع القديمة لتلك المنطقة . أرض جديدة للآبار . دم العبيد الأفارقة فى شبه الجزيرة . الرابطة العربية معتدلة . نهاية رمضان . احتفال العيد . مُطلق الصفّارة . موسيقى دمشق . وصول الفُكّارة . بدو البشر ينسابون على البلدة . حصاد التمر . راقصة من قبيلة حرب . كلام مشهل . أخبار طيبة عن المواهب . زيارة حامد ووحيل لابن الرشيد . القصابون من البدو الرُحّل . التماس من محسن . "الثور البرى" أو الوضيحى . النّبال القديمة . أصدقاء الأعراب يتباطئون فى المساعدة فى رحلة النصرانى . البشر فى تيماء . شيخ من شيوخ الحطيمى . خلاف مع رعاة زيد . الأمسية الأخيرة فى تيماء . زيد .

كنت أستقبل المرضى فى الحقل الذى كنا نقيم فيه . وفى هذا المكان اكتشفت أغرب المغامرات . فقد سمعت شابة غير متزوجة من تيماء ، أن الغريب الذى وصل إلى القرية كان دولانيا (أى من موظفى الإمبراطورية العثمانية) ، أو إن شئت فقل : أحد رجال الحكومة ، ولذلك دار بخلفها فكرة الارتباط به عن طريق الزواج ، وتمهيدا لذلك أهدت زوجة محسن شيئا من التبغ ، ووعدتها بالمزيد إذا ما تم ذلك الزواج ؛ وبناء عليه

امتدحتها مضيفتى أمامى على إنها "شابة جميلة وناضجة ، وأقسمت بالله أن عينيها وسيعتان وكبيرتان ، وأن رائحتها مثل رائحة العنبر . هذه الأنسة الطيبة كانت ابنة لواحد من الدمشقيين (وربما كان راعيا لقلعة من القلاع) ، الذى كان يعيش فى هذه المنطقة فى فترة سابقة ، وكانت تلك الأنسة تحتقر أن يكون أى واحد من أولئك القرويين القساة زوجا لها ، كما احتقرت أن يكون زوجها واحداً من البدو الرحل . وقد وقفت على الحقيقة التى مفادها أن كل سكان بلدان الجزيرة العربية ، يحتقرهم سكان المدن الجودية على أنهم "بدو" ، ويظهر ذلك الاحتقار بصورة واضحة فى كلام سكان مدن الحود ، - وهم يقولون أيضاً متسائلين ، أليس كل سكان نجد (إضافة إلى الحاديين) من سلالة بدوية خالصة ؟ لجأت ابنة ذلك الرجل الشامى (الدمشقى) إلى خيمة محسن ، حيث جلست فى القسم المخصص للحريم ، ويمعزل عن الآخرين على أمل أن تتمكن من رؤية ذلك الرجل صاحب البشرة البيضاء الذى جاء من بلاد والدها ؛ - وأنا بدورى شاهدت وجهها الشاحب وعينيها اللتان ليستا جميلتين تماما ، واستطعت أن أحزر من صوتها الحريص ومن محياها - والعرب لم يحدث مطلقاً أن كانت لديهم أفكارا طيبة عن الأشياء الحديثة - استطعت أن أحزر أن تلك الفتاة كانت تكره العيش فى هذا المكان ، وأنها على استعداد للهرب مع زوج ، يكون جيداً شكلاً وموضوعاً ؛ وتلك هى الأشياء التى تزعم هذه الفتاة أنها متوفرة فى النصارى . وعندما أبلغوها أنى لا ألقى بالا لذلك الذى تهتم هى به توقفت عن المجئ إلى خيمة محسن ؛ وتركتنى حائراً فى معرفة ذلك الشئ الذى حرك فيها قلبها الصغير الذى يحس بالوحدة: "قالت ، أن كل ما يدور بخلدها هو أن تصبح زوجة لنولانى (أى واحد من موظفى الحكومة)".

طلب منى بعض التيامنة البقاء معهم والإقامة بينهم ، "طالما أننى قطعت تلك المسافة الطويلة من بلادى إلى هنا" - وقد خطر ببالهم أن عودتى تكاد تكون أمراً مستحيلاً ، - وقل "لا إله إلا الله La ilah إلا الله Ullah ، و محمد Mohammad رسول الله Rasul Ullah . وعندئذ سيسبغون على بعض الممتلكات ، التى يمكن أن تكفينى وتكفى زوجتى إذا ما تزوجت . ولكن عندما اكتشفوا عدم اهتمامى أو مبالأتى بهذا الأمر ، "قالوا ، ها ! إن لديه أسبابه الخاصة به ، أليس لهم أفضل من لحمنا ؟ والنصارى ليست فيهم أمراض ، - كما أن حريم النصارى ، أجمل فى عيني خليل ، من

بنات الإسلام : يضاف إلى ذلك ، أن النصراني لا يتزوج إلا بعد أن يقتل مسلماً ، إذ يجب عليه أن يستحم بذاك الدم ، ثم يقولون عنه بعد ذلك إنه تطهر . " ورد آخرون ، " نحن لا نصدق ذلك ؛ خليل ينكر هذا : " أضاف شخص آخر ، " ألم تسمع من بعض الناس الذين كانوا فى الشمال ، أنهم لا يعرفون أى شكل من أشكال الزواج بينهم ؟ " رددت عليهم قائلاً : " أنتم يا من يتلبسكم الجن ! هذا الذى تقولونه ينطبق على الدروز ؛ شفاهكم تقطر دمعاً وفحشا طول اليوم ، أما هم فلا يتشدقون بكلمة نائية أو مؤذية فيما بينهم . " - " هل يقول الدروز ؟ الله ! أليس هذا الاسم هو الذى يطلق على ألد أعداء الإسلام ؟ - حسن ، يا خليل ، نحن نسلم بكل ما تقول ، والأكثر من ذلك نحن نتمنى لك أن تكون بخير وسعيد ؛ تزوج واحدة من النساء اللاتى يعرضوهن عليك ، وسوف تصبح أحوالك أكثر سهولة ويسرا ، نظراً لأنك سيكون معك من يشاركك أفرحك وأتراحك ؛ وإذا ما أردت وضع حد لذلك الزواج تستطيع فعل ذلك فى أى وقت تشاء . " - " ولكن ليس حسب الدين المسيحى . " - " ومع ذلك هناك مثل جيد ، من الحكمة أن يتوأم الإنسان مع المتوالم أو الأسلوب حيثما يكون . "

عندما قالوا لى : "إننا أحرار فى الزواج والطلاق ، وهذا أفضل مما لديكم : " كان الرد عندي جاهزاً ، "لقد أعطى الله آدم زوجة واحدة"؛ وهنا صمت الجميع مندهشين فى دواخلهم أن الكتاب المقدس يعارضهم . - كانت هناك شابة أخرى ، أنجبها دولانى (موظف حكومى) فى البلدة ، وبينما كنت جالسا ذات يوم فى ورشة الحداد دخلت الفتاة لتتحدث معنا ؛ وبعد أول كلمة تصدر من فمها سألتنى بتركيز شديد عما إذا كانت بوسعى أن أتزوجها أم لا . سيدان Seydàn : "إنه عرض طيب ، وأنت ترى أن المرأة طيبة الملامح وجميلة ؛ إنها أرملة ، يا خليل ، ولديها ولدين : " - وكان سيدان أراد أن يقول : "الولدان سيكونا مكسباً لك ، والأمر هنا يشبه من يشتري فرسا ومعها ولدها . " - "هل مطلوب منى أن أتزوجك وحدك ، يا سيدتى ، أم أتزوجك ومعك أطفالك ؟ تعالى وسوف أرشح لك صديقاً من أصدقائى ، وأنا أرشح لك هذا الشاب الصغير ، أم أنك ترغبين ، ذلك الشاب ، شقيقه ، وهو يصلح للزواج منك . ولكن الأرملة الشابة قالت وفى كلامها شيئاً من الاحتقار والازدراء : "هل تعتقد أنى سوف أجعل أى صانع من الصنائع زوجاً لى ! "

كانت أجمل النساء فى البلدة كلها فجير Fejir زوجة مضيفنا - جميلة ولكن لا يعرف الناس قدرها : "نظرا لبخلها وعدم كرمها" - وكانت هناك جميلة أيضا من الجميلات ، ابنة رجل مصرى يدعى إبراهيم ، الذى نفى نفسه فى قرية تيماء ، هربا من خطر قوانين بلاده ، أو ربما كان النفى لسبب غير ذلك . ذات يوم كنت جالسا على المصطبة عندما هلت علينا تلك العذراء الجميلة مقبلة علينا ، كانت تمشى غير مكترثة بجمالها وحسنها ؛ ولاحظت ملامحها وقسماتها اللطيفة الحلوة ، متفاضيا عن بقية جمالها : صمت الجالسون على المصطبة أثناء مرورها من جنبنا ، وراخت نظراتهم تتبعها وتركز عليها . قال واحد منهم وهو يسترد أنفاسه من جديد ، "رأيتها يا خليل ! هذه هى التى ينظم الشباب عنها الأغانى كيما يتغنون بها أسفل نافذتها أثناء الليل ؛ أين رأيت مثيلاً لها حتى هذه اللحظة ؟ خبرنا كم تساوى هذه العذراء ، هذه الفتاة ، كم يدفع لها من يريدها ، مهرأ أو صداقا ؟" إبراهيم المصرى عاش سنوات عدة فى تيماء ، وكان يعمل فى تجارة التمر مع البدو ، لقد جاء إلى تيماء من دلتا مصر ، والذى لا شك فيه أن إبراهيم هذا لابد أن يكون قد عرف الأوربيين ؛ هذا الرجل ، عندما كنت أراه جالسا أمام باب قهوته ، كان ينهض واقفاً ويحيينى . وذات يوم عندما رأتى أقلب صفحات كتاب من كتب الجغرافيا فى منزل خلف ، قلبت الصفحة ورجت أقرأ عن ذلك البلد النهري ؛ وراح ذلك الرجل ، يستمع بسرور بالغ ، بعد سنوات كثيرة ، أسماء بلده وقراه ، وكان يستوقفنى ليصحح لى نطقى لأسماء تلك البلدان والقرى . وهنا تكلم شخص دخل علينا ، "هل خليل كتيب ! Kottib (أى كاتب) بمعنى ، هل خليل رجل ممن يعرفون الحروف؟" ورد عليه خلف قائلا: "إنه يستطيع القراءة مثل واحد منا!" كان الشيخ نفسه يقرأ أمامنا متتعتعا وبطينا ومتهجيا الحروف أيضا :- وما الذى يمكن أن يستفيدوه من حروفهم ؟ شيخ الدين يقرأ على الملأ لكل الناس فى المسجد فى أيام الجمع ، يقرأ عليهم من القرآن الكريم ؛ وهذا الشيخ هو المحامى وهو المبرم لعقودهم الصغيرة والبسيطة ، - وبعد هذه الأشياء ، لا توجد أمور أخرى فى الواحة ؛ هذا يعنى أن أهل هذه الواحة لا يمكن لهم أن يتحدثوا عن أى شىء فى الأزمان السابقة لأزمان أجدادهم .

عبد العزيز الرومان ، أحد شيوخ الأسواق الثلاثة ، كان أميا ؛ لم تكن هناك مدارس فى تيماء ، وكان على الأبناء تلقى التعليم من آبائهم . قال لى بعض شبان أسر الشيوخ أنهم لا يعرفون من التعليم سوى الحروف الأبجدية ، - وكانوا يجعلونى أستمع إليهم وهم يقولون : "أليف Alef ، با ba ، تا Ta ، ثا Tha ، جيم Jim - ولكن عندما يصل الأمر إلى حد التعمق فى التعليم ، فإنهم "يَكْبُوهُ" hu- Yakub ، بمعنى يتخلون عنه: هذا يعنى أن هؤلاء الناس لم يكونوا ممن يشغلون أنفسهم بالتعليم ، أو أولئك الذين يسعون إليه . وفى كل صباح ، كانت حرارة الشمس تناديهم ليخرجوا من بيوتهم لممارسة الأعمال السهلة البسيطة التى يفرحون بها فى حياتهم البسيطة . والتعليم عند العرب ليس سوى نوع من أنواع الفضول الذى يؤلهم ويؤذيه ، وهم يرون التعليم لا فائدة لهم منه ، - التعليم عندهم مجرد زينة ينعم بها الأثرياء فى حياتهم الرغدة . هؤلاء القرويون الشمريون ، أصحاب عقول ضحلة وخاوية ، وليسوا لمأحين أو متأملين ؛ وهم عندما يفعلون أو يمارسون عملا بسيطا فى الوقت الراهن ، تراهم يعودون فجأة بعقولهم وأفكارهم إلى الوراء . ولذلك يقول الناس عنهم : "التيامنة جهال ، وغير متعلمين ، ولا يفهمون الزمن أو يعرفون قدره . " والعنوز Annezy يطلقون عليهم المقولة التى تقول : "الشَّمْرُ Es- Shammar عيونهم Ayunuhum حمر Humr " - بمعنى أن هؤلاء التيامنة من أصحاب العيون الحمراء ؛ هذا يعنى أن هؤلاء الشمر قد يكشفون عن كرمهم للغريب ، غير أنه لا يمكن أن يأمن على نفسه وهو بينهم ؛ " ولكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد فيض من فيض الأقوال والأمثال التى من هذا القبيل ، وتردها كل القبائل المحيطة بهم .

قوة هؤلاء الحضر وسلطنة ألسنتهم يلاحظها البدو ويعرفونها جيدا . وتيماء لا تذكر فى الجزيرة العربية ببئرها (الحداج) وإنما يذيع صيتها بتلك الكلمة غير المتحضرة التى يرددونها بمناسبة وبغير مناسبة. وهم يقولون "الشیطان فيها ، إبليس ! Iblis ! إبليس !- وكلامهم يسير على النحو التالى : "الطفل لا يسمع إلى ما أقول " إبليس Iblis ! هل تعصانى ؟ إبليس ! ما هذا الذى كسر ، ضاع ، تلف ، أو الذى فعل بطريق الخطأ ؟ إنه الشيطان ، إبليس ! إبليس ! " وعليه فإن التيامنة عندما يقع شيء يثير المتاعب أو القلق ، تراهم يصيحون "واحسرتاه ! ثم يقولون : "إبليس ! " هذه

الكلمة شائعة تماما على ألسنة الشباب والنساء والأطفال ؛ ولكن العقلاء من الكبار يحاولون الامتناع عن ترديد هذه العبارات أو الكلمات . وعندما سألتهم عن دواعي استعمال هذه العبارات والكلمات أجابوني قائلين : "وأنت يا من لم يمس عليك في تيماء سوى عامين " لم تجد مفرا من أن تردد هذه العبارات والكلمات أيضا ! " اكتشفت أن النساء البدويات ، أثناء إقامتهن في تيماء ، قد أصبن أيضا بتلك اللازمة ، وكن يقلن من ضمن كلامهن "الملعون إبليس" ، أما الرجال فيقولون باحتقار ، "هذا الإبلis ، الذى هو الآن على ألسنة حريما وفي أفواههم ، سوف لن نسمعه بعد الرحلة الأولى ؛ وهذا يعنى أن إبليسهم هذا لا يمكن أن يُحمل على ظهور الإبل ، وهم يقولون : "حنا Henna البدو el-Beduw" . وهنا يجب أن نقر أن الآثار الضارة للعدوى الكلامية يمكن أن تؤدى تماما فى المناطق التى لا نكون فيها غرباء ! - فى تلك المناطق لا يتبقى لنا من فورات العقل سوى بقايا لغوية متقاعسة غير معروفة لأية أمة من الأمم . - التيامنة سليطو الألسنة ، لأنهم أصحاب عقول شريرة ؛ ... وإذا ما قارنا سكان قرية العلا بسكان تيماء نجدهم يقولون ، بين العالونة ، لا يوجد أناس طيبين ، وكل التيامنة أصحاب قلوب فاسقة وفاسدة . " - مبانى الناس فى تيماء عالية ووسيلة وصحرائهم مفتوحة ، فى حين أن كل شئ فى قرية العلا ضيق ومستقيم .

جرى التفاضل مرحليا عن إعادة بناء الحداج (البئر) من جديد : هذا يعنى أنه كان هناك حوالى أربع وأربعين سانية (ساقية) فى انتظار إعادة بناء البئر ، وأن تلك السواقي أو إن شئت فقل : السوانى كانت تابعة لأحياء الشيخين الآخرين . كان خلف هو وأهل سوقه (حيه أو شارع) ، الذين انهار البئر من الناحية التى كانوا يستغلونها منها ، كانوا يعتمدون على سوانى الأحياء الأخرى ليفيدوا منها بعد أن يسحب أصحاب تلك السوانى أطقمهم الخاصة بجلب الماء . وبواب جلب الماء كلها نياق - ولكن الجمال الذكور ، بالرغم من أنها أقوى من النياق ، إلا أن الناس يعتقدون أن الجمال الذكور لا تكون سلسلة فى العمل مثل النياق ، فضلا عن إنها تستغرق وقتا طويلا لتدريبها على عملية جلب الماء - يجرى تعليقها فى حبال رفع الماء من البئر ، عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، وهنا يتسبب صراخ السوانى أثناء عملها فى الواحات ، فى إيقاظ

(البدو) الذين جاؤا من أجل التسوق ، من منامهم بعد تناول السحور . وربات البيوت التيامويات يجلبن من البساتين سلالا من العلف ، لإطعام إبلهم التي تستعمل في جلب الماء ، ويكون ذلك مع طلوع الشمس ، هذا التبن ، الذي يبللونه بالماء ، والذي يجرى تنعيمه أثناء الدرس لفصل الحب عن التبن . يجرى خلطه مع أوراق القرع وأوراق الشمام وأية أعشاب خضراء تعثر عليها ربات البيوت . وبالرغم من أن أهل القصيم يعتقدون أن ذلك النوع من العلف ضعيف جداً ويفقد الإبل قليلا من لحومها ، ومن سنامها ، الذي يمثل صحة هذه الإبل ، إلا أن أهل القصيم يحافظون على ذلك النوع من العلف وبيقون عليه ؛ وفي بعض الأحيان يجرى تقديم وجبة لتلك الإبل من البلح غير الناضج ، في ذلك الفصل من العام . والإبل الجيدة يجرى استئجارها بالشهر ، من البدو ، بواقع مائة صناع من التمر لكل جمل من الجمال ، أي بما يعادل حوالي خمسة ريال . - هذا العلف طيب الرائحة يوضع أمام تلك الحيوانات العاملة الضعيفة في مدود من الطين ، يجرى تجهيزه عند نهاية كل مسار من مسارات السواني . وبذلك يتسنى للناقة عند النزول أن تملأ فمها من ذلك العلف قبل أن تبدأ في الصعود من جديد . ويجرى فك تلك النياق من السواني قبل الساعة التاسعة ، إذ عندها تبدأ الشمس في الارتفاع في السماء ، وتترك النياق لتشرب من "السريان" *Suryán* (القنوات) ، - والإبل لا تشرب كثيراً في مثل هذه الظروف إذ أنها بحكم عملها في الواحة تشرب كل يوم ؛ ويجرى بعد ذلك اقتياد تلك الإبل إلى حظائرها ، وفك عددها من فوق ظهورها كيما تنال قسطا من الراحة ، وتجتر طعامها ، وبالتالي يذهب أفراد أطقم الماء لنيل قسط من النوم . وحبال جر الماء يصنعها البدو من ليف النخيل ، والذي يجدل هذه الحبال هم الرعاة الذين يعملون في جلب الماء من الآبار ، في كل الواحات على اختلاف أنواعها ؛ - ومن في الجزيرة العربية لا يبادر إلى جدل حبل يشده من حول نخيله ؟ والعمال الذين يعملون في جلب الماء من الآبار يكسون حبال الليف بقطع من القماش حتى يحولوا بينها وبين الاحتكاك بجسم الناقة . وعند الساعة الثانية بعد الظهر يجرى إعادة النياق إلى العمل في جلب الماء من جديد ، وتستمر النياق في عملها لحين غروب الشمس ، عندما يدخل وقت الصلاة ، ويعود الناس إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء . والبدو يعترفون أن العمل في جلب الماء من الآبار عمل شاق

إذ إنه يفسد عليهم راحة الليل ، - عندما تهددنا الطبيعة - زوجة الأب - من جديد فى رحمها المغذى ، وعندما يتغذى العقل البائس على كثير من المواقب بهية الطلعة لمناظر أشد الناس بؤسا وشقاء من بين أفراد الجنس البشرى ، - وساعات الليل إذا ما قورنت بساعات النهار تكون شديدة البرودة . وعمال جلب الماء من الآبار هم أفقر شباب القرية ، وهم لا يرثون شيئا ، ودائما ما تكون أحوالهم من أحوال السخرة ، التى تقوم على التعامل مع حبال الآبار ، وهم يؤجرون أنفسهم لتلك الحرفة المؤلمة .

شاهدت ، فى مرحلة لاحقة عمال جلب الماء من الآبار وهم يُركَّبون اثنين من السوانى عند حافة من حواف البئر المدمرة ، أو إن شئت فقل : المهذومة ، وعمل أولئك العمال طوال أنصاف الأيام وهم يستخدمون الإبل لرفع سلال من الأحجار والتراب الذى انهار وسقط فى البئر . وعندما وجدت أولئك العمال يعملون ببطئ فى رفع تلك الأحجار ، قلت لصديق من أصدقائى : "هذا عمل بطئ" . "ورد على قائلا : "عملهم فاسد Fāsid ، وليست له قيمة . " - "لماذا تستأجرون هؤلاء البدو المساكين ، طالما أن هناك كثيرين الذين يفرضون أنفسهم عليكم ؟" - "هذا ليس عمل البدو ، إنهم ليسوا رزينين ، ولا يتحملون القيام بعمل من هذا القبيل ."

أرسل كل من خلف ، وحسن ، وسلامى ، شيوخ السوق (الشارع) فى طلب نياقهم (التى غالبا ما تكون دوما فى المرعى مع البدو فى الصحراء) : لأنهم سوف يركبون مع الرديف إلى حائل ، ليتحدثوا مع الأمير فى شأن إلغاء بعض الضرائب إلى حين الانتهاء من إصلاح العطب الذى حل ببئر الماء . والمعروف أن القرويين عندما يسافرون فى فصل الصيف "يقبلون" Yugallun ، بمعنى "ينزلون عن دوابهم لتمضية فترة الظهيرة ، فى الأماكن التى يعثرون فيها على الظلال . لم يكن الشيوخ صائمين لأنهم كانوا مسافرين ، بالرغم من أنهم كانوا فى عز رمضان : والقرويون يمشون سبعة أيام فى الوصول إلى جبل شمر راكبين على ظهور نياقهم ، - هذا يعنى أن هذه المسافة تساوى خمس رحلات من رحلات البدو .

انهيار جانب البئر ، سهَّل على من يريد النزول إليه ، وهذا هو ما فعله الكثيرون (القسم الأكبر منهم من البدو) حتى يتسنى لهم الاستحمام فى ماء البئر وإنعاش

أنفسهم فى تلك الأيام . والمعروف أن ماء هذا البئر هو الماء الوحيد الذى يستعمله القرويون فى الشرب ، ولكن العرب يتصرفون تصرفات أقل من المأمول منهم فى مثل هذا الأمر : لقد أحسست أن الماء تغير طعمه مع أننا كنا فى فصل الصيف بحرارته المعهودة . لم يتبق فى البئر بعد انهياره ، سوى القليل جداً من مبانى الجدران القديمة ، التى كانت تتساقط وتهوى بين الحين والآخر ، وكان يجرى تجديدها بجدران جديدة ، كانت تبنى بطريقة سيئة تماما . صحيح أن الأحجار المستعملة من النوع الممتاز ، ولكنها ليست مثبتة تثبيتاً جيداً بالأسمنت . فى الجانب الغربى من جدران البئر أطلعونى على شكل من أشكال المبانى المزوجة ؛ وفى المناطق التى ينقص فيها حجر من الأحجار ، يتصورون أن ذلك هو منظر الباب ، الذى كان الحريم تنزل منه إلى البئر لجلب الماء يوم أن كانت تيماء يهودية^(*) . وبينما كنت فى البئر ، قام بعض الأطفال الأوغاد بإلقاء الأحجار على النصرانى . ولقد شاهدت البدو مرارا وهم يستحمون فى تلك البئر ، واندھشت كثيراً لافتتان أهل الصحراء الجافة بذلك الماء ؛ كانوا يردون على قائلين : "أيها الغريب ، لقد تعلمنا السباحة فى خيبر ، حيث توجد هناك بعض البحيرات الصغيرة على حدود الحرّة ، وبخاصة فى الطريق المؤدى إلى وادى "الحمض" El-Humth أى بالقرب من "الطبيق" Tubj : هؤلاء البدو كانوا من قبيلة بشر .

تخيلت أن أولئك الشيوخ ، يمكن أن يثقوا بى ، فى مسألة الطريقة التى يمكن بها إعادة بناء الجزء المنهار من البئر ، ولكن نظرا لأن هؤلاء الشيوخ كانوا قد سافروا إلى حائل ، فقد رأيت أن من الأفضل إرجاء القيام بهذا العمل لحين عودتهم إلى تيماء . كان القرويون عندما يبنون البئر يكوّمون التراب خلف الجدار ؛ ولكنى سوف استبدل ذلك التراب بترية جافة ومدكوكة ومكبوسة كبسا جيداً ؛ وإذا ما كان ذلك سيؤدى إلى زيادة التكلفة ، فإن التربة المتعفنة بعد خلطها بالحصى والزلط قد تكون أقل تكلفة ، وتكون أخف أيضا عندها وضعها فوق التربة المدكوكة . يضاف إلى ذلك أن القسم الأكبر

(*) كان من نتيجة الثورات التى قام بها اليهود فى أورشلیم أن قام الرومان بطردهم من فلسطين فى عام ۷۰م واتجهت جموع كثيرة من اليهود إلى جزيرة العرب حيث استوطنوا أخصب بقاعها فى يثرب وخيبر وخذك وادى القرى وتيماء . (المراجع)

من الأحجار التي استعملوها في بناء الجدران كانت غير مشذبة أو خام ؛ وأما أنا سوف أحضر بعض الأحجار مربعة الشكل من أنقاض البلدة القديمة ، وسوف أنقل تلك الأحجار على ظهور الإبل . وأبنى الجدران الجديدة ، فوق منحنيات سهلة ، وأمنعها من السقوط عن طريق حوائط ربط تبني من الخلف ، لتكون بمثابة جذور للجدران الجديدة ، على أن تكون هناك أجزاء بارزة مثل الرُكْب ، في اتجاه الماء . وكنت على ثقة أن الجدران إذا ما بنيت بهذه الطريقة فسوف تكون متينة ، حتى وإن أدى الأمر إلى عدم استخدام الملاط . وقلت لهم (وكان ذلك وعدٌ مني) أن البئر يمكن أن تظل على هذا الحال ، طيلة مائة عام من بعدى ، وكذلك رأيت أن يكون هناك تحويطة حول كل جدران البئر ، تكون على شكل إطار من جذوع أو دعامات النخيل . ولكني اكتشفت أنهم . كعرب لم يكونوا متحمسين لهذه الفكرة ، بل شككوا فيها أيضا ، بل إن البعض منهم طلب مني تأكيداً بأن الأحجار لن تسقط أو تهوى بعد رصّها ؛ سألوني ، "إن كنت بناءً أو لدى أية خبرة سابقة في عملية البناء؟" ونظراً لأنني لم تكن لدى أية جوائز أو مكافآت ، ونظراً أيضاً لأنني كنت أكتفى بناقة وعليها سرج ، فقد اعتبروا هذين الأمرين مؤشرين على عدم كفايتي وقلة خبرتي ، وبالتالي قلن يفيدوا من ذلك شيئاً .

كان المُتَسَلِّم Mutasallim . أو إن شئت فقل : مندوب بن الرشيد ، يجلس في معظم الأوقات على المصطبة الطينية . في فترات العصر ، وكنت كلما مررت به أحبيه تحية من القلب ولكنه لم يكن يرد التحية مطلقاً . ذات يوم ، وبينما كنت جالسا بالقرب من ذلك المتسلم ، - كان يجلس وحيدا نظرا لأن أحداً من الناس لم يكن يتشوق إلى صحبته أو يسعى إليها ، - قلت : ما الذي يشغلك ؟ هل أنت أصم ، أم أنك تعتبرني عدواً ؟ "اعتدل سعيد ، الذي كانت روحه المعنوية متدنية ، ورفع قامته قليلا حتى لا يهرب مني منظر جبهته الخطيرة ، ثم راح بعد ذلك يلتمس لنفسه الأعذار : "حسن ، لقد كان في زيارة لمصر ، ورأى أمثالا لي هناك ، - لا ، هو لا يمكن أن يعدني عدوا له ؛ الإنجليز "يهاشمون" Yuhashimun (يناصرون) سلطان الإسلام" . ثم سألتني هذا الرجل المهم سؤالا واضحا ومباشرا : "خبرني ، هل كان القدماء في هذه البلدة يهوداً أم نصارى؟" - "أستطيع القول إنهم كانوا مثل هؤلاء الناس ! - وهنا أريته أولئك الأعراب الكثيرين الذين يضعون غترا على رؤوسهم ويرتدون عباءات ، وكانوا يتسكعون

حول بئر - يهود بالله .- ابتسم سعيد المتسلم ابتسامة خبيثة ، لأنه اكتشف أن الغريب لم يخطئ؛ فيما قاله عن التيامنة .- وخلاصة كل ما تعلمته (من خلال طرح الأسئلة على العرب) عن نظام حكومة ابن الرشيد هو ما يلي : "يحاول التأكيد لهم أنهم يمكن كسبهم عن طريق الهدايا والعطايا ، ويشهر سيفه في وجه أعدائه ، ويدوس على من يخافه أو يخشاه ؛" والببو يقولون عن ابن الرشيد ، "إنه لم يكن في يوم من الأيام حاكما Hakim بحق ، وأنه لم يطح برأس إنسان .- وبالرغم من أن بعض الببو يمكن أن يقولوا أشياء معيبة في حق الحاكم ، وأن تلك الأشياء فيها كثير من الخلل والزلل ، إلا أنها لا تتردد كثيراً في القرى على شكل أسى أو أحزان . والقرويون يعتقدون أن حالهم على ما يرام تماما ، لأنهم يلقون معاملة عادلة .

بعد احتلال خيبر ، كانت الحكومة التركية في المدينة (المنورة) تفكر في الاستيلاء أيضا على تيماء .- وفي العام السابق لاحتلال خيبر ، كانت تلك الكتيبة من العجيل ومعهم المشاة وقطعة مدفعية ميدان واحدة ، قد أرسلت من المدينة (المنورة) في حملة سرية، أو إن شئت فقل: مهمة سرية في اتجاه الشمال؛ وتهامس الناس بأن تلك الكتيبة كانت متجهة لاحتلال تيماء : ولكن الجنود بعد أن قطعوا مرحلتين من المسافة صدر إليهم أمر جديد يطلب منهم العودة مرة أخرى ، وبالتالي عادوا ثانية إلى خيبر . كان الناس يعتقدون أن كبار رجال المدينة (المنورة) جرى شراؤهم ، في الوقت المناسب ، برشوة كبيرة دفعتها حائل. معروف أن الأتراك يحبون الفضة (النقود) ، ويحبون أيضا التفخيم والتعالي ؛ ومعروف أن "سلطان الأعراب" الشمر ، كان يريد العمل مع الأتراك من هذين المنطلقين ؛ معنى ذلك أن سلطان الشمر كان يصطاد مع الأتراك في مدينة الرسول ، مستخدماً الطعم التركي نفسه . كان التيامنة يعيشون طبقاً لرغباتهم تحت حكم الحكومة النجدية الصريحة ؛ هذا يعني أن أهل تيماء لم يريدوا للإمبراطورية العثمانية استغلال أية ذرة من المدينة (المنورة) لصالحها .- وقد أكد لي الأفراد الثقات، أن واحداً من الغرباء الذين زاروا تيماء قبل سنوات قلائل ، جرى تضليله في الصحراء ثم قتله بعد ذلك، بأمر من خلف ، نظر لأنهم شكوا في أن يكون جاسوساً للإمبراطورية العثمانية ؛ قتلوا ذلك الغريب المسكين مخافة أن يجر عليهم ويلات الإمبراطورية العثمانية الكئيبة ؛ سمعت من بدو الفكرة أن ذلك الغريب كان "عبداً" Abd .

لم يزدهر حالى فى مسألة علاج المرضى فى تيماء ، فهؤلاء الذين قدموا الدليل على الأدوية فى أيامنا هذه يصعب عليهم التمسك بتلك الأدوية فى الغد نظرا لعدم المبالاة أو الاهتمام بتلك الأدوية ؛ وأفضل هؤلاء الذين قدموا الأدوية لم تكن لهم سوابق فى هذا المجال . ولذلك فهم يشعرون بالقلق عندما يتلعون تلك الأدوية لوحدهم . هذا هو داريم Dareyem ، أحد الشيوخ ، كان مريضا بالاستسقاء ؛ وكان أصدقاؤه يهتمون معى بشأن هذا الرجل . جاء ذلك الشيخ ذات يوم عائدا من صلاة الجمعة ، قبل حلول شهر رمضان ، وأحس بالحر فشرب شربة ماء باردة من القرية ، واعتبارا من ذلك اليوم بدأ جسم هذا الرجل يتورم . خلطت لذلك الشيخ شيئا من قشدة الطرطير(*) ، مع شئ من الماء ، ثم شرب هذا المحلول ، وتحسن حاله ، ولكنه سرعان ما بدأ يهمل تناول الدواء ، "لأنى لم أشفه فى سبع ليالى" وبالتالي رفض تناول الدواء بعد ذلك . قلت للأصدقاء ، "أعتقد أنه لن يعيش أكثر من عام أو عامين !" - ولكنهم استمعوا إلى ما قلت دون اهتمام أو مبالاة ، الأمر الذى جعلنى أستشعر القلق والفتور فى داخلى . "ردوا على ، أن الموت والحياة بيد الله !" جاء إلى أشخاص آخرين يطلبون منى علاج عيونهم ؛ ولكنهم كانوا يخشون دفع ست بنسات أو صاعين من التمر على سبيل الأتعاب للطبيب ، بل إن البعض من هؤلاء عادوا إلى بيوتهم وهم يسبون ويلعنون لأنى لم أعطهم الدواء على سبيل الهدية . البدو ، فى القرى ، كانوا يلجأون إلى الحكيم بطريقة أكثر صراحة ووضوح ، وينوايا طيبة أيضا ، لعلاجهم من السعال الذى كانوا يحسون بآثاره فى عظامهم ، ولعلاجهم أيضا من أمراض الأمعاء - أو إن شئت فقل من أمراض الصحراء ؛ ولكن أفراد قبيلة العنزى كانوا يلجأون إلى الحكيم لعلاجهم من حمى الملاريا التى كانت تصيبهم فى خيبر .

يشيع فى شهر الصيام بين هؤلاء الناس ، نوع من أمراض الروماتيزم ؛ ويرجع سبب هذا المرض (الذى يندر أن يوجد فى البلدان متوازنة الغذاء) إلى شرب الماء البارد قبل النوم ، بعد أن يجرى تبريده فى قراب الماء ؛ وقد يكون سبب ذلك المرض راجع إلى أن هؤلاء الناس ينامون فى العراء بلا غطاء ، وبالتالي يضر برد الصباح

(*) هو ثلثى طرطرات البوتاسيوم الخام . (المترجم)

صحة هؤلاء الناس ، عندما يستيقظون من منامهم ويجدوا الصقيع حول عيونهم المتورمة . هذا المرض يستمر مدة عشرة أيام يحس المريض خلالها بألم يشبه ألم التراب عندما يكون فى العين ، كما يحس أيضا باحتقان واحمرار شديد فى العينين ، الأمر الذى ينذر بخطورة تسرب أية مادة إلى القرنية ؛ هذا المرض يشيع فى معظم المستوطنات النجدية ، إلى حد أنه من بين كل ثلاثة أشخاص يكون واحد منهم مصاب بهذا المرض . هذا النوع من الرمد أصيل فى السلالة العربية ، كما أنه يصيب الغرباء الذين يعيشون فى هذه المناطق : وهامم الأحباش هم وأطفالهم يعانون هنا من هذا المرض ، ولكن هذا المرض لا يصيب سوى قلة قليلة من الزنوج ؛ وقد وجدت أسوأ حالات هذا المرض فى خيبر ، بالرغم من أن الناس هناك يعيشون الحياة الريفية نفسها . هذا هو محسن ومعه شخص آخر فى المنطقة التى تنزل فيها ، أو إن شئت فقل : فى المخيم المقام على أرض الواحة ، أصيب فى عينيه ويحس فيهما بوخز شديد ؛ ولكن هذا المرض مر مرور الكرام ، نظراً لأن هذا المرض مقصور على الواحات ، وليس من أمراض الصحراء الجافة . وأنا نفسي ، كنت أشرب كل مساء ، شربة ماء كبيرة من قراب الماء المعلقة ، وأنا أنظر متأملاً فى ذلك العدد الذى لا ينتهى من النجوم ! - ذلك المنظر السماوى الذى لا يمكن أن تحرمنى من رؤياه أيام الحياة المتعبة التى تمر علىّ : ثم شربت مرة ثانية من ذلك الماء عندما كان فى ذروة برودته ، قبيل طلوع الفجر . وذات صباح ، وكان ذلك فى منتصف شهر رمضان ، أحسست بتورم فى عيناى ؛ وهنا ، وعلى العكس مما يفعله العرب ، واعتماداً على العلم الذى استقيته من كتبى ، رحت أغسل عيناى بصورة مستمرة . والعرب يقولون : "لا تجعل الماء يلامس العين إذا ما أصابك ذلك المرض . " ولكن غسيل العين بصورة مستمرة هو الذى خفف الألم ومكننى من فتح عيناى . - ولكن أهل الجزيرة يواصلون التمسك بخرافتهم عن موضوع استعمال الماء مع مثل هذا المرض ، بل إنهم يحاولون دون استعمال الماء مع أى شكل من أشكال الالتهاب .

مضت عشرة أيام على إصابتي بذلك المرض، وكان يدور بخلدى، "ماذا لو خذلتني عيناى ! - وأنا فى هذه الأرض المعادية وبعيدا عن كل ما يلزمنى ويصلح لى . " كان بعض أهل القرية ، وأنا أمر عليهم أحسس طريقي بألم بالغ ، وأكاد لا أرى الأرض ،

كانوا يسألونى ، "أين أدويتك ! " وكانوا يرددون المقولة القديمة "أبو قراط يعالج نفسه" . وبعد أسبوعين ، من ترك الماء ، بدأ التهاب يخف ، وشفيت عيناى ، وأنا أحمد الله على ذلك ! إذ لم تحدث لى أية مضاعفات . بقى نظرى ضعيفا إلى حد ما بعد شفاء عيناى ، ولم تكن رؤيتى جيدة مثلما كانت عليه من قبل ، يوم كنت فى الجزيرة العربية ! وكنت دائما أحس وخزا فى عيناى . بل كان ذلك النوع من الرمد يعاودنى عندما كنت أرشف الماء البارد أثناء الليل ، - اللهم باستثناء تلك الليالى التى كنت أتناول فيها عشاء من اللحم . ولقد تعلمت من الخبرة ومن التجربة أيضا ، أن الإنسان ينبغي ألا يشرب الماء أثناء حرارة اليوم الجاف ، ويفضل عدم شرب الماء إلا بعد غروب الشمس ! والمثل الشعبى ، فى البلاد العربية التى تشرب الماء يقول "شرب الماء قبل النوم يعد واحداً من المبالغات التى تؤذى جسم الإنسان" . قال لى أحد التيامنة ، وهو يشعر بالأسف لما أصابنى: "هذا لأنك أصابتك العين (الحسد) - ماذا! ألا تفهم المقصود بإصابة العين ؟ المؤكد أنهم نظروا إلى عينيك ، يا خليل ! لدينا بصّاصين (قاتلهم الله !) يعيشون بيننا ، يستطيعون من خلال نظرات عيونهم (الحاسدة) أن يسقطوا طائرا من السماء ؛ وسوف ترى ذلك الطائر وهو يهوى من السماء صارخاً كاك Kak - كا Ka - كا Ka - كا KA . وأنا أقسم بالله ، إن نظراتهم (حسدهم) يمكن أن تنسف نخلة على نحو تراها تنوى وتذبل . - هذه أشياء يؤكدّها كثير من الشهود المخلصين ."

عندما كنت أمر فى السوق (الشارع) ، كان كثير من الناس (كلهم من الببو) يمدون إلى أيديهم وهم جلوس على المصاطب ، من باب أنى لدى مهارة قراءة الكف : كان الكثيرون منهم يتطلعون إلى قوة الشعوذة فى النصرانى ، وكانوا يرجونى نيابة عن أصدقائهم المرضى (لأنهم يرون فى تسود مهارة الطبابة ، القدرة على تقييد الجان) . لم يكن لدى هؤلاء الناس ما يقولونه ، عندما عبرت عن احتقارى لاستيائهم ، عن طريقة التعبير عن احتقارى وازدراى العلنى للشعوذة والدجل ، لأنى لو وافقت على ذلك وجاريتهم فيه ، لكنت قد جعلتهم ينظرون إلى وكائى أقذف دينهم بالأحجار : ومع ذلك ، فقد اكتشفت بعد ذلك فى مدينة حائل أن الدجل والشعوذة كانت تحيا هنا تحت ستار التسامح ، - هذا النوع من الخرافات التى لا تمت للدين بصلة ، هى والتصرفات

والتعاملات التي يدعى أصحاب العقول المريضة أنهم يأتونها مع العالم السفلى ،
لا تتوافق مع المذهب الوهابي^(*) .

الشيء الخيالي العجيب الذي وجدته في تيماء (والذي يشبه إلى حد بعيد
الحكايات التي يحكيها البدو الرحل عن المناهل) يتمثل في أن لديهم واحة من واحات
الأشباح يطلقون عليها اسم "عوينات Aueynat مسلّات Mas?llat الأمان el- Aman .
"هذه الواحة تبعد مسير ثلاث ساعات بالابل ، عن تيماء في اتجاه الشمال الغربي ،
وهي مسكونة في معظمها بالبدو . والعبيد والخيول تنبتق من مظهر النخيل المسحور ؛
ولكن كل ذلك يخفى إذا ما اقترب الإنسان من هذه الأشياء ."

في إحدى القرى ، لم أتمكن مطلقاً من الهرب (من طاعون تلك العقول المعدي)
من التشدد الإسلامي . والقيامنة بحكم كونهم تجاراً متلاعبين ، ويسبحون في مظاهر
الحياة الجنسية والحسية ، هم من المسلمين الذين لا يتمسكون تماماً بالعقيدة
ولا يعضون عليها بنواجزهم ، وهذا ينسحب أيضاً على الصوم وعلى الصلاة . الناس
هنا ، كما في نجد ، يبدون كما لو كانوا مؤمنين جداً في إطار دين فتى جديد ،
أو كما لو أن محمداً (ﷺ) نفسه قد مات من بينهم منذ فترة وجيزة ؛ هذا يعني أن
الجميع كانوا مشغولين بالدين طمعاً في الحصول على نعم الله ؛ - الدين هنا هو
الشغل الشاغل والطريقة الوحيدة التي يزجى بها هؤلاء الناس أوقات حياتهم الفارغة .
نظف الوهابيون هذه التربة وطهروها من الحشائش الضارة ، التي تخلفت عن
الأعشاب القديمة الزائفة والغريبة ، وبالتالي فإن هذا التجديد لا يمكن أن يغيب عن
الوعي العام في عشية أو ضحاها . التعبير ، والاستهزاء والمقاطعة والخصام كلها أمور
صارخة وغير مستحبة في المزاج العربي ؛ والتشدد في هذه البلاد ، يكمن أو يتأصل
في الأفراد الذين يعانون من الحرمان . والدين عندما يملك العقول الطيبة يصبح أمراً
مستحباً ، ويصبح بحاجة إلى التخلي عن شيء من حب الذات المؤلم ومن التطرف
أيضاً ؛ حب الذات هو والتعصب والتزمت في العقيدة يسرى بين الناس هنا باعتباره

(*) ليس هناك مذهباً وهابياً كما يذكر المؤلف وإنما الأصح التعاليم الإسلامية الصحيحة التي دعا الشيخ
محمد بن عبد الوهاب المسلمين لاتباعها . (المراجع)

ثمرة طيبة من ثمار الروح الناجمة عن وطنية الناس الدينية هنا . - الوطنية والدين ! يبدو لنا أن كل الفضائل تكمن في هذين الأمرين ؛ ولكن الإفراط في أى منهما تنتج عنه مصائب كثيرة ! - كان المتشددون يصيحون في قائلين : "جوم ! Goom أطلب Utlub ربك Rubbuk ،" بمعنى "أنهض ، يا أنت ، وأدعوك وأطلب منه . " الشباب الذى نتج عن هؤلاء المتشددين ، كان شابا ضعيفا ، لا يحظى بالحب ويشعر بالتعاسة ! كانت تنهال على كلمات كثيرة من هذا القبيل من ألسنة بعض النساء : وكان يدور بخلدى أن هؤلاء الناس ، كانوا يشبهون سماسرة السماء ، وأن كل إنسان يتعين عليه أن يتحاشاهم ويتجنبهم ! ومع ذلك لم يجرؤ أحد من هؤلاء على سب النصرانى فى القرية لأنى كنت بصحبة البدو ، وتحت رعاية شيوخهم .

تعرفت على رجل صغير فى منتصف العمر ، يدعى إبراهيم ، وقد انحدر من أسرة رومانية وذلك على العكس من بقية سلالاته ، وإبراهيم هذا رجل عاقل ومتزن فى كلامه ، ويعرف القراءة والكتابة ، ويبدو أن هذا الرجل يتمتع باعتدال عقلى فريد بحكم اتصاله بكل أجواء العالم من حوله . إبراهيم هذا عاش منفيا فترة طويلة فى ينبع Yánba النخل en-Núkhī ، وها هو يعود ثانية (بعد دفع الفدية) إلى محل إقامته الأصلية . اكتشفت أن إبراهيم هذا ، كان فقيراً جداً ، ولم يحدث مطلقاً أن دعانى ذلك الرجل إلى ما بعد عتبة كوخه ، الذى لم يكن فيه وجار للقهوة ؛ ولكن ذلك الرجل كان يرد دائماً رداً كريماً عندما كنت أطلب أو أسأل عن شئ على مرأى ومسمع منه . دعانى إبراهيم فى يوم من الأيام لمرافقته للتمتع بنسيم العصر ، حيث سيرينى صور وأطلال تيماء (الفسيفسائية) القديمة . هذا هو سور المدينة القديم ، الذى أصابه شئ من الدمار ، يرتفع كما لو كان خندقاً ، أو قناه طويلة تشكل الكتبان الرملية الصحراوية ضفتيها؛ هذا السور يمتد لمسافة ميل فى اتجاه الجنوب من فوق مستوى الواحة. كانت بداية ذلك السور، التى وصلنا إليها مبنية من كتل كبيرة من الحجر الرملى جرى رصها بطريقة بدائية وغير فنية . كما أرونى أيضاً تلة يصل ارتفاعها إلى ارتفاع السور ، ومن فوقها كومة من أحجار البناء ؛ وهم يطلقون على تلك التلة اسم "قصر kasr بدر Bedr بن Ibn جوهر Johr" ، وبدر هذا هو أمير تيماء القديمة فى زمن اليهود . - وفى تراث كل من خيبر وتيماء لا توجد أية إشارة إلى "الأمير صمويل Samuel"

الحاكم اليهودي لكل من خيبر وتيماء" (هذا الحاكم ذاعت شهرته فى الماضى) : والمعروف أن السكان الذين لا يعرفون القراءة والكتابة جديدون على تيماء ، إضافة إلى أن أهل الجزيرة العربية ليست لديهم سجلات لمثل هذه الأمور . قالوا لى : "إن هناك وجأجاً Wajaj مدفونا تحت الرمل ، وأن هذا الوجاج عبارة عن بئر ضخمة أخرى مثل الحدأج . " رافقنا فى تلك الجولة اثنان من عبيد أسرة ذلك الشيخ ، بعد أن حصلنا على حريتهما ؛ جاء إلينا هذان الرجلان وكانا يرتديان ، فى شجاعة وجسارة ، ملابس أولئك الذين ينحدرون من سلالة الزنوج ، وكان كل واحد منهم يحمل سيفه . قفز هذان الرجلان وهما يضحكان بين الانقاص ، وراحا يجريان مثل التلاميذ عندما يخرجون من المدرسة ليسألانى : ألا يرضينى أن أقيم فى تيماء وأنقب لهم عن ذلك الوجأج ؟ (موقع هذا الوجاج غير معروف) وبالتالي تتحول كل تربة ذلك السور الجرداء إلى حدائق مثمرة .

اكتشفت عن طريق ملاحظة البارومتر ، أن المدينة القديمة تقع على ارتفاع خمسين قدما فوق مستوى القرية ، - هذا يعنى أن حفر البئر عند هذا الارتفاع ينبغي أن يصل إلى عمق مضاعف ؛ ولكن ذلك العمق لم يكن أكبر من الأعماق المائثة فى كثير من قرى نجد . شاهدت أيضا فوق التربة آثاراً لقنوات رى قديمة . هذه القنوات التى كانت تستخدم فى توصيل الماء ، كانت أمام أعين هؤلاء الناس بصورة مستمرة ، ومع ذلك لم يكلف أحد منهم نفسه بتتبع تلك القنوات، حتى يتسنى له معرفة بدايتها . - لو قدر لأى إنسان متفتح أن يولد بين هؤلاء الناس ، ألا ينبغي له أن يروح فى ثبات ذلك الإهمال والفتور ؟ يدا الإنسان وحده لا يمكن أن تحققا مشروعا كبيرا ؛ وإذا لم يكن هناك من أحد يرافقه ويقف إلى جانبه ، فإنه سوف تفتقر همته وتضيع شجاعته . هذه القنوات الصغيرة بدائية الصنعة وغير متقنة ؛ وهذه البدائية هى وعدم الإتقان أمران شائعان فى مناطق الأطلال القديمة فى الجزيرة العربية . والناس هنا يظنون أن عيون الماء يمكن العثور عليها تحت سطح التربة ؛ وقد عثر الناس وهم يحفرون فى الأرض على بعض المجارى المائية القديمة . وقد سمعت هؤلاء الناس يتكلمون عن استئجار بعض الأشخاص المهرة من قرية العلا ، كى يقوموا بالبحث عن تلك العيون

المائية : ولا بد أن يكون ذلك الكلام قد دار على ألسنة هؤلاء الناس على امتداد سنوات كثيرة !

وفى مرحلة لاحقة ، ونعد أن جاء بدو الفكرة واحتلوا الديرة من هذا الجانب ، غامرت بالدخول إلى الصحراء كي ألقى نظرة على كل تلك الخرائب والأنقاض . وأثناء تجوالى خلال هذه الأنقاض والخرائب ، وجدتني أعبر أو أتجاوز مسور المدينة القديمة ؛ وكانت المنطقة الواقعة داخل هذا المسور عبارة عن رمل وزلط صحراوي ، وخارج ذلك المسور شاهدت مساحات من الشوارع القديمة ، أو إن شئت فقل أحجار أساس المنازل . كانت مصنعية بناء ذلك السور الكبير مصنعية بدائية وغير متقنة ؛ فقد كان المسور عبارة عن كتل كبيرة من الحجر الرملي مرصوفة باستعمال ملاط من الطين ؛ كانت المسافات فيما بين وجوه الأحجار محشأة بالملاط الطيني نفسه ، الذي لا يؤثر فيه مناخ هذه البلاد ، وبالتالي يزداد صلابة وتماسكا مع مرور الوقت . من هنا فإن العغل القديم يبدو كما لو كان جدارا من الصلصال صنع البناء له وجهها ؛ ويصل سمك الجدار إلى ما يقرب من القامة ، و (فى المنطقة التى يبرز السور فيها الرمال المتحركة) يصل ارتفاع السور إلى ما يزيد على ثلاث قامات . شاهدت فى مكان من الأماكن برجاً منخفضاً (هل كان ذلك البرج قبرا ؟) وقد امتلأ تماما بالصلصال ؛ كما شاهدت فى مكان آخر باباً سرّياً كانت عارضته الجانبيتان مصنوعتان من قطع كبيرة من الأحجار . كما شاهدت أيضا شظايا صغيرة حمراء اللون وشظايا أخرى من حجر شفاف حليبي اللون ، كل هذه الشظايا كانت مبعثرة فى سائر أنحاء البلدة القديمة ؛ وكل هذه الشظايا غريبة على هذا البلد . [شاهدت شيئا من هذا القبيل فى مواقع قديمة على ساحل الخليج الفارسي.] - ولكنى عندما رحلت أبحث حول تلك الجدران عن نقوش أثرية من نقوش تيماء ، لم أعثر على أى شىء منها : كانت عيناي لا تبصران جيدا . بفعل الرمى الذى أصابهما ، إضافة إلى أنى كنت أتحرك بخطى الشخص الهارب ، وحدى وحافى القدمين ، وكنت أخوض وأغوص فى الرمال المنجرفة الساخنة . - شاهدت فى الرّيحَة Érbha أنقاضا لبعض القرى ، وبعض الأبيار ، وكذلك بعض القنوات المهدمة ، كما شاهدت عند الأفق قمما من الحجر الرملي فى اتجاه الجنوب الشرقي على بعد أميال قليلة من تيماء . كما شاهدت أيضا فوق الأرض المرتفعة

الواقعة خلف ملاحات الواحة فى اتجاه الشرق ، مبنى قديما دائريا ، ربما كان معقلا أو قلعة من القلاع القديمة ، أو ربما كان هيكلًا heykal حسبما يتصورون ، والمقصود "باليكل" هنا هو "معبد وثنى" كان يطل على تيماء كلها : الناس هنا يدعون أن ذلك الهيكل ، أو إن شئت فقل : المعبد كان كبيرا مثل قصر زلُوم Zellum ؛ وأنا لم أتمكن من زيارة ذلك المعبد .

يضاف إلى ذلك أن إبراهيم أبلغنى ، - وأنا لا يمكن أن أثق تماما بما قاله ، نظرا لأن البدو لم يؤكدوا ذلك الذى قاله ، - "أن هناك أرضاً ، اسمها "الخُبُو el-khubbu (الخَبَّة khubbah) بالوادي b'il wady المهجع Mohajja ،" تحت جبل غنيم Ghreneyم ، وفيها كثير من الأحجار العالية الواقعة على أطرافها ، ومن فوقها نحت لعينين بشريتين وأنف وقرون من الشعر ، ومن الأسفل يوجد نقش naksh . وقد ذكرتني كلمات إبراهيم بذلك الحجر الذى سبق لى العثور عليه فى قصر زلُوم Zellum ! ترى ، هل كان إبراهيم يقول الحقيقة ، أم أنه كان يكذب على الغريب فى مثل هذه الأمور ؟ ربما كان يتكلم عن مدفن تيماء القديمة ، فى زمن الإنجيل ! ولذلك راودتنى رغبة قوية فى زيارة المكان . وعندما سألت محسن عن ذلك قال لى : "إنه كان يرعى الماعز عندما كان طفلا فى ذلك الجانب كله من الغنيم" - ولكن ماذا عن تلك الخبة khubbu ! فوالله ، حسب علمه لم يكن هناك شئ من هذا القبيل ، كما أنه لم يصدق ذلك الكلام . " والمؤسف أنى كنت فى البلدة فى ذلك الوقت ، وكان البدو الغرباء يتوافدون على البلدة قادمين من كل جانب ، إلى حد أنى لم أستطع التأكد من هذا الأمر أو التحقق منه . ولم أسمع أن أحداً عثر على قطعة من النقود القديمة فى تيماء ، سواء أكانت تلك القطعة من الفضة أو الذهب أو حتى من النحاس الأحمر . معروف فى البلاد العربية أن نقود الكنوز تجلب الحظ وأنها تصلح للعزائم والرقى ؛ ومن يعثرون على نقود الكنوز يذهبون بها إلى الحداد ليصنع لهم منها خواتم أو أشياء تتزين بها نساؤهم وأطفالهم . أرانى شافى Shafy ، إناء إغريقيا عثر عليه (فارغا) عندما كان يحفر فى أرضه ؛ هذا الإناء يشبه دوارق الزيت المستعملة فى جنوب أوروبا ! - فى ذلك الوقت لم يكن هناك أوعية طينية فى تلك الأجزاء من الجزيرة العربية ! كما عثرت على بقايا أوانى القدماء ، وكثير من الزجاج المكسور فيما بين جدران الواحة وملاحات تيماء . والناس هنا يقولون إن تيماء

الأثرية كانت عبارة عن بلدة قديمة داخل هذا السور ، وأن تلك البلدة كانت لها ثلاث ضواحي: الغرب ، والشرق ، والحدّاج (البئر) ، وهى موجودة حاليا : وهذا الذى يقوله الناس هنا نقلا عن التراث يحتاج إلى إعمال الذاكرة فيه جيداً ، "كانت المدن القديمة لهذا البلد سبع مدن : تيماء ، والحجر ، والمبيّة (Mubbia(t ، وأمّ جسر Umgassur ، وخيبر ، والخريبة ، والمجيرة Mogera " .

ذهبت فى أحد الأيام إلى مكان جرى فيه مؤخرا اكتشاف بئر قديمة أعيد افتتاحها . كان ولد صاحب البئر ، أو إن شئت فقل : مكتشفها ، يقود جملا عند البئر لجلب الماء ، إلى الحوض الجديد الذى جرى إنشاؤه على قطعة من الصحراء ، جرى تسويرها بالفعل وحرثها وتقسيمها إلى قطع صغيرة لزراعة الحبوب ؛ هذا الماء كان أبرد من المياه الأخرى ، ولكن طعمه لم يكن سائغا . مثل مذاق الماء الذى يجرى جلبه من الحدّاج . تسلق الرجل ذلك السور الطينى (إذ كانت هناك ثقب فى أسوار البساتين . الأمر الذى كان يمكن النساء أيضا من تسلق ذلك السور) ، ثم عاد إلى بهدية من الرمان : والعرف فى البلاد العربية ، يقضى بأن من يدخل حقل الغير أو بستانه يصبح ضيفا على ذلك البستان ، ويقوم صاحب البستان بملئ يدي ذلك الضيف بالفاكهة إذا ما تيسرت وكان ذلك أوانها . وعليه ، ومع استمرار الصبى فى اقتياد الناقة ، من خلال صوته ، جلس معى لتتحدث سويا . هذا البئر الذى يصل عمقه إلى سبع قامات أمكن تطهيره بواسطة ثلاثة رجال من رجال الرحلات ، بواقع ستة بنسات أو ثمانية بنسات فى اليوم الواحد ، وعلى امتداد خمسة وعشرين يوما ، أى أن التكاليف الإجمالية وصلت إلى ما يقرب من عشرة أو اثنى عشر ريالا ؛ كما أن هذه الأرض الجديدة التى تصل مساحتها إلى ثلاثة أو أربعة أفدنة ، التى جرى إعدادها كانت تساوى ما يتراوح بين مائتى وثلاثمائة ريال أى بواقع ما يقرب من ١٨ جنيها إنجليزيا للفدان الواحد . كان الأمر مازال يتطلب شيئا من الإنفاق على زراعة بعض من فسائل النخيل ؛ يضاف إلى ذلك تكاليف استئجار الإبل كل عام . إضافة إلى الأجور التى تدفع لمن يقومون على أمر اقتياد تلك الإبل . وهى تعمل فى جلب الماء من البئر . هذا يعنى أن فسائل النخل الصغيرة سوف تثمر خلال خمس أو ست سنوات ، وتصبح نخيلا كبيرا خلال خمسة عشر عاما ، وتثمر بعد ذلك بكل طاقتها . - ثمار هذا

النخيل كل عام لا تتعدى قيمتها المائة ريال : هذا يعنى أن إنتاج ذلك الحقل الحظيظ ، لا يمكن أن يغطى فى النهاية تلك التكاليف الكبيرة التى أنفقت عليه . وأية حوطة من حوطات تيماء عندما يبيعها مالكاها ، يدفع المشتري جزءا من ثمنها بالعملة الفضية ، أما بقية الثمن فيجربى سداذه على شكل تمر ، ومستلزمات البيوت ، وعلى شكل أوانى ؛ - وهذه الأشياء ، هى وسجاجيد الجلوس ، هى كل المنقولات التى يمكن أن يراها أى إنسان فى منازل الجزيرة العربية . وقد يبيع البائع التمر نظير مبلغ من النقود ، إلى البدو الذى يفنون إلى تيماء طلبا للتسوق والتبضع .

أخذ مسور تلك الحوطة الجديدة يمتد إلى أن تعدى محيط الواحة فى اتجاه الصحراء : هذا يعنى أن تيماء ليس لها سور عام من حولها ، ولكن أقسام هذه الواحة كل واحد منها مسور بواسطة الجدران الخاصة بالأفراد أنفسهم . فى هذه المستوطنة هناك جوالى أربعة أو خمسة طرق ، أو إن شئت فقل : مسارات ، عند نهاية الطرق العامة ، - والجزء البعيد من تلك المستوطنة تتحكم فيه البوابات ؛ ومع ذلك يستطيع المشاة التجوال فى المستوطنة طوال الوقت من خلال فتحة موجودة فى الجدار الجانبى (وهذه الفتحة ضيقة جداً) ، - هذا الشئ له مثيل أيضا فى القرى السورية الواقعة فى الصحراء مثل قرية كرياتين التى تقع قبل بالمرى Palmyra . - وقعت عينائى ، ذات يوم فى الصباح الباكر ، على جماعة كبيرة من بدو الشرارات ، الذين كانوا ينتظرون السماح لهم بالدخول ، عند البوابة الشمالية ؛ وكان هناك أيضا بعض من أهل البلدة ، حتى يكونوا أول من يتعامل تجاريا مع تلك الجماعة فقيرة الحال ، التى جلبت معها شيئا من السمن لتبيعه فى سوق البلدة: هذه الجماعة من بدو الشرارات ، كان الهزال والضعف يبديان على أفرادها ، إضافة إلى أنهم كانوا يرتدون ملابس مهلهلة نظرا لحياة الفاقة والمعاناة التى يحيونها فى الصحراء ، هؤلاء الشرارات جاؤا إلى تيماء لابتياح الطعام من القرية فى موسم حصاد التمر ، يضاف إلى ذلك أن سلوك هؤلاء البدو كان ممقوتا ومكروها . انفتحت البوابة لهؤلاء الشرارات فى مرحلة لاحقة ، ودخلوا البلدة ليقيموا فى حوطة من الحوطات الخالية، تقع على ذلك الجانب من الواحة.

ونحن نورد هنا شيئا عن الدم الأفريقى فى هذه البلدان؛ كل مدينة ، وكل قبيلة من قبائل هذه البلدان فيها عدد من العبيد والإماء بل وعدد من أسر الزوج المحررين ،

والكثيرون من هؤلاء العبيد والإماء ، مولودون فى بلاد غير هذه البلاد ، ولكن جرى تحريرهم هنا ، والناس هنا يطلقون عليهم اسم المولدين muwalladin . وقلة قليلة من أشباه الزوج ، تعيش فى تيماء ؛ أشباه الزوج هؤلاء ينحدرون عن آباء أحرار ، اغتنوا وتحسنت أحوالهم المعيشية فاتخذوا لأنفسهم زوجات ببيضاوات فقيرات من بين نساء الصناع ، أو إن شئت فقل : الحدادين ، الذين ينظرون إليهم هنا على أنهم ليسوا أحرارا . - كانت هناك امرأة بهية الطلعة ، حلوة الملامح من بدو الحطيم فى قلعة مدائن صالح ، تزوجت من عسكرى زنجى ، هو العبد الذى حرره ، أو إن شئت فقل : أعتقه الحاج نجم ، وأوفده لحراسة خزان الماء فى المعظم Moaddam . كانت السعادة تبدو على وجه تلك الزوجة (بالرغم من حساسيتها بعض الشيء للون بشرة العبيد) التى كانت تحب أطفالها حباً جماً ، والذين كانوا زنوجا وملامحهم أفضل من ملامح الأطفال غير المولدين . وأنا لم أرى أحداً من الأحباش فى تيماء ، أو حتى بين البدو الرحل . والسبب فى ذلك أن كلفة مثل هؤلاء العبيد المبدئية تكون مرتفعة ؛ إضافة إلى ضعف قدرتهم فى الأعمال الوضيعة . هناك عدد كبير من العبيد الأحباش فى المدينتين المقدستين ؛ كما أن هناك أيضا أعداداً كبيرة من أولئك العبيد فى الإقطاعات التى فى الجزء العلوى من الجزيرة العربية ، مثل حائل وبيدة(*) Boreyda ، وهم يعملون أعوانا وخداما للأمرأ : هؤلاء العبيد طوال القامة مثل العرب وأقوياء البنية ، كما أنهم أشداء ولطفاء ؛ هؤلاء العبيد مطيعون للأمير ، ولديهم الروح إلى الدخول فى العمليات الحربية التى يأمر بها الأمير . والصبى الزنجى المتين يمكن شراؤه ، فى تلك المناطق ، أثناء العودة من الحج ، بحوالى ستين ريالاً (أى ثمن جملين أو ناقه واحدة إن صح التعبير) . من بين هؤلاء العبيد ، هناك صنف منهم تغلب عليه ملامح أو قسمات السمرة :- ولكن العبيد السود عددهم أكبر بكثير من أنواع الرجال أصحاب البشرة البيضاء . ولقد سألت كثيراً من الزوج ، الذين كانوا عبيدا فى الجزيرة العربية منذ طفولتهم . - وعرفت أنهم جميعا ينحدرون من بلدان فى أعالي النيل ، وأنهم جرى سرقتهن عن طريق الغزوات التى كان العرب يقومون بها .

(*) بريدة : عاصمة إقليم القصيم . (المراجع)

جاءتني امرأة مسكينة (معقنة حالياً) كانت تخدم في منزل الثويني Thueyny ، الذي يطلقون عليه لقب الرومان er-Roman ، وكان ذلك المنزل مقام في منطقة منزّل البستاني الذي كان مجاوراً للمنزل الذي كنا نقيم فيه ، وأنا بدوري كنت أمضى معظم فترات الظهيرة في ذلك البستان ، جاءتني تلك المرأة وقالت : أنها تستشعر الشوق والحنين إلى وطنها ، وأهلها ، وبيت أبيها . وتتهدد ثم قالت : آه ! لو أن الله يهيئ لها فرصة رؤية هذه الأشياء مرة ثانية ! أرضها بالمقارنة مع هذا البؤس الخالص ، وفقر التربة الشديد الذي ينعكس على العبودية ، مليئة بخيرات الطبيعة وإحسانها ، تلك الأرض التي اختطف منها يوم أن كانت في مرحلة إكمال النضج والنمو . حدث ذلك الاختطاف ذات يوم عندما كانت ترعى ماعز والدها على جوانب التلال بالقرب من النهر ، بصحبة فتاة أخرى . شاهدت نديمتها « وقد علت الدهشة وجهها » وهي على بعد مسافة قصيرة منها ، عندما اختطفها الفرسان العرب ؛ وعندئذ حاولت تلك الفتاة الاختباء بين أغصان شجرة من الأشجار ، ولكن أولئك الفرسان عرفوا مكانها وأمسكوا بها وسرقوها هي الأخرى . - وما هي اليوم أصبحت امرأة حرة من جديد ، ولكنها تعيش في أرض تعاني فيها الجوع والغربة ، فضلاً عن إنها بعيدة جداً عن بلدها ، الذي لا تستطيع تحديد مكانه أو الوقت الراهن ، وذكرت لي هذه المرأة اسم دنقلة Dungola . ومعروف أن العرب الذين يسكنون مناطق الحدود ، يغيرون مثل الزنابير على البلدان الأكثر رغباً وأمناً . قالت : إن شعبها أناس يحسون السعادة : وهم لا يستعملون النقود فيما بينهم ؛ والإنسان ، إذا ما أحس بالجوع في بلاده أو إن شئت في قرى بلاده ، من حقه أن يدخل إلى الحدائق ليأكل منها ما يشاء إلى أن يشبع . وقالت إن ملابس الناس في تلك القرى هي من القطن الخالص وأنهم هم الذين يصنعون نسيج تلك الملابس . وقالت إنهم ليسوا ولم يكونوا بحاجة إلى إحضار أو جلب أي شيء أجنبي فيما بينهم . - سألتها : « ما الذي يرتديه أهل بلدها ؟ » وعندها ردت على قائلة : « هم لا يرتدون سوى إزارا لستر العورة » ، كانت هناك فتاة زنجية تقف بالقرب منا وتنصت إلى كلام هذه العمة ، وكانت هي الأخرى قد خطفت من تلك البلاد ، ولكنها لا تذكر الموعد بالضبط ، راحت تعبر عن احتقارها وازدراؤها لشعبها الأفريقي وهي تقول : « إبليس ! إبليس ! Iblis - هي hi - هي hi هي hi ، إنهم بذلك

لا يختلفون عن الرجال المتوحشين غير المتحضرين ! ظروف العبيد هي دوماً أمور مقبولة في الجزيرة العربية ، وغالباً ما تكون ظروفًا سعيدة : والعبيد هنا ينشأون باعتبارهم إخوان مساكين وفقراء لأبناء الأسرة ، وهم نوع من مكافأة الرب لرب الأسرة المسلم المتدين ، وهو "العم" ammy لهؤلاء العبيد أثناء عبوديتهم وهو أيضاً "الأب" abūy بالنسبة لهم . امتلاك العبيد هنا ، عملية صعبة وقاسية ، وبخاصة في المدن المقدسة المختلطة (حيث تسود الطاعة العسكرية الفظيعة ، والعنف التركي أيضاً ، والتي يتجر فيها المواطنون الفقراء بالأعمال التي يؤديها أولئك العبيد) . قرب البيت هنا ، إذا كان من النوع الذي يخشى الله ويخافه يعتق عبيده خلال بضعة سنوات قلائل ؛ وهو لا يعتقهم ويرسلهم لحال سبيلهم خائياً الوفاض ؛ ولكن في الجزء المرتفع من الجزيرة العربية (حيث لا يملك العبيد فيه سوى الأغنياء) ، يقوم ذلك الرجل الطيب بتزويج العبد المعتوق سواء أكان ذكراً أم أنثى ، ويعطيه شيئاً من ثروته ومقتنياته ، سواء أكان ذلك في شكل إبل أو بعض النخيل (*) .

هؤلاء الزوج الذين يجري عتقهم تظهر عليهم القوة البدنية والازدهار ؛ إذ هم أبناء ، بالتبني ، لبعض الأثرياء ، في حين أن العرب الفقراء الذين لا يملكون شيئاً يُجبرون أنفسهم للغير ، للقيام ببعض الأعمال أثناء النهار . ولكن من بين الظروف الطبيعية لأجسام أولئك الزوج ، أنها تستفيد جداً من الطعام البسيط ، وينشأون أقوياء في التربة الضعيفة ، التي نرى العرب فيها ينمون نمواً ضعيفاً . وسبق أن قيل : إن الطبيعة وضعت علامة مؤسفة لأهل القرى في نجد الذين يعيشون على أكل التمر - وأن تلك العلامة تتمثل في تلك الملامح والقسمات الحزينة التي تعلو وجوه هؤلاء البشر ، التي ما أن يراها أحد حتى تترسخ في ذاكرته . وطعام التيامنة هو التمر أثناء النهار ، وطعام المساء أيضاً تمر في معظم الأحيان ، ولكن الخبز يقدم مع التمر في البيوت الأحسن حالاً ، أو قد تقدم العصيدة مع شيء من القرع العسلي . هؤلاء الأفارقة لا يحسون بأي قلق أو ضيق لأنهم كانوا عبيداً في يوم من الأيام - إنهم في أغلب

(*) هذه شهادة جيدة لمعاملة العرب للرقيق إذا ما قورنت بالمعاملة القاسية التي كان يلقاها الرقيق الذي كانت كثير من الدول الأوروبية تصدرهم للعمل في مزارع العالم الجديد . (المراجع)

الأحيان يكونون أسرى من الحروب - بالرغم من أن تجار العبيد كانوا يختطفونهم من والديهم . كان الرعاة الذين يتبنون أولئك العبيد ويشترونهم يضمونهم إلى عائلاتهم ، ويقومون بتختين الذكور منهم - وكان ذلك يقوى من روح هؤلاء العبيد المعنوية ، حتى فيما يتعلق بعاطفة الحنين إلى الوطن القوية - لقد نظر الله اليهم فى محتتهم ؛ وبوسعهم أن يقولوا : "هذا فضل الله" ، لأنهم استطاعوا عن طريق ذلك الذى حدث لهم ، أن يدخلوا فى الدين المنقذ . ومن هنا فهم يعتقدون أن هذا البلد ، الجزيرة العربية ، هو الأفضل ، حيث اعتقوا فيه ، وأن الحياة المدنية فى هذا البلد أفضل من بلدهم ، وأن هذه هى بلاد الحرمين الشريفين ، أرض محمد (ﷺ) :- ولذلك شكر هؤلاء العبيد الله ، على بيع أجسادهم فى أسواق العبودية !

أخيرا غربت شمس آخر أيام شهر الصوم ، معلنة انتهاء رمضان . ومع طلوع اليوم التالى مشيت مع محسن إلى تيماء لتناول طعام الإفطار هناك . هيا ، يا خليل ، اليوم عيد ، وسوف تفرح وتمرح ؛ الحمد لله ، قال محسن ، إن شهر الصوم قد انتهى ! - أنت تشبه شخص أطلق سراحه من السجن . - صدقت ، والله ، فأنا أبني مثل رجل خارج من السجن ! وأنا من حقى الآن أن أشعل غليونى . أنا ذاهب لتناول طعام الإفطار مع بعض معارفى - ألا تعرف تقاليدنا وعاداتنا التى تبيع لنا أن ناكل شيئا من كل دار صديقة ؟ سياكل الناس اليوم حتى الشبع ! وأمامنا اليوم سبيلين ، إما التجوال وتناول الإفطار مع من تعرفهم ، وهنا يتحتم عليك أن تقول : "عيدك Aydak مبارك Mubarak" فى أى مكان تدخله :- أو هيا بنا ! أنا وأنت نتحرك سويا لتناول الإفطار معا .

كان الانتعاش يبدو على وجوه القرويين فى هذا اليوم من أيام العطلات وبخاصة أثناء شروق الشمس ؛ لقد اكتسبوا جميعا فوائد الصيام ومزاياه ؛ وهامهم اليوم يرتنون ثيابهم الجديدة . الكثيرون منهم يعطرون غتر رؤوسهم ، ولحاهم ، وعباءاتهم ، وذلك بوضعها فوق الدخان المتصاعد من المبخرة ، البعض منهم يتعطر أيضا بماء الورد . هؤلاء هم المعيدون يخرجون من كل الأبواب ، ويدخلون من كل الأعتاب . وهم يتزاورون ويحيون بعضهم بعضا من بيت إلى بيت . وحيثما يدخل الرجال ، يقدم لهم طبق العيد الذى يحتوى على الخبز المحلى ؛ وهذه جحافل من الذباب البشرى تنهال جالسة على

ركبها من حول ذلك الطبق ، فى التوالى والحظة . والكل يرفع اليد اليمنى مملوءة بالخبز ، فى اتجاه الفم - ويتكرر ذلك ، مرة ، واثنان وثلاث مرات - إلى أن يظهر قاع الطبق المعدنى . وعندها ينهض الجالسون ، لينتقلوا إلى تناول الإفطار فى البيت التالى ، ثم البيت الذى يليه ، إلى أن يمرؤا على كل منازل المنطقة : وبعد ذلك ، وبعد أن تمتلئ بطونهم ، يتجمعون ويدخلوا بيتا من البيوت الصديقة لتناول القهوة . وحيثما يدخل هؤلاء الناس يقولون : "عيدك مبارك" . والناس هنا يردون على هذه التحية بقولهم : "عدى Aaddi علينا aley-na ؛ و Wa حنا Henna عايدين A?idin" بمعنى "ونحن أيضا نحتفل بالعيد". ويمضى الناس النهار بطوله يتجولون هنا وهناك فى ملابسهم الجديدة ، والمزينة بخيوط حريرية بغدادية ذهبية اللون ومعها خيوط قطنية وردية اللون ، وهذا المنظر يكون له بريقه فى هذا البلد الذى لا لون له . وقد رأيت اليوم رجلاً يرتدى ثوبا قام هو بتلوينه ، وكان يقف وسط الشارع الطينى ويلبس عباءة قرمزية اللون .

مر الممثل المقيم لابن الرشيد من السوق (الشارع) قبيل الظهر ، مرتديا ثياب سيده الجديدة التى هى غاية فى الأبهة ، وهو فى طريقه لزيارة خلف . ولما كان خلف صاحب عقل حر ورزين، فقد عاد لتوه قادما من بلدة حائل . وطوال الأيام الأربعة عشر من شهر رمضان التى أمضوها فى الطريق ، والتى كانوا ياكلون خلالها ، لم يصم منها خلف يوما واحداً ، بالرغم من وجود المتشددىن ، الذين كانوا مشغولين بطبيعة الحال ، بمراقبة مراعاة الناس للدين فى البلدة . ولقد شاهدت خلفاً مرارا وتكرارا وهو يتحمل لاجاة هؤلاء المتشددىن . نظرا لأنه لم يكن بوسعه تحاشيهم أو تجنبهم : كان خلف يتسم باعتدال الشيوخ ، ولكنه فى داخله كان له رأيه الخاص . ومعروف أن شيوخ تيماء لم يفوتوا عزيمة فى حائل . حيث كان الأمير يعطى كل واحد منهم جملا ومبلغ ستمين ريالاً مجيدياً . (وهو ما يطلقون عليه فى معظم الأحيان إسم "العزازيات" ghrazziat)، وذلك تعويضا لهم عن التكاليف التى تكبدها فى حفر البئر ، هذا بالإضافة إلى غيار جديد من الملابس كان يحصل عليه كل شيخ من الشيوخ . وبذلك يصل إجمالى ما يحصل عليه كل شيخ من هؤلاء الشيوخ ، إلى حوالى خمسين جنيها إنجليزيا . كانت عينا خلف قد التهبنا ، وقمت أنا بتجهيز قارورة دواء لعلاج عينيه ؛ وربما يكون خلف قد قلل من قيمة تلك القارورة التى حصل عليها من النصرانى ، إلى

حد أنه أخذ القارورة دون أن يشكرنى ، بل إنه راح يطيل النظر إلى وجهى . كانت زوجات البدو الرحل ، هن وأطفالهن ، لا تلبسن ملابس جديدة ، ولكنهن رحن يرقصن طوال اليوم فى الحوطة . وعندما أصر الأصدقاء البدو على أن أريهم الرقصة التى نرقصها فى يوم العطلة ، فضلت ألا أقطع عليهم مرحهم ، ولكنى عندما توقعت حكمهم الطبيعى ، كنت أشعر بالكسوف والخجل من أن أريهم الطريقة الصحيحة للرقص . - واستطاعوا بطبيعتهم إدراك مدى خفة وسهولة أسلوبنا فى الرقص إلى حد أنهم قالوا : آوّه ! ما هو ذلك الهز الغريب للسيقان ، وما هو ذلك التقدم إلى الأمام والرجوع إلى الخلف ! - بدا الأمر لهم وكأن تلك الرقصة كانت واحدة من الرقصات الشعبية الإنجليزية القديمة ! ولكنهم عندما استمعوا إلى المزيد عن رقصنا ، والذي يلف الرجل يده فيه حول خصر المرأة ، وأن كل رجل يرقص وصدره يلامس صدر امرأة جميلة ، أصبحوا ينظرون إلينا باحتقار وعلى أننا من أصحاب الرذيلة والسفالة .

حضر كثير من الأعراب إلى تيماء ، وبينما كنت أتجول فى البلدة سمعت شخصا يُصَفّر - وهذا صوت غريب على البلاد العربية ! التى تنتظر إلى ذلك الصوت وكأنّ أحداً يتهاشم مع الجن . اكتشفت أن ذلك الذى كان يصفر ، كان واحداً من معارفى من بدو الفجير ، وسألته عن المكان الذى تعلم منه هذه البذاءة ؟ تعلمت عندما كنا فى الشام . - من المحتمل أن يكون قد تعلم ذلك الصوت من نصرانى غندور من أولئك الذين يتباهون بأنفسهم ، أو من واحد من أولئك الفرنجة الذين يتجولون فى بلادهم . - عند هذا الحد جاعنا رجل صلوى ، كان يركب حماراً ، ويغنى ! وكان يغنى بصوت رخيم ، ويرفقه بصورة مدهشة فى بعض الأحيان ! ناديت ذلك الفجيرى وسألته : هل تظن أن غناء الناس فى سوريا أفضل من هنا ؟ - وهنا أجاب الصلوى قائلاً : أبداً ، والله ! أنا أيضاً كنت فى الشمال ! وضحك من أعماقه وهو يحتقر ويزدرى تلك البلابل ، - غناؤهم لا تطيقه أذاننا نظراً لإهمالهم الشديد - أفضل الموسيقيين فى دمشق (هم يهود) . وأنا لم أسمع قط امرأة تغنى فى تلك البلاد (اللهم باستثناء مهرجان غناء البنات) . - ترى ، أين ذهبت الألحان الجميلة ، التى كانت تتغنى بها النساء الحسانوات ، فى تلك الصحراوات العربية فى "العصر الجاهلى" ؟

فى عصر ذلك اليوم من أيام العيد ، وصل بدو الفكارة ، نظرا لأن القبيلة ارتحلت وأصبحت على بعد مسير ساعتين من بلدة تيماء ؛ سقت القبيلة مواشيها من مجارى أصدقائهم المائية فى قرية تيماء . ووصل إلينا زيد راكبا على مهرته ، ومن خلال فتحة فى الجدار ، فى اتجاه الضحراء ، جرى اقتياد الإبل إلى مكان السقيا . كان أهلنا فى الحوطة يفتقرون إلى حطب الوقود ؛ وجاء زيد بعباءته وقد امتلأت بالجلّة (روث الإبل الجاف) ، التى يقال ، إنها ممتازة فى إشعال النار . تناول القبليون عشاءهم . وقالوا لنا ، إنهم اصطادوا عددا كبيرا من الثعالب فى شهر رمضان . - ولكنى لم أشاهد ناقتى ضمن إبل أعراب زيد ، عندما كانت واقفة تشرب من السوربان (القنوات) Šuryan ! أجبني الراعى الصغير قائلا : "لقد ضلت الناقة طريقها !"

احتفالات العيد تستمر ثلاثة أيام . ولكنى شاهدت القرويين فى اليوم الثانى وهم يخلعون ملابسهم الجديدة ، ويذهبون لاستئناف عملهم فى الحصاد . هذا هو التمر . تجاوز موعد نضجه ، وراح يتساقط من النخيل ؛ هؤلاء هم البدو الرحل بدوا يتوافدون على البلدة ، ليقوموا بدور المشترين فى عملية حصاد التمر ، وهؤلاء هم البدو يتعجلون الانتهاء من عملية التسوق ، ويتعجلون العودة أيضا إلى منازلهم الجائله التى خلفوا فيها زوجاتهم وأطفالهم . وراهم فى الخيام بلا حراسة أو دفاع ، كما تركوا أغنامهم وماشييتهم فى الخلاء . هذه هى جماعات من قبيلة البشر تفد على البلدة كل ساعة قادمة من ناحية الشرق : وراح الفكارة يتعجبون من ذلك العدد الكبير من الوجوه ، التى قال لى زيد عنها ، إنه لم يسبق له أن رآها من قبل . هؤلاء القبليون من البشر . بعد أن انعزلوا عن الأرض التى كانوا يرثونها فى خيبر ، جاؤا هذا العام للتزود بالطعام من تيماء ، حيث تكثر فيها التمر وتجد أيضا . إضافة إلى أن أسعار التمر فى تيماء أرخص منها فى قرى وكفور الجبل : عدد كبير من هؤلاء البشر لم يسبق لهم أن جاؤا أو زاروا هذا المكان من قبل . من بين تلك الجماعات التى توافدت على تيماء . بعض الناس الذين حيونى قائلين : "يا رجل ! إلى أين يوصل هذا الطريق ؟ أين الحدّاج (البئر) ؟" - فى ظل هذا الضجيج وتلك الحركة اليومية ، لم تعد تيماء تلك الواحة البسيطة سابقا ، بل إن الطرق النظيفة إمتلأت بالروث . ونظرا لأن القرويين كانوا فى بسايتينهم ، فقد كانت كل أبواب المنازل مغلقة ؛ كان الرجال والحريم يعملون

فى حصاد التمر فى حوطاتهم أو إن شئت فقل : (يَجِدُونَ en- nūkhl النُّخْل) ، حيث يقوم أولئك الذين يتسلقون النخيل بقطع سبائط التمر وتديتها إلى الأرض بواسطة حبل . وهامهم أفراد الأسرة حفاة الأقدام يتقاطرون عائدين إلى منازلهم وهم يحملون وينقلون سلالا كبيرة من التمر إلى الغرف المخصصة لذلك فى أكوأخهم . استمرت عملية الحصاد طوال نهار ذلك اليوم ، واستمرت إلى نهارى اليومين الثانى والثالث ، بل انها استمرت لحين غروب شمس اليوم الثالث ؛ وعندما بدأ الناس يتناولون إفطارهم ، كالعادة ، عند الظهيرة ، بدوا يستشعرون القوة والحيوية من جديد ، بعد رمضان . - هؤلاء هم البنو يتنقلون من حوطة إلى أخرى ، ويدخلون الأماكن التى يتطلعون فيها إلى الأكل من ذلك الكرم الحلو . عجل التيامنة فى عملية الحصاد لأن موسم الحصاد تأخر كثيرا عن مواعده ؛ وفى اليوم الثانى من عملية الحصاد اضطربت السماء . وعندما أمطرت السماء كانوا قد نقلوا بالفعل ما تبقى من الثمار إلى الغرف المخصصة لذلك فى أكوأخهم ؛ والتمر إذا ما أصابه البلل يتعفن . سقط الوايل ، وكان الجميع فى بساتينهم ، كما أن سوانى الحدأج كلها توقفت وصممت الأصوات التى تصدر عنها : قالوا لى إن النخيل لن يصاب بئذى طوال سقوط الأمطار عليه ، خلال الأيام القلائل التى تعقب عملية الحصاد .

رأيت زوجة بدوية ، مزينة بزى برى بسيط ، كما لو كانت امرأة من الفجر ؛ كانت تلك المرأة تتجول من حوطة إلى أخرى وهى تنشد وتتغنى بأغنية مرحة : امرأة غريبة ، كان الناس يتعجبون ويسخرون من هذه المرأة ، كما كان الحريم يقتربون منها لتلمسن بأيديهن ملابسها الغريبة ، وحيثما كانت تدخل هذه المرأة كان الناس يطلبون منها الجلوس وتناول الطعام . وعندما عرفت أن تلك المرأة كانت من قبيلة حرب ، وبذلك تكون أول إنسانة أراها من أفراد هذه القبيلة ، التى تجاور الحرمين ، رحت أتأمل هذه المرأة وأنظر إليها فى صمت . هذه المرأة ، أخذت نفسا طويلا ، وازدادت دهشة على دهشتها عندما شاهدت رجلاً أبيضاً فى المنطقة ، - تقول إنك ، نصرانى ! - ها ! لقد سمعت هذا الاسم ، وكيف وصل النصرانى إلى هنا ؟ ألم نكن نحن أطفال ذلك الشرير ؟ ومع ذلك حينئذ هذه المرأة بكلام جميل ودعوت لها بالبركة ! " قلت : "العرب يدعون الله أن يلعن كل ما لا يمت إليهم بصلة ، ولكننا ندعو الله أن ينزل رحمته على كل أفراد

الجنس البشرى؛ وأنا أدعو الله، من كل قلبي ، أن يبارك لك فى أسرتك ، وفى أطفالك ، وفى ماشيتك . ردت على قائلة : أه منك ! كم هى الشائعات والقيل والقال ، كثير فى هذا العالم ، - إى ، بالله ، أى بالله ! انتبه يا هذا ، لابد أن يكون هذا الرجل من نوعية طيبة ومسالمة من البشر . هذه هى صوانى مليئة بالتمر الذى جرى جنيه من النخيل ، فى حين استدعيت تلك المرأة لتناول الطعام مع الحريم . وطلبوا إلى أن أتناول الطعام مع الشيوخ الذين كنت أقف بجانبهم ، وجلسنا نأكل مع مضيفنا ثوينى الرومان ، الذى كانت أرض الحصاد التى نقف عليها ، ملكا له : كان مسهل Misshel العواجى Auajy- el واحداً من الحاضرين - ومسهل هذا واحد من كبار شيوخ البشر .

بعد ذلك ، وبعد أن حل الوثام بيننا (نتيجة تناول الطعام مع بعضنا البعض) قلت لمسهل Misshel : إننى أعتزم الذهاب إلى كل من حائل وخيبر ، وأننى سوف أعود معه شرقاً فى اتجاه الصحراء . ومن هناك ربما أعثر على بعض الزاهبين إلى جبل شمر ، ومن ثم أستطيع مواصلة الطريق بصحبتهم . هذا الرجل البدين (إذ كان هذا هو حاله بين البدو) رد على الغريب رداً حاداً ، بصوت مدوى ، تشوبه غلظة الصحراء قائلاً: "لكننا الآن زاهبون للبحث عن "الجوش" el-gush فى الخلاء F'il khala " بمعنى ، إننا زاهبون للبحث عن أدغال برية فى الأرض الجرداء ، لإبلنا ، وأننا قد نذهب إلى مسافه بعيدة ؛ نحن لسنا زاهبين إلى جبل شمر .- قال : "خيبر ! خيبر ! أين ؟ - ولكن يجب أن تعلم يا خليل ، أننا ليس لدينا من يرشدك إلى ذلك المكان : الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك . وأنا أقسم لك بالله ، إنه ليس بيننا سوى قطع الأواصر . لا ! أبعد كل هذه الأمور عن ذهنك ، لا تفكر فى الذهاب إلى نجد ؛ زد على ذلك ، أنك لا يمكن لك أن تصاحبنا أو ترافقنا فيما نحن مقدمون عليه . " - "خبرنى يا مسهل ، هل أنا صديق أم عدو ؟" رد على مسهل ، بعد شئ من الصمت رداً يتسم بالصوصية ، "حسن ، أنا لا أعتبرك هذا أو ذاك ! ولا أعتبرك صديقاً أو عدواً ؛ - (غمغم ذلك السليط) - لولا الله ، لكنت قد سلبتكم ما معكم فى مرة من المرات . " هذا المسهل ، الذى يحكم سبعة قبائل ، يتولى منصب الشيخ الكبير الأصيل لقبيلة العواجى ، التى هى الأكثر عدداً وأشد بأساً فى العمليات الحربية فى سائر أنحاء البلاد . ورجال قبيلة مسهل هم الذين "قاموا" فى هذا العام ، بالغزو العام لولاد على ،

أكثر من مائة رمح ، وهم أيضا الذين قاموا بعد ذلك ، وخلال يوم واحد ، بالاستيلاء على كل مواشى الموهايب . وفى العام الماضى اشتبكت قبيلة العواجى مع الدولة (الإمبراطورية العثمانية) وقتل عدد كبير منهم ؛ ومحمد بن الرشيد هو الذى حرّضهم على ذلك . والناس هنا يمتدحون الشيخ مسهل على إنه رجل "عتيد" من الرجال الذين يجيبون استعمل الحراب ، - بدا لى ذلك الرجل وكأنة وارث للحق والفضيلة مع شىء من الظلم . - وقد عرض على عبد العزيز الرومان رمح شيخ مسهل ، وهو يشعر بالمدح والفخر ؛ شاهدت ذلك الرمح موضوعا فوق أوتاد معلقة فى جدار مقهى الشيخ مسهل ، وهو المكان الذى يجلس الشيخ فيه بصفة دائمة ؛ كان طول ذلك الرمح يصل إلى حوالى أربعة عشر قدما . يضاف إلى ذلك أن ذلك الشيخ العظيم كان صديقا لشبابه ، مثلما كان الشيخ مطلق الفجيرى صديقا لشبابه هو الآخر . كان أفراد قبيلة البشر يتفاخرون أيضا برمح الشيخ مسهل ، رأس الرمح كبيرة مثل قبضة اليد ، وتمتد كما لو كانت لسانا ، وهذا الرمح متعطش لدم أعداء الشيخ مسهل .

كان عبد العزيز ، هو الآخر ، خارج تيماء فى شهر رمضان ، إذ كان يقوم بجولة لإحضار بعض الإبل للعمل فى جلب الماء من البئر ؛ وعندما عرج عبد العزيز على سهل الحجر ، اتجه فى البداية لزيارة قبيلة الموهايب الصغيرة فى وادى تربة ، التى كانت عدوة لهم فى الفترة الأخيرة - لم يكن عبد العزيز على معرفة بهؤلاء الموهايب من قبل - ولكنهم أصبحوا أصدقاء الآن بعد أن جرت مصالحة بينهم وبين ابن رشيد . أكرم الموهايب وفادة عبد العزيز إكراما كبيرا ، فهذا يذبح تيسا هنا وذاك يذبح شاة هناك ، على شرف العشاء المقدم له ، إلى حد أنه (كان يستعمل يديه وعينه) عندما كان يعبر لى عن ذلك الكرم القديم الذى لقيه منهم ؛ وكان ذلك قبل فترة قصيرة من ضياع إبلهم فى الغزو الذى حدث لهم . صحيح أنه شاهدتهم وهم فى أثر تلك النكبة ؛ ولكنهم بدعوا يرفعون رؤوسهم من جديد . فقد أكرم بدو البلى جيرانهم وأغدقوا عليهم الكثير من العطايا . وهذه هى ماشية الشيخ طلج ، أصبحت أكبر من ذى قبل ؛ فقد أرسل له الشيخ مهنا سبعة من الإبل . لقد وجد مهنا طلجاً محطما ومكسور الخاطر ، بالرغم من أن بقية أفراد القبيلة ، كانوا قد انصلحت أمورهم بشكل أو بآخر ، طبقا لعدد أصدقائهم ، ومقدرة هؤلاء الأصدقاء ، ومدى حنانهم فى العطاء عن طيب خاطر :-

والحال فى الصحراء ، فى ظل ظرف كهذا ، يشبه يوم القيامة ، إذ يتلقى كل واحد فى ذلك اليوم حسبما قدم ، وبالتالي يلقي الكريم الكثير طالما إنه كان فى عون أصدقائه من قبل . وقبل انتهاء الشهر كان حال الموءاهيب قد تحسن ووصل إلى نصف ما كان عليه من قبل الغزو : ذلك أن قطعان الموءاهيب التى كانت على الحرة وقت الغزو ، لم يتمكن الغزاة من أخذها أو الاستيلاء عليها . ولكن عبد العزيز أثار أحزاني عندما كذب على وأبلغنى نبأ وفاة كثير من أصدقائى السابقين ، إلى أن عرفت من شويش Shwoysh ، المنفى حاليا بسبب خلاف بينه وبين الشيخ طُلُج ، والذي جاء إلى تيماء بصحبة بدو الفكارة ، أن أولئك الأصدقاء لم يمض منهم سوى واحد فقط هو صديقى فايز Faiz : - يضاف إلى ذلك ، أن شيخ تيماء كان قد سبق له الذهاب إلى قرية العلا ، التى لم يسبق له أن زارها قط من قبل ، باعتبار أن قرية العلا واحدة من قرى الحجاز الصديقة لدولة (حكومة) المدينة (المنورة) . كان واحد من البدو الرحل يركب خلف شيخ تيماء ، وكانت أحوالهما على ما يرام ، إلى حد أنهما قطعاً تلك الرحلة التى يزيد طولها على ثلاثمائة ميل ، خلال أيام قلائل من شهر رمضان ، - ولكنهما لم يكونا صائمين بطبيعة الحال . وأنا عندما أطلب من هذا الرجل أن يزكىنى عند مسهل ، أجده يحيل على بعض البدو ليحكوا لى حكاية مزيفة : "أنه من المستحيل بالنسبة لى أن أمر بصحبة أى أحد من قبيلة بشر إلى بلدة حائل ، من منطلق أنهم لم يكونوا (وهذا زيف) على وفاق مع الأمير ، نظرا لأنه أصدر أوامره لهم بإعادة ماشية الموءاهيب إلى أصحابها ، وهم لا يريدون ذلك . " - ولكنى وجدت كل من تحدثت معهم يعارضون ذهابى إلى نجد ؛ من منطلق أنهم سيجدونى أعود من نجد إلى نفس المكان الذى كنت فيه قبل الذهاب إلى هناك ."

فى حائل ، حضر كل من حامد ووعيل عودة الأمير ، - كان الأمير قد خرج فى غارة . بعد أن عاد ابن الرشيد ووافق على خضوعهما ، وقبل الناقة الهدية ، ثم أعاد الرجلين إلى محل إقامتهما . وبينما كانا عائدتين إلى محل إقامتهما ويحملان أخبارا طيبة ، عبر صحراء (يصل طولها من حائل إلى تربة أكثر من مائة فرسخ) ، وبعد أن وصلا إلى منتصف الطريق فى ديرة البشر ، شاهدا إبلا ترعى ، التى تأكد أنها هى الماشية التى سرقت من قبل ! - كما شاهدا على تلك الماشية العلامات المميزة الدالة

على أنها مملوكة للموءاهيب بحق . نزلا عن راحلتيهما لقضاء الليل عند واحدة من الخيام الكبيرة ، وتلك كانت خيمة مسهل . وبعد تناول العشاء سمعا من مضيفهما (وكان هو الذى عرأهما) عن المصائب التى حلت بهم فى ديارهم ؛ وهنا أعطى مسهل لحامد ، واحدة من نياقه ليعطيها لوالد مسهل العجوز . - وعندما راحا يتدبران الأيام ، اكتشفا أن اليوم الذى حدث فيه الغزو ، كان يصادف ذلك اليوم ، الذى تقدما فيه بالخضوع والولاء ، وأنهما كانا فى حائل ينتظران عودة الأمير . وفى الصباح ركبا راحلتيهما ليعودا من حيث جاءا - ولكن هل يمكن للأمير (الذى كان على عداء معهم) أن يأمر بإعادة ماشيتهم لهم ؟

استقبلهما محمد بن الرشيد استقبالا غير مريح ؛ إذ كان الحاكم قد تسلم قبل وصولهما ثلاث نياق ، كان العواجى قد أرسلوها بالفعل عقب الغزو الذى قاموا به . يضاف إلى ذلك أن الأمير كان سعيدا جداً بذلك العقاب الذى نزل بأعدائه القدامى ، بالرغم من أنه يستقبلهم اليوم باعتبارهم من أتباعه ومن الموالين له . ومن يحكم تلك القبائل الجائلة فى الصحراء ينبغى أن يكون قلبه غليظا وسيفه بتاراً ؛ ولكنه قد لا يفلح فى احتواء تلك القبائل احتواء حقيقيا .

هذا هو فرد من الشراررى الذين يقيمون فى الحوطة المجاورة لنا ، ذبح جملا بمناسبة العيد ، وباع شيئا من لحمه نظير شيء من التمر . ليستعمل ذلك التمر مئونة لعائلته طوال فصل الشتاء القصير . ذهبت لأبتاع منه شيئا من لحم ذلك الجمال ، ووجدته قصابا لطيفا ، وكان ينادينى فى كل لحظة قائلا "يا ولد أخيه" . وفى يوم آخر قام واحد من بدو الفهجى ببيع ناقة كبيرة السن - كانت تلك الأسرة الفهجية تملك مزرعة نخيل صغيرة خارج أسوار القرية ، الأمر الذى حولهم من بدو رحل إلى بدو مستقرين . كانت الناقة المذبوحة تساوى خمسة ريالات ، ولكنه عندما باع اللحم بالتجزئة حصل على مبلغ كبير ، قصدت ذلك الرجل ، ولكنه يرفض بيع اللحم بالنقد قائلا : "من يود أن يشتري منى لحما فليدفع لى ثمنه تمرا" . والقسم الذى لم يباع فى اليوم الأول ، شووه بدمه - وبالرغم من أن ذلك يعد غير شرعى ، إلا أنهم أكلوه ، أى أنهم يأكلون الدم - هذا يعنى أنهم ليسوا ملمين بنصوص القرآن . استمر بيع لحم تلك الناقة ثلاثة أيام ، وعندما بدأت تفوح من اللحم رائحة غير مستحبة ؛ ولكن هؤلاء

الحضر هم والأعراب يأكلون أيضا لحم الطرائد على هذه الشاكلة ، والتي منها الماعز البرى على سبيل المثال وكذلك الوعول ؛ والبدو يصطادون تلك الحيوانات وتبقى معهم يوما فى الصحراء إلى أن يعودوا إلى منازلهم : ومع ذلك ، ففى الوقت الذى رفضت فيه أن أكل معهم من ذلك اللحم الذى سرى فيه الدود ، كانوا هم يستطعمونه ويقبلون عليه . ويعد أن أشتريت شيئا من اللحم ، قامت ابنة محسن ، الفتاة الصغيرة التى كانت تخدمنى ، بسلق ذلك اللحم ، وبعدها دعوت أصدقائى البدو لتناول العشاء ؛ ولكن لحم الإبل العجوزة لا يكون له مذاق مثل مذاق اللحم الطرى .

تساقطت علينا أمطار الخريف ونحن نتناول طعام العشاء خارج البيت : هذه هى السماء التى كانت مشرقة الشمس يغشوها شىء من الظلام . وأطبق المساء علينا . بهبوب ربح شديدة ونحن داخل الخيام المصنوعة من الصوف . وبينما كانت قطرات المطر تتساقط علينا من خلال تلك الخيام المهلهلة ، كان محسن يسألنى عن بلادى ، - وكنت قد أوشكت على الرحيل عنهم ومغادرتى إياهم . وعندما سمع محسن منى أننا لدينا الكثير من نعم الله ، الخبز والملبس ، والأمن ، وكيف أن الإنسان يحميه القانون ، إذا ما طلب منه ذلك ، - كانت تلك العاصفة الليلية تسبب لنا الكثير من القلق ، - هنا ازداد محسن حزنا على حزنه ، وراح يندب حظ الأعراب وتعاستهم ، لأن افتقارهم إلى الملابس يسبب أمراضا كثيرة، ويخاصة أنهم ليس لديهم ما يكفيهم من الطعام أو الماء، ويتجولون فى الصحراء الجرداء ، ولا يعرفون الاستقرار مطلقا ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا البؤس يلزمهم طوال حياتهم . كان محسن ، عندما تتكاثر عليه همومه وآلامه ، يرفع يديه إلى السماء - وهذا نوع من الصلاة غير الرسمية يطلقون عليه اسم "الدعاء" Du'aa - أرحم يا رب ! خلّقك، الذى أنت خلقت: أرحم المساكين ، والجوعانين ! أرحم يا الله ، - يا الله ! ومع ذلك وبالرغم من هذه الشكوى ، التى يرون أنفسهم من خلالها وكأنهم أيتام عناية الهية همسكة ، إلا أن قلوبهم عامرة ببهجة العقيدة والأمل ، إلى حد أنك تراهم يقولون على الفور، وهذا هو ما فعله محسن بالفعل، - "الله Ullah كريم" Karim .

التيامة لا يأكلون لحم الإبل فى معظم الأحيان ، ولكن الصلوبة يجلبون لحم الصيد والطرائد إلى البلدة ، وهؤلاء الصلوبة يعيشون هنا فى خيام خلف الجدران ،

وهم يعملون بالحدادة والسمكرة . والصلوبة يركبون حميرهم ويذهبون للصيد فى الصحراء ، ويعودون سيرا على الأقدام ومن أمامهم حميرهم محملة بلحوم الغزال ؛ والناس هنا يشترون منهم كل ما معهم من لحوم قبل أن يصلوا إلى السوق . وأفضل من فى هؤلاء الصلوبة هو شخص يدعى مطر Matar ، وهو شخص لطيف ، كنت أتحدث معه ، فى أحيان كثيرة ، عن ممارسته لمهنة الصيد . وعندما سألته عن الثور البرى ، أو إن شئت فقل : الوضيحى Wothyhi ، أرانى حمارا أبيضاً من حميرهم المتينة ، ثم قال : "الوضيحى يشبه هذا الحمار ! - والوضيحى شعره أبيض (شأنه شأن حيوانات السهول الرملية الكبيرة) ، وليس له كف ، وأذنيه قصيرتان ، وذيله يشبه ذيل البقرة ، وينتهى الذيل بخصلة من الشعر " . والوضيحى هو أسرع حيوانات الصيد ، أو إن شئت فقل : أسرع الطرائد ، ولحمه أحلى وأطرى من لحم الغزال ؛ وجلد ذكر الوضيحى - وهو سميك جداً - هو أحسن الجلود التى تستخدم فى صناعة النعال . وقد شاهدت فى العام ١٨٧٥ الميلادى ، جلود الوضيحى التى جاء بها أصحابها من صحراء الشرارات إلى بلدة معان Maan . يضاف إلى ذلك أن قرون الوضيحى التى تشبه القضيب أو الساق أشياء شائعة ومعروفة فى تيماء ؛ وبدو الشرارات هم الذين يجلبون القسم الأكبر من تلك القرون ، وهم يقدمونها هدية لأصدقائهم ، الذين يأخذونها إلى مخازنهم لكى يستعملونها فى تكسير كتل التمر المتشابكة ؛ وقد رأيت صلوبة تيماء يستخدمون تلك القرون أوتاداً لخيامهم . - تحدثت مع مطر عن النبالة القديمة ، ورد على قائلاً : "فى كثير من الأحيان كنت أنا ورفاقي نعثر فى الصحراء على رعوس سهام مصنوعة من الحديد ، ويصل طول الواحد منها إلى أصبع تقريباً ، كنا نعثر عليها أثناء قيامنا بصيد البدون ، ووالله هذه الرعوس كانت تشبه رعوس الرماح الصغيرة ، - نحن لم نعثر على الرماح ، نظراً لأن الخشب تعفن وتحلل " . أخبرنى أيضاً أنه شاهد صور بشر مرسومة على الصخر ، كانت تلك الصور تمسك فى أيديها أقواساً ونبالاً ، ويضع كل واحد منهم ، على رأسه ، غطاء رأس طويل ! - هذا الرداء أصبح الآن غريباً على الجزيرة العربية .

تواصل سقوط الأمطار يومياً ، وهبت على الصحراء ريح باردة . وكانت السماء دوماً ملبدة بالغيوم . وأوشك البدو الذين جاؤا لزيارة تيماء على الرحيل ، وراودتني

رغبة فى اصطحاب أولئك البدو إلى ناحية الشرق ، - متخليا بذلك عن بناء البئر ، وبدلا أيضا من البقاء فى ذلك الفراغ الطويل . كان العام يتغير ، وأنا بدورى لابد أن أغير حياتى فى الجزيرة العربية ! كان أصدقائى غير متحمسين لمضىي قدما ، وكانوا يقولون: "ما الذى سوف أفعله أو أريده من حائل ، والذى يحتم على الذهاب إلى هناك ؟ وأننى بعد تيماء ، لن أكون فى مأمن من أولئك الأعراب الذين لا يعترفون بالدولة (الإمبراطورية العثمانية) . " وفيما يتعلق بابن الرشيد قالوا لى : "إنه نجس Nejis ، قاتل لأقاربه بالسيف " . وأردف عبد العزيز الذى كان يجمع مكوس ، أو ضرائب الأمير : "لقد وصلت أخبارك إلى ابن الرشيد ! - ما مفاده "أن نصرانيا ، لا يعرفه أحد ، يقوم بالتجوال مع الأعراب ، وأنه "بدون" أشياء " وأنه استاء عندما علم بذلك . والبدو فى الشرق سوف يخشون استقبالك ، مخافة أن يسألهم الأمير عن ذلك ."

كنت أتشوق وأتطلع إلى الرحيل مع البِشْر Bishr ، لأن العائلات التى جاءت للتسوق من تيماء تقيم فى حوطة نائية من الحوطات التابعة لثوينى ، ذهبت لزيارة تلك العائلات فى تلك الحوطة . كانت كل أسرة تقيم مستقلة عن بقية الأسر فوق سطح الأرض وسط سروج الإبل ووسط الأمتعة ، وكان المطر يتساقط عليهم نهارا ويقضون الليل فى العراء بلا مأوى : الوحيد من بينهم ، كان هو الشيخ مسهل الذى كان يسكن ويقيم داخل خيمة . كان مسهل فى ذلك الوقت ، قد ذهب لشرب القهوة فى البلدة ، ولكنى عثرت على عسكر Askar (ذلك الشخص الذى جُرح) ، ذلك الشاب الذى فيه شىء من الطيبة والكرم ، وجدت ذلك الشاب أفضل مما كان عليه وهو فى بيت والده : . أستقبل عسكر تحيتى مرحباً بى قائلا : يا Hulla! هلاً . وانشرح صدره عندما سأله الغريب عن إصابته ، كما انشرح صدره أيضا لأنى ما زلت أعرفه . سقط المطر علينا ونحن جلوس حول نار المخيم ، أثناء تصليح القهوة : وهذه القهوة هى أفضل ما تذوقت فى الجزيرة العربية - لا عن طريق طحن قليل من حبوب البن كما يفعل التيمايون ، وإنما بطحن حفنة من البن على الطريقة النجدية . وبصورة متدرجة رحت أسألهم عن يمكن أن يرافقنى إلى بلدة حائل ؟ قال أحدهم ، "إنه لا يهمه أن يكون هو ذلك الشخص ! وإنهم بعد أن يرجعوا من تيماء ، فسوف يتعين عليه الذهاب إلى حائل : وما الذى سيدفعه خليل ، وسوف يضعه أو يوصله إلى وسط مدينة حائل ؟" - "سوف أعطيك

ثلاثة ريات. راحت بقية الحاضرين ومعهم عسكر يحاولون إثناء ذلك الرجل عما قاله . ولكن الرجل أصر على ما قال ، ومد لى يده اليمنى ، مؤكدا أنه لن يتراجع عن ذلك الاتفاق ، وأصبح عسكر شاهدا على ما جرى بيننا واتفقنا عليه . مساعدة هؤلاء البدو الفقراء المحتاجين بمبلغ يسير جداً ، يشترطون به قميصا وعباءة ، سهل على كثيرا من ترحالى وتجوالى (وهذا ما سبق أن توقعه زيد) ، بين قبائل الجزيرة العربية المتشددة والتي لا تعرف القانون :- ولكنى وجدت أن البدو لا يفرقون كثيرا عن الفكرة . هؤلاء البدو الرحل من قبيلة بشر ، لا يحسبون أنفسهم فى إطار طريق الحج ، ولكنهم من أفراد القبائل التى تعيش من عمل أيديها فى مناطقها ، وأفراد هذه القبائل أشداء وأقوياء ويشبهون بدو الشمال . وهم يلبسون ملابس من العراق ، وهم يثبتون غتر روسهم على جباههم بعقال من الصوف ملفوف عدة لفات كما لو كان عمامة .

فى الصباح ، جاعنى واحد من أولئك البدو ، وسحبنى من عباتى فى الشارع ليقول لى متسانلا ، "هل يمكن أن أذهب معه إلى ديرته لعلاج رجل قبلى يعانى ، منذ سنوات ، من مرض فى معدته . إلى حد أنه كان يتقيأ الطعام الذى كان يأكله ؟" اكتشفت أن من كان يتحدث معى ، كان واحدا من الشيوخ ، ثم سأل زيدا الذى كان يقف بالقرب منا ، "هل اكتشفوا أن النصرانى حكيماً جيداً ، طوال الفترة التى عشتها معهم وبينهم ؟" سعدت بسلوك ذلك الشيخ البسيط وسعدت أيضا بنظراته الصريحة . وبالرغم من أن ذلك الرجل كان يبدو شخصية مهمة ، إلا أنه كان حطيميا ، أى من الحطيم ، أى أنه كان "حناس Hannas بن Ibn نومس Nómus " بمعنى أنه كان "شيخ النومسى Noamsy" ؛ والنومسى فرع من الحطيم . بينه حاليا وبين مشهل Misshel نوع من التحالف ؛ وهذا الفرع يسكن حاليا المنطقة البدوية من العواجى Aujay ، والتي وجدوا فيها لأنفسهم ملاذا بعيدا عن أعدائهم . قال لى زيد : "ليس هناك ما يخيف إذا ما رافقتهم وذهبت معهم : هذا يعنى أن حناس رجل أمين جداً . وبالله أنا لا يمكن أن آمن عليك فى يد إنسان غير هذا الرجل ."

سقى الفجير مواشيهم مرة ثانية فى تيماء ؛ وشاهدت الماشية الكبيرة وهم يقودونها نحو المسقى ، ويعد السقى أحضروا إبل الحمل وجرى تيريكها بجوار الخيام: وسوف يتحرك محسن هو وبقية الناس فى الصباح الباكر ، عائدين إلى الصحراء .

وعثرت على ناقتي بين الإبل ، ووجدت أنها مصابة بجرح فى صلبها ، وقد يستغرق شفاء ذلك الجرح مدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين يوما ، ولكنى يتحتم على الرحيل فى الغد . أحضرت الأصدقاء البدو لإلقاء نظرة على الجرح الذى أصاب تلك الناقة العجوز ، وقالوا لى إن هذه الناقة كانت تُركب وأسيى استعمالها ، وأن آثار السرج ما زالت موجودة على الشعر الذى يكسو جلد الناقة . وأن الخطأ هنا يقع بالدرجة الأولى على عيسو iso راعى الشيخ زيد ، وعيسو هذا شاب كانت تجمعنى به صداقة . وعليه شدته من ذقنه أمام الجميع ، ولعنته قائلا : "والد هذا يهودى " . هذا الشاب ، قوى البنية وقوى العزيمة ، وضع يده على كتفى وسبنى بأتى نصرانى ، ولكنى قلت له : " كان ينبغى عليك أن تحافظ على الناقة " ، ورحت أشده تماما من لحيته . وهنا لزم القليلون الذين كانوا يلتفون حولنا ، لزموا الصمت ، بل أن أسرته هو أيضا لزم الصمت ، فالجميع كانوا أصدقاء لى ، وكان الجميع لديهم فكرة طيبة عن تجوالى معهم بطريقة عادلة . وعندما أدرك عيسو أنه يلام على ما فعل ، وأنه لا بد أن يتحمل ذلك الذى نزل به ، أحنيت رأسه على صدره وتركته يذهب لحال سبيله . استعمال القوة لا يكون مجديا فى بعض الأحوال ، ومن الحماقة أن يلجأ الإنسان إلى القوة فى علاج أمور لا علاج لها ؛ صحيح أننى تجاوزت عن الخطأ الذى ارتكبه عيسو ، ولكنى كنت أرى من الضرورى توضيح أن قبولى لذلك الذى حدث ، كان على مضض . يضاف إلى ذلك أن العرب يودون للرجل أن يكون مثل الرمان حلومر فى آن واحد ، معتدل ومحب مع أصدقائه فى حالة الأمن ، ولكنه يغضب غضبا عادلا ومبررا إذا ما دعا الداعى للدفاع عن حقه هو أو حق جار له ، وبدأ والد عيسو يتردد على خيمتى شيئا فشيئا ، وبصوت خفيض راح ذلك الرجل العجوز يعترف ويقر بالخطأ الذى ارتكبه ولده ؛ ولكن ، لماذا تسبنى يا خليل ، بتلك السبة ، عندما كنت بين أصدقائك ، وتصفنى أمام كل الناس بأتى يهودى ؟ ولكن عندما رأتى صالح العجوز ، وأنا أبتسم ، راح هو الآخر يبتسم ، وسلم على يدى اليمنى التى مدتها له .

عثرت على زيد ، فى المساء ، جالسا على واحدة من المصاطب الطينية بالقرب من الحدّاج (البئر) ؛ كان الرجل ينتظر فى وسط البلدة ، على أمل وصول بعض معارفه من القرويين ، قبل غروب الشمس ، ليدعونه لتناول العشاء . وعندما عدت إليه ثانية ،

بعد ساعة من الزمن ، وجدته ما زال جالسا في المكان نفسه ، وكان محياه الأسود يجمع بين صبر البدو على الجوع واحتقاره للتيامنة . ربما ظهر زيد أكثر غنى وازدهاراً ، لو أنه كان متحرراً وأجل الصداقة في الآخرة وفي هذه الدنيا ؛ ولكن ضيق اليد هو الذي يولد الضعف وخفوت الإرادة لدى جيرانه . وقفت أتكلم مع زيد ، ورأيت في النهاية يتناول غليونه ، الذي هو بمثابة الدواء الذي يعالج الجوع ، وهنا وجدت زيدا يستدعى صبياً ، خرج من دار مجاورة ، ليحضر له شيئاً من الفحم المشتعل ، ووجدت القروى الشاب يطيعه ويجيب طلبه .

في الساعة الأولى من تلك الليلة هبت علينا عاصفة من الريح والمطر . وتمایل النخيل العالي ، وأنحنى ، وكان يبدو للضيوف وكأنه سوف يقطع من جذوره . وهنا لجأت أنا ومحسن إلى منزل الفجر Fejr مضيقنا ؛ ولكن سقف المنزل الذي كان مصنوعاً من عيدان الأشجار والقش المغطى بالطين ، سرعان ما بدأ يتخلله ماء المطر ، وبدأت الرطوبة والبلل ينهال علينا من خلال جدران المنزل . تحدث محسن عن سفرى في الغد برفقة البشر Bishr ، وطلب من فجر Fajr أن يكون شاهداً على ما يقول ، وحاول ذلك الرجل الفجري أن يجعلني أحيّد عما قررته قائلاً : "حتى زيد نفسه ، قال الرجل ، قد تخلى عني . وكان مفروضاً على زيد أن يزكيني عند البشر ، وكان من المحتمل أن لا أراه بعد الآن . " - هل ينبغي أن أعجب من ذلك أو أندمّش له ؟ - زيد لا قلب له ، رد الاثنان على قائلين : "إي ، بالله ، زيد ليس له قلب " ، وكررا "Ma له Lahu قلب Kalb " . كان فجر يعاني من ألم حاد ، أو إن شئت فقل ، يعاني معاناة شديدة من آلام الحصى el-Hasa ، ذلك المرض الذي يشيع في هذه المنطقة ، بالرغم من أن المنطقة هنا أرضها من الحجر الرملي ، ومع ذلك قد يكون المرض مجرد التهاب ، لأنهم يظنون أن المرض يصيبهم بسبب مشيهم حفاة على التربة الحارقة . وعندما هدأ الطقس ، اتجهنا صوب الخيام التي أصابها البلل لننام الليلة الأخيرة لنا في تيماء .

الفصل الحادى والعشرون

الجبل

الرحيل عن تيماء مع البشر . رحلة فى اتجاه الشرق خلال المطر . مشهل الشيخ العظيم يُصلِّح القهوة ويقدمها . نساء البشر . ابن مرتاد . كرم الشيخ فى البرية . تعال إلى خيام مشهل . تهديدات مشهل . الرحيل مع جماعة إلى حائل . رحلة مع ركب الزلول . النصرانى يقيم بدويا واصبا من لصوص الماشية . الوصول إلى الخيام أثناء الليل . بدوى من الذين خدموا فى العجيل . شيخ من شيوخ الشمر فى الصحراء . الشيخ يتمنى الخير للإنجليزى . نجد تكاد تكون عديمة المطر . أسئلة البدو وأجوبتهم . الإرهاق البالغ بسبب الركوب . ظهور الماء . مجلس عسكر . الوصول إلى أولى قرى الشمر . موجوج . الحكم الذى أصدره الشيخ للنصرانى . قهوة الشمر . الفقيه الشاب صاحب الفكر الحر . بدوى عراقى يتهم النصرانى . كلام نجد . الرحيل إلى حائل . رى السلف . لقاء خطر فى الرى . البشر والشمر ليسوا جيرانا طيبين . منظر علامة حائل الجبلية . قفار . نساء نجد المنقبات . الكرم العام فى قفار . ضواحي قفار الطلية . السهل الصحراوى قبل حائل . مسافرون بمحض الصدفة . الخيالة . الاقتراب من حائل . المكر البدوى . عبد العزيز . دخول حائل . المكان العام . القصر . مُفرج . المقهى العام . صالة الضيوف أو المُضيف . سكرتير الأمير . مثل النصرانى أمام الأمير بن الرشيد . الحضور . رواية القرآن عن المسيح . قراءة غير موفقة . ختم . جولة فى مزرعة القصر مع الأمير محمد . آبار الرى العميقة . الوضيقى .

قامت النساء بتحميل خيامهن وأمتعتهن على ظهور الإبل ، وألقيت نظرة على الأعراب أثناء رحيلهم قبل طلوع النهار . كان زيد يركب فرسه ، وواصل مسيره قدماً

من القرية التى أمضى الليل فيها ؛ قال زيد : لو أننى أرافقه وأذهب معه الآن ، فسوف يأخذنى إلى البشر ويربطهم بمسئوليتهم عن أمنى وسلامتى ؛ ولكن زيدا لم يكن بوسعه الانتظار ، إذ كان يتعين عليه أن يتبع الأعراب ، إضافة إلى أنى لم أكن فى ذلك الوقت ، مستعدا للرحيل ؛ واختفى رفاقى من الفكارة ولم أعد أراهم بعد . ومر على غريب ، قدم لى يد العون على وجه السرعة ، وراح يساعدنى وأنا أحاول تحميل أشياءى وأمتعتى على ظهر ناقتى العجوز : ورحت أقود الناقة وهى تحاول مقاومتى ، فى محاولة منى للانضمام إلى بقية الإبل ، لمسافة نصف ميل تقريبا بالقرب من تلك الأسوار المؤدية إلى هؤلاء البشر ، الذين شاء حظى الجيد أن أراهم وهم لم يبدوا التحرك بعد . وعند البشر ، قصدت إلى ذلك الرجل الذى يدعى حيزان Hayzan ، الذى سبق أن وافق على اصطحابى إلى مدينة حائل : كما اشتريت من بشرى آخر إطار سرج من سروج الركوب ، حتى يتسنى لى تحميل أشياءى وأمتعتى على الناقة المجروحة . كان البشر يستعجلون ماشيتهم ، ولذلك بدأنا المسير على وجه السرعة .

تركنا تيماء عن يميننا ، ومضينا قدما ، بين قمم الإرباح Erbah وقمم الغنيم متجهين نحو الصحراء ؛ وسرعان ما تبدت لنا بعد ذلك حدود صحراء النفود القاحلة ، والتى كانت تمتد ، بدورها أيضا ، فى اتجاه الشرق . واصلنا مسيرنا أثناء سقوط المطر فى طقس سيئ ؛ وعند الساعة الرابعة مساء ، نزل البشر عن إبلهم فى الصحراء المبتلة وعلى ارتفاع حوالى ٦٠٠ قدم عن مستوى تيماء ، وهنا ساق البشر الإبل الجائعة إلى المرعى . شب البدو المترحلون النيران ، وراحوا يضعون عليها أنواعا معينة من حطب الأدغال ، الذى كان من بين النباتات التى تأكلها الماشية ، وبالرغم من أن ذلك الحطب كان مبتلا بفعل قطرات المطر ، فإنه كان سريع الاشتعال . حاول البدو الحفاظ على أنفسهم ، قدر المستطاع ، من الريح الرطبة ، والمطر الغزير . بأن راحوا يكوّموا الأدغال من حولهم؛ وثبتوها فى الأرض عن طريق وضع أحجار ثقيلة من فوقها .

تحركنا مع طلوع الشمس ؛ أعاد عواء الإبل المفاجئ ، والضوضاء الناتجة عن محاولة تلك الإبل الامتناع عن التحميل ، أعاد إلى ذاكرتى ذكريات حج العام الماضى ؛ وقبل الساعة العاشرة صباحا ، أصبحت حلوان Helwan على مرمى بصرنا ، وصفى الجو أكثر من ذى قبل . وعرج البشر قليلا فى اتجاه الجنوب الشرقى ، حيث ظهرت

أمامنا قرية برْدَ Birrd (ويصح فيها أيضا برِد Bird) : وعند الساعة الثانية بعد الظهر ، نزلنا عن راحلتنا ، ودفعناها فى اتجاه المرعى ؛ كان الارتفاع هنا فى هذا المنطقة مثل ارتفاع الأمس ، أى حوالى ٤٠٠٠ قدم . وتوقف المطر وخرج حيزان للتصقُر(*) . كان من ضمن هذه الجماعة رجلين أو ثلاثة رجال كانوا يصحبون صقورهم معهم ، وكانت تلك الصقور رابكة على قمم السروج ، وكل واحد منها موضوع فوقه غطاء عينيه الكامل ، أو الغطاء الذى به نافذتين يرى الصقر من خلالهما ، أو جاثمة على أيدي أصحابها . فى بعض الأحيان ، كان أصحاب هذه الصقور يدفعونها لمطاردة الأرناب البرية الصغيرة التى كانت تظهر لنا فجأة أثناء سيرنا فى الصحراء ؛ كانت أجنحة الصقور مبتلة بفعل المطر : وكانت الطيور تطير طيرانا فاترا وتحلق على ارتفاع منخفض ، وبعد دورة أو دورتين كانت الطيور تعود وقد أمسكت بواحد من تلك الأرناب البرية ، ويروح الصقَّار يمسكه فى يده وهو مشدوه . هذا يعنى أن حيزان كان يصنطاد كل يوم أرنبا برياً ، وكان يحضر لى جزءاً من لحم ذلك الأرنب فى المساء ، وكان ذلك يكفى احتياجات جسمى المرهق . افتقدت كلا من حنَّاس وابن عمه رِيَّان Rayyan ، بينما كنا نسير فى الطريق ؛ فقد ترك هذان الرجلان أعرابنا أثناء ترحالهم ويممو مسيرهم نحو أهليهم الذين كانوا يخيمون فى الجنوب ، فوق حرة Harrat خيبر(**) . ها أنا اليوم وحدى مع العواجى ، - وهؤلاء البدو هم إلى حد ما عنيفين ، كما أنهم بوما من البدو البخلاء ، ولكنى كنت استشعر أملاً قوياً فى الوصول إلى حائل خلال فترة وجيزة . جلست لشرب القهوة مع الشيخ مسهل ، الذى سوف يقوم هو بنفسه بعمل القهوة . هذا الشيخ الذى "يحكم سبعة قبائل" هو الذى حمص البن ، وطحنه ، وغلاه ، وهو أيضاً الذى قدم لى بيده ، ذلك الخليط الجميل . لم يعطنى مسهل سوى فنجال واحد ، وقدم لأفراد قبيلته فنجالين وأحياناً ثلاثة فنجايل . ونظراً لأن العمل الذى قام به ذلك الرجل كان يسيىء إليه لأنى نصرانى ، فقد قلت له متعجباً ، "هذا بالله شيخ كبير وقهوة قليلة ! أهذا هو عرف العواجى ، يا مسهل ، ان يجلس ضيف بينكم وأنتم جميعاً

(*) التصقُر : الصيد بالصقور . (المراجع)

(*) حرة خيبر : تعرف هذه الحرة أيضاً باسم حرة النار وهى الحرة التى يطوؤها الحجاج فى طريقهم إلى المدينة المنورة . (المراجع)

تشربون القهوة ، فى حين يمسك هو بفنجاله فارغا ؟" بعد أن تحدثت مسهل بهذه الطريقة ، راح يصب لى القهوة على غير رغبة منه ، وهو يتمتم ببعض كلمات تبين عن مزاجه المتشدد ، قائلا "يا ya فركه ! farkah " .

وصلنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث إلى مشارف جبل إرنان Irnan : وهنا قلت لجارى : "ها ، ها هو جبل إرنان !" وهنا صاحت امرأة كانت تركب راحلتها وعلى مقربة منا ، بحيث كانت تسمع ما نقول ؛ صاحت قائلة : "أوه ، ما الذى تريده أنت من إرنان ؟" وقبيل العصر نزلنا عن راحلتنا فى أرض مرتفعة تقع فوق بيع yba مغير Moghrair ، التى اكتشفت ، عن طريق الآلة ، أنها على ارتفاع يقدر بحوالى ٤٠٠٠ قدم . شاهدنا ، عن بعد ، بعضا من إيل أعراب ابن مرتاد Mertaad ، وهم من حلفاء البشر . بعد أن نصبنا خيامنا ، جاءت إلى خيمتى امرأة ؛ كانت تطلب إبرة وخيطا (الأشياء التى من هذا القبيل تعد هدايا مقبولة فى الخلاء أو إن شئت فقل : فى الصحراء) ؛ ولكنى طلبت منها الذهاب إلى حال سبيلها عندما وجدتها تساومنى مساومة شديدة . وردت على وهى تنتظر إلى شذرا . "ها ! نصرانى ، ولكننا عن قريب سنأخذ منك كل هذه الأشياء ." وقد رأيت من باب الكراهية [العنصرية] ، أن ربات البيوت البشرية كن يرتدين البروكة beroka ، أو إن شئت فقل : براقع الوجه الوثنية ، والتى لا يظهر منها سوى عيان غائرتان فقط . أوحى لى غرابة وجه هذه المرأة أننى كنت أجوس ، فى ديرة أخرى ، من هذه البلاد ؛ وهذا القسم من البلاد هو نجد الغيرة [والوهابية] ؛ - الأكثر من ذلك ، أن تربة الجزيرة العربية نفسها متباينة ومتنوعة .

فى اليوم الرابع من مغادرتنا لتيماء ، وصلنا إلى صخور وعرة من الحجر الرملى فى منطقة تقع خلف بيع yba مغير Moghrair . قسوة المطر والهواء شديدة فى الجزيرة العربية ، وبخاصة عندما تواجه الشمس عيوننا ، وننظر عبر سديم من الضباب الناتج عن الحرارة الشديدة ، ويتساقط مخيما على حدود تلك الجبال الجافة حتى النخاع أو إن شئت فقل : شديدة الجفاف ؛ هذه هى الريح وقد اختلطت بالمطر وراحا يهبان هبوبا شديدا على الصحراء الواسعة أثناء الليل . ومع حلول المساء ، نصبنا خيامنا ، إلى جوار خيام بعض من عرب Arabs مرتاد Mertad ، ورحت أنا بعد ذلك ، أتقدم شيئا فشيئا من نيران الحراسة البهيجة . وحيثما كنت أدخل إلى منطقة النار

أمام أى بيت من البيوت الرئيسة ، كان رب ذلك البيت يستقبلنى استقبالا وديا ثم يحضر لى بعد ذلك مباشرة سلطانية كبيرة من حليب النياق . لم يوجهوا إلى أى نوع من الأسئلة ، - والتزام الصمت هنا هو من كياسة المضيف ، وكانوا قد رأوا خيمتى البيضاء منصوبة قبل غروب الشمس . وعندما وقفت ، استعدادا للانصراف ، طلب منى الرجل بإشارة لطيفة البقاء لمزيد من الوقت. وشاهدتهم وهم يحضرون شاة لذبحها ؛ - ونظرا لأن الشيخ مسهل ، نزل أمام بيتهم فسوف يذبح ذلك الرجل شاة لتكون عشاء للمضيف . قال لى عايد Ayid بن مرتاد Mertaad ، ذلك الشيخ الطيب ، إن أعرابه كانوا يذهبون إلى الشمبل the Shimbel ، بل إن الحال كان يصل بهم إلى حد الوصول إلى كل من باليرا Palmyra وكرياتين Keriatelyn ! رقدت على الأرض ورحت فى النوم داخل هذه الخيمة الصوفية الكريمة ، إلى أن أصبحت الوليمة جاهزة ، وعندها أرسلوا فى طلب كل من الشيخ مسهل هو وشيوخ العواجى. هذا الخروف المسلوقة (فى منطقة بعيدة جداً عن ساحل البحر الأحمر) قدّم مع نوع آخر من الأرز يطلقون عليه اسم التّمن Temmn ويأتون به من العراق وهو (بالرغم من أنهم يعدونه أقل من أنواع الأرز الأخرى) له نكهة طيبة وقوام أفضل من الأنواع الأخرى . وبعد أن فرغ مسهل ومعه كل من جاعوا من البشر وشيوخهم ، نهضوا واقفين ثم انصرفوا لحال سبيلهم بعد أن شكروا المضيف ودعوا له بالبركة - ولم أرى ذلك من قبل - فقد حمل الشيخ مسهل معه قطعة من اللحم وعظمة من عظام الخروف ، وذلك لزوجته التى كانت تصاحبه فى الرحلة .

فى صباح اليوم الخامس لمغادرتنا لتيما صعدنا إلى أرض وعرة شديدة الارتفاع فى اتجاه الشرق من طريق يطلقون عليه اسم درب Derb الزلّاج Zillaj ، ووجدت ونحن فى هذا الدرب أننا كنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم ، وشاهدت زهيرات صغيرة ، من بنات المطر ، كانت قد تفتحت بالفعل فى الصحراء . وعند دخول الظهر ، كنا قد وصلنا إلى منزل مسهل الذى كان مكونا من عدد قليل من الخيام التى نصبت إلى جوار بعضها فوق تلك القطعة المستوية من الأرض التى وصلنا إليها ، والتى يطلقون عليها اسم الخَرَام el-kharraam ، وكانت أيضا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم : كان الترمومتر (مقياس درجة الحرارة) قد سجل ٨٠ فهرنهيتية . واعتبارا من هذه المنطقة بدأت سلسلة

الجبـال تبدو لنا وكأنها فوق السحاب ، وهذا هو جبل إرنان Iran في الشمال ، يبعد
عنا مسير يوم تقريبا .

في العصر جاعا رجلان قـبـليان غربيان ، جاءا من ديرة في الضاحية الجنوبية
بالقرب من المدينة (المنورة) : قالـا لنا إن المطر لم يسقط على ديرة جهينة ، أو في
سائر أنحاء وادي الحمض Humth ! وضعوا أمامهما طبقا من التمر ؛ هذان البدويان ،
دعياني [باعتباري ضيفا] ومن منطلق عرف الصحراء أن أقـتـرب منهما وأكل معهما من
ذلك التمر :- هذا المسهل ، بالرغم من أني كنت معه في خيمته لم يدعو النصراني
للأكل من ذلك التمر ! تناولت تمرتين وأكلتهما من باب "العيش والملح" فيما بيننا . كان
معى حزام مغربي كبير مصنوع من الصوف أحمر اللون ؛ وهنا قال مسهل : إنني
ينبغي أن أعطيه ذلك الحزام ، وإلا فإنه ، بالله ، "سوف يجعل مني أنا وما معى من
أشياء غنيمة له . هذا الحزام الذي يشيع في البلدان المستقرة ، والذي يطلقون عليه
اسم "الكُمُر ، kumr ، مطلوب ومرغوب من الخيالة البدو المترحلين ، وهم يظنون
أن ربط أجزاء الجسم غير المتينة بذلك الحزام ، إنما يعطى الإنسان قوة على قوته .
قلت له "إن الحزام ضروري عندي ؛ وطلبت من مسهل أن يعطيني جملا صغيرا قويا ،
على أن أعطيه أنا ناقتي ومعها الحزام ." - كان عدد إبل ذلك الرجل يزيد على المئتين ؛
رد على مسهل قائلا : حسن ، إذن ، سيأخذني غنيمة له . " - ألا ترى أن نوى التمر
ما يزال في يدي ، وأنت لا يمكن أن تقبل على ذلك يا مسهل ، فأنا بيني وبينك الآن
"عيش وملح" . - "ولكن ذلك لن يجديك أو ينفعك ؛ ماذا يحدث لو أننى طردتك غدا
بعيدا عنا ، أنت ومعك ناقتك العجوز ، فهل تستطيع أن تهتدى إلى طريقك وتعود إلى
سهل الحجر ؟" - "أنا أعرف أن المسافة تصل إلى حوالي أربع رَحَلات في اتجاه
الجنوب الغربي ، إن الله سيأخذك بجريرتك ، وأنا أحسب أن هذا لن يرضى الله
(سبحانه وتعالى) ، وسوف أمضى معكم قدما ." - "ولكن البلد كله ملئ بالحباليص ." -
يا شيخ مسهل ، يا غنى . هل تسمح لك عاداتك بتجريد إنسان مسكين من مقتنياته ؛
وأنا أرى أن هذه التهديدات كلها مجرد لغو ليس إلا ، لأننى ضيف عليك . - والبدو
يظنون أن النصراني خبراء في ركوب الدواب ، وعليه قالوا لى : "أننى سوف التقى
الشيخ مسهل فى الغد على ظهر حصان ، وينبغى أيضا أن أكون مسلحا بمسدس ؟"

وردت عليهم قائلا : "إذا كان لابد من ذلك ، فسوف أحاول وأبذل قصارى جهدى . " -
لا ، فى الغد سوف يركب خليل ناقته العجوز (قالها مسهل مرة ثانية) ويعود إلى
مدائن صالح ؛ وبإتسامة صارمة توقف عن الطلب ، بعد أن وجد أن كلامه لم يحركنى
 . وهنا قال ولده الأصغر الذى كان يجلس معنا فى الخيمة ، قال كلاما طيبا : "حسن ،
دع خليل يحصل على ما يريد ، - وفى الصباح سوف يعطونى ناقة صغيرة بدلا من
الخويرة (الناقة كبيرة السن) والحزام . والعرب فى جشعهم عندما يحاولون إتلاف
حياة الغريق ، الذى لن يساعده مستقبلا ، يكونون أرذل من أية أمة أخرى !

طلب منى حيزان ، فى الصباح ، الاستعداد للرحيل ، إذ كان عسكر ومعه بعض
الرفاق متجهين إلى حائل ، وبالتالي يمكن أن أركب معهم ؛ سألتى حيزان "هل ناقتى
العجوز تستطيع مساية النياق الصغيرة فى الجرى ؟" - "إنها ناقة عجوز ، وليست
صغيرة السن . " - "إذن ، يتعين علينا أن نساقر منفصلين عنهم . " كان حيزان بعد أن
استلم النقود التى اتفقنا عليها ، قد قال إنه لا يستطيع مرافقتى هو بنفسه ، "وإنما
الذى سيرافقك هو هذا الرجل ، " الذى قال عنه إنه شقيقه ، إضافة أيضا إلى أنه أطلق
عليه اسما غير اسمه . - كان من الصعب على تحاشى الوقوع فى مثل هذا النصب
والخداع من قبل البدو ! قال مسهل : "حسن ، أنا أضمنه ، سافر فى أمن وسلام . "
ووضعت شرطا يقضى بتحميل حقائبى على ناقته الصغيرة ، وأن يكون من حقى أن
أركبها أيضا ؛ وبعد ذلك مضينا قدما فى طريقنا .

كان رفيقى فى الرحلة شبيه برجل من رجال الأحراش : كان عسكر ومن برفقته
قد سبقونا على الطريق ؛ مررنا على بعض حفر الماء الضحلة التى جرى تطهيرها
مؤخرا ؛ وانتابتنى دهشة لوجود مثل هذه الحفر على مثل هذا الأرض المرتفعة .
ثم وصلنا بعد ذلك إلى حرف الجبل فى الناحية الشمالية ، من جبل خرام kharram ،
هذا الحرف كان شديد العمق وشديد الانحدار نحو السهل الموجود فى الأسفل ؛ والإبل
أثناء سيرها فى مكان من هذا القبيل تركز على أرجلها الأمامية وتجعلها أكثر
تماسكا ، محاولة النزول نحو الأسفل بحرص بالغ . وهكذا رحنا نهبط ، حسب
استطاعتنا ، مستهدفين الوصول إلى الصحراء الرملية ، متجهين بعد ذلك صوب
ساحل منخفض من الصخر الرملى ، يطلقون عليه اسم العبّاسية Abbassieh ، ويقع

إلى الغرب من بلدة مسمة Misma واستطعنا فى النهاية اللحاق بعسكر ومن معه .
وعندما اقتربنا من الطرف الشرقى للجبل ، ظن من معى أنهم شاهدوا حباليص
يتجولون بين الصخور . هؤلاء اللصوص هم من "حطيم النفود وهم أيضا من الأعداء" ،
وقد شوهدوا فى تلك المنطقة التى رأى الناس فيها فى اليوم السابق بعضا من طلائع
الحباليص الذين يقومون باستكشاف المكان . " (قال عسكر) ، هل تستطيع ناقتك ، يا
 خليل ، أن تسائر نياقتنا فى المسير ؟ نحن بدو ، ونحن ننهش (nenhash) ويصح فيه
أيضا " نهجج (nahajj) ! ونحن لا نهاب أى نوع من الأخطار ونحن ركوب على نياقتنا ؛
عجل قدر ما تستطيع ، والا خلفناك وراعا ، وبذلك تسقط وحيدا فى أيدي اللصوص ."
وبعدما راح كل واحد منهم يستحث ناقتة على الجرى : أما ناقتى العجوز ، والمرهقة
بعد الرحلة الطويلة التى قطعتها من تيماء ، فقد تأخرت كثيرا عن باقى النياق ، وتلك
كانت قدرتها . وخلصت إلى أن الجميع سوف لا تكون لهم فائدة فى حالة الخطر ؛ هذا
يعنى أن الطالع كان فى غير صالح هذه الرحلة ، لم يكن فى أحد من الرفاق أى شىء
من الخير اللهم باستثناء عسكر وحده . وهذا هو الرفيق غير المتحضر ، الذى حاولت
ربطه منذ البداية بأن جعلته يحلف بأغلظ الأيمان ، والذى حلف لى "على ساق العشب"
أنه لن يتخلى عنى ، هذا هو الآن يصبح فى قائلنا : "والله - بالله ، إنه سوف يتخلى
عنى إذا لم أعُد خطوى وأسرع من مسيرى (وهذا أمر مستحيل) ؛ لأنه يتعين عليه
اللحاق برفاقه ، كما أنه كان رفيقا لهم ،" من هنا فقد راح الجميع يجرون بنياقهم
مسافة ميل أو ميلين .

أسفر المطر الذى تساقط فى الأيام الأخيرة عن برودة الهواء ؛ ها هى فترة ما
قبل الظهيرة ، حيث السماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الشمس تسطع بين الحين والآخر
محدثّة نوعا من الدفء . وبعد عناء كبير وجلبة كثيرة وصلت أخيرا إلى الرفاق الذين
كانوا طائرين بنياقهم ، وهنا قلت لعسكر : "لو قدر للأعداء أن يهجموا عليك ، فهل
ستضحى بى أنا الذى أعد رفيق طريقك ؟" قال : سوف أركبك ورائى على ناقتى ،
وسوف يكون مصيرنا مصيرا واحداً نحن الاثنين ؛ لن أضحي بك ، يا خليل . كانت
الجماعة تأمل فى النزول فى منزل الأعراب فى تلك الليلة ، قبل أن نصل إلى جبل مسمة
Misma ، الذى بدأ يلوح لنا من بعد . كان السهل عامرا بالرمال والأعشاب التى تنمو

فى الأحجار الرملية ، التى كانت تجاورفها عبارة عن برك صغيرة ملأتها مياه الأمطار العذبة . وقبيل العصر طرد أفراد الجماعة الإبل وجعلوها تسبقهم بمسافة كبيرة جداً ، نزلنا عن إبلنا وتسلق البعض الصخور المجاورة ليستطلع المكان ، وعادوا ليخبرونا أن أولئك الأعراب كانوا أيضا راحلين ، وأنهم يبدو عليهم أنهم على وشك التخيم من جديد . واصلنا المسير ركوباً على ظهور نياقنا قاصدين جبل مسمى Misma ، إلى أن وصلنا إلى أولئك البدو ؛ الذين لم يكونوا سوى عائلة من عوائل الشمر تتجول فى تلك القفار الشاسعة . والمؤكد أن أفراد هذه العائلة تملكهم الخوف الشديد بعد أن رأونا ، لأننا وجدناهم ينكمشون ويلجأون إلى الأرض المنخفضة ، أخذين معهم إبلهم قليلة العدد ، فى الوقت الذى لم تكن ربة البيت قد نصبت فيه خيمتها . كانوا يراقبونا ونحن نمر عليهم ، ونظراتهم توحى بعدم الاستقرار أو الاطمئنان ، والسبب فى ذلك أنه ليس هناك ونام بين العنزى والشمر .- والذى يشكل ذلك العداء هو مسألة الأمير . كنت سأطلب من أولئك البدو أن يسقونى شربة ماء ، نظرا لأننا واصلنا مسيرنا طوال اليوم على ظهور راحلاتنا دون توقف ، إضافة إلى أن النهار أوشك أن ينتهى متحولاً إلى ليل ؛ ولكن رفاقى واصلوا فسيروهم . طلبت من رفيقى أن يعيرنى ناقته المريحة والسريعة ، وذلك وفاء بما اتفقنا وتعاهدنا عليه ؛ ولكن هذا الرفيق الأشعث غير المتحضر أنكر على ذلك ، بل إنه رفض حتى أن يبطئ المسير . وكنت فى أحيان كثيرة ، أتأخر عنهم كثيراً جداً ، بينما هم يجرون ، الأمر الذى كنت أخشى أن أفقد الاتصال بهم عن طريق البصر ، كما كنت أخشى أيضا أن تنهار ناقتى المتعبة من تحتى ، وبالتالي تجهض وتفقد وليدها .

وبناء على كلام عسكر ، وبعد أن أدركوا أنني لن أقوى بعد ذلك على تحمل المزيد ، وافق رفيقى على تبادل الركوب معى ، وبالتالي ركبت أنا ناقته صغيرة السن ؛ دخلنا بعد ذلك فى فجوة منخفضة فى جبل مسمى بالقرب من طرف الجبل الشرقى المكون من سلسلة طويلة من صخور الحجر الرملى . وراح رفاقى ينظرون من طنف الجبل ، بحثاً عن خيام الأعراب سوداء اللون ، فى السهل الصحراوى الواقع خلف الأفق . قال أحد الرفاق إنه يحسب أنه رأى خياماً على بعد مسافة كبيرة ، ولكن بقية الرفاق شكوا فيما قاله ذلك الرجل ، وهنا كانت الشمس بدأت فى الغروب . وهنا نزلنا

إلى الرمال العميقة المنجرفة على أجناب الجبل ، وهنا فاجأنا ربح ، كانت تشبه في هبوبها هفهة جناحى الطير ، ونحن ركوب على نياقنا ، مما أدى بالإبل إلى إسراع خطاها ، بالرغم من أن الأفراس ، يمكن أن تسبقها فى الأرض المستوية . وكما يقول شعراء العرب القدامى إن ركوب الذلول يجعل الراكب يحس وكأنه "يسبح" فوق الأرض الرملية ، الأمر الذى يجعل الراكب المتمرس لا يحس بسرّج الجمل من تحته .

نزّلنا إلى بركة من ماء المطر فى الصخر الرملى، وعندها نزل الرفاق عن راحلاتهم وتوضّئوا من ذلك الماء وراحوا يؤدون صلاة المغرب ؛ ولكن عسكر ، وبالرغم من دخول الليل علينا ، لم يكن معه شيئا يجفف به نفسه ، فقد راح يغسل كل جسمه ، وراح رفاقه يسألونه : "قال ، إن هذا هو ما يفعله الرجل بعد أن يعاشر زوجته ؛" وبعد الاستحمام عاد واثقا من نفسه يطلب الرحمة والعفو من الله :- وهذا هو ما فعله (سيدنا) موسى . والمسلمون سواء أكانوا مرضى أم أصحاء ، إذا ما أصابت أجسامهم النجاسة بكل أشكالها ، فلا تصح معها الصلاة ، أى إنهم يمتنعون عن الصلاة . جاضى كثير من المرضى . وهم يشكون أن الضعف أو المرض الذى يعانون منه "قد يمنعهم من الصلاة" ؛ ولذلك يرى هؤلاء المرضى أنفسهم وكأنهم معزولين عن الرحمة وعن الدنيا أيضا . ولذلك فإن هؤلاء المسلمين يجعلون الله راعيا وناظرا إلى البشرة Skin (المظهر) ، بدلا من أن يكون وازنا وباحثا وكاشفا الحقيقة السرية التى فى قلب الإنسان . واصلنا مسيرنا فى عتمة الليل ؛ ولم استمر فى ذلك السير إلى مسافة بعيدة ، نظرا لدخول الليل البهيم علينا . ولم أستطع تهدئة رفيقى نصر Nasr ، وهنا تحتم على العودة إلى ناقتى العجوز والسبب فى ذلك ، على حد قوله ، أننى قد أشرد مع الناقة أثناء الليل . ومن رأى نصر ، وكان ذلك أيضا هو رأى حوريش من قبل ، أننى كنت بدويا ، ولصا من لصوص الإبل ؛ وهذه الفكرة الخيالية هى التى جعلته فى مرحلة سابقة من اليوم ، يوافق على أن أركب أنا ناقتة ، التى كانت هى أسرع النياق الموجودة على الإطلاق ؛ أما فيما يتعلق بكل من عسكر والبقية التى كانت كلها من الشيوخ ، فقد خلفوا وراهم أفضل نياقهم فى ديارهم ، لأنهم كانوا يخبرونها للعمليات الحربية .

سرنا مدة ساعتين بعد غروب الشمس ، وقطعنا خلال مسير ذلك اليوم ما يقرب من خمسين ميلا ؛ وهنا بدعوا يتشاورون مع بعضهم البعض حول ما إذا كان من الأفضل لهم النزول عن رحلاتهم وقضاء الليل فى هذا المكان الذى وصلوا إليه ؟ كنا لم نتناول إقطارنا فى ذلك اليوم ، ولم يكن معنا طعام أو ماء ، كانوا واثقين من أننا سوف نتعشى كل ليلة مع الأعراب . اتفقوا فيما بينهم على الاستمرار فى المسير إلى مسافة أبعد قليلا عن هذا المكان ؛ وبعد فترة وجيزة بدأت تلوح لنا نيران الحراسة التى يشبها البدو . بعد ذلك بساعة ، أصبحنا على مقربة من أولئك الأعراب ، وعندها سمعت أصوات المساء فى منزل من منازل أولئك البدو الرحل ؛ كانت تلك الأصوات عبارة عن أصوات المرح المخلّة التى تصدر عن الأطفال ، الذين يدورون حول نيران الحراسة ويغنون عند بيوت الشّعْر . وصلنا فى سكّون ولم نتبع الكلاب . كانت هناك خيمتان أو ثلاث خيام . وعندما رأنا العرب صممت الأصوات كلها : هذه النيران الجميلة ، التى شاهدنا حولها قبل لحظة واحدة ، بعض الرجال ، انطفأت فجأة بإلقاء الرمال عليها . كان عددا يتردد بين ستة وسبعة رجال ، وكان كل واحد منا على ظهر راحلته ، وظن الناس أننا ربما نكون غزوا معاديا . وبعد أن نزلنا عن راحلتنا فى صمت انتحينا جانبا ثم جلسنا على الأرض : ولم يتكلم أى أحد منا مناديا باسم زميله مطلقا ؛ والسبب فى ذلك أن الصحراء الواسعة مليئة بحالات الثأر وإهدار الدماء . وعندما يكون هناك اجتماع غريب من هذا القبيل ، بل وفى مثل هذه الساعة ، فإن البدو الرُّحْل يزداد شكهم وعدم يقينهم فى بعضهم البعض . وأنا عندما كنت أضيق ذرعا بصمتهم ، كنت أقول لهم سلام Salaam ؛ وهنا كانوا يرجونى التزام الصمت والسكّون . وعندما أدرك البدو أننا مسالمون ، تقدم واحد منهم بحذر نحونا ، وألقى علينا السلام قائلا : "سلام Salaam عليك aleyk " وهنا رددنا عليه جميعا السلام قائلين : "عليكم Aleykom السلام es-Salaam " . والبدو عندما يتبادلون السلام بهذه الطريقة تزول من بينهم شكوك الشر والخطر . وهنا اقتاد ذلك الرجل ، الذى اقترب منا ، كلا من عسكر ورفيقه إلى بيته ، فى حين ذهبت أنا ومعنى نصر Nasr إلى بيت آخر ؛ ونصر هذا كان رفيقا لى ، وقد التقيناه سائرا فى الصحراء مع ولده بالقرب من مسمة Misma . وهنا شب البدو من جديد النيران التى كانوا قد أطفأوها .

لم تتمكن من معرفة هوية أولئك الأعراب، ولم يتمكنوا هم أيضا من معرفة هويتنا؛ ولقد عرفنا أن أهل الصحراء لا يسألون الضيف عن هويته إلا بعد أن يفرغ من تناول الطعام ؛ ومع ذلك فإن الأعراب عندما يتبادلون الحديث عن ، المطر خلال العام ، أو عن المرعى ، ربما يتمكنوا من معرفة قبائل بعضهم البعض . وأنا عندما سألت رفيقي الجلف "إلى أى قبيلة ينتمى هؤلاء البدو؟" رد على هامسا ، "إنه لم يعرف ذلك بعد " ؛ وبعد ذلك بفترة وجيزة ، فهمنا من الأصوات التى تناهت إلى مسامعنا أنهم ، فى الخيمة المجاورة قد تعرفوا على عسكر . كان عسكر ولدا من أبناء شيخهم الكبير ؛ وعرفنا أيضا أن أولئك الأعراب كانوا ولد Wélad سليمان Selyman ، وهم بطن من بطون قبيلة البشر ، هذا بالرغم من عدم معرفة الناس هنا لوجوه بعضهم البعض . وبعد أن انتقل مضيفى إلى الخيمة الرئيسية لمعرفة الأخبار ، تركنى مع ربة بيته ، التى شاهدتها وهى تقشر القمح باستعمال مضرب فى قدح من الخشب ، وهذه الطريقة ليست معروفة عند البدو الذين سبق أن تعرفت عليهم فى الجنوب ؛ والناس هنا يقدمون القمح المبشور كوجبة للضيوف . كان الوقت من العام هنا يصادف فصل الشتاء ، فى هذه الصحراء الجرداء ، ولذلك قام البدو بوضع سياج من أعشاب الأدغال الجافة ، حول خيامهم لحمايتهم من الريح والمطر الغزير .

جاءنا بعد ذلك ، رجل من الخيمة الثالثة وتناول معنا الغذاء . وقد اندهشت عندما رأيت ذلك الرجل ، كما اندهش هو أيضا لرؤيتى : كان الرجل واحداً من البدو ، ولكنه كان يضع على رأسه قلنسوة أو إن شئت فقل : طربوش تركى أحمر اللون ، كما كان يرتدى قميصا مقلماً يطلقون عليه اسم "كمباز" kumbaz ، فى بلاد الحدود المتمدنة ؛ وعندما سألت ذلك الرجل عن عمله ، رد على أن "ضعفه" جعله يلتحق بالجندية فى الشام وراح يخدم الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك نظير أجر يتقاضاه بالريالات ؛ ولكنه الآن عاد إلى الحياة البدوية ، ومعه ما يعتبره مبلغا كبيرا من المال . ومع بداية تحسن أحوال ذلك الرجل اشترى لنفسه إبلا ، وماعزا وأغناما ، كما كان على استعداد لشراء ناقتى العجوز ، ويدفع فيها المبلغ الذى حددته أنا ، وهو سبعة ريالات . على أن يقوم بنبحها عتقا لوالده المتوفى .- البدو يعملون بالجندية ، هذه المسألة كانت تشكل لى عالما جديداً ؛ ومع ذلك ، فقد بلغنى فى مرحلة لاحقة ، أن هناك بعضا من البشر

وبعضاً من أفراد قبيلة حرب يعملون ضمن العجيل (فريق النقل) فى المدن الكبيرة . كان البدوى ، الذى رأى فى الغريب حياة المدينة الدمشقية ، يسعد وينشرح صدره ، عندما يرددش طويلاً مع الغريب ، حتى وإن كان ذلك الحديث مقصوراً على ذكر أسماء الأسواق والشوارع فى تلك المدينة الواسعة الشاسعة . أبلغنى ذاك البدوى أنه سوف يحضر ثمن الناقة فى الصباح؛ و أضاف ، أنتنى إذا ما بقيت قليلاً معه فى هذا المكان ، فإنه سيكون على استعداد لإرشادى فى رحلتى إلى حائل ، التى سوف يتعين عليه الذهاب إليها خلال فترة وجيزة . - ولكن عندما نادانى رفيقى فى الصباح وطلب منى الاستعداد للرحيل قبل طلوع الفجر ، لم أتمكن من البقاء مع ذلك البدوى . وعندما التقائى ذلك البدوى ، بعد ذلك فى حائل ، لامنى لأننى لم أنتظره . وسألتنى عن ناقتى ، التى كنت قد بعته بثمن بخس . وقال لى أيضاً ، إنهم عندما وصلنا إليهم فى تلك الليلة ، جهزوا بنادقهم الفتيلية ليفتحوا النار علينا ؛ ولكنهم عندما شاهدوا الجوالات الكبيرة فوق ناقتى ، وبعد أن سمع صوتى ، عرفوا أننى لم أكن واحداً من البدو ، وأنتا لم تكن تشكل نوعاً من أنواع الغزو .

عجلنا المسير فى الصحراء مرة ثانية على أمل العثور على منزل كبير من منازل الأعراب ، يمكن أن نشرب فيه شيئاً من القهوة . والشيوخ الذين تعودوا على خيام القهوة لا يحبون الأيام التى تمر عليهم دون شرب القهوة ، من أيام حياتهم ؛ وسارت الجماعة على هذا الحال ، وهم يدخنون التبغ بلا توقف . وصلنا مع طلوع الفجر ، ونزلنا من فوق راحلتنا ، وقسمنا أنفسنا إلى جماعتين ، وذهب عسكر هو وجماعته إلى خيمة قهوة الشيخ : تلك هى آداب الصحراء ، التى تقضى بعدم وضع الأعباء كلها على أسرة واحدة . كان هؤلاء الناس من الشُّمر ، واستقبلونا بكرمهم المعهود . قدموا لنا تمراً ممتازاً (له مذاق ولون غير مذاق ولون تمر قريتى العلا وتيماء) وضعوه أمامنا ومعه سلطانيه كبيرة من لبن النياق (ذلك الشراب المنعش فى تلك الصحراء القاحلة) . استدعونا بعد ذلك إلى خيمة الشيخ ، حيث قام هو بنفسه بتصليح القهوة ، ووجهه تعلوه ابتسامات النخوة والشهامة . وعندما سمع ذلك الشيخ أننى حكيم ، طلب منى أن أحضر إلى حفيدته المريضة للعلاج . وقلت لأم هذه الحفيدة إننا على سفر ، وأن العلاج الذى سأعطيه لابنتها قد لا يفيدنا كثيراً . وهنا استدار الشيخ إلى رفاقى وقال لهم :

"أننى لابد أن أكون شخصا أميناً . - "رد عليه عسكر : هذا حقيقى ، ويجب أن تثق به فى كل شىء . "ناولنى الشيخ سلطانية الحليب، وبعد أن شربت منها جرعة ، سألنى ، "من أى بلد أكون ؟" ورددت عليه : "أنا إنجليزى" ، وعليه همس فى أذنى قائلاً : "إنجريز ! Engreys - إذن أنت نصرانى ؟" وهنا قلت له بصوت عالٍ : "إى ، بالله !" وهنا ابتسم لى الشيخ من جديد ، وقال فى نفسه ، "لن أخونك . - "وبعد أن انتهى من تصليح القهوة ، صب لى أنا فنجالاً ، قبل أى واحد من الباقين . وبعد أن شرب رفاقى الفنجال الثانى ، نهضوا واقفين استعجالاً للرحيل : طلب الشيخ منى الانتظار بعض الشىء ، كى أشرب المزيد من حليبه الطيب واستعيد فى داخلى بواعث القوة .

واصلنا مسيرنا شرقاً فى تلك الصحراء الجرداء ، مخلفين وراءنا منطقة المسمة Mism ، ونرى عن يميننا بعض العلامات الأرضية الجبلية المعروفة الدالة على ذلك المسقى الكبير الذى يطلقون عليه اسم بيثة Baitha النثيل Nethil . وربما نكون قد واصلنا مسيرنا راكبين من خرام kharram إلى مدينة حائل فى الجهة الشرقية من جبل أجا Aja (*)؛ ولكن المرافقين لى كانوا يظنون أن ذلك المكان خالٍ من البدو المترحلين . هذا السهل الواسع المرتفع ، - الذى يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ٢٨٠٠ قدم ، تنتشر فيه الأصداق كما لو كان مكوناً من أحجار الحديد ؛ ولكن قبيل الظهيرة اكتشفت أننا كنا فى منطقة من أحجار الجرانيت ، ومررنا من تحت جبل صغير من البازلت اللامع ، أسود اللون . كانت القمم الصخرية البارزة من تلك التربة رمادية اللون مثل الجرانيت ؛ هذا هو جبل إبران Ibran الذى يميل لونه إلى السواد ، نراه بعيداً عند الأفق ، على بعد مسير ساعات عدة من هنا ، ويمتد فى اتجاه الشمال . وبعد فترة وجيزة دخلنا فى رمال النفود ، حيث شاهدنا فيها العلف البرى ، وهنا نزل البدو عن دوابهم ليجمعوا شيئاً من ذلك العلف . كان الهدف من ذلك هو إطعام المواشى إلى أن يستعدوا لدخول حائل ؛ هذه المنطقة المجاورة لحائل ويطلقون عليها اسم المحال Máhal ، عبارة عن تربة جرداء ولا تقل كثيراً عن المنطقة المجاورة لقرية تيماء . مسألة جمع العلف هذه لا تليق بشيخ من الشيوخ الكبار ؛ وبينما كانت بقية

(*) أجا : أحد جبلين يتكون منهما جبل شمر ومذان الجبلان هما أجا وسلمى . (المراجع)

الجماعة مشغولة في جمع العلف ، كان عسكر يحفر بيديه في الرمل ، لكي يختبر العمق الذي تقع عنده مياه المطر ؛ وهذا العمل هو أهم الأعمال التي يقوم بها البدو لحين مجيء فصل الخريف التالي ؛ كما أن هذا الماء هو الذي يساعد على نمو الأعشاب الجديدة . كانت الأمطار قد سقطت غزيرة على تلك المنطقة طوال ستة عشر يوما ؛ ومع ذلك لم نشاهد في تربة هذه الصحراء الجرداء أية بادرة من بادرات النباتات الجديدة . وعندما وصل عمق الحفر إلى ما يقرب من ذراع واحدة ، تناول عسكر شيئا من التربة الجافة ؛ هذا يعني أن رطوبة المطر لم تصل إلى عمق ياردة واحدة ؛ هذا يعني أيضا أن الأمطار الموسمية تعد مسألة جزئية أو فرعية في الجزيرة العربية ، التي تعد هذه المنطقة منها ، واحدة من المناطق التي لا تسقط عليها الأمطار . فبينما سقطت الأمطار في منطقة خُرام ، نجد أنها لم تسقط على منطقة جهينة ؛ ولم تسقط على خيبر سوى أمطار قليلة جداً ، وخيبر تبعد عن هذه المنطقة حوالي مائة ميل ، الأمر الذي جعل هذه المنطقة لا تعرف الربيع في تلك الجبال البركانية في ذلك العام .

بعد أن قطعنا مسافة قصيرة في صحراء النقود ، شاهدنا قطعاً من الإبل يتحرك أمامنا في المرعى ، وأفراده متفرقين هنا وهناك ؛ ومن خلف ذلك القطيع شاهدنا خيام البدو منصوبة في تجويف من تجاويف الأرض المحيطة بهم . والبدو ، عندما يخيمون في مجموعات صغيرة ، يختارون أو ينتقون المناطق المنخفضة ، حيث يكونون في مأمن من غوائل الطقس ، يضاف إلى ذلك أن البيوت يصعب تمييزها في ضوء النهار عندما تقام في مثل هذه المنخفضات ، إضافة إلى أن النيران التي يشبها هؤلاء البدو في المساء ، يصعب أيضاً تمييزها أثناء الليل في تلك المناطق المنخفضة . هؤلاء البدو ، هم أيضاً من الشُّمر ؛ لأن هذه القبيلة تحتل المنطقة التي تمتد من أمامنا هنا إلى أن تصل إلى قرى الجبل Jebel - هؤلاء البدو كانوا منتشرين على شكل عائلات ، كما لو كانوا يعيشون في بلد آمن داخل ممتلكات الأمير . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو كانت تحيط بهم أبار المياه من كل جانب . جحافل أسراب الذباب في هذه المنطقة الرملية كانت تشير إلى أننا في مستوطنات النخيل . كنا كلما وصلنا خيمة من الخيام ، نجد الأعراب يسألونا على الفور ، ويفضول شديد : "ماذا عن المطر ؟ هل سقط الغزير منه على ديرة العوَّاجي؟" وكان رفاقي يجيبونهم إجابة واحدة قائلين "لا لا تنشد tanshud" ،

بمعنى "لا تسألوا عن مسألة المطر هذه". وعندما كان أحد يسألهم ، "من هو ذلك الشخص الذى أحضره معهم؟" كان العوَّاجى يردون عليهم ، بإجابة لم أفهم معناها ، إذ كانوا يقولون لهم : "الخير El-kheyr الله Ullah". "كان شيخ هذه المنطقة على استعداد لشراء ناقتى ، وأعرب عن استعداده لتوصيلى بعد ذلك إلى حائل بعد أيام قلائل أنزل خلالها ضيفا عليه .

خطر ببالي تفضية الليل فى هذه المنطقة ؛ ولكن رفاقى بعد تناول العشاء ركبوا إبلهم وبدعوا يجرون من جديد ومعهم رفيقى نصر ؛ هذا يعنى أنهم لم يتوقفوا ولو للحظة واحدة حتى أبيع الناقة . - وهنا أثرت الرحيل مع أولئك الذين أعرفهم ، وبالتالى أكون واثقا من الوصول إلى حائل ، على البقاء فى خيام بدو لا أعرفهم ولا يعرفونى ؛ يضاف إلى ذلك ، أننا علمنا خبر وجود مخيم شمري كبير على بعد مسافة قصيرة ، فضلا عن وجود شيخ من شيوخ القهوة . وعد عسكر بتسليمى إلى أولئك الأعراب ، إذا ما استطاع إقناع رفيقى بالبقاء معى . لقد أتعبنى وهدى ذلك التنقل المتعب على ظهور الإبل ؛ إذ كان قلبى يقفز إلى حلقى فى معظم الأحيان ، وهذا هو ما يطلقون عليه هنا اسم "قطو القلب el-kalb" أو إن شئت فقل : "قطع القلب" . كانوا يسبقونى طوال ساعات اليوم ، وهم يستحثون إبلهم على السير ، إلى حد أننى كنت أرى أن الموت - فى حال عدم توفر النية الحسنة - هو الخلاص الوحيد من كل تلك الآلام التى أكابدها . كان الأعراب ينصبون خيامهم فى الجبل المجاور ؛ ولكننا بعد أن أمضينا ساعتين فى المسير أثناء الليل ، وعندما لم نشاهد آثار النيران التى يشبها أولئك الأعراب ، خطر ببالنا أن بدو العوَّاجى ، على حد قولهم ، ربما يكونون قد بدعوا الرحيل أثناء الليل ، حتى يصلوا إلى حائل فى ساعة مبكرة. هذا يعنى أنهم لابد وأن يكونوا قد تخلوا عني، وبالتالى لم أتمكن من المضى قدما فى ترحالى ، بل إن ناقتى كادت تموت من تحتى ؛ وبالتدريج راح عسكر الذى كان يغالبه النوم ، يتمتم لرفاقه قائلا : "هيا بنا نزل عن دوابنا وننال قسطا من النوم". وهنا أبصرنا عن بعد نارا من نيران الحراسة فى الجانب الأيمن ، تلك النار كانت مستورة عنا بفعل انحناء فى سطح الأرض ؛ ولكن الجماعة لم تلق بالآ لتلك النار ، نظرا لحلاوة النوم فى تلك اللحظة ؛ نزلنا عن إبلنا ، وربطناها من أرجلها ، ورقدنا ، إلى جوارها ، لننال قسطا من الراحة فى تلك الصحراء .

بعد أن سرنا فى الصباح مدة تقل عن ساعة من الزمن ، وعند شروق الشمس ، شاهدنا عددا كبيرا من الخيام السوداء ضمن مخيم من مخيمات البدو ، ذلك المخيم الذى وعد بدو العواجى بأن نحصل فيه على قسط من الراحة : ولكنهم كانوا فور الانتهاء من شرب القهوة ، ويعد أن يأكلوا شيئا من تمر الشمر ، يبادرون إلى ركوب إبلهم من جديد . من هنا أرى أن الوعود التى يقطعها البدو على أنفسهم تذهب أدراج الرياح ؛ يضاف إلى ذلك أن رفيقى ، ذلك الجلف ، لم يكن يعير كلامى انتباها ، إضافة إلى أن عسكر نفسه لم يستطع إقناعه بذلك : قال عسكر : "والله ، أنا ليس لى عليه أية سلطة" ؛ وصاح نصر قائلا: "يا خليل ، عليك أن تختار بين البقاء هنا أو الركوب معنا ؛ ولكنى سوف أذهب ضمن جماعتى . لم يكن أمامى ، سوى الانضمام إلى ذلك السباق معهم ؟ وهذا بحد ذاته يسبب لى ألما ، إضافة إلى أن ناقتى كانت على وشك الانهيار من تحتى . أثناء مضيئنا قدما ، قال عسكر : واضح أن خليل لن يصمد معنا ؛ هل بوسعك العودة مرة ثانية إلى المخيم يا خليل ؟ ولا تظن أنهم سوف يرفضون استقبالك." - "كيف يستقبلونى ؟ لقد كذبتهم فى القهوة ، وقتلتهم لهم إنكم لستم من بدو العواجى ، إضافة إلى أنكم لم تزكونى عندهم : وماذا يمكن أن يحدث لو علموا أنى نصرانى ؟ يضاف إلى ذلك ، أن هذا النصر ، الذى هو رفيقى ، يتخلى عنى!" - قالوا: إننا سوف نصل اليوم إلى مستوطنة من المستوطنات ، وسوف نترك فيها . "كنا قد نسينا أن نشرب عندما كنا فى المخيم ، وواصلنا سيرنا ونحن عطشانين ، وازدادت حرارة الشمس ، وضاع أملنا فى العثور على أية بركة من برك الأمطار فى تلك الصحراء القاحلة . بعد ذلك ، وعندما شاهد أفراد الجماعة وميضاً صغيراً تحت الشمس وعلى مسافة بعيدة ، بدوا يسرعون الخطى فى اتجاه ذلك الوميض ،- ولكن اتضح أن ذلك الوميض كان عبارة عن قاع من الصلصال اللامع البراق ، وفى وسطه ، حفرة ضحلة ، تحاشيناها جميعاً . كان ارتفاع هذا السهل يقدر بحوالى ٣٧٠٠ قدم ، وقد بدا لنا وكأنه يمتد من أمامنا فى اتجاه جبل أجأ Ajja ، الذى بدأ يظهر من أمامنا كما لو كان جانباً هائلاً من جبل جرانيتى كبير ليس شديد الارتفاع ، ويمتد ناحية الشمال وناحية الجنوب أيضاً. التربة هنا عبارة عن رمال جرانيتية، وأحجار مستديرة ، وصخور جرانيتية متحللة . وقبل الظهر بساعتين ، تجاوزنا أنقاض "هجرة" hamlet

بجوار أحد الآبار التي هجرها أهلها قبل خمس سنوات . قال عسكر : "نفقت الماشية بعد سنوات عدة من الجفاف ، الذي ترتب عليه انعدام المرعى فى هذا المكان ، كما مات أهل هذا المكان ، وكانوا قلة قليلة من الناس ، من مضاعفات مرض الجدرى ،" - وهذه واحدة من الكوارث والمصائب العديدة التى تحدث لتلك المستوطنات النائية والمنعزلة ، فى الجزيرة العربية . وعندما سألتهم عن اسم هذا المكان ، قالوا لى بعد فترة وجيزة : اسمه "ملعون Melūn طالبوّه Talibuhu " ، ومبلغ علمى أن هذا الاسم يعنى "ملعون كل من يسأل عن هذا المكان " .

عثرنا على بركة من ماء المطر الرائق فى الصخر ، وقد سخن ماء تلك البركة بفعل حرارة الشمس ، ومع ذلك كان طعمه أحلى فى أفواهنا من طعم الحليب . وروينا ظمأنا من تلك البركة ، واقتدنا دوابنا للشرب منها ، بعد أن قطعت مسافة مائة وثلاثين ميلا دون مرعى أو ماء ، وذلك بدءا من تحركنا من منطقة خرّام . ركبنا راحلتنا ، وراح بعض من رفاق عسكر السابقين يجمعون قليلا من العشب الجاف، وهنا قال لى عسكر: "يا خليل ، الناس الذين نحن بصدد الذهاب إليهم من النوع الحسود . لا تهينى لهم فرصة مشاهدتك وأنت تكتب أو تنون ، وتأكد أنهم لن يأخذون ذلك على محمل حسن ! وإذا كان لابد من الكتابة ، فحاول أن تكتب بطريقة مستترة ، عليك أن تخفى أوراق الكتابة هذه . وبذلك تكون بصحبة البدو . وأن البدو يعرفون حقيقتك ؛ ولكن ، هل سمعت ووعيت ما قلته لك ؟ هؤلاء البدو ليسوا طبيى السرائر أو حسنى النية ، وبخاصة فى القرى البعيدة !" سرنا مدة ساعة ثانية أو ساعتين وبدأت تطالعنا قمم النخيل الخضراء ، أسفل الجبل ، فى قرية صغيرة ، قالوا لى إنها حوالى خمس أو ست عائلات ، وأن اسم هذه القرية هو "الجيفة" Jefeyfa . وفى اتجاه الشمال شاهدت جبل طالى Tály ، ذلك الجبل الجرانيتى الفريد الذى يقع عند أفق تلك الصحراء . كانت جماعتى ، التى كانت تسبقنى دوما بمسافة كبيرة ، قد اختفت عن بصرى تماما . تركتهم وشأنهم ، لم يكن بوسعى مسايرتهم أو مجاراتهم فى السير ، ولم يكن يراودنى أى شك ، فى أننى سوف أصل إلى المناطق المأهولة بالسكان عن طريق تلك العلامات الأرضية المعروفة . فى هذه المنطقة نزلت إلى مدق مطروق - - هذا المدق تكوّن فى تربة الصحراء الصلبة ، وبالقرب من المستوطنات التى تقع على الطرق العامة ، بفعل حركة

أجيال كثيرة من البدو الرحل. فى هذا المدق نزلت عن ناقتى ورحت أمشى على قدمائى ، خلف ناقتى التى كانت بطيئة الخطى بسبب الإعياء الشديد الذى أصابها ، وواصلت السير إلى أن وقع بصرى على أعراف النخيل ، وعلى خطوط المزارع الخضراء فى قرية مجوج Mogug . وفى النهاية أبصرت نصراً قادماً من بعيد لملاقائى . ومع بداية دخولى إلى ذلك المكان سقطت ناقتى على الأرض ، الأمر الذى عطلنا وأخرنا بعض الشيء ؛ ولكن نصر رفع الناقة ، وراح يقودها بقسوة عن طريق الضرب ، ودخلنا قرية مجوج Mogug بعد دخول وقت الظهر بساعة ونصف الساعة .

دهشت عندما وجدت أن القرية مليئة بالأنقاض ، وأن الكثير من نخيلها كان ميتاً وجافاً ، إلى أن عرفت أن قرية مجوج Mogug (ويصح فيها أيضاً "مكوك" Mokouk) قد دمرت بفعل الطاعون منذ سنوات قليلة . بناء مساكن هذه القرية ليس من قبيل المبانى المقامة من الطوب اللبن التى شاهدناها فى قرية تيماء ، ولكنها هنا عبارة عن جدران مبنية على شكل طبقات من الطين ، المحشى بطوب مجقف فى الشمس ؛ والتربة فى هذه القرية من النوع الجرانيتى . وقد ذكرنى الشكل المتداعى لهذه القرية ببعض الواحات التى سبق أن رأيتها فى الصحراء الجزائرية . والماء الجوفى فى هذه التربة من النوع الدافئ ، كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وطعم الماء هنا غير مستساغ ؛ والموقع هنا يوحى بالمرض ، والتصور فى هذه المنطقة عليها قشور ، وجافة وليست جيدة الطعم . اتجهنا صوب قهوة الشيخ ، التى كان رفاقى قد سبقونى إليها ، والتقىنا ذلك الشيخ الطيب الذى هم واقفاً لمقابلتى . وأخذنى الرجل من يدى ، وطلب من خادمه أن يقدم علفاً أخضراً لإبلنا . وبعد أن جلسنا فى المقهى دخل علينا كثير من القرويين ، الذين تدل وجوههم على أنهم ربما كانوا عسكرياً من قبل ، وراحوا ينظرون إلى نظرة فيها شيء من التفضيل والتبجيل . وبعد أن أصبح كل شيء على ما يرام، عرضت على الشيخ النزاع الذى دار بينى وبين نصر ، وأيدنى عسكر فيما قلت ، إذ وافق على أن ناقتى لم تكن تقوى على المضى قدماً بسبب بطئها وضعفها .

الأدهى من ذلك أنهم يودون حالياً ركوب راحلاتهم ، ومواصلة المسير أثناء الليل على أمل الوصول إلى حائل قبل طلوع النهار . "قال نصر : إنه سوف يرافقهم ، وأننى إذا لم أكن قادراً على مرافقتهم فسوف يتخلى عنى ويتركنى فى هذا المكان . " وقضى

شيخ المجوج بأنه طالما كانت الناقة عاجزة عن مسابرة بقية النياق في السير ، فإن نصر ، الذي حصل على أجره نظير مرافقته لي ، يتعين عليه البقاء معي ، أو ترك جزء من أجره يسمح باستئجار رجل آخر يقوم بمرافقتي إلى حائل ، وهنا يصبح من حق نصر الانصراف ومرافقة بقية الجماعة. هذا الجلف ، بعد أن سمع الحكم الذي قضى به الشيخ ، أثر البقاء معي ، مخافة أن يدفع ولو قرش واحد من المبلغ الذي حصل عليه . وهنا نهض عسكر هو وجماعته ، بعد أن فرغوا من أكل التمر وشرب الماء ، ليركبوا إبلهم مواصلين مسيرهم إلى حائل ، هذا الطريق الطويل من خُرام ، قطعوه وهم يجرون ، ولم يحملوا معهم طعاما أو ماء ، أو قهوة ؛ كانوا يعلقون آمالهم على أمل العثور على الأعراب في كل الأيام وعلى امتدادها ، وهم في طريقهم إلى حائل . كان أفراد الجماعة كلهم من الشباب الذي يجري في عروقه دم الشباب ، وقاموا بهذه الرحلة وهم يتفاخرون بقدرتهم على التحمل والجلد . سألت عسكر عن الأسباب التي تدفعهم إلى مثل هذه العجلة ، وعن السبب الذي يمنعهم من أخذ قسط قليل من الراحة في أي مكان من الأماكن . أجابني : "السبب هو رغبتنا في العودة إلى ديرتنا على وجه السرعة ؛ إضافة إلى بقائنا لفترات طويلة في المنازل الموجودة ، على طريقنا ، يعد أمراً معيباً (Ayb) وغير مرغوب فيه . " وبعد أن أنصرفوا وتركوني أنا ونصر وراءهم ، سارع القرويون الذين كانوا يجلسون في القهوة - وكانوا من الشمر - إلى توجيه اللوم إلى هؤلاء الرفاق ووصفهم بأنهم عنوز (أي من قبيلة العنزي) . ! هذه الأحقاد الضيقة كانت تلاحقني في معظم الأحيان . نظرا لأنني كنت أتجول ، بلا محابة ، خلال الجزيرة العربية الشاسعة .

شاهدت أول ما شاهدت في هذه المنطقة السلع البغدادية ، التي جرى جلبها من السوق في مدينة حائل ؛ أهل قرية مجوج ، ليسوا ممن يشعلون غلايينهم باستعمال الزناد ، وإنما باستعمال "الزند هولزر" Zundholzer الفيني Vienna المعروف في كل أنحاء العالم ، - هذا يعني أننا أصبحنا على صلة بالعالم من جديد ؛ صالات القهوة عند أهل مجوج ، كانت صالات معتمدة وريثة البناء ، فضلا عن إنها كانت أقل كرما وضيافة عن غيرها من المقاهي التي في المناطق الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أرضية المقاهي الطينية كانت مغطاة في بعض مناطقها بنوى التمر ، الناتج عن الخدمة اليومية

التي يجرى خلالها تقديم التمر للضيوف كل يوم . كان القرويون فى مجوج أصحاب نكتة لطيفة : وكانوا يحسون بسعادة عندما يتحدثون مع الغريب ، وذلك فى ضوء معرفتهم القليلة بالبلدان الأجنبية والأديان الأجنبية : كان أهل مجوج يشعرون بالحزن والألم نظرا لأن الوثنيين ما زالوا يقاومون الحقيقة ، وبخاصة النصارى منهم ، الذين كانوا يشكلون منبعاً من منابع الفنون والعلم . كانوا يقدمون لى ، بين الحين والآخر ، غلايينهم رمزاً للسلام . عرفت أن النكهة المرة التي لتبغهم الأخضر ، بعد هذا التعب الشديد الذى أصابنى ، كانت لها حلاوة لا مثيل لها ، يضاف إلى ذلك أننى شعرت بارتياح شديد مع تلك الأصوات المتمدنة ، وذلك من بعد الحقد والكراهية الشديدة التي يلمسها الإنسان فى ألسنة بدو البشر . سألتنى واحد منهم . "هل أستطيع القراءة؟" - وهل لدى أى نوع من الكتب؟" كان ذلك الرجل من أهل مجوج ، بل إنه كان فى مقام الناظر بالنسبة لهم . وهنا وضعت فى يدى ذلك الموججى كتاباً جغرافياً ، ألفه باللغة العربية ، واحد من المبشرين الأمريكيين المتعلمين والموجودين فى بيروت . وراح ذلك الشاب يطيل النظر إلى ذلك الكتاب فى غرفة مظلمة ، على نحو يوضح مدى تعطش مثل هذا الإنسان إلى معرفة القراءة والكتابة ، كما لو كان فى أرض أثمرت الكثير من مجالات العلم الكبيرة : أخيراً لم يغلق ذلك الرجل الكتاب ، إلا عندما بدأت الشمس فى الغروب ، ولم يكتفى ذلك الرجل بغلق الكتاب ، وإنما وضعه على رأسه ليوضح بذلك مدى تقديره وإجلاله للعلم ، - تلك كانت إشارة شرقية ، لم تتكرر ولم أرها مرة ثانية فى الجزيرة العربية ، حيث لا يوجد سوى القليل (أو لا شئ على الإطلاق) من "الاستشراق" Orientalism . سألتنى الرجل ، "هل أسمح له بشراء الكتاب؟" - (ونظرا لأننى رفضت بيع الكتاب) هل يمكن له أن يستعير الكتاب ويذهب به إلى بيته ليقرأه وينهيه أثناء الليل؟" ووافقته على ذلك .

أدخل القهوة علينا رجل طويل ، واكتشفت أنه غريب من أهل الشمال ، وله مشية توحى بالتباهى ، ويلبس ثياباً جيدة . وحيا ذلك الرجل الجماعة تحية باردة ، ثم جلس بيننا : جاء هذا الرجل إلينا من قفار Gofar التي كان قد وصل إليها فى صباح ذلك اليوم . قدموا له التمر ، وعندما نظر إلى من حوله ، تذكر من بين الجالسين واحداً أو اثنين ، سبق له أن تقابل معهما فى سنوات سابقة ، وحياهما ، ثم نهض من مكانه ،

وقبلهما وسألتهما عن أحوالهما . كان ذلك الرجل شمرًا من أهل العراق ؛ كانت ديرة الشمرى تبعد عن هنا مسافة ٢٥٠ ميلاً . أطال ذلك الرجل النظر إلى شىء من الحسد والغيرة ، بينما كنت أطرح غترتى إلى الخلف بسبب الحر ، ثم تساءل : "من يكون ؟ - إخ ! تقول ، نصرانى ! لقد عرفت ذلك : هذا واحد منهم ، يا أيها الناس ! واحد لديه مشروع خطير ، وأنتم لا تستطيعون أن تتبينوا ذلك المشروع ؛ هذا الرجل من الأمة الافرنجية !" ورددت عليه قائلاً : "كل الحاضرين هنا يعرفون أنى إنجليزى ، وهل ينبغى أن أخجل أو أشعر بالخزى من جراء ذلك ؟ أى رجل أنت ، ولماذا جئت إلى هذه المنطقة ؟" - "أنا قادم إلى حائل لأمر يتعلق بالأمير ! - قال : والله ، ثم استدار إلى الجماعة ، لا يمكن لهذا الرجل إلا أن يكون جاسوسا ، واحد من أولئك الذين يحضرون إلى هنا لكشف أمور هذه البلاد والتجسس عليها ! خبرونى بما جاعكم عن هذا الرجل ؛ خبرونى إن كان يسأل الأعراب ، ثم يدون ما يقولون ؟" - قال أحد القرويين : "قبل عدة سنوات ، جاء واحد إلى هنا ، كان غريباً ، ولكنه كان يتسمى باسم مسلم ، ويمكن أن يظن أنه كان رجلاً مثل خليل ، وأن ذلك الرجل كان يدون كل ذلك الذى كان يسأل الأعراب عنه ."

جلس القرويون دون أن يعيروا كلام نصر اهتماماً كبيراً (كان اسم ذلك الرجل أيضاً "نصر") ، نظراً لأنهم لم يعجبهم كلام ذلك الرجل الشمالى المتعالى ، ولا نظراته التى توحى بالكبر ، يضاف إلى ذلك أن أولئك القرويين كانوا مقتنعين بى تمام الاقتناع . ورد الشيخ على ذلك النصر قائلاً : "إذا كان هناك أى لبس فيما يتعلق بخليل ، فهو ذاهب إلى حائل ، وعندها سينظر الأمير فى الأمر . " وعندما أدرك نصر أن الجماعة كلها كانت ضده ولا تؤيده ، راح يتنازل عن نظراته العدائية وبدأ يتحدث معى بطريقة ودية . وعند حلول المساء دعونا للذهاب إلى بيت من بيوت القرية ؛ ووضعوا أمامنا عشاءً كبيراً ، عبارة عن لحم ضأن مسلوق ومعه التمن (نوع من الأرز) ، وتناولنا الطعام سوياً .

أبلغنى نصر أن الخيول الشمالية متوفرة فى ديرته ؛ كما قال : إن لديه خمسة أفراس ، بالرغم من أنه ليس واحداً من الشيوخ ، وقال إن لديه عدداً كبيراً من الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن صحرائهم لا تشبه هذه الديار الجنوبية الجوانية ، وإنما هى مليئة

بنعم الله. ولما رأى لباسى باليا وممزقا - فأننا أحيا حياة الصحراء هذه منذ مدة طويلة - نصحتني بارتداء ملابس أفضل من ملابسى هذه ، عندما أمثل أمام الأمير فى حائل ، كما نصحتني أيضا أن أكون حريصاً تماماً فى عدم إعطاء أى سبب ، حتى ولو كان مجرد كلمة ، تُفهمُ بطريق الخطأ ، من قبل أولئك الناس المتشددى العنيدى ، سرعى الغضب ، ولا يالفون رؤية الغرب أو يرتاحون لها [وهذا هو ممكن الصعوبة فى الترحال فى الجزيرة العربية] . وهنا سمعت ولأول مرة فى نجد "التنوين" فى نهاية الأسماء حيث ينطقونها كما لو كانت نكرة ، وهذا يبدو كما لو كان حلالة مستترة فى اللغة العربية، ولهذا النطق مذاق خاص ولكنه أمر طبيعى عند هؤلاء الناس. أطبق علينا المساء شديد الحرارة بعاصفة من البرد والمطر؛ كانت تلك الأيام تصادف الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر . وقرية مجوج الصغيرة هذه لا يزيد عدد سكانها عن ١٥٠ نسمة .

بقينا فى الصباح فى تلك القهوة انتظارا لشرب القهوة ؛ ثم سرنا مسافة نصف ميل من السهل ، المكون من صخور جرانيتية زرقاء وحمراء اللون ، لنصل بعد ذلك إلى الأجانب المنحدرة من جبل أجأ Ajja ، وشاهدت أمامنا مجازا (ممر) فى شق مُوصل إلى منتصف الجبل ، طوله حوالى ثمانية عشر ميلاً طويلاً ويؤدى إلى السهل الموجود فى الخلف ؛ والناس يطلقون هنا على هذا الممر اسم "ريع Rīa السلف es-self". هذا الممر منحدر ووعر فى بدايته ؛ وعند حوالى الساعة التاسعة مررنا بعين من عيون الماء البارد ، التى كانت تنبع من صخرة فوقها ! - ولم أرى مثيلا لتلك العين بعد ذلك فى الجزيرة العربية الخالية من الماء . ملأنا قريبتنا من تلك العين ، وتجرد العرب من ملابسهم وراحوا يستحمون فى مياه تلك العين ؛ - هؤلاء البدو الرحل ، عندما تنتهى لهم فرصة العثور على الماء ، تراهم يندفعون إليه مثل العصافير . وعلى مقربة من تلك العين يرى الرائي أساسا جدرانيا لسد من السدود القديمة ، كما يوجد أيضا بعض النخيل فى خليج جبلى ؛ هذا النخيل مملوك للبدو لكنهم لا يهتمون به أو يقومون على أمره ؛ يبدو أن ذلك النخيل كان يحظى فى الماضى ، بشيء من الرعاية . كان ارتفاع ذلك الريع Rīa فى أعلى أجزائه يصل إلى حوالى ٥١٠٠ قدم .

انضم ، فى السهل، إلى جماعتنا بدوى مسكين، جاعا راكبا حمارا، وراح يرافقت فى السير ، وانشرح صدره عندما قدمت له حفنة من تمر تيماء ليخرج بها صيامه ،

أو إن شئت فقل : ليفطر بها . وبعد ذلك ، وعند منعطف فى الصخر ، التقينا ثلاثة من رجال الشمر نوى الملامح غير المريحة ، جاؤا إلينا على عجل وفى أيديهم السلاح . بقى هؤلاء الناس معنا ؛ وبينما وقفنا معهم ، كما هى عادة العرب ، لسماع وتبادل الأخبار ، نظروا إلى نظرة عداة . وعندما فهموا ، وربما كان ذلك من بعض رفاق عسكر الحاقدين، أن النصرانى جاء ليمر اليوم من خلال ذلك الريع Rifa ، خطر ببالهم ، أو عن لهم الاعتداء على . وعندما تأكدوا أنهم أصبحوا إلى جوارنا تماما ، قالوا لراكب الحمار ، الذى كان ينتمى إلى قبيلتهم : "ارجع أنت ، واتركنا نحن نقتله !" وكشروا عن أنيابهم تكشيرا شديدا ، ثم تجاوزونا . (قال عسكر) هل رأيت ما حدث يا خليل ؟ - وهذا هو ما قتله لك من قبل ، هذا هو خطر السفر منفردا خلال هذا الجزء من البلاد ! هؤلاء هم الشمر الملاحين ، ولو كنا لوحدها لهجومك واعتدوا عليك . - الله يلعن الشمر! - ألم نحظى بكرمهم فى الأيام الأخيرة؟ - "حسن" أقول لك إنهم طيبون وكرماء مع الضيف فى بيوتهم ، ولكنهم إذا ما التقوا رجلا منفردا ، أو "خلوى" Kh'luy (فى الخلاء) على حد قولهم ، وتأكدوا من عدم وجود أحد إلى جواره ، فإنهم يبادرون إلى قتله ! وهؤلاء الذين شاهدناهم كانوا من هؤلاء القتلة ، إنهم شذاب الأفاق والصخور ، يقتلون كل من يجونه مجردا من الدفاع .

السلام الوحيد عند الأمير ، والحب لا يسود بين البشر والشمر . ومنذ سنوات قلائل ، أدى النزاع المرير على حقوق استعمال الماء فى مسقى رئيسى من مساقى الصحراء ، هو مسقى بيثة Baitha النيل Nethil ، أدى إلى حدوث الفرقة بين هذين الجارين ، هذا المسقى ، بيثة النيل ، يوجد داخل حدود قبيلة بشر ، التى لم تطلق مجىء الشمر للسقى من ذلك المكان، وكان الأمير طلال يساند البشر فى موقفهم هذا . وقد كان ذلك السبب وراء تخليهم عن ديارهم والهجرة صوب الشمال ، وراحوا يتجولون فى صحراء أقاربهم العنوز فى سوريا ، وبقوا هناك عامين أو ثلاثة أعوام : ولكن كثيرا من الأعداء الغزاة كانوا يسطون على إبلهم ومواشيهم ، نظرا لأنهم كانوا وافدين جدد على المنطقة ؛ - وعاد البشر إلى ديارهم وإلى الأمير .

- فى منتصف ذلك الريع ينحسر الجبل الجرانيتى من الناحية الشمالية ، وهناك أقبية منخفضة من البازلت ، وهذه الأقبية تشبه قمم البراكين . فى هذه المنطقة سمعنا

خلفنا أصوات ركض وجرى ، كما سمعنا وقع أقدام الإبل على الصخور ! كان ذلك الصوت صادرا عن قطيع من "الأجلاب" Ajlab ، أو إن شئت فقل : الإبل "المشتراة" ، أو بمعنى آخر قطيع من الإبل مملوك لواحد من تجار أو سماسرة الإبل . كان حداة ذلك القطيع متوجهين به لبيعه في "جبل شمّر" . كان أولئك الحداة من البشر ، ولذلك انتهت مخاوفنا وزالت عندما أصبحنا فى صحبتهم . نادانى واحد من أولئك الحداة ، "أليس معك شيئا من الكعك (البسكويت الدمشقى) لتعطينى إياه ؟ وكنت طوال ذلك اليوم لم أتناول أى شىء من الزاد . " كان الوقت فى أواخر فترة العصر عندما بدأنا التحرك من جديد ، وعندما رحت أنظر إلى سهل قفار فى الأسفل ، وجدت أن اخضرار الواحة وبخاصة نخيلها أصبح أمامنا وعلى مقربة منا . كانت الشمس تغرب ، وأرأى نصر الجبل البازلتى ذى القرنين ، الذى يطلقون عليه اسم سُمرة سميراء حائل ! وهذا الجبل يقع إلى الخلف قليلا من عاصمة القرية، فى اتجاه الشمال . وكلمة قفار Gofar ، التى يكتبونها "كفار" Kafar ، والتى ينطقها البدو الرُّحْل "جيفَّار" Jiffar ، شأنها شأن قرية مجوج يحيط بها سور بستانى من الناحية الصحراوية . وفى السهل الذى يقع أمام تلك القرية وجدت أن الارتفاع يصل إلى حوالى ٤٢٠٠ قدم . ودخلنا من خلال طريق إلى ممر خالٍ ، بين جدران عالية ، ولم نر أى إنسان خلال ذلك الممر ، كما لم نر أيضا أية بيوت فى ذلك الممر . كان الوقت يصانف غروب الشمس ، وهو الوقت الذى يعود القرويون فيه لتناول عشايتهم . لم تلتقى أحداً سوى امرأة واحدة فى ذلك المكان ، - كرهت أنقسنا النظر إليها ! نظرا لأن وجه هذه الأنثى كان مغطى بالحجاب ! هذا الحجاب فى رأينا هو شكل من أشكال السفالة الوثنية الآسيوية ! وهكذا نجد أن أفراد السلالة العربية اللطيفة يتحولون ، فى موضوع الحريم ، إلى أجلاف . - واعتبارا من قرية قفار Kafar ، تتحول وجوه النساء ، التى خلقها الله ، لتسر أنظار العالم الإنسانى وتشرح صدره ، إلى ذلك الشكل المرعب الغيور ! يضاف إلى ذلك ، أن أحداً لا يرى أى شىء من زوجات الرجال فى هذا المكان، وبخاصة أنهن يرتدين ملابس مؤسفة ، لا يرى أحد منها سوى أيديهن ! نزلنا من فوق إبلنا بجوار مسجد فى منطقة يطلقون عليها اسم "المناخ" Munākh ، أو إن شئت فقل : مكان تبريك إبل الغرباء ، ويجرى فى ذلك المكان نزول الغرباء عن نوابهم واستقبالهم بعد ذلك لتناول العشاء : ومسئولية الكرم

الشعبي [التي تعد مشاعا بين الجميع] هنا تعد مسؤولية كبيرة ، نظراً لأن الأعراف العربية تقضى برحيل عابري السبيل في فترة العصر ، كما أن هؤلاء الذين يفدون من حائل قاصدين الجنوب يتجاوزون تلك المرحلة القصيرة ، ليقضوا الليل في قرية قفار .

دعينا مع حداة الإبل لتناول العشاء معهم المكون من التمر والماء ، والمعروف أن التمر مهما كانت نوعيته ، لا يقدم للغرباء في وجبه العشاء . وقدم لنا صاحب هذا العشاء اعتذاره عن تقديم التمر نظرا لغياب رب البيت في حائل . ومعروف أن أهل قفار ، وهم بني Beny تميم Temim ، لا يشتهرون بالكرم ، الذي سرعان ما لمسناه في حائل ، التي يسكنها الشمر . بدأ رفيقي نصر ، الذي أصبح أكثر انقياداً بعد رحيل بقية الجماعة ، يوجه اللوم للمارة في الشارع ، لأن أحداً منهم لم يدعوني إلى شرب القهوة والنوم في منزله ، قائلا : "هل يصح أن يتركوا شخصا محترما يقيم على قارعة الطريق !" بدأ نصر يقسم ما لديه من علف جاف بين ناقته وناقتي ؛ ثم صنع بعد ذلك عجينة مكونة من بعض الشعير الذي اشتريته من قرية مجوج " Mogug ، وخلط تلك العجينة مع شيء من التمر ، وراح يضع تلك العجينة على شكل لقيمات داخل فم ناقتي المسكينة المهرقة . ثم استلقينا بعد ذلك ، على الأرض ، بجوار ماشيتنا لتمضية تلك الليلة المظلمة التي كانت سماؤها عامرة بالنجوم ، فوق تراب شوارع قرية قفار .

ركبنا دابتنا مع طلوع النهار ، وكان من رأى نصر أن نصل إلى حائل في الوقت المناسب حتى يتسنى لنا تناول الإفطار في صالة الضيافة ، مع كل من عسكر هو ورفاقه . وأصابتنى الدهشة ، عندما رأيت أن هذا الجانب بكامله من قرية قفار كان مُخرباً وعلى شكل أنقاض ، بأن تحولت تلك الأرض التي كانت من قبل بساتين مثمرة إلى تربة صحراوية جرداء خاوية ، - وتلك هي سيقان النخيل الطويلة ، ما زالت باقية على شكل صفوف ، من النخيل الميت الخالي من الحياة . مررنا ونحن راكبين على ظهور دوابنا بمتاهات كهوفية من طين الصلصال أسفل جدران بيت مهدم ، جرى نزع أخشابها منه ، كما مررنا أيضا على مسارات غائرة خاصة بإبل الحر ، في مناطق الآبار التي هجرها أصحابها . وعندما تساءلت : "ما هذا ؟" أجابني نصر قائلا : "بلد Beled مات Mat " بمعنى "هذا مكان ميت " . هذا يعني أن القرويين ، أو إن شئت فقل : أهل هذه القرية ماتوا شأنهم شأن سكان قرية مجوج ، بفعل الطاعون الذي داهمهم

وانتشر بينهم قبل سبع سنوات . أبارهم فى تلك الفترة لابد أن يكون عمقها ، فى تلك المستوطنة ، أكثر من خمس وعشرين قامة . وبعد انتهاء وباء الطاعون ، وجد ملاك هذه الأرض أنهم غير قادرين على العمل ، مما أدى إلى انسحابهم وتراجعهم إلى الواحة الداخلية .

خلف أسوار قفار البستانية يوجد ذلك السهل الصحراوى شديد القحولة (الذى يطلقون عليه اسم "المحال" Mahal) الذى يجيء قبل مدينة حائل ؛ وفيما بين أجأ Ajja وسلمى Selma هذين الجبلين القاحلين توجد تربة حادة من النوع الجرانيتى ، وهى جرداء وبلا حياة شأنها شأن التراب الموجود فى شوارعنا ؛ ومع ذلك هناك بعض الهجر وبعض القرى التى تقوم على عيون المياه الجوفية . والأرض هنا جبلية لا ينبت فيها أى شئ من تلقاء نفسه ، ولكنها إذا ما رويت يمكن أن تنتج الشعير والقمح وبعض الحبوب النجدية الأخرى . وبالرغم من أن النخيل هنا من النوع الطويل إلا أنه يحمل ثمراً صغير الحجم وحر ، ومن ثم يكون غير صلب . ولم نجد فى هذه التربة أى نبات آخر غير نبات السنّة ، الذى له زهور تشبه زهور البازلاء . وتلك القلة القليلة من الماعز التى فى هذه القرية يجرى اقتيادها إلى مسافات بعيدة على ساحل جبل أجأ Ajja حتى يمكن العثور على المرعى . وبعد ساعتين قال لى نصر : "حائل تبعد عن هنا مسافة قصيرة ، نحن الآن فى منتصف الطريق ؛ والنساء والأطفال ينتقلون فيما بين حائل وقفار فى زمن لا يتعدى وجبة الظهيرة . " هذا يعنى أن الطريق بين حائل وقفار يصل طوله إلى ما يقرب من اثنتى عشر ميلا . ومع ذلك كان طنف الصحراء يحجب عنا رؤية حائل ، - فى كل مكان كنت أرى الأفق قريبا جداً فى الجزيرة العربية التى يسكنها البدو الرحّل . وهناك طريق مألوف فيما بين هاتين المدينتين ؛ ولذلك التقينا أولئك القادمين من حائل إلى قرية قفار . كان هؤلاء القادمون من الحريم ومن الأطفال ، كما كان من بينهم أيضا بعض الرجال الذين كانوا يركبون الحمير : " (قال واحد ، وثان ، وثالث من هؤلاء القادمين موجهها كلامه لنصر) ها ! لماذا أحضرته ؟ - من هنا عرفت أن مجيء النصرانى قد ذاع وانتشر فى حائل ؛ وعندما سمع نصر كلامهم بدأ يشعر بالذعر والفرع . " قال نصر ، ماذا يحدث لو أنهم أطاحوا برأسه وأعدموه ؟ - " يا خليل ، أين كيس التبغ ؟ ونأولنى ذلك الغليون ، لأنى ، قسما بالله ، بدأ رأسى يلف ويدور . "

سرنا بعد ذلك مسافة ميل آخر ، ثم شاهدت بعد ذلك اثنتين من الخيالة يجريان نحونا مثيرين خلفهما كثيرا من الغبار . بدأت أتأمل الموضوع وأعمل فيه فكرى وذهنى ، ترى هل هذان الخيالان من رُسل الأمير القساسة ، وأنهما جاءا من حائل من أجلى أنا شخصيا ؟ - كان اسم "نصرانى" سبباً فى هذا البلد ، بل إن البدو فيما بينهم يقولون : "هل تعدنى نصرانيا ! حتى أفعل ذلك الشئ المشين". وصل الخيالان إلينا وأطبقا علينا بالفعل ، واتجها على الفور نحونا بفرسيهما ، وكانت ملابسهما تتطاير من فوق جسديهما فى ذلك الهواء الساكن ، وصاح أحدهما بصوت عالٍ فى نصر (الذى لم يرد بأى شئ لأنه كان خائفاً) قائلاً ومتسائلاً: "عفش من هذا ، يا أنت ؟" - وأخذا يقتربان مثلما فعلا من قبل ؛ وجلست أفكر ملياً وأنا فوق ناقتى ، ولم أعبأ كثيراً بمن يكونان .

شاهدنا بعد ذلك بناية عالية لها أبراج حربية . كانت تلك الأبراج من الطراز النجدي جيد البناء وهى من الطين، وهى تشبه المنارات التى فى بلادنا ؛ ثم قال نصر ، الذى لم يسافر إلى حائل منذ أيام الأمير طلال : " هذ هو المقر الصيفى للأميز . " وعندما اقتربنا من حائل وجدت أن الجدران تمتد ناحية الخلف ، الأمر الذى يجعل من حائل مسوراً كبير من النخيل . وشاهدت عن يمينى بياراً طويلة من النخيل فى الصحراء ، تحيط بها أسوار عالية ؛ وعن الشمال شاهدت بياراً أخرى تقع داخل الصحراء ، ولكنها أكبر من البيارة التى على اليمين . وقد بناها عبيد لتكون مزاراً لأطفاله . كان برج القصر المطلقى باللون الأبيض يبدو كما لو كان معلقاً فوق مدينة حائل ، - والناس هنا يطلون تلك المباني الطينية بالجبس الأبيض . تجاوزنا ذلك المقر الصيفى الذى يقع على جانب الطريق ؛ والناس هنا يقولون : إن هناك قطعة مدفعية صغيرة مركبة فى ذلك البرج . وتوجد أسفل ذلك المقر الصيفى قناة جديدة ، تنساب خلالها مياه الرى إلى خزان عام ، تحضر إليه نساء المدينة لجلب الماء منه . وهذا الماء ، الذى يطلقون عليه اسم "ماء Mâ السماء es-Sâma" هو أفضل أنواع الماء فى المدينة كلها ؛ والماء الذى من الآبار الأخرى كلها له مذاق مالح وفيه كثير من الأملاح أو المعادن لاذعة المذاق ، "والذى يسبب الحمى (فى كثير من الأحيان)". نزلنا من فوق دابتيينا ، وبناء على طلب منى ، قدمت لى امرأة إناء الماء (المعدنى) الذى كان فوق رأسها ، كى نشرب منه. وهنا تحدث معى نصر وطلب منى عدم ركوب ناقتى مرة ثانية،

وأخبرنى أن أماننا بعض البوابات المنخفضة التى يتعين علينا تجاوزها ، أو أن شئت فقل : المرور خلالها . لم يكن ذلك سوى نوع من الاحتيال من جانب ذلك البدوى ، الذى كان يبدو من خلال سؤاليه الطويلة كما لو كان شخصا مُسخ ذنبا . هؤلاء البدو ينتابهم الخوف فى المدن من أن يوجه أى أحد لهم شيئا من الكلام الجارح ؛ يضاف إلى ذلك أن أهل الحضر يسيئون التعامل مع هؤلاء البدو ؛ كان الهدف من دخول حائل سيرا على الأقدام ، هو الحيلولة دون دخول النصرانى إليها راكبا ناقته .

واصلت المسير على قدمائى فى الشارع الخارجى القصير إلى أن وصلت إلى البوابة (التى تطلق أثناء الليل) الخاصة بالسوق الداخلية فى حائل . وعند البوابة رأيت وجه شخص من معارفى كان فى انتظارى ، - هذا الشخص هو عبد العزيز ، الذى قام بتوصيل الفرس الهدية إلى ابن الرشيد ، قبل اثنى عشر شهرا ، حتى وصل بها إلى قلعة الحجر ، حييت عبد العزيز ورد على التحية ، وسألنى عن صحتى ، وطلب منى الدخول . وسبقنى فى الدخول ، من خلال مجاز آخر ، لكى يوصل الخبر إلى الأمير ، ودخلت أنا من البوابة وواصلت السير خلال السوق (الشارع) العام الذى امتلأ بالحرفيين وبالبو فى هذه الساعة المبكرة من النهار ، كما شاهدت أناسا كثيرين فى الدكاكين العربية الصغيرة المظلمة ، وكان الجميع مشغولين فى البيع والشراء ، وعندما وصلنا إلى المكان الذى كان يغص بالرجال والإبل ، لم يلق الناس بالا للغريب أو ينتبهوا إليه ؛ وقلة قليلة من هؤلاء الناس هم الذين اتجهوا نحونا ليعرفوا من نكون . وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة ، طلع علينا تاجر كان يرتدى ثيابا جيدة ، وله لحية مصبوغة بلون الزعفران ، وأمسك بيدي . وهو متكرر فى رى عربى . وابتعد بى خطوات عدة ، ليسأل الغريب بحذر قائلا : " من أين جئت أنا ؟ " هناك قلة قليلة من اللحن زعفرانية اللون فى حائل : والمعروف أن عبيد بن الرشيد ، حوّل فى السنوات الأخيرة من حكمه ، لحيته من اللون الرمادى إلى لون الزعفران ، وهذا هو أسلوب الفرس وهنا يجب القول : إن طالعى الحسن ، أنتى كنت رحالا إنجليزيا فى الجزيرة العربية ، ولون لحيتى هو لون لحن الإنجليز . والأثرياء هنا فى حائل يستعملون الكحل فى تجميل عيونهم ؛ والذكور من بين هذا الصنف من سكان الجزيرة العربية الذى يتشبه أفرادها بالطيور ، هم أصحاب الريش زاهى الألوان وهم أيضا الذين يتزينون ،

وعند نهاية السوق (الشارع) توجد سوق القمح ، حيث تباع فيها أيضا أحمال الحطب ، والعلف البرى الذى يجلبونه من الصحراء ، وفى منطقة منخفضة شامت نساءً بائعات محجبات ، تحت مظلة وأمامهن أسبطة ، وتجلسن منذ طلوع الشمس ليبيعن التمور والقرع العسلى : كما أن البعض منهن تبعن بعض أشياء الزينة النسائية ، التى يجلبنها من الشمال .

وصلنا بعد ذلك إلى المكان العام مربع الشكل الذى يطلقون عليه اسم "المسهاب" el-Meshab ، وهو يقع أمام القلعة ، أو أن شئت فقل : القصر el-Kasr . وتحت المظلة الثانية ، المخصصة لقراء الهدو المسافرين ، قام نصر بتبريك ناقتى ، على وجه السرعة ، وأنزل عنها الخُرْجَ والزكائب ، ثم انسحب بعد ذلك بعيداً هنى ، كان هذا البدرى خانفا ، جاء عبد العزيز مرة ثانية قادمًا من القصر وسألنى عن سبب جلوسى فى ذلك المكان ؟ وجلس هو بدوره إلى جوارى وراح يسألنى عن حالتى الصحية من جديد . بدا عليه أنه كان يضرر خيرا للفرىب ، ولكنه كان يخشى الملامة ويخافها ، - ألم يشجعنى هو أيضا على المجئ إلى هنا ؟ تركنى عبد العزيز ودخل من بوابة القصر ، ليتكلم من جديد مع الأمير ، وعبد العزيز ، عندما يكون فى الراحة ، يصيغ رجلا محترما ، كما كان حازما وغير كريم ، نظرا لأن ابن الرشيد يمكن أن ينهى حياتهم جميعا إذا ما شابت نفسه شائبة قليلة ، من هنا كان عبد العزيز يعمل فى خدمة الأمير ، وهناك مكان عام مخصص لعبد العزيز ، فى المقهى الخاص بالأمير فى "المسهاب" el-Meshab : وكان عبد العزيز يجلس فى ذلك المكان المخصص له مع بقية أعضاء الجماعة فى كل مجلس من المجالس ، لم ينتبه أولئك الناس الذين كانوا فى الميدان العام (المسهب) إلى وجود النصارى بينهم ، وجلست طيلة ثلاثة أرباع الساعة ، فى وسط حائل : - وطوال ذلك الوقت كانوا يتنافسون ويتجادلون حول حياتى ، من خلف أسوار القلعة المبنية من الطين ، وخطر ببالى أن الفضول العربى وكذلك الجشع العربى يمكن أن يهيننى لى مهلة من الوقت : كنت ، فى أضعف الأحوال ، أمل أن يجيء واحد من هؤلاء الناس ويستدعيني إلى داخل القلعة لتناول طعام الإفطار ويرحمنى من ذلك الجوع الذى كان يعترضنى .

كانت هناك فى الطرق البعيدة من الميدان العام (المسهاب) قطعان من الإبل الباركة ، تلك كانت إبل أولئك الرفاق البدو الذين كانوا يجيئون يوميا ، من أجل معالجة وتسوية أمورهم مع الأمير ، تجمع حولي ، عندئذ ، بعض من هؤلاء البدو ، الذين أصابتهم الدهشة عندما وجدوا الغريب جالسا تحت المظلة . رأيت أيضا شخصية من الشخصيات ، خرجت من بوابة القلعة الموجودة أسفل برج مبنى من الطين ، وكانت تلبس ملابس جيدة ، وتتوكأ على عصا السلطة ، وراحت تقترب مني . كانت تلك الشخصية لرجل اسمه مُفَرِّج Mufarrij ، الذى كان يقال له "رجل" Rajul "المُضيف" el-Mothif بمعنى "المستئول عن ضالة الضيافة عند الأمير" ، وهو أجنبى مثل سائر أولئك الذين يقدمون على خدمة الأمير فى حائل . كان ذلك الرجل من بلدة عنيزة فى القصيم (التى هجرها على أثر مغامرة مريعة فاشلة سوف أتناولها فيما بعد) . جاء ذلك الرجل ليطلب من الغريب الدخول لتناول طعام الإفطار ؛ ولكنه اقتادنى أنا وناقضى عبر المسهاب ، وخصص لى مسكنا ، كان عبارة عن آخر غرفة من سلسلة غرف الضيافة ، التى يطلقون عليها هنا اسم "المخازن" Makhzans ، والتى تقع فى الجانب الطويل من الميدان العام (المسهاب) فى مواجهة القصر : ثم اقتادنى الرجل بعد ذلك ، من خلال البوابة ، إلى داخل القصر ، ليوصلنى فى النهاية إلى قاعة القهوة الضخمة ، المخصصة للضيوف ، ولخدمة القلعة الخاصة بالأمير ، فى مثل هذه الساعة - بعد أن تناول الجميع إفطارهم وذهبوا لحال سبيلهم - كانت تلك القاعة خالية من الناس ، ولكنهم أرسلوا فى طلب مُصَلِّحُ القهوة . وقد أعجبتنى المكونات الراقية لتلك الصالة المبنية من الطين ، شأتها شأن ذلك القصر الضخم ؛ وهذه هى الجدران والأسوار العالية مدهونة بالجبس ، وهذه هى مجموعة الأعمدة المرتفعة الموجودة فى وسط القاعة ليرتكز عليها ذلك السقف البسيط المكون من أخشاب الإثل (الطرفاء) وشر - سيقان النخيل ، والخوص المجدول ، الذى لطحه الهباب والدخان الذى ينبعث يوميا من وجار القهوة . وأسفل تلك الجدران توجد مصاطب مبنية من الطين ومفروش فوقها سجاد بغدادى ، وعند مدخل تلك القاعة يوجد إناء ضخ من النحاس الأحمر ، أو إن شئت فقل "بحر" من الماء ، ومن فوق ذلك الإناء يوجد "كوز" مربوط إلى سلسلة (وتقوم النسوة يوميا بملئ ذلك الإناء من ماء السماء ؛ وهؤلاء النسوة من بين أولئك اللاتى

تعملن فى المطبخ) ؛ ومُصْلَح القهوة يأخذ الماء الذى يحتاجه من ذلك الإناء ، كما أنه يسقى منه أيضا كل من يكون عطشانا . فى الجزء العلوى من قاعة قهوة الأمير يوجد وجاران من وجارات القهوة ، وهما يشبهان قبرين ضحليين ، حيث يجرى فيهما إشعال الحطب عندما يكون الطقس بارداً ، الناس هنا يفتقرون إلى الحطب ، والنار هنا تشب تحت دلال القهوة العملاقة . فى وجارات من الطين تشبه فرن الحداد . وعلى الفور استدعانى مفرجٌ للذهاب إلى قاعة الضيافة ، التى يطلقون عليها هنا اسم "المُضيف" Mothif ؛ وقاعة الضيافة تقع داخل مبانى القلعة، وهى مربعة الشكل، وعلى شكل فناء ، ومن فوق ذلك الفناء يوجد رواق ، والضيوف الذين يدخلون قاعة الضيافة يمرّون على مدفعية الأمير ، التى تتكون من خمسة أو ستة قطع من المدافع الصغيرة ، وحديد هذه القطع عفى عليه الزمن ، والخشب الذى فيها متآكل ومتهاك .

والبدو يأكلون فى الدور السفلى ، فى حين يتناول كبار الشيوخ هم ورفاقهم الطعام فى الشرفات ؛ اقتادنى مفرجٌ إلى الدور العلوى ، أو إن شئت فقل : إلى الشرفات ، إلى مكان مفروش فوقه سجادة كان عليها بعض نوى التمر ، جلست فى هذا المكان وأحضروا لى تمراً ، - وهذا هو أردأ أنواع التمر فى عالم الصحراء - فى طبق من المعدن ، عليه كمية كبيرة من التراب المخلوط بالماء ؛ تركونى أكل لوحدى ، ولكنى أثرت الانتهاء بسرعة من أكل التمر . هذه هى تحية أى حاكم من حكام الجزيرة العربية لضيوفه فى الصباح - إنهم بدو - كما أن النظافة هنا تختلف عنها فى معظم قرى الجزيرة العربية ، التى يتوفر فيها الماء . وإلى أن ينادونى للخروج من ذلك المكان رحت أتجول فى الشرفات حيث شاهدت يمام العراق المنزلى أبيض اللون وهو يهفّف بأجنحته ، ويبلغ من الألفة حداً جعلنى أمسكه بيدي . كان طول كل شرفة من تلك الشرفات التى لها أرضية من الطين يصل إلى حوالى ثمانين قدماً ؛ وتلك الشرفات محمولة على خمسة أعمدة مستديرة ومسننة من الأعلى . وعندما ظهر مفرجٌ ثانية عدنا إلى القهوة حيث كانت القهوة قد أصبحت جاهزة . ودخل علينا شاب يلبس ملابس لامعة مصنوعة من الحرير ، وراح ذلك الشاب يطرح على بعض الأسئلة . كان ذلك الشاب يعمل سكرتيراً للأمير ، وكانت كلماته عامرة بالاحترار والازدراء ؛ أقول ، إخ !

من تكون أنت ؟ - من أين جئت ، ولماذا جئت إلى هنا ؟" وهنا أجبت بطريقة البدو ،
يا ولد ، أنا لا أستطيع أن أجيب إلا على سؤال واحد وعلى الفور ! اسمعنى طلبك
الأول : "أشاح بوجهه متجاهلا كلام ذلك الرجل الحر ، ثم همس لى صوت ودى يقول :
"عامله بمزيد من الاحترام، لأن هذا هو نصر Nasr . " وعليه قال ذلك النصر : "انهض!
الأمير أرسل فى طلبك : " ثم خرجنا بعد ذلك قاصدين مجلس الأمير .

هناك شرفة طويلة أسفل القلعة المبنية من الطين ، تقع بعد السور الخارجى وتطل
على المسهاب (الميدان العام) ؛ مررنا على تلك الشرفة ، وفى المنتصف شاهدنا باباً
مجلداً بالحديد ، يقوم على حراسته من الداخل عبد شاب حبشى ؛ طرقتنا ذلك الباب ،
انفتح الباب على فناء داخلى صغير ، يوجد فيه عدد قليل من رجال الأمير المسلحين
والمكلفين بحراسة الأمير . وفى الناحية الجنوبية توجد الغرفة أو إن شئت فقل :
المجلس الذى يجلس فيه الأمير . دخلنا فى تلك الغرفة من خلال بابها وكانت شبه
معتمة ، نظرا لأن النوافذ هنا ليست سوى فتحة لدخول الهواء ، ولم أشاهد ، فى كل
نجد ، أى غطاء زجاجى فوق تلك الفتحات . هذا هو الحاكم محمد - الابن الأصغر
لعبد الله بن الرشيد ، الأمير الأول للشمر ، وترتيبه الرابع منذ وفاة والده - يجلس
متكئا إلى حد ما على كوعه ، ومن تحته وسائد وثيرة ، ومن أمامه مدفأة ، أشعلوا فيها
النار فى شئ من حطب الصحراء . حبيت الأمير قائلا : "سلام" Salaam "عليك"
Aleyk ؛ رفع الأمير يده اليمنى إلى رأسه ، بنفس الطريقة التى سبق له أن شاهدها
فى بلاد الحدود ، ولكنه لم يرد السلام ؛ - لديهم فكرة معادية مفادها أن تحية
"الإسلام" ينبغى أن لا يستعملها أحد من غير دين الإسلام ! كانت للأمير سالفتان من
الشعر تتدليان على خديه ، اشتهر بجمالهما فى كل أنحاء الصحراء على إنه "شاب
ملىء بالحيوية والشباب" . كانت بشرته تميل إلى السُمرة أو بالأحرى إلى الاصفرار ،
نحيف وغائر العينين مثل سائر النجديين ، وهو فى متوسط العمر : وجهه مثل وجوه
النجديين ، وملامح الأمير محمد التى تشبه ملامح الطائر توحى بأن ذلك الرجل نجا
من كثير من أمراض هذه الدنيا ، - ترى ما هى الاحتمالات السابقة التى جعلت من
هذا الرجل أميرا ؟

قال الأمير : " اجلس ! " كان محمد ، الذى عمل مرشداً للحج "الفارسى" فى زمن
الأمراء السابقين ، قد زار مدن بلاد الرافدين ، ووقف على أخلاقيات الدولة
(الإمبراطورية العثمانية) هناك . - اقتادنى رئيس الحرس إلى المكان المخصص للغرباء ،
وفى منتصف سجادة طويلة مفروشة بجوار الجدار الطينى ، وفى المسافة التى بينى
وبين الأمير ، كانت تجلس شخصية لا أعرفها ، متكئة على بعض المخاد ، كان صاحب
هذه الشخصية ، مثملاً بلغنى ، من أقارب بن الرشيد ، رجل محترم وقور كبير السن ،
ومحياه يدل على الاعتدال. سألتنى الأمير: "من أين أتيت، وما هو الهدف من رحلتك؟" -
"أنا جئت من تيماء ، ومن الحجر ، وقد جئت أصلاً من سوريا لزيارة مدائن صالح ."
(قال الشيخ الكبير متعجباً) "رجل" Rajul "صدوق" Sadūk والله ! بمعنى "رجل ثقة".
هذا الرجل ليس مثل ذلك الرجل الذى جاء إلى هنا ، ألا تذكر يا محمد العام الذى جاء
فيه إلى هنا ، هذا الرجل يقول لنا كل شيء بصدق ووضوح . " الأمير : "وجئنا الآن من
تيماء ، أحسنت ! وما الذى رأيته فى تيماء - ماذا رأيته فيها ؟ هل فيها أى شيء ؟" -
"تيماء مكان جميل عامر بالنخيل وهواؤه طيب . " - "ما اسمك ؟" - "اسمى : خليل ."
"ها ! وكنت بصحبة البدو ، أخ ، يا خليل ، وما رأيك فى البدو ؟" - "تقصّد الفكارة ،
والموءاهيب ، والسحامة ، الذين يعيشون خلف الحرة . " - "وما رأيك فى بدو الفجير هم
وشييوخهم ؟ أليس الشيخ مطلق على ما يرام ؟" - "الفكارة لا يختلفون عن اسمهم ،
وجيرانهم يقولون عنهم أنهم يهود خبير . " إلّقط الأمير كلامى مندهشاً ومتعجباً (كما
هى عادة أهل الجزيرة العربية) وأعاد ذلك الكلام على الحاضرين : "يقول إنهم يهود
خبير ! حسن ما قلت يا خليل ، وكيف عاملك الأعراب ؟ هل قدموا لك الحليب ، وهل
أكرموك ؟" - "حليبهم لا يكفيهم هم أنفسهم . " أمعن الأمير قليلاً وأطرق برأسه ونظر
إلى الأرض ، لأنه كان قد سمع أننى كنت أتجول مع البدو كى أشرب حليب النياق .
"سألتنى قائلاً : ها ! وماذا عن الموءاهيب ، أهّم على ما يرام ؟ وهل طُلجُ Tollog طيب
بحق ؟" - كان الأمير ينتظر منى إجابة بالنفى ، نظراً لأن طُلج كان عدواً قديماً ، أو إن
شئت فقل : "متمرداً" على أبناء الرشيد . - "كان طُلج رجلاً طيباً معى ، وأحسب أنه
رجل بدوى محترم . " رد الأمير على ذلك مُهمّماً : "هم Hmm هم Hmm ! - ومن هو
شيخ السحامة ؟" - "مهنا Mahanna وفُضيل Fothil . " - "وكم عدد أسر السحامة ؟"

قال الأمير بعد ذلك متسائلا : "هل لديك شيء (تبيعه) ؟ وما هي صفتك ؟" - "لدى بعض الأدوية ، وأنا حكيم .- "وما هي هذه الأدوية ؟ أمى الكناكينا^(٥) Kanakina؟ - "النوع الذى معنى من الأدوية الممتازة .- "وماذا معك غير الأدوية ؟" - "معى أشياء كثيرة ، ولكن أسماءها كثيرة أيضا ، معنى أيضا شيئا من الشاي Chai الممتاز ، الذى سوف أهديه لك ، يا سمو الأمير !- "لدينا الشاي هنا ، ونحن نجلبه من بغداد ؛ لدينا الكثير منه .- "قليل لى فى مكان آخر بعد ذلك ، - "إن الأمير لن يقبل منك الشاي ، بالرغم من أن ذلك يعد عملا شائنا ، والسبب فى ذلك أن ابن الرشيد لا يأكل أى شيء أو يشرب أى شيء إلا ذلك الذى يجهزه أو يعده عبد محدد من بين العبيد الذين يعملون فى خدمته ؛ وهو يعيش فى خوف مستمر من أن يموت مسموما .- " [الأمير : "حسن ، وما هي الأمراض التى تعالجها ؟ ألا تستطيع علاج المجنون ؟" (بمعنى الشخص الذى أصابه مس من الجن على حد فهمهم) : - الأمير لديه بعض من أبناء أخيه عبيد مصابون بذلك المس ، وربما كانت ذكرى أخيه طلال المؤلة توحى إليه بذلك . أجبتة قائلا : "المجنون El- Mejnun هو Hu مجنون Mejnun " بمعنى "من هو أحق بطبيعته سيظل أحمقا دوما .- "رد الأمير هذه الحكمة من بعدى ، وأوما برأسه علامة الموافقة ، ثم قال للحاضرين : "هو Hu صادق Sadik .- "رد عليه بعض أفراد البلاط ، أو إن شئت فقل : الحاشية قائلين : "فيه Fi طريق Tarîk " بمعنى "ولكن هناك مخرج من ذلك أيضا .- "والأعراب يفترضون أو يزعمون أن هناك طريقا (مخرجا) ، عندما يهتدى الإنسان إلى طريق شرعى للوصول إلى الهدف الذى يريده .- "خبرنى ، وما هي الحيوانات التى شاهدتها فى الصحراء ؟" - "شاهدت الأرانب البرية والغزال ، وأنا لست صيادا .- "هل لحم الأرانب البرية غير محلل ؛ - وهل تأكله ؟ (سيعرف بهذه الطريقة أنى مسيحي) . وهل تأكل لحم الخنزير ؟ " قلت : "هناك حيوان غريب فى صحراء الشرارات ، يقولون عنه إنه الثور البرى أو الوضيحي ؟ لدينا منه واحد هنا ، وسوف نريك إياه .- "وفى النهاية قال الأمير : "ألا تشرب الدخان ؟" استعمال التبغ فى شوارع نجد أمر غير وارد ولكن الناس يستعملونه داخل المنازل ؛ وهم يعتقدون أن

(٥) المقصود هنا هو حبوب الكينين الصفراء التى شاع استعمالها فى ذلك الوقت فى العلاج . (المترجم)

شرب الدخان لا يليق بأولئك الأشخاص الذين يكونون أكثر تدينا وأعلى مكانة وقدرًا من عامة الناس . كان محمد بن الرشيد هو وحمود ولد أخيه من رفاق الغليون المخلصين في فترة سابقة ؛ ولكن عندما وصل الأمر إلى حد المكانة والتقدير ، فقد تخليا عن رفيقيهما الحميدى طيب الرائحة . وأردف الأمير قائلا: "إذن، أنت مسيحي؟" - تلك كانت كلمة طيبة ! معنى ذلك أن الأمير أثر ألا ينعتني بتلك الكلمة "نصراني" التي تنطوى على شيء من الإهانة والتوبيخ ؛ والناس هنا أيضا يقولون إن : "الأمير لديه امرأة مسيحية بين زوجاته . " - والنصارى الذين يتكلمون اللغة العربية في مناطق الحدود الكبيرة يطلقون على أنفسهم اسم "المسيحيين" Mesihyyin .

طلب الأمير إلى نصر أن يقرأ في كتاب كبير من كتب التاريخ . كان موضوعا على الرف ، ومغلفا بغلاف أحمر ويحمل عنوان (أخبارُ Akhbaru الـ D- Dual Wa Athāru الأول 'l-uwwal)^(*) ؛ وطلب من نصر أن يقرأ من القسم المكتوب في هذه الكتاب عن النبی عيسى Isa بن ابن Miriam مريم ؛ - وهنا بدأ ذلك السكرتير يقرأ بصوت عالٍ . المؤلف المسلم يحدثنا عن شخص عيسى بن مريم ، وعن لونه ، وعن قسماته وملامحه . "ابن العذراء" ؛ كما يحدثنا أيضا عن أسلوب حياته النبوية ؛ وكيف كان يمشى مع تلاميذه في أرض إسرائيل ، وكيف أنه كان يتوق إلى الراحة في ذلك المكان الذي غربت الشمس عليه فيه . كان الأمير يستمع باهتمام بالغ وشديد إلى تلك الرواية وهو قلق قلقًا شديدًا . - (قال الأمير) هذا حسن ، هذا جيد ؛ ولكن ما الذي دفعك للقيام بهذه الرحلة ؟ وأجبت بصورة مفاجئة قائلا : "العلوم ! El-elūm أو إن شئت فقل : العلوم الليبرالية (الحرة) ؛" ولكن معنى هذه الكلمة التي في صيغة الجمع عند أهل نجد وفي كلام البدو تعني "الأخبار" . وهنا رد الأمير على الفور ، "إذن ، هذا هو الذي جئت من أجله إلى هنا ؛" كان من الصعب على أن أوضح للأمير ذلك الذي كنت أعنيه عندما نطقت كلمة "العلوم" نظرا لأن هؤلاء الناس ليست لديهم أية فكرة عن اختلاف معاني الكلمات على ألسنة مختلف أفراد الجنس البشرى . وقال الأمير بعد

(*) أخبار الـ D- Dual Wa Athāru الأول ، تأليف أبو العباس أحمد طبى الدمشقى القرمانى (ت ١٠١٩هـ / ١٩١٠م). (المراجع)

ذلك ، "وهذه اللغة ، هل تعلمتها ، وأنت بين البدو ، هل تعلمت اللغة العربية ؟" - وطلب إلى نصر إحضار الكتاب ، ووضعه بين يدي خليل ، ونهض الأمير محمد واقفاً من مكانه ، [يقال إن الأمير محمد يجيد القراءة والكتابة والإطلاع على الكتب العربية ، ويقال أيضاً إنه شاعر رقيق ، بالرغم من أنه فيما يتعلق بتصريف شئون الدولة ما يزال تلميذاً في تعلُّم تلك الأمور] - وانطلاقاً من فضول أهل الجزيرة العربية العُجل الذي يشبه فضول الأطفال ، انتقل الأمير وجاء ليجلس إلى جوارى . - "من أين أقرأ ؟" - ابدأ من أى مكان فى أى فصل ، - فى هذا الكتاب ! ثم أشار بإصبعه . وعليه بدأت أقرأ من موقع ، "قتل الملك إخواته جميعاً هم وأقاربه" . إن الشيطان هو الذى جعلنى أشير إلى مثل هذا النص الدموى ؛ كان واضحاً أن الأمير تأثر تأثراً شديداً ؛ وبسرعة بديهية العرب فهم الأمير أننى بدأت أعتبره قاتلاً وسفاحاً . قال الأمير بسرعة ، ليس من هذا الموقع ! ولكن أقرأ من هنا ! - من هذا الفصل من بدايته (وحدد لى المكان بإصبعه) ؛ وعليه بدأت أقرأ عليه مقطوعة أخرى . الأمير : ها ! حسن ! واضح أنك لا تجيد القراءة ، ثم نهض من مكانه إلى جوارى ، ليعود إلى مكانه السابق . ثم قال لى بعد ذلك : "والى أين ستذهب الآن ؟" - "إلى بغداد . " - "حسن جداً ، إذن سوف نرسلك إلى بغداد ، ثم نهض الأمير بعد ذلك ، هو ومن معه ليذهب إلى منطقة النخيل الخاصة به ، حيث سيرينى "البقرة البرية" .

حضر نصر بعد ذلك ومعه مظروف أحد الخطابات ، وطلب منى قراءة النقش المدون عليه . "قلت : حسن ، هذا ليس خطاً عربياً !" - "ولكننا نريد منك أن تقرأه . " - "ممن تلقيتم تلك الرسالة ؟" - "من شخص نصرانى جاء إلى هنا قادماً من الحوران ، وقد أخذنا منه هذا المظروف . " قرأت على الختم الموجود على المظروف أحرف إغريقية (يونانية قديمة) معناها "بطرخانة دمشق" ، وكانت البيانات المحيطة بتلك الكلمة مكتوبة باللغة اللاتينية "تجول فى كل أنحاء الدنيا وبَشِّرْ بهذا الإنجيل كل الخلق من البشر . " كانوا جميعهم قد أوشكوا على ارتداء حذيانهم ، ولكنهم أنتظروا برهة إلى أن يسمعوا ردى ؛ وعندما تلوّت عليهم بصوت عالٍ المعنى "أخرجوا Ukhrju فى كل Fi Kulli العالم el- âlam" قال الشيخ الوقور للأمير : "أتسمع هذا يا محمد ؟ - أليست هذه كلمات المسيح !".

خرج كل من كانوا فى الغرفة عقب خروج الأمير منها ؛ كل أولئك كانوا من أفراد حاشيته ومن خدمه ، هذا بالإضافة إلى كل من الشيخ العجوز ، ورئيس الحرس ، ونصر ؛ لم يكن من بين كل هؤلاء من يوحى وجهه بالبشر والترحاب . كان هؤلاء الأفراد الذين ينتمون إلى القصر وإلى رجال الأمير يلبسون ملابس المدينة ، ولكنهم لم يكونوا يلبسون أحزمة الطلقات النارية . وظهر الأمير محمد واضحا أمامى ، عندما تسلط عليه الضوء ، كما لو كان بدويا غير مكتمل النمو من البدو الفقراء المساكين ؛ ومع ذلك كان يمشى متفاخرا ومتعاليا ، ومع ذلك كانت نظراته زائفة وغير مستقرة ، وعند بئر الرى ، بالقرب من أسوار القلعة ، توقف الأمير محمد برهة صغيرة وأشار لى بيده إلى الساقية (السانية) التى كانت تدور محدثة نوعا من الصراخ ، ثم سألنى فجأة : "هل سبق لى رؤية مثل هذه الساقية ؟" - "ما العمق هنا بالقامات ؟" - "خمس عشرة" . قال كلامه الصادر عنه بوصفه أميرا ، بالرغم من أنى كنت أعرف أن العمق لم يكن خمس عشرة قامة ، - والسبب فى ذلك ، ما هى الجدوى أو المنفعة التى يمكن أن تعود عليهم من جلب الماء من عمق مثل هذا ؟ واصلت مسيرى مع كل من الأمير محمد والشيخ العجوز ، إلى أن وصلنا إلى مزرعة الأمير التى يحيط بها سور القلعة ؛ ووجدت أن خدمة تلك المزرعة لم تكن على ما يرام . بقى الأمير إلى جوار نبات من نباتات زيت الخروع (لم يكن هناك فى حائل نبات غير ذلك النبات) لي طرح على السؤال التالى : "ما هذا ؟" طرح على هذا السؤال بلهجة تتردد بين السلطة الفظة وفضول أهل الجزيرة العربية الساذج ، فيما يتعلق بنباتاته وأشجاره ، - النخيل ، والليمون ، والأترنج ؛ ثم أرانى بعد ذلك شتلة من شتلات البامية ، كما أرانى أيضا بعض الجذور الأخرى والأعشاب التى تستعمل فى السلطات . هؤلاء الناس لا يأكلون كل هذه الأشياء الخضراء ؛ وبذلك نجد أن طعام نجد فى الجزيرة العربية يختلف عن طعام بلدان الحدود العربية .

كان الغزال يجرى فى الركن البعيد من أسوار القصر ؛ ووقف الأمير وهو يشير بإصبعه . " (قال الأمير) هاهو الوضيحى ! " كان ذلك الوضيحى ذكرا عمره حوالى عام ونصف العام ، ولا يزيد حجمه على حجم عنزة بيضاء كبيرة . كان الوضيحى يرقد

مريضاً تحت شجرة من أشجار التين . الأمير :- "انظر هناك ، حيث يوجد وضحي آخر ، وتلك هي الأنثى ." - "ارجع إلى الورا وتجنب لقرونها ! وقال أفراد البلاط الذين كانوا يحيطون بي ، لا تقترب منها ." وتقدم واحد من الحاشية وفى يده سباطة من التمر ، نحو ذلك الحيوان الخطير ، وراح يربت على ظهره ؛ كان قرنا الحيوان مثل ساقين مسننين ، مشرعين إلى الأعلى ، ويصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب من سبع وعشرين بوصة . شاهدت أنثى الوضيحي وأنا على بعد حوالى خمس ياردات ، وكانت أقل من حجم حمار صغير ؛ وكان جلدها رمادى اللون ويتدرج نحو الأصفر الفاقع ، كما كان لها جزء مرتفع صغير يظهر عند بداية العنق ، ولم يكن لها سنام مطلقاً ، كما كان ذيلها الناعم الطويل ينتهى بحزمة من الشعر ، ويمكن القول : إن الوضيحي "يشبه بقرة صغيرة" ؛ ولكن شكل هذا الحيوان جميل جداً فى هذه الصحراء الخالية من الماء ، يضآف إلى ذلك أن هذا الحيوان له سيقان برية عالية السرعة وخفيفة الحركة . قال الأمير متعجباً : "اكتبها Uktub-ha ، بمعنى "صورها" أو "ارسمها" ." وراح الأمير يتحدث معى حديثاً مفرحاً أثناء عودتنا ؛ ثم قال لى فى النهاية : "أين حذاؤك ؟" - "سيكون عجبك هذا قليل ، إذا عرفت أننى بلا حذاء ، وملابسى مهترئة . لأننى مضى على ، إلى الآن ، حوالى عام كامل وأنا برفقه البدو فى الخلاء (الصحراء)." - (رد الشيخ الطيب)، وبالرغم من أنه يمشى بلا حذاء ، فهذا ليس عيباً ، لأن أنبياء الله ، مشوا حفاة أيضاً . - بلغنى أن ذلك الرجل العجوز الوقور ، كان شقيق أم الأمير ، أو إن شئت فقل : خال الأمير : رأيت فى ذلك الرجل الوجه الخير الذى يكشف عنه العرب لكل من يتمنون لهم رحلة أو مغامرة طيبة .

كان الأمير بمزاجه الروحي ، وسلوكه المألوف يشبه شيخاً كبيراً من مشايخ الأعراب . وقد ظهرت عليه دلائل حظ عاثر تنكر له من قبل ، إضافة إلى أنه تبدو عليه أيضاً دلائل الانحطاط الذهني أو العقلي ؛ كان الأمير محمد ، فى ذلك الوقت قد بلغ "العام الأربعين" من عمره ، ولكنه كان يبدو كما لو كان أصغر من ذلك . (دخلنا مرة ثانية إلى فناء القصر ، فى المنطقة التى يجرى فيها تخزين الحطب ، وحيث توجد بوابة تطل على المسهاب (الميدان العام) ؛ وعند هذه المنطقة ينتهى طرف تلك الشرفة

الموجودة أسفل القلعة ، والتي سبق لنا الدخول منها . هذا الممر مغلق بباب مجلد بالحديد ؛ ألواح هذا الباب (من حيث افتقارها إلى الفن) تشبه تلك الأواني الحديدية التي تشبه الترس (والتي يطلقون عليها اسم "التَّنُور") وتستعملها ربات البيوت الحضريات فى تسوية الخبز .- ولكن ، يا لهذه المكافأة التي يحصل عليها الطغاة ! إنهم يقعون أسرى للخوف بشكل يبيث الخوف أيضا فيمن حولهم . أين هم من - أحلى الأشياء الإنسانية - راحتهم ؟ لأن ذلك الذى يأخذونه بالقوة من الكثيرين ، هم يعلمون ويعرفون بأنه سوف يطلب منهم مرة ثانية ! وهنا صرف الأمير ذلك النصرانى ، بإشارة لطيفة ، وطلب من أحد الحاضرين أن يرافقنى إلى بيتى ، أو إن شئت فقل : إلى المسكن الذى أنزل فيه .

الفصل الثانى والعشرون

حائل

أمسية مع الأمير حمود . قهوة عبيد . يهودى مارق . سيف حمود . حمود يُصلِّح
عشاءاً للنصرانى . صلاة العشاء . محمد وحمود على مرأى من الناس . أمسية مع
الأمير محمد . أشخاص عاطلون يتعقبون النصرانى فى الشوارع . غانم . عبد الله .
المسلم اليهودى . قافلة ضائعة . جار الله ، عنبر بن الرشيد . ابيضاض البشرية
الأوروبية يحسبونه برصاً أبيضاً . "ماء العنب" . الموت فى فناجيل قهوة الأمراء .
التجار المشهدين . النصرانى يطلعهم على كتاب من كتب الجغرافيا . البيع والشراء
فى حائل . مدفعية بن الرشيد . مجلس الأمير . رشوة فى حائل . وقت فراغ الأمير .
سياسة الأمير . ركوب الأمير . الأعراب فى حائل . الدلالون . السوق . سعر اللحم .
مُفرِّج ؛ استئذانه لعامة الضيوف . سَمَّ أو سَمَّ - بمعنى "سَمَّ" أو "باسم الله" . كلفة
المُضيف . شاربو القهوة من البدو فى المقاهى العامة . الأمير محمد يركب راحلته
متجها لزيارة ماشيته فى الصحراء . حصان الأمير . ثروة الأمير . خزانة الولاية .
حمود يظل نائباً فى حائل . بدان أو ماعز برى فى بستان حمود . تكلفة بنر الرى فى
حائل . ماجد . حائل مدينة وليست واحة . سميراء حائل . رى أجدة . حائل القديمة .
أطلال ضاحية بعيدة من ضواحي حائل . أرض المدافن . قبر عبيد . بعض البدو الرحل
المقيمين .

مع غروب شمس ذلك اليوم ، استدعانى مُفرِّج إلى شرفة المُضيف أو إن شئت
فقل: قاعة أو صالة الضيافة ، حيث قدموا لى طبق العشاء المكون من لحم الضأن وأرز
التُّمن . وعندما عدت ثانية إلى صالة القهوة ، حيث بدأ توزيعها على الحاضرين ، بدأ

الضيوف البدو الموجودون فى الصلاة يتسألون عن ديانتي . عدت إلى بيتي فى ساعة مبكرة ، وعلى الفور استدعانى خدم الأمير لمقابلة شخص يطلقون عليه اسم "الشيخ الكبير" . - سألتهم ، من هو ذلك الشيخ الكبير ؟ وأجابونى ، إنه الأمير ! وعليه أوصولنى إلى دار كانت قريبة من بيتي ، وكانوا يطلقون عليها اسم "قهوة عبّيد" . طرّقوا الباب وفتح عبد حبشى . دخلنا الدار من خلال مدخل قصير ، كانت تفوح منه رائحة ماء الورد ، إلى أن وصلنا إلى غرفة شبيهة بالصلاة ، بدت لعينائى وكأنها جزء من الصحراء . ومعروف أن الغرف الشرقية عبارة عن مسوّرات من الهواء ، وليس بها منقولات ، ومظاهر الزينة فى تلك الغرف عبارة عن السجاد الذى يفرش فى أماكن الجلوس ؛ والسجاد فى هذه الغرفة مفرد فى ثلاثة أجناب فقط ، مع وجود بعض الأماكن التى فيها بعض المخدات ، وهى مخصصة "للأمير" وأقرب أقرابه . كل شيء فى تلك الغرفة كان مصنوعاً من الطين ، أرضيتها من الطين المدكوك ، والجدران أيضاً من الطين ومدهونة بالمغرة ؛ كان الجالسون فى الغرفة من الشخصيات الرئيسية فى المدينة ، كانوا عبارة عن شيخ أو شيخين من شيوخ البدو ، إضافة إلى بعض الرجال الذين يعملون فى خدمة الأمير ؛ كانت ملابس هؤلاء العرب الحظيظين تبدو مشرقة . -

- كانوا قد قالوا "الأمير" ! وأنا بدورى شاهدت فى المكان الرئيسى من تلك الصلاة شخصية نبيلة عظيمة شبه محنية على كوعها إلى الأمام ! - ولكنى سألت نفسى ، ألم أقابل الأمير بن الرشيد بنفسه هذا الصباح ؟ ولو قدر لهؤلاء العامة من العرب أن يروا غريباً محتاراً ومشدوها بينهم ، فإن ذلك سوف يسرهم ويسعدهم .

تلك الشخصية كانت حمود Hamud ولى عهد والده ، برغم أنه ليس أكبر أبناء عبّيد ؛ والسبب فى ذلك أن فهد Fahd ، الابن الأكبر ، كان خبلاً Khibel ، أو إن شئت فقل : مضطرب الفهم والإدراك ، ومع ذلك كان سلوكه طيباً ومستقيماً ؛ هذا الجنتلمان المسكين كان صديقاً لى بصورة دائمة . - كان حمود ، قد أقسم لابن عمه الأمير يميناً ، بأن يعيش معه ويموت معه أيضاً ؛ كان والديهما شقيقين ، ونظراً لعدم وجود أى أحد من بيت ابن الرشيد لتولى ولاية العهد ، فإن حمود سيصبح هو الأمير من بعد الأمير محمد بن الرشيد . وحمود هو رفيق الأمير اليومى فى كل ما يتعلق بالأعمال والاستشارات اليومية . - كان ولد عبّيد يرينى وجهاً مليحاً ، وكان يطلب منى الجلوس

عن يمينه ، وعندما كان يرانى مهموماً ومرهقاً كان يطلب منى أن أفرد رجلاى دونما خجل ، وأجلس على راحتى وطبيعتى .

كان حمود يتحدث إلى النصرانى حديثاً ودياً ؛ وتأكدت أنه صاحب قامة فارعة ، ولاحظت أيضاً أن عينيه ملونتان ، ولاحظت أيضاً أن شعره متساقط [كما نشاهد فى صور المسيح] ويتدلى من المنتصف على شكل جدائل ، كما لاحظت أيضاً أن لحيته خفيفة . وحمود له وجه بشوش ، ويحدث له تشنج لطيف فى عنقه ، مما يعطى العنق منظرأ لطيفاً ، ويبدو عليه أنه ينحنى قليلاً إلى الأمام . وأثناء حديثى معه كان يسألنى عن الأشياء العظيمة عند النصرارى ، مثل التلفزيون ، "كما كان يسألنى عن المادة التى يصنع منها الزجاج ؟ وكانوا قد سمعوا أيضاً عن وجود قصر من البللور فى البلدان المسيحية ؛ وكانوا يحسبون أيضاً أن باريس (Paris) Baris كلها مبنية من البللور ؛ كما كان يسألنى أيضاً عن ماهية زيت الصخور ، الذى كان مستعملاً فى مصباح مشتعل وموضوع على كرسى أمام الأمير : بل إن زيت الصخر هذا أصبح يستعمل فى المنازل الكبيرة فى حائل ، ولديهم مقولة مفادها أن زيت الصخر هذا إنما يصنع من بول البشر . وتعجب حمود عندما أخبرته أن زيت الصخر هذا إنما يجرى سحبه من آبار فى العالم الجديد ؛ كان حمود قد سمع عن ذلك الذى يسمى "الدنيا" Dinya "الجديدة" jadida-el ، وسألنى عن المكان الذى توجد فيه تلك الدنيا ، وخلف أية بحار . سألنى أيضاً عن أدويتى ، ثم أردف قائلاً : "مل على ، وسوف أسألك عن شىء . " همس لى حمود من تحت غترة رأسه المعطرة ، "أليس لديك دواء ، يساعد الرجل ؟" وأجبتة على الفور ، "لا ، وحياتك . " - "لا ، وتحلف بحياتى !" كرر هذه العبارة ، وهو يبتسم للحاضرين ثم ضحك ، "ها ! ها !" - بعض الأرواح الشريرة ربما تظن أنه كان يتكلم معى همسا عن السم . يضاف إلى ذلك أن القسم العام فى الصحراء "بـحياة الإنسان" يدينه ولا يرضى عنه أشباه الوهابيين هؤلاء . ثم أردف حمود قائلاً بنفس هذه الابتسامة والقلب الطيب ، "ما رأيك فى هذين الخياليين اللذين التقياك على الطريق؟" - "أنا لا أستطيع أن أقول أى شىء لأنى كنت متعباً ومرهقاً . " - قال، نعم ؛ كنت متعباً تماماً ؛ أسأله ؛ "كما أرانى حمود ، وهو يشير بإصبعه شخصية ، من أصحاب اللحي الزعفرانية اللون فى حائل ، الذين كانوا يجلسون متكئين على مخاد ،

فى المكان المجاور له ، باعتبار أنهم يجيئون بعده من حيث المنزلة والمقام . كان ذلك الرجل صاحب اللحية زعفرانية اللون بطيء الفهم ، واسمه سليمان Sleyman ، وهو ابن عم حمود . سألته ، "هل أنت الذى التقيتك ؟" ولكن الرجل ابتسم ، ولم يرد على سؤالى . حمود : "انظر جيداً ! هل كانوا مثلاً ؟ ألم نكن نحن الخياليين ؟ - لقد كانت مباراة ، يا خليل ، حاولنا من خلالها معرفة من الأطول نفساً من بين هاتين الفرسين ؛ ما رأيك أنت ؟ خيول الإنجليز أفضل ، أم خيول نجد ؟" - وقف حمود كى ينصرف طلباً لقسط من الراحة (منزله فى مكان آخر من القصر) ، ووقفنا جميعاً معه . فى ذلك المنزل - الذى يوجد بالقرب من بركة عامه يجرى تغذيتها بالماء من هذا الفناء المزروع بالنخيل - يوجد أطفال حمود ، وزوجته وأمها ، إضافة إلى إخوانه الذين يصغرونه سناً ؛ ولكنه بحكم أنه صاحب سمو ملكى ، فهو له مسكن مستقل خاص به هو (ينام فيه) ويقع داخل القلعة . وأمراء حائل يلبسون ملابس مثل ملابس البدو الرحل ، ولكنها جديدة ونظيفة ومن خام ممتاز : والتونك الطويل الواسع ، الذى يرتديه الناس هنا فى المدينة ، لونه أبيض ناصع ، ويضع كل واحد منهم على كتفه عباءة الأعراب المصنوعة من أجود الأصواف البغدادية ، أو من القماش الأسود الذى يجلب من أوروبا . وهم يرتدون الهجو haggi على أجسادهم شأنهم فى ذلك شأن بقية البدو الرحل فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

كانت الغرفة التى أسكنها مثل زنزانة ضيقة ومظلمة وغير نظيفة ؛ - أخبرونى أيضاً أن يهودياً ، مع مجيئه أول مرة إلى هنا ، أسكنوه فى تلك الغرفة ! كان ذلك اليهودى واحداً من يهود بغداد ، وهو الآن مسلم ثرى متزوج ويعيش فى حائل ، وأحواله تتحسن بصورة مستمرة بفضل بركة صهره لىان Laban ؛ هذا الرجل له بيت طيب فى البلدة ، كما أن له محلاً فى السوق ، يبيع فيه الأقمشة والتمور والبن للبدو الرحل ؛ وقد أنجبت له زوجته الحائلية (نسبة إلى حائل) طفلين . كان الناس هنا يصيحون فى ، "اعترف أنت يا خليل" أيضاً مثلاً فعل ذلك الرجل "قل لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" ، وستكون لك ثروة مثل ثروة ذلك الرجل ، والأمير هو الذى سوف يوفر لك مثل هذه الثروة . واعتباراً من طلوع نهار اليوم التالى كان هناك أمام باب النصرانى جمع كبير من المرضى ومن الحضريات العاطلات ، بقوا ساعات طويلة

أمام باب المنزل يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث ، دون أن يتركوا لى ولو ساعة واحدة أحصل خلالها على قسط من الراحة. كانوا يطلبون منى أدوية ، مع وعود منهم ، بأنهم سيدفعون الأتعاب عندما يتأكدون من صلاحية الدواء وجودته ، غير أنهم لن يدفعوا تلك الأتعاب فى الوقت الراهن". وعندما طلبت منهم دفع التكلفة الأساسية للدواء ، لم يلقوا لذلك بالا ؛ "أرجو أن لا يجرى أحد منكم إلى هنا مرة ثانية ليساومنى ويكاسر معى ، لأننى لن أوافق على ما تقولون" ، ولقطع العلاقات معهم خرجت من سكنى وأغلقت الباب خلفى . وبينما كنت جالسا أمام دارى أثناء نسيم العصر العليل مر على حمود ومعه أصدقائه ؛ توقف الرجل ليحيينى ، وطلب منى الحضور لتناول العشاء ، وأرانى سيفه ، الذى يحمله فى يده من مقبضه ، مثل البدو الرحل تماما ، وقال : "ما رأيك فى هذا السيف ؟" - والناس هنا لديهم فكرة مؤداها أن كل أولاد النصارى يكونون دارسين لحرفة المعادن . وعندما أخرجت السيف من جرابه - لم يكن صلب ذلك السيف من النوع الدمشقى - وأردف حمود قائلا : "هذا الصلب إنجليزى" (من صناعة أحسن الدول المسيحية) : وقد حصل على ذلك السيف من ابن سعود وأنه دفع ألف ريال ثمنا لذلك السيف . قلت له "يبدو أنه من النوع الممتاز" ، وردد الكلام من بعدى مبتسما بطريقتهم الخاصة ، "إنه حقا ممتاز" . والعرب ، أهل الجزيرة العربية ، يقيمون السيف باعتباره أمضى الأسلحة ؛ وكل واحد منهم يود أن يكون له سيف من أجود الأنواع .

عند غروب الشمس جاء عبد من مقهى عبید Abeyd يدعونى لتناول العشاء . وقد جرى العرف أن يتناول حمود عشاءه على مائدة عبید عندما لا يكون مدعوا لتناول العشاء مع الأمير ؛ والمعروف أيضا أن ماجد Majid ولد حمود الأكبر ، يتناول العشاء هو ومدرسه مع والده ؛ وبعد أن يفرغوا من تناول العشاء يجرى تقديم الطبق نفسه أمام بقية أفراد العائلة من الرجال . هذا الطعام البسيط له قيمة غذائية كبيرة ، وهو يتكون من لحم الضأن فوق كومة من أرز التمن ، المضاف إليه الزبد ، ومتبل بالبصل ، ونوع من الكارى . بعد أن فرغ العبد من صب الماء على أيدينا ، من إبريق من المعدن ، على طشت صغير ، جلسنا وقد ربّعنا أقدامنا أمام طبق كبير مطلى بالقصدير ، موضوع فوق الأرضية المفروشة بالسجاد . والعرب عندما يعزمون على أحد لتناول

الطعام يقولون : "مد mudd يدك Yédak ، ثم سمى "بالله" Bismillah ، ويبدون بعد ذلك تناول الطعام باستخدام أصابعهم . وهم يجلسون لتناول الطعام فترة لا تزيد على ثمانية أو عشر دقائق ، يصلون بعدها إلى مرحلة الشبع التام ؛ وهنا يقدم العبد سلطانية الماء ، ليشرب كل واحد منها قليلاً من الماء ؛ وينهضون واقفين بعد ذلك ليقول كل واحد منهم : "الحمد el-hamd لله lillah" ، ثم ينصرفون بعد ذلك لغسيل أفواههم وأيديهم :- كان العبد قد أحضر لنا صابوناً مبشوراً . وبعد الغسيل يعودون إلى أماكنهم منتعشين لتقدم لهم القهوة البهيجة بعد ذلك ؛ ولكن مُصَلِّح القهوة ، شرب من تلك القهوة في البداية وقبل أن يقدمها لنا - وذلك من باب طمأنة خوف الأمير - . والعرب لا يعرفون مآذب الطعام ؛ وهم لا يمكن أن يصدقوا أن مخلفات الطعام نوات العناصر الثلاثة المأمولة (في بعض الأراضي السعيدة) لا يمكن أن تقيم أود الحياة ؛ كما أن منظر الرجال وهم جالسين يشربون قد يبدو لهم - حسب فهمهم - نوع من الحياة الوثنية المريعة . القصر هنا ليست له مصروفات باهظة ، أو هدايا منزلية لتقديمتها لنوعيات معينة من البشر . وأمرأء الشَّمَر هنا يفطرون بعد شروق الشمس مباشرة على شيء من الخبز المخمور وشيء من الزبد مع شيء من الحليب ؛ وعند الظهر يقدم لهم طبق من التمر ؛ ويتناولون طعام العشاء عند غروب الشمس ، كما سبق أن أوضحنا ؛ والأمير والشعب يتساوون عند تناول الطعام . والشيطان لا يتسلل إلى طبق طعامهم ؛ وكل همهم ورجائهم البشرية تكمن في متعة الحريم الإسلامية . - أذكر أنني سمعت ، من بعض الناس الذين يعرفون السلطان عبد العزيز ، أن سلطان الإسلام هذا ، رحمه الله ، كان نهماً لا يشبع من تناول الطعام . ولم تكن والدته تضع أمامه سوى طبق واحد هي التي تنوqته وأكلت منه وأشرفت عليه ؛ وأن ذلك الطبق هو الطبق التركي اليومي الذي يطلقون عليه اسم "البلاو" Pilaw (وهم يقولون هنا : إن ذلك الطبق جاء في عهد تيمور لنك^(*) Tamerlane) ويتكون من الأرز المسلوق ولحم الضأن ؛ ويقال أيضاً إن سلطان الإسلام كان يمتنع عن شرب القهوة والدخان

(*) Tamer Lane : تيمور لنك أو تيور الأعرج ، إمبراطور المغول - تولى عرش سمرقند ١٣٣٦-١٤٠٥ م وأخضع إمبراطورية التتر ، وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهر الأندلس والكنج . ثم اتجه إلى آسيا الصغرى وأسر السلطان بايزيد كما حاول انتزاع سوريا من الدولة المملوكية . (المراجع)

(الأسباب ربما تكون سماوية). سمعت من حمود أنه ذبح الشاة على شرفى وتكريما لى؛ ومعروف للجميع هنا، أن تلك الشاة التى ذبحت للعشاء إنما جرى شراؤها من السوق .

بعد ذلك بساعة أو ساعتين ، وعندما يسمع الناس صوت المؤذن ينادى لصلاة العشاء ، ينهض حمود واقفا فى الحال ، ومعه الجماعة . وهنا يتقدمهم عبد يمسك فى يده جريدة من جريد النخل وقد أشعل فيها النار ؛ ويخرج الجميع لأداء الصلاة فى المسجد ، الذى يقع فى الطرف البعيد من المسهاب (الميدان العام)، محاذيا لغرف الضيافة، ولكنه مفصول عن تلك الغرف بواسطة شارع عام. - ولما كان هؤلاء الناس أمراء على الناس هنا ، فهم يكونون خدم مطيعين للدين !

وعندما يعود حمود من الصلاة ، يقوم العبد الذى يكون فى انتظار عودته بفرد سجادة صلاة صغيرة أمامه ! ويسجد صاحب السمو على تلك السجادة مستقبلا مكة المكرمة) ، وذلك من باب تمام الصلاة . سألت حمود ذات مساء ، ألم يؤدى صلاته بالفعل فى المسجد ؟ - قال حمود ، تلك الصلوات التى تؤدىها فى المسجد هى الصلوات الشرعية ، وما أصليه هنا هو السنّة . لم يتوقف الجالسون فى القاعة عن الكلام أثناء أداء حمود لصلاة السنّة - ولم يصلى معه أحد . كانت بقية الجماعة ، من غير الأمراء ، فلماذا يكلفون أنفسهم بتلك الزيادة الدينية ! والمسلم كلما علا قدره ، لابد أن يكون أكثر ورعاً ، حتى يستحق نعم الله عليه . وحمود لا يفوت الصلاة فى المسجد مطلقاً ؛ وفى كل ما عدا ذلك ، يأخذ كل نصيبه من الدنيا من منطلق أنه رجل قوى وسعيد ويشوش ، ويبعد عنه مشكلات هذه الدنيا . وحمود ربما يكون أصغر سنا من الأمير ، وهو بقامته الفارعة ، وحسبما يقول الناس هنا ، ربما يكون شبها لأبيه الذى كان شاعراً من شعراء المعارك الحربية : وحمود هو والأمير محمد بن الرشيد ليسا سانجين فى المهارات التى ورثاها عن والديهما فى إطار هذه الأسرة المالكة ؛ - والناس هنا يبجلون ويمتدحون ذلك الذى يفعلانه أكثر من تمجيدهم لما يفعله الكبار المسنين .

الأمير محمد لا يحضر صلاة العصر فى المسجد الكبير سوى مرة واحدة ؛ وهو يؤدى صلاته فى مسجد منفصل أو خاص فى داخل القلعة ، أو قد يؤدى الصلاة داخل

غرفته الخاصة . كما أن مسألة خروجه عدة مرات من القصر لأداء الصلاة مع الناس تشكل نوعاً من المتاعب له ولأولئك القائمين على خدمته ، ولأهل المدينة أيضاً ، نظراً لأن هؤلاء الناس يملكهم الخوف ! - والسيف الذى دخل هذا البيت الملكى ينبغى أن لا يفارقهم مطلقاً - وهذا هو ما يدور بخلد الأعراب - إلا بعد أن يتم تدميرهم والقضاء عليهم . لقد أطاح الأمير محمد برؤس أقاربه الكبار المحيطين به ، ولم يبق منهم أحداً سوى حمود . أما الصغار فهم يكبرون : يضاف إلى ذلك أن محمداً يتعين عليه رؤية الكثير من الأحلام المزعجة ، وهو بالرغم من حراسته المشددة ، يتطلع دوماً إلى عقاب الجنس البشرى . ترى ، هل يتعين عليه الوثوق بنفسه ويمر من الميدان العام (المسهاب) عدة مرات فى اليوم الواحد ، وفى مواعيد محددة ؟ - لقد فشل الكثيرون فى ذلك . والمعروف أن كلا من حمود هو والأمير محمد يؤثران فى سلوكيات وتصرفات الناس : فهذا هو حمود بصراحته الواضحة ، ومحياه المشرق المبتسم يبدو وكأنه واحد من عامة الناس وقريب جداً من حديثهم وكلامهم ؛ وهذا هو الأمير محمد ، تراه لطيفاً فى بعض الأحيان ، بالرغم من غلظته الملكية ، وتراه أيضاً يتكلم كلاماً لطيفاً فيما بين هذا وذاك ؛ والأمير محمد رجل داهية وصعب التفاهم . ومحمد عندما يخرج من القصر ترى عينيه زائغتان مثل عيني الصقر ، وهو عندما يمشى يختال فى مشيته كما لو كان يمشى على المسرح ، ويكون دوماً فى مقدمة حاشيته . وحرسه . وعندما يكون حمود بصحبة الأمير محمد ، فهما يسيران أمام الحاشية . وأهل المدينة (برغم استحالة ذلك) يقولون "أنهم يحبونه ويخافونه" : - وهم يثنون على الأمير الذى ينعمون بالطعام فى ظل حكمه ، ويحسون بالأمان ، ويرون كل شئ يزدهر من حولهم ؛ ولكنهم يخشون حده ذلك الأمير وصرامته التى تولدت بالفعل من سيف ذلك الحاكم .

فى مساء اليوم التالى ، أرسل الأمير محمد يطلب منى الحضور إلى مقره : كانت جدران المقر مدهونة بالمغرة . عندما قلت للأمير إننى إنجليزى ، وجدت أنه لم يكن يفهم ذلك من قبل ! ولكنى وجدت فى هذه المرة لطيفاً وكيساً . كان يجلس مع الأمير رجل داكن البشرة ضخم الجثة ، اسمه صالح ، Salih (قالوا لى إنه من البدو الرحل ،) راح يراقبنى بعينين مترممتين قاسيتين ، ثم قال فى النهاية بصوت قاسٍ يندرز بالخطر ، "ألا تتطلع إلى رؤية بلدك مرة ثانية ؟" - "أجبتة ، كل شئ بيد الله" . - "تعجب الأمير ،

لا يا صالح لا ، لقد قال خليل كلاما طيبا جداً ، عندما ذكر أن كل شيء بيد الله .
ثم سألتني الأمير محمد الأسئلة نفسها التي سألتني حمود إياها . "ما هو التلغراف ؟
لقد شاهدناه (في بغداد يوم أن كان يعمل مرشداً لبعثة الحجاج "الفارسيين") : لكن
ألا تستطيع أن تعرفنا الطريقة التي يعمل بها التلغراف ، الذي هو شيء مدهش ؟" -
"التلغراف نوع من الارتعاش - الذي نستطيع من خلاله إرسال بعض الإشارات
المعينة، التي تتولد عن تحات المعادن ، بفعل الأدوية القوية التي من قبيل الخل . الأمير:
إذن ، التلغراف نوع من أنواع تشغيل الأدوية ، هل لك أن توضح لنا ذلك ؟" - إذا
افترضنا أن رجلا يرقد ممدداً في المسافة ما بين مدينة حائل وإستمبول Istanbul،
وأن ذلك الرجل كان له طول فارغ يصل من هنا إلى هناك بين هاتين المدينتين ؛ وإذا
ما قام أحد بإحراق قدمي ذلك الرجل الموجودتين في حائل ، ألن يحس ذلك في رأسه
في اللحظة نفسها ، وهذه الرأس في استمبول ؟" - "وما هو الزجاج ؟" سألتني أيضا
عن البترول ، وسألتني أيضا عن القارة الجديدة ، وعن موقعها ، وهل هي داخل
"المحيط" . كان الأمير ، ينصت بطريقة فائقة إلى روايتي عن اكتشاف الأرض الجديدة
عبر تلك البحار الكبيرة ، ثم سألتني : "ألم يكن هناك بشر يعيشون في ذلك البلد عندما
جرى اكتشافه ؟" وأخيرا طرح على السؤال التالي : "ما رأيي في حائل ؟ وهل شارع
السوق ، مناسب وجيد أم لا ؟ (ولكنه أجاب بنفسه) لكن ، آه ، إنه سوق أعراب !"
إنه صغير إذا ما قارناه بالأسواق التي في المدن الرئيسية في هذه الدنيا . سألتني :
"هل سمعت عن جبل شمر في بلدي ؟" كان الحاكم مسرورا عندما فهم أن النصاري
لا يلهثون أو يتطلعون إلى بلاده الصحراوية ؛ ولكنه غضب واستاء عندما علم أن أخبار
تلك الأشياء الإنسانية المزعجة قد وصلت إلى مسامع الناس في أراضي بعيدة . حدث
أن طرح حمود على هذا السؤال نفسه في مناسبة أخرى ، ثم أردف متسائلا أيضا ،
"ماذا ! ألم تسمع مطلقا عن ابن سعود الوهابي !" بعد أن أمضيت ساعتين مع الأمير
، وعندما أوشكت الساعة على العاشرة ، قال الأمير لرئيس الحرس ، الذي يقوم على
أمر حراسة غرفة نوم الأمير : "حان موعد إغلاق الأبواب !" ثم انصرف بعد ذلك .

في بدايات وصولي إلى بلدة حائل ، كنت إذا ما تجولت خلال سوق المدينة ، أرى
الأطفال ، والجهلة وكذلك البدو المساكين يتدافعون نحوي ، لأبدو في وسطهم مثل ديك

غريب ، راحت الطيور الصغيرة تعجب منه ، إلى أن يجيء من أصحاب السلطة واحد يخلصنى من هؤلاء الناس وهو يقول لهم : "الله ، إن إساءة معاملة الغريب على هذا النحو ستغضب الأمير ! " وفى كل يوم كان بعض أصحاب الجاه والمكانة يدعونى لشرب القهوة وتناول الإفطار ، وكانت غالبية هؤلاء الناس تطلب مشورة الحكيم فيما أصابهم من أمراض ، وقلة قليلة منهم هى التى كانت تتحرك بدافع الكرم ، نظرا لأن ضمانهم تحضهم على عدم التراحم مع أعداء الدين المنقذ ، ولكن المسلم الذى يجيء إلى حائل ، بل وحتى الفرنجى الغريب الذى ينحنى لهم ويتفق معهم ، يجد الشمر الحضر كرماء وهم كرماء بحق .

فى البداية استدعونى لمقابلة شخص يدعى غانم Ghranim ، صانع الأمير وشقيقه غنيم Ghruneym . كان هذان الأخوان ثريين تماما ، ومن طائفة الصناع ، وقد كانا قبل ذلك فى منطقة الجوف ، التى يوجد فيها بعض من أفضل الصناع ، وبخاصة فى مجال المعادن ، والخشب والأحجار ، فى الجزيرة العربية البدوية . وعندما استولى عبيد بن الرشيد على منطقة الجوف ، وجد أن هذين الرجلين هما أفضل الناس فى حرفتهما ، ولذلك أحضرهما بالقوة إلى مدينة حائل . وهذان الرجلان مشغولين دوما فى صناعة أشياء للأمرء ، وذلك فيما يتعلق بصناعة السيوف وتجليد مقابضها بالفضة والذهب ، كما كانا مشهورين أيضا بتجليد "دباشك" البنادق بصفائح الفضة والذهب . وكان يجرى إرسال جميع السيوف والبنادق القتالية التى كان بن الرشيد يأخذها (من الببو) أثناء الغزو ، إليهما لإعادة تشكيلها . ثم وضعها بعد ذلك ، ضمن سلاح القلعة . ومن بين هذه السيوف توجد بعض السيوف الفارسية والهندية الممتازة ، التى يتسلح بها بعض حراس الأمير . كان غانم ، أيام شبابه ، يتجول بمهنته هذه فى كل أنحاء الحوران ، ولذلك راح يسألنى عن شيوخ الدروز ، الذين سبق له التعرف عليهم ، كما سألنى أيضا عما إذا كانوا على قيد الحياة . كان غانم متشددًا ، وكان قراره فى يده ، وتأملاته لم تكن من قبيل تأملات الحكماء فى معظم الأحيان : هذا الرجل الذى كان يلقانى يوميا ، قال لى قبل ذلك كلاما مخالفا : "أنا عدوك ، يا خليل ! " وهاهو فى النهاية يعرض على خدماته ونصائحه الودية - لقد بنى لنفسه ذلك المنزل الطينى وزينه بكل فنون مهنته . فقد وضع على جدران المنزل المبنية بالطين والمدهونة بالمغرة ، نماذج

على شكل طيور وزهور ، كما زين تلك الجدران أيضا بآيات من القرآن مكتوبة بالجبس الأبيض ، - الذى يعثرون عليه فى كل مكان فى رمل الصحراء : السواد الأعظم من بيوت حائل مبنية بناية جيدة بالرغم من رداءة المادة المستعملة فى البناء . لقد بنى غانم جدارا مزدوجا مع وجود شبك فى كل جدار ، بحيث يسمح بدخول الضوء ، ولا يسمح بدخول أحوال الطقس . لم أرى أثراً لهباب الحداد داخل بيت هذا الرجل ، ولكن غانم كان يجلس مرتديا ملابس نظيفة ، وهو قائم بعمله ، فى أفضل غرفة من غرف منزله ؛ كانت أرضية المنزل مفروشة بحصير جميل ، وكانت الأماكن المخصصة للجلوس مفروشة بالسجاد البغدادي ، قام شقيقه غنيم باستدعاء الحكيم إلى منزله لتناول طعام الإفطار ؛ كان أخوه متوانيا فى حرفته بسبب المرض ، وقد حذره الأمير ، فى أحيان كثيرة ، بأنه سوف يتخلى عنه . وقد أرانى ولده مسدسا من مسدسات الجيش [من الهند] شاهدت عليه علامة البرج ؛ "الناشكاهات" - التى لا يعرفون كيف يستعملونها ؛ - نزعوها عن المسدس .

لما كان غانم يهوديا دخل فى الإسلام - فقد سموه "عبد الله" ، وأعطوه لقباً هو "المسلمانى" el-mostiemanny - هذا الرجل جاء يدعونى لشرب القهوة فى بيته - سألتنى زميل عبد الله : "هل أمتى تحب اليهود ؟" أجبت على سؤاله ، نحن لا نسأل الناس عن دينهم ، ولذلك فهم يكونون رعايا طيبين . "وصلنا إلى بوابة اليهودى ، ودخلنا بيته ؛ كانت الجدران من الداخل مطلية جيداً بالمغرة ، ومرسوم عليها ورود صفيرة بيضاء ومكتوب عليها أيضا آيات من القرآن باستعمال الجبس . قرأت "لا قوة إلا بالله" وعند المدخل قرأت بدلا من كلام موسى (عليه السلام) الشهادة الإسلامية مكتوبة بحروف كبيرة "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله" . كان عبد الله شابا ناضجا من بغداد ، وجهه مشرق مثل وجوه المسلمين ، اللهم باستثناء تلك العلامة التى وضعها الله على أسارير الوجوه العبرية . وفى الوقت الذى تغيب فيه رفيق عبد الله لحظة ، سألتنى بصوت هامس "هل معنى - (لم أستطع سماع بقية كلامه) - "ماذا تقول ؟" "براندى Brandi ، ألا تعرف (هذه الكلمة الخليجية الفارسية الإنجليزية) - براندى ؟" وعندما دخل عليه زميله ، وربما يكون شقيق زوجته ، قال عبد الله بصوت مرتفع "لو أنى دخلت الإسلام ، سيصبح بيته بيتاً لى أيضا أنا وهو . ثم همس بعد ذلك بكلمة فى

أذننى - "لدى شىء أود أن أقوله لك ، ولكن ليس الآن " . كان قد مضى على مجيء ذلك اليهودى من بغداد إلى حائل سبع سنوات . وبعد انقضاء أيام الضيافة ذهب إلى عبيد بن الرشيد قائلاً له : إنه يود أن يدخل فى الإسلام "على يد عبيد" : - وتقبل عبيد كلام اليهودى بيده الرسمية الملطخة منذ القدم بالدم والعنف . أعطت الأسرة المالكة المسلمانى "آلف ريال " عقب دخوله فى الإسلام ، وسمح الأمير له بالإقامة فى حائل ، وأن يمارس فيها البيع والشراء ، - وعرف عبد الله الفن القديم ، - إذ أصبح عندئذ مهنيا مرموقا . كنت قد سمعت بعض الأشياء عن ذلك الرجل وأنا فى تيماء ، وأنه "يقرا من كتب مثل الكتب التى شاهدها معى" : ومع ذلك وجدت أنه رجل غير متعلم ، - والذي لا شك فيه أن هذا الرجل كان يقرأ اللغة العبرية ، غير أنه ينكر ذلك حالياً .

أحضر جار Jar الله Ullah ، أحد تجار البلدة ، دفتر من دفاتر الحسابات الأجنبية . كان ذلك السجل عبارة عن مجلد ضخيم طبع فى أمستردام فى القرن الماضى ، والمجلد مطبوع باللغة العبرية ! قلت لجار الله : "عليك بهذا السجل وعبد الله ، فهذه هى لغة اليهود " - "يقول لى عبد الله أنه لايعرف هذه اللغة " - هذا الكتاب أحضر إلى هنا قبل عدة سنوات من إنقاذ قافلة بغداد ، التى هلكت من العطش وهى فى طريقها إلى سوريا . كان دليل تلك القافلة "قد أصابه الله بالخبل فى عقله" فضل طريقه ومعه القافلة فى الصحراء ، وعجز المشاركون فى القافلة عن العثور على آبار الماء ، ولم يستطع أحد إنقاذ نفسه سوى قلة قليلة من البشر الأقوياء ، الذين راحوا يغامرون وينزلون عند البدو . وأخذ البدو الرجل كل ما وصلت إليه أيديهم من أحمال الإبل التى انقلبت على الأرض طوال "ما يزيد على شهر من الزمن" . وقد عثر على بعض الكتب بين هذه الأشياء ، ولم ينقل الناس إلى حائل سوى قلة قليلة من تلك البضاعة غير الثمينة .

قيل لى إن عبد الله ، يهودى المولد ، كان فى منتهى السعادة فى حائل ؛ "أرسل له والداه كثيراً من الرسائل التى تحمل أكبر العروض إذا ما أراد العودة والردة ، ولكنه كان دوما يرفض استلام تلك الرسائل . تخلى عبد الله عن القانون وعن الوعود ؛ - ولكن الرجل الذى تحركه مظاهر الطبيعة الإنسانية ، لايمكن أن ينتقل بمثل هذه السهولة من كل ذلك الذى نشأ وتربى وترعرع فيه إلى شىء آخر فى هذه الدنيا !

عزمنى جار الله فى بيته الكبير الواسع الذى يقع فى الشارع العلوى بالقرب من بوابة قفار : كان جار الله ، واحداً من كبار تجار الحبوب ، فى الطريق إلى المنزل التقينا رجلا يدعى نصر ، وهو بدوى متمزمت من "رجاجيل" Rajajil قبيلة حرب ، كما التقينا مصادفة أيضاً رجلاً آخر اسمُه عنبيير Aneybar ، ودعاهما جار الله للذهاب معنا إلى منزله : هذا المضيف الثرى ، المتشدد بعض الشيء ، قدم لنا إقطار ممتازا . كان عنبيير حبشياً Habashey ، من الأحباش الذين ولدوا فى أسرة عبد الله بن الرشيد ، ولذلك فهو يعد أخاً عبداً من إخوان طلال ، ومتعب ومحمد : يضاف إلى ذلك أن اسمه ينسب إلى اسم الرشيد . وهذا العنبيير الخليع ، الذى كان منغمساً فى الملذات ، كان شخصية كبيرة فى حائل ، فيما يتعلق بشئون الإمارة وذلك منذ عهد الأمير طلال . كان عنبيير نشيطاً وواسع الأفق ، وراقى السلوك ، ولكنه فى داخله كان يحمل روحاً غير روح العبد : فقد نشأ على هذه الأرض وتربى عليها ، كما كان كلامه مبالغاً وذنه متشككا مثل أهل الجزيرة العربية . - عندما عدت ثانية إلى حائل كان عنبيير يود التخلص من حياتى ؛ - ولذلك كانت الفرصة مهيأة اليوم ، لتناول العيش والملح معه .

عزمنى حمود مرة ثانية على العشاء ، وكنت أستحم فى ذلك الوقت ، (وقال أحدهم) يالبياض بشرته ! " ورد عليه حمود همسا قائلاً : " إنه البرص " - " الحمد لله ، تعجبت ليس فى بلادى أناس مصابين بهذا المرض . " - " آخ ! قالها حمود (وهو بعيد قليلاً لأنى كنت أسترق السمع على كلامه) هل هذا صحيح ؟ إخ ! إخ ! (لأنه لم يكن لديه ما يقوله أفضل من ذلك ، ثم أردف قائلاً) الحمد لله . " قال شخص آخر : " والله ، لقد رأيت فى بغداد امرأة لها مثل هذه البشرة البيضاء ، وشعر أصفر ، إلى حد أن من يراها يحسب أنها ابنة خليل . " - (قال ولد عبید) لكن خبرنى ، ألا يشتري الأثرياء فى بلدك النساء الشركسيات ؟ - وكيف تكون الأحوال عندكم عندما يكون الإنسان ولدا لامرأة مشتراة (عبدة) ، وأنا أتساءل ، هل هذا أمر مقبول عندكم ؟ - وعندما وجدت أن ذلك الرجل البربرى غير المتحضر ، بدأ يحسبنى ، بسبب ابيضاض بشرتى الفظيع ، ابناً لامرأة شركسية عبدة ، رددت عليه رداً جامعاً مانعاً : " شراء اللحم البشرى غير معروف ولا اسم له فى بلادى : أما فيما يتعلق بأولئك الذين يتجرون فى العبيد فقد أرسلنا الله للقضاء عليهم . نحن نطارِد ونصطاد مراكب العبيد فى كل البحار ،

مثلاً تصطادون أنتم الضباع . أحس حمود بشيء من الإرتباك ، عندما كشفت له عن بعض الخلل فى أدابهم وسلوكياتهم ، (.....) (*) وأن ذلك لم يكن فى ديننا ، كما تباهيت بعدائنا البحرى (الذى أصاب أكياس نقودهم بالتلف فيما يتعلق بأهداف العالم الإسلامى) . - يا خليل ، هل يأكل النصارى لحم الخنزير ؟ - إى بالله ، ولحم الخنزير لا يختلف عن لحم الضب الذى تأكلونه . كما أنه لا يختلف أيضاً عن لحم الحيوان الشيهم الذى تأكلونه أيضاً . ألا يأكل البدو لحم الذئب ، والثعالب ، والضب والفئران ؟ - ألا يأكلون لحم البوم ، والحد Kites والنسر الذى يتغذى على الجيف ؟ ولكنى لا أكل أيا من ذلك . رد على حمود ، بإنسانيته البسيطة ، ما قصده يا خليل ، لم يكن يتعلق بمسألة قذارة اللحم وإنما قصدت أن أقول : إن النبى (ﷺ) هو الذى حرم علينا ذلك ؛ واستدار حمود بعد ذلك إلى سليمان وقال له : أذكر أن عبد الله ، الذى جاء إلى حائل فى عهد الأمير طلال ، وعالج بندر Bunder ، قال لوالدى إن لحم الخنزير طيب جداً . تساءل حمود بغد ذلك ، عندما وجد أن لسانه يعبر عما بداخله (وما هو الزواج عند النصارى ؟ هل هو مثلاً يقول الناس [فى سائر أنحاء نجد] مثلاً يغشى الحصان الفرسة ، وهكذا يتكاثر النصارى (.....) (**).

بالرغم من أن العرب لا يأكلون اللحم المحرم ، إلا أن البعض منهم يشربون ما يسمى دم الكروم ، أو إن شئت فقل ما Ma "العنب" El-Enab ، الذى هو عبارة عن عصير العنب المتخمّر . وهم يأتون بذلك العنب من بساتينهم ، وهو ينضج فى منتصف فصل الصيف ، أبلغنى ماجد أن ماء العنب هذا يجرى تحضيره فى منزل والده ؛ وسألنى هذا الصبى إن كان لدينا شيء من هذا القبيل ، وكان ذلك السؤال بناء على توجيه من والده . والمسلمون ، فى ظل هذا الترف الدينى ، يتوقون إلى ذلك الشراب المحرم ، متصورين أن ذلك يمكن أن يساعدهم فى مسألة معاشرتهم لزوجاتهم .

عند تقديم القهوة فى منزل حمود ، كنت أعجب دوماً من أنى كنت الوحيد بين الحاضرين الذى لا تصب له القهوة ؛ وفى هذا المساء وبينما كان مقدّم القهوة يمر من

(*) رأينا حذف عبارة تمس الدين الإسلامى . (المراجع)

(**) عبارة غير لائقة رأينا استبعادها . (المراجع)

أمامى وفى يده دلة القهوة والفناجيل ، أشرت إليه وعلى الفور ، صب لى فنجالاً من القهوة . وفى يوم آخر ، تعجب ماجد الذى كان يجلس إلى جوارى قائلاً : "آلا تشرب القهوة ، يا خليل ؟" وأجبت قائلاً : "تأكد ، أننى أشرب القهوة ،" وهنا صب مقدم القهوة لى فنجالاً ، - ونظر حمود رافعا رأسه إلى الأعلى تجاهنا ، كما لو كان قد قال شيئاً ما . وأنا أخمن أن ما قاله كان مجرد شئ من المجاملة ، كيما يجعلنى أحس بالاطمئنان . فى البلاد الإسلامية ، تكون الوفاة السرية للبشر ، عن طريق فناجيل القهوة . والأمير عندما يدخل منزل أحد من الناس لا تقدم له القهوة ، كما أن القهوة لا تقدم إلى أى أحد فى سكن الأمير ، ولكن الأمير يطلب هو القهوة إذا ما أراد ذلك ؛ هذه هى المخاوف المريعة التى تتملك حياتنا هؤلاء الناس اليومية .

كان من بين الجالسين فى المساء الذين كانوا يزورون حمود فى قهوة عبيد ، شخص كانوا ينعثونه بالرجل النبيل ، ولكنه لم يكن سوى مجرد تاجر أجنبى ثرى اسمه سيد Seyyid محمود Mahmud ، كبير المشاهدة Mesháhada ، أو إن شئت فقل: تاجر مشهد Meshed ؛ والمشاهدة عبارة عن خمس وثلاثين أسرة مقيمة فى حائل ؛ وكل تجارة السوق (وكلها سلع وبضاعة من بلاد الرافدين) فى أيدي هؤلاء المشاهدة تقريباً ؛ ومشهد (المكان الذى أستشهد فيه) [سيدنا] على هى من أنقاض مدينة الكوفة Kufa ، وهم مسلمين فرس يعتنقون المذهب الشيعى .

هؤلاء المنشقون يجرى التفاضى عنهم ويكرههم الناس فى مدينة ابن الرشيد ، وبالرغم مما سبق ذكره فإن هؤلاء المشاهدة من المواظبين على العبادة وعلى أداء الصلاة مع الناس فى المسجد الكبير . والبدو المتزمتون يكرهون هؤلاء المشاهدة كراهية شديدة ، ولذلك فقد سمعت هؤلاء البدو يقولون : "لا شئ بالله ، أنجس من أولئك المشاهدة الملاعين . " والمشاهدة باعتبارهم من رجال الشمال المتحضر والمتمدن ، لديهم حساسية شديدة للأخبار السياسية ، ولذلك قام البعض منهم ، عندما رأونى أمر من أمامهم ، باستدعائى إلى دكاكينهم وراحوا يسألونى عن أخبار الحرب - كما لو كانت إقامتى فترة طويلة فى الصحارى قد منعتنى من أن يكون لدى الجديد الذى يمكن أن أقوله !- لم يكن أولئك المشاهدة يعرفون شيئاً عن "انتصارات" السلطان التركى ! كان أمراء حائل (الذين يشبهون البدو) قد عرفوا شيئاً من أولئك المشاهدة عن دول العالم .

ولذلك قال لى حمود ذات مرة وهو يحس نشوة كبيرة : "ما رأيك ، هل ستدوم دولة السلطان (الإمبراطورية العثمانية) أطول من ذلك ؟" - "الله أعلم" - "إي ! إي ! ولكن خبرنا ما هو موقف أهل بلدك ؟" - "لقد ضعف موقف السلطان تماما " . لم يشعر حمود بالأسف أو الندم (فهم لا يحبون الأتراك) ، ثم سألنى ما إذا كنت قد زرت الهند ؛ - الأمير يرسل كل عام الخيول المباعة إلى الهند ؛ وتجار هذه الخيول يسمعون هناك أن الهند تقف إلى جانب الإنجليز . كان لدى حمود رجل متعلم ، هو مدرس ولده ماجد ، كان ذلك المعلم بحكم طبيعته ، متشبع بالدراسات الليبرالية . سألنى ذلك المعلم عن أخبار كثير من الأمم (الدول) النصرانية ، التى سمع عن أسمائها ، كما سألنى بصفة خاصة عن كل من فرنسا ، وبروسيا ، وعن النمسا ، أو إن شئت فقل عن الإمبراطورية النمساوية . "قلت له ، كل ذلك يمكن أن تقرأه بطريقة ممتازة فى كتاب معى ، عن الجغرافيا ، مكتوب باللغة العربية ، ومؤلفه رجل منا أقام فى الشام فترة طويلة ، والكتاب موجود فى غرفتى " . - قال حمود "أذهب يا خليل ، وعد إلى بذلك الكتاب" . وهنا أوفد حمود واحداً من خدمه ليضىء لى الطريق . عن طريق جريدة من جريد النخيل أشعل فيها النار .

"(سألنى حمود بعد أن عدت من غرفتى) كيف ! تعلم أهلك اللغة العربية ! فتحت الكتاب على الفصل المعنون "شبه جزيرة العرب" . راح حمود بنفسه يقلب صفحات الكتاب، وعثر على الأشعار الطلوة، "أوه! مرحبا بك ، يا نجد الحبيبة ، الدنيا كلها عندي ليست كهواء نجد ، رعى الله نجد ؛" وبابتسامة تنم عن السعادة والرضا ، ويتنهدة صغيرة ، سلّم هذا الوطنى ، وهو نفسه قصّاد(*) الكتاب إلى معلم ولده وأردف قائلاً : "كيف حدث ذلك ؟ - هل النصارى إذن "أهل" Ahi "أدب" Athab بمعنى "هل النصارى أمهة مؤدبة" ! وهل مثل هذا الكلام الجميل متداول بينهم ؟ هيه !- خليل ، هل هناك كثيرون ممن يقولون هذا الكلام ؟" هذا العمل لم يكن مقبولا من هؤلاء العرب ، لأن من ألفه كان من غير دينهم . أرشدت المعلم إلى الموضوع الذى ورد فيه ذكر حائل فى ذلك الكتاب، وهنا راح المعلم يقرأ بصوت عالٍ ، وعندما أغلق المعلم الكتاب، قلت إننى سوف

(*) قصاد : هنا بمعنى "شاعر" والكلمة عربية فصيحة . (المترجم)

أعبره هذا الكتاب ، وقد قبل حمود ذلك قبولا (فاترا) . ووضعت بين أيديهم أيضا كتاب المزامير "والد داود من سليمان" تلك الأسماء التي يستمع إليها هؤلاء الناس باحترام وإجلال، ولكنهم لم يعرفوا ولم يشاهدوا كتابهم. وهذا أيضا قد لا يرضيهم أو يسرهم ! نظراً لأن هذا الكتاب جاء من قبل النصارى ، أولئك الذين حرقوا الكتاب المقدس ؛ والذي لا شك فيه أن عنوان الكتاب أوحى لهم "بعبادة الأوثان" - المزامير El-Mizamir (باعتبارها أغاني كانت تغنى على الناي) ؛ ومع كل ذلك فهم لا يقررون .

"قال حمود، يا خليل ، هذا هو سيد محمود، ويود أن يسمع منك شيئاً عن الأنوية؛ لعك تزره فى بيته ، وسوف يضع أمامك شيشة ، - هذه الشيشة كيف للأجانب ولكنها لا تستعمل فى أخبرنى حمود ، فى مرة أخرى ، أنه لايعرف أحداً من التجار فى حائل ، يزيد دخله على ألف ريال ، وسيد محمود وحده ، هو واثنان أو ثلاثة آخرين من تجار الجملة هم ، على حد قول حمود ، الذين يربو دخل الواحد منهم على ألف ريال . وفيما يتعلق بالتجار الأجانب ، كان هناك إلى جانب التجار المشاهدة ، تاجر من بغداد ، وتاجر أيضا من المدينة (المنورة) ؛ - ولم يكن هناك تجار سوريين أو مصريين . طلب منى حمود أن ألقى نظرة على مدافع الأمير أثناء مرورى من أمام المضيف (قاعة الضيافة) :- وجدت أن عدد تلك المدافع يتراوح بين خمس أو ست قطع من مدافع الميدان الصغيرة ، كما رأيت على اثنين منها نقوشاً ألمانية . المدفعية التى من هذا القبيل لا تكون لها فائدة عندما تستعملها أيدى ممتازة ؛ ومع ذلك فهذه المدافع تستطيع داناتها تكسير الجدران المبنية من الطين فى البلدان النجدية . حصل أمراء الشمر على تلك المدافع من منطقة الخليج ، ومع ذلك فإن قلة قليلة من الأشخاص هم الذين يعرفون متى استعملت هذه القطع فى العمليات الحربية التى قام بها الأمير ، اللهم باستثناء سحب ذلك المدفع الكبير لإشراكه فى الحملة التى قامت بها بريدة على عنيزة ؛ ومع ذلك لم يستطع خدم الأمير استعمال ذلك المدفع . ولم يطلق هذا المدفع سوى دانتين فقط على مدينة عنيزة ؛ وقد ارتفعت الدانة الأولى إلى عنان السماء فى حين سقطت الدانة الثانية أمام أرجلهم على تراب الصحراء .

- أتناول الآن يوماً من أيام حائل : مضى الآن حوالى ساعتين على شروق الشمس ، وهذا هو الموعد الذى يصل فيه الأمير إلى المسهاب (الميدان العام) ليحضر

انعقاد المجلس الصباحى ، وهذا المجلس يشبه مجلس البدو الرَّحَّل . فهذا هو كبير الشيوخ يجلس علانية أمام الجميع مع الشيوخ أمام عامة الناس ؛ ومجلس الأمير يشبه المحكمة الشعبية ، فهو يجلس ليقوم بدور القاضى ودور الرئيس بين هؤلاء الناس . وهذه مصطبة مبنية من اللبن بطول جدار القصر المواجه للمسهاب (الميدان العام) ، وأمام المسجد ، وتمتد حتى بوابة البرج ؛ والمكان الذى يجلس عليه الأمير يقع فى المنتصف يرتفع قليلا عن بقية المصطبة وهو مبنى من الطين أيضا (وليس مفرودا عليه أى نوع من السجاد وذلك من باب التقشف والبساطة) ، ويوجد أمام مكان الأمير مصطبة صغيرة أسفل المكان الذى يجلس عليه الأمير ؛ والذى يجلس على تلك المصطبة الصغيرة هو كاتب الأمير أو إن شئت فقل : سكرتير الأمير ؛ هذا السكرتير اسمه نصر وهو يجلس عند قدمى الأمير . والمقعد الذى يجلس عليه حمود عبارة أيضا عن مصطبة صغيرة ، وهى أيضا أدنى من المصطبة التى يجلس عليها الأمير (وهى تقع بالقرب من باب القلعة . هناك أيضا مقابل جدران المسجد ، يوجد مقعد مرتفع ، يجلس فيه الشيوخ فى فترة العصر . عند انعقاد المجلس الثانى ، بعد صلاة العصر . وعلى الجنب ، وفى مواجهة الأمير ، يجلس القاضى . أو إن شئت فقل رجل الشريعة الإسلامية الذى يوجد الكثير من أمثاله فى حائل ، والذى يقوم فى الحالات الصعبة ، بتسجيل كلام الأمير ، وتفسير المعنى ، الخاص بالنص القرآنى . وعلى جانبيه الأمير يجلس الشيوخ ورفاق الحاشية؛ وعبيد الأمير يقفون أمام هؤلاء الشيوخ على الجانبين ؛ وفوق مصطبة طويلة من اللبن يجلس رؤساء الخدمة العامة ومعهم سراياهم ؛ ولى هؤلاء الرؤساء هم وسراياهم ، بدءاً بمن يجيئون فى المرتبة بعد الأمير ، يليهم البدو الزائرين الذين يجلسون حسب منازلهم وأهميتهم . - ترى الناس وهم جالسين هنا مثل انحناء القوس أمام المجلس ، وفوق تراب الميدان العام ، وترى "الرجاجيل" متكئين على سيوفهم ، وعلى جرابات سيوفهم ، ويقدر عددهم بما يتراوح بين مائة ومائة وخمسين رجلا ؛ الناس هنا هم جنود الأمير ، والجلادين الذين ينفذون أحكامه ، وكذلك أفراد عصابات الغزو ؛ إنهم يجلسون هنا (أمام الطاغية) فى المكان المخصص لمجلس البدو الرحل . هذا يعنى أن مجلس حائل مسألة يومية يصطف فيها السيّافة ، الذين يعمل الكثيرون منهم فى الخدمة المدنية فى المدينة ، فى غير ساعات المجلس . يدخل

المتقاضون فى هذه الدائرة المسلحة ومعهم المتهم والمسترحمين ، أو باختصار كل من له مسألة (لا تخص الإمارة) ، أو كل من يتعين عليه المثل أمام الأمير ؛ ويستمع الأمير إلى قضاياهم ، ولكل من له صلة بتحقيق العدالة : وهنا يجرى على الفور تنفيذ الأحكام التى يصدرها الأمير . وفى الشهر الذى أقمته فى حائل كان عدد من يحضرون المجلس كل يوم أمام الأمير لا يقل عن أربعمئة شخص .

هكذا يقرب الأمير نفسه من الشعب ومن الناس ، وبذلك يتعرف السواد الأعظم من شئونهم . وعدل الأمير محمد وحكمته الشعبية هما الأفضل ، ومن منطلق إنه هو نفسه ذاق البلاء والشقاء فى بعض الأحيان . والأمير محمد قاضى عادل ، شأنه شأن الشيخ الذى يحكم بين البدو ، كما أنه قاسى فى العدل : ولم أسمع أى أحد يقول على أعمال الأمير للعدل بين الناس إعمالا حقيقيا . وعندما سألت عن موضوع الرشوة والرشاوى فى مدينة حائل ، وبخاصة من خلال أولئك القريبين من أذان الأمير ، أجابونى قائلين : " لا ، كلا " . هذا يعنى أن الفساد البيزنطى لا يمكن أن يتسلل إلى بساطة هؤلاء الناس الأبدية التى تتسم بالنبل فى هذا البلد البدوى الفقير ؛ ولكننا (رأينا بالفعل) أن ذلك الفن ليس غريبا على أمراء الشمر الأذكىاء ، الذين يلجأون إليه لتمشية أمورهم مع الحكومات التركية المجاورة لهم . بعض أيضا من أعراب بن الرشيد ، ومن رجال القبائل فى ديار المدينة (المنورة) يمارسون أو يعرفون هذه العادة الشريرة : حكى لى أحدهم أن واحداً منهم جاء برشوة لتمشية أمر له فى مدينة حائل ، وعندما جاء الدور على البت فى موضوعه ، قام بوضع عشرة ريات فى يد القاضى . ولكن القاضى نهض واقفاً فى مكانه وراح يوسع الرجل ضربا على كتفيه ، إلى أن كل وتعب ، ثم حوله بعد ذلك إلى الأمير ، الذى كان يجلس فى المكان المخصص له ، والذى قام هو أيضا وأوسع ذلك الرجل ضربا على ضربه الأول ، ولم يكتف بذلك وإنما أمر عبيده بأن يضربوه هم أيضا . والمجلس يندر أن يستمر أكثر من عشرين دقيقة ، نظرا لقلة الأقوال التى يمكن الاستماع إليها ، نظرا لأن الأمير كان يشعر بوعكة على امتداد بضعة أيام (إذ كان يشتكى ويعانى من الصداع ومن آلام فى الماراة) . الأمر الذى كان يؤدى إلى توقف المجلس بين الحين والآخر ؛ - وكان يجرى بعد ذلك البت فى قضايا سبعة أيام مضت فى جلسة صباحية واحدة ! والمجلس يقف أعضاؤه وينفض

عندما ينهض الأمير واقفاً في مكانه وهم يقولون هنا "Thâr" الأمير "El-Emir" ، عندما يقف أثناء انعقاد المجلس . - ويلي ذلك ، هففة مئات الغتر في الميدان العام (المسهاب) ، كنا نحسب أننا نرى جحفاً من الفراش يهفّف بأجنحته . وأهل الحضر يذهبون إلى المجلس وهم يرتدون ملابس نظيفة ومشرفة ، ولكن البدو يجيئون إلى المجلس وهم يرتدون خرقة بالية كما هو حالهم في القرى التي يتجولون فيها .

ينصرف الأمير ومعه جماعته من المجلس ، ليذهبوا إلى منزل من منازل الأمير يقع عند الجانب العلوي من المسهاب (الميدان العام) حيث يشربون القهوة ويرتاحون برهة صغيرة : ومن هذا المنزل يذهب الأمير ومعه مجموعة صغيرة من حاشيته وبعض "الرجاجيل" Rajajil لزيارة أسطبل الخيل ؛ وهناك حوالي ثلاثين فرساً مملوكة للأمير في حائل ، وهي مربوطة في أرض مجاورة للقلعة المبنية من الطين وتواجه قهوة عبيد Abeyd . ويعد زيارة الأسطبل يأمر الأمير رجاله بالانصراف قائلاً لهم : "انصرفوا الآن، يا عيال Eyyal" ، ثم يدخل الأمير القصر مرة ثانية ؛ أو قد يذهب الأمير ، في بعض الأحيان ، بصحبة حمود وأصدقائه المقربين لاستنشاق الهواء ، في منزله الصيفي الموجود بالقرب من بئر ماء Mâ السماء Es-Sâma ، أو قد يذهب إلى مزرعة عبيد : أو قد يقوم الأمير بالمرور عبر السوق (الشارع) لزيارة شخص ما في المدينة ، من أمثال غانم الحداد ، للوقوف على سير أحوال الأشياء المطلوبة ؛ - ثم يعود بعد ذلك إلى القلعة حيث يكون في انتظاره بعض البدو أصحاب المصالح ، أو بعض الناس الذين جاؤوا من القرى ، أو بعض المراسلين ، الذين يسمح لهم بمقابلة الأمير بعد عودته . منصب الأمير عملية مرهقة ومتعبة في حائل ، يضاف إلى ذلك أن رأس هذا الأمير الذكي تكون دائماً مشغولة بالشئون العالمية المحيرة . سياسة هؤلاء الأمراء من النوع الآسيوي الغامض . وهذه السياسة لا تبنى على المغالطة الرقيقة التي في سياسة الغرب (المسيحي) ، التي تعمل كثيراً على البناء على مسألة الفضيلة الطبيعية (التي يتخلون أنها) في صدور الرجال وقلوبهم ؛ والسبب في ذلك أن حكام الشمر يهتمون بالناس جميعاً ، وقيّمون دون إحساس بالألم أو الندم كل روح من الأرواح البشرية باعتبارها مزلة مستقلة في حد ذاتها . وحرص هؤلاء الحكام الماكر ينصب على الحاضر وليس بدلاً من النظر إلى بعيد ، وهم يستفيدون دائماً من المفاجأة العاجزة

التي تترتب على التعجل العربي . والأمير يحكم كما لو كان بارزا بين الصقور ، بحيث تكون عيناه ومخالبه في أرض الفريسة ، ومع ذلك فالحكم ليس قاسيا بشكل عام ، وإلا فإن القسوة الشديدة في الحكم يمكن أن تضعف من سلطان الأمير . والعربي لا يستغرق استجوابه وقتا طويلا ، والعقد المستعصية يجرى حلها باستعمال السيف . والأمير بن الرشيد قد يركب حصانه ويذهب لاستنشاق الهواء ؛ وهو عندما يفعل ذلك يمتلئ صهوة فرس بيضاء اللون ، ناقصة النمو . لأن هذا هو حال الخيول النجدية في حائل ، فهي لا تكون متناسقة تماما من حيث الشكل . كنت جالسا ذات يوم بعد غروب الشمس على المصطبة المبنية من الطين عند بوابة القلعة عندما وصل الأمير راكبا على فرسه وحده : ووقفت لتحية الأمير ، وجقلت فرسه عندما شاهدت غترتي البيضاء الكبيرة في ضوء الشفق . حاول الأمير محمد حث الفرس على المضي قدما باستعمال الركاب ، ثم استحثها مرة ثانية ، ولكنها لم تطعه ، الأمر الذي جعله يرضخ لذلك الحيوان غير العاقل أو إن شئت فقل : العنيد ؛ وبخفة بالغة نزل الأمير من فوق الفرس ليسلمها بعد ذلك لأول خادم يلتقيه من خدم القصر .

كانت الجماعات البدوية تجيء يوميا حاملة مشكلاتها إلى الأمير ، وكل جماعة أو إن شئت فقل ربة Rubba ، من تلك الجماعات كان يخصص لها مخزن من المخازن ، ويبقون ضيوفا على الأمير (طيلة ثلاثة أيام) في المدينة . وقد رأيت إلى جانب القبليين رعايا الأمير ، كثيرا من البدو الأجانب من أمثال الظفير Thuffir والمطير Meteyr ، الذين كانوا من الأعراب الأصدقاء خارج إطار ممتلكات ابن الرشيد ، ومع ذلك كان الأمير يتلقى سنويا من هؤلاء البدو الأجانب بعض الهدايا . يضاف إلى ذلك أن حائلا كان يصل إليها بعض رجال قبيلة العنزى الحرة في الشمال ، كما كان يقد إليها أيضا بعض من الشمر الشماليين ، هذا بالإضافة إلى بعض القحطان المهاجرين الذين يتجولون حاليا في سائر أنحاء القصيم .

يبدأ العمل العام في الواحة قبل بداية مجلس الصباح بساعتين . وسكان الواحة من المزارعين ، والتجار (معظمهم غرباء) في السوق ، والراجيل الشيوخ ، إضافة إلى قلة قليلة من العبيد الذين ينتسبون إلى بعض العائلات . والمزارعون يذهبون إلى أعمالهم عند شروق الشمس . وفي خلال ساعة ينفتح السوق : وهام الدالون ، أو إن

شئت فقل السماسرة ، الذين يعملون فى كل ما هو معروض للبيع ، سواء أكان جديداً أم قديماً ، أو أقمشة أم سلاحاً ، يصيحون وينادون فى كل أرجاء السوق ، وينشرون بضاعتهم أمام كل من يقابلونهم ، ويدخلون الدكاكين بكل هذه الجلبة ليبيعوا بضاعتهم بأعلى سعر ، وبذلك استطعت أن أبيع ناقتى الخويرة . وقست السوق الذى يمتد من المسهاب (الميدان العام) إلى البوابة الداخلية فى اتجاه قفار ، ووجدته حوالى مائتى خطوة ، والدكاكين توجد على الجانبين ، وهى عبارة عن مخازن صغيرة للبضاعة مبنية فى الخلف ، والضوء لا يدخل هذه الدكاكين إلا من مدخلها فقط . - يصل عدد الدكاكين إلى ما يقرب من مائة وثلاثين دكاناً . كلها مملوكة وتستأجر من الأمير . كان سوق القصابين فى منطقة تقع خارج بوابة السوق الخارجية : ولحم هؤلاء القصابين الطرى سرعان ما يبتاعه الناس خلال ساعة واحدة من شروق الشمس ، وهم يبيعون الرطل من اللحم الضأن ، بما يقل عن بنسين ، ومعروف أن الفخذة الصغيرة تشتترى بحوالى ست بنسات ، فى زمن كان الناس فيه يدفعون تسع شلنات ثمناً للخروف فى مدينة حائل ، فى حين كان يبلغ ثمن العنزة حوالى ست شلنات . من هنا كنت أرى البدو يعودون بماشيتهم الصغيرة مؤثرين عدم بيعها على تلك الأسعار المتدنية :- هذا يعنى أن هؤلاء البدو سيعاودون اقتياد تلك الماشية الصغيرة عبر مسافة تقدر بحوالى ثلاثمائة ميل ، إلى سوق المدينة (المنورة) ! التى سمعوا أن أسعار الغنم فيها ارتفعت لتتساوى مع أسعارها فى الجبل Jebel . وحرقة الجزيرة ، بالرغم من أن البدو كلهم جزارين ، لا يمارسها فى نجد أى شخص من الأشخاص الليبراليين .

يحضر مفرج مرة ثانية إلى المسهاب (الميدان العام) فى المساء : ومن عادته أن يصل إلى بوابة القلعة ، أو قد يرسل خادماً من خدم المطبخ . حسب عدد الضيوف ، ليدعو رؤىات Rubbas (جماعات) البدو لحضور العشاء العام الذى لا يدعو أن يكون مجرد طبق هزيل من أرز التمن المسلوق مع الشعير والمحيق بقليل من السمن . ومفرج يوجه لهم الدعوة بطريقة لائقة يراعى فيها قدر هؤلاء الناس ومنزلة الشيخ منهم ، من باب إن وجودهم هنا أمر يحظى بترحيب الأمير . كما يراعى مفرج أيضاً العداوات التى تكون بين أفراد القبائل . وحتى أنا ، النصرانى ، أيضاً كانوا يدعونى كل يوم لتناول العشاء فى الشرفة ! كنت أقبل تلك الدعوة لسببين ، - أولهما ، أننى كنت ضعيفاً

وواهنّا ، وأن العمل يمكن أن يسبب لى شيئاً من الخطر إذا ما جازفت وطهيت شيئاً لنفسى ، والسبب الثانى أنى لم يكن لدى الحطب أو الوقود ، إضافة إلى أن الغرفة لم يكن بها مدخنة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى اختناقى داخلها بفعل الدخان ، يضاف إلى ذلك أننى إذا ما أكلت العيش والملح فى المضيف ، فذلك فى تقديرى ، سيجعلنى أقل تعرضاً للخطر المفاجئ من جانب الأمير ؛ ولكنى لم أكن أحضر تناول الإفطار فى المضيف ، نظراً لأنى كان بوسعى الحصول على أجود أنواع التمور ، عن طريق شرائها من السوق بثمن زهيد جداً ، وإذا كنت قد ضمنت حرية الحركة فذلك يعنى أنى كنت أتجول تجوالاً حراً فى مدينة حائل ، كان قد مضى عام على وصولى إلى الجزيرة العربية ، ولم يكن يتبقى معى سوى القليل جداً من النقود ، التى كان يتعين على الاحتفاظ بها للضرورة القصوى .

والناس فى قرى الجبل Jebel يدعون إلى تناول الطعام بكلمة "سُم" Summ ، أو قد يقال شىء من هذا القبيل عندما يوضع الطعام أمام الضيف . والأحرى أن تكون هذه الكلمة "سم" Smm وهى قد تكون مأخوذة من "البسملة" b'ismi, llah . ولكنى عندما سمعت كلمة "سُم" Summ لأول مرة ، عندما قام صبى من صبيان المضيف بوضع طبق أرز التمن أمامى ، خطر ببالى أنه قال لى (من باب الحقد والكراهية) "سِم" Simm ، الذى هو "السم" الذى يقتل البشر ، ولم يكن ذلك الصبى أقل منى اندهاشاً عندما فاجأته بطريقة العرب ، ورجوت الله أن يلعن والديه - وبهذا الشك فى مسألة السم هذه ، تناولت أيضاً الطعام الذى وضعه أمامى ، لأنهم إن كانوا يريدون التعامل معى بهذه الطريقة فذلك يعنى أننى لن أستطيع الفرار منهم . ومن العشاء ، ينتقل البدو ضمن جماعاتهم إلى القهوة العامة : وبعد أن يتناول الضيوف العشاء يقدم العشاء للرجاجيل بنفس الطريقة ، وعلى أرض المضيف ؛ وفى المضيف يتناول "الرجاجيل" أيضاً وجبة الظهيرة من التمر ، شأنهم فى ذلك شأن الضيوف تماماً . هذا التمر المؤسف هو والبر (القمح) ، والذى يقدمه المطبخ للضيوف ، يأتى للأمير على شكل سداد للضرائب المطلوبة من الممولين ، فى سائر الهجرات والقرى ؛ وأفضل أنواع هذه التمور يجرى الاحتفاظ بها لأسر الشيوخ . بانتهاء العشاء العام ، قد يرى الإنسان كثيراً من النساء الفقيرات ، وبعض الأطفال ، ينتظرون الدخول إلى المضيف ،

وفى أيديهم مواعينهم الفارغة ، عند بوابة القصر . هؤلاء هم الذين صرح لهم الأمير بالحصول على وجبة تموينية مسائية ، من البقايا المتبقية من العشاء ، لتوزع عليهم وعلى المعدمين الآخرين من أمثالهم . كان يقدم فى المضيف يوماً للضيوف وللرجاجيل حوالى ١٨٠ وحدة من وحدات خبز الشعير ، وأرز التمن من الدرجة الثانية ، وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تزن حوالى ثلاثة أثمان الجالون ؛ كما كان يصرف أيضاً شيئاً من السمن . هذا السمن الذى كان يوزع على شكل كرم عام كان الأمير يأخذه من البدو ، بل ومن كل خيمة من خيام البدو ، ويجرى تحصيله بمعدل قديم ؛ وهذا التحصيل لا يحدث إلا فى فصل الربيع ، كما كان يجرى شراء ذلك السمن بواقع شلنين لكل ثلاثة بنتات (*) ، هذه الكمية تساوى حالياً ريالاً واحداً فى حائل . ويجرى ذبح جمل أو حيوان من الحيوانات الصغيرة ، كل ثمانية أو عشرة أيام ، على أن يوزع لحم هذا الحيوان على أول من يصل من الضيوف . وأثناء غياب الأمير ، لا يحضر البدو إلى حائل وبالتالي لا يكون هناك ضيوف . من هنا حسبت نفقات الأمير ، خلال عام ، على بيت الضيافة بما يقدر بحوالى ١٥٠٠ جنيه إنجليزى .

فى القهوة العامة يجرى تصليح قهوة المساء وتقديمها للحاضرين . وطوال جلوس جماعات أو إن شئت فقل ربّات البدو المختلطة كانوا يراعون معنى السلوك المتسامح الذى كانوا يولونى إياه فى خيامهم ؛ - وهل يكون كل الحاضرين فى القهوة زوار الأمير ؟ المعروف أن قهوة الأمير تفتح أبوابها بعد صلاة الفجر مباشرة لأولئك الذين يتطلعون إلى فنجال قهوة الصباح ؛ وتقبل القهوة أبوابها عندما ينصرف الجميع منها عندما يحين موعد انعقاد مجلس الصباح . وتعيد القهوة فتح أبوابها مرة ثانية بعد صلاة المغرب . والقهوة تقدم بواقع فنجالين مملوئين لكل واحد من الحاضرين ، ويقدم فنجال ثالث ، وعندما يكون الشخص بدوياً من قبائل نجد ، ولن يشرب الفنجال ، فإنه يرد بعد فترة وجيزة من تقديم الفنجال بقوله : كرمك Karamak الله Ullah . وتغلق القهوة أبوابها طوال الليل بعد أن ينصرف البدو لصلاة العشاء فى المسجد . وبعد العشاء يجرى إغلاق بوابات ذلك الجناح من قصر الأمير ، هو وشارع السوق ، -

(*) البنت pint : مكىال للسوائل يساوى ثمن جالون إنجليزى ١ و ٦٨٥ . من اللتر . (المترجم)

ولا يجرى فتح هذا الجناح ولا شارع السوق لا للصلاة ، أو البيع والشراء إلا مع طلوع نهار صباح اليوم التالي ؛ يضاف إلى ذلك أن البدو الذين يصلون بعد قفل البوابة ينامون خارج القصر ؛ - أما بقية حائل كلها فتظل مفتوحة ، وهى عبارة عن كل المنطقة الواقعة فى اتجاه قفار وجبل أجأ Ajja .

ركب الأمير محمد ، قبيل عصر يوم من الأيام ، راحلته ومعه رفاقه وأفراد حاشيته وخدمه وذهب لزيارة "الدبوش" ed- dubush أو إن شئت فقل : ثروته الحيوانية فى الصحراء . هذا الأمير النجدي يملك ثروة حيوانية كبيرة ، تقدر حسب ما يقولون بحوالى أربعين ألف جمل . ومعروف أن هذا القطيع من سلالة نجدية أصيلة ، وعلى حد قول على Aly على Alyid (ذلك الرجل الأمين الذى كان جاراً لى ، والذى كان يعمل فى خدمة ذلك القطيع من قبل ، - أنه كان يقتاد خيولاً من الأمراء السابقين للأمير محمد ، لتوصيلها إلى باشوات مصر) ، فإن الأمير محمد لديه ثلاثمائة فرس من الإناث ، وحوالى مائة حصان من الذكور ، بالإضافة إلى كثير من الأفلاء والأمهار . وعلى حد قول أناس آخرين ، فإن ابن الرشيد لديه حوالى أربعمائة جندى من الجنود الدائمين وغير الدائمين ، كما أن لديه مائة من الأمهار الأصيلة ، وحوالى مائة حصان؛ وأن هذه الثروة الحيوانية مقسمة إلى قطعان منفصلة فى الصحراء ؛ كما أن لدى بن الرشيد أيضاً حوالى مائة شخص "من الخدم الدائمين" (يعيشون مع عوائلهم فى خيام من الشعر ، شأنهم فى ذلك شأن البدو الرحل) ، الذين يقومون على أمر هذه الحيوانات . قال لى شخص آخر إن ثروة الأمير الحيوانية مقسمة إلى قطعان قوام كل قطيع منها يتردد بين الخمسين والستين من الأمهار أو الأحصنة ؛ كما أن الأمهار والأفراس الصغيرة ، هم الذين يقومون على رعيها أيضاً . ويقال أن هذه القطعان تنتشر ساعة هنا وساعة هناك ، وتارة تكون بعيدة وتارة أخرى تكون قريبة ، - وذلك اعتماداً على حالة نمو الأعشاب البرية فى الصحراء على مدار العام . وخيول الأمير ترعى بالطريقة البدوية ؛ وبعد تقييد أرجل الخيل الأمامية ، يجرى إطلاقها ترعى اعتباراً من الصباح الباكر . وهذه الخيول لا تنوق طعم الشعير أو الحبوب الأخرى ؛ ويجرى اقتياد تلك الخيول فى المساء إلى الخيام ، حيث يجرى تقييدها أثناء الليل ، ويقدم لها لبن النياق ، التى تقوم بدور الأمهات البديل . - من هنا يمكن القول : إن

أمير غربي نجد يملك خيولاً وإبلًا تصل قيمتها إلى ما يقرب من ربع مليون جنيه استرليني ؛ وأنه جمع هذه الثروة عن طريق الغزو والغنائم ، التي كان يأخذها من البدو الساكنين على امتداد جيلين من الزمان . والأمير يملك بالإضافة إلى ذلك ، ثروات أخرى خاصة على شكل معادن ، أما ضرائبه العامة فهي تذهب إلى خزانة الحكومة ، أو إن شئت فقل : بيت المال el-māl beyt ، ويجرى وضعها في زكائب ثم توضع في حفر في الأرض . والأمير له أملاك كثيرة على شكل أراضى ليس في حائل وحدها ، وإنما له مزرعة كبيرة أيضاً في الجوف ، وفي بعض الواحات الأخرى التي غزاها واستولى عليها .

- شاهدت الأمير محمد أمام القلعة راكباً جملاً عالياً عليه غطاء مزركش موضوع فوق السرج . والأمير يقيم أثناء قيامه بتلك الرحلات القصيرة في الصحراء هو وحاشيته ، في خيام مثل البدو . وقد خلف الأمير حمود وراءه في حائل ليحضر انعقاد المجلس الصغير الذي ينعقد كل يوم ؛ - وولد عبيد لا يجلس في المكان المخصص للأمير ، وإنما يجلس في المكان الأدنى المخصص له .

أرسل حمود في طلبى في العصر بعد أن فرغ من عمله : قال : لقد رحل محمد وما نحن نبقى هنا لنكون أصدقاء . وهنا بدأ حمود يعرض على ساعاته الخليجية الرخيصة ، التي كان يلبس منها ساعتين على صدره ؛ وهذا هو ما يفعله ولده ماجد المولع بتلك الأشياء الجديدة ، - قيل إنه يعرف طريقة مسح تلك الساعات وأن حمود لديه ما لا يقل عن مائة من تلك الساعات ، كما أن الأمير لديه هو الآخر عدداً أكبر مما لدى حمود من هذه الساعات . سألتني حمود إن كانت تلك الساعات إنجليزية الصنع أم لا ، أو بالأحرى ، "ما إذا كانت تلك الساعات من أفضل ما يصنعه النصارى من نوعها" . كان حمود يود من وراء ذلك معرفة ما إذا كنت احتفظ بشيء من تلك الحاجيات المرححة في أعماق الخرج الذي احتفظ فيه بأشياءى ، وما إذا كانت تلك الأشياء ممتازة الصنع . وقد وعدنى وعداً قاطعاً ، أنه سوف يدفع ثمن هذه الأشياء بالفلوس ، على حد تعبيره ؛ أو إن شئت فقل : سيدفع الثمن بالفضة أو النقود التي يُعزُّها هؤلاء العرب البائسين معزتهم لدم الحياة فيهم . وجدت حمود مستلقياً على الأرض ، مثل البدو ويلا عمل ، ويتناب في المزرعة الملحقة بقبوة عبيد ، التي يقال إنها

تمتد إلى ما بعد المخازن (الغرف) المخصصة لعائلته في المدينة (والواقع أن هذه المزرعة ليست من بين المزارع الممتازة) . وعبيد لديه ، في مزرعة النخيل هذه ، كثير من الغزلان التي تتغذى على الجلبان الذي يجرى نثره لها كل يوم ، غير أن تلك الغزلان تخشى من اقتراب البشر منها : شاهدت أيضاً في مزرعة النخيل تلك ذكر البدنة . هذا التيس البرى الجبلى القوى يستطيع ملاحقة الإنسان بل ومطاردته ومهاجمته ، إضافة إلى أنه يدخل القهوة دون خوف أو وجل . وذكر البدنة هذا أقوى من أى تيس من تيس الماعز المعتادة ، وأشد منه قوة ، وشعره قصير وكثيف ؛ ولونه أرجوانى ، أو بالأحرى يشبه احمرار ضوء الشمس عند غروبها خلف الجبال الداكنة .

مزرعة النخيل هذه ، مملوكة لعبيد . وقد استخدمت أفضل الأساليب في زراعتها . سيقان النخيل في هذه المزرعة ، في تربة حائل الضعيفة ، مزروعة على شكل صفوف بينها مسافات واسعة . تحدثت مع على عبيد . ذلك الجار شبه المتشدد من جيرانى ، ذلك الرجل الذى فتش حزامى فور وصولى بحثاً عن الذهب ، هذا الرجل كان من مجوج ولكنه يعمل حالياً في خائل ، رئيساً للمزارعين الذين يعملون لحساب الأمير . رد على ذلك الرجل قائلاً : " فى مثل هذه التربة (جرانيتية التراب) الواسعة يحمل النخيل أفضل الثمار؛ ولم يقد ذلك الرجل من طريقة غرس الأشجار التى علمته إياها . " كان عمق بئر حمود الكبيرة فى تلك المزرعة يصل إلى حوالى خمسة عشر قامة ، وقد جرى حفر هذه البئر فى تلك التربة الصلدة ؛ والجوانب العليا لتلك البئر ، التى أحرقتها أشعة الشمس ، تقف صامدة دون بطانة داخلية أو بناءة . عمل فى حفر هذه البئر خمسة عشر عام ، كان كل واحد منهم يتقاضى ثلاثة أو أربعة قروش يومياً ، طوال عشرين يوماً ، أى أن التكلفة وصلت إلى ما يقرب من عشرة جنيهات إنجليزية . وتعمل فى جلب الماء من البئر ثلاث من أفضل النياق التى تساوى الواحدة منها حوالى خمسة وثلاثين ريالاً . هذا وقد تضاعفت أسعار الإبل فى الجزيرة العربية فى السنوات الأخيرة بعد الجفاف الشديد الذى أصاب كلا من مصر والسودان فى الحروب الحبشية (*) ،

(*) الحروب الحبشية : وهى الحروب التى قام بها الخديو إسماعيل ضد الحبشة فى عام ١٨٧٥ بسبب منازعات الحدود بين الحبشة والممتلكات المصرية فى السودان والصومال . (المراجع)

كما تضاعفت أيضا فى سوريا . وقد اندهشت عندما سمعت بدويا يتحدث قائلا :-
"وبالله ، السبب هو قلة قيمة النقود !- وإذا ما توالى سنوات الجفاف فسوف يحدث
موتان(*) . ففى موسم من المواسم كان الجمل يباع بكراون(**) واحد عند البدو الرحل ،
كما كانت الناقة صغيرة السن ، والتي كانت تساوى ستين ناقة من النياق العيلة
الحالية ، تباع بريالين أو ثلاثة ريالات (كان ذلك عند أهل قرى القصيم ،) وكان
الناس يبيعون تلك الحيوانات على وجه السرعة مخافة النفوق فى الصحراء .

ماجد ، هو الابن الأكبر من بين أبناء حمود ، وعمره حوالى خمسة عشر عاما ،
وجسمه أصغر من سنه ، وجماله من النوع الأنثوى ، وهو ولد الأمير (بحكم أن الأمراء
يتزوجون البدويات أيضا) من زوجته البدوية . كان يرافق ماجد بصورة دائمة شاب
منحل ، يدعى عليا ، كان متزوجا من أربع زوجات وكان من المتعلقين بخدمة حمود .
هذا الثنائى العجيب كان يغزوانى بصورة مستمرة فى بيتى ، بفضلهم العربى الذى
لا ينتهى ، ويحاولان وضع أيديهما على الأشياء الأجنبية الخاصة بالنصارى ، - وكان
يتطلعان إلى العثور عليها بين أشيائى وأمتعتى ؛ وكنت أمانع فى كل ما يأخذهُ منى
ماجد هو ورفيقه الوغد بالقوة .

- وعندما خطر ببالى أنهما ربما يذهبان إلى حد السطو على مسدسى وأتواتى ،
أبعدت كل هذه الأشياء عن متناول أيديهما، ورحت أنكرهم بأمانة البدو الذين يزورونهم
وينظرون إليهم بعين الاحتقار. ورد على ماجد بفضل الأطفال قائلا: "ولكنك ، يا خليل،
تخضع لنا ولسلطتنا، والأمير يستطيع أن يطيح برأسك فى أى وقت يشاء !- وذات يوم،
وعندما سمعتهما عند الباب ، فردت البطانية فوق أشيائى المتناثرة ، وجلست فوقها ،
ولكن كلمة "بذراك" bethr-ak بمعنى "عن إذنك" لا تجدى شيئا مع وقاحة هذين
الشخصين ؛ - حدث أن وجدانى جالسا على القرآن (المصحف) "قالا بتعصب شديد ،
ها ! إنه جالس على المصحف !- " وسرعان ما انتقلت هذه الحكاية على لسان ماجد
إلى القصر؛ وعاد إلى ماجد العفريت ليخبرنى أن الأمير استاء تماما عندما علم بذلك.

(*) موتان : بفتح الميم وتسكين الواو ، وفتح التاء ، هو (ويا الماشية) . (المترجم)

(**) الكراون : قطعة نقدية تساوى خمسة شلنات . (المترجم)

حاول ماجد أن يثبت لى أنه صاحب طبع رقيق ، وإنه لا يختلف كثيرا عن والده فى هدوئه وورزانتة ، وأنه دائما يتعلق بحياة الطفولة ، ولكنه بحكم تكوينه كان محبا لذاته ومستبدا بتصرفاته . كان من عادة ماجد ، أثناء سيره فى الشارع ، أن يضرب الأطفال المساكين بعصاه ويصيح قائلا : "الله يلعن أبوك !" ولم يكن هؤلاء الأطفال المساكين يقوون على منع ذلك الضرر أو مقاومته ، - والأفضل من بين هؤلاء الأطفال هم أولئك الذين يطلقون عليهم اسم "عيال الشيوخ" ؛ وهم يطلقون عليهم هذا الاسم لأنهم ينتمون إلى الأسرة المالكة ، أو إن شئت فقل : لأسرة الأمير . كان ماجد قاسى القلب وكثير الرغائب بالقياس إلى عمره الزمنى ؛ ولكن كل أولاد الشيوخ يتربون على أيدي العبيد ! ولو قدر لهذا الماجد أن يصبح ، فى يوم من الأيام ، أميرا على حائل ، فسيكون ذلك يوما مشئوما فى حياة هذه الإمارة ، اللهم إلا إذا انصلح عقله ، وبدأ يستوعب التفاهم الإنسانى أكثر فأكثر. ولما كان ماجد مليئا بسهولة العرب وسعادتهم ، فقد كان يعامل الناس بابتسامة مريحة مثل ابتسامة والده ، بل إنه كان ينادينى مثل والده قائلا : "صديقه العزيز" ؛ ومع ذلك ، كان ماجد يستشعر أننى أغوص فيما وراء معناه الطموح . كان فى ماجد الكثير من البراعة السامية ، Semite ، مما جعله يلعب دور الوسيط ويساوم على ناقتى حتى أوصلها إلى أدنى سعر ، متصورا أنه سوف يحصل على ضعف الثمن (بعد أن تضع وليدها وتصبح من نياق الحليب) فى الربيع القادم ، وافقت على ذلك ، عن طيب خاطر ولكن قال ذلك الأمير ، لا ، إلا إذا أعطيتنى لجامها معها ، " (وهذا اللجام ثمنه يعادل ثلث ثمن الناقة) . - كنت فى كثير من الأحيان أروح أتأمل مدى ارتباطهم بكلمة الشرف ! فهم يظنون أنهم يحسنون التصرف بهذه الطريقة فى العالم الذى يتبعهم ؛ الأعمال الإنسانية التى تقلد وتحاكي الأحلام التى تراودنا عن السماء ، هى مجرد كلمات جميلة على ألسنة شعرائهم ، ولكنها غير معروفة فى تعاملات الشرقيين .

بينما كنت أسير خلال مدينتهم المبنية من الطين بناية جيدة والتنظيفة أيضا خطر ببالى العيش فى تلك البلدة ، - اللهم باستثناء الخوف والرعب من الأمير ، والحياة المضطربة بسبب الغزو الذى يقوم به الأمير سنويا ؛ ومع ذلك لم يكن يهمنى استياء أبصارنا من النظر إلى تربة الصحراء التى تحيط بهم من كل جانب ! ومدينة حائل

بحكم موقعها تعد مدينة وليست واحة ، أو بالأحرى تبدو كما لو كانت واحة ثم تحولت بالقوة إلى مدينة . دائرة المزارع من حول مدينة حائل ليست واسعة جداً ، وقد يستغرق الدوران حولها حوالى نصف الساعة ؛ والمدينة تقع على بعد مسافة كبيرة من صخور أجأ (Aja) (التي يطلقون عليها هنا فى حائل اسم "المنيف" el-M'nif) (الصورة رقم ٦٤) . هذه المدينة معزولة بسور من ناحية الشمال ، عن الهواء الصحى بفعل الجبال التي يطلقون عليها اسم سميراء Sumrā حائل ، الأمر الذى يجعلها خانقة الهواء فى فصل الصيف . هذه الجبال السمراء من البازلت ، الذى تدفق نازلاً (كما يبدو من بوابة مشهد) على جبل أجأ شبه المدفون فى الأرض والمكون من صخور جرانيتية ذات لون رمادى ضارب إلى الاحمرار ؛ وسميراء حائل عبارة عن جبل ذى لسانين يقفان إلى الورا قليلا من المدينة ، على شكل نصف قمر ، ويمر من بينهما مجرى سيل حائل الذى يقولون إنه يأتى من قفار . والجبل الموجود ناحية الغرب منخفض عن سميراء حائل ؛ أما القسم الشرقى فيصل ارتفاعه إلى حوالى خمسمائة قدم ، وفى أعلى ذلك القسم الشرقى توجد خزانات الماء ؛ كما كانت هناك فى ذلك المكان محطة من محطات استطلاع العدو يوم أن كانت حائل ضعيفة .

الناس هنا يطلقون على جبال سميراء حائل العالية اسم أم Umm أركاب Arkab وهى منحدره ، وذات صباح استأجرت جحشا jahash نظير ثمانية بنسات لأركبه إلى هناك . والأحجار السميكة المبعثرة على هذا الجبل هى من نفس نوع البازلت الأسود الذى يطلقون عليه هنا اسم الحرى hurri أو الحرّة hurra ، وهو ثقيل وصلب مثل الحديد وله صوت مدوى مثل الحديد أيضا أو المعادن التى تصنع منها الأجراس . "والسميراء" فى كلام بدو نجد تطلق على الصخور الصلبة السوداء فى الصحراء : ومعروف أنه اعتبارا من حائل وإلى الوصول إلى مكة نجد أن السميراء هنا مكونه من البازلت الأسود . والناس هنا أيضا يطلقون على الأدغال والشجيرات التى تنمو فى هذا البازلت الأسود اسم "الحزم" hazm ، والحزم ما هو إلا تل بركانى يوجد فى كل حرة من الحرّات . ومن فوق الرجوم وجدت أن حائل ، وأنا أنظر إليها ، تقع فى منتصف سهل طويل يطلقون عليه اسم سهيلات Sahilat الخمّاشية el-Khammashieh ، وأنها تقع بين منيف جبل أجأ Aja (الذى يرتفع من ذلك السهل إلى حوالى ٥٠٠ قدم)

وتلك الأرض المكسرة المنخفضة ، التي تحيط بتلك السهيلات Sahilat ، إلى مسافة فرسخين في اتجاه الشرق ، نحو سلمى Selma ، أو إن شئت فقل : "جبل" فدك Fittj ؛ وأرى من تحتى فى الاتجاه الشمالى الشرقى من حائل ذلك الذى يسمونه الخريمة el-khreyma ، التى هى عبارة عن ضيعة كبيرة من النخيل الصغير ، - من ممتلكات الأمير ؛ وعلى حد قولهم هنا ، توجد فى هذه الضيعة بعض الآبار ، أو إن شئت فقل : العيون التى يسقون منها ذلك النخيل !

بعض الشبان الصغار الذين كانوا يعملون فى الحقول ، كانوا قد رأوا النصرانى وهو يصعد فوق الجبل ، ومن ثم ركبوا دوابهم وجاءوا خلفه يتعقبوه . قال هؤلاء الشباب ، إن فى الصحراء الموجودة فى الخلف كنوزا كثيرة مخبأه ، إذا ما كان الإنسان لديه العقل الذى يمكنه من استخراج ذلك الكنز ، وكرروا على مسامعى عبارة "جبل Jebel "طُمِيَّة" Tommieh ، وقالوا : إن هذا الجبل شهير فى كل أنحاء نجد "بالشروات المدفونة فيه" ؛ - والطُمِيَّة تقع فى وادى الرماح er-Rummah ، الذى يقع جنوبى جبال أبناث Abanat التوأمية . بعد ذلك ، جلس على الأرض من بين هؤلاء الشباب شخص متعلم ، وبدأ يديون لى العلامات الأرضية المميزة ، التى كنت أراها فى الصحراء الخالية التى تحيط بى . وفوق قطعة من الأرض المرتفعة فى اتجاه الشمال أرونى ذلك الذى يطلقون عليه اسم قبر Kabr الصانع es-Sâny الذى يصل طوله إلى ثلاث قامات : "كانت قامة ذلك الرجل بمثل هذا الطول ؛ وقالوا " إنه عاش فى زمن بنى هلال ؛ وعندما طارده خيالة العدو ، راح يجرى أمامهم ومعه ولده الصغير الذى كان يحمله على كتفه ، وأنه سقط فى هذه المنطقة " . كل هذا السهل من ناحية الشمال اسمه كيزان Kisan (ويصح فيه أيضا "جيزان" Gisan) مجلّى M'jelly ، إلى أن يصل إلى قمم جبال طوال Tual على Aiy التى تقع على حدود صحراء النفود ، وإلى جبل جلدية Jildiyyah ، الذى يبعد مسير رحلة واحدة عن حائل ، ويشتهر بأنه المكان الذى تتجمع فيه جماعات الغزو الذى يقوم به الأمير . وهناك قرية فى اتجاه الشمال من حائل ، وتقع على بعد ميلين خلف السميراء ، وهم يطلقون على هذه القرية اسم السويلفى S'weyfly ؛ وقبل السويلفى هناك قرية مخربة ومزرعة نخيل بدائية وأرض لزراعة القمح ، والناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم قصر Kasr عربية Arbyiyyah وعَرَبِيَّة والسويلفى هما حائل القديمة ؛

هذا يعنى أن مدينة حائل القديمة كانت مبنية على تربة أفضل وموقع أفضل فى الجانب الشمالى من السميراء Sumrâ . ثم أرانى ذلك الشاب بعد ذلك ، وهو يشير بيده ، أسفل منيف جبل أجأ Ajja المكان الذى يطلقون عليه اسم ريع Ria أجدة Agda (ويصح فيه أيضا "أقدة" Akda) ؛ وريع أجدة هذا عبارة عن فجوة أو مضيق فى الجبل يؤدى إلى سهل عميق فى منتصف جبل أجأ ، وأن هذا السهل ، على حد قولهم ، يبلغ من الكبر حداً يجعل مساحته تقترب من مساحة ربع Ruba هذه الدنيا ed-Dinya ، بمعنى ربع عالمهم مغلغل السكان . يوجد فى السهل تخیل تحيط به الصخور الضخمة ؛ هذا يعنى أن هذه المنطقة ما هى إلا واحد من تلك الخلجان الصحراوية التى تطل على الشرق ، وتكون شديدة الحرارة فى فصل الصيف . والمدخل الضيق المؤدى إلى هذا الخليج الصحراوى تتحكم فيه بعض البوابات ، وقام عبيد بتحسين ذلك المكان عن طريق قطعة من قطع المدفعية . وريع أجدة هذا ، ما هو إلا ملجأ أمين لأهل حائل ، هم وكل بضائعهم ومنقولاتهم . إذا ما قامت الدولة (الإمبراطورية العثمانية) عليهم بحملة من الحملات العسكرية ، التى يخشون حدوثها فى أى وقت من الأوقات . والجزء الشمالى ، إلى الخلف من المنيف ، أو إن شئت فقل : ساحل جبل أجأ Ajja يطلق الناس عليه هنا اسم العويرض el-Aueyrith .

نزلت من فوق ذلك الجبل بصحبة أولئك الشبان ، وعزمونى على وجبة الظهيرة المكونة من التمر الذى أرسل إليهم فى الحقول . وبالقرب من المكان الذى كنا فيه رأيت شارعاً من الجدران المتداعية والمنازل الطينية المهدمة ، كما شاهدت أيضا أساس بيت قديم ضخّم مبنى من اللبن لم يعد الناس يستعملونه بعد فى حائل . كان الشمر قد أسسوا تلك المستوطنة منذ زمن بعيد ؛ والبعض منهم يقولون إن "المكان كان يطلق عليه فى بداية الأمر اسم الحاير Hayer ، بسبب وفرة المياه الجوفية فيه ، ومع ذلك فقد ورد ذكر اسم حائل فى قصيدة عنتر Antar القديمة . [وقد أتى بطليموس على ذكر هذا الاسم أيضا - راجع كتاب سبرنجر Sprenger المعنون : "جغرافية الجزيرة العربية"] . وعلى حد قولهم هنا ، فإن مدينة حائل نقلت من هذا المكان بسبب انخفاض المياه الجوفية شيئاً فشيئاً . كانت حائل ، خلال الجيل الماضى ، أى قبل بداية حكومة ابن الرشيد ، عبارة عن واحة ، لا يزيد حجمها عن نصف حجم قفار ، التى هى موقع

ممتاز بحد ذاته ؛ ومع ذلك ، فإن حائل ، بلدة عبد الله بن الرشيد(*) ، عندما أصبح محافظا Muhafuth على غربي نجد في ظل الحكم الوهابي ، كانت هي دوما العاصمة . والمدن المجاورة لحائل في هذه الأيام تكاد تتساوى معها ، وقد قدر عدد سكان حائل بما يقترب من ٢٠٠٠ نسمة ؛ والناس هنا يقولون : إن سكان قفار ، الذين هم من بنى تميم ، وكلهم تقريبا من المزارعين يزيد عددهم قليلا عن سكان حائل . وبينما كنت أعود إلى بيتي من ناحية البوابة الشمالية ، مررت على ضاحية مهدمة يطلقون عليها اسم الوسيط Wasit والتي يفصلها مجرى السيل وحقولها عن مدينة حائل . قيل لي : إنه منذ سنوات قلائل كانت في هذا المكان المهدم حاليا ، "أربعين قهوة" ، بمعنى أنه كانت تعيش في هذا المكان أربعين أسرة ، كان أصدقائها يترددون عليها يوميا طلبا لشرب القهوة .

الوسيط في الوقت الراهن ، ليست سوى أطلال بلا سكان ؛ هذا يعني أن أهل الوسيط (شأنهم شأن أهل المناطق المدمرة من قفار والمناطق المدمرة من قرية مجوج) ماتوا قبل سبع سنوات بسبب الطاعون ، الذي يطلقون عليه اسم "وباء" Wāba . شاهدت حوائط منازلهم المبنية من الطين بلا سقوف ، وقد أوشكت على السقوط ، نظرا لنزع الأخشاب منها ؛ هذا يعني أن الناس هنا هجروا حقولهم وتخلوا عن آبارهم . يضاف إلى ذلك أن ملاك وورثة وأصحاب هذه الأرض قد تخلوا منذ زمن بعيد عن أعمال السقاية والرى إلى حد أن النخيل جف ونوى ثم مات : وتلك قلة قليلة من أشجار النخيل ولكن أعرافها ليس فيها أى أثر من آثار الاخضرار . وقد رأيت بعيني قبل أن أغادر حائل أن الناس قطعوا تلك السيقان الميتة وتحولت التربة من جديد إلى إنتاج الحبوب . مات ثلاثمائة شخص في منطقة الوسيط ؛ وفي حائل ، مات من كل أسرة فرد واحد أو فردين (أى أن إجمالى الوفيات كان يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة متوفى) ؛ ولكن الآن ، ويفضل من الله ، هؤلاء هم الأطفال نُشِنُوا وأصبحوا يملأون غرفهم ؛ ولم يمت أحد من الأسرة المالكة التي كانت تتغذى تغذية جيدة ! كان البدو

(*) عبد الله بن الرشيد : هو مؤسس حكم آل الرشيد وضع نفسه في خدمة السعوديين ، وعاون الأمير السعودي فيصل بن تركي في استعادة حكمه وكافأه الأمير فيصل بأن جعله حاكما على جبل شمر ومنحه لقب "محافظ" ، وحكم في الفترة من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٧ . (المراجع)

الذين يزفون حائل ، خلال فترة ذلك الوباء ، يموتون أسرع من أهل المدينة نفسها ؛ ومع ذلك كانت العدوى فى الصحراء أخف بكثير جداً ، ولم تعم منازل البدو على شكل وباء فتاك . كان ذلك المرض يصيب الأمعاء والرأس ؛ بعض الناس كانوا يموتون فى يوم الإصابة واليعض الآخر كان يستمر فترة أطول من ذلك . كانت أعراض الإصابة بالطاعون عبارة عن بقعة سوداء تظهر على الأنف ، وحدث تغيير فى لون الأظافر . وكانت الآلام تشبه الآلام الناتجة عن الإصابة بالكوليرا . وبعد الطاعون ، أصابت البلد حمى دامت عامين ، إلى حد أن أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد الطاعون ، كانوا يحملون جثث الموتى على الحمير (بعد أن خارت قواهم وعجزوا عن حمل جثث الموتى) . فى ذلك الوقت ، كان واحد من الحضر قد جلب بعضاً من الكتين من الشمال ، وراح يبيع كل عشرة أو اثنى عشرة ذرة بخمسة ريالات لكل من يطلب ذلك الدواء ؛ وقد أخبرنى ذلك الحضرى ، أن ذلك الكتين ، عندما يتعاطاه المريض بعد جرعة مطهرة من الملح الإنجليزي ، يشفيه من الحمى" . هذه الوفيات الكثيرة حدثت فى عهد الأمير بندر (*) Bunder ، أى قبيل بداية حكم الأمير محمد بفترة وجيزة ؛ والناس هنا ينتظرون إلى عهد الأمير محمد باعتباره عهداً زاهراً وأنهم "لم يشهدوا له مثيلاً من قبل ، ولم تحدث خلاله أية كوارث عامة" . والآن تشهد السيادة الشمرية قمة نضوجها ، وبعد هذا النضوج السريع الذى قد يتحول إلى تحلل سريع على أيدي بعض الناس الذين ليست لديهم القدرات أو المواهب التى تمكنهم من إدارة ذلك الذى جرى الحصول عليه عن طريق العنف القتالى ، أو عندما ينحسر عنهم من هذه الدنيا .

من حيث الدمار والخراب تجيء مقبرة حائل الواسعة . بعد منطقة الوسيط التى تقع بين أسوار المدينة وصخور السميراء المنخفضة الوعة . والأغنياء والفقراء الذين تنتهى حياتهم الدنيوية ، يدفنون هنا . فى هذا المكان ، فى هذه الأرض الصحراوية التى كانت تتبناهم وترببهم فى يوم من الأيام ، ونحن لم نرى أية فروق فى الدفن هنا

(*) الأمير بندر بن طلال ١٨٧١-١٨٧٢ : اغتصب حكم جبل شمر من الأمير متعب بن عبد الله . وفى عهده القصير عصفت الكوليرا بالبلاد ، وفقد عرشه وحياته قبل أن تنتضى سنة واحدة على حكمه حيث اغتاله الأمير محمد بن الرشيد الذى تولى الحكم من بعده ١٨٧٢-١٨٩٧ ، وفى عهده كانت زيارة «دوتى» لمدينة حائل . (المراجع)

اللهم فى اختلاف المكان ليس إلا . وقد دفن طلال وعبيد بين من دفنوا فى هذا المكان . والقبر هنا عبارة عن كومة صغيرة ، عليها شاهد عبارة عن كتلة من البازلت يأتون بها من تل البازلت ، والقبور كلها هنا على هذه الشاكلة ؛ ويندر أن يرى الإنسان هنا شاهدا من شهود المقابر التى تحمل نقوشاً أو كتابات ، من قبيل الاسماء التى كان المتوفون يحملونها فى يوم من الأيام . وفى بلدان الحدود السامية تروج خرافة طويلة عن القبور ؛ وكفن الموتى هنا هو الرداء البدوى البسيط بدون أية زينة . فى جانب من جوانب المقبرة يوجد قبر عبيد ، ذلك الرجل الذى ذاع صيته وقوته وسلطانه وجبروته يوم أن كان فى سدة الحكم : كل ذلك أصبح الآن فى عداد الذكريات ؛ وهاهو يرقد فى كفنه على عمق ياردة واحدة أسفل هذا الحصى والزلط ، ومكتوب على شاهد قبره كلمة واحدة هى "عبيد Abeyd ابن Bin الرشيد" . وعندما سألت ماجد ، "هل سيده عبيد العجوز" يرقد مرتاحا فى الأرض حاليا ؟" بدا صدى كلامى غريبا على أذنيه ؛ والسبب فى ذلك أن الناس فى هذه الأرض الفقيرة لا يدفعون النقود ثمنا إلا للأشياء التى يحتاجونها فى حياتهم ؛ ومن هنا يصبح رأيهم مثل رأى زوجة باث Bath التى مفادها ، "المبالغة فى الدفن نوع من التبذير" - وهم يقلدونها أو على العكس من ذلك يتبعونها فى ترفها . والناس هنا يقولون لمن يموت "خلاص" ! Khalas بمعنى "لقد انتهى أجله" ، وهم يطوون تلك الذكرى الأليمة بشيء من الحكمة ودون مبالغه فى الحزن .

فيما بين المقبرة وبوابة المدينة هناك مَنْزِلٌ صغير يُقيم فيه بعض البدو المستقرين . وهم يعتمدون على إحسان القصر ؛ وبالرغم من مظهرهم البائس إلا أن البعض منهم من أقارب الأسرة المالكة . وهم يقيمون سورا من الطين من حول خيامهم من الخلف ، والبعض منهم لديه غرفة (قصر) مسقوفة بقماش الخيام ، أو برج منخفض داخل المبنى الطينى نفسه . هؤلاء البدو من الشُّمر ، الذين يرسلون ماشيتهم القليلة مع أبناء قبيلتهم كى ترعى فى الصحراء ؛ هؤلاء البدو المستقرون ينتقلون إلى الصحراء فى شهور الربيع ، لينعشوا أنفسهم بموسم الحليب الذى يستمر فترة قصيرة ، وبينما كنت أمشى بجوار تلك الخيام ، نادتنى امرأة من خيمة مهلهلة ، هى الأكبر من بين كل هذه الخيام ؛ "هل لدى دواء لالتهاب العيون وتورمها ؟" وقالت لى من خلال حديثها أن أختها كانت زوجة للأمير متعب وأنها كانت "عمة" محمد الأمير الحالى . وقالت إن أولادها

هربوا فى زمن الاضطراب وما زالوا يعيشون فى الديار الشمالية . وعندما أتت هذه المرأة على ذكر اسم الأمير راحت تتكلم همسا - وتركز بصرها على القصر ، مخافة أن يحمل الهواء كلماتها على جناحيه ويذهب بها إلى أذن الأمير . كانت تقف إلى جوار هذه المرأة ابنتها الياقعة بدون حجاب ؛ ربما كانت تلك الابنة غير متزوجة ، إضافة إلى أن المسلمين لا يغارون من النصرانى أو يحسدونه . كان خدًا الصبية يتوردان ، وأنا لم أرى مثل هذه البشرة من قبل فى امرأة بدوية ، لأنهن كلهن واهنات وشاحبات ، أما هذه الصبية فهى مختلفة ويبدو أنها تربت فى الديار الشمالية الغنية بالغذاء والطعام . عدت خيام هؤلاء البدو المستقرين فوجدتها ثلاثين خيمة ؛ كانت هناك خمس عشر خيمة أخرى بالقرب من بوابة قفار ؛ وهذه الخيام أقامها بعض من بدو الشمر شبه المستقرين ، ولكنها لم يكن حولها بنايات من اللبن .

ملحق الجزء الأول^(*)

[الملاحظة التالية القيمة هي بقلم مؤلف كتاب "سوريا الوسطى" ، ولم تصلني في الوقت المناسب كي أضممها لهذا الكتاب في المكان المخصص لها بعد الفصل السادس].

عمارة الأنباط المنحوتة في مدائن صالح . ملاحظة : بقلم أم M ماركيز فوج (عضو المعهد) .

فنشال ، ٢٤ يناير ١٨٨٦

أنت تطلب مني يا سيدى أن أعطيك رأى في أسلوب الآثار التي اكتشفتها ، والتي كلفتك مجهودات كبيرة ومخاطر جسيمة . سؤالك يحتضنني قليلاً : أنا في "مادير" ، بعيداً ، منذ ما يقرب من عام ، عن كتبي ومذكراتي : لم أستطع أذن سوى كتابة تذكريات : التأمّلات التي أوجحتها لى رسوماتك سوف لن يكون لها الانتشار الذي كنت أحب أن أعطيه لها : إننى أوجهها لك مع ذلك ، على أمل أنها سوف تكون نافعة لك .

الفائدة الرئيسية لمجموعة مقابر "مدائن" - صالح تكمن في تاريخها : فهي تقدم إذن قاعدة غير قابلة للنقاش لتقارب الآثار . كل هذه الآثار نفذت في القرن الأول من عصرنا ، وبالنسبة لأغليبيتها ، فقد بنيت في النصف الأول من القرن نفسه . فلهم وحدة شكل بارزة . ونرى أنهم قد صنعوا في نفس الزمن من فنانين من نفس المدرسة .

(*) ورد هذا الملحق باللغة الفرنسية وقد ترجمته السيدة أسماء درويش مديرة مدرسة ليسيه الحرية الفرنسية ، في شارع الهرم ، محافظة الجيزة - جمهورية مصر العربية .

يمتلكون عدداً قليلاً من النماذج . يمكن أن نندهش ، لأول نظرة ، أن منطقة سكنت قديماً لا تحتوى على آثار على طول وجودها ، إذا لم يكن هذا العمل عاماً . إن سوريا وفلسطين ، وبالرغم من الحضارة القديمة جداً فى هذه البقع ، لا تحتويان تقريباً على آثار تسبق العصر اليونانى : فيما عدا بعض الاستثناءات ، وهى المقابر العديدة ، المنحوتة فى الصخرة ، والتى تشق جميع جبال هذه المناطق ، هى لاحقة للإسكندر ، وأيضاً لاحقة إجمالاً للمسيح . هذا هو الأقل رأياً ، والآثار التى اكتشفتها تعطى تأكيداً جديداً .

إن الشكل الإجمالى لهذه المقابر ، هو شكل برج نصف مجوف ، فى سطح الصخرة : وفى قاعدة البرج باب يؤدى إلى الحجرة الجنائزية : سطح البرج مقسم إلى عصابات أو أفاريز التى تفقدها التشابه : القمة متوجة بنوع من التحيزات منحوتة على شكل مدرج (سلم) وبعض واجهات هذه الأبراج مزينة بعصادات :

وهذا العدد الصغير ؛ من رسومك تشير لذلك ، خاصة أربعة منها تستحق التوقف بعض الوقت : وهى الآثار التى تأتى واحدة منها من "برج" والأخرى من "قصر البنت" واللذان ذكرتا فى ص ١٤٥ و ص ١٤٦ من كتابك . ثم الآثار التى ذكرت تحت اسم "بيت آخرائمت" (ص ١٥٥) ومحل المجلس ص ١٥٧ .

الأول مزين بعصادتين تحملان une aichitiave وإفريز ؛ والركائز (الدعامات) كان يجب أن تتوج بأعمدة كورنثية (على الطراز اليونانى) ولكنها بقيت بلا استكمال: اكتفى النحات بترقيقهما : فقد وضع فى قاعدتهما حلقات لصنفيين من ورق أبو اليهود ، - وفى زواياها العليا بروزين للحلزون والأوراق التى يحملونها : وفى وسط Pábaque ، يوجد بروز لزخرفة الورد . إن الزخارف الطولية (الكرائيش) لا architave مقتبسة من الفن اليونانى ؛ الإفريز على العكس فهو يحاكي الإفريز المصرى ؛ أما ما يخص التحيزات أو أعلى البناء فهو مقتبس من مقابر بترا ، فهى تبدو وكأنها تذكرة للفن الآشورى . زخرفة الباب على نفس الطراز المهجن : الأعمدة التى على جانبها كورنثية ، غير مستكملة : lárchitave يحاكي dorique الخاص بالعصر الأدنى — .

إن مدخل المبنى فهو يحاكي الأيونية des acrotries لا شكل لها تزين زوايا مدخل المبنى والذي يعلوها شكل مغلف لنسر .

إن الرسم الذي أعطيته (.....) له نطاق واسع ، لباب مشابه ، يسمح بالتقدير الكامل لخاصيته .

Les tuglyphes والورود على الطراز الذي سنطلق عليه اسم توسكان ، إذا كان التاريخ والمكان لا يستثنى أى تدخل من المعمارين الرومان . ويجب الرجوع إلى بيت المقدس ، وإلى مقابر وادى جوزافات ، حتى نجد شبيهاً لها .

المقبرة الثانية هي لقصر البنت ، وهي تقريباً شبيهة بالسابقة : eárchittiave أكثر تكاملاً ويعلوها إفريز : ولكن التفاصيل مشابهة تماماً : تيجان الأعمدة لم تستكمل .

إن الآثار التي تطلق عليها محل المجلس وبيت أخرائيمات لا تختلف عن الأولتين سوى بالمقاسات الأكثر كبراً وثراءً . إحداها بها أربعة دعائم (ركائز) وتتابع من الدعائم ؛ والأخرى بها نظامان من الركائز (الدعائم) وباب مزين كثيراً : ولكن الطراز مشابه تماماً ؛ وهم متساوون من حيث أنهم غير مستكملين .

إن التكوين الداخلى لهذه المقبرة مشابه لوضع الآثار فى سوريا وفلسطين : غرفة جنازية منحوتة فى الصخرة ، وبها فتحات لاستقبال الجثث : الفتحة منحوتة فى أرض الغرفة أو فى الجدران الجانبية ، موازية لهذه الجدران : كل هذه الأشكال توجد فى سوريا وفلسطين : ولكن مقابر هذه المناطق تحتوى بالإضافة لذلك على شكلين لا نراهم هنا ، على الأقل فى الآثار التي رسمتها : وهذا هو الشكل المسمى أوكوزوليوم والمنتشر جداً فى شمال سوريا ، والأفران عمودية على جدران الصخرة وهي كثيرة جداً حول بيت المقدس . ومع ذلك جميع هذه الآثار هي من نفس العائلة . والفتحات تحمل نقوشاً لدائن صالح ، اسم جوخ والقريب جداً من كلمة كوك والتي كان اليهود يطلقونه عليها .

إن الأثر الوحيد غير الجنازى من بين هذه المجموعة هو الذى يسمى بـ "الليوان" .

وهو كهف صناعى ، مفتوح من الخارج برواق قد تهدم اليوم وكان يستخدم كمكان للصلاة ؛ إن النصب التذكارية العديدة والمنحوتة فى الصخرة لا تترك أى شك

لهذا الموضوع : واحدة منها بها نقش تقرأ عليه اسم مسجدة . وهى من خصائصه ، وأنه أصبح كلمة مسجد . بنى الكهف بعناية : يحيط به إفريز من الداخل ، ودعامات تزين الزوايا والكل مكون من عناصر يونانية . إن التفاصيل التى رسمت على الصور ٢٨ ، ٤٠ ، ٤١ من نشرة الأكاديمية وهى أيضاً مقتبسة من الفن اليونانى ؛ ولكن يمكن أن نقول أنها تحاكي آثار العهد القديم : أعمدة متزاوجة ، الأقواس سواء فارغة ، أو ركيزة على les aichivages أو عضادات وهى أشكال تعودنا أن نعتبرها كعمل مهندسين معماريين رومان : آثار بترا كانت قد هزت هذا الرأى ؛ ولكن بما أنها لم يؤرخ لها ، فالنقاش كان مسموحاً ؛ بينما فى مدائن صالح وجود تواريخ تتحدى كل هذا الخلاف .

وباختصار ، الآثار التى اكتشفتها تؤكد ما عرفته دراسة آثار بترا وسياء ، فى الحوران ، وأيضاً علم السك ، وهو وجهة نظر الفن الملكى النبطى كان قد أدخل من اليونان : الفنون السابقة لآسيا كانت ممثلة فى بعض الأنكار . كان الفنانون نبطيين ؛ إن من سياء وبترا . كانوا ذوى مهارة حقيقية ؛ أما فى مدائن صالح فكانوا قاطعى حجارة يحفرون الصخر بقوة واتساع (وفسحة) ولكن لم يكن يعرفون نحت التفاصيل ؛ ولكى ينتهوا من أعمالهم فقد انتظروا بدون شك من بترا حفارين لم يأتوا بعد .

إن النماذج اليونانية المحاكاة من هؤلاء الفنانين الشرقيين تحتوى على أشكال عرفت بالانحطاط : ويجب أن نرد مصادر هذه الأشكال إلى ما قبل العصر النبطى وفى النهاية ، وعند محاكاة الآثار اليونانية كان الفنانون الشرقيون يخلطون الترتيب ، ويجمعون les triglyphes dosiques مع تيجان الأعمدة الكورنثية والأفاريز الأيونية وأيضاً مع الإفريز المصرى .

هذا الجمع المهجن الذى كان قد لوحظ فى المقابر التى تحيط ببيت المقدس ، توقف عن كونه استثناء : هو عمل عام يميز منطقة وعصر (نهاية العصر القديم وبداية الحديث) ؛ إن النقاش الذى أثارته آثار بيت المقدس قد أغلق نهائياً ، ولم تكن واحدة من أقل الخدمات التى قدمتها باستكشافك الشجاع وهو أنك قد خلصت علم النظريات النزوية التى أربكت بعض العقول .

تفضل سيدى بقبول التعبير عن أخلص الحب والمشاعر .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى: حسن كامل